ج المحالة الم

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى

د. جورج ايبرس

نقلها إلى العربية

محمد مسعود

أبجئ زء الأولت والشكاني





وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء في ماضى الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة، فيحس إذ يتلوها كأنه يحيا بحياة المعريين في عصر رعمسيس الثانى، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المعرية في العلوم والفنون والأدب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنونية، ويلم بالاسباب التي علت بهم فوق شعوب الأرض طرا في زمنهم.

ابرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى الدكتور ايبرس الألماني

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة محمد مسعود

الجزء الأول

مَكتَ بَدْ مَدَابُولِي

لترجم وردة مصر

معارج الفلاح

كتاب عصرى هو للطالب المقبل على الحياة العملية مرشده إلى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها، ولرب الأسرة قائده إلى تنظيم شؤون الأسرة، وللتاجر رائده إلى ترويج تجارته، وللصانع هاديه إلى إتقان صناعته، وللقارىء بوجه عام الناصح الأمين والجليس الذي لا يمل.

وسائل النجاح

كتاب عصرى يبحث في طائفة من الفضائل، التي إذا راض المرء نفسه عليها وأخذ بما احتوته من المبادىء القويمة والإرشادات النافعة كفلت له الفوز في الحياة وبلغت به إلى السعادة المتمناه.

المرأة في أدوارها الثلاثة

كتاب عصرى ف آداب المرأة وواجباتها وحقوقها في جميع أدوار حياتها نحو أعضاء أسرتها ونحو غيرهم ممن تخلطها بهم روابط المعاملات في الحياة.

الاقتصاد السياسى لجيفونس

هو خير مصنف في هذا العلم بإجماع الآراء، لأنه يزجى قواعده وأصوله إلى ذهن القارىء بدون أن يلقى عناء في تفهمها.

بسم الله الرحمن الرحيم

حامدا ومصليا

أما بعد فهذه هي «وردة» قد تفتقت عنها أكمامها، لامعة الرهرة رائقة النضرة متلألئة الغرة فتانة الحسن للناظرين، أهديها إلى شبيبة مصر النابهة التائقة منذ سنوات إلى استنشاق رياها الأرج النازعة إلى الانتشاء بشميم عرفها الطيب، فقد تواردت على رسائلها في إعادة نشرها، مبالغة في هذا الطلب بما لم أجد معه مناصاً من الإجابة، فسلخت نحو العام في تعهدها - تهذيباً وتشذيباً - حتى غدت بجزالة لفظها أشرف جوهراً وبحسن ديباجتها أجلى مظهراً وبجمال رونقها أكثر طلاوة منها في نشرتيها السابقتين. ولست بكاشف اللثام عن فوائد «وردة مصر» ومايزخر به بحر حوادثها القصصية من الحقائق التاريخية، فإن ذلك ليس بالسر المكتوم، وقد سطع شذاها بالنقل والترجمة في لغات الأمم المتحضرة جميعاً التي يحج أسرياؤها وعلماؤها من أقاصى العالم إلى مواطن حوادث «وردة» في طيبة الأموات وطيبة الأحياء. ولكنا إذ نتعرض لشيء من أمرها نجتزىء ببيان الظروف التي حدت بمؤلفها الفاضل إلى تأليفها.

كان الدكتور جورج إيبرس مؤلف رواية «وردة مصر» من أكابر علماء اللغة المصرية القديمة، وهو عند الألمان في منزلة مارييت وماسبيرو عند الفرنسيين. ولقد هبط مصر في أخريات سنة ١٨٧٢ للبحث في آثارها، وقضى الشتاء منقبا بين مقابر

الفراعنة بأطلال طيبة، فوفق للعثور على بعض الأساطير المدونة فى أوراق البردى. ولما أكب على درسها لاستكناه أسرارها تراءت له بعض حقائق تاريخية لم تكن برزت بعد إلى عالم البحث، فوجدها صالحة لأن تكون أساساً وطيداً لقصة غرامية رائقة المعنى، فوق ما تمتاز به من صفة الفائدة التاريخية الجزلة. وكان مما سهل عليه تحقيق أمنيته أنه من أفذاذ الشعراء الألمان الذين يشار إليهم بالبنان في براعة النظم وجلال المعانى المستمدة من لطف المشاعر وصفاء العواطف، فأعانته هذه الصفات على وضع خطة شاملة لقصته حدد فيها أقسامها وضبط حوادثها، حتى إذا تم له الأخذ بأطرافها وارتسم في مخيلته هيكلها عول على سبكها في قالب التدوين والتحرير.

وكان ذلك عقب عودته إلى موطنه، فصدت أن حال بينه ومراده أن وصوله إليها كان مقترناً بأعراض اعتلال البدن وضعف القوة، فأشار الأطباء عليه بالراحة والإمساك عن كد الفكر وإجهاد العقل ريثما يبرأ من مرضه. ولقد لبث ثلاث سنوات وصالا لايتراءى له -وهو طريح الفراش- سوى طيف وردة وما استشفه خلاله من قد رشيق وحسن أنبق، واستوضحه من خصال شريفة وشيم كريمة. ومازال هذا دأبه تلكم السنوات الطوال حتى أذن الله له بالإبلال من مرضه (عام ١٨٧٦). وكانت وردة قد تفتحت أكمامها في ذهنه وارتسمت صورتها طبق ما أراد لها في مخيلته، وما بقى إلا أن يصوغها في القالب الذي هم بأن يفرغها فيه عندما ثاب إلى وطنه فصده المرض طول ذلك الزمن عن تحقيق أمنيته.

وكان ايبرس، فوق عبقريته في الشعر ونبوغه في التأليف والتصنيف، صاحب إرادة قوية وعزيمة ماضية وهمة عالية. فإنه ما ترك فراش الألم والسقم إلا للقرطاس والمداد والقلم. وكانت إلى جواره جنة ذات أشجار باسقة ومياه دافقة وأزهار مونقة، فانتحى من هذه الروضة مكاناً قصياً ليزجى بنفسه في تيار الأفكار والتأملات.

ومن ثم دبج ببراعة هذه الرواية متراجعاً بالقارىء فيما انقرض من أحقاب الدهر إلى تلك العصور التى خلدت ذكراها مدنية بان شأوها على سائر المدنيات الكبرى المعروفة – وتشرف به من قمة التاريخ فيحس – إذ يتلوها – أنه يحيا بحياة مصر لعهد رعمسيس الثانى ويرى بعينيه ويدرك بعقله معجزات تلك الحضارة في العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتها الحربية وأنظمتها الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارها الكهنوتية وحكمتها التى ساست بها البلاد في آسيا وأفريقيا، بين حدود فارس وخط الاستواء، ويلم على الجملة بمجمل الأسباب التى علت بها فوق شعوب الأرض طراً في عصره والبواعث التى هوت بها فيما بعد إلى الدرك الأسفل من الحضيض.

على أنه للوقوف على قيمة هذه الرواية من جهة البحث العلمى الخصيب الذى ساق مؤلفها إلى تدبيجها، لا أرى خيراً من أن أعرض على القارىء ما خطه بقلمه فى هذا الصدد، إذ قال:

« في شتاء سنة ١٨٧٣ قضيت بضعة أسابيع في إحدى مقابر طيبة، للبحث في أطلال هذه المدينة العظيمة، مدينة الأموات. وفي خلال رحلاتي الطويلة بالصحراء نبتت في ذهني الفكرة التي عليها بنيت هذه القصة. وقيض الله لى – خلال مرضى الطويل – فراغاً كافياً وذهناً صافياً وقفتهما على تدبيجها وتنسيق حوادثها.

« وكنت انتويت في مستهل الأمر أن أذيل القصة بمذكرات مفصلة، كما فعلت في قصة الأميرة المصرية. ولكنى عدلت عن هذه الفكرة حينما لاح لى أنها سوف تؤدى إلى تكرار كثير مما وعته— في روايتي الأولى— تلك المذكرات التي أردت بها أن تكون شرحا لما استعجم فهمه في متن الكتاب ودليلا على العناية التي حاولت أن أصور بها التفاصيل التاريخية والأثرية نقلا عن المراجع الخاصة بها، راجياً أن يجد القارىء البحاثة فيها ما يرشده في مباحثه عن ذلك العهد، إلى معلومات أبعد غوراً وأجل خطراً.

«أما قصتى هـذه، فلى أن أجهر بأنني لم آت فيها عن مصر وعن عهد رعمسيس الكبير بمعلومات يتعذر إرجاعها إلى مصدر من المصادر. ذلك لأن الأثار المختلفة التي خلفها لنا المصريون منذ ذلك العهد القصى تمكن الباحث من الوقوف على كثير من وجوه الحياة المصرية ونظمها. وقد أصبح من السهل تتبع تفاصيلها خطوة خطوة، بل الوقوف أيضاً على كل ما يتعلق بحياة أفراد معينين بالذات. ومن ثم يرى القارىء أن هذه القصة ظاهرة المعنى واضحة الحجة في جميع أجزائها، وأن لا حاجة للرجوع إلى شرح واقعة من وقائعها.

« وأساس القصة هو حديث لهيرودت انتهت إلينا منه بعض أساطير تحملنا على التسليم بأن حكاية الخيانة التي ارتكبها النائب عن الملك – والتي رواها لنا أبو التاريخ – ترجع إلى عصر رعمسيس الثالث، لا الثاني، وأنه لاشك في أن ذلك المؤرخ لم يتصل به الخبر الصحيح. على أنني سأقدم للقارئء صدورة من عصر سيزوستريس الذي وقعت فيه حوادث القصة، مراعيا في ذلك إظهار الحقيقة قدر الاستطاعة. ومن الحق أن أذكر أنني، لأجل الوصول إلى هذه الغاية، لم آل جهدا فيما

يمكن البحث عنه من الآثار وأوراق البردى. ولما كانت هذه الرواية من باب القصص والخيال الشعري -قبل أن تكون بحثا تاريخياً- فقد جعلت لتصوير أشخاصها ووصف عواطفهم ومشاعرهم المختلفة المحل الأول، ولم تكن للحقائق التاريخية فيها غير أهمية ثانوية.

« ولديّ ملحوظة أخرى، وهي أننا اعتدنا- لدى دراستنا الفن المصرى القديم-أن نتخيل سكان وادى النيل في زمن الفراعنة قوما طوال القامة نحيلي الجسم، وأن ليس بين أفرادهم فروق أو مميزات. وهذا راجع لما كانت تستدعيه أصول الفن المصرى القديم من ضرورة التناسب والتماثل في جنئيات معينة. ولكن خطأ هذا التخيل ظاهر من أن المحريين كانوا من أرقى الشعوب القديمة وأنشطها، ومن أن اتصالهم بغيرهم من الشعوب كان ضربة لزام، فمن الخطأ تمثيلهم ف أحوالهم المعيشية بما يمليه علينا مرأى تلك الأوضاع المنقوشة على جدران هياكلهم ومعابدهم. فإن الأوضاع إنما تعمد منشئوها إبعادها عن مواطن الحقيقة بقدر ما أرداوه من المحافظة على أصول التناسب والتماثل المقدسة عندهم، وأن على من يريد التزام جانب الصدق في تصوير قدماء المصريين أن يحل تلك الأوضاع التقليدية من القيود الخاصة بفنهم، والتي هي بعيدة كل البعد عن حقيقة حياتهم. وهناك بعض الآثار من عهد الهرم الأول تمثل القوم على حقيقتهم دون التقيد بالقيود الدينية المقدسة. ومن السهل أن نستعيد لذاكرتنا تمثال «قاضى القرى» المعروف بتمثال شيخ البلد والموجود ف المتحف المصرى، وتمثال «الكاتب» الموجود ف متحف باريس وتماثيل أخر مصنوعة من البرونر في متاحف متفرقة، فإنها جميعا تنطق يعظم الفروق الجثمانية بين أفراد المصريين القدماء وما يتبع ذلك من الفروق الخلقية. وهنا يظهر جليا واجب الكاتب الذى يريد تصويرهم، فإن عليه أن لايتردد في الأخذ بما يراه في حياة أناس العصر الحاضر وأحوالهم، بل أن ينتحل من صفات من يعيشون حوله نماذج واضحة لحياة أولئك القوم. ولا خوف عليه من أن يحيد بعيدا عن الحقيقة في تصويرهم، إذا هو ألبسهم روح العصر الذي عاشوا فيه.

«وقد وضعت هذا الرأى نصب عينى عنما أبرزت وردة إلى حيز الوجود. وهاأنذا أقدمها للعالم مسدياً أجزل الشكر لأصدقائى الأعزاء الذين جددت بينهم نشاط روحى ووجدانى في مقامهم الجميل المكسو بالخضرة السندسية والمجمل بطيور الغابات حيث أخط الآن آخر كلمات روايتى».

هذه هى الكلمة التى صدّر بها المؤلف روايته عندما أتم كتابتها في أواخر سنة الممارين القارىء أن القصة ليست من قبيل الروايات التى ترمى إلى التسلية وترويح النفس فحسب، بل إن لها غرضا أسمى وأبلغ، وأن لنا نحن المصريين في نهضتنا الحاضرة – أن نتخذ منها عبرة وذكرى. إذ نتبين من خلال حوادثه الطلية ما كان لنا منذ فجر التاريخ من شأن عظيم بين الأمم وجاه طويل عريض في أرجاء الأرض، فنعمل على أن يكون لنا منه ما ينهض بنا إلى أسنى المعالى وأشرف الرتب إن شاء الله.

ليبسان

لصاحب الإمضاء

أحسن القصص صحيحه وموضعه عا بنى على التاريخ أو على حوادث وأشياء لا يأبى العقل على الكاتب نسبتها إلى زمان معلوم ومكان معلوم وأمة معلومة.

ومن القصص المرضوع مايراد، بعد تعليم التاريخ بالذات في صورة التفكهة، بحيث تقرب مطالبه البعيدة إلى الأذهان، وأجل ما كتب تعينا لهذا الغرض في النصف الأخير من القرن التاسع عنثر قصة (وردة مصر) للعالم النصرير ايبرس الألماني، ضمنها كل ما يروق ذكره ويستغرب أمره من أخبار مصر إبان عهد رعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة مدرجاً في حواشي قصة ملققة تأخذ بالألباب فجاءت مرضية للعالم معلمة للجاهل سائغة المشرب للجميع.

على أن كثيرين من القصصيين قد حاولوا أن يتحدّوا إيبرس فأخفقوا سعياً وانتثرت أوراق كتبهم - لإهمال الناسى لها- كانتثار أوراق الأشجار التي لا تتعهد سقياً وتربية فتكسو منبتها بساطاً أصفر ذابلا، ولم تسلم فيه إلا (وردة مصر) فهى لم تزدد على الأيام إلا زهواً ونضارة.

ولا مشاحة فى أن تقدم علم الآثار المصرية منذ نيف على عشرين سنة قد أفضى إلى نقض أمور كثيرة مما كان العلماء يعتقدونه لعهد صدور (وردة مصر). غير أن ذلك لم يتناول إلا بعض الأعراض أما الجوهر فسليم يصبح أن يعول عليه من يريد مطالعة سيرة عصر من أعظم عصور الأمة المصرية، بما اجتمع فيه من الدلالة على

ماضيها الفخيم والإشارة إلى مستقبلها الوخيم تحت نير الرق وفي ظلام الطاعة المبنية على جهل ما يحق لسلانسان وما يجب عليه ، حاكما أو محكوما، وفي دينه ودنياه.

قرأت (وردة مصر) باللغة الفرنسية منقولة عن الألمانية ولم يدر في خلدى ان أقرأها بالعربية، فلم يلبث القدر أن أتاح لى رؤية عنوانها في المؤيد فتتبعتها فصلا فصلا إلى نهايتها، فكنت إذا أمعنت في الموضوع الذي أقرأه محيت الحروف من أمامي وزالت الصحيفة وهبط ستار الماضي، ورأيت طيبة الأحياء شامخة القصور بجانب طيبة الأموات باذخة القبور، هذه تزدحم بالأقدام وتعالت فيها غمغمة الأصوات بما لم تشهد مثله الشمس في ذلك الزمان ولم تسمع مثله أذن إنسان، وتلك ساكنة نائمة يلقى عليها القمر نوره الوسنان فترسل مقابرها الظلال الضخمة إلى أقصى ما يحيط به العيان. هذه تمثل اجتهاد الأحياء وتنازع الطبقات، وتلك تمثل سلام الرفات وتأخى الأموات.

ثم رأيت ما كان من مطامع ملوك، ومظالم ولاة، ودسائس كهان، وتحمل قوم صبر ذلل، كالنياق التى تركب إلى الرزق مرة وإلى الحرب أخرى، إلى ما يماثل هذه المشاهد التى لا يحيط بها إلا قلم كاتب بليغ أو رسام متقنن.

ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية – بما طبعت عليه من التزام الوصف الحق، ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى في شكل مألوف، ومن تصوير حركات النفس في كل حال من أحوالها – أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار، بحيث إذا أراد أديب منا أن

يحتذى مثالها فى ذلك، جلّ ما يعانيه وبعدت عليه الشقة قلم يتسن له إدراك أمنيته إلا إذا كان مجيداً عارفاً بأسرار اللغة مقلول رأس القلم رياضة ومراسا. فالذى سرّنى فى (وردة مصر) من هذا القبيل أننى قرأتها عربية كأنى أقرأها فرنسية وعجبت لما أوتيه معربها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكة الإنشاء الجامعة علما الراسخة متانة اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة فيها.

ولست هذا في مقام مدح وثناء، فإن صلتى بصديقى مسعود تقضى على بالجرى معه على القاعدة التى مقتضاها أن يكون حكم الأخ اعجاباً بأخيه حكم الأسير المقيد بيده ولسانه. فليكن ختام ما أذكره عن كتابه حث كل مصرى على اقتنائه. فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخران الكرام واقفاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب في جمعه له واهدائه إليه.

وإنه من الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التي لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها.

هذه وردتنا، فعلينا أن نتمتع من شميم عرفها، وإلا فلا عطر بعد وردة، ولا أمة مع جهل، وما أجدر طبية الأموات أن تكون عبرة لطبية الأحياء!

خليل مطران

الفصل الأول

وصف مدينة طيبة في ليلة صيف من سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد

يجرى النيل بالقرب من مدينة طيبة ذات المائة باب بين جبلين من الرواسى الشامخات، ينعكس خيال ذراهما العالية وسفوحهما المنحدرة على صفحة مياهه اللجينية، ويختال في مشيته وسط الوادى المحصور بينهما اختيال العروس في ثوبها الخزّ ليلة عرسها بين غادتين من صويحباتها.

وتمتد الصحراء فيما يلى الجبل الشرقى إلى حيث تتكسر بسواحلها أمواج البحر الأحمر، وتترامى القلوات الجرداء خلف الجبل الغربي إلى أقصى مدى تدركه الأبصار. وفيما بين هذين الحاجزين تنساب مياه النيل حاملة في قطراتها عناصر الخصوبة ومواد الخير الوفير الذي يدور عليه محور حياة ألوف الألوف من النقوس، وما الابليز إلا الذهب الابريز.

وفيما يلى حافتى النهر يمنة ويسرة تنبسط الأرض صعيداً، مهدتها يد القدرة تمهيداً. وفي مائه العذب الفرات تغدو وتروح ألوف الأحياء المائية، على اختلاف أشكالها وتباين أنواعها، ومنها التمساح الهائل الجثة فاغراً فاه على الدوام. وفوق أغصان البردى اتخذت الطيور أوكاراً وملأت جوانب الفضاء بتغريدها اللطيف. وعلى السطوح الممهدة من الأرض تترنح المزروعات بمعاطفها اللينة على قوائمها اللدنة، فيضالها الرائى —لاتصالها بعضها ببعض— بساطاً غير متناه من السندس الأخضر. وفي جهات أخرى تدور عجلات النواعير بقرب أشجار الجميز التي يشعر الجسم في ظلها بطراوة المياه المتدفقة منها، فترتاح النفس وينشرح الصدر وينكشف الغم.

في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يرى الإنسان حوالي مدينة طيبة – عاصمة ملك الفراعنة – هذه المناظر البهيجة فيعجب من عنايتهم بتنسيقها وتعهدهم إياها يصا يوجب دوام بهجتها. فإنهم أقاموا بينها وبين النيل السدود الضخمة لحمايتها من طغيان مياهه في أوان الفيضان وقسموها إلى أحياء، خصص أحدها –وهو الذي يبلى النيل من جهة السدود – للمعابد والهياكل المشيدة على أجمل هندام، والثاني ييلى النيل من جهة السدود – للمعابد والهياكل المشيدة على أجمل هندام، والثاني لقصور الملوك والأمراء، والثالث لمنازل الأهلين والعامة. وكان ماء النيل يجرى بين هده الربوع العامرة في سراديب ومسارب يحار العقل في وصف تشعبها وانعطافها وحصر عددها. وكانت الطرقات التي تتخلل هذه المباني الفخمة والقصور الباذخة لا يكف الناس عن الغدو والرواح فيها، فكانت حركتها الدائمة من دلائل توافر مثمر وط الحياة في تلك المدينة الجميلة.

وتجاه مدينة طيبة، على الضفة الغربية من النيل، كانت تناغى السماء مبان سمامقة منجدة متناء بعضها عن البعض الآخر، تحف بها أكواخ حقيرة كما يحف الأطفال بأمهاتهم. وكان الناظر إليها من قمة الجبل يخيل له أنها قصور الأمراء ودور الأغنياء تحيط بها قرى الفلاحين، أو من عرض السهل بدت لناظره منها أبواب متصل بعضها ببعض على خطوط مستقيمة متوازية. فكان أسلوب المبانى و نظامها وتشعب الطرقات بينها وحركات السكان فيها غيرها في مدينة طيبة. فهنا ترتاح النفس لحسن النسق وجمال الهيئة وازدحام الناس في طلب الرزق ومزاولة وتبتهج لوفرة دلائل الحركة والحياة وبواعث الفرح والانشراح، وهناك تنفر من قبح المنظر وعدم التناسق وقلة السكان ويتراكم لذلك عليها العناء، فلا عمرابة إذا لقبت هذه بطيبة الأموات وتلك بطيبة الأحياء.

على أنه بالرغم من هذا السكون المحزن كانت لا تمر هنيهة إلا ويطرق الآذان فيها صدى الألحان والأناشيد تردده الآفاق من بعيد، وينحصر في مجال النظر ومطارح أشعه البصر مشهد المثات من الزوارق يتلو بعضها البعض مـزينة بأجمل ما يلفت الأبصار من ضروب النقش والـزخرف ومتجهة صـوب الجبل في مظهر مـؤثر من الخشوع والشجو. ولكن لم تكن تلك الأغاني إلا مراثي وهذه المواكب إلا مراكب تقل جثث الموتي إلى حيث توارى عن العيـون، فإنا الله وإنا إليه راجعـون. نعم إن منظر طيبة الأمـوات يشجى النفس ويؤلم القلب لأن السكون نشر عليها أجنحته، إلا أنها كانت لا تخلـو من حركة تجارية فيما تستوجبه حالة الموتي من مقومات العناية بهم. فقد عـرف المصرى في العصور الخالية باعتبار الموت طوراً من أطـوار الحياة وأن الأموات أحياء لا محالة على حد قول بعضهم:

فبكونى إذا راونى حـزنـــا	قل لإخوان راوني ميتاً
لست ذاك الميت واللــه انــــــا	اتظنسون باني ميتكم
كان سجنى وقميصى زمنسا	انا عصفور وهذا قفصى
هـ و إلا نقـلة مـن ههنـا	لا ترعكم هجمةالموت فما
لحياة هي غايات المنسي	لا تظنوا الموت موتاً إنــه

يحتضر المصرى فيطبق آله جفنيه ويرسلون جثته إلى المحنط فيعالجها بمضادات العفونة، ثم ينقلونها إلى شاطىءالنيل فالقبر المعد في الجبل لدفنها، ويقومون بعدئذ نحوه بسائر الفروض الجنازية، ولكنهم يعتقدون أن الروح إذا زايلت الجسم تبقى على قيد الحياة وتوشك أن تحل في صور شتى أو تجيب دعوة أوزريس إلى مصاحبتها إياه في سفينة الشمس أو تهبط الأرض لمشاطرة الأرواح

نعمة القيام بأجساد الأحياء. ولقد رسخ هذا الاعتقاد فى أذهانهم رسوخاً جعلهم يضاعفون العناية بتحنيط جثث الموتى لصونها من الفساد عملا بالأصول القاضية بتقديم القرابين عنها من اللحوم اللذيذة والروائح الزكية والأزهار النضرة والفواكه اليانعة.

وكان لا يد تقل بدفن ميت ولا تُقدّم بعد وفاته القرابين للتكفير عن سيئاته إلا على أيدى الكهان. ولذلك كانت طيبة الأموات محط رحال العلماء وسدرة طلاب العلوم العالية. وكان لهم فيها بيوت يقيمون بها حول الهياكل، كما كان لطائفة المحنطين الذين يتوارثون أسرار صناعتهم عن الآباء والأجداد منازل خاصة تحيط بمعامل التحنيط. وكانت الصناعات بها تنحصر في عمل التوابيت من الحجر أو الخشب، ونسج الأكفان التى تدرج فيها جثث الموتى، ورسم صور الأحجبة والطلسمات الواقية من المكاره، كما كانت التجارة بالحوانيت وعلى أعطاف الطرقات مقتصرة على صنوف الأزهار والقواكه والروائح العطرية والفطائر المقدسة.

وكان من العادات الشائعة أن يتعهد زوار المقابر مايقدمونه من الوف الحيوانات— قرباناً باسم الموتى— كالبقر والماعز والغزلان والأوز— بالعلف اللازم، ثم يأتى الكهنة فيختارون منها ما يقدرون على تطهيره من الدنس ويسمونه بالميسم المقدس ثم يستاقونه إلى المعبد للقربان. وكان العاجز من عامة الناس وغوغائهم عن اقتناء ماشية يقربها باسم موتاء يشترى من القصاب قطعة لحم أو حيوانات الحية مصطنعة من دقيق الحنطة ومبرقشة بالألوان الزاهية لتقوم مقام الحيوانات الحية التي يقربها الأغنياء والكبراء.

وكان اتباع الكهان يبيعون في حوانيتهم المزخرفة ملفات من ورق البردي المسطر

فيه بعض الدعوات المقدسة، تسوضع مع الموتى في قبسورهم لتعاونهم في ظلامها الدامس على الخلاص من حبائل الشياطين ويستفتحوا بها أبواب السموات السفلى حيث يجلس أوزريس على منصة العدل وإلى يمناه ويسراه اثنان وأربعون قاضياً يتالف منهم مجلس العدل في باطن الأرض.

وكان الأهلون يجهلون ما يقام فى الهياكل من الطقوس الدينية؛ فقد أحيطت بسياجات عالية ذات أبواب لا تفتح إلا للكهان، كلما خرجوا فى شروق الشمس وغروبها إلى الخلوات أفواجاً متتالية، يترنمون بالأناشيد الدينية تعظيما للإلهين هوروس وطوم (١).

وكانت المقبرة -عند الفراغ من ترنيم المساء- تخلو من الغادين والرائحين. لأن زوار القبور كانوا -متى انقطعت أصوات النشيد- يسرعون بالفيئة إلى الشاطىء حيث تنتظرهم الزوارق فيستقلونها إلى طيبة الأحياء وكانوا يتسكعون أحياناً فى الطريق فيطاردهم الحراس المنوط بهم حراسة القبور ووقايتها من عيث اللصوص فيهرولون جماعات وشتى إلى ضفة النهر ويتهافتون على استقلال زوارقهم للعودة إلى منازلهم.

وكان التجار يغلقون حوانيتهم والمحنطون يرجعون إلى أكواخهم الحقيرة والكهان يوصدون أبواب الهياكل والأجانب الذين أقبلوا من الأنحاء القاصية لزيارة موتاهم ينزلون بالفنادق ودور الضيافة المشيدة على ضفة النيل، مؤثرين التماس الراحة بجوار الموتى على عبور النهر لقضاء الليلة في طيبة الأحياء التي لا تلبث جلبة (١) يشبه قدماء المريين حياة الإنسان بالشمس في مسيرها، فشروقها رمز للطفولة وتسمى فيه «هوروس»، وبلوغها الأوج رمز للفتوة وتسمى عنده «رع»، وأفولها رمز للشيخوخة والهرم وتسمى فيه «طوم».

لناس فيها أن تمحو من النفوس ما انطبع فيها من الأثر المحمود خلال زيارة القبور.

خفتت أصوات المرتلين وانقطعت ولولة الثكالى وسكت نوتية الزوارق بعد إذ كانوا يملأون الفضاء بنشيدهم المنضود وغنائهم المعهود، وكان النسيم بعد ذلك يحمل إلى السامعين صدى أصوات بعيدة، ولكن لم تمض هنيهة حتى نشر السكون أجنحته فوق ذلك المقام، دليلا على إدبار جيش النهار أمام جيش الظلام.

وكانت طيبة الأموات في هذه اللحظات كقفر لا ديار فيه ولا نافخ نار، يكدر صفاء أديم سمائه خيال الخفاش يلتمس بتحليق فيها ضفاف النيل، فإذا ما بلغ إليه وارتوى بمائه العذب الفرات عاد إلى وكره في حنايا القبور وزوايا الصخور.

وربما شهدت العين أحياناً ظلال أشباح تمر على الشرى مرور الطيف، فإذا بها ظلال بنات آوى تتسلل إلى النهر بحركتها المعروفة يتبعها أمثالها، ثم تعود اسرابا شتى للوثبة على الأوز والماعز وما إليهما من الحيوانات التى أودعها أقارب الموتى الحظائر المسورة للتقرب بها إلى الآلهة تكفيراً عن ذنوب موتاهم.

ولم يكن أحد ليجسر على صدّ تلك الضوارى عن هذه الحيوانات الداجنة الأليفة، لأن الديانة المصرية كانت تحرم مطاردتها بحجة أنها قد فازت بالقربى من الإله أنوبيس حارس القبور وحافظ الموتى من عبث الأشقياء والنباشين والمرشد لأرواحهم في الآخرة، ولأنها كانت إذا امتلأ بطنها بما تجد بجوار القبور من لحوم القربان لا تمس بأذى أحداً من سكان طبية على الإطلاق.

وكان أقارب الموتى، إذا زاروا القبور فلم يجدوا بجانبها لحوم القرابين، يطيرون فرحاً ويتهللون بشراً لاعتقادهم أن آكليها إنما هم أرواح موتاهم، فيبادرون بتقريب

غيرها وهكذا. وكان لايعلم الحقيقة إلا الكهنة الذين توسلوا ببنات آوى لجلب القرابين واتخذوها حارساً أميناً للقبور، فكانت تناهض النباشين كما يناهض الكلب الأمين من يريد الغدر بصاحبه.

...

أسلفنا أنه في تلك الليلة من ليالي صيف سنة ١٣٥٢ قبل الميلاد كان السكون قد خيم على طيبة الأموات حين أتم الكهنة ترتيل أناشيدهم وعاد الحراس إلى مساكنهم، بعد أن جاسوا خلال الديار وطافوا بالقبور واطمأنت قلوبهم لغياب الدخيل. ولكن لم تمض بعد ذلك ساعة حتى سمع من شمال المقبرة هرير كلب من كلاب الليل لم يلبث أن انضم إليه ثان وثالث ورابع وتضاعف العواء، فهب رئيس الحرس من مرقده ونادى برجاله هلموا نستطلع الخبر. وبعد أن عين مصدر النباح أمرهم بالمسارعة إليه، فساروا. وكانوا كلما دنوا من المكان علا الهرير فمازالوا يقتربون حتى وصلوا إلى ربوة رأوا من أعلاها جهة الضوضاء فانقضوا كالأسود الكاسرة وسارعوا إليها فوجدوا الكلاب النابحة على مقربة من أعمدة هيكل سيتى الأول بن رعمسيس الثاني صاحب البطش والقوة ، القابض في ذلك الوقت على زمام الأحكام

000

وكان القمر قد علا على الأفق وأنفذ أشعته اللجينية إلى جميع المطارح فأنارت قمة ذلك الهيكل المنجد، وتراءى للأعين وقتذاك جمع حاشد من العبيد وقوفاً بجوار جدرانه الوثيقة وبأيديهم المشاعل يتصاعد منها الدخان كثيفاً، وخلله وميض النار. وكان رجل قصير القامة بدين الجسم منزركش الثياب مهيب المنظر يدق بمقبض

سوطه باب الهيكل، وطائفة من الحشم والخدم حوله، وعلى مقربة منها محفة مرفوعة على الأعناق وفيها امرأة، ثم مركبة يجرها اثنان من الجياد الصافنات تحمل غادة هيفاء القد بارزة النهد، وإلى جانبها رجل تبدو عليه آيات المجد والشرف، وقد التزموا الصمت جميعاً بينما كان الواقف بباب الهيكل يطرقه بمقبض سوطه فردد الجوصدي طرقاته الشديدة.

وكان الوقوف متجهين جميعاً صوب باب الهيكل المقدس، لا يستطيع أحد أن يميزهم بعضهم عن بعض لاضطراب الضوء. فلما أطلّ بواب الهيكل من الكوة التى تعلو الباب تمكن بضوء القمر والمشاعل من معرفة أن الطارقين من أصحاب المراتب الشريفة والأقدار العالية، وأنهم ربما كانوا من أعضاء الأسرة المالكة، فسأل الطارق عما يريد. فرفع هذا رأسه رويدا رويدا، وقال بصوت جهورى فزع الواقفون منه وانتقضت لسماعه المرأة التى في المحفة: حتى متى ننتظر بالباب أيها الكلب الكسول. انزل أولا وافتح الباب ثم تكلم. وإذا لم يكن ضوء المساعل كافيا لتستوضح من نحن، فسيكتب لسان هذا السوط أسماءنا على ظهرك فتعلم كيف تستقبل الأمراء.

فهبط الرجل وتبرطم متلعثما بكلمات لا يفهم معناها والتفتت السيدة التي في المركبة إلى رفيقها الطارق على الباب وقالت له بصوت خافت: أنسيت يا (بعاكر) أنك بمصر وأنك لا تخاطب متوحشى الشازوس (١) بل كهنة يجب لهم الاحترام، لاسيما وأننا جئنا إلى هنا في طلب معونتهم ونجدتهم؟.. لقد تواترت شكايات الناس من غلظ كدك وخشونة طبعك وكان لزاماً — إذا كانت الإساءة ديدنك – أن تعدل عنها هنيهة

⁽١) قبائل شرق مصر، وكانوا معروفين وقتئذ بالسلب وقطع الطرقات.

حتى نقضى الحاجة التي لأجلها طرقنا هذا الباب،

فاهت الأميرة بهذه الكلمات بصوت كان له فى قلب بعاكر أشد الوقع، فانحنى أمامها إشعاراً بالطاعة والخضوع، ولكن عقارب الغيظ دبت إلى قلبه فرفع بالسوط يده وألهب به أحد الحبشان الواقفين إلى جانبه، فتلوى جسمه تلوّى الثعبان ولم يسمع أحد له أنيناً لعلمه بطباع مولاه وأنه لو أنّ أو شكا لأشبعه ضرباً وأوسعه هماً وكرباً.

وما فتح باب الهيكل حتى برز منه كاهن في مقتبل العمر تدل هيئته على الرفعة وسمو المكانة واستفسر من القوم عن سبب حضورهم إلى هذا المكان أثناء العبادة. فتحفز بعاكر للكلام، ولكن ابنة الملك خشيت أن يبتدر الكاهن بغليظ اللفظ فقالت: أنا (بنت أنات) كريمة رعمسيس وهذه الجالسة في المحفة (نيفرت) قرينة (مينا) الراسخ في الحسب والنسب وأحد أعيان المقربين من والدى.. وقد كنت سائرة في هذا الجمع بالوادى الممتد غربي المقبرة أتفقد الأعمال ، وفي العودة صدمت مركبتي فتاة رائعة الحسن كانت تحمل وردا نضيراً يشبه خديها فانكفأت على الأرض وأصيبت بجرح أخشى منه الخطر على حياتها.. ولقد عنيت نيفرت بأمرها فضمدت جراحها ثم نقلناها إلى بيت أبيها (بينم)، من عمال المقابر الذين يشقون جثث الموتى ليحنطوها.

سأل الكاهن: وهل دخلت داره الحقيرة أيتها الأميرة؟

فأجابت: لقد كان هذا واجباً تفرضه على مقتضيات الحال.. ولست أجهل أن من يدخل ديار هذه الطائفة يدنس نفسه ولكن ..

فنهضت نيفرت من محقتها وقالت: قد تطهر بنت أنات من الدنس على يدك أو

على يد أحد كهان هذا الهيكل.. أما ذالته الرجل فيبقى طول حياته تعساً منحوساً ، إذ قد لا تشفى ابنته من جرحها الخطير قيقضى بقية أيامه في لهف عليها وشقاء.

قال الحاجب (بنبيزا) من رجال تشريفات الأميرة وخاصة المقربين منها: تبينت في طليعة الأمر أن غشيان دار المحنط يلحق الدنس بداخلها، فلما أبصرت ببنت أثات مصرة على دخول هذا الوكر اللعين الملوث بالادناس بذلت في نصحها كل مجهود ألا تدخل وأشرت عليها بالاقتصار على تقل الفتاة إليه وإتحاف أهلها بهدية ملكية سنية تكشف عنهم الغمة، فأبت إلا أن تنقذ إرادتها. قالت بنت أنات بصوت يكاد لايسمع: الحمد للآلهة على ما قدرته وقضت به. ثم تحولت إلى الكاهن وقالت: أيها الأب الجليل.. لقد علمت قضاء الآلهة وصاحبات عليه من الشغف بمساعدة الفقراء والمنكرين، وها أنذى قد يممت إليك راجية مبتهلة. فرفع الكاهن يده اليمنى وقال: أحسنت أيتها الأميرة صنعا، وثقى بأن هاتور (١) هى التى بثت في قلبك الحنون عواطف الرفق وأودعته آيات الحقيقة. وبعد أن سكت هنيهة قال: لاشك أنك جئت إلى هنا في طلب طبيب لعلاج الجريحة. أجابت: نعم. فقال: سألتمس من رئيس الكهنة أن يكلف طبيبا ماهراً بمداواة الجراح، ولكننى أجهل مكان بيت المنط فأين مو؟ قالت: بحرى بيوت حتاسو (٢) وعلى مقربة من.. على أننى سأترك هنا أحد رجال حاشيتي ليرشد الطبيب إلى دار الجريحة. ثم التفتت إلى بعاكر وقالت: أرغب راوق على حالة الجربحة قبل شروق الشمس، فلا تنس ذلك يا بعاكر.

⁽١) هاتور هي اينزيس ف حالة تصوير هنا تصويراً محسوساً، وكان قدماء المعريين يعتقدون أنها إلهة الأنوار السمارية والحاملة لقرضي الشمس بين قرني أحد الأبقار، وكانوا يلقبونها بذات الوجه الساطم الذي تنبعث منه أشعة مسعرات الحياة وأفراحها.

⁽٢) كانت وصية على ثاني فراعنة مصر، وهي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

فتقدم بعاكر نحوها في احترام وخشوع مستفسراً أمرها، فقالت: أكلفك بمرافقة الطبيب الذي يعين لعلاج الفتاة وإرشاده إلى دار أبيها ومن الهن -على ما أعتقد-قيامك بهذه المهمة، فقد سبق لك أن جست خلال أحياء طيبة الأموات، ولا تنس أنك شريكي فيما لحق الفتاة من الأذي. قالت هذا ثم تحولت نحو الكاهن فائلة: أما أنت فسأشرح لك أسباب الحادث الذي أحزن فعوادي وأقلق راحتي .. كان بعاكر كثير المفاخرة والمباهاة بأصالة جياده الشامية زاعماً أنها أسرع من جيادي المصرية فأنكرت عليه حكمه الذي إليه ذهب وطلبته إلى المسابقة لاقناعه بفساد هذا الحكم، فلما أجابني إلى طلبي كان ما كان مما أثار الأصران والأشجان. قال رئيس التشريفات: الحمد لآمون أن لم يتسفحل الخطب ويعم الكرب، وأن وقف المصاب بعد جرح الفتاة عند تحطيم مركبة يعاكر وإصابة جواده الشامي بجرح بالغ. قالت الأميرة: سوف يهتم الطبيب بتضميد جراح الجواد بعد ذهابه إلى بيت بينم.. وهل تدرى يابنبيزا، أن هذى أول مرة سرّنى فيها اشتفال الملك أبى بمحاربة الأقطار البعيدة؟ أجاب رئيس التشريفات: لو أن جلالته كان هنا للقينا منه ما لا نود. ويعد برهة انقضت في سكون، صاحت بنت أنات بيعاكر سائلة: أين الأطباء.. أين الأطباء يا بعاكر؟ لقد عهدت إليك إرشادهم إلى دار الجريحة ومبادرتي بشرح حالها فجر الغد.

وما أشار بعاكر برأسه إشارة الطاعة، حتى أمرت بنت انات ركبها بالمسير. وقبل أن يتحرك الركب دنا منها الكاهن وبسط على رأسها يديه ليبارك فيها، فما أتم صلواته الطيبات ودعواته المباركات حتى أخذ الركب يسير حثيثاً نحو ضفة النيل، وظل بعاكر واقفاً بين عبدين يشيع نيفرت بنظرات الحسرة على فراقها.

وما برح يستشرفها ويمد بصره إليها حتى توارت خلف حجاب الظلام، فانشأ عندئذ يفكر في منزل بينم ويناجى نفسه سائلا عن موقعه من طيبة الأموات. وكان رئيس الحراس وأعوانه الذين استدرجهم نباح الكلاب إلى هذا المكان وقوفاً صفوفاً فسألهم عن بيت المحنط أجاب الرئيس: وماذا تريد منه؟ فقال بصوت المستبد المتجبر: وما شأنك يا هذا حتى تستقهم عنه؟ فأخذ الرئيس يحد البصر إلى رجاله محملقاً فيهم حملقة الغاضب الساخر وقال: هلموا ننصدر من الشمال إلى الجهة التى زايلناها.

فتصلف بعاكر متغيظاً مما أبداه السرجل من قلة الاكتراث بأمره وإغفاله القيام بمفروض الاحترام له، وصاح بالحراس: أن قفوا فإنى قائد طليعة الملك. فقال رئيس الحرس: إذا كنت تريد بيت بينم فاطلبه من الطريق التي جئت منها.. إلى الأمام أيها الجنود!

ما كاد رئيس الحرس يفوه بآخر كلمة حتى طرق الأسماع ضحك أغرب فيه الضاحكون على وجه أخجل بعاكر حتى هوى سوطه من يده دون أن يشعر، فالتقطعه العبد الحبشى الذى ضرب به منذ برهة واقتفى أثر مولاه الذى كان قد سبق إلى الهيكل لتبين أسباب الضحك و التنكيل بالضاحكين.

وكان حارس أبواب الهيكل - الذي أبدى رئيس الحراس أمامه ضروب الجرأة والتبجح - ملما بسر الضحك، فتقدم رويداً نحو الباب المفضى إلى صدر الهيكل مستتراً بالظلام. وبعد أن طرقه مراراً بعصاه الطويلة صاح: ياأولاد (ست) يا صيد الشنقة وقنص جهنم هلموا ابرحوا هذا المكان من غير توان. فانقطع الضحك فوراً وما هي إلا فترة من الزمن حتى انساب سرب من الأطفال يتبعهم ذلك الشيخ بعكازه

ثم دخلوا المكان الأول من أحد النوافذ، فعاد الشيخ الحارس ممسكا بأذن صبى نيفت أعرامه على الثلاثة عشر وقال له ولزملائه: سوف أخبر أستاذكم بقبيح فعلكم وذميم خلقكم، أيها الجراد المنتشر.. أيها الخفافيش القدرة الضارية.. أيها الوحوش.. أيها النسل الشقى والذرية الشريرة!

وبيان الحادث أن أطفال المدرسة رأوا باب الحبس الذي حبسوا به مفتوحاً فأفلتوا منه وانطلقوا يضحكون ويلعبون ويسخرون من الشيخ حارس الأبواب فقبض على أكبرهم سنا، وهو ذلك الصبى وأخذ يعرك أذنيه بين إبهاميه وسبابتيه. وما رضى أن يخلى سبيله إلا بعد أن أمسك الغلام بلحيته مستميحاً منه العفو، واعدا إياه بالنبيذ الذي ترسله إليه والدته كل أسبوع. ولكنه قال له وهو يجرى واضعاً يديه على أذنيه من شدة ما نابهما من الألم: لست أغضى على فعالكم الذميمة وحيلكم الكريهة، أيها التلاميذ. كلا وإنكم لتجهلون حقيقتي.. لقد انتويت ألا أشكوكم إلى الأستاذ، بل إلى الآلهة.. أما نبيذك أنت أيها الغلام، فخليق بك أن تقربه إلى مقامهم الأسنى ليصفحوا عن زلتك ويتجاوزوا عن خطيئتك.

الفصيل الثاني بنطاق والشاعر

كان الهيكل الذي برح الكاهن فناء ح لاستدعاء الطبيب وظل بعاكر ينتظره فيه حتى يعود هو ببيت سيتي الذي لا يعدله في انفساح الجوانب وترامى الأركان غير هيكل تحتمس الثالث الذي أقام أمينو فييس الثالث عند مدخله تمثالين عظيمين يسمى أحدهما ممون، وكان ببت سيتي بناء ممرداً وصرحاً منجداً بلغ من الاحتفال بتنميقه مالم يجاره فيه هيكل من هيأكل طبية الأموات. وقد بدأ بوضع أساسه رعمسيس الأول لما اغتصب صولجات الملك وجلس على عرشه، وأتم بناءه من بعده سيتي الأول وإليه نسب. وكانت تقام فيه الصلاة على أرواح الموتي من الأسرة المالكة والأسر العربيقة في المجد والحسمي وتعقد به الحفلات علانية، إجلالا لألهة السماء السفل.

ولقد أجرى الملك عليه الأرزاق الواقرة وخصص لمعهده الديني الكبير والمدارس الصغرى التابعة له المرتبات الجزيلة، وعنى بانشاء هذا المعهد ومدارسه على مثال معهدى عين شمس ومنفيس ومدارسمهما، ليتوافر الطباق ف منافسته إياهما ف ميادين العلوم والمعارف، رجاء أن تتقوق طيبة عاصمة مصر العليا وقتئذ على مدائن مصر السفلي التي كانت لذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبعث أنوار المعارف.

وكانت مدارس بيت سيتى تمتاز على نظيراتها (١) بالمعهد الديني العالى الذي كان

⁽١) إن البيان الأتى عن نظام مدارس مصر القديمة مستخرج باكمله من أوراق مؤرخة من عهد رعمسيس وخلفه الملك منفتح.

يتلقى فيه نجباء الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو وغيرها، على علماء برزوا في هذه الفنون واشتهروا فيها بالبراعة والنبوغ. وكانت تجري الأرزاق لذلك عليهم من فيوض المكارم الملكية، إذ كانوا يأكلون ويشربون وينفقون على حساب الملك.

وكان لأولئك الطلبة -إذا أحرزوا درجة عالم فقيه أو كاتب مجيد- أن يستعينوا بمعلوماتهم على كسب معاشهم. وقد أنشئت لهم بالمدرسة دار عظيمة للكتب تحتوى ألاف المصنفات النفيسة، يتصل بها معمل لتحضير ورق البردى. وكانت إدارة المدارس الملحقة بذلك المعهد تناط ببعضهم من أن إلى أن.

وكان عدد تلاميذ كل مدرسة من المدارس الابتدائية التابعة لمعهد بيت سيتى لا يتجاوز المائة، يشترط في قبولهم بها أن يكونوا من أبناء الوطن الأحرار، لا فرق بين غنى وفقير أو عزيز وحقير، وكانوا يقيمون بها ليل نهار على أن يدفع أهلوهم أو أولياء أمرهم مالاً معيناً في مقابل ما يتناولونه من الغذاء، وإلا أرسلوا إليهم من بيوتهم في مواعيد موقوتة مايقوم بأودهم من الطعام والشراب. وكان لتلاميذ بلداخلية من أبناء العظماء والأعيان مكان خاص بهم يكونون فيه تحت رقابة الكهنة وعنايتهم، ويدفعون في مقابل تعليمهم علوم الدين والدنيا المبالغ الفادحة. وقد رُبى رعمسيس الثاني بن سيتى الأول في هذه المدرسة.

وكانت برامج المدارس الابتدائية وأنظمتها تتطلب من التلاميذ الالتفات إلى الدرس والمثابرة على تفهمه، فإذا خالفوا هذه الأنظمة ولم يراعوا العمل بنصوصها عوقبوا ضربا بالعصى، وهي العقوبة الشائعة وقتئذ بالمدارس كما يثبته المثل المصرى القديم: «إن أذان التلاميذ في ظهورهم.. فهم لايسمعون إلا إذا ضربوا».

وكان لاينقل التلميذ من مدرسة ابتدائية إلى مدرسة عليا إلا بعد اختبار دقيق يكرم فيه ويعظم شانه. وكان للتلميذ الناجع أن يختار من بين آساتذته الأقدمين استاذا يستمر في التلقى عليه، حتى ينبغ في العلم الذي انصرف إلى تحصيله، ويبلازمه مبلازمة الظل للشبع ويبقى خاضعاً لأمره. وبعد انقضاء سنوات في العدرس والبحث والتحقيق والتقرير يمتحن فيما حصله من العلوم أمام العموم لينال مرتبة فقيه أو ليرشع لمناصب الحكومة.

وكان هذاك فيما عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصناعة، كان الطلاب يتلقون فيها العلوم المؤهلة لتخريج مهندسى العمارات والنقاشين والمصورين. وكان نظام التعليم فيها عينه في الأولى، أي أنه كان للتلميذ أن يختار المعلم الذي يأمل بالتلقى عليه الوصول إلى ذروة التقدم والنجاح.

وكان عدد الاساتذة ف المدارس كلها ثمانمائة استاذ، تخرجوا جميعاً من بيت سيتى. وكانوا ينقسمون إلى خمس درجات ويرجعون في أمورهم إلى ثلاثة رؤساء يعرفون بالانبياء، اشرفهم مرتبة وأرقاهم درجة في العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سيتى الذين كان يتجاوز عددهم في طيبة الأموات الوفاً كثيرة.

أما بيت سيتى فكان بناء وطيد الجدران شامخ الأركان، يصل الإنسان إليه من نهج قويم اخذ من ضفة النيل إلى باب السياج المحيط به، فإذا دخل من هذا الباب وجد نفسه في فناء فسيح يحيط به من الجهات الأربع صفان متوازيان من الأعمدة الضخمة، يقابل كل عمود من صف نظيره من الآخر. وشهد أمامه تجاه الباب بابا أخر توفر المهندسون على الاحتفال بتنسيقه والمبالغة في تنميقه، وإلى جانبيه هرمان ناقصان زادا في حسن النظام وبهجة المنظر. ويؤدى الباب إلى فناء أخر يشبه الأول

حجماً وشكلا، إلا أنه ليس فيه سوى صف واحد من الأعمدة بالواجهة المقابلة للمدخل الذي أوردنا وصفه.

وكان بيت سيتى وراء طائفة من منازل كبيرة مكعبة الشكل مشيدة بالأجر النيء المتخذ من طمى النيل ومجصصة بالجير. وقد زينت بالصور والنقوش الهيروغليفية وأعدت لإقامة الكهنة والمدرسين. وكان نظامها الهندسى من الداخل واحداً، إذ كانت تتألف من فناء تحف به ممشاة من الخشب تؤدى إلى حجرات الأساتذة وتتوسطه نافورة ينبط منها الماء على الدوام في حوض تحيط به شجيرات الأزهار وتنصرف المياه منه في مسارب متعددة حتى لا تبقى فيه اسنة. وكان الطلاب يقيمون بالطبقة العليا من تلك المساكن ويتلقون الدرس في فناء غير الذي وصفناه، جلوساً على حصر مبسوطة فوق الثرى.

أما دار كبير الأنبياء الشلاثة ورئيس كهنة بيت سيتى، فكانت على مسافة مائة خطوة من واجهته الخلفية تكنفه من الجانبين أشجار باسقة ظليلة. وكان القصاد يعرفونه من بعيد بما يخفق من الأعلام الكثيرة حول سطوحه. وكان الأنبياء لايقصدون إليه إلا لإدلاء المفروض عليهم من الواجب نحو النبى الأكبر ثم ينصرفون إلى طيبة الأحياء حيث يسكنون مع أسرهم في منازل خصت بهم.

000

نعود الآن إلى ذكر ما وقع عقب انصراف الأميرة بنت أنات في موكبها الحافل إلى ضفة النيل ودخول بعاكر بيت سيتى للبحث عن الضاحكين الذين ظن أنهم يهزأون به.

ألقت الضجة الهائلة التي حدثت عقب حضور الأميرة وانصرافها - في وقت جرت

العادة بأن يكون من أوقات السكون – الذعر في روع الكهنة والعلماء والطلاب، فخرجوا من دورهم هائمين استطلاعاً للحقيقة وصاروا في حالتهم هذه أشبه بالنمل إذا دهمتهم مصيبة فخرجوا من مساكنهم، ثم أخذوا يجتمعون زرافات حول الهيكل ويتساءلون عن هذا النبأ ويذهبون مذاهب شتى في تفسيره، فمن قائل إن رسالة ملكية وصلت إلى رئيس الكهنة، ومن قائل إن المحنطين وفاتحى جثث الموتى انقضوا على بنت أنات وأصابوها بأذى.

وكان بين الطلاب الواقفين غلام ممن هربوا من السجن، فقال للقوم: إنى ملم بحقيقة الواقعة وهى أن بعاكر رئيس طلائع الملك أدخل فى بيت سيتى رغم أنف ليحسن الكتابة. أراد التلميذ بهذا الكلام التشهير ببعاكر والسخرية منه، لأنه كان فى طفولته من طلاب بيت سيتى وكان معروفاً بين أقرانه بكثرة الأغلاط النحوية فى كتابته. وله فى ذلك حوادث مأثورة تضحك الثكل. وقد بقيت شائعة على ألسنتهم يلقنها طلاب الفرق العليا لمن يأتون بعدهم وهكذا. فلما سمع الحاضرون ذلك أغربوا فى الضحك وصفقوا سروراً واستحساناً.

وعزّ على القوم الاهتداء إلى الحقيقة. فلما حضر أحد الكهان قال لهم إنه رأى بعاكر بفناء الهيكل غير أنه لم يدرك سبب حضوره في هذا الوقت، فاعتقدوا صدق مارواه الغلام الساخر، وإن لم تكن علاقة هناك بين مركزه السامى في معية الملك وبين ما يعزونه إليه من الجهل بالقواعد النحوية وتصريف الكلام.

ولما كثر الهرج في الطريق - لاختلاط الطلاب وعدوهم ورواحهم وتساؤلهم ومزاحهم - هبّ (أميني) رئيس الكهنة من مكانه ليقف على سر هذا الضجيج.

وكان أميني هذا ابن (نبكت) من عائلة عريقة في الحسب. وقد نال منصبه عن

كفاءة واستحقاق، فامتد نفوذه الديني إلى مدارس الكهنة في جميع أنصاء القطر. وكان إذا شجر خلاف أو حدثت شبهة في أمر يتعلق بالعلم أو الدين وذهب كل فريق مذهبا ! ستعانوا بمعارفه الواسعة على حل عويصات المسائل ورضضوا لحكمه وأخذوا به قضية مسلمة.

وكان الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وانفراج مذاهبهم يعدونه المثل لروح الكهنوت، فكان إذا جهر بفكرة تصدم أفكارهم أو رأى يعارض -ولو ف الظاهر- أراءهم في العلم والدين امتثلوا لحكمه فيها وأقروا له بالطاعة، لما وقر ف نفوسهم من الاعتقاد بانصراف أقواله وأعماله إلى غايات تخفى على مداركهم، ولاسيما أن التجارب العديدة دلتهم على وجوب حسن الظن به.

وكان الملك يبالغ في توقيره وكثيراً ما كان يغدق النعم عليه ويخصه برعايته ويستميله إلى تقلد منصب الحافظ الأمين لختمه، فلا يلقى منه إلا إعراضاً مفضلا البقاء في منصبه الدينى الذي كان يباشر أعماله الدقيقة مطلق اليدين في كل شيء إلا ما تقيدهما فيه القوانين الرسمية. وكانت نفسه تعاف مظاهر العظمة الباطلة وتجنع إلى التواضع والانجماح عن الناس. وكان لايرهب مخالفة أوامر البيت الأعظم (١) مادامت غير متفقة مع أفكاره وأرائه.

وكان أمينى من أحرص الناس على رعاية النظام في معيشته لايصرفه عنها صارف مهما جل، فكان يخص من كل عشرة أيام ثمانية بفروض وظيفته ويومين بالإشراف على شؤون أسرته. وكان أخصاؤه وأقرب الناس إليه يجهلون أى يوم من

⁽١) البيت الأعظم أو البساب العالى هـو قصر الملك، وكان يسمى باللسسان المصرى القديم بسرايا، ومنه اشتقت لفظة «فرعون» مع تحريف كبير في اللفظ.

تلك الأيام يعبر فيه النيل إلى طيبة الأحياء ليقضى بعض ساعات الفراغ بين عشيرته وذوى قرباه.

وكان لايستفرق نومه أكثر من أربع ساعات في اليوم قبيل الظهر أو بعده في غرف مظلمة لا تصل إليها ضوضاء المارة ولا ضجيج الطلاب. وكان لايغمض الطرف في أثناء الليل، لأن طراوة الجو والسكون الذي يشمل فيه الكائنات كانا يبثان في نفسه القدرة على العمل، من تصنيف ومطالعة وبحث ومراقبة لحركات الأجرام السماوية وكان من أحرص الناس على رعاية الأصول الدينية والطقوس الرسمية من وضوء وطهارة وصوم وجز لشعر الرأس.

وكان في الخمسين من عمره، طويل القامة، قوى الأساطين دون بدانة، وضخم كغيره من أهل الشرق إذا ناهزوا هذه السن، واضح الجبين ، جميل الطلعة، تبدو من شفتيه الرقيقتين ابتسامة مستمرة، واسع العينين، تدل عيناه على عصمة النفس من الانفعال بعوامل الشهوات. وكان مطرق الرأس على الدوام، فإذا أحب أن ينظر أو يتكلم رفعه ببطء مقلباً عينيه ببطء كذلك.

وقد تغرل بنطاؤر نابغة بيت سيتى فى النظم فى عينيه فشبههما بجنود أحسن قائدها قيادتها فى ميدان القتال ثم تركها تلتمس الراحة حتى إذا عاودها النشاط ووجدت ما فقدته من قوة هبت إلى القتال بعزم جديد وإقدام يكفل لها الانتصار فى ميدان الفخار.



لما سمع رئيس الكهنة ضجيج الطلاب عندما أقبلت بنت أنات على الهيكل وعادت منه، برح حجرته لاستطلاع الخبر. وكانت هذه الحجرة من أوسع حجرات الهيكل

وأحسنها شكلا، إذ كان النصف الأسفل من جدرانها إلى ما يوازى ارتفاع القامة مكسوأ بالغضائر الخزفية وما بقى منها مزيناً بالصور والنقوش العجيبة. وكان لا يوجد بها من المتاع غير مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع يعلوه متكا من سن الفيل بشكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسى عديدة وخزانة تحتوى أوانى معدن وقدوراً من صلصال، وأخرى تحتوى قنانى وقوارير زجاج. وهذا فيما عدا العلب المختلفة الأشكال والأقدار وصدف البحر بانواعه. يضىء هذا كله شلاثة مصابيح تشبه الطيور في صورتها ويمد فتيلتها بالضوء ما تحتويه من زيت الخروع.

وكان لباس أمينى ثوباً من التيل سابلا إلى كاحل القدم ناصع البياض كثير الثنيات، عليه وشاح ذو أهداب مرسلة محيط بخاصرته ومعقود من الامام في نقطة ينسدل منها طرفاه إلى ما يوازى الركبتين، متماسك الاجزاء بحمائل مرركشة بالذهب. وكان بعنقه عقد لؤلؤى وأحجار كريمة منضودة على مثال فرعين متعانقين من سعف النخل، وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز.

فلما نهض — وهو بهذا اللباس — من كرسيه المفرغة قوائمه على مثال مخالب الأسد أشار إلى عبد قاعد القرفصاء بجوار الحائط، فأدرك العبد ما أمره به مولاه فقام من فوره وأقبل مسرعاً نحوه ووضع على رأسه جمجمة صناعية ألصقت بها شعور متجعدة ومرسلة من حولها إلى الكتفين (۱) ثم تناول فروة فهد، رأسه ومخالبه من الذهب الخالص وأفرغها على كتفيه. وتقدم بعد ذلك عبد آخر يحمل مراة من المعدن الثقيل فتراءى أمينى فيها وسوّى جمته ثم قدم إليه عبد ثالث محجن (۱) كان وجهاء قدماء المعريين يحملون فوق رؤوسهم شعوراً مستعارة، ولايزال بعض هذه الشعور محفوظاً في دور التحف.

الرئاسة الكهنوتية، ودخل في أثناء ذلك كاهن أخبر الرئيس بحضور الشاعر بنطاؤر.

أذن أميني للشاعر بالدخول فدخل ودنا منه وجثا أمامه على ركبتيه ثم تناول مده ولثمها. فقال أميني: قم يا بنيّ فإن في حضورك ما يكفيني مؤونة الخروج في مثل هذه الساعة للوقوف على سر هياج الطلاب حول الهيكل بما لم يعهد مثله في سالف الأيام فهل وقفت على يعض هذا السر؟ أجاب بنطاؤر: لم يقع ما يخالف العادة أمها الأب المبجل، وكل ما في الأمس أن الأميرة بنت أنات جاءت الهيكل في طلب أحد الأطباء. قال أمنني: وهل بها أذى من مرض أو غيره؟ أجاب: كلا، فإن صحتها على خير ما يرام غير أنها كانت تسابق بعاكر بجيادها الصافنات في واد ضيق فصدمت مركبتها ابنة المحنط بينم، ولما كانت نفسها مجبولة على الرحمة فقد نقلت الجريحة إلى بيت والدها. قال أميني: وهل غشيت الأميرة هذا المكان المدنس؟ أجاب بنطاؤر: نعم غشيته. قال أميني: وأظنها جاءت الأن تطلب تطهيرها من شوائب الدنس. أجاب بنطاؤر: نعم ، لأجل هذا أتت. ولقد رأيت صواباً أن أقابل ملتمسها بالقبول، لأن عاطفة الرفق بيني الإنسان هي التي دفعتها في مأزق المخالفة لطقوسنا الدينية، ولأنه لا يصح - في اعتقادى- اعتبار الشفقة إثماً واصطناع المعروف نقصاً.. وهذا الإله رع الذي يجوب السماوات العلى في زورقه الذهبي ألا يسرسل أشعته الشمسية إلى أكواخ الفقراء كما يرسلها إلى قصور الفراعنة ودور الأغنياء؟ فلماذا تكون بيوت هؤلاء طاهرة وأكواخ أولئك مدنسة؟ وإذا كان قلب، الإنسان يفيض بالشفقة والحنان أفلا يجدر به أن يشمل الفقراء والبائسين بالعطف والإحسان؟.. وأي إحسان أفضل عند الله زلفي من مواساة جريح طريح الفراش لايملك من وسائل العناية ما يحفظ به حياته؟

قال أميني: أنت يا بنطاؤر تتكلم بلسان الشاعر الذي خدعته لطافة العواطف، لا بلسان الكاهن الذي سما إلى أشرف درجات العقل والحكمة واستحق بهذا الفوز الساطع أن أسميه أخى وأن أعتبره خدنى وظهيرى! اعلم أن أعمالنا وتجاربنا لا تُسوجد معدوماً ولا تحدث في هذا الكون شيئاً غير الدي كان، وأن هذه الأعمال والتجارب ترشد إلى وجوب المحافظة على تقاليد السلف الصالح. ولقد سمعتك منذ أسبوعين تعظم في صلواتك علم أحوال الغابرين وتسأل الله تأييدك بها وإعانتك على حفظها ، فكيف تغررت أحوالك وتقلبت أطوارك؟ ألا تدرى أن من العلم ما يشبه النار، إذا حصَّله من يحسن تدبيره والتصرف فيه أفاده الزايا الجليلة، و إذا تناولته يد الطفل - والشعب يظل طفلا دائما- شبّ بسببها حريق هائل يأتي على كل ما أولدته القرائح في الأزمان الغايرة من جلائل الأعمال ومحامد الخصال؟ إنا معشر المحيطين بأسرار الدين نستطيع -متى أردنا - أن نوسع نطاق معارفنا ومعلوماتنا بالتجارب نقوم بها داخل الهيكل حيث لا غريب ولا رقيب، وذلك حرصاً على عقائد العامة والسذج الذين يخدعهم حب التقليد أن تتزعزع فيحيدون عن جادة الصواب. ولقد عاهدتنا يا هذا بقسم غليظ أن تحافظ على هذا المبدأ وأن لا تخيس بعهدك، فلم جئت الآن تحنث بيمينك وتهتك حرمة الواجب الذى فرضت على نفسك القيام به، وهو المحافظة على تقاليد الآباء والأجداد ودعوة الخاصة والكافة إلى السير عليها؟ اعلم يا بني أن الأحوال الآن ليست مثلها فيما غبر من الرمان. ففي عهد الملوك السالفين كانت جذوة النار التي ذكرتها لك على سبيل المجاز مضطرمة بن جدران نحاس يمر الشعب بها فلا يدرى حقيقتها. ولقد رأيت اليوم ثلمة ف هذه الجدران أخشى أن يحمل العامة حب الاطلاع على النظير منها إلى ما في الداخل أو أنه إذا سطعت منها أنوار الحقيقة فبهرت أبصارهم وفتنت عقولهم أذاعوا أسرارها ولاكت

الألسنة أخبارها وسقطت ف درك البدهيات العادية التي ألفتها الأفهام.

وهنا بع صوت أميني كمن ينفعل بتأثير وجداني شديد، وشخص بعينيه في بنطاؤر وظل ثابتاً هكذا مدة من الرمن استأنف بعدها الحديث فقال: إنا نستنزل اللعنات على كل كاهن يوسع تلك الثلمة، ونحكم عليه بالطرد والنفي، ونعاقب بهذه العقوبة كل كاهن يتراجع عن سد أية ثغرة تحدث في أركان الدين جهد الإمكان.

فما سمع بنطاؤر هذا الكلام حتى علت وجهه حمرة الخجل وصاح بصوت الفازع: أبت!.. أبت!.. فدنا منه أميني ووضع بديه على كتفيه.

وكان الرجلان متماثلين في اعتدال القوام وتناسب الأعضاء حتى لكأنهما من نبعة واحدة ، غير أنهما مع تشابهما في الجثمان كان الاختلاف بينهما واضحاً في الوجدان. ذلك لأن أميني كان مستحكم الشكيمة قاسى الطبع قوى الإرادة ثابت العزم قادراً على قمع النفس بعكس بنطاؤر الذي كانت أعماله وأقواله تستمد مما جبلت عليه نفسه من عواطف الحنان وميول الخير والإحسان. وكان مما تهواه نفسه اللقاء بفقير بائس أو حزين يائس فيسرى الهموم بإسعاف العانى وفك كربته وتسلية الحزين والتأسى على مصيبته.

وكان بنطاؤر إذا فكر أو تكلم نمّت عيناه وشفتاه على دخيلة نفسه وما ينتابها من الريب والشكوك. ولقد لاح من هيئته لا استقرت في سمعه كلمات التعزير والتقريع التي وجهها إليه رئيس الكهنة أن بعض تلك العواطف كانت تحفيزه لمعارضته ومناقشته الحساب فيما أنذره به. غير أنه كان لسمو مركز الرجل وشرف رتبته من الأثر في نفسه ما لم يجد معه بدا من الرضوخ لأمره، فآثر ملازمة الصمت على كلام ربما أدى إلى توسيع هوة الخلاف فمضاعفة التعنيف،

والاعتساف. وكان جسمه -لكظمه الغيظ في نفسه- كالقدر تغلي فوق النار، إذ أخذته هزة شعر بها أميني حينما وضع كفيه على كتفيه.

وإذ أحس رئيس الكهنة بأثر هذا العامل الوجداني قال له بصوت تخالطه السرحمة والشدة: نعم كنان لا مفسر لي من تعنيفك وعقابك. ثم أخذ بيمين بنطاؤر وتراجع إلى الوراء قائلا: إنى لمغتبط بما هيأت الظروف من ضرورة توقيع العقاب عليك، مع أنني أحبك وأريد لك الخير وأوليك الاحترام الذي أنت له أهل بما جمعت نفسك من صفات عالية وإرادة تـذلل بها الصعوبات.. واعلم أن عادة الرراع قد جرت بإغفال الحشائش الرديئة لكي يستطيعوا -إذا نمت- استئصالها من جذورها.. وأنت والحمد لله لم تكن من فصيلة هذه الحشائش بل أنت شجرة مباركة غرست في أطيب مغرس، إلا أن الغارس فاته أن يتعهدها بالري ويسوق إليها ما تحتاجه من مواد النماء لتبقى ملتفة الأفنان وارقة الظلال فتلافي مغبة الغفلة باقتضاب الأغصان الزائدة، ويلوح لي على وجهك أثر التذمر من الشدة التي أعاملك بها، ولكن ألا تجعل لنفسك من نفسك حكما لترى مقدار ما احتوت الجهالة عليه منك حتى صدتك عن السعادة، وأن شيطان الغرور زين لك قبيح العمل فأضلك عن سواء السبيل وأن رعونة الشباب قد استحوذت عليك فصرفتك عن الرشد؟ لعلك رأيت أن ليس في الأمر من بأس! ولكن أنسيت أن ذنبك يعد بدنبين وأنك تستحق عليه عقوبتين؟ إن ابنة الملك التي ينبغي أن تكون لغيرها من رجال الشعب ونسائه قدرة حسنة قد تلوثت بحمأة الخطيئة إذ دخلت بيت بينم، فإذا جاريناك على اعتقادك أن الاتصال بالمدنسين لايشوب بالدنس أصحاب المراتب السامية والأقدار الشريفة، فماذا تكون العاقبة؟ إن القوانين التي سنها السلف الصالح يذهب بسلطانها على النفوس احتقار الأهالي لها، إذ يعتقدون أن المحنطين أناسى مثلنا وأن الأوامر المأثبورة بالقرار منهم كما يقبر السليم من الأجرب لغو ويساطل.. ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد! إذ لا مناص لهم من النظر في المسائل الدينية الأخرى فتتلبد غيوم الريب والشكوك ويذهب كل واحد في تأويلها إلى ما يطابق مصلحت فتكثر البدع وينثلم ركن الدين ويكون القشل والتفريق والعياذ بالله.. ولكأنك اليوم تروم بفعلك فتح باب لسلاعداء يلجون منه إلى باحة ديننا القويم ثم يتسورون أسواره الضخمة المتينة ليهدموها بمعاول الحقد والضغينة...

ألا تعلم يا بنى أن طقوسنا الدينية أصبحت كمركبة على منحدر ينتهى إلى هاوية سحيقة القرار، وأنه لا يعوقها عن التدهور فيها إلا ما استندت إليه عجلاتها من الأحجار التي إذا رفع طفل أحدها هوت إلى قاع الهاوية وذهبت حطاماً؟

لنفرض أن الأميرة هي هذا الطفل وأن المركبة يبوقفها في مكانها رغيف خبز بدلا من حجر وأنها تحمل أباك وأمك وبعض أهلك الأقربين، أفتود أن تتناول هذا الرغيف لتتحف به جائعاً التصق بطنه بظهره من فرط الطوى ثم تدع أهلك الأعزاء يهوون في الهاوية التي لا قرار لها؟.. إني لا أظنك تحير جواباً على هذا السؤال وليس عندى خلجة شك في أن الأميرة ستقصد غداً دار بينم. فعليك أن تنتظرها عنده لتخبرها بالمسارعة إلينا حتى نطهرها من أقذار الدنس، أما أنت فقد أعفيتك من كل عقاب سوى ما قضيت به عليك من قبل.. أن الله أجزل لك من هبات العقل والفهم ما تستطيع به الصعود إلى ذرى الحكمة وتصون به إيمانك، فكيف يفتنك الشيطان بغروره وكيف لا تلزم سبل التقوى والرشاد ليحبك الله والعباد؟

ولما أتم أمينى نصيحته، أمر بنطاؤر باسصطحاب الأطباء إلى بيت بينم لعلاج الجريحة، ثم سأله: هل في الهيكل من يعرف هذا البيت؟ أجاب بنطاؤر: إن ابنة الملك

أمرت بعاكر قائد الطليعة بالبقاء هنا ليرشد الأطباء إليه. فقال رئيس الكهنة باسما: وهل يناط بمثل قائد طليعة الملك الاهتمام بابنة رجل يشق بطون الموتى ويحنطها؟.. فرفع بنطاؤر رأسه عندئذ رويداً رويداً وقال متنفساً الصعداء: وهل يناط ببنطاؤر بن البسناني الحقير توبيخ ابنة الملك؟.. فقال أميني: ما دمت يا بنطاؤز خادماً للرب ومنتظماً في سلك الكهنوت فيلا يحق لك أن تنظير في التفاوت بين درجات الجناة والخاطئين. إن بنت أنات مهما تكن من سموق المجد وكرم المحتد لا محيص من مساواتها بالفقيرة المعدمة متى كان الغرض من تقريعها التحذير من السقوط في مهاوى الخطيئة. فأحنى بنطاؤر رأسه امتثالا ثم خرج، بينما كان أميني يناجي نفسه بقوله: لقد وصل كلامي إلى قرارة نفسه فأثر فيها، غير أنه ما برح متمادياً في غيه ومصراً على باطله. ثم سكت وأخذ يمشى سبهللا بخطوات واسعة سريعة وقال: إن لهذا الشاب مستقبلا مجيداً يكون له فيه شأن خطير.. إنه لا تنقصه مزية من مزايا العلم وشدة العارضة ودقة الشعور، ولقد استمال القلوب إليه حتى قلبي الذي كانه قد من صخر. على أنه يجب أن يجمع إلى هذه المزايا خصلة الطمع والطموح إلى المعالى، فلنبادر إلى إضراء نارها في قلبه، فإن في ذلك خيراً أنا وله.

الفصل الثالث

ما كان منذ ٣٠٠٠ سنة في غرفة الطبيب ورأسه

امتثل بنطاؤر لأمر أمينى فاستدعى بعاكر الذى كان ينتظر بالفناء حتى عيل صبره. وبعد أن أدخله عليه عاد ليقابل الأطباء ويسألهم معالجة الجريحة. وكان رهط من كهان بيت سيتى يـزاولون الطب (١) وكان من يريد منهم بعد إتمام الدراسة في هذا البيت إحراز رتبة كاهن أو درجة النبوغ في الطبي يقصد إلى (عين شمس) حيث كانت توجد أقدم وأكبر مدرسة طبية في الديار المصرية، فيتلقى فنون الطب فيها حتى ينال درجة (رئيس) فيها كلها أو في واحد منها كالجراحة أو أمراض العيون، ثم يـرجع إلى طيبة ليعين إما في قصر الملك أو يندرج في سلك الأساتذة فيما برز فيه أو يزاول معالجة المرضى في الفرع الذي نبغ فيه، ويمهر في ذلك حتى يمتد برز فيه أو يزاول معالجة المرضى في الفرع الذي نبغ فيه، ويمهر في ذلك حتى يمتد مع خضوعهم للنظام الكهنوتي، بمعنى أنه إذا مست الحاجة إلى طبيب لا يطلبه أحد رأساً من منزله بل من هيكل سيتى، يفاوض في هذا الطلب رئيس الأطباء. وعليه في هذه الحالة أن يقدم إليه اسم المريض ويصف أعراض مرضه فيرشده عندئذ إلى الطبيب المنقطع لعلاج مرضه.

وكان الأطباء كالكهنة يستمدون أرزاقهم من الأملاك المرقوفة على الهياكل، والضرائب المفروضة برسمهم على الأهلين، والنذور التي يقدمها هؤلاء إلى الآلهة.

⁽١) إن الفوائد والمعلومات الواردة في هذا الفصل مستخرجة من أوراق البردي المستكشفة قبل سنة ١٨٨٢، ومنها الورقة رقم ١ المحفوظة بمتحف برلين والورقة الهيروغليفية المحفوظة بمتحف لوندرة، وتاريخ هذه الأوراق من عهد الأسرة الثامنة عشرة.. أي في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد أيدت مضامينها أقوال هيرودت وديودروس الصقلي المؤرخين الشهيرين.

ومن ثمّ كانوا لايقبلون من أحد جزاء مقابل علاجهم إياه، لأن المريض كان إذا شفى من مرض أقاض بالندور والهدايا الكثيرة على الهيكل الذي ينتسب إليه الطبيب. وكان من العقائد الراسخة بأذهان العامة أن الشفاء من المرض يتوقف على الندور والقرابين أكثر منه على مهارة الطبيب.

ومن الحقائق المقررة في التاريخ أن قدماء المصريين بلغوا في المعارف الطبية شأوا بعيدا وغاية لا تُدانَى، ولكن لما كان الأطباء من رجال الدين فقد اضطروا إلى اتخاذ الأعمال الروحانية كالرقى والتعاويذ من وسائل العلاج حتى انتهى الأمر بالأهلين إلى نسبة الشفاء إليها لا إلى الحقائق العلمية الثابتة. وكان ببيت سيتى أطباء كثيرون تنوعت معارفهم وتباينت خصالهم وتفاوتت درجاتهم، فاختار بنطاؤر من بينهم لعلاج الفتاة التى صدمتها مركبة بنت أنات صديقه (نبسشت) حفيد الطبيب المشهور في تلك الأزمان بهذا الاسم. وكان (نبسشت) هذا أصدق أقران بنطاؤر بالمدرسة وأشدهم ميلا إليه ووفاء له، وكان من أمره أنه شغف منذ نعومة الأظفار بممارسة العلوم الطبية. فلما غادر بيت سيتى إلى مدرسة عين شمس للتخصص والنبوغ في علومها آثر فن الجراحة فاستقصى فيه البحث حتى أخذ بأطرافه واستقرت قواعده كلها في ذهنه.

وكانت النية معقودة على تعيينه استاذاً لعلم التشريح فى تلك المدرسة الجامعة وإنما عدل عنها للعثمة فى لسانه تحول دون إحرازه هذا المنصب العلمى الرفيع الذى طالما تاق إليه العلماء الفطاحل فلم تتحقق أمانيهم. وكان أبواه وأقاربه فى حزن وتوجد ويأس من تسنمه غارب ذلك المنصب بسبب تلك العاهة المقوتة. أما هو فكان منشرح الصدر قرير العين بها؛ إذ وجد أنها خير نصير له على العزلة والتفرغ للأبحاث العلمية والانصباب على التحقيقات التي يرجى أن تفضى به إلى استكشاف

أسرار الحياة العنصرية وأن يقضى فيها وقته، بينما تنذهب أوقات أقرائه بدداً في الترنم بالأناشيد والأغاني الكهنوتية.

وكان أساتذته يحتونه على موالاة البحث والتنقيب ليقفوا منهما على الحقائق العلمية الغامضة في فن التشريح. ولقد كان يخالفهم فيما يعتقدونه من تأثير الوسائل الروحانية كالسحر والرقى والنذور في شفاء الأمراض أو عدم شفائها ويأبي التسليم بأن بين القواعد العلمية المؤيدة بالتجارب وبينها علاقة ما، إلا أنه كان لا يجهر بهذه الآراء ولا يفضى إلى أحد بها لما قيها من مخالفة المبادىء المتبعة، ولكونه لو أقدم على هذا الفعل لعوقب بالطرد من الهيكل بتهمة الابتداع والإلحاد. على أنه لم يكن هناك ما يحمله على الجهر بأرائه، إذ كان يرى في كتمانها خير الذرائع والميل إلى العزلة أنه كان إذا دعاه داع إلى شرح تجاربه العلمية الدقيقة في محفل حافل بالعلماء والفضلاء شعر بانقباض في صدره ونأى عنهم بجانبه اعتقاداً منه أن الأولى به قضاء وقته منقباً عن الحقائق العلمية التي وهب لها حياته.

قلنا إن بنطاؤر اختار هذا الطبيب لعلاج الفتاة ثقة منه بكفاءته ولأنه من خاصة أصدقائه ولأنه كثيراً ما صحبه وهو يرتاد الغابات ويجوب الفلوات ويجوس خلال الجبال والصخور للبحث عن الأعشاب الغريبة والحشرات النادرة، والتقط معه الكثير منها فأعجب بذكائه ونشاطه وخبرته.

ولقد كان بنطاؤر يشعر في هذه الجولات بلذة بالغة ويجنى منها فوائد جمة، إذ كان يرى ما لم تكن عيناه قد وقعت عليه قبلا من الكائنات ويقف على الحقائق العلمية المرتبطة بها. وكنان نبسشت لشدة شغفه بالبحث في هذه الحقائق يستقيم لسانه وتزول عنه اللعثمة فيعبر عن مراده بأفصح بيان وأحسن أسلوب. وكانت المودة بينه وبين بنطاؤر وثيقة العرى، إذ كان يجد فيه ما ينقصه من الصفات الفاضلة كدقة الشعور والقدرة على إبراز المكنون من الأفكار، في قالب النثر تارة وطوراً في قالب الأشعار.

أما بنطاؤر فكان من أصحاب المدارك السامية والكفايات العالية والقدرة التى لاريب فيها على حل المشاكل وفهم عويصات المسائل، إلا أنه كان كالتلميذ لاستاذه إذا قيست معارفه في العلوم بمعارف صديقه، وكان له على هذا الأخير دلال كبير ونفوذ قوى، إذ كان نبسشت لا يصدر إلا عن رأيه ولا يعمل إلا بنصائحه ، ضاربا عرض الحائط باراء زملائه في عمله ونصائحهم، ما ذلك إلا لانهم كانوا في مناظراتهم العلمية يركنون إلى مجرد النقل غثا أو سمينا ولا يقيسون الأمور بأشباهها ولا يحكمون البصر والبصيرة قيها، بخلاف بنطاؤر فإنه كان لا يقيد حكمه بقاعدة مأثورة ولا بمبدأ منقول إلا إذا سبرهما بثاقب نظره ووزنهما بصائب

وكانت غرفة نبسشت التى يتفرغ فيها لأبحاثه العلمية وتجاربه الفنية تحت مغزن الحبوب من هيكل سيتى، في معزل عن الأماكن الآهلة بساكنيها. فلما أن غشيها بنطاؤر ليكلف صديقه بمعالجة الفتاة الجريحة أخذ يتعثر في أذياله كلما تقدم خطوة إلى الأمام، لأنها كانت محشوة بما لا عداد له من الأعشاب الخضراء والجافة والأقفاص المختلفة الأحجام من سعف النخل والآنية المتباينة حجماً وشكلا، المغطاة بأوراق مثقوبة تحتوى حيوانات وحشرات شتى كاليربوع

والحرباء والهامة والضفدعة والأفعى والجعران وما شابهها. وكان بوسط الغرفة مائدة خشب عليها دواة عظم وجملة مدى من حجر الصوان وأخرى من نحاس، وبأحد أركانها حصيرة ومتكأ خشيى، وهو المكان الذى كان نبسشت ينام فيه.

ولما سمع نبسشت وقع أقدام بخطاق ردون أن يراه أخفى ما بيده تحت المائدة وتخبط فى أمره وحار حيرة التلميذ الذى يفاجأه أستاذه لاعباً. وكانت بيده سكين ذات مقبض من السأسم (الأبنوس) فأخفاها فى طيات ثوبه ثم وقف ويداه على صدره فى انتظار المقبل.

وكان بالغرفة مصباح ضعيف الضعوء، فلما دخل بنطاؤر أدرك سر الخوف الذى وقع في روع صديقه وأيقن أنه يرجع إلى ارتكابه محظوراً. وحين تحقق نبسشت أن الزائر بنطاؤر اطمأن قلبه وهدأ روعه قصاح به: أما كان ينبغى ألا تزعجنى في هذه الساعة؟ ثم دس يده تحت المائدة وأخذ ما كان ألقاه فإذا هو أرنب حي مثبت على لوحة من الخشب، وقد فتح بطنه حتى بدا القلب منه.

عندئذ استأنف فحص أعضائه وانصرف إلى ذلك كأن لم يكن بالغرف سواه. فأخذ بنطاؤر يتمعن حركاته، وإنه لكذلك إذ فاجأه الشاعر بوضع يده على كتفه قائلا: كان لـزاماً عليك يا أخى – وقد عمدت إلى مخالفة الواجب والقانون – إغلاق الباب حتى لايراك أحد.

فاضطرب نبسشت حتى كاد يتقطع نياط قلبه من الهلع وأجاب متلعثما: هم.. هم.. أ..أ.. أخذوا مزلاج البا.. بأب حين د..د.. دخلوا منذ أيام وأنا.. أ.. أشرح يد بتاحميس.. ميس المزوّ..ر.

فقال بنطاؤر: وجثة هذا المسكين تنقصها إذن اليد اليمنى؟ قال نبسشت: وهل تفي... تفي... عيده هذه اليد ف الآخرة..؟ قال بنطاؤر: لكن هل وضعت بالأقل ف قبرها تماثيل شيتى؟ (١)

قال نيسشت:ليس هذا إ.. إلا.. حمقاً .. و.. شعوذة.

قال بنطاؤر: خذ حذرك يا نبسشت أنت تمضي في طريق الإباحة متخبطاً وتنتهك حرمة الدين. أما دريت أن من يعذب حيواناً ولو لغرض حميد يلق في الآخرة مثل هذا العذاب؟ يخيل لى أنك تنتحل لنفسك عذراً فتقول بجوار تعذيب الحيوان متى كان القصد خدمة العلم واستكشاف الحقائق النافعة للإنسان.

قال نبسشت: أو تعتقد أنت بصدق ما تقول؟

فابتسم بنطاؤر وسكت، ثم حدق في الأرنب مناجياً نفسه: عجباً كيف يبقى هذا الحيوان المسكين حياً مع أنه لو أصاب إنساناً ما أصابه من العذاب ما بقى لحظة على قيد الحياة؟ إن الإنسان ضعيفة أعضاؤه ولايحتمل ما يقاسيه الحيوان!

فهر نبسشت كتفيه وقال: قد يكون ما تقوله صواباً.

قال بنطاؤر: أعتقد أنك موقن بصواب قولى.

قال نبسشت: ومن أين لى علم ما إذا كان القوم قد حظروا على فحص يد مزور لأقف على كنه حركتها.

قال بنطاؤر: تذكر يا صديقى ما أوردته كتبنا المقدسة من توقف سلامة الروح على صحة البدن، فأخذ نبسشت يحد النظر فى بنطاؤر ويقول: ليست الروح مما (١) كانت توضع هذه التماثيل مع الموتى لمساعدتهم على أداء أعمال الحياة الأخرى وهى تحمل فى يدها إما فأسا أو محراثاً وعلى ظهرها كيس البذور، وقد جاء فى الفصل السادس من كتاب الموتى بيان مزايا التماثيل وفوائدها.

أعانى البحث فيه، فتصرف أنت في أرواح العباد كما تهوى ودعنى أبحث أجسامهم، حتى إذا أصيب أحدهم برض أو بكسر أقمت منه المعوج وأصلحت الفاسد.

قال بنطاؤر: الحمد لتوت (۱) أن لم تعارضنى في عرفانك تقويم أعضاء الإنسان وإصلاح فاسدها.

قال نبسشت: الكمال لله وحده.. إنى لقرّ بعجزى ومعترف بأنى لم أبلغ في ضبط يدى، وهي تحرك المبضع مبلغ المتّال الذي يُطلب منه العمل في الظلام.

قال بنطاؤر: كلا، فأنت ند (كيزو) الذي فاق الأقران ف إتقان التصوير بالهيكل وهوأعمى.

قال نبسشت: قل ما شئت، وكل ما أعرف في نفسي أننى لست بين إجادة العمل وعدمها في حد الوسط، فإما أجيده للدرجة القصوى أو لا أجيده مطلقاً.

قال بنطاؤر: إنا نرغب منك الإجادة فيه وما جئتك الآن إلا مختبراً.

قال نبسشت: وهل بك علة؟

أجاب بنطاؤر: الحمد لأيريس التي أودعتني قوة اقتلع بها النخل من أصوله، وإنما جئت لأدعوك إلى علاج جريحة ، فإن الأميرة بنت أنات كانت..

فقاطعه نبسشت بقوله: أليس للأسرة المالكة طبيب؟

قال بنطاؤر: دعنى حتى أتم كلامى.. كانت الأميرة بنت أنات في مركبتها إذ (١) توت إله العلم والطب في اعتقاد قدماء المعربين الذين كانوا يمثلونه برأس طير اللقلق المعروف ويقولون إن الإله (رع) أخرجه من العدم كالشعاع المنبعث والضوء المثالق لكى يكون له مصباحا يهديه في الظلمات إلى مكامن الأعداء، وقد صار بعد ذلك إله القمر الذي يدير الأمور بالحكمة ويقيسها باشباهها كما أن القمر يدبر المواقيت ويحدد الأزمان، ثم إله الآداب والعلوم والفنون وكان يسميه المصريون تيشوت.. أي الكبير مرتين، أما اليونان فكانوا يسمونه جسيس.. أي الكبير ثلاث مرات.

صدمت فتاة فأصابتها بجرح بالغ.

قال نبسشت: وهل الفتاة بالدينة أو بالقيرة هنا؟

أجاب بنطاؤر: هنا وهي ابنة أحد المحنطين. فصاح نبسشت ابنة محنط.. ولم لم تتحفني من قبل بهذه البشري؟ ثم ألقى بالأرنب وأدوات الجراحة تحت المائدة.

أما بيطاؤر فبهت لابتهاج صديقه وقال: لعلك تعلل نفسك باستكشاف سر غريب عند أولئك المدنسين.

قال نبسشت: الأمر ف هذا يرجع إلى ، وقد عوالت على عيادة الجريحة الآن وما اسم والدها؟ أجاب بنطاؤر: اسمه بينم.

قال نبسشت: ولكنى أخشى ألا أوفق معه لإدراك غايتي ونيل أمنيتي.

وعلى أثر هذه المحادثة أخذ قنينة محكمة السدّ وتحيل لفتحها. ثم غمس فيها قلماً كقلم المصور، وبعد أن أخرجه أدناه من أنف الأرنب فمات من فوره، لأن السائل الذي في القنينة كان الاستركنين وهو سم قاتل. ثم ألقى به في صندوق وقال لصاحبه: هلم بنا إلى حيث تريد.

قال بنطاؤر: ولكن ينبغى ألا تخرج بهذا الثوب الملوث.

فتنبه نبسشت إلى أنه لم يغير ثياب العمل ففتح خزانة الملابس واختار منها ثوباً أخذ يفرغه على جسمه وبنطاؤر على مقربة منه، فشهد أنه لم يخلع الثوب القدر وأن تحت هذا الثوب ثياباً أخر، فأمسك بيده ضاحكا، فأمعن نبسشت فيه النظر مستغرباً وسأل عن سبب الضحك فأجابه: كيف تفرغ الثوب النظيف على ثياب قذرة أصبحت تشبه فيها البصلة بتعدد طبقاتها؟

فضحك نبسشت وقال:الآن أدركت سبب اشتداد الحرارة في جسمي .. أرجو

منك إذا أن تبرح هذا المكان حتى أخلع هذه الثياب وتستأذن لى من أمينى بالخروج من الهيكل.

قال بنطاؤر: لا فائدة ف الاستئذان مادام أنه أمرنى بندب طبيب لمعالجة الجريحة ف بيت بينم.

قال نبسشت: وهل علم أن الفتاة ابنة محنط الموتى؟

أجاب: نعم.

قال نبسشت: لابد لى من علاجها أيضاً بالرقى والتعاويد، لهذا أرجو منك أن تستأذن النبى جاجابو ف أن يصحبنى الشيخ (تيتا) لترتيل الرقى والتعاويذ التى لا قبل لى كما تعلم على تلاوة حرف منها للعثمة لسانى.

قال بنطاؤر: الأفضل أن يصحبك كاهن شاب بدلا من ذاك الشيخ الأعمى.

قال نبسشت: إنى مع كراهتي لهذا الشيخ أرى أنه لابد لي منه لفصاحة لسانه.

قال بنطاؤر: حقا إنه لجهورى الصوت فصيح اللسان، ولقد سمعته منذ أيام يرتل التعاويذ لأحد المرضى ويحصى البلح الذي أخذه في مقابل أجرته.

قال نبسشت: إذا صحبنى إلى بيت بينم فإنما يصحبني رغم أنف لأنه يبغض الفقراء ويفضل أن يضع يده في هذا الإناء الممتلىء بالعقارب على غشيان دورهم وتناول طعامهم، ومع هذا فلك أن تعده بأننى سأعطيه ما في خابيتي من النبيذ لعله يجيء عن طيب خاطر.. أما أنا فلا أسيغ هذا الشراب في الحر الشديد لأنه يكدر صفاء نظرى.. ثم أين يسكن بينم، أبجنوب المقبرة أم بشمالها؟

أجاب بنطاؤر: أظنه يسكن بالشمال، على أن بعاكر مازال هنا وهو المأمور بإرشادك إلى بيت الفتاة..

قال نبسشت باسما: إن هذه الليلة غريبة الشأن.. وما هو طالعها فى التقويم يا ترى؟ (١).. غريبة جداً هذه الليلة ، يسالوننى فيها معالجة ابنة محنط كما أعالج أميرة، ويذهبون بى إلى بيت أبيها أنا الطبيب الوضيع الحقير فى ركب كركب فرعون، ولكن ليتنى ما خلعت ثيابى.

قال بنطاؤر: الحرارة في هذه الليلة شديدة.

قال نبسشت: لست أخشى الحرارة بل بعاكر الذى اشتهر بأطواره الشاذة فقد كنت منذ يومين أعالج شاباً ضربه فكسر ترقوته، ويا ليتنى كنت أحد جياد الأميرة بنت أنات لأدوس بسنابكي هذا الوحش الضارى لا تلك الفتاة البريئة.

فضحك بنطاؤر وقال: وأنا أيضاً أتمنى ذلك. ثم انصرف قاصداً جاجابو ثانى أنبياء هيكل سيتى ورئيس أطبائه ليستأذنه في أن يرافق نبسشت الشيخ تيتا مرتل التعاويذ والرقى.

⁽۱) وجد أتم تقويم مصرى فى الورقة الرابعة من مجموعة أوراق البردى المعروفة باسم (سالييه) وهو يحتوى بيان طالع كل يوم فى السنة من سعادة ونحس، وفى كثير من الهياكل تقاويم أخر خاصة بالأعياد والاحتفالات الدينية، وأكثر هذه التقاويم شرحاً وتفصيلاً هو الذى فى هيكل مدينة أبو، وقد نشره دوميشن العالم الألماني.

الفصل الرابع

أين يتناجى الكهان في أحوال بني الانسان

علم بنطاؤر أن جاجابو كان يتناول الطعام في مأدبة شائقة أعدت احتفاء بعالمين من علماء خينو (١) صدر الأمر بنقلهما إلى بيت سيتى، إكراماً لهما وترفيعاً لمقامهما. وقد مدت المائدة بإحدى ساحات الهيكل تحيط بها أعمدة مزخرفة بالألوان الزاهية والصور الجميلة وتضيئها مصابيح لا حصر لعددها. وكان لفيف الكهان جلوسا حول المائدة على صفين متوازيين وأمامهم من ألوان الطعام الشهى أفضاذ الغزلان وشواء الأوز والبط (٢) والقرنبيط والهليون والفطير والحلويات والأنبذة المعتقة التى مُلأت بها دنان الهيكل.

وكان الخدم يجيئون بهذه المأكولات صنفاً صنفاً من مائدة أخرى رتبت عليها الأطعمة بأسلوب حسن ونظام متقن ويطوفون بالمدام على المدعوين فيسكبونها في أقداحهم حتى تفيض من حافاتها. وكانوا عقب الفراغ من كل صنف يقدمون لهم آنية من نحاس أصفر يغسلون فيها أيديهم ومناديل من التيل الناعم لتنشيفها. فلما فرغ القوم من الطعام أخذوا يشمون الورود والرياحين التي وُزعت عليهم في باقات منسقة تنسيقا بديعاً تحفزهم رائحتها الزكية إلى المحادثة في شؤون شتى والمناقشة

⁽١) خينو مدينة كمانت على شاطىء النيل بقرب حدود النوبة، وكان بها مدرسة لتخريج الكهنة، وموقعها محدود الآن بالقرب من جبل السلسلة.

⁽Y) كانت الغزلان في ذلك العهد من الحيوانات الداجنة، وترى الآن مرسومة على الآثار إما حية في الحدائق أو مذبوحة في حوانيت الجزارين، ووصف هذه الوليمة مأخوذ من صور الولائم الكثيرة المرسومة في المقابر.

فى موضوعات مفيدة. ومما زاد فى طلاوة حديثهم تشابه ثيابهم وتوافق شاراتهم الكهنوتية، لأنهم كانوا من كهنة بيت سيتى وكبار موظفيه وليس بينهم أجنبى يتعرف أسرارهم أو يتسرق أخبارهم.

وكان جاجابو -الذى ندبه أمينى لرئاسة الحفلة - في صدر المائدة، متكلفا في أوضاعه العظمة والرفعة يتحرى بهما ستر عيوبه الجثمانية التي لا تتفق مع الرئاسة، فإنه كان قصير القامة كبير الهامة أصلع الرأس غليظ البدن غليظ الخدين. وكان كلما عرته دهشة أو أحس بانفعال برقت أسرته ولمعت عيناه واضطربت شفتاه الدالتان بغلظهما على غريزته الشهوية. وكان بالقرب منه كرسى خالى هو كرسى أميني، وإلى جانبيه يمنة ويسرة كاهنا خينو اللذان برسمهما أدبت المأدبة، ويليهما باقى المدعوين جالسين بحسب ترتيب الأعمال ، الأكبر فالكبير فالصغير فالأصغر، عملا بأنظمة الهيكل وقوانينه.

وتكلم فى أثناء المحادثة (توان) أكبر الكاهنين المحتفل بهما وهو الذي كانت مصنفاته فى الإنشاء تدرس بالمدارس (١) فقال: أيها العلماء المحترمون! لايسعنا أن نقابل الشرف الذى أسبغتم علينا نعمته بدعوتنا إلى الانتظام فى عقدكم إلا بما يستحق من جزيل الشكر وجميل الثناء والحمد. فإنا بوجودنا فى هذا المكان المقدس نفوز بالزلفى من فرعون الذى نسأل له طول البقاء ودوام الصحة والهناء.. ولقد تخرج من مدارس خينو عدد غير قليل من أساطين العلم وفطاحله، ولكن الحقيقة التى لاريب فيها.. الحقيقة التى ننادى بها على ملأ منكم هى أن المعاصرين من خريجيها لم يبلغوا وما هم ببالغى – شأو زملائهم خريجى بيت سيتى الذين سما بهم -شأن هذا البيت إلى ذروة المجد الخالد، وأصبحت مدارس هليوبوليس ومنفيس بإزائه فى الدرك الأسفل. ولقد عاهدت نفسى – رغم قصورى وضعتى –

⁽١) ادى البحث ف الأثار القديمة إلى العثور على بعض جمل إنشائية لهذا الكاتب الشهير،

ن أؤيدها بروح الإلهام الذي نستنشق رياه العبق في هذا المقام، واستجلاء مجالى العلوم والمعارف لانتهاج الطريق القويم، والحث على الاقتداء بمحاسن أعمالكم والتخلق بمكارم أخلاقكم، فلقد أنست فيكم ما يشجعني على الاجتهاد للوصول إلى المأمول. وإنى أختم كلماتي بتوجيه عبارات الثناء إلى أميني عميد الكهان، الذي ذاع له صيت بحسن السيرة وسعة العلم الذي جنى ثماره القاصي والداني، وإن أنس لا أنسى واجب التنويه بالعالمين الشهيرين جاجابو و (مريابو) اللذين رددت الأفاق ذكرهما. ثم قام المحتقل به الثاني وقال: من ذا الذي أريد أن أخصه منكم بمدحي وثنائي لأنه نظم أحسن الأناشيد يمجد بها الإله آمون؟.. أين شاعركم هذا فخر الشعراء، ومن هو بينكم حتى استمتع برؤيته واغترف من فضله؟ فأشار جاجابو إلى كرسي خال بآخر المائدة وقال: هو صاحب هذا الكرسي وهو أصغر الكهنة سنا وأزهرهم مستقبلا وأرفعهم شأنا. قال توان: لقد سرت أشعاره مسرى الأمثال وحفظها الكبير منا والصغير.

قال كبير المنجمين (١): لاريب أن الآلهة أجزلوا له العطاء وأفاضوا عليه المواهب، إلا أننى أنست منه استبداداً بالرأى أزعج خاطرى وانحرافاً عن المذهب أقلق بالى، وقد أودع أشعاره التى لا مجال للطعن في صحة أورانها وانسجام قوافيها سوانح تخالف قواعد الدين المقدس وأركانه الثابتة. وفي النشيد الذي ألمحتم إليه الآن أفكار كان يجب عليه التبصر قبل ابتكاره إياها، إذ يخشى أن تفضى إلى كشف أسرار مذاهبنا وإذاعتها على ألسنة العامة، مع أنه أقسم ألا يعرضها للشكوك والريب بقول أو فعل. وإنى أضرب لك مثلا على ذلك بعض مقاطع ذلك النشيد، فإنه وإن تكن منسجمة اللفظ سامية المعنى يخشى أن يستفحل في المستقبل ضرر تداولها، ما دمنا (١) منجمو قدماء المعربين الذين كانوا يستكشفون الطوالع بساعة الميلاد، وكانت وظيفتهم من المراتب الكهوبية.

نستعذب التغنى بها ويحفظها العامة والخاصة من الشعب افتتاناً بمعانيها الرائعة وعدار إنها الطلبة.. وإذا كان من تلك المقاطع مثل قوله:

«هـو الـواحد الـدائم القهار الجبار، المنفرد بالخلق والايجاد، المبدع لجميع المخلوقات لا على مثال ، المحيط علمه بجميع الأسرار».

« من تأمل بعين الفكر في مظاهر الكائنات، وأمعن بنور بصيرته فيما احتوته من سواطع البراهين وبواهر الآيات، شهد موجدها في كل صورها ومعانيها بلا حلول، واستدل بها على أنه الواحد الأحد الذي يحول ولايزول» (١).

أفلم يكن من الراجب منع التغنى بمثل هذا النشيد خصوصاً في عهد أماط الأجانب فيه عن وجوههم نقاب الحياء، فاشرأبت أعناقهم لاستطلاع الأسرار الدينية؟ قال حافظ الخزينة: قلت صواباً، فقد أطلع أميني هذا الشاب على الأسرار الكبرى قبل أن ينضج عقله ويستعد لإدراك كنهها. قال جاجابو وكان يفتضر بانتساب بنطاؤر اليه: إن أميني لم يطلعه على تلك الأسرار إلا إجابة لطلبي كأستاذ له، وإنما الواجب على عشيرتنا الافتخار بهذا الشاعر الذي ذهبت له في الأفاق شهرة كبيرة.. أما الشعب فلل خوف على عقيدته من عادية الشكوك لاستظهاره أشعار بنطاؤر، فقد رأيت أن الناس كلما ترنموا بمنظوماته ترنحوا طرباً لجودة مبانيها وسمو معانيها مع جهلهم بحقيقة ما ترمي إليه من الحقائق والأسرار .. وما من مرة تغنوا بها في عيد الدرجات حتى سكروا بسلاسة عباراتها ولطف إشاراتها. قال رئيس المنجمين: لا عجب إذا رأيتك ماضياً في تمجيد هذا الشاعر، فإنما هو برعايتك

⁽١) هذه الأشعار من النشيد الذي نظمه بنطاؤر ف تمجيد الإله، وقد وُجد مكتوب على ورق البردي المحقوظ الآن بالمتحف المصرى وترجمه غريبو وسترن

بستظل ويكنف عنايتك يلوذ ويعرى محبتك إياه يستمسك، وإنما أنت ترضى منه ما لاترضاء من غيره وتغفر له من باطله وشاذ أعماله ما لا تغفره لسواه. أما أنا فما برحت موقناً أن أناشيده نزغات شيطان رجيم، وأنها تجور بحافظها ومرتلها عن قصد المبيل، وأخاف أن تصبح الشرارة التي نستصغرها الأن معظم النار إذا لم نتلاف الأمر بالحكمة والروبة. فاضطربت شفتا جاجاب و وقال: لا تأخذنكم ربية في أمر تلميذي، فسيكافح العدو بعزم شديد، ويحسن البلاء في الذود عن مصالحنا بقرة تفل الحديد، ويستذل لأجل الدين كل شقى عنيد، ويعمل ما تعمل الشمس ذات الجناحين بالظالمين وكل خيارج متمرد على الدين.. فلم تحاولون الأن أن تقصوا جناحيه وتحرموه أن يدرج بقدميه؟ إن زئير الأسد لأشد من مواء الهر، وأشعة الشمس لا تنبعث بضوئها المتألق من مصباح ضعيف. فدعوا بنطاق بحاله إذا شئتم ألا ينطبق عليكم مثل من أصاب ألم في ضرس فخلعه وخلع معه الأضراس الصحيحة. قال الأكبر من عالمي خينو: لقد شعرنا نحن أيضاً بدنو الأعداء وتدخل الغرياء فوجهذا الشطر السليم منا إلى الجنوب تحامياً من تطرق الفساد إليه فلم تنفع الحيلة إذ عم الفساد وجرف سيله الناس فمضوا في ظلمات الجهل متخبطين، لايفرقون بين حق وباطل ولا بين طهر ودنس.. وإنما الدنس من عمل تيفون إله الشر والظلام.. قال رئيس المنجمين وقد اضطرمت في قلب جذوة التعصب: يحاط الأجنبي هذا بصنوف الرعاية وتبذل في مرضاته أساليب المداراة، فيتدخل في الأخلاق والعادات تدخل الرمال التي تسفيها رياح الصحراء في أخشاب البيوت، وكثيراً ما ذهب به التدخل إلى غشيان المنازل والهياكل حتى لكانكم ترون الآن على عرش خليفة (رع) واحداً من سلالة .. وكان أميني داخلا ساعتند من الكان الذي مدت فيه مائدة الطعام وسمع كلام رئيس المنجمين فقاطعه بقوله: صه أيها الجرىء

المتهجم، لا يف لسانك بهذه الألفاظ البذيئة ف حق مليكنا الشرعي الذي آل إليه قضيب (رع) رمـز التملك بطريق الوراثة. فسكت رئيس المنجمين وأحنى رأسـه إشعاراً بالطاعة. وكان الحاضرون قد وقفوا جميعاً تعظيماً لأميني وردوا على تحيته بأجمل منها ثم جلس وقال لجاجابو: مالى أراك في غضب لا يليق بحلم الكهان وتؤدتهم، وما الذي حصل في هذا المجتمع بينكم حتى اضطربت موازين عقولكم ونفوسكم؟ أجاب جاجابو: كنا نتحدث بأمر الأجانب الذين نسلوا إلى مصر من كل جانب وانتشروا فيها انتشار الجراد وأحرزوا من القوة والسلطان ما يأتون معه كل يوم بضرب من ضروب البدع في العادات والأخلاق، ولجأنا بسببه إلى الأخذ بمقاومتهم وصد تيارهم الجارف دفعاً لضررهم ومنعاً لفسادهم. قال أميني: سترونني في طليعة المحاربين لتلك الطغمة الشريرة التي جلبت معها إلينا المصائب، وإنى لأخشى أن تتسع خروق الفساد بعد ما تواردت من جهة الشمال أخيار يسوء سماعها الأحباء ويسر الأعداء. سأل الحاضرون بصوت واحد: وماذا جرى .. هل انهزمت جنودنا؟ أجاب أمينى: كلا.. لايزال الظفر حليفها، ولكن سهام المنون أصابت أكباد ألوف الجند في ساحة القتال فاضطر المليك رعمسيس إلى طلب النجدة، وقد تسلمت من بعاكر قائد طليعته كتابا منه وآخر من صديق لي في ركابه يتضمن أولهما الأمر بحشد ٥٠ ألف مقاتل. ولما كانت طبقات المجندين قد خرجت كلها للقتال فلا مفر لنا اليوم من حشد ذلك المدد من المزارعين والصنّاع، وهم قوام الهداكل وعمادها.

ما استقرت هذه الكلمات في مسامع الحاضرين حتى بدت عليهم آيات الاستياء والتذمر. فضرب رئيس المنجمين الأرض بقدمه حانقا ودمدم الكاهن مريابو بكلمات لم يفهم معناها. أما جاجابو فقد سأل رئيس الكهنة بقوله: وماذا اعتزمت؟ أجاب

أمينى: اعتزمت تنفيذ أمر الملك، ومساجمع هنا كهنة هياكل طيبة التشاور في هذا الأمر الخطير. وعليكم أن تبتهلوا إلى الله أن يضىء بصيرتكم بنور السداد ويويد أراءكم بالحق! فإذا بحثنا في المسآلة واستقر رأينا على شيء فيها قدمنا إلى الوالى وألزمناه قبوله. ثم سكت هنيهة وقسال: أيكم حضر الصلاة التي أقامها الوالى أخيراً؟ أجاب رئيس المنجمين: لقد حضرتها وقال أميني: تعال عندى بعد الوليمة. ثم أرسل نظره حواليه وقال: لم غاب شاعرنا عن هذه الحفلة البهية؟ وما أتم هذا السؤال حتى دخل بنطاؤر مسلما على الحاضرين وتقدم نصو أميني في طاعة وخشوع وسأله أن يأذن لتيتا الأعمى بمراققة نبسشت المكلف بعلاج الجريحة، فأجابه إلى طلبه ثم قال: ليبادر القوم بالذها ب، فلا يزال بعاكر بباب الهيكل وقد عيل صبره انتظاراً.

ما غاب بنطاؤر عن الأنظار حتى خاطب أكبر الكاهنين أمينى بقوله: أيها الأب المبجل.. لقد وافق منظر بنطاؤر سيابق ظنى به واعتقادي فيه الكفاية العالية وما أشبهه بإله الشمس وما أوفر الدلائل على أنه من سلالة كريمة وأصل عريق ف الشرف والمجد. قال أمينى: ليس أبوه إلا من فقراء الفلاحين في الأرض الموقوفة على الهيكل، ومع هذا فقد كان موفقاً حينما بعث بولده إلى المدرسة وتوليت بنفسى تثقيف عقله وتهذيب طباعه حتى حسار من نوابغ العصر في مصر. (١) قال الكاهن: وما وظيفته بالهيكل؟. أجاب جاجابو: تدريس النحو والبيان لطلاب الفرق العليا، دع أنه من الثقات في علم الفلك ورصد الكواكب وله خبرة واسعة بتفسير الأحلام.

⁽١) يدل المكتوب في أوراق البردى على أن المصريين لم يكونوا منقسمين إلى طبقات بحسب درجاتهم في الهيئة الاجتماعية، وأن أحقر الناس كان يصل إلى أسمى المراتب في الكهنوت والحكومة بعلمه وكفاءته.

وفي هذه الأثنياء كان بنطاؤر قد عياد فسأله جاجيابو: إلى أين يذهب بعياكر مع جراحنا الأبكم ورديله الأعمى؟ أجاب: إلى بيت بينم لعلاج الفتاة الجريحة، أما بعاكر فقد أنست منه غلظة الأخلاق توجب البعد عنه والنفور منه. قال أميني: لعله متذمر ميا ناطته به بنت أنات، وإذا صدقت في حدسي هذا فلا عجب أن سياء خلقه. قال كبير من الكهان: إن أخا بعاكر الذي برح المدرسة منذ سنوات كان لين الجانب سمح الأخلاق، أما هو فللإيزال وحشى الطبع ردىء الخلق. قال أميني: كان والده من أعيان رجال مصر المعروفين بسعة العلم وأصالة الرأى ومكارم الأخلاق، قال الكاهن: إذاً فقد ورث طباعه الفاسدة من أمه. قال أميني: كلا إن والـدته من اللائي. اشتهرن بالعفة والصون وكرم المحتد. قال بنطاؤر: وهل من القواعد المقررة أن يكون الولد شبه أبيه؟ أنظروا إلى الثيران المقدسة، أيوجد من بينها ثور يحاكي أباه شكلا أو لونا؟ قال جاجابو ضاحكا: يستخلص من قولك أنه لو كان أبو بعاكر العجل أبيس لما استحق ابنه أن يوضع بزريية أحد الفلاحين. قال بنطاؤر: إن خلقه الآن ما برح كما كيان بالمدرسة ولذلك كنا نسميه الحمار المتبوحش. وكان زملاؤه بالرغم من صلابة جسمه لا يدعون فرصة تمر إلا وعاكسوه وتحرشوا به. قال أميني: حقا إن الأطفال يجهلون الشفقة والحنان ويحكمون على الأشياء بظواهرها ولا يكلفون أنفسهم موونة البحث في أسبابها، فكثيراً منا رأيننا طلبة المدارس لايمينزون بين البليد منهم والكسول ولا بين الملتفت المنصرف إلى درسه والسلامي المنقطع عنه السفائف، فتراهم يتخذون الأول كالثاني هدفا لنكاتهم ومزحهم.. ولو دروا أن البلادة عيب غريزي ليس في قدرة مخلوق إصلاحه مهما أوتى من حول وحيلة لما ازدروا بصاحبها وحقروه في أعين العموم. ولو كان بعاكر في أثناء وجوده بالمدرسة على شيء من لين الجانب ودماثة الطبع لما صار مضغة في أفواه أقرانه ووسيلة يصرفون بها الهموم عن قلوبهم، ثم التفت أمينى إلى كاهنى خينو وقال: الذى أراه هو أن يرخى العنان للطلبة وأن لايحجر عليهم فى شىء من تصرفاتهم على شرط مراقبتهم عن قرب حتى لاينحرفوا عن جادة الاعتدال بالوقوع فى أحد الطرفين الإفراط أو التفريط. ذلك لأن منع الشبان من الاسترسال فيما تدعوهم إليه حدة المزاج وحمية الشباب من المزح والمطايبة يعطل أهم الآلات المساعدة لهم على فهم دروسهم، فإن من دلائل صحة النفس والعقل انشراح الصدر وسرور القلب. وهاتان الحالتان مرتبطتان كارتباط صحة البدن بالرياضة الجسمانية، وأرى أنه لا أدعى إلى توازن الانفعالات النفسية في طور الشباب ولا أبعث على اعتدالها من قضاء بعض الوقت في مزاح ولعب لتنشيط النفس من عناء الجد، فتستأنفه بعزيمة صادقة وهمة لا تقف دونها صعوبة. ولقد صدق من قال: «إن التلميذ أحسن أستاذ للتلميذ».

قال مريابو: غير أن بعاكر ما استفاد من أقرائه فائدة ، لأنهم كانوا ينفضون من حوله ويتصرزون من مخالطته لما رأوه في طباعه من الغلظة والجفوة والصلف فمقتوه وجانبوه. قال أميني: لا شك أنه كان طالباً تعساً ، بل أشقى الطلاب الذين وكلت تربيتهم إلى لتكلفه العظمة والكبرياء وبعده عن سذاجة التلمذة التي تتوقف عليها سعادة الحياة المدرسية، حتى إنه ليبدو — وهو في عنفوان شبابه — كأنه شيخ حنكته التجارب. ولعل الخالق جل جلاله قد سلب فؤاده نعمة التسامح الذي لا لذة ولا هناء في الحياة بدونه، فلقد كان يرى في ممازحة أقرائه إياه جنونا وفي مداعبتهم له اضطهاداً ومشاكسة. وبعيد عن الشك أن والده أساء إليه إذ قابل هذا الخلق منه بالتسامح فلم يحضه على الأخذ بمكارم الأخلاق وبالحسني في معاملة الناس. ولعله كان وقتئذ يعتقد أنه إذا تلظى ابنه بنار الغضب وهاج هائجه علوا وتجبراً

وتغشمرا هابه الناس وترشح لرتبة (موهار) الجيش المصرى. قال أحد كاهنى خينو: سمعت الكثيرين ينوهون باسم الموهار ويمجدون فعاله ولكنى مازلت أجهل حدود وظيفته، قال جاجابو: وظيفة الموهار إرشاد الجيش ببلاد الأعداء والسير في طليعته بشرذمة من الجند لاستطلاع أحوال الأرض من سهولة وحزونة وما يكون بها من الجبال والأودية وعبون الماء والمدائن والقرى ثم تدوين ذلك كله في تقرير يومى يشرح فيه ما عن له من الملاحظات وإرساله بعد ذلك إلى قائد الجيش الذي لا يتحرك إلى الأمام إلا إذا بني أوامره وتعليماته على ما دوَّن في ذلك التقرير اليومي.(١) قال كاهن خينو: يُستخلص من هذا البيان أن الموهار كما يكون بارعا في حمل البراع ينبغي أن بكونه في حمل السيف وإرواء ظباته بدماء الأعبداء. قال أميني: نعم، فقد كان والديعاكر كاتباً بليغاً ويطلا مقيداما وكانت تقاريره السريعة الدلالة على المراد -مع قصر عبارتها- تصور لقارئها تصويراً محسوساً حالة البلاد التي سيخترقها الجيش حتى لكأنه يشهد بياصرته وهادها ونجادها من قمة جيل شاهق ، وهو أول من لقب بالموهار أي البطل الشجاع. وكنان الملك يكترمه ويحترمه ويستنصحه مستمداً بآرائه السديدة. قال عالم خينو: إذاً فهو سليل بيت راسخ في الشرف، أجاب رئيس المنجمين: كيف لا وهو فرع شجرة أصلها ثابت في الأرض؟ بل هو في أسرته الكريمة شهابها الساطع ويدرها الطالع.. كان والده البطل (أسا) الذي أسبغ الملوك علب حلل الشرف والمجد وأفاضوا على أسرته العطاء وسنوا لافرادها الجوائز

⁽١) يؤخذ من أوراق البردى المحفوظة بمتحف لوندرة أن وظيفة الموهار عند المصريين تشبه وظيفة وزير الحربية في العصر الحاضر، غير أن الفرق بينهما هو أن الموهار المصرى كان يصدر التعليمات العسكرية بناء على خبرته الشخصية، بخلاف وزراء الحرب الآن فإنهم يصدرون التعليمات إلى الجيش من الغرفة المخصصة لهم في قصر وزارة الحربية.

والصلات، حتى إن الملك (هور الم -هب) لحم نسبه بهذا الشهم إذ زوَّج منه ابنة اخته فأصبح بذلك نظير وإلى طبية بل قسيمه في حق الترشيح لعرش الملك، غير أن رعمسيس الأول جد الملك الحالى حدم تلك الأسرة المؤثلة المجد هذا الحق بالقوة والغصب.. فقاطعه أميني قائلا: رت كلامك يا هذا، فإن رعمسيس الأول الذي تصفه بالغاصب إنما هو جدولي أمرنا الملك الحاكم الآن وفي عروقه يجرى الدم الملكي المنبعث فيها من والدته سليلة الإله (رع) . قال رئيس المنجمين: وهذا الدم ألا يجرى أيضاً في عروق الوالى؟ أجاب أميني : اعلم أن رعمسيس الثاني هـ ملكنا وصاحب الأمر والنهى فينا، وسيبقى كذلك حا شاءت الربوبية. ويبدو لى أنك وان اشتعل رأسك شيباً فقد نسيت أن كلم التحريض على الثورة أشبه ما يكون بشرر النار الذي تحمله الرياح -حيث يشاء القدر - فتأكل الشرارة الواحدة مدينة بأسرها. ثم التفت إلى بقية الكهان وقال لهم: أما أنتم صعشر الأصدقاء فكلوا مريسًا واشربوا هنيئًا ولا تتناولوا سيرة الملك بكلمة ولاتجاد لواف أمره القاضى بحشد المدد وإعداد العدد، أما أنت با بنطاؤر فعليك في بكرة الغد حِتَنفيذ أمرى بما عهدته فيك من مروءة وهمة. ثم انصرف بعد أن ودع الحاضرين . وحما أغلق الباب خلفه حتى قال أكبر عالمي خينو: إن ما اتصل بي من الأخبار عن رعيس طلائع الملك وما يقوم به من جلائل الأعمال لما يستوجب العجب والفخر.. فهل هو حقيقة على ما يذكر به من سعة التدبير وبعد النظر في العواقب؟.. ثم كيف يفور حيهذا القسط الوافي من الخصال الفاضلة وقد كان ف المدرسة معروفًا بالغباوة وعصيان الأوامر؟ أجاب رئيس المنجمين: لا محل وعرش الملك. قيال عالم خينو: وكبيف تنبذر منه المناصب العليا منادام أصحابها يتقلدونها؟ أجاب جاجابو: الدهر خيؤون لايؤمن، إذا صافاك يوما بقضاء مرادك

انقلب عليك أعواما وعاملك بغير ما تشتهى. وما نراه الآن ينطبق عليه المثل السائر: «العنب لا يعز على ولد صاحب الكرم» وقول البعض: «يكفى لولد البواب أن ينادى مرة ليفتح له الباب».

قال أحد الكهان ممن لزموا الصمت دفاعا عن بعاكر: لقد أخلص هذا الرجل للملك فأدى له بمثابرة وهمة وإقدام خدمات جليلة، دع شهرته بالتقوى وإيتاء المعروف فإنه لا يصرفه عنهما صارف أبداً. أما كان في عهد طفولته يشتري بكل ما يتحفه به أهله من نفقة الحيب القرابين الكثيرة ويقدمها إلى الآلهة بينما كان زملاؤه ينفقون مالهم في الملاهي ومالايفيد إلا الضرر جسما وعقلا؟ أظن ألا أحد يملك مثل ما عنده من الأحجية والتمائم والتماثيل المقدسة أو يقيم ما أقامه أخيراً من الحفلات الفخمة تذكاراً لوفاة والده، وجملة القول عندي أنه قدوة الشيان ونابغة هذا الزمان. قال حافظ الخزينة: نحن لا ننكر عليه هذه الخلال الكريمة فإخلاصه لوالده المتوفى حديثاً فضيلة نادرة المثال. قال جاجابو: ما تلك الخلال الكريمة إلا ثمرة مجاهدته لتقليد أبيه كي يقال عنه ومن يشاب أباه فما ظلم، على أني لا أجد من جوامع الشبه بينهما إلا مقدار ما تشبه الأورة البجعة والبومة النسر. ولو أنكم عبرضتم على أنظاركم أحوال الاثنين لوجدتم أن كرامة الأب وعزة نفسه صلف في الابن وتغشمر، وأن قسوة الأول التي كان يلطفها العدل والرفق استبداد في الثاني وعسف جائر، وأن مشابرة ذاك تصلب وعناد في هذا. إلا أن يصبح منع هذا أن تكنون ثروته التي تنتفع بها خزينة الهيكل شفيعاً له لدى حافظها الذي كان ينبغي عليه تفضيل الثمر المتناثر حول جدع النخلة اليابسة على الأثمار الدانية القطوف في أنضر الأشجار وأينعها. هذا ومازلت أعتقد أنه مهما قرّب من القرابين وصرف في سبيلها من الملابين فالآلهة لا تلتفت إليها ولا تشمله بالرعاية من أجلها، ولو كنت تدرى أن هذا الشاب

قد انتفذت أوداجه أذى وشرأ واتخذت الشياطين جسمه وكرا فلم يبق فيه حيز ذرة للإله (رع) لما أطريته إلى هذا الحد. قسال رئيس المنجمين: وهل سبرت غور قلبه ووقفت على مكنون سره لتحكم بأنه لهذا الاطراء غير أهل؟ قال جاجابو: سبرته وعرفت سره كما سبرت هذا القدح الذي ارتشف منه النبيذ المعتق.. سبرته وعرفته لأننى خبير بأحواله منذ خمسة عشى عاما، عليم بأن قلبه متقرح بقروح الغايات والشهوات وبأنه لاحظ له في الشفاء منها، ولكن أي ضرر من الاستفادة بما يجزله لنا من العطاء؟ ولئن يكن ماله غير حلال فكثيراً ما يعالج الطبيب جريحه بمر العلقم أو بوضع السم في الدسم. قال رئيسي المنجمين: أكلامك هذا عن ضغينة كامنة في صدرك على ذلك الشهم الهمام؟ فاضمطربت شفتا جاجابو وضرب صدره بيده وقال: الضغينة.. الضغينة.. نعم هي عاطفة امتلا بها هذا الصندوق العتيق.. اصبغ لقولي أنت يا رئيس المنجمين وأنتم محنثس السامعين واقتربوا مني جميعاً لتتلقوا هذا الدرس عنى .. إن للضغينة نوعين ضعينة الإنسان على الانسان، وقد وفقت والحمد لله لقهرها والتغلب عليها بعدمًا ذقت مرارتها أعواماً استنبطت من الخبرة فيها أن أشد الميول الفاسدة ضرراً بالمرء حقده على أخيه. لأنه إذا كنان حب الكسل يستفر النفس إلى النشاط والعمل فإن المضمي مع الضغائن يكون كالنار المدرة والسيل الجارف. والضغينة إذا غشيت القلب حالت بينه وبين أنوار الحقائق الساطعة وأضلته السبيل في ظلمات الغرور. لدا كانت الألوهية تعفو عن جميع الخطايا إلا خطيئة الحقد التي تذهب بكل حسن حميل . أما ضغينة النوع الثاني فقد بارك فيها الآلهة الذين ابتهل إليهم ليل نهار ألا يمحوا أشرها من قلبي، وحدها كراهة الشر والكذب والظلمة. وإنى لأسائل الآلهة أن ينتقموا منى إن كنت أبغض بعاكر نجل صديقي وأن يلقوا بقلبي في غياهب التظلمة فريسة للشياطين إذا خالط نفسي نفور

من ذلك الشاب المدنس الذى ظن أن يستميل الآلهة إليه أو يكسب محبتهم بما يقدمه إليهم من النبيذ والحيوان وساوم على السعادة كما يساوم المرء على رداء يلبسه أو دابة يركبها. لقد امتلأ فؤاد ذلك الخبيث بالشرور والأحقاد فلا عجب إذا رفضت الأرواح العلوية قرابينه ورفستها أنت يا رئيس المنجمين كما ترفس بقدمك إناء يشمل انعقارب والأفاعى. ولقد شهدته يصلى مبتهلا إلى الله، وما صلاته إلا رياء ونفاقا أراد بها الظهور بلباس التقوى والورع حتى يسهل عليه الفتك بشاب في قلبه منه ترة وسخيمة لا ليتحلى بمكارم الأخلاق ويسترضى بعبادته الملك الخلاق.

قال رئيس المنجمين: ألم تتضمن صلوات الأقدمين توسلا للآلهة أن يقهروا أعداءنا ويلقوهم تحت أقدامنا؟ ومع هذا فكثيراً ما سمعت بعاكر يستنزل الرحمات على الموتى من آله وأقاربه. قال جاجابو: لقد وقفت على أسرار الكهنوت فكيف غاب عنك أن المراد بالأعداء فى تلك الدعوات شياطين الظلام والأمم الأجنبية التى تضمر لمصر السوء؟ قال سبتاح رئيس المنجمين: ولد بعاكر فى ساعة نحس إذ لم تغدق عليه الإلهة هاتور نعمة السرور التى يسمو لإحرازها الشبان، لأنه لما شرع فى الاقتران بفتاة كن متدلها فى حبها جاء مينا حارس ركاب الملك فأخذها منه غصباً وتزوج منها، فكيف بعد هذا يهون إقناعه بالعدول عن مخاصمة من سلبه أنفس ذخر عنده؟ قال أحد كاهنى خينو: وكيف أمكن مينا أن يحل رباط الخطبة وهى فى شريعتنا عروة وثقى لا انفصام لها؟ (١).

قال رئيس المنجمين: كان بعاكر قد شغف حبا بنيفرت ابنة خالته راتوتي أجمل

⁽١) جاء في قطعة من رواية شنيو الكتوبة على ورقة بردى محفوظة بالمتحف المصرى ما يأتى «اليست الشريعة هي التي تربط الزوج بالزوجة».

غادات طيبة فخطبها من آلها، ثم حدث أن توفي والده في الحرب وسأل الملك قبل وفاته أن بعن ابنه بعاكر خلفا له. فلما تولى هذا المنصب وجاء بجثة والده إلى القطر المصرى حيث دفنها عاد أدراجه إلى آسيا للقيام بأعباء وظيفته في الجيش، وفي أثناء ذلك لاحت له فرصة فبادر إلى طبية لاستجلاء محيا خطيبته غير أنه ما كاد يصل إلى (ثانيس) مدينة رعمسيس حتى نمى إليه خبر زفافها على مينا أحد ضباط حاشية الملك، فهاج وماج وزأر وزمجر. وغير خاف أن الأسف على مفقود يزداد بنسبة قيمته، وقد كانت نيفرت في عين بعاكر أجمل نساء الأرض، فكيف لا يكاشف بالعداوة والبغضاء خصمه الذي قضى على أمانيه مالم يكن الدم الجارى في عروقه دم ضف ع لا دم إنسان..وهل يلام عندئذ إذا قرب للآلهة مئات البقر ليصبوا على عدوه مينا جام غضبهم وسخطهم؟ قال جاجابو: إنه لخطأ بين أن تقبل هذه القرابين مادمت واقفا على سر الغرض القصود بها وعارفاً بكنهها. ولاريب أنني لو كنت من أهل هذا الهيكل لامتنعت عن عبادة الآلهة فيه لأن كهانه يحققون أماني امرىء طفح فؤاده بالشرور، في مقابل مال ينقدهم إياه، ومع هذا فإن الإله القادر المدبر لشؤون هذا العالم بما سنه من النواميس الأبدية الخالدة لن يتقبل قربان بعاكر وإنما يلقى به إلى شياطين الشر ليذيقهم مرارة طعمه. أما أنت فلا لوم عليك ولا تثريب لأنك بصفتك الحافظ لخزينة الهيكل لايهمك في الحقيقة شيء سبوي أن تمتليء الحظائر بحيه وانات القرابين، وإنما لا تنس أن (سيت) إذا راك راضياً عن توارد القرابين و وفرتها طار فرحا وعرك يديه الحمراوين (١) إشارة إلى الاغتباط والسرور. ولقد

⁽١) سبت هو إليه الشر المثل الضطراب العناصر وعدم التالف في طبيعة الكون. ويقول قدماء المصريين إنه كان أحمر اللون.. دلالة على الشر والفساد، وكانوا يعتقدون أن ذوى الشعور الحمراء من الأشرار المفسدين.

دنس بعاكر حظيرة هذا الهيكل المقدس بما استنزله على مينا من اللعنات والضربات والطاعون والأسقام والموت، وبالغ في تدنيسه إياه بدعائه إلى الله أن يرمى نيفرت بالعقم فلا تلد ذكراً ولا أنثى يكون لها ولزوجها زينة الحياة الدنيا، وأن يملأ قلبها بالغموم والأكدار. قال رئيس المتجمين: إن الآلهة تقبلت دعواته فلقد مضى على زواجهما أربع سنوات لم يتمتع مينا في خلالها بمعاشرة زوجته سوى أسابيع قليلة لاشتغاله بالحروب ثم هي لم تلد إلى الآن، ولست أدرى لماذا لا تشفق بعد ذلك على بعاكر مع علمك بميله إلى تعضيدنا بماله؟ قال جاجابو بصوت خافت: إنى أريد الاستفادة بماله كما استفاد به رئيس الكهنة الذي تتساوي عنده الوسائط ما أدت إلى الغرض المقصود. ألم تأمرنا الآلهة بسلوك طريق الشر للوصول إلى الخير. مع يقاء كل شيء على حالبه فلا يسمى الشرخيراً ولا القبيح جميلا؟.. إني أنصح إليكم أن تستنزفوا أموال بعاكر على أن تعاملوه بحسب أقواله وأفعاله حتى لا تتهموا بالحيد عن محجة الصواب. دعوا مواشيه تدخل الحظائر بسرسم القرابين وأمواله تتراكم بخزينة الهيكل، ولكن لا تدنسوا قلوبكم باعتقاد أن الآلهة تتقبلها.. ثم لابد من إرشاد ذلك الشاب المفتون إلى الصواب، إذ من واجباتنا جميعا غرس بذور الخير والطاعة في النفوس التي يعهد إلينا تهذيبها. قال بنطاؤر: ما أوسع رحمتك من شدتك وعدلك في رحمتك! قال جاجابو وقد نهض متحفزاً للانصراف: لقد كشفت لكم عن قروح ذلك الرجل فعليكم بعلاجها واعلموا أن إطراءكم إياه يزيد هذه القروح استنهاراً ويذهب بالأمل في شفائها. أما إذا ذكرتموه بعيوبه فلعله يهتدي لإصلاحها. وإذ لم تعرق هذه النصيصة في نظركم فاعلموا أنني سأجيء إلى هنا وبيدى مدية القرابين فأطرح المريض أرضا وأشرح جسمه تشريحا يقيه شر السقوط في مهواة الخطيئة. وكان رئيس المنجمين في خلال هذا الحديث يهز كتفيه

ويبتسم. فلما انصرف جاجابو التقت إلى عالمي خينو وقال: لقد سمعتما الآن كلامه الذي اعتدت سماع مثله، وكان الأولى له أن يكاشف به صغار الطلاب لا كبار الكهنة. نعم، إن قوله يدل على سلامة الطوية وشرف الغاية، غير أنه لا يتناسب مع الموضوع ولايطابق حقيقة الواقع.. إذ بينما هو يحض على التمسك بتلك المبادىء نسمع الرئيس أميني يقول في كل الأوقات وإن الوسائل تبرر الغايات».. أي أنه إذا توقف السلام العام على تضليل مئات الناس عن سبيل الحق والصواب، فهذا التضليل جائز مادام أنه يؤدي إلى غاية شريفة ويرمى إلى غرض نبيل.

الفصل الخامس

كيف أيقن بنطاؤر أن الأميرة رقيقة الإحساس والشعور

ادبرت جيوش الظلام فرشقتها الشمس من كنانة أشعتها بالسهام، ووالت رمى النبال حتى تكسرت النصال على النصال، وهبّ نسيم الصباح معطراً بأنفس الارواح، وانعكس شعاع الشمس على الرمال وصخور الجبال، فتلألأت كالماء إذا سامتته الاضواء، وآبت الاسود إلى أوجارها وهبت الطيور من أوكارها، وانتشر الرجال في الحقول يسقون الارض ويلقون فيها البذور ويجرون إليها الماء وتحلق تلك الطرور فوقهم في السماء، وتراحم المرسى بروارق الروار وسفن التجار مشحونة بصنوف البضاعة من حاصلات ومصنوعات ، وأخذ النوتية يتلمسون ظلال الاشجار أو يجلسون تحت جدار، في انتظار الزوار الدين يقصدون الهياكل والمقابر زرفات وشتى، وأوى أحد المتسببين إلى شجرة جميز يبيع في ظلها إلى الغادين والرائحين بعض الأغذية والمسكرات، فأحاط به النوتية وأخلاط الهمج يشترون منه تارة ويتضاربون مع بعضهم أخرى، حتى إذا انحطت قواهم وخارت عرائمهم عادوا إلى السفائن فناموا على سطوحها في حر الهجير مستظلين بأكمامهم أو بالأكواخ الصغيرة المتخذة من سعف النخيل.

وكان الناظريرى بقرب هذا المكان أفواجا من العبيد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون من الصناديق الملوءة بالقرابين المصدرة إلى الهياكل من أصحاب النذور، وإلى جانبهم جماعات أخرى منهم يسحبون بالحبال صناديق ملئت بالأحجار المنحوتة ووضعت على اسطوانات خشب، كان جماعة من المسخرين في نقل هذه

يفضران بمنظرهما الجميل أو يباهيان بسمو قدر الأميرة بنت أنات كريمة رعمسيس التي كانت تسوسهما، فبغمزة واحدة توقفهما أو تمر بهما إلى يمنة أو يسرة حسب إرداتها.

وكان رجلان يركضان وراء هذه العجلة يحمل كل منهما مروحة كبيرة من ريش النعام الناصع البياض ليحجب بها أشعة الشمس عن مولاته ويتبعهما ثمانية رجال يحملون على الأعناق محفة استوت فيها نيفرت زوجة مينا تتبادل مع الأميرة ما رق وطاب من الحديث. وكانت هي وبنت أنات على جمال نادر وحسن وافر غير أنهما كانتا تختلفان عن بعضهما بصفات ومميزات خاصة تزيدانهما ظرفا ولطفا. أما نيفرت فقد اجتمعت فيها محاسن الجمال المصرى بمميزات الجاذبة للقلب الخالبة للب من امتشاق قد ونحول خصر ولين عطاف ووضاحة حاجبين وسواد شعر ودعجة عينين. وكانت بنت أنات تناهز التاسعة عشرة من عمرها وكانت أرق من نيفرت بشرة وأنقى منها لونا وكانت تنم عيناها على قريحة وقادة وذكاء نادر وشعور لطيف كما كان أنفها الأقنى يدل على أنها من سلالة سام (۱) وكان يحيط بشعرها المرسل إلى كتفيها من نقطة انسدال منديل حرير معلم بالأبيض والأزرق يستتر مكان العقدة منه بخاتم ذهب بصورة ثعبان على رأسه تاج مرصع بالنيلم وكان شعر فودها الأيسر مرسلا بشكل غديرة تتخللها أسلاك الذهب إلى ما يواذى

⁽١) توجد جملة صور لرعمسيس الثانى أجملها وأتقنها الصور الموجودة فى متحف تورين بإيطاليا، ويظهر منها أن أنفه أقنى وأشبه شىء بمنقار النسر وأقرب فى الشبه أيضا بأنف نابليون الأول.

⁽٢) كان التعبان عند قدماء المصريين رمنزاً على الملك والسلطة يمثل منا لها من الحق ف الإعدام والعفو، كما أن الثعبان إذا لم يلدغ لا يقتل، وكان فراعنة مصر يزينون تيجانهم بصورة الثعبان والنيلم هو الياقوت الأزرق.

شحمة الأذن وعود قدها اللدن ملتفاً برداء من الحرير القانى الدقيق النسج مثبتة عليه بنطاق من الذهب حمائل مزركشة. وكان حول جيدها الاسطواني عقد من اللؤلؤ والأحجار الكريمة يداعب نهديها البارزين في كل زفرة وشهيق.

وكان يتبع الأميرة ضابط من الأشراف وشلاث محفات، في كل محفة اثنان من ضباط البلاط الفرعوني واثنا عشر عبداً يتلوهم حملة القضبان فثلاثون جندياً مرتدين بأردية قصيرة وعلى رؤوسهم المناديل وفي أيديهم اليمني خناجر كبيرة وفي اليسرى سعف النخل رمزاً إلى مهتهم السلمية وتتدلى السيوف بحمائلها إلى مؤازرة القدم. وكان يحف بهذا الزي العظيم مئات من الأبكار الناهدات يحملن على رؤوسهن جرّات الماء يوافين بها من يصيبهم الظمأ من العساكر ورجال الحاشية. وكن يجارين الجياد الصافنات وتلك القدور فوق رؤوسهن لا تميل يمنة ولا يسرة ولا تتداعي إلى السقوط.

و كان رجال بطانة الأميرة يستظلون بظلات يحملها خدم يركضون خلفهم، وكانوا يتصدئون بلغو الحديث، وكانت الأميرة تعطف على جيادها لأن الدباب كان لايفتر عن لسعها كما كان يتبع العسكر وحملة المحفات والظلات. وكانت البنات الحاملات جرار الماء يجارين تلك الجياد ويسابقنها على حصباء تتلظى بأشعة الشمس حتى كادت قلوبهن تتمزق وأعصابهن المتوترة تنقطع لشدة ما نالها من الإعياء ولا راحم لهن، إذ كان الجميع بين لاه بحديث أو مشفق على حيوان أو متزلف للأميرة بعبارة مدح أو استحسان. ومازال الركب سائراً حتى وصل إلى منعرج طريق قريب من مدخل الوادى الذي فيه مقبرة الأسرة الملكية المنقرضة، فأشارت الأميرة بوقوف الركب فوقف. وما هي إلا هنيهة حتى علا في الأفق غبار

انكشف عن الموهار بعاكر فى عجلة يجرها جوادان أدهمان من جياد الشام كان الدم والزبد يتساقطان من لجاميهما بعد إذ قطعا المسافات الشاسعة خبباً على أحجار صلدة، وما أن أدرك الركب حتى هبط من عجلته منفتلا نحو الأميرة فبعد أن حياها بتحية الاحترام قال لها: فى هذا الوادى دار أولئكم الذين ستشملهم الأميرة بنعمة الزيارة، فهل تأذن لى بإرشادها إليها؟ قالت الأميرة: الأفضل يا بعاكر أن نذهب إليها على الأقدام ليرتاح رجال الركب ونساؤه. فانحنى بعاكر إشارة الطاعة، أما هى فوثبت من عربتها وثبة الغزال بعد أن أسلمت أعنة الجياد إلى أحد أتباعها وتلتها فى النزول من المحفات نيفرت والوصيفات، وتسلل حاملو الظلات والجنود إلى ناحية وقفوا فيها شاخصين فى الأميرة يرتقبون أوامرها، فأمرتهم بملازمة أماكنهم وأن لايصحبها سوى بعاكر ونيفرت.

ثم جدّت في السير على حصباء تتلهب حرارة وأدركت أن نيفرت لن تستطيع مسابقتها فخفضت من غلواء سيرها. وما بلغت إلى آخر الطريق حتى وقف بعاكر بغتة. وكان وقوفه تجاه سور هبطت عليه نسور تجردت رؤوسها من الريش ولزمت السكون بحيث يخيل معه للناظر من هيئتها أنها جامدة باردة. فاقبل نحوها ثم جثم أمامها إعظاماً لها لأنها درجت في هذه البقعة باسم الآلهة التي كان سكان طيبة يعتقدون أنها الحامية لحمى مدينتهم فاقتدت به بنت أنات ونيفرت.

وأشار بعاكر بسبابته بعد ذلك إلى كوخين مبنيين بالآجر وطمى النيل قائلا: ذلكما كوخا والد الفتاة الجريحة. فانطلقت بنت أنات نحوهما واجفة الفؤاد مضطربة القلب منزلزلة القدم وتبعها بعاكر حتى إذا بلغت الحائل القائم دون الكوخين طرق أذنيها أنين مستطيل وبث متقطع ، وسمعت نيفرت هذا الأنين

فاخذها الروع وترامت على بنت أنات ثم وقفتا تحدان البصر في بعضهما لشدة ما نالهما ولبثتا كذلك وقتاً قالت الأميرة للموهار بعده: هيا اسبقنا إلى المكان. فصدع بأمرها وقال متبسما: ألا يحسن أن ندعو إلينا هذا الرجل لنقى أنفسنا الدنس بالوقوف ببابه؟ وكانت نيفرت تحدق في بنت أنات بعين المبتهل الراجى ألا تدخل. فقالت الأميرة بصوت تدل نبراته على السادة والإمارة: لست أخشى الدنس ولا أتقيه، فهلموا بنا ندخل. ولم يكن الموهار برح مكانه فقال: أتريدين أن تستنزلى على نفسك غضب الآلهة. غير أن الأميرة كانت في أثناء هذا الحديث اجتازت الحائل وأشارت إلى نيفرت باقتفائها فبسطت هذه ذراعيها استنكاراً وضرعت إلى مولاتها أن تحجم عن فعلها. فضحكت هذه وهزت كتفيها استخفافاً ثم لم تكن إلا صرة الحالب حتى دخلت وجار الحانوتي وغابت عن النظر فوجدت به معزتين وحماراً ودجاجاً يفحص الأرض.

ولقد أزعج الأميرة هـول ما رأت، لأنها اعتادت رؤية المناظر السارة والمشاهد البديعة. على أن انزعاجها لم يك تقرفاً أو ترفعاً بل شفقة وحناناً على أرباب ذلك المسكن الحقير، وأخذ منها العطف بحيث ودت أن لو تنكرت بزى الشحاذين واطمار الفقراء حتى لا يتنبه الحانوتى وآله إلى قياس الفرق بين حالهم وحالها وحتى لا يتراءى لأنظارهم ضعة قدرهم وسفالة مقامهم في الاجتماع الإنساني، فتكون كالملك المتجبر الذي يتعمد الجلوس إلى مائدة رص فوقها شهى الطعام ورائق المدام ثم يعرض عليها أفراد رعيته وقد عضهم الجوع بنابه.

وكانت كلما جالت بنظرها ف أنصاء الوجار وضح لها الفارق العظيم بين ما تعودته من المناظر الفخمة وبين ما تشهده فيه من آثار الضعة والفاقة، وشعرت

بقلبها الحنون تحفزه الآلام. وكلما طرق أذنيها أنين الفتاة الذى يستمطر من العيون الدمع الهتون ،ضاق صدرها واحتواها اليأس لعلمها أنها سبب شقاء هذه الفتاة وعذاب الها.

وقد تمنت الأميرة أن لو تعود إلى مكانها وتخلص من هذا المنظر المؤلم لولا أنها بلغت إلى نقطة لا تحمد معها العودة. ولهذا ظلت ثابتة في مكانها تجيل الطرف حواليها في دلالات الآلام وبراهين الأحزان. وكانت كلما أمعنت النظر ازدادت يقيناً بعجزها عن تخفيف مصاب القوم بالتأسى والسلوان، وأدركت أن سلطتها الملوكانية ظل زائل وأن الهدايا الفاخرة التي أتت بها لاسترضاء الجريحة وآلها زهو باطل. لذا رجعت على نفسها باللائمة إذ قالت: ليت كان مجيئي هذا في مظاهر الخشوع والابتهال لا في مجالي الأبهة والجلال.

أما وجار آل الفتاة فكان لاينفذ الضوء فيه إلا من كوة صغيرة في سقفه الواطئء ومن باب ضيق. فلما وصلت الأميرة إلى الباب رأت وسط الـوجار عجوزاً قـوست الأعوام ظهرها وكسا الشيب رأسها، تلبس ثوباً أزرق من القطن مشقوقاً من الأمام بحيث يبدو منه صدرها وقد وشم بشكل نجمة منبعثة الأشعة. وكانت تفترش الثرى وتضم فتاة إليها يظهر من تناسب أعضائها أنها هيفاء القد ومن بياض وجهها وقدميها المتدتين نحو الباب أنها من الفتيات اللائي سباهن الجيش المصرى في حربه مع أقـوام الشمال. وكان بالقرب منها شيخ طاعن في السن يتحسس بيده هاتين القدمين مدمدماً بكلمات متقطعة لايفهمها السامع ولو داناه.

أما الجريحة التى كانت خشنة الثوب الذى كان لايستر غير عورتها وجزءا من جسمها فكانت في وضعها السالف وانطباق جفنها قليلا أشبه بالطفل إذا استهوته

الأحلام فاستعذب المنام، لولا أن شفتيها كانتا من أن إلى آخر تتشنجان تشنجاً يدل على شدة ألمها وزوال لذة أحلامها.

وكان شعرها النحاسى اللون المرسل بين كتفيها مرصعاً بورود ذهب بنضرتها الحزن الشديد على ما نزل بصاحبتها من الجراح في صدرها ونهدها على أثر مرور عجلة الأميرة فوقها. أما بنت أنات فقد لفت نظرها هذا المنظر المؤثر ومضت في تيار الأفكار بينما كان نبسشت يجس نبضها ويعد ضرباته، وخلفه تيتا الأعمى يرتل التعاويذ والرقى، وكان من آن إلى آخر يفتح حقيبة العقاقير الطبية فيتناول منها سائلا يقطره على الجرح ليسكن من الآلام.

وكان بجانب الجدار نسوة متفاوتات في العمر تقاطرن من كل فج وحدب حين بلغهن خبر المصاب لتعزية آل الجريحة فاسترسلن في البكاء حتى أحرقت الدموع مآقيهن وحزت في جلباب خدودهن، وكانت كل منهن تقوم تلو الآخرى لتجيء بماء في إناء من صلصال ليغسل الطبيب به الجرح الفاغر. فكان كلما صبّ شيئاً منه على صدر الجريحة، رجفت أعضاؤها وتفتحت عيناها وأرسلت منهما إلى واحد من الواقفين حولها نظرات تنم على مقدار ما عراها من الدهشة المقترنة بالاحترام له والارتياح لرؤيته. ولم يكن بنطاؤر بحيث ينتبه من غفلته إذ كان متطامنا إلى جدار يرتقب وصول الأميرة، ولكن اتفق أن تلاقى نظرها بنظره فلم يتمالك أن بسط يديه ضارعاً إلى الله أن يسبغ عليها حلة الشفاء. ثم عاد فأطرق برأسه وانصرف إلى ما كان فيه كما لو كان ارتقابه حضور الأميرة الأمر الوحيد الذي يجول بخاطره. وكان مجيء بنطاؤر إلى هذا المكان في شارة الكهان وشوارهم الأبيض ليـؤدى ما كلفه به أميني من إنـذار الأميرة، أي أنها إذا تخطت عتبة بيت بينم إلى داخله فقد

استهدفت نفسها لعقوبة القانون الدينى، وهى استحالة تطهيرها مما يلحقها من الدنس مالم تلتمس من الكهان الصفح عنها. وكان كلما تدبر ما عهد أمينى إليه به من تعزير الأميرة لأنها أتت أمراً يعده من أشرف الفعال وأوجبها للحمد والتمجيد أحس بعبء تلك المهمة على عاتقه ومخالفتها لاعتقاده.

ولقد أسلفنا أن مخالطة بنطاؤر لنبسشت أثرت في حالبه فوسعت نطاق عقله وطهرته من أوضار الاعتقادات الباطلة وفتقت ذهنه لخواطر وأفكار لو جهر بها في حضرة زملائه لما تسردد الرئيس أميني في تسفيه رأيه ومعاملته معاملة الملحدين باعتبار أن تلك الخواطر والأفكار إن هي إلا نزغات شيطان رجيم ووساوس تدعو إلى الثورة والانقلاب.

ومع هذا قما برح بنطاؤر شديد التمسك بالخيالات وفاسد الاعتقادات لمحض المسايرة والمجاراة احتفاظاً بمركزه في الكهنوت وحتى لا تقوته قرصة الصعود إلى أشرف الرتب. ولا جرم فقد كان المصريون يعتبرون الكاهن أنبه ذكراً من التاجر والفلاح وأسمى قدراً من الجندى فكان لذلك لا مندوحة له عن العمل بحسب أصول الدين، وإن يكن في ذاته لا يسلم بصحة الأسباب التي أفضت إلى وضعها.

ومن أخص ما كان بنطاؤر يتظاهر بالتسليم به من أصول الدين وقواعده اعتبار المحنطين قوماً مغضوباً عليهم، وأن من مظاهر هذا الغضب قضاء الدهر عليهم بمزاولة هذه الصناعة، وأن المحنط لايملك لنفسه الحق في اتخاذ حرفة سواها يزاولها ، لأنه لايجوز له -بمقتضى تلك الأصول والقواعد - التملص من عمل يضطره إلى أدائه حكم الوراثة عن أبيه وجده ، ولسوف يؤديه من بعده رضوخا لهذا الحكم أبناؤه وأحفاده ومن بعدهم من الأجيال . وكان الكهان يعللون

هذا القضاء المبرم بأن المحنط إنما يكفر بمزاولت حرفته الوضيعة عن سيئات وخطيئات زلت فيها قدمه قبل حياته الحاضرة باعتبار أن روحه حلت سابقاً في أحد الأجسام ثم فارقته ساعة وفاته تلتمس الحياة الأخرى، غير أنها طردت منها لما ارتكبت من الآثام الكبار وقضى عليها بالحلول في جسم جنين من أجنة طبقة المحنطين السافلة اللعينة لتحاكم عقب الوفاة أمام قضاء العالم السفلى.

وما تخطى بنطاؤر باب بيت المحنط حتى أحس باضطراب وتقزز في نفسه، ولاسيما إذ تذكر تلك النظرية الحلولية وفتح لها باب إيمانه. وكان الشيخ الهرم يخالسه النظر فقال له معترضاً في دهشة: هاك أحد ذوى الثياب البيضاء.. أفيجور أن تحول المصيبة الدنس فتجعله طهراً؟ فسكت بنطاؤر ولبث الشيخ يدلك قدمى الفتاة بلطف، عملا بإشارة الطبيب. وكانت حركة يده منتظمة في ذهابها وجيئتها انتظام عجلة الناعورة في دورانها إذا طردت القوة المحركة لها.

أما بنطاؤر فقد تخبل في أمره حين سمع كلام الشيخ وأخذ يسائل نفسه: ما مراد هذا الرجل بقوله إن المصيبة تمحو الدنس؟ هل المحو خاصية من خواصها، أم هو صفة طارئة عليها؟ نعم إن النار تطهر المعادن من الخبث وتنقيها، والرياح تقشع السحب وتقصيها، ولكن لم لا يصح تطهير الإنسان من دنس لصق به ولم يقض عليه بالبقاء طول عمره متمرغاً في حماته؟ ثم التفت إلى المحنط فانس منه هشاشة تذكر معها ما كان بين والده وهذا الرجل من قرائن الشبه، فهاجت هذه الذكرى من نفسه طائفة من حوادث الماضى الدفينة فيها. ومد نظره بعد ذلك إلى العجوز امرأة الشيخ فتبين في وجهها إمارات القلق والحزن، وراها تنتفض من أن إلى أن انتفاض عصفور بالله القطر أو تنكب على الفتاة كلما ضعف نفسها أو اشتد خفقاًن قلبها،

فخشع لهول ما رأى ووجم، وخيل له أن باباً موصداً انفتح أمامه على مصراعيه فتراءت له حوادث الماضى كأنما قد صورها مصور بارع وبدا له شبح شخصه لما انتابته وهمو صغير أعراض الحمى التى أنهكت قواه وأكلت منه وشربت ولاح له مثال أمه تحوطه بصنوف العناية وتشمله بمظاهر العطف والرعاية وتلزم فراشه ليل نهار ثم استخلص من مجموعة هذه المراثى المروعة ما حقق له أنها كانت قدوة النساء في العطف على الأبناء. ولكنه لم يلبث بعد مقارنته إياها بالعجوز في الشفقة والحنان —هذه عليه، وتلك على ابنتها—أن ظهر له بون ما بينهما في ذلك وأن حنان والدته عليه ما هو إلا قسوة إذا قيس بحنان العجوز.

وما انتهى بنطاؤر من هذه المقارنة حتى أخذ يناجى نفسه بقوله: إن الحب الطاهر واحد لا يتعدد وكل لا يتجزأ لأنه مستمد من حب ايزيس لهوروس.. أى من حب الأم ولدها. وإذا كان ولع العجوز بالفتاة حقيقة لا مراء فيها، فينبغى أن يكون هذا الولع مشتقاً من ذلك الحب الربانى وطاهراً مثله من الدنس، وإذا كان مصدر الطاهر الطهارة فلا محل لما زعمه الزاعمون من دنس المحنطين والتصاق هذا الدنس بمضالطيهم أو الداخلين في بيوتهم.. تلك هي الحقيقة البيضاء التي لا تحتاج في تفهمها إلى عناء.. وإذا قلنا إن القدرة الربانية بثت في اللبؤة الحنان على جروها وأودعت الكركدن الرفق بصغاره – وكلاهما يستمد روحه من الشيطان – أفلم يك أدنى إلى الصواب أن يكون الإنسان أشفق على بنيه وذراريه من الحيوان؟

رفعت العجوز رأسها رويداً رويداً عن جسم الفتاة بعد أن ظلت بضع ساعات منكبة عليها لأن الرجاء ف نجاتها من الخطر المحدق بها قد عاودها لما تحققته من دلائل مشولها للشفاء، وتهلل وجهها فرحاً وأنشأت بعد إذ استقرت مطمئنة ف

مكانها تبشر الطبيب وزوجها بهذه البشرى. وكان لايزال زوجها يدلك قدمى الفتاة بيده اليسرى فبسطها مع اليد اليمنى ليحمد الله على هذه النعمة واقتدت العجوز به في القيام بمفروض الحمد.

وحانت من بنطاؤر التفاتة نصو العجوز فرأى أثار الورع بادية على وجهها وراعه منها مشاركتها زوجها في التوجه الكلي إلى الربوبية فكانا يمثلان في وضعيهما أنئذ معنى التجرد عن المحسوسات والصبو بجوارحهما إلى على الذات، ولم خالطه ريبة في شدة شغف المرأة بحب الفتاة ومررّت بخاطره ذكرى ممات أخته الوحيدة حينما ترامت أمه عليها والدموع تنحدر من ماقيها، وكيف كان والده يضرب الأرض بقدميه جزعا وياسا وينزع شعر رأسه وجداً وحزنا، وقال: أعظم بورع هذا الرجل وأكرم بحنان امرأته، وإن أعجب فعجب منهما تلك المسارعة إلى حمد المذيم على ما أولاه من النعم.

منذ هذه الأونة دب إلى قلب بنطاؤر دبيب الشك في صحة ما يؤمن به من المبادىء الدينية فأخذ يقارن بين الإنسان والحيوان، إذ قال: تحب الضباع صغارها ولكن الحيوان لا يضارع الإنسان فيما رصد نفسه له من استطلاع الحقائق الربانية وتسنم ذرى الكمالات الأدبية المجردة من كدورة المادة. وبعد صمت قليل قال: لاعقل للحيوان يفكر به ولا يحرجى أن يدبره عقل ما دامت الربوبية الأبدية البقاء.. ذلك لأن الحيوان متجرد من آثار الحياة العقلية، بل من بعض مظاهر الحياة الجثمانية نفسها حتى التبسم، وهو من أيسر هذه المظاهر. فالحيوان من هذا الوجه يشبه الطفل في أول عهد وجوده من جهة أنه لا يتوافر فيه أثناءه سوى القوى الحيوية التي هي روح الحيوان. ولكن لايمر بالطفل زمن ينفذ فيه شعاع الروح

الدنيوية, أى الإدراك العام الهادى للنفس في ظلمات الحياة حتى تبدو مظاهره في أول ابتسامة تتحرك بها شفتاه. وليست هذه الابتسامة أقل في صفائها سطوعاً من نور الحق الذي منه تنبعث وإليه ترتد. ولقد شهدت فتاة المحنط تبتسم كذلك الطفل وككل مولود حملته أمه ووضعته، فلو كانت مدنسة ولم يفرق بينها والمخلوقات فارق لما شاركتهم في الابتسام الذي هو أول مظاهر الإدراك الحيوى.

مضى بنطاؤر فى تيار هذه الهواجس وعرض على ذهنه ما خطر له من أسباب المقارنة والقياس حتى تملكت نفسه الشفقة على تلك الفتاة فجثا على ركبتيه ضارعاً إلى من بيده ملكرت كل شيء وعنده مفاتح الغيب أن يصلح الأحوال ريحسن المال. وكان دعاؤه منبعثا من قلب سليم وصاعداً إلى ذلك الخالق المبدع الذي كانت تحرم الأسرار الكهنوتية عليه الجهر باسمه الأقدس لا إلى الآلهة الكثيرة التي يغالى الشعب فى تمجيدها لإدراكه إياها بالحس وسهولة استطلاعه حقيقتها مع ضعف عقله وقصر نظره. وما أمن بنطاؤر بهذه العقيدة حتى توجه إلى بارىء النسم مبتهلا أن يأخذ بناصر عشيرة المحنطين التي ضربت عليها الذلة والمسكنة وكادت تنقرض يأخذ بناصر عشيرة المحنطين التي ضربت عليها الذلة والمسكنة وكادت تنقرض يمده بروح من عنده ليهتدى في طريق الحياة إلى جادة الحق والصواب، وأن يوفقه لتبديد سحب الشكوك التي غشيت بصيرته ليتم ما عهد به أداؤه على ما ينبغي من الحكمة والسداد.

وما أتم الدعاء حتى وقف في مكانه الأول فشيعته الفتاة بلفتة من لفتاتها. وكان كأنه قد نشط من عقال الخمول وزوده إيمانه الجديد عزماً لم يعهده قبلا فأخذ يفكر فيما لابد له من موافاة الأميرة به عند لقائه بها وكان يعرفها قبلا إذ رآها مرارا

فى الحفلات الدينية التى تقام عادة بطيبة الأموات. ولطالما أعجب بحسنها وافتتن بجمالها كفيره ممن كانوا يشيعونها بنظرات الحب ولواعج الغرام كلما مرت فى زيها العظيم، غير أن هذه المعرفة لم تتعد حدود الاستشراف إليها من بعيد، فأصبح بنطاؤر فى افتتانه بها كمن يفتن بالكواكب فى لألئها ويتطلبها بإمعان النظر فيها وهو يعلم أنها منيعة المرام بعيدة المنال.

أخذ بنطاؤر بعد هذا يجيل النظر في أركبان الوكبر المظلم وقد غص بالنباس وتساءل: كيف بياح لبنت أنات ورجال حاشيتها العديدين الدخول فيه؟ ثم تخيل قدومها في ركبها الحفيل ودنوها من باب الوكر الذي ضربت عليه الذلة والفاقة والمصاب حاملة تاجها اللكي، وبدا له كأن رجال حاشيتها -بما عهد فيهم من الخشونة والغلظة- يدفعون النساء اللائي جئن لعزاء المحنط وزوجته على مصيبتهما ويقصونهن عن ممر ركبها حتى لا يقع نظرها الكريم عليهم وهن ف أطمارهن الرثة وشاراتهن المصزنة فيقشعر جسمها وينقبض قلبها أو يعاملون الطبيب وصاحب بالامتهان، ثم استجمع في مخيلته ما يعقب ذلك من الهرج واختلال النظام وما يبديه صويحبات الأميرة من علامات التقرز والترفع كسد الأنف بأطراف الأنامل أو الأمر بنتحية الشيخ وزوجه عن طريق الأميرة. وربما اضطرا أن يطرحا الفتاة أرضاً بينما هما يضمانها إلى صدريهما للمبادرة باستقبالها وتقبيل الأرض بين يديها، وتمثلت له بنت أنات بعد ذلك ناثرة عليهما حلقات من الفضة أو الذهب على سبيل التصدق وإظهار الرضاء بينما يجتمع النسوة اللائى تفرقن ويصحن صيحات الفرح والسرور. وتراءى له عقب ذلك كله تالف السركب ثانياً للعودة بالأميرة ولكأنه كان يسمع بعض رجال حاشيتها وهم يقولون: بارك الإله في ابنة الشمس وأدام لها الشرف والكرامة تلقاء ما أبدته من آيات الشفقة والإحسان، ثم يبعد الموكب حتى يختفي مرآه عن العيان.

وما تمثل لبنطاؤر هذا المنظر حتى اشتد به الغضب والتبرم لأنه صاغ من هذا الخيال حقيقة، فوقف إلى جانب باب كوخ الجريحة تأهياً للذور عنه وللحيلولة دون دخول الأميرة فيه إذا فاهت بما لا يرضيه من الكلام. غير أنه لم يلبث بعد هنيهة أن حاسب نفسه حساباً عسيراً إذ قال: قد تكون عاطفة الشفقة والرحمة حفزتها لهذه الزيارة.. ولكن لا .. ما جاءت الأميرة إلى هذا والدافع لها هذا الوازع النفساني الشريف! بل كل ما في الأمر أن قصر الملك أبيها أصبح ببعده عنه خالياً من بواعث اللهو والانشراح وما يدعو إلى قطع حبال الوقت في الهناءة والاغتباط فجاءت في قضها وقضيضها لتتخلص من سأم الإقامة وملل الوحدة. ولعلها ناجت نفسها بقولها إن قضاء ساعة في زيارة هذه الأسرة الحقيرة خير من الاستقرار في مكان لا ينشرح فيه الصدر باستجلاء مختلف المناظر البهجة فضلا عما تتداوله الألسنة عندئذ من عبارات الإطراء فيها والتنويه بذكرها لأنها مع سمو مكانها وعلو قدرها قد تفضلت منة وكرماً منها بتفقد أحوال الرعية بما جيلت عليه من شرف الخصال وكرم السجية. ثم أطرق هنيهة بدت عليه فيها لوائح الغضب لأن وسواسه كان يحدثه بما أتته بنت أنات من الرذيلة بتلبسها بهذا الخلق.. وأية رذيلة أوجب في نظره لانتقاص القدر من الازدهاء بالباطل والتباهي بما يسربا بسجاياها الكريمة أن تتنكس ف حضيضه. وكان يحس إذ ذاك بتزاحم الفاظ اللوم والتأنيب على لسانه الذي كناد ينطق بها غير حاسب حسناباً لكنانة الأميرة ، اعتقناداً منه بأنبه فيما من بخاطيره من الأفكار لم يجر عن قصد السبيل في حكمته عليها. وأنه لقي هـواجسه هذه إذ سمع جلية خيل مقبلة ووقع حوافرها على الصخور فأنصت باهتاً. وما هي إلا برهة من الزمن حتى توردت بنت أنات إليه من ملتوى الوادى في هيئة هيئة وزى

عظيم ومرت من باب الوجار الحقير مرور الطيف وجلست إلى جانب الجريحة فلم يعرفها أحد من الحاضرين وفي مقدمتهم نبسشت وصاحبه تيتا. على أنهم هموا جميعاً بالوقوف فأشارت إليهم بالبقاء في مقاعدهم فقعلوا، ثم أمعنت النظر في الجريحة بعين يخامرها الحنان والعطف ومدت يدها إليها ونظرت بعد ذلك للعجوز قائلة: ما أجمل هذه الفتاة! فهزت العجوز رأسها تصديقاً على هذا الاعجاب. أما الفتاة فقد افتر تغرها بابتسامة دلت على سرورها بما سمعته من الثناء على جمالها وودت أن لو كان في قدرتها التشكر للأميرة والثناء على صنيعها الحسن. وأدركت بنت أنات ذلك منها فكفتها مؤونة هذا العناء بأن وضعت على صدرها بلطف ورفق وردة زاهية نضيرة مما زينت به غدائرها. وكان الشيخ لايزال دائباً على دلك قدمى الفتاة فنظر إلى الأميرة وقال لها: جزتك هاتور خيراً على صنيعك الحسن الذي طوق أعناقنا بالمنن وزادتك جمالا على جمالك. فقالت الأميرة: أرجو منك يا أبت أن تصفيح عنى فقد وقع هذا المصاب رغم إرداتي. فنهض الرجل واقفاً وقال: أأنت بنت أنات؟ فأطرقت برأسها وأجابت: نعم أنا. فقدحت عيناه شرر الغيظ وقال: هيا ابرحى هذا المكان وإلا تدنست نفسك مدى الأزمان. قالت: لن أبرحه حتى تغفر لى ذنبي وتستر عيبى. قال: ما فسرط منك كان رغما عنك.. ألا تدرين أن سنابك خيلك قد تدنست إذ داست هذه النهد؟ ثم رفع الغطاء عن صدر الجريحة فإذا بجرح غائر ينزف بالدم فأشار إليه ثم قال: هذه أول وردة رصعت يدك بها صدر ابنتي .. أما الوردة الثانية وهي هده.. وكان قد تناول الوردة التي وضعتها بنت أنات على الغطاء وهم بإلقائها خارج الكوخ، فأمسك بنطاؤر بيده وقال له بصوت متخلخل: مكانك!.. ألا تبصر بعقلك الضعيف وقلبك المتقرح بالأحزان الوردة الثالثة التي جاءت الأميرة لتهديكها وهي وردة العطف والإحسان؟ إن الأميرة على سمو قدرها ورفعة منزلتها قد

تنازلت بالحضور إلى هذا المكان لا لتسترضيك بالمال بل لتوليك كل ما تملك من أدب وخشوع عطفاً عليك والتماساً للمغفرة منك. ومن تهبط ابنة رعمسيس من علاها لزيارته وتفقد حالته حقّ عليه الخضوع لها بلا مراء، ولو كان أمير الأمراء. وإذا كانت الآلهة تقدست أسماؤهم وتعالت أقدارهم قد تقبلوا من بنت أنات استغفارها من ذنوبها، فلم لا تسامحها أنت أيضاً ولو لتكفر عن نفسك السيئة التي حملت وزرها بحكم الوراثة وستلقيه على عواهن أبنائك من بعدك على تعاقب الأجيال؟

فأطرق الشيخ برأسه ثم رفعها بعد إذ سكنت عاصفة غضبه وقال لبنطاؤر: إن يدك أيها الكاهن شديدة قاسية وكلامك أشد إيلاما من طعنات الرماح.. لم تتعمد هذه السيدة الفاتنة الحسن --حينما أرسلت لجيادها العنان- إلحاق الأذى بحفيدتى هذه لا ابنتى كما تقولون. ولو أنها كانت زوجك أو زوج هذا الطبيب، بل لو أنها كانت ابنة تلك العجوز التى تلتمس قوتها من فضلات القرابين لذهبت من الصفح عنها إلى مقاسمتها ما هى فيه من بؤس وشقاء ساقهما إليها القدر المحترم والقضاء الذى لا مفر منه. فما وقع من الأميرة كان عفوا لا قصدا، واضطراراً لا اختياراً.. وإنما شأنها في ذلك شأنى حيث حرمت الطهارة وحرمانى إياها لم يكن جزاء ما قدمت يدى من شر، إذ هو ثمرة ما قدر على مذ كنت في المهد صبياً لا أملك لنفسى فعا ولا ضراً. وبعد فقد كان حتما على مثل - وهذا مكانه في المجتمع أن يحمل على عاقته وقر ذلك المصاب أو يتناسى ما أدركه من الشقاء وإن توافرت أسباب تدعونى إلى الزهد في هذه الحياة بل إلى القنوط منها، ألست أرى كبار الناس وصغارهم يفرون منى إذا التقوا بى في الطريق حذر التلوث بلوث الدنس، بل

جام الأحزان والغموم، فإنى أشكو بثى من إمعانه في العسف بى والإساءة إلى إذ اغتصب أولادى السبعة وساقهم إلى ميدان القتال ليـذوقوا الوبال والنكال. ومما زادنى مضضا أن ابنته أصابت ابنة أصغرهم سنا بجرح بالغ ليس لـه دواء ولا يرجى منه الشفاء. وقد كانت لحياتى – في هذا الـوكر الحقير – كشعاع الشمس يبعث الحياة في الوجود . أما أولادى السبعة فقد مات منهم ثلاثة بالجوع والعطش في أعمال إيصال النيل بالبحر الأحمر (١) وقتل ثلاثة في حرب الحبشة، أما السابع وهو الكوكب الساطع في سماء حياتي فوسواسي يحدثني بأنه لا منجاة له من براثن وحوش الشمال.

ما استقرت هذه الكلمة ف أذنى العجوز حتى هاجتها ذكرى أبنائها فأخذت تولول وتبعها النسوة اللائى جئن لتعزيتها وتخفيف مصيبتها، فانتبهت الفتاة مروعة وسألت: من تبكين؟ أجابت العجوز: نبكى والدك يا ريحانة القلب وثمرة الفؤاد. فأسفرت ثنايا الفتاة عن ابتسامة الطفل الذي يكتم أهله حقيقة ما يسأل عنه وقالت: والدى في طيبة الآن، وقد رأيته بها فقبلني وقال إنه وصل إليها بحصته من الغنائم رأنه سيقيم هنا فلا يعود إلى ميدان القتال. ثم أتحفني بطفة من الذهب الخالص كانت منوطة بثوبي وقتما دهمتني العجلة ومرت على صدرى وها هي

⁽١) كانت تسمى هذه الأعمال باللسان المصرى القديم (تينات) أعنى النقب أو الحفر، وهى تطابق موقع قناة السويس في جزء منه، وقد جاء وصفها على الجدار الخارجي المواجه للشمال من هيكل الكرنك في الصعيد، ويؤخذ منه تطابق جزء عظيم من قناة السويس وترعة الإسماعيلية الحاليين مع تلك الترعة القديمة.

خذیها لتشتری بها قربانا للآلهة ونبیداً لجدی و کحلا و غصن مصطکی لك (۱) فقد مضی زمن طویل علیك ولم تتكحلي.

وكان بينم يصغى لحديث الفتاة، فلما انتهت منه بسط يديه حامدا الله ومثنيا عليه. ثم رأى بنطاؤر العجوز ولسانها يلهج بالحمد والثناء وتشارك بعلها في هذا الدعاء ودموع السرور تساقط من مأقيها. إلا أن الشيخ لم يلبث أن ارتاع، إذ ذهب إلى أن الفتاة قد شبه لها أبوها في صورة إنسان يماثله أو أنها رأت في المنام ما قصته على الاسماع، ولكن من أين يأتى الالتباس أو الوهم وقد رأى الحلقة معقودة بثيابها؟! فحل العقدة واستخلص الحلقة منها، والتقطتها بنت أنات بعد إذ سقطت من بين أصابعه وقدمتها إليه، بل بعد أن قالت له هذه الأميرة: قد كان قدومي عليك اليوم عنوان سعادة ومقدمة خير، فقد كنت يأسا من بقاء ابنك على قيد الحياة فجاءتك البشرى بوجوده قريبا منك، وكنت قانطا من شفاء ابنته وها هي بعنايته تعالى مقبلة عليه. وما كادت تتم كلامها حتى دنا بينم منها حبوا وأمعن فيها النظر مغرورقة عيناه بالدموع ثم قال مبتهلا: مولاتي.. تجاوزي عن خطيئتي كما تجاوزت عن ذنبك. أجابت: إنني شاكرة لك حسن صنيعك، ثم التفتت إلى نبسشت وأوصته أن يعنى بأمر المريضة، ودنت من الفتاة فقبلتها بين عينيها وتركت إلى جانبها دملج ذهب مصفى، وبرحت الكان بعد أن أمرت بنطاؤر باقتفاء أثرها.

⁽١) يسمى الكحل باللغة المصرية القديمة (مستم) وقد كان شيوعه فى مصر نقلا عن أهالى آسيا. أما أعواد شجر المصطكى فكان يستعملها قدماء المصريين فى تنظيف الاسنان، وكانت لهم طرق لصناعة الحبوب من الأقاوية المعطرة للفم، ولا تزال هذه الطرق مبيئة فى أوراق البردى التى استكشفها ايبرس.

الفصل السادس تنازع العشق والسحر

كان بعاكر ونيفرت في خلال ما مر من الحوادث ينتظران أوبة الأميرة من بيت بينم، وكانت الشمس أنئذ في سمت الرأس ترسل سهام أشعتها النارية إلى الصخور الصلاة والتلال الجرداء القائمة إلى جانبي المضيق فتنعكس منها حرارة كالسعير تكاد تز.ق الأرواح، ولم يك في تلك الأرجاء مكان ظليل يأويان إليه ويتقيان به هذه الحرارة المحرقة، فأمرت الأميرة حاملي الظلات بالوقوف حيث توجد العجلة والمحفات.

ولقد انقضى زمن طويل وهما بهذا المكان لا تنبس شفتاهما بكلمة إلى أن عرا نيفرت الضجر وتولاها الملل، فرفعت عينيها المتلوزتين نحو بعاكر وقالت: لقد طال غياب بنت أنات ببيت المدنسين وأحرق جسمى حر الهجير فما العمل؟ قال بعاكر: لابد لنا من انتظارها هنا على كل حال. ثم ابتعد عنها قليلا وصعد في صخرة يترامى النظر من قمتها إلى مدى سحيق. وبعد أن سرح النظر حوله دنا من نيفرت وقال: لقد اهتديت إلى مكان يقينا أشعة الشمس. فلما عرفت نيفرت موقعه هزت رأسها منكرة توافر الظل فيه فتلامست الحلى والجواهر التي رصعت بها رأسها فسمعت لها وسوسن لطيفة تشبه حقيف الأشجار، ثم لبثت في مكانها، فقال بعاكر: إن سخت (١) قد هاجتها في السماء عوامل الغضب فرشقتنا بسهامها النافذة، فهلمي بنا إلى ذلك المكان نتفيا ظللاله، وإن يكن غير جدير بالمقام. فتنفست نيفرت الصعداء ثم اقتفت المكان نتفيا ظللاله، وإن يكن غير جدير بالمقام. فتنفست نيفرت الصعداء ثم اقتفت (١) سخت الهة كان يمثلها الممريون برأس لبؤة أو مرة يعلوها قرص الشمس أو التعبان، وكانوا يسمونها رع، وكان إذا علا رأسها الثعبان دلت على شدة حرارة الشمس أو على شدة الهيام والشغف.

أثر بعاكر وهو يقصد صخرتين قائمتين يفصل بينهما مضيق القت قمة إحداهما على قاعه من الظل ما لا يتجاوز مساحته بضع الأقدام المربعة، فلما انتهى إليه رفع بعاكر حجراً مكعباً وأرساه على هذا المكان بعد قتل ما علق به من العقارب ثم غطاه بمنديل وأشار إلى نيفرت بالجلوس عليه قائلا: ها أنت الأن في مأمن من حرارة الشمس ولظى الظهيرة!

لما جلست نيفرت أخذت تحدق في الموهار نظرها بعين بخامرها القلق والغيظ، وكان لاينفك عن التنقل أمامها جيئة وذهابا، فلم تتمالك أن قالت له: الزم مكانك يا هذا وخلك من الغدو والسرواح، فوقف بعاكر موليا ظهره إليها وأخذ يطيل النظر في الطريق المؤدية إلى بيت بينم، فقالت نيفرت: أما عندك قصة تقصها؟ فتحوّل الموهار نحوها وقال: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. ثم استأنف السير ذهابا وجيئة كالضواري إذا حبست في القفص. فقالت: إنى عالمة بدخيلة صدرك، وما ران على قلبك من الحقد لفشلك في النزواج بي .. ولكنني لا أجد لحقدك سببا فقد كنا -حينما خطبتني والدتك- أطفالا لا نعقل. وكثيراً ما كنت أبتهج إذا سمعتها تقول عنى إننى امرأتك الصغيرة. وكنت أود لو تحققت في الستقبل أمنيتها إذ من يأبي من السيدات أن تكون صاحبة الأمر والنهى في قصورك الباذخة وبساتينك النضرة وخيراتك الوافرة التي كبانت فخر أبائك وأجدادك؟ فضحك معاكر ميزدرياً بهذا القول: فحنقت نيفرت لاستهتاره ولكنها كظمت حنقها وتظاهرت باللين والاعتدال ف القول، حتى لايسركب بعاكر متن الشطط معها في خطاب فقالت: نعم، إنى أنست منك غضباً على وإعراضاً عنى، ولكن مهما يكن غضبك أيجوز لك أن تفسر قولى بافتتاني بثروتك وطموحي لأموالك؟ إنى أكرر لك ما قلته الأن وهو أنني كنت شديدة الاحترام لك والعطف عليك، وحسبي شاهداً على ذلك مقاسمتي إباك همومك

وأحسزانك حينما كنت تشكو بثك إلى وتتوجع من تضييق والدك عليك وإساءة رملائك إليك، فلما توفي والدك سافرت إلى أسيا.. فقاطعها بعاكر ساخراً بقوله:.. ففسخت عقد الخطبة ونسيت مواثق المودة وتروجت بمينا ملازم ركاب الملك.. إنى بكل ذلك عليم يا نيفرت فلا حاجة بك إلى تكراره. قالت نيفرت: يسوؤني جداً يا ابن خالتى أن تكون واجداً علينا وأن تعرض والدتك عنا وتتنحى عن مخالطتنا، ولكن هلا عذرت وأنت أدرى بحال المرء إذا تيمه العشق وسلب قلبه وأخذ لبه؟ قال بعاكر وقد وقف أمامها مواجهة واضعاً يديه على صدره: نعم أنا يكل ذلك عليم ولكن الا تدرين أنت أيضا أنى كلما فكرت فيك شعرت بأن ناراً تتأجج بين جوانحى، بل إن جحيما تلظى فى كل جسمى؟ وما كاد يتم كلامه حتى شخصت عيناه وبع صوته وقال: لعلني نسيت أن منصب مينا لدى الملك يصرف الأنظار نحوه أكثر منها نحوى فى منصبى بعيداً عن جلالته.. ووالدتك .. فقاطعته نيفرت بصوت مرتفع: لم تكن والبدتي هي التي اختبارت.. ولا هي التي أشبارت بتفضيله عليك وإنما أنبا التي اخترته، إذ رأيته يوما يقود عجلة الملك فبدا لي كأنه إله الشمس وقد حانت منه التفاتة إلى فرماني من لحظه بسهم أصاب فؤادى. وحدث بعد ذلك أننا التقينا يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فبهرنى منظره الشائق ف شارته الجميلة وخُيل لى أن الإلهة هاتور قد نسجت حولي نسيجاً لحمته وسداه أشعة الشمس العسجدية، فأفضى إلَّ بما في قرارة نفسه.. إذ قال إنه يشعر من حبى بمثل ما أشعر من حبه، فلما خطبني إلى أهلى بعد ذلك أبت والدتى أن تزوجني منه فاعتراني هم كثير لا يعدله غير ما كنت أتمناه أن أكون قرينة له، وعراه هو أيضا وجد شديد لم ينفع معه التأسى، فصار لا بهنأ له طعام ولا شراب ولا يهدأ ليه خاطر، ولحظ جلالة الملك تغيراً في صاله فسأله عن سبب حزنه ووجومه، إذ كان كما تعلم يحبه ويجلّ قدره، فكاشفه بسره وأوقفه

على حقيقة أمره، فتلطف به وواساه وتفضل كرماً منه وإحساناً بطلبى من والدتى التى لم يسعها -والطالب هو سيد البلاد ووليها- إلا أن تسارع بالطاعة، وإنى أوْكد لك بأن نعيم الأبرار في عالو (١) ليس بالشيء المذكور إذا قيس بما أوتيناه من السعادة والهناءة أنا ومينا، حتى لقد طوّح بنا الظن يوماً أننا صرنا في عداد الألهة.

وكانت عينا نيفرت شاخصتين في السماء فلما وصلت إلى هذا الحد من الحديث حدقت النظر في بعاكر وقالت: ولكنا ما لبثنا على ذلك أياماً معدودة حتى تكدر صفونا بهجوم قبائل الخيتاس (٢) على وطننا فاضطر رعمسيس إلى قتالهم ولزم مينا ركابه في ميدان القتال، ولم يكن قضى معى من الأيام إلا خمسة عشر، ثم. فقاطعها بعاكر بصوت مضطرب: ثم أجاب الآلهة دعائى وتقبلوا رجائى إذ فرقوا بينك وذلك الذى سلب هنائى وسبب شقائى، واضرموا في قلبك نار الشوق إليه. وإذا ظننت أنك أتيتنى بنبأ جديد فقد أخطأ ظنك، لأنه إذا تمتع مينا بمحاسنك الفتانة خمسة عشر يوما فقد ذهب إلى صرب يصرع في ميدانها عشرات الألوف من الشجعان. فتبرمت نيفرت بهذا الكلام وصاحت: كلا فلسوف يؤوب بالسلامة وتقر عينى برؤيته. قال بعاكر: جائز أن يعود، ولكن ألا تعلمين أن أيدى الخيتاس قاسية وأن سيوفهم ماضية وأن جبال لبنان تحلق في سمائها ألوف النسور ولايستحيل أن تكون محومة على جثته الأن تمزقها كما مزق قلبي وتسلبه روحه كما سلب لبي؟

⁽١) عالو باللغة المصرية القديمة مسكن الأبرار في الجنة، وقد جاء في كتاب الأموات أنهم يقيمون فيه بالقرب من مياه جارية ويغرسون ويحصدون.

⁽٢) الخيتاس هم الأراميون الذين كانوا مع شعوب آسيا الغربية يحتلون صعيد مصر في عصر رحمسيس الثاني.

وقفت واتجهت نحو بيت بينم، غير أنها لما تولاها من الهلم بسبب ذلك الكلام خانتها القرى فسقطت في مكانها ثم عالجت الكلام فلم تستطع بيل شعرت بضيق في صدرها وخفقان في قلبها، حتى لم تعد تعى شيئاً مما يحدث حولها. وكان بعاكر بحدد فيها النظر وهو جامد في مكانه لايواسيها بكلمة تخفف من الامها، ذلك لأن قلبه كان أشبه بإحدى شجرات الجنوب تطرح الثمار الرطبة والثمار الجافة معاً في وقت واحد أو في بعض أيام السنة التي يطلع القمر فيها على الأفق والشمس ساطعة الضياء، أعنى أنه كان يتراوح بين طرق العشق والضغينة تراوحه بين الأمل في الظفر بأمنيته واليأس منها. وكانت دموع نيفرت مازالت تهطل مدراراً، فإذا شهدها بعاكر تنصدر على خديها هدأ روعه واطمأن قلبه وزال ما به من الاضطراب وانطفات النار المتضرمة بين جوانحه ، إذ كان يشبهها بالطل إذا كسا الأزهار أكسبها البرودة وذهب بما فيها من جفاف. ولكنه مع ما أبداه من جفاء الطبع وغلظ الكبد وهو في هذا الموقف الذي تحن فيه العواطف وتتلاشى دقائق الأحقاد كان لا يلبث- كلما خالسها النظر- أن يزداد هياماً بها ويحس بتأثير محاسنها أفعل في قلبه المستهام منه عن ذي قبل، فيقف عليها نظراته لايصرفها صارف عن شخصها المحبوب، ويهم بالتماس رضائها عنه وتقديم كل ثروته إليها في مقابل كلمة صفح يسمعها من فيها أو قبلة يضعها على تغرها المنضد بأسنان لؤلوية لا نظير لها نظاماً وإشراقاً.

وبعد ساعة أفاقت نيفرت من غشيتها فكفكفت الدمع ونظرت إلى بعاكر ساخرة مستهترة وقالت بصوت خافت: لقد جف لسانى من العطش، فهات لى ماء أجاب: إن ميعاد حضو ر الأميرة قد دنا، فكيف العمل؟ قالت: لقد انحلت قواى بما أصابنى من العطش الشديد. ثم تناشرت الدموع على خديها فهز بعاكر كتفيه ثم هرول مسرعاً

نحو الوادى القريب حيث مقابر أجداده لإحضار الماء. وكان عارفا بمنعطفاته ومضائفه لكثرة ما تردد على المقبرة في الليالي المقمرة للصلاة على أرواح الموتى. وكان بوده أن يأتى بالماء من بيت بينم إلا أنه تذكر أن هنالك مغارة تأوى إليها عجوز شمطاء ففضل أن يأتى بالماء من عندها وانصرف مغذا السير، رجاء أن يسترضى نيفرت بمروءته. وكانت تبدو لناظره وهو يجرى باكية متوجعة فيذوب عطفا عليها ويزداد هياماً بها، وإن يكن من جهة أخرى يبغضها أشد البغض لما تبديه نحوه من الصد المتلف والهجران القاتل.

وكان باب المغارة الذي يحفظ العجوز من سطوات بنات أوى واللوص الذين يتسللون خلال الديار في جنح الظلام مفتوحاً. وكانت جالسة تحت ظلة من الخرق البالية مثبتة الأطراف بقوائم خشب يستعان بها على حزم أعواد النبات. وكان بالقرب منها هر أسود ينشق الرائحة الذافرة التي تسطع من رؤوس الغربان والبوم التي طرحتها العجوز بعد أن استخرجت عيونها. وكان بجوار الباب طائران من الجوارح يغشاهما الدخان الكثيف المتصاعد من نار وقودها حطب بعض النباتات، فلما دنا بعاكر من هذا الباب نسى هواجسه ولاسيما حينما سمع العجوز تسأل بصوت خشن: هل غلى الشمع الذي على النار؟ ثم سمع برطمة من الداخل لم يفهم معناها وإنما فهمتها العجوز لقربها من مصدرها حيث قالت جواباً على قائلها: ضعى عليه عين قرد (١) وريش أوز وخرقة بالية من ثوب معلم ثم حركى هذا

⁽١) إن بعض الكلمات التى تروى هنا على لسان العجوز وتحضيراتها السحرية مستنبطة من ورقة البردى المعروفة بالورقة السحرية المحفوظة إلى الآن فى أحد المتاحف، وبقية الكلمات والتحضيرات مأخوذة من ورقة سحرية أخرى تعرف باسم ورقة هاريس-المترجم لها- وتاريخوا مطابق لتاريخ وقائع هذه الرواية، ومن ورقتين غير السابقتين تسمى إحداهما بورقة ليد والثانية بورقة برلين، وهذه الأخيرة باللغة اليونانية.

المخلوط رويداً رويداً حتى إذا امتزج بعضه ببعض اطفئي النار ثم خدى الجرة واملئيها ماء.. وما أتمت هذا الكلام حتى برزت من المغارة أمة سوادء بلغ ردفاها من النحول مبلغا يخيل للناظر معه أنهما هيكلا عظم مطليبا بالقبار. وكانت تستر عورتها بخرقة بالية فسد لونها فتناولت إناء من صلصال وضعته على شعر رأسها المتجعد وسارت في طريق مقابلة للتي جاء بعاكر منها. أما العجوز فكانت نحيفة الجسم محدودية الظهر، قد أكل الدهر عليها وشرب، فلما وقع نظرها على بعاكر نهضت للقائه بعد أن عصبت رأسها بمنديل حرير معلم وألقت على الأرض حصيرة الإخفاء رؤوس الغربان والبوم التي كانت تتصاعد منها رائحة كريهة ثم عادت إلى مسزاولة عملهما كأنها لم تبصر بأحد ولم تجاوب على نداء بعماكر إيماهما بصوتمه الجهوري، فرأى أن يبدنو منها أكثر ممنا فعل فمدت إليه نظرهنا وقالت: إني أحمد سعيك أيها الزائر الشريف، فلقد وافيتنا يحف بك يوم سعادة ويلوم نور، وزرتنا فاسبغت علينا حلة المجد والفخر. فألقى بعاكر إليها يحلقة فضية (١) وقال لها: قفى على قدميك واتنى بماء نقى ف إناء نظيف. فالتقطت العجوز الحلقة الفضية، وبعد أن حدقت النظير فيها طبويلا قالت: هذا هو اللجين الخالص! هذا هو المدن الكريم! ولكنه دون ثمن مائي السحري العجيب الفعل الغريب التأثير. قال بعاكر: لاتكثري من الهذى أيتها العجوز وعليك بإحضار الماء فوراً. ثم رمى إليها بحلقة ثانية فقالت: إنك طلق البيدين! إنك ندى الكفين! لنذا أربيد أن أطلعك على جميع الأسرار وأفتح لك مغالق الأبواب. والذهب الوضياح لها خير مفتاح.. لقد طلبت منى بقيمة الحلقتين ماء ولكن لم تقل لي ما هو الماء، فإن عندى منه أصنافا عدة منها ماء إذا تناولته صانك من فتكات الحيوانات الضارية، وماء يساعدك على استنزال النجوم من أفلاكها، (١) كانت المعاملات عند قدماء المعرين بحلقات من الفضة والذهب.

وماء يوقفك على اسرار الطرقات المجهولة وهو أليق بك وأعلق بوظيفتك، وماء يعينك على تحصيل العلم والتمييز بين العدو والصديق وبين الغث والسمين، وماء تعرف به متى يموت أعداؤك، وماء يخفيك عن الأنظار، وماء تزيل به الأصبع السادس من رجلك اليسرى. قال بعاكر: يظهر من كلامك أنك تعرفيننى أيتها العجوز؟ قالت: كيف لا ، ولى عين ترى الغيوب وتستطلع ما في القلوب، ويد حذقت تجهيز المياه النافعة للكبار والصغار. قال: إن هذا إلا من أساطير الدجالين وحيل المشعوذين. ثم أخذ بمقبض سوطه وقال للساحرة: هيا اسرعى فإن السيدة التي لأجلها.. فقاطعته قائلة: لم لم تقل من بادىء الأمر أنك تريد ماء لسيدة؟.. ولقد كان في إمكاني معرفة قصدك لولا أن كل الذين اعتادوا طلب الماء السحرى النافع في استهواء أفئدة النساء أمراء وأعيان من ذوى الأسنان وليس فيهم من هو مثلك في ريعان العمر وعنفوان الشباب.

اختفت العجوز هنيهة ثم عادت وبيدها إناء اسطواني الشكل دفعته إلى بعاكر قائلة: دونك الشراب الذي تطلبه وطريقة استعماله أن تشوب نصفه بماء وتعطيه من تحب استهواءها إليك فإذا لم يأت بالغرض المقصود فوافها بالنصف الثاني، إذ لابد من حصول الفائدة على ما يوافق الأمل. واعلم أنه لاخوف من هذا الشرب حتى على الطفل الصغير. أما الشيخ الذي قعد به عجز الشيخ وخة وخمولها فهانه إذا تناوله تدب فيه روح النشاط والهمة. وإن تكن في ريب من صدق قولي فهاأنذي أشرب منه قبلك. ثم رفعت القدح إلى فمها كمن يتجرع شرابا وقالت: أرأيت بعد أنه لم يلحقني سوء؟ وما شربته الآن أمامك كاف لمثل، ولو تجاوزته لعرضت قلبي لخطر الوقوع في شرك هواك، وأنا عجوز شمطاءً.. فعليك إذا بهذا الماء يا بني فإن لم يوافق تأثيره حسن ظنك به يكن ما دفعته لي من المال غير راب علي ثمنه، وإن وافقه

فقد حقت عليك مكافأتى بثلاث حلقات من الذهب الإبريز. وإننى لموقنة من قضائك إلى بهذه الجائزة.

قالت ذلك وبعاكر مصغ إليها لا تنبس شفتاه بكلمة، فلما أمسكت عن الكلام جذب الإناء منها في عنف وشدة ووضعه في قطرميز فضة ثم ألقى للساحرة بثلاث حلقات فضة بعد أن سألها إناء مملوءا بماء النيل. فهرولت الساحرة إلى داخل المغارة قائلة: ما لى أراه عجلا ملولا؟ لقد سألنى أأعرفه وهو ما لا خلاف فيه، ولكن لا أدرى من هي معشوقته.. أهي وردة الصغيرة ابنة المحنط القريب منا، أم غيرها؟. فإن تكن هي فله العدر في هيامه بها إلا أنها الآن طريحة الفراش وقد لايرجي لها البقاء بعد الحطمة التي أصابتها.. وبعد فيلا مناص لى من تعرف الخبر.. أما أنا فلو كنت في مقتبل العمر لما مال قلبي إلى هذا الرجل.. وإن أعجب فعجب أن ينال بغيته بغير ما يبديه من الصبر وقوة الاحتمال ويبسط يده به من وفير المال.

طافت هذه الهواجس بخاطر العجوز وهي تملأ بماء النيل المصفى جرة من الخزف البرّاق، فلما انتهت غطت فوهتها بورقة غار رسم عليها قلبان مترابطان بسبعة خطوط متوازية، ثم خرجت فتناول بعاكر منها الإناء وأمعن النظر في الورقة فقالت الساحرة: في هذه الورقة سر ارتباط القلوب كما ترى ثلاثة الرجل، وأربعة للمرأة، وسبعة لمن لا يتجزأ شعاع شاشاش شارشال اشاشا (۱).. وأخذت بعدئذ تردد هذه الرقى الشيطانية فلم يلتفت بعاكر إليها، بل عاد من حيث أتى قاصداً مكان نيفرت. وقبل أن يدركه بقليل وضع الجرة على حجر مستوثم أخرج من القطر ميز إناء الماء السحرى بيد راجفة وقلب خافق فخيل له أن هاتفاً يصورت به: ها

⁽١) هذه الألفاظ مستخرجة كما هي من الورقة السحرية المرجودة في برلين.

استهواء الفتيات وسلب ألباب الغانيات.. وهب أننى عمدت إلى إصابة هذا الغرض، فلم لايقال إن الآلهة وأرواح الموتى من أهلى قد رأفت بى فتقبلت منى ما قدمته إليها من القرابين ومهدت لتحقيق أملى وإجابة سؤلى، فهدت خطواتى إلى مغارة العجوز التى أرشدتنى بباعث من نفسها إلى الشراب السحرى الذى يلين القلوب الصلاة ويجذب الميول المستعصية؟

كان بعاكر معروف في أصحابه بشدة العنزم وقوة الشكيمة وارتقاب الفرص للوثبة عليها عند سنوحها. وكان إذا قال فعل وإذا فعل أصاب الغرض، غير مفرق بين السهل من الأمور والصعب الذي يستدعى إعمال الروية في معالجته حتى يجىء وفق المراد، إلا أن هذه الهمة لم تكن لحدة فهمه أو سعة حيلته أو بعد نظره في المصائر، بل هي ثمرة من ثمار المصادفة العمياء.

وكانت عادته أن يحمل قالادة ثبتت فيها التمائم المختلفة الأشكال والأحجام الاعتقاده بما لها من الخصائص النافعة والفعل العجيب الذي بثه فيها الكهان ببركة دعواتهم الصالحات مقابل ما كان يدفعه إليهم من وافر المال ويتحفهم به من جزيل الخيرات. وكان يحتفظ دائما بأشياء ثالاثة: حجر اللازورد وتمثال وخاتم أما الحجر فكان معلقا بسلسلة ذهب منوطة بنطاقه، وفائدته عنده أنه إذا ألقاه على الأرض فواجه السماء وجهه المنقوش دل ذلك على نيل المطالب وتحقيق الأماني والعكس بالعكس. أما التمثال فكان يمثل صورة الإله أفيرون برأس ابن أوي، وهو هادي الضالين ومرشد المسافرين وفائدته عنده أنه إذا التمس الهداية إلى طريق القاه على الأرض أيضاً فحيث ينصرف رأسه يذهب راشداً على خط مستقيم، فلا

ينشب أن يصل إلى الغاية المقصودة. أما الخاتم فقد ورثه من أبيه وبالغ في صيانته لما يحتويه من أسرار القوة والبأس، لأنه كان فيما مضى للملك تحتمس الثالث الذي دخل عداد الآلهة، فأمر بوضعه على أقدس قبر لأوزريس بهيكل أبيدوس(١) ليستمد منه القوة، وقد أهداه قبل وفاته إلى أحد أجداد بعاكر. وكان فص هذا الخاتم منقوشاً بثلاثة رموز مقدسة وثلاثة غير مقدسة، وفائدته أنه إذا ود أن يتعرف ما سيقع له من ضر أو نفع مس الفص بطرف خنجره، فإذا أصاب رمزاً مقدساً دل ذلك في اعتقاده على أن والده الذي حل في نفس أوزريس راض عن مشروعه فيبادر إلى تنفيذه، وإذا مس رمزاً غير مقدس عدل عن عزمه وانتظر ما يرشده هذا الرضاء إليه في الظروف الملائمة.

يبدو مما تقدم أن همة بعاكر في قضاء مصالحه وتنفيذ مشاريعه كانت ثمرة رضوخه المطلق وطاعته العمياء لما تخبره به المصادفة الناطقة بلسان ذلك الخاتم. وكان من عادته أحيانا أن يضمه إلى صدره وينتظر ريثما يلتقى بأحد في طريقه، فإذا مر من اليمين أفاد ذلك موافقة والده إياه على عمله أو من شماله أفاد العكس. وعلى هذه القاعدة بنى بعاكر أعماله وتصرفاته كافة، فكان لا يعمل عملا ولا يقول قولا إلا إذا وافق عليه الموتى من آله. ولقد اتخذ أباه وأخاه الأكبر المتوفى في ريعان الشباب رائدين له في طريقه يدلانه على سبل الخير ويعدلان به عن مهاوى الشر ويمحضانه النصح، فكان يعمل بما يأمرانه به وينتهى عما ينهيانه عنه. وقد وقد ف

⁽۱) كان قدماء المصريين يعتقدون أن تيفون إله الشرقتل الإله أوزريس وقطع جسمه أربع عشرة قطعة ثم القاها في جهات بعيدة من القطر المصرى، فلما رأت ايزيس زوجة اوزريس ذلك شيدت قبرا جميلا على كل قطعة. وأقدس هذه القبور قبر أبيدوس، وكان وجوه المصريين يوصون قبل وفاتهم بدفن جثثهم بجوار هذا القبر التماسا لبركته.

نفسه أنه إذا استمد بروح والده أو روح أخيه ليستشيرهما في أمر خطير وعمل بنصيحتهما وفق للنجاح والخير، وإذا خالف مشورتهما أحدقت به المصائب من كل جانب. وقد علمته التجارب أن لتلكما الروحين من المزايا ما تفضل إحداهما به الأخرى وإنما العمدة على العادة فإذا اعتاد من إحداهما الموافقة على دالم تأذن به الثانية استمد بها دون هذه والعكس بالعكس.

وكان بعاكر يرى أنه بالسير على هذا المنهج وعدم الحيد عنه يفوز برضى الآلهة ويكون حظياً عندهم، فقد استقر في خلده أن أرواح الموتى تتحد بعد ثبوت براءتها بروح الكون وتشترك في تدبير شؤونه مع الأرواح الأخرى. وهذا ما استحته على تقديم القرابين الكثيرة إليها بمدفن آله وفي هياكل العبادة، ولاسيما في هيكل سيتي الذي يمجد كهانه ويكرمهم ويعمل بنصائحهم ويبالغ في الشكر لهم والثناء عليهم. وكان يعتقد أنه إذا سار على هذه الخطة اتصلت روحه بالربوبية فتجل عن مناظرة الكائنات السفلية، فانتفخت أوداجه لذلك كبراً وعتواً وتاه على الأشباه والنظراء، اعتماداً على الإيثار الوهمي الذي خيل له أن الآلهة قد ميزته به على أفراد الأمة المصرية، في مقابل تفانيه في محبتهم ودأبه على تقديم القرابين إلى هياكلهم. أما المسرية، في مقابل تفانيه في محبتهم ودأبه على تقديم القرابين إلى هياكلهم. أما الطريق الأقوم، غير أنهم كانوا يتحرزون من تصحيح غلطاته ويمدونه في طغيانه الستبقاء لما كان يسديهم إياه من جزيل النعم ويوالي هياكلهم به من وفير الخيرات.

ولما استقر في نفس بعاكر الاعتقاد بأنه مشدود الأزر بالقوى الخفية ومكلوء على الدوام بعين العناية الصمدانية انفض من حوله الأصدقاء وبان عن معاشرته الرفقاء، فكان لا يرى إلا وحيداً في ميادين القتال بل وفي طرقات طيبة. ولقد بالغ في

البعد عن الناس والنفور منهم حتى وصموه بالكبرياء ولم يعترفوا له بغير فضيلة واحدة وهى العزم وقوة الإرادة. وقد أفضى به اعتقاده بتناسخ أرواح الموتى وتدخلها في شؤون الأحياء من قرابتها إلى الزعم بأنها كانت تبعث من قبورها فيراها رأى العين ويخاطبها في شؤؤنه ويستعين بها على قضاء حاجاته. وكان كلما فكر ف هذا الاعتقاد هاجت شجونه وثارت نفسه وتراءت له صورة مينا، فلا يلبث أن تدب في صدره عوامل الضغينة والحقد فيكثر من الصلوات للآلهة والتزلف إلى الكهنة ليعجلوا بموت هذا الخصم اللدود والمناظر العنيد.

قلنا إن بعاكر وضع على الحجر الإناء الذى تسلمه من العجوز الساحرة لتطفىء نيفرت بمائه نار ظمئها.. فلما تحقق استواؤه فى وضعه ولم يخش عليه الانقلاب، تناول الماء السحرى بيد راجفة. وكان الشغف بنيفرت قد بلغ منه حدا نسى معه كمين حقده عليها وتذكر حينما هم بصب الماء السحرى فى الإناء نصوص القوانين الدينية على السحر وأنه من الآثام التى يعاقب مرتكبها بالاعدام، فتخبل فى أمره وتراجع مستطار اللب روعاً وفزعا، غير أنه لم ينشب أن تزود من غرامه الشديد قوة وإقداماً فعاد إلى موقفه الأول، ولكن مروع العينين منزعج الضمير ولبث فيه جامداً لايتحرك. ثم تذكر الخاتم ووجوب الرجوع إلى ارشاداته، لاسيما وهو فى موقفه الحرج، فما هى إلا طرفة العين حتى أبرزه من جيبه ومس وجهه بسن السيف فلم تصب رمزاً ما من الرموز المقدسة التى تفشت فيه، وهو الدلالة على وجوب العدول عما انتواه من أمر. ولو كان لهذا الأمر علاقة بغير نيفرت وحبها لما تردد طبعاً في العدول عنه، إلا أن تدلهه في عشقها كان قد ملك من قياده وأفقده الصواب فلم يعبأ بدلالة الخاتم، فعمد إلى استشارته بطريقة أخرى إذ ضمه إلى صدره ونطق باسم (أوزريس) ثم انتظر ريثما يسنح له إنسان أو حيوان حتى إذا

مرّ عن يمينه دل ذلك على رضاء والده عنه وموافقته على ما انتواه، أو عن يساره دل ذلك على العكس فينصرف عن نيته. وما هي إلا إناخة راكب حتى لاح له خلف الجبل طائران صفقا بجناحيهما وحلقا في الجو فترة من الزمن ثم مراعن يساره ولم يمرا عن يمينه كما كان يود ، فكاد ينشق غيظا وهمّ بإراقة الماء السحرى على الأرض لولا أن شيطان الجنوب كان يتعقبه فى كل حركة فأذكى فى قلبه نار الحب، فما لبث أن تذكر نيفرت ساحرة لبه وسالبة فـؤاده، فخارت عزيمته وتلاشت قوته ولكنه عمد إلى إناء الماء السحرى فسكب نصف ما يحتويه منه في الإناء الذي على الحجر واتجه به نحو نيفرت ليقدمه إليها فإذا بها مقبلة عليه فأخذته متلهفة وتجرعت كل ما فيه عباً. ثم تنفست الصعداء قائلة: أشكر لك يا بعاكر ما خولتني من النعمة وقلدتني من المنة، فقد شفيت بهذا الماء الزلال غليلى وشرحت صدرى، ولكن خبرنى ما الذى مرّ على رأسك من البلايا حتى رأيتك مضطرب الحركة ممتقع اللون؟.. ألما قاسيته من العناء وتكلفته من المكروه لأجلى؟ ثم صعدت فيه بصرها ومدت نحوه يدها فتناولها وقبلها بشغف ولهف. عندئذ افتر تغر نيفرت عن ابتسامة ملكت على بعاكر مشاعره ثم قالت: حسبك هذا وكفى يا بعاكر، فقد برحت الأميرة بيت بينم ولا بد لنا من التأهب لاستقبالها، ولا تنس على كل حال ما وجهت إلى منذ ساعة من القول المؤلم والتنديد القارص.. نعم، لست بمنكرة أنني أثرت في صدرك الغيظ الذي حملك على أن تسرميني بسهامهما، إلا أنني أود أن أراك فيما أنت الآن عليه من السكون وطمأنينة النفس وأن تعمل مجداً لإصلاح ذات البين بين والدتك ووالدتي. ثم أومأت إليه بسبابتها كمن يتوعد غيره بسوء العاقبة إذا لم يبادر بالطاعة. قالت هذا ورمته بسهم من لحظها أصمى فؤاده وزاده بها غراماً وافتتاناً.

أخذت نيفرت سمتها بعد ذلك إلى بيت بينم تاركة بعاكر من خلفها يضغط صدره

بكفيه معالجا بهذه الحركة تخفيف خفقان قلبه ومناجياً نفسه بقوله: لاريب فى أنها آيلة إلى وأنى قابض على ناصيتها في أخر الأمر بفضل هذا الماء العجيب.. بورك فيك أيتها القوة السماوية! وكان من عادات بعاكر المألوفة وعباراته المأثورة أنه إذا ظفر بأمنية أو خيل له انه سيظفر بها تهلل فرحاً وكرر تلك الجملة (بورك فيك أيتها القوة السماوية). ولقد انطلق لسانه بها في هذا المقام إشارة إلى أن الأمر الذي عالجه واستعصى عليه فيما مضى قد تمهدت له السبل وزالت من أمامه العقبات، فهو يشكر القوة السماوية التي تذلل الصعاب وتفتح موصد الأبواب.

على أنه لم يستطع البقاء في مكانه بل أخذ يتتبع مواطىء أقدام نيفرت بعد أن احتفظ بالإناء في نطاقه لكى يروى بمائه غلتها إذا عطشت ثانياً، وهو بذلك قد عمل بنصيحة الساحرة تلك العجوز الفاجرة. إلا أنه لم ينشب أن أحس بوازع نفسى يذم إليه رأيه ويقبح فعله وينحى عليه بصنوف التوبيخ والتقريع مذكراً إياه بواجب الاستقامة وفضل الصدق والأمانة. ولكنه لم يعبأ بصوت الوازع ولا نداء الضمير، بل تمادى في غيه وسجل عناده واستحفافه بهز الكتفين وتحريك اليدين، فعل المتبرم من سماع نصيحة لا تطابق هواه. وعلى الجملة كان كالسكير الذى كلما ألقيت في روعه الرهبة من عواقب إدمان الشراب انحط على دنان الخمر يعب من مشمولها عباً.

وكان بعاكر لايستطيع أن يكاشف نيفرت بغيظه من مينا ولا يجهر بعزمه أنه فاعل خذا وكذا للفتك به، بل كان يكل إلى (القوة السماوية) العناية بتصريف الحوادث على ما يوافق شهواته. أما الآن فقد استقل بإرادته واستأثر بحريته وأصبح في غنى عن الاستمداد بتلك القوة أو الاعتماد عليها، ثم شطح في الإلحاد

والكفر بما حبب إليه ارتكاب ما طالما اعتقد منافاته للإرادة الربانية، وكثيراً ما كان يتقى السقوط في المحرمات بما كان يظهره من التقى والصلاح والداب على تقديم القرابين للآلهة والموتى في الهياكل والمقابر.

وحدث في هذه الأثناء أن خرجت الساحرة من المغارة وتتبعت آثار بعاكر لترقب حركاته وتعرف من هي المرأة التي من أجلها جاء في طلب الماء السحري، قلما دنت منه توارت خلف صخر وقالت: هو بعينه الرجل السداسي أصابع الرجل اليسري.. أراه يتكلف الوقار والرصانة حتى ليخيل لناظره أنه وارث آسا حقاً ف هذا العصر. أما نيفرت وبعاكر فقد التقيا ببنت أنات وبنطاؤر في جوف الوادى، وكانت الأميرة قد لزمت الصمت عقب خروجها من وجار المحنط. فما غاب هذا الوجار عن نظرها حتى وضعت يدها على صدرها وترددت أنفاسها دراكا، كأن خطراً يتهددها أو كأن حركتي الزفير والشهيق قد اختل نظامهما بتأثير الفرع من الخطر الداهم، ثم عادتا إلى سابق عهدهما من التواتر المنتظم. وقبل لقائها بنيفرت صوبت البصر ف بنطاؤر ثم أطرقت قائلة: إن ما شهدته الآن لعجب عجاب. فلم يجاوب بنطاؤر على قولها مجتزئاً بحركة من رأسه تقيد معنى الموافقة عليه. ولم تكن بنت أنات أمعنت فيه النظر ولا تثبتت من ملامحه إلا عندما برح بيت المحنط فإنها أخذت ترمقة بعين الإعجاب وسألته: أأنت الكاهن الذي طهرني أمس من الدنس بعد زيارتي الأولى لبيت بينم؟أجاب: نعم أنا الذي طهرك. قالت: ما عرفتك الآن إلا بنبرات صوتك. وإني أشكر لك صنيعتك معي لأنني اتخذتك لنفسى -منذ شجعتني على العمل بوحي الضمير - قدوة صالحة في الاعتقاد، فعدت إلى هنا مرة أخرى بالرغم مما نصحني به الناصحون. وإنى لأتوسم فيك القدرة على الدفاع عنى، إذا استطال أحد ف كرامتي على مسمع منك. قال بنطاؤر: إنى إن بكرت إلى هنا فما هو إلا لأبلغك أنك ما زلت على

دنسك. قيالت وقد عبرتها دهشية شديدة: إذن لقيد رجعت فيما كاشفتني بيه من عقيدتك؟ قال: كل ما عندي أنني موكل بتنفيذ الأوامر العليا التي تفرض علينا القوانين تقديسها.. وإذا لم تتدنس بنت أنات بلمس المدنسين فمن ذا الذي يتدنس؟ قالت: أتوسم في هذا الرجل شرف النفس واستقامة الطبع رغم ما يتبادر إلى الذهن عند رؤيته من خمول الجاه وضعة القدر، ولكنني إذا أخطأت في ظنى ولم أصب شاكلة الصدواب بحدسي فإنني التمس من الآلهة التسعية أن يقيلوا عثيرتي ويصفحوا عن زلتي. وعلى كل حال فلا يسعني أن أصفه بغير صفات الورع والكرم وعزة النفس مادامت هي الصفات التي يتحلى بحلاها، ولكنك أنت أنت الذي كان بالأمس يزعم القدرة بكلمة على التطهير من الدنس مالي أراك الآن تعامل المحنط كما يعامل السقلة والأوشاب؟ أجاب: يرجع ما شهدته من انحرافي عن خطتي الأولى أن عظيما من رجال الدين أسرني -وأسره ضربة لازب- بالمحافظة على الأصول والتقاليد، إذ قال لى إن سلسلة هذه التقاليد قد سطا عليها مبرد الشكوك والبدع، وإننا إن لم نأخذ حذرنا فلا مفر من انقطاع السلسلة وسقوطها بصلصلة تصم الآذان وتلقى الهلم في القلوب. قالت: معنى هذا أنك تحسيني مدنسة حتى الآن لا لأننى أخطأت بدخول ف بيت المدنسين بل لمجرد العمل بالنواميس الوضعية والتقاليد القديمة.. وبعد، فأجبني إن كنت مازلت على ما عهدته فيك من الصراحة والإخلاص والنسزاهة والميل إلى مجانبة الاعتقادات الباطلة.. أجبني فإن ف جوابك راحتى وهناءتي أو تعبى وشقاوتي. فتنفس بنطاؤر الصعداء إذ شعر بضيق في صدره دلّ على أن الشكوك أخذت تنتاب إيمانه ثم قال بصوت خافت أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً: أنت ترجين بي في مأزق لا مخرج لي منه إذا صارحتك بما يدور بخلدي من أفكار وآراء خليق بي محوها من ذهني وإزالة أشرها من عقيدتي. غير أني أوثر مخالفة الأوامر على معارضة الحقيقة وحجبها وإنما هي بنت الشمس التي أسموك باسمها (بنت أنات).. أو ثرها مصارحاً إياك بأنني لا أدرى أكان المحنط مدنسا للذنب اجترمه أباؤه فيما غبر أم غير مدنس. لأن مركزى في الكهنوت لا يوهلني للحكم في أمر من الخطورة بمكان ما نراه الآن. إن كل ما أطلعت عليه من أحوال الحرجل ويجوز لي الحكم عليه بمقتضاه أنه من ذوى الميول الشريفة والعواطف العالية التي تجعلهم أسرع ما يكون تأثراً بالعوامل الطارئة كما تتأثرين أنت وأتأثر أنا ويتأثر غيرنا على حد سواء. أرى لهذا أن ما شهدناه باعيننا وأحست به قلوبنا فيما قضيناه من الوقت بذلك الوكر لا يلصق بنا ذرة من الدنس، بل ربما طهر قلوبنا من أدران الشكوك والريب. وإذا أخطأت الصواب في هذا الاعتقاد فإني أضرع إلى الآلهة الكثيرة الاسماء أن تقيل عثرتي وتصفح عن زلتي فإنها هي التي أوجدت المحنط من العدم كما أحدثتنا منه كذلك، معتقداً بوجود القوة الربانية الوحيدة التي المحنط من العدم كما أحدثتنا منه كذلك، معتقداً بوجود القوة الربانية الوحيدة التي وما حواه من بدائع المخلوقات وغرائب الكائنات ومن أحياء وناميات وجامدات ومن فرح وكدر صنع الله عز وجل الذي أتقن كل شيء.

وكان بنطاؤر في هذه الأثناء يصعد نظره في السماء، فلما انتهى من المسارحة السابقة أطرق برأسه، فاشتبك نظره بنظر بنت أنات يتشعع فرحاً وسرورا، فصافحته بلهف، فلثم بنطاؤر طرف ثوبها شكراً لهذا العطف الملكي والرعاية العالية، فقالت له بلهجة شديدة: خل هذا عنك واعفني منه إذ الأوفق أن تضع يدك بيدى لتعمني بركاتك فإنك رجل صادق وبالحق ناطق، وشاركني في الضراعة إلى الآلهة أن يطهروا أولئك المساكين من الدنس فإنه لا شيء في الكون على سعة أرجائه وتناعد أطرافه أحمل من أن برى المرء نظره على الفطرة التي فطره الله عليها وألا

يسوصم بوصمة عاريزعم الزاعمون أنها سرت إلى الأبناء من أصلاب الجدود والآباء. ثم أجالت النظر فيما حواليها فرأت بعاكر ونيفرت مقبلين من بعيد، فقالت: إنهما ينتظراننا في أشعة الشمس المحرقة فلنذهب إليهما. ثم سارت يتبعها الكاهن، فلم تمض في الطريق قليلا حتى دارت على عقبها لتسأل بنطاؤر عن اسمه، فلما ذكره لها قالت: كيف .. أأنت إذن شاعر بيت سيتى؟ أجابها: هكذا يقولون.

وقفت بنت أنات عندئذ باهتة وصوبت فيه النظر كما يفعل من يستثبت شخصاً لقيه لأول مرة بالطريق عقب تعرفه عليه، ثم قالت: لقذ فرّت يا بنطاؤر من نعم الآلهة بالنصيب الأجزل، وإنى أراك قد بلغت الغاية من الرأى الصائب وبعد النظر في العواقب، وأجد فيك من قوة البيان وسماحة البديهة وفصاحة اللهجة ما تصور به للأنظار دقيق الأفكار، لذا أريد أن اتخذك أصدق خليل وأرشد دليل. فاحمر وجه بنطاؤر حياء وقال بصوت خافت، بينما كان بعاكر ونيفرت يتقدمان حثيثا نحوهما: كنت إلى هذا اليوم من حياتى لا أرى حول عقيدتى إلا الشك والتردد، أما الآن فقد انجلت الريب وحل محلها اليقين بنوره اللامع وشعاعه الساطع.

الفصل السايع

خيبة آمال

انتهت بنت أنات مع رجال حاشيتها -بعد مترة من الرّمن- إلى بيت سيتى. وكان أحد رماحة الركب قد سبق إليه لإخطار رئيس الكهنة بقرب وصولها، فاستعد للقائها مع الكهان وما هي إلا دقائق معدودة حتى أقبل الركب تتقدمه الأميرة في مركبتها ومن خلفها بنطاؤر وبعاكر في محفة واحدة.

وكان الباب الكبير للهيكل مفتوحاً بحيث يرى النظارة من دونه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالنهاء الصقيل تحيط به ثلاثة صفوف متوازية من الأعمدة الضخمة الراسية القواعد على أوطد الأساس وأمتنها فيبهرهم تناسق النقوش التى غطيت بها الجدران والأفاريز والأعمدة وتيجانها، وما جمعت من جمال التنميق وحسن البرقشة والتزويق، وفي وسط ذلك الفناء مذبح القرابين تحيط به المباخر المعدة لإحراق كرات الريفي (١) تسطع منها الروائح العطرية فتملأ بأريجها رحب المكان وتستدرج من يشمها إلى الإغفاء برهة من الزمان.

وكان بصحبة رئيس المنجمين مائة كاهن افرغت على أبدانهم ثياب ناصعة البياض واصطفوا على شكل هلال منتظم الاحديداب، استعداد لاستقبال الأميرة بما يناسب معاليها الخطيرة. وكانوا لايفترون عن ترديد الاناشيد بصوت يملأ القلب

⁽۱) الريفى بضور كان شائعا فى مصر، ولصناعته طرق مختلفة فى أوراق البردى التى اكتشفها أيبرس، وفي كتابات ديوسقوريدس وبلوتارك وجالينوس وغيرهم، وقد ركّب الصيدلى فوجت فى برلين بخور الريفى نقلا عن تلك الكتابات فوجد أن أحسنها ما أورد شرح تركيبه ديوسقوريدس، وهو يتركب من النبيذ وعنب كورانت والأسفالت والمصطكى والعسل واللادن.

أسى وحسرة، فاحتشد أخلاط الناس خلف تماثيل أبي الهول المواجه بعضها بعضاً على صفين متوازيين يفصلهما طريق يمر منه النزائرون بين ضفة النيل وباب الهيكل. ولقد لبثوا ساكنين ساكتين لايتساءلون عن نبأ هذا الاحتفال العظيم، لاعتيادهم شهود أمثاله في كل آن ولأنهم لايهمهم منه سوى إثارة الأشجان بما يسمعون من شجى الألحان. وبعد قليل لاحت بنت أنات في ركبها المنيف فلما دنت من هذا الجمع الحفيل رنت إلى جلالتها الأحداق وامتدت نحوها الأعناق وانطلق الكهنة يتغنون معاً «السلام على ابنة رعمسيس. العبادة لابنة الشمس بنت أنات». ثم أعاد السلام على بدئه فكانت الآفاق تردد صداه آونة بعد أخرى. وظلوا كذلك حتى اجتازت الطريق المرصوف المحفوف من جانبيه بالتماثيل، ووقفت مركبتها تجاه باب الهيكل فركع الكهنة ركعة الاجلال وحياها المنجم الأعظم بالتحية اللائقة بهذا المقام. ثم ولى ظهره إليها وتحفز للدخول فاقتفت الأميرة أثره، ولكنها لم تمض بضع خطوات حتى اندفعت أصوات الكهان بما يصم الآذان من الألحان، فوقفت في مكانها باهنة متخبلة إلا أنها لم تلبث أن استأنفت المسير فما كادت تخطى خطوة حتى التقت بأميني عند عتبة الهيكل الأعظم مرتدياً ثياب الكهنوتية التي ورد وصفها في فصل سابق ومد إليها المحجن(١) كأنه همَّ بأن يلكزها به وقال لها بصوت يلقى في النفس الروع: إن وجود صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون ابنة رعمسيس في هذا الهيكل الأقدس لمن أجمل الإشارات إلى هطول البركات ووفور الخيرات، ولكن التقاليد الدينية صريحة النصوص في وجوب إغلاق أبواب بيوت الآلهة في وجوه الدين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس، لا فسرق في هذا بين العبد الحقير والأمير الخطير. فاستحلفك يا بنت أنات باسم القوة السماوية التي (١) عصا الكهنوت

تستمدين منها وجودك الذاتي لتقولين لى الصدق فيما أنا سائلك عنه.. أأنت طاهرة أم مازلت ملوثة بأدناس المنطين؟

قال هذا ووقف تجاه الأميرة يحد فيها بصره فأحفظها هذا القول وغاظها وكسر بالها فاحمر وجهها وطفق نهداها الرمانيان يصعدان ويهبطان استنكاراً لمعاملة لا تليق بمكانتها واستقر في خلدها أن الكاهن الأعظم دبير لها مكيدة للبوضيم من كرامتها فوطنت النفس على مفاجأته بما لم يكن في حسابه من القول المقذع. ثم أنشأت تتكلم، فحدّق أميني فيها بعين الإرهاب والتهديد وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجته وتنكرت بشاشته فأمسكت عن الكلام. إلا أن هيبة منظره لم ترعها إذ تجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى بنت أنات لا تقيم له وزنا ولا ترعى له حرمة واحتدمت في نفسه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردي من خلال بشرته الصافية الأديم. إلا أنه رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة في الأمر فأعاد السؤال الأول في صيغة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال: أعيد عليك سؤال الآلهة الذين أنابوني عنهم في بيتهم هذا بمجيئك إلى هنا تبغين التطهر من الدنس الذي تلوث به جثمانك وروحك؟ أجابت بصوت جهير: سوف أجاوبك على هذا السؤال. قال: إذا جاوب والدك عليه فإنما يجاوب الآلهة فقط، وإني لأمرك يا بنت أنات أن تبرحي هذا المكان المقيدس الذي تلوَّث بأقذار وجودك به. فارتاعت بنت أنات لهذا الكلام وقالت: هاأنذي ماضية في سبيلي. ثم دنت دنوة من الباب فإذا بها تبصر بنطاؤر واقفاً مبهوت ومرتاعاً، لأن منا سمعه من أقوالها -وإن وافق اعتقىاده - ليس من الهنات الهنَّناتِ، لاسيما وأن لأميني من بسطة الجاه والنفوذ وقوة البطش ما تعنو له جباه الجيبابرة. ولقد خرقت الأميرة بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هذا النفوذ

فوضعت من قدر أميني في نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصته وأعوانه.

ولهذا ظل حينما انكفات إلى قصرها يشيعها بنظره فييصر بها وهي تومىء إلى بنطاؤر إيماءة لم يدرك معناها. وكان هذا الشاعر يحلق بفكره آنذ في جو الخيال فانبهته الإيماءة من غفلته، فأخذ يرشقها بنظرات تشف عما في فؤاده من الهيام، فأيتن أميني أن بين الاثنين سراً لايفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق، فأيقن أميني أن بين الاثنين سراً لايفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق، فارتعد غيظاً وصوّت ببنت أنات أن تقف وأن تصغى إليه، ففعلت ناظرة إياه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها، وهي ماضية في طريقها. فقال: أنت يا بنت أنات تظاهرين الآلهة بالعداوة والتعدى. والمتبادر إلى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك في هذه العماية إلا حليف لك هو الآن بمرأى منك ومسمع. لهذا أنذرك أيتها الفتاة الجامحة في الضلالة بأن الآلهة لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت إليهم بحسن التوبة. ثم صعد نظره في بنطاؤر وأوما إليه بسباته قائلا: أما أنت أيها الكاهن الذي المكادى في البهتان وخضع لوساوس الشيطان فعبثاً تطمح إلى استدرار غيوث المكارم الربانية والفوز بالمغفرة الإلهية، فلقد أصررت على الباطل والبهتان ونكثت العهود وحنثت في الإيمان. ومع أن الآلهة قد أجزلت لك المواهب وأغدقت لك العطاء، من ذكاء متوقد وخاطر سريع ، فسنعاملك بالحرمان من هذا العهد ونبعدك إلى من ذكاء متوقد وخاطر سريع ، فسنعاملك بالحرمان من هذا العهد ونبعدك إلى أتصى مكان، مشيعاً بالخزى واللعنة من كل إنسان.

فرفعت بنت أنات رأسها وصوبت نظرها إلى أمينى وصعدته فيه ثم التفتت إلى بنطاؤر وكان راقفاً تجاهها فرأته ساكن الجأش مطمئن النفس، وقد أخذ يتقدم نحوها بقدم ثابتة. ففهمت أنه يبغى تبرئة نفسه مما عزاه الكاهن الأعظم إليه

وخشيت أن تفرط منه كلمة تخشى عاقبتها أو تزل قدمه في هفوة يعسر عليه النهوض منها، فتقدمت نحو أميني وابتدرته بقولها: إنني وحدى الجانية على نفسى بما تعمدته من الدخول في وجار المدنسين. ولا يد لهذا البرىء الساحة من كل ذنب، الطاهر النفس من كل عيب فيما اجترحته من الآثام.. كلا بل إنه أكثر من نصحى أن أتجنب الدنس قلم تبلغني العظة، وزجرني قلم يعمل الرجر في نفسى. وهاأنذي قد جئتك مستمحة العفو، فأقلني من عثرتي وامح ما بي من الرجس الذي حال دون دخولي في هذا المكان الأقدس.

لم تتم الأميرة هذه الكلم حتى تهلل وجه أمينى بشراً وسروراً وشملها بمظاهر عطفه، إذ بارك فيها بإمرار يده على رأسها، ثم سار بها في داخل الهيكل حتى وصل إلى قدس الأقداس حيث غمس شعرها الفاصم في الزيوت التسعة، بينما كانت رائحة البخور تسطع من حولها. وأذن لها بعد ذلك بالعودة إلى قصر الملك أبيها ذاكراً لها أنها لم تبرأ تماماً من الخطيئة وأنه لسوف يرشدها إلى ما يجب اداؤه من الصلوات وتقديمه من القرابين لتخلص خلوصاً تاماً من شوائب الدنس، ووعدها بأن يرفع هذا الأمر إلى مقام الآلهة حتى إذا تلقى أوامرهم فيه بادر بإبلاغها إليها. وقعت هذه الحوادث والكهنة عاكفون على ترديد الأناشيد والناس في خارج الهيكل يذهبون مذاهب شتى في تأويل أسباب هذا الاحتفال، وينتظرون خروج الأميرة للوقوف على جلية الخبر، لاسيما وأن الشمس كانت في تطفيلها وأن الساعة قد أزفت للرحيل من مواطن الأموات. ومما جرى على لسان بعض من كان يهمهم استراق الأخبار أن جماعة الكهان ضربوا على بنت أنات اللعنة والحرمان لزيارتها وردة التى فاقت فتيات طيبة بالحسن والجمال.

وكان سواد أولئك الدين يتنسمون الأخبار من العامة وأفناء الناس كالصناع والمحنطين، فلما وقفرا عليها هاجوا وماجوا وانقسموا شيعاً وأحزاباً وتخاذلوا كتخاذلهم الذي أفضى في عهد استيلاء الأجانب على بلادهم إلى التناحر، ثم أنحوا باللائمة على الكهنة لاستبدادهم وعسفهم في مناصبهم التي تستدعى ملاينة الناس والرفق بهم وانتقلوا من ذلك إلى الطعن في القوانين والتقاليد المأثورة، ذاهبين إلى أنها تخالف ضرورات العصر ورموا القائمين عليها بالظلم والإجحاف.

وكان في المتظاهرين جندى باسل لعبت الخمر بعقله فتناول حجراً رمى به باب الهيكل، ففعل الأطفال فعلته وتحفز الرجال القتال. وكانت الحمية قد دبت في نفوسهم بتحريض النساء اللائي ساءهن الاستهانة بمقام الأميرة. وكان الكهان دائبين في أثناء ذلك على ترديد الأناشيد الدينية، ولكن علت صيحات المتظاهرين على أصواتهم فلم يعد أحد يسمعها. وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى انشقت الأبواب وبرز منها أميني بملابسه المحلاة بالوشي متثاقل الخطوات متهاديا في مشيته تحف به الهيبة والوقار. وجاء في أثره عشرون كاهنا يحملون الرموز المقدسة والتماثيل الإلهية فلم يلبث السكون أن نشر جناحيه على المتظاهرين. فثابوا على الفور إلى السكينة ولزموا حدود الأدب، فوقف أميني وقال بصوت جهير: لم تفسدون علينا الأمور وتمنعنوننا من إقامة الصلوات ؟ فما فاه بهذا السؤال حتى طرقت المسامع ضجة دلت على اختلاف السامعين في الإجابة عليه والإعراب عن طرقت المسامع ضجة دلت على اختلاف السامعين في المخاهرة، وفاه بثافاظ الوعيد والتهديد وارتاع البعض على وجوب المضي في المظاهرة، وفاه بثافاظ الوعيد والتهديد وارتاع البعض الأخر لمنظر الكهان فصيل مع المصلين عملا بأوامر الدين. وكان اسم بنت أنات يسمع خيلال ذلك الوفا من المرات، فلما انتهى القوم من الموضائهم صاح بهم أميني: تراجعوا يا قوم عن مواقفكم وتنصوا عن أماكنكم

لبنت أنات سليلة الملوك العظام! فلقد قصدت الأميرة هذا المقام الأقدس لتسجد أمام الآلهة ملتمسة منهم ما فاتها من الطهارة بخروجها على القوانين والتقاليد.. فطربى للأتقياء المتمسكين بعروة الدين وسحقاً للأشقياء الكافرين! اسجدوا أيها الناس ثم أبسطوا أكف الابتهال إلى المولى المتعال أن يهطل عليكم غيوث العفو عن سيئاتكم ويبارك فيكم وفي أولادكم من بعدكم. وأمر بعد هذه الخطبة القصيرة أن يقدموا إليه المة الخشخشة المقدسة (۱) فلما تناولها أوما بها إلى السماء فانطلق الكهان يترنمون بنشيد ديني استهوى السامعين فاطرقوا بالرؤوس صامتين، فقال أميني: إن القوة الإلهية باركت فيكم فاهرعوا إلى منازلكم وافسحوا للأميرة المكان لتعود إلى قصرها في أقرب أن. قال هذا ودخل الهيكل فأخذ الحراس يقرقون الجموع في طريق أقيمت على عطفية التماثيل واعتلت بنت أنات مركبتها، فقال لها أميني وقد اجتازت عتبة الباب: اعلمي يا بنت أنات أن القصور الباذخة التي شادها والدك على أجمل الأنماط إنما قامت على أعناق أفراد الأمة المصرية. فإذا فككت عرى التقاليد القديمة التي تربط هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض فلا مناص من التخاذل والتدابر وكلاهما مفض تربط هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض فلا مناص من التخاذل والتدابر وكلاهما مفض ألى تداعى تلك الجدران وسقوط تلك الأركان.

قال هذا ثم توارى عن الأنظار فأخذت بنت أنات تسوى أعنة الجياد. وإنها لكذلك إذ لمحت بنطاؤر مستنداً إلى عمود الباب يرشقها بنظرات الهائم الولهان، فألقت السوط الذى بيدها، كما لو سقط منها بلا عمد وأرادت بهذه الحركة لفت نظره واستنفاره لالتقاطه ورفعه إليها، غير أنه لم يكن التقت إلى هذه الحيلة (١) آلة اخشخشة كانت شائعة عند قدماء المعريين في حفلاتهم الدينية وهي على مثال اللعبة المعروفة بالشخشيخة الشائعة الاستعمال بين أطفال العصر الحاضر، غير أن هذه تختلف عن القديمة في كيفية التركيب، وإن اتحدت معها في الغاية المصودة من حيث إحداث الصوت المعهود فيها.

فأشارت إلى أحد الاتباع فالتقط السوط وقدمه إليها وتحرك الركب رويداً حتى غاب عن العيان.

أما بنطاؤر فكان لايزال مشرد الفكر، وقد ليث في مكانه كمن أخذته الصبحة حتى طرق سمعه رنين الطبل النحاسي المؤذن باجتماع الطلاب لتلقي الدروس، حيئذ اعتدل في وقفته ومر بيده على قلبه وجبهته كمن يقوم من نومه وقد نسى ما رأه من لذيذ الأحلام فأخذ يستجمع شتاتها من هناك وثم . ثم هرول قاصداً فناء الهيكل المعد للتدريس فوجد الطلاب متربعين به بعضهم لصق بعض، في شكل حلقة كاملة متأهبين لتلقى درس البيان على أستاذهم بنطاؤر المشار إليه بالبنان. فلما وقف في بهرة الحلقة لينشر عليهم درر لفظه لحق عي وحصر، لأن عقله لم يكن في هذه الآونة حاضراً بل طائراً وراء قلبه الذي سلبت بنت أنات بجمالها الباهر وشبابها النضير الزاهر. ولقد كان في هيامه بها غافلا عن بون ما بينه وبينها حسبا ونسباً، ولو لم يغفل عن إدراك هـذا الفرق لما طوح بنفسه في هذا التيار، ولكنه كان من جهة أخرى يعتقد أنه من كرم المحتد وطيب العنصر بحيث يجيز لنفسه الطموح إلى الرتب الشريفة والمقامات العالية، وأن يكون في طليعة العظماء بل من صفوة الأمراء. وكان هذا الاعتقاد يزداد رسوخاً ف نفسه كلما فكر في بنت أنات وتمثل وجهها الجميل وقدها الأثيل وود لو تكون له أجنحة فيطير إليها ليقصر محبته عليها

تلك كانت حالة بنطاؤر عندما تأهب لإلقاء درس البيان على الطلاب، ولكنه لم ينشب أن أدرك من امتداد أعناقهم إليه وتحويم أنظارهم عليه أنه في غير موطن

العشق والهيام. فبادر بنشر ملف من ورق البردي قدمه إليه (أنانا) أمهر تلاميذه. وكان في اليوم السالف قد وعدهم بتفسير ما تضمنه من الحقائق الفلسفية، وما إليها من الحكم البالغة التي تقصر عن إدراكها أفهامهم ، فتطامن إلى الجدار وأطال التأمل في السورق فلم يستطع فهم شيء ممسا احتواه، إذ أشكلت عليه الحروف واستعجمت الكلمات فلم تتيسر له تلاوتها. ولطالما أجهد الذاكرة ليلم بماهية الدرس الذي وعد بتفسيره فلم يحضره شيء من حوادث الماضي وظل متحيراً ساعة كان الطلبة ف أثنائها يتغامزون ويتهامسون لتبين سر ما أصاب أستاذهم من العي والاستغلاق حتى تعذر عليه الكلام، على خلاف ما يعهدونه فيه من ذلاقة اللسان وفصاحة البيان. ولاح لأنانا أن أستاذه يضغط على ورق البردي ضغطاً كاد يفتت أجزاءه وكان لا يستطيع إنباهه إلى ذلك خيفة أن يكون متفرغاً لاستجماع شتات موضوع الدرس في ذهنه فيكون تدخله داعية لنفور شوارد الموضوع واستغلاقه عليه، ولهذا أمسك عن الكلام. ووقع نظر بنطاؤر أنئذ على اسم الملك منقوشاً في الجدار المقابل له ومشفوعاً بكلمتي (الإله الرحيم) فتذكر الموضوع في الحال وانصرف إلى تلاميذه متهلل الوجه بشراً واغتباطاً وقال لهم: بم تعرفون الرحمة الإلهية؟ قفوا جميعاً على أقدامكم ، وليسرد كل منكبم سوانح فكره في هذا الموضوع. فقام الطلاب جميعاً وأخذوا يشرحون- بعضهم تلو بعض-ما عنَّ لهم من الآراء والأفكار، فمنهم من أصاب الشاكلية فأحسن وأجاد ومنهم من أخطاها فخلط وهدى أما أنانا التلميذ الأول فقد استرسل في وصف الخليقة بكمات رشيقة ومعانى دقيقة، وسرد ما حوته من غيرائب المخلوقات وعجيائب الكائنات الحية والنامية والجامدة، وانتقل من هذا الوصف البديع إلى بيان العلاقة بين الألوهية والخليقة على اختلاف مناشئها وتعدد مظاهرها، وأنها تشير إلى رحمة آمون ورع وفتاح (١) وشفقة بقية الآلهة.

وكان بنطاؤر ينصت لأقوال تلميذه معجباً بها واتخذها تكأة له فى تفسير درسه فشرح ما جال بخاطره من الأفكار وسنح له من الآراء . وأفاض فى ذلك بكلام سهل المضرج مطرد السياق، حتى خلب الأسماع وبهر العقول . وقد أبان عزة شأن الخليقة وما حوته من بدائع الكائنات واتحاد الجسم بالقوى العقلية، وذهب فى هذا الباب كل مذهب إلى أن قال فى ختام الدرس: وإن الأرض التى هبطناها بقضاء الله قدره لنمشى فى مناكبها ونأكل من رزقها أحسن مقام للإنسان فى الحياة الدنيا، وهى بما حوته من الكائنات الحية والنامية والجامدة دليل على وجود الإله القادر المبدع، وأن فى كل كائن أثراً واضحاً ثابتاً يثبت استمداده الحياة من إمداد ذى الوجود السرمدى وسعة رحمته تعالى، وأنه موجود فى كل مكان، فأينما صرف

⁽۱) آمون إله طيبة، وكان قدماء المصريين يعتقدون انهم لم يطردوا العمالقة من وادى النيل إلا بمعونته. وقد اضافوا صورته إلى صورة (رع) إله هيلوبوليس فاتحدت فيه بذلك صفات كل الآلهة. ولذا جردوا طبيعته من شوائب المادة ونسبوا إليه الصفات الروحانية فقررت الأسرة الرعمسيسة تلقين طلبة المدارس بأنه العقل المدبر لكل شيء في العبالم، وأنه فأن واحد زوج والدته ووالد نفسه وابن نفسه وأنه المودع للروح والعقل في الكائنات الحية، وأنه المدرة الخفية القابضة على ميزان العقل والمجزى على الحسنة والسيئة أما فتاح فكان في اعتقادهم الإله القديم الواضع لمبدأ الخليقة والقائم بتنظيمها، وكان يحيط به دائما السنيمو السبعة أى المهندسون المكلفون بتنفيذ ارادته، وكان يلقب بصاحب الحقيقة وخالق عنصر الضوء وخالق الثلج والفاتح لله، لأنه فلق الثلج فخرجت منه الشمس والقمر. وكانت مدينة منفيس مقر عبادته.

الإنسان وجهم وجده وكان دليله ورائده». واسترسل مخاطباً الطلبة بعد ذلك إذ قال: «فابحثوا إذن عنه أيها الطلبة، فإذا اهتديتم إليه فخرّوا له سجداً وكونوا لنعمته من الشاكرين. ولاتقصروا شكركم له على ما برأ من مخلوقات، بل اشكروا له عز وجل ما أولاكم به من نعمة القدرة على إدراك كنهها ومعرفة حقائقها بما خصكم به من العقل والتمييز. وإنما أنتم الآن تجاه أكمة عالية فاصعدوا فيها حتى إذا تسنمتم ذراها العبالية فسرحوا الطرف فيما حواليكم إلى أقصى مبرامي النظر تجدوا الشمس في الأصيل وقد أضرمت أشعتها الآفاق بلهب من العقيق. ثم ارمقوا هذه الآفاق إذا نضّ النهار جيده فسترونها وقد اكتست بطيلسان أصفر وارقبوا الكواكب الساطعة والنجوم الثاقبة في فحمة الليل الهاديء، وقد خطت على بساط اللازوردى أفلاكها الاهليلجية المنتظمة التي لا تكف عن مواصلة السير فيها منذ الأزل، وابصروا بالطفل في مهده والأزهار وقد تفتقت عنها الأكمام بأطراف الأغصان، وتأملوا كيف تحنو الأم على وليدها وكيف تتكلل الأزهار بالندى، تجدوا لكل من هذه المظاهر الرائعة حدًا يقف عنه ولن يتجاوزه إلى ما بعده. أما الرحمة الإلهية فكالآفاق لا حدلها على الإطلاق، وكالبحار بعيدة القرار، لكن أدريتم أين يسطع شذا هذه الرحمة وعلى من تغدق المواهب اللدنية؟ الرحمة والمواهب هذه إنما تقيض على قلوبكم إذا طهر عنصرها وشرف جوهرها وامتلات بالحب، لأن القلب المحب الرحيم مراة تتجلى الطبيعة فيها بأحسن ديباجة وأظهر رونق، فلولا القلب لما ابتسم ثغر الطفل في مهده والتفتحت الورود في أكمامها بل لولاه لتضعضعت أركان الأيمان وكدر صفاء العواطف والوجدان وانحلت عرى التقوى والإحسان، ولما

نزعت النفوس إلى الإله الواجب الوجود ولجأت إلى حظيرة قدسه تخلصاً من أكدار المادة وظلمات العوالم السفل. هو الإله الذي تعجز الألسنة عن وصف ذاته وتحار الأفهام في معرفة كنهه وتحديد صفاته. هو الإله الذي لا إله إلا هو، هو الإله الذي اليه تضرع الآلهة التسعية العظمى وتبسط الأكف إلى مقاميه الأسنى كما يمد المستجدي بده التماس البر من المنعم الجزيل الإحسان».

وما أتم بنطاؤر هذا البيان حتى طرق الآذان دوى الطبل النحاسى المؤذن بختام الدرس فأمسك عن الكلام. ولبث الطلاب سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إذ أخذهم الروع واعترتهم الدهشة لطلاوة الدرس وحلاوة ما تضمنه من الأفكار، فتركهم تحت هذا التأثير اللطيف وقصد إلى حديقة الهيكل في طلب الراحة والعزلة. إلا أنه ما كاد يبلغ إلى باب الهيكل حتى أحسّ بيد قد هوت على كتفه فتأمل فإذا بها يد أمينى الذى أراد بهذه الحركة أن يستوقفه ، فلما وقف باهتاً قال له: لقد خليت يا بنطاؤر الباب الطلبة ببيانك وجذبت قلوبهم بفصاحة لسانك! فكان لهذه الملاحظة فى نفس بنطاؤر تأثير الثلج في المحموم إذا وضع على صدره لأنه كان عالما بأساليب الكاهن والعظم في التوبيخ وأنه يصبه عادة فى قالب التحبيذ والمدح وهو إنما يريد به التأنيب والقدح. وعلى هذه الطريقة واصل حديثه إذ قال: الحق أحق بأن يتبع. لقد كنت ثملا بخمرة العشق والهيام فوقفت بين التلاميذ لتلقى عليهم الدرس فنسيت ما كان يجب أن تتصدى له بحكم وظيفتك قفتحت أبواباً كان ينبغى أن تبقى مغلقة وجهرت من الحقائق الفلسفية والدينية بما لا يصمح أن تهبط به إلى مدارك طلبة العلوم الأولية! وهل ذهب عنك أنك أقسمت بالإيمان المغلظة أن تحرص على الأسرار، فكيف بذلتها الآن على ما ذمن الصغار؟ وعرضت سلعتها في سوق الابتذال يرمقها

الخاصة والعامة على السواء، وهي فضر الكهنة وشرفهم وشارتهم القدسية التي ليس لغيرهم أن يطمح إلى التحلي بها؟. أجاب بنطاؤر: لقد وقع تعزيرك من نفسي موقع السيف المرهف من العنق، ولكن رب ملوم لا ذنب له. قال أميني: ليت هذا السيف قد بلغ منك إلى ما بين الجنبين ليستأصل من قلبك جذور الفساد التي أخذت منه مغرساً عميقاً.. إنك وإن تكن في فتاء السن فلست أشبهك بالعود اللدن الذي يسهل تقويمه أو الشجرة المباركة التي تـؤتي أكلها كل حين، بل أشبهك بالعود اليابس المعوج والشجرة الفجة الثمر التي يغتر الأطفال بنضرتها فإدا تسابقوا إلى اقتطاف ثمرها ذاقوا منه السم الزعاف... ومع كل هذه الهنات رضيت أنا وجاجابو بيقائك في هذا الهيكل ولم نذهب إلى ما ذهب إليه باقى الكهنة الذين استرابوا بذمتك وقرروا مقاطعتك والبعد عنك. وكان مما زادنا ثقة بك أنك أقسمت بالأيمان المغلظة ألا تكاشف أحداً بأسرارنا، ولكنا لم ننشب أن رأيناك جامحاً في غوايتك ومعرضاً عنا بجانبك ومقبلا على احترام ما يخالف حسن ظننا فيك، فإنك ما كدت تتم الدراسية وتندرج في صفوف الكهنة والأسيائذة حتى مبددت يدك فهتكت أستار الأسرار وطوحت بنفسك في تيار الزندقة والإلحاد. قال بنطاؤر: كفي لوما وتعنيفًا! إنك أن تحسب صنعي جهلا فخير لي الجموح في غوايتي واللجاج في ضلالتي، ونعمت الضلالة إذا وافقت الحقيقة وطابقت العدالة. قال الكاهن الأعظم: صه أيها الـزنديق الـزائغ عن محجة الطـريق! ألا تعلم أن العـدل لا يُلتمس إلا من القانـون، والقانون يحرّم إفشاء السر المكنون؟ لقد فهمت الآن الحقيقة، فما تعنى بها يا أشقى الخليقة؟ قال بنطاؤر: الحقيقة التي انطلق بها لساني هي التي لم يجرؤ أحد من قبلي

على الجهر بها بعد استجلاء مظاهرها.. إني لم أر وراء ستار الأسرار ما يدل على اشتقاق الروح من الذات الخفية المدبرة لشؤون البرية ولا على قيامها بجزء من الحكمة الألهية. ومتى بدت هذه الحقيقة في الإنسان بمظهرها الجلي.. فقاطعه أميني بقوله: نعم! نعم! إنه ليهون على مثلك يا بنطاؤر أن تسمى نزعات نفسك الأمارة بالسوء بمظهر الإمدادات السماوية والحكمة الألهية!! قال بنطاؤر: ألا يحيط علم هذا الإلبه الذي وسع كل شيء بإرادته الغالبة وقوته القاهرة اللتين تستمد منهما إرادتك وقوتك كسائر الناس سواء بسواء؟ قال أميني وقد روعه ما طرق سمعه: إن يفهم عامة الناس معانى هذه الأقوال فلا عجب إذا مدّوا إليك الأعناق وقصدوا إليك من سائر الآفاق، وأقام كل منهم في نفسه عرشاً لعقيدة خاصة يكل إليها الهيمنة على إرادته وتصرفاته ثم يزعم أن الإلسه يوحى إليه بما يجب عليه من قول أوفعل! وإنى لأرى -وملء فزادي الأسف- أن القوانين قد لعبت بها الأغراض وهتكت حرمتها الغايات وعصف الجهل بما احتوته من أصول العدل. قال بنطاؤر: أنا واحد من قليلين اطلعوا على الحقيقة فاهتدوا بهديها واستضاءوا بضوئها الذي لاح للعامة فيهر أنصيارهم وخلب عقولهم. قال أميني: وبه بهرت أبصار تلاميذنا إذ أرسلت أشعته إليهم فنفذت إلى قلوبهم! قال بنطاؤر: نعم، هكذا فعلت لأجعلهم أهلاً لصون الأسرار من عبث الأغيار. قال أميني: وهل تثق بهم لو أفضيت إليهم بأسرار قلبك الثمل بخمرة العشق؟ قال بنطاؤر: دعنا من هذا الكلام يا أميني. قال الكاهن الأعظم: طاعتك لى فرض محتوم عليك لأننى أستاذك وإلى يرجع حق عقابك على مخالفتك أصولا كان يجب أن تعلق على شهوات النفس. ألا تدرى أن من الواجب على من

يحيط بالأسرار الدينية أن يرضخ للدين ويعمل بأوامره ونواهيه، فلم تهمل القيام بهذا الواجب المقدس؟ أما وليتك الود الخالص مذ كنت طفلا إلى أن بأن عذارك؟ ألم استودعك أماني التي مازلت أعتقد أنها في حرز حريز؟ خذ للسفر عدتك ولا تطلعن عليك شمس الغد إلا وأنت آخذ سبيلك إلى هيكل (حاتاسو) ، فإن ما تعمدت الزلل به من فاحش الأغلاظ والتخبط فيه من واضح البهتان قد استوجب عزلك من مناصب التدريس السامية ونقلك إلى رئاسة كهان ذلك الهيكل، وأرجو أن تكسبك التجارب فيه حكمة فيعلو مقامك بين العدو والصديق. وعليك بلقائي قبل بزوغ كوكب سوتيس (۱) لأزودك النصائح اللازمة، ثم إني أسألك الاستمداد بعون الله على أداء مهمتك والتوجه إليه تعالى ف قضاء حاجتك، وأن تصعد كل يوم إلى سطح الهيكل السلام على الشمس عند بزوعها. وسأضرع إلى مجيب الدعاء أن ينقش في صدرك أصول الدين ويرشدك إلى الحق بنور اليقين....

ما فاه أمينى بهذه الأوامر والزواجر حتى انكفأ عائداً إلى مخدعه وأخذ يتمشى فيه سبهللا ليسكن اضطرابه ويسرى الهم عن نفسه. وكان بالقرب منه منضدة صغيرة عليها مرآة من الصلب المسقول، فتناولها بعد أن تراءى فيها هنيهة طرحها في مكانها، وقد تربد وجهه كأنه تحقق من دمامة صورته وقبح هيئته. ولعله علل ذلك بتسلط الغضب والحدة عليه وبتواتر المباغتات في ذلك اليوم، حتى لقد زعزعت ثقته بالرجال وحملته على إساءة الظن بهم في كل حال.

⁽١) هـ و الشعرى اليمانية أو كوكب الكلب، وكان يسمى عند قدماء المصريين بكوكب أينيس المقدس، وكانوا يتخذونه قاعدة للحساب الفلكي لأن مجراه في فلكه يعدل السنة الشمسية الفلكية.

ومما برح به وزاده هموما واتراحا أن تلك الثقة أدت به إلى الزلل والسقوط في مهاوى الخطأ والخطل، حينما عامل بالجفاء والشدة ابنة رعمسيس رغم ما كان كهنة طيبة ينبهونه إليه من كرم سجاياها وطهارة ذيلها وشدة رفقها بالفقراء والبائسين. وكان يراجع نفسه بهواجس كثيرة لتسويغ خطته منها أن مخالفة بنت أنات لقواعد الدين وزيفها بذلك عن الطريق القويم فرصة أتاحتها المصادفة لتأييد نفوذه وتوطيد شوكته فإنه اضطرها إلى المثول بين يديه في موقف الاستكانة والذلة وكل ما أخذه على نفسه مسارعته إلى تطبيق العقوبة عليها وأنه كان خليقاً به أن ينظرها إلى حين. ولكنه لم يلبث أن التمس لنفسه المعاذير بقوله إن الذي حمله على الظهور بمظهر الشدة هو الخوف على الكاهن بنطاؤر أن تزل به القدم وأن يقع بعد في مهواة الندم، ثم التبرم بتماديها في العصيان وتبجحها أمامه بالباطل والبهتان.

وكان الكاهن الأعظم حينما أمر بنطاؤر بتعزير بنت أنات على ماسولته نفسها لها من انتهاك الحرمات يريد استفزازه إلى صعود درج المعالى بمعاملة أمراء الأرض وعظمائها كعامة الناس، إذ كان يعتقد أن نظام الهيئة الاجتماعية يتوقف على بقاء أزمة الحكم في قبضة الطائفة الكهنوتية. وكان لإصابة هذا الغرض يرشح الأكفاء من رجاله للمناصب الدينية التي تكون المعاملات فيها دائرة مع سراة الأمة وأعضاء أسرتها الملكية، ليلقوا الروع في قلوبهم ويقعوا موقع الاحترام في نفوسهم. ثم أطرق هنيهة وقال متابعاً حديثه الأول لنفسه: نعم لابد من البلوغ إلى هذه الغاية التي ليس من ورائها مذهب لذي همة ، ولا مفر منه حتى لايرفع العظماء والأمراء عقيرتهم على الكهنة وحتى لايكونوا في معاملتهم إياهم بالصلف والخيلاء أزهى من الديكة.

أما بنطاؤر فلا حق له فأن يصب إلى هذه الغاية الجليلة والمقصد الشريف، لأنه مازال في عنفوان الشيباب، ولو شب على هذه المباديء لانتقشت في صحيفة صدره ولست أنسى عجزه فيما مضي عن مقاومة الشهوات النفسية وقصوره عن مغالبة النزعات الغرامية، ولكنه إذا أقام في هيكل حاتاسو وترأس فيه على رهط من الكهان والمبخرين ورجال القبرابين تولدت في نفسه محبة الرئاسة فينبذ وراءه ظهريا ما منتحله الآن من رقبة الحاشية وعطف الفؤاد ويتعذر على الغبانيات استهواء قلبه برشاقة القدود وورد الخدود. وأهم من هذا أنه -وهو في مركزه الجديد- سيروض نفسه على الطاعة لاسيما إذا دفعت نزعات الحسد والشر أحد الكهان إلى رقع لواء العصبيان، فإنه يحس وقتئذ بما يحق لكل رئيس على مرؤوسيه من واجب الطاعة. وربما اضطر إلى التذرع بسلاح الشدة والعنف لإظهار كلمته وتحصين نفسه ومركزه من حملات العصاة ومباغتات المتمردين فيكون منهم معه مثل ما كان منه معى حينما استظهر بالمعصية على الطاعة وبالفرقة عن الجماعة فلقد قضت سنة هذا الكون: (أن من شبّ على العصيان كان مأله إلى الاستبداد والطغيان). ولقد لاح لى من فعال هذا الشاعر أن فؤاده الشفاف الخالص من شوائب الغرض قد افتتن بحب بنت أنات وحقا فإنى لا أرى بمصر غادة -ولو فازت من الجمال الفاتن بأوفى نصيب. لايذوب قلبها هياما ببنطاؤر الذي يشبه بحسن ذاته وكمال صفاته (رع هرماكيس) وتنتثر من فيه درر ألفاظ تيشوتي (١). أما الآن وقد بعدت الدار وشط المزار فقد أصبح مستحيلا على بنت أنات أن تخامر شاعرنا بلحاظها الفاتنات.

⁽١) هـ قوث هـ رمس (انظر كتاب ماسبيرو في تاريخ أمم الشرق القديم صفحة ٤٨ من الطبعة الثانية).

قال هذا وأسرع في مشيته وباعد في خطوته، وظل هكذا زمنا ثم قال: ما أغرب هذا الاتفاق! لقد دخل هذا العهد فتيان امتازا بحدة الذكاء وصفاء القريحة وفاقا الأقران ف ميادين المساجلة والامتحان كما تفوق ذرى النخل حشائش الأرض، فشملتهما بعنايتي وقصرت عليهما رعايتي ووددت يوما أن يكونا لي خليفتين من بعدي، غير أنهما ارتكبا من الأعمال ما خيب فيهما الآمال. أما الأول وهو ميسو (١) فقد ولى الأدبار واقتدى به الثاني وهو ينطاؤر ولم يخش هذا العار! ما سبب ذلك با ترى؟ أأسأت إليهما؟.. أم ذا جزاء عطفي عليهما ورفعي من شأنهما؟ ألم يجدا فيما عهدته الزهو والغرور فظنا أنهما أرفع عباد الله شأناً وأسماهم مكاناً، وجرد كلاهما من نفسه علما التمسا فيه رضى الأهواء والشهوات والمضى في تيار المصالح النذاتية والغايات.. ظناً أنهما إن تخلفا عن الناس لحقت بهما الإهانية والضعة وتبددت أمانيهما التي تعبدت قلبيهما بالوهم الفاسد والخيالات المستحيلة، فشعرا بلذة لم تلبث أن تلاها غم وانقباض.. إلا أن مكانتي في الهيئة الاجتماعية لتدعوني إلى الثبات والاستمرار في مخالطة الناس حتى يهتدوا بهديي ويعشوا على نور معارفي الدينية، وأن أكون لهم كالماء الدافق من ينابيع جبل لبنان، يقطع المسافات الطويلة في مساربه وقنواته، فإذا ما خالطت مياه الأنهار الكبرى أكسبتها لونها وطعمها.

أمسك أميني هنا عن مناجاة نفسه بهذه الهواجس واستدعى كاتب الهيكل،

⁽١) اسم موسى عليه السلام، الذي كان معاصرا رعمسيس الثاني. وفي عهد خلفه كان خروج العبرانيين من مصر.

وهواحد الكهنة الملقبين بالآباء المقدسين، وقال له: اكتب رسالة إلى الكهان جميعاً أن أقيموا الصلوات لتطيهر بنت أنات مما لوثها من الدنس بخروجها عن أفق أوامر الدين ونواهيه.. إنما .. ناولني القلم والقرطاس والمحبرة، فإنسي أفضل تحرير هذا المنشور بنفسي. فوافاه الكاتب بأدوات التحرير والتحبير، ثم تراجع إلى أحد أركان المخدع، بينما كان أميني يخاطب نفسه بقوله: إن السطور التي سيرقشها يراعي الآن ستكون عنوان حرب عوان يشيب لهولها الولدان!!

الفصل الثامن

عادات داخلية وأحوال منزلية

طلع بدر السماء على طيبة الأحياء، فبهر الناظر بسنائه الباهر، وكشف ما امتازت به من الحركة والحياة على طيبة الأموات. هنا لما مالت الشمس إلى المغيب وانتهى الكهنة من ترديد أناشيد المساء، ضرب السكون فسطاطه ونشر الهدوء أعلامه. وهناك كان بدء الحركة والانتقال ، لأنه بمغيب الشمس زالت الحرارة الشديدة وأعقبتها البرودة، فخرج الأهلون زرافات ووحداناً للرياصة وترويح النفوس. فمنهم من سار في الطرقات ومنهم من صعد إلى ذرى المنارات وسطوح المنازل لاستنشاق النسيم. وكان الكثيرون منهم يتهافتون على المنتديات العامة لابتياع النبيذ والجعة وعصير القواكه، ويتراحمون حول الخطباء والشعراء ليستمعوا منهم ذكرى حوادث الماضين أو يطوفون حول المغنين، فيرافقونهم في أداء أغانيهم بالنفخ في المزمار والنقر على الدف الصنجي الإطار.

وكان قصر الملك شامخ العلوّ جنوبى هيكل آمون بوسط حديقة غناء حفت بها منازل العظماء من بطانة الملك وحاشيته، وبينها قصر وطيد الأركان سامى الجدران رحب الفناء تناطح ذروته السماء. شاد بعاكس هذا القصر بعد وفاة أبيه ليحل فيه عندما يتزوج بنيفرت ريحانة فؤاده ومالكة قياده. وإلى الشرق من هذا القصر المنيف بيت فسيح الساحة متنائى الأطراف، إلا أنه عتيق البناء هو البيت الذى ورثه مينا عن أبيه ولم يباشر فيه إصلاحاً بل تركه على حالته تخليداً لذكرى الأجداد، وأسكن به نيفرت ووالدتها (راتوتى). ولقد أقام به معهما أياما قضت عليه وظيفته من بعدها بمغادرته لملازمة ركاب الملك الهمام في حروبه مع أهل الشام.

وكان بكل باب من أبواب تلك القصور الشامخة والدور الفسيحة الباذخة، أفواج من الحاشية والغاشية والمصطنعين يتناجى بعضهم ويتباحث آخرون واقفين يترقبون قدوم سادتهم ومواليهم، وكان باب قصر بعاكر يلفت الأنظار برسومه البديعة ونقوشه الأنيقة الدالة على المغالاة في البذخ والافراط في الترف. وكان مما يميزه عن غيره من المبانى الحافلة ادقال جيء بها من جبال لبنان وغرست أمامه لرفع الأعلام (۱). وكان الداخل فيه يصل إلى ساحة متباعدة الحواشي مرصوفة بحجر النهاء يحيط بها إيوان مظلل بظلة تحملها أساطين خشب على صفوف متوازية. وكانت هذه الساحة مخصصة لسكني العبيد والخدم وبها مواقف للخيل وأماكن لادخار المؤن الشهرية لسكان القصر. وإزاء المدخل العام باب يؤدي بالداخل إلى حديقة غناء غُرست بها أشجار الفواكه والازهار صفوفا الوفا وبزرت البقول والخضروات في مربعات متساوية متوالية يحف بها من الأطراف أشجار النخل والجميز والتين والرمان والياسمين الذي كانت تعبق رائحته أرجاء

وأفنى العمر في قيل وقال

وجمع من حرام أو حلال

اليس مصير ذلك للروال

أيا من عاش ف الدنيا طويلا

وأتعب نفسه فيما سيفنى

هب الدنيا تقاد إليك عقسوا

والأدقال جمع دقل الساريات

⁽۱) هذا الوصف مأخوذ من رسوم منازل الأمراء وبساتينهم على جدران قبور تل العمارنة، وقد نقلها ليسيوس بشكلها في الجزء الثالث من كتابه المسمى بأشار مصر والحبشة، وكانت الحدائق نادرة في عهد قدماء المصريين لدلالتها على بـذخ صاحبها وترقه واتساع ثروته. وجاء في ورقة المبردي الرابعة المحقوظة بمتحف القاهرة ما يشير إلى ذلك وهو: «لقد اشتريت أرضا يثمر فيها الري واحطت حديقتك بالاسوار العالية وغرست أشجار الجميز حول منزلك الرفيع الذري وكلك رأسك بالأزهار ولكن لابد من يوم تزهد فيه نقسك هذه الخيرات وتشعر فيه بالسامة ولللال من الحياة» وهو يقابل في معناه قول الشاعر العربي:

البتسان فينشرح لها الصدر ويرتاح الفكر.

وكانت (ستخم) والدة بعاكر تتولى بنفسها في هذه الحديقة أعمال المتعهدين بخدمتها من رى وحرث وغرس، فتأمرهم بغرس نبات نادر أو بملء البركة بالماء الذي كان يصل إليها في مسربين يتواصل انحداره فيهما من ناعورتين يديرهما ثوران صباح مساء، فينقضى النهار وهما لا يفتران عن اغتراف الماء من النيل حتى إذا ما انصب في البركة تشعب منها إلى أنحاء الحديقة في مئات من المسارب والقنوات ليروى الوف الاشجار التي تتدلى منها الفواكه والثمار،

ون الجهة الشرقية من الحديقة حجرات شيدت بعضها إلى جانب بعض، طبقة واحدة أو بضع طبقات، ولكل منها طنف ومستشرفات تحملها أعمدة خشب رفيعة، ويشرف الواقف فيها على الحديقة. وكان بعاكر يقيم في تلك الحجرات مع أهله وقرابته. وكان بجوارها بناء على شكل زاوية قائمة أعد لحفظ الأنبذة والثمار وصيانة الاقمشة والمنسوجات والجلود والأشعار والأوبار، وبناء أخر متين الجدران يحتوى ما ادخره جدود بعاكر واقتناه هو من النفائس القيمة كالسبائك من المعدنين الكريمين الذهب والفضة وتماثيل الحيوانات والأواني الظريفة الشكل والسان. وكان بوسط الحديقة مقصورة زُينت بالنقوش الأنيقة التي تقصر عن وصفها اللسان. وكان بوسط الحديقة مقصورة زُينت بالنقوش الأنيقة التي تلفت الأنظار وتستهوى الخواطر والأفكار، ومصلاة نقشت في جدرانها صور الآلهة ونصبت تماثيل آباء بعاكر تحيط بها لفائف التحنيط وكلها بصورة أوزريس وإن اشبهت وجوهها وجوه أصحابها وملامحها ملامحهم الميزة لذواتهم. وكان الجناح الأيسر من القد رينبعث إليه الضياء من جميع الأرجاء، ولكنه خُص بالعبيد والاسرى، تقع

الأنظار عليهم فيه مجتمعين مثنى وثلاث ورباع أو مضجعين على رقع من حصير سعف النخل وقد اتزروا بمآزر من القطن.

وكان إلى جانبى الباب مصابيح ترسل اشعتها الباهتة الضعيفة فتضىء رجالا جلسوا متربعين إلى مائدة واطئة يتناولون ماطاب لهم من الطعام، ويبدو من كمودة بشرتهم أن الشمس لوحتهم بلفحاتها ودمغتهم بحر هجيرها. وكان طعامهم خبراً وشواء غزال. فكانوا ينتابونه تارة ويتعاطون تارة أخرى شراباً أصفر اللون يقدمه إليهم خدم في أكواب من صلصال مدهون بطلاء براق. أولئك الرجال هم موظفو القصر والقائمون بإدارة شؤونه. وكان يتصدر رئيسهم المائدة فقبض على فخذ الشواء واقتطع منه قطعة قدمها إلى قيم البساتين قائلا له وهو يشير إلى أحد العبيد: لقد كلّت يدى من ضرب هذا العبد لأنه كلما تقادم عليه هنا العهد ازداد عناداً وكسلا. أجاب القيم: لقد تبينت منه هذه العيوب وأنا أتفقد الأشجار، إذ رأيت النخل مجرداً من سعفه بما جعله أشبه بالطيور وقد نتف ريشها. (١) قال ناظر الخيل: يجب علينا الاقتداء بمولانا، فإنه يتخذ عصيه من السأسم الذي لصلابته يعيش مائة سنة. قال ناظر الماشية الموكل بماشية القرابين: هذه العصى تعيش أكثر من عظام الجسم، فلو اقتدينا بمولانا فلا يكون بين خدمة القصر غير الأكتع والأعمى والأعرج وأرباب العالمات. قال الرئيس: اتذكر المسكين الذي كسر له مولانا ترقوته بضربة من تلك العصا، وهو الآن طريم، الفراش يئن من شدة الألم؟. إني لفي كدر شديد لهذا العصا، وهو الآن طريم الفراش يئن من شدة الألم؟. إني لفي كدر شديد لهذا العصا، وهو الآن طريم الفراش يئن من شدة الألم؟. إني لفي كدر شديد لهذا العصا، وهو الآن طريم الفراش يئن من شدة الألم؟. إني لفي كدر شديد لهذا العصا، وهو الآن طريم الفراش يئن من شدة الألم؟. إني لفي كدر شديد لهذا

⁽١) شهد كتاب قدماء الرومان واليونان بميل المعريين إلي المزاح، وأن أحدهم ربما أنفق ثروته على قصيدة مجون أو هجو لينشرها على الجمهور، يؤيد ذلك الصور والرموز المنقوشة في آثار مدينة أبو والمرسومة في ورقة بردى محفوظة بمتحف ثورين، وقد أعثر البحث على فصل من كتاب فلافيوس فويسكوس الروماني يشبه فيه الشعب المصرى بالفرنسيين.

الحادث، لأن الرجل كان من أمهر صانعي الحصر عندنا، والحق يقال إن والد مولانا كأن أرفق منه بأتباعه، إذ كان إذا ضرب أحدهم لا تأخذه مثل هذه القسوة. فسمع الحاضرون صوت متكلم قد توارى عن الأنظار يقول بصوت مجوني: يظهر أنك جربت ضربه. فالتفتوا جميعاً إلى مصدر الصوت وضحكوا ضحكاً عالياً إذ علموا أن الزائر رجل قصير القامة لايكاد يعدل ارتفاعه ارتفاع طفل في الخامسة من العمر. وكان بمدينة طيبة كثيرون من أمثاله ، لأن قدماء المصريين من ذوى اليسار والرجاهة اعتادوا أن يكون من بين المقربين منهم أو المصطنعين لهم أقرام كذلك الزائر يقضون الأوقات معهم في المازحة والتماجن. وكان هذا القرم المسمى (نيمو) من أتباع نيفرت، وقد امتاز على أمثاله في طيبة بحدة اللسان والتفنن في التنكيت حتى كان لا يفاجيء قوما في مجلسهم إلا استقبلوه بالإيناس والبشاشة.

فلما برز نيمو إلى موظفى قصر بعاكر وهم جلوس إلى المائدة وخاطبهم بذلك، أغربوا في الضحك ونشطوا لقدومه. وحينما أمسكوا عن الضحك قال: امنحونى موضعاً ضيقاً بينكم، ولعل زيارتي إياكم في هذا اللوقت لا تثقل عليكم فإن الجعة التي تحتسونها والشواء الذي تتذوقونه لن يحل بهما مكروه إن شاركتكم فيها، فإنكم جميعاً تعلمون أن معدتي لايتجاوز حجمها حجم رأس الذبابة. قال رئيس الطهاة: نعلم ذلك جميعاً ولكن ما قولك فيما يحتويه كبدك من الصفراء اللعينة التي تزيد بوفرتها على صفراء فرس البحر. أجاب نيمو ضاحكاً: إن صفراء كبدى تغلى وتفور إذا حركها بمغرفة جهله طاه غبي مثلك.. وعلى أي حال فسأجلس بينكم بأذنكم.. قال الرئيس: أهلا بك وسهلا.. ما أخبار اليوم وبمن أتيت؟ أجاب: أتيت بنفسي قال الرئيس: إن يكن هذا كل ما أتيت به فهو قليل. قال نيمو: أجل لأني لا أطمح إلى مقارنة نفسي بكم.. والآن وقد وصل بنا المزاح والتماجن إلى هذا الحد

فلندعهما جانباً ولنتكلم في غيرهما من الشؤون الهامة .. إن السيدة راتوتي والدة مولاتي نيفسرت والوالي الذي جاء الآن لنزيارتها وجهابي إلى هنا للاستفهام منكم أحضر مولاكم بعاكر أم لم يحضر. فلقد كان مع الأميرة بنت أنات ونيفرت بالمقيرة. ولما لم تعد مولاتي إلى الآن اشتد بنا القلق والخوف عليها لأن الليل كما تسرون قد ضرب بأوراقه، قال الرئيس بعد أن رفع نظره إلى السماء: حقا لقد كاد القمر يتكبد السماء مع أن مولانا حفظه الله وعدنا بالعودة قبل غيروب الشمس. قال رئيس الطهاة: وقد أعددت له الطعام في الموعد المعتاد فإذا لم يحضر الآن اضطررت لإعداده مرة أخرى، قال الرئيس: إن تأخر مولانا فهو لابد في ركاب الأميرة بنت أنات. قال نيمو: كيف- وقد مضى الهزيع الأول من الليل- لاتعود سيدتى نيفرت؟ قال ناظر البساتين باسما: على مُ دارت المحادثة اليوم يا ترى بين بعاكر ونيفرت؟... وهل صحيح ما أكده لي أتباعها من أنهما لم ينبسا بكلمة واحدة؟ قال أحد الحضور: لا لوم على مسولانا إذا عنامل بالجفاء والصد اميرأة رضيته يعلا ثم ألقت بنفسها في أحضان سواه.. إنى كلما تذكرت الساعة التي نمي إلى سيدى فيها خبر عدول نيفرت عن الاقتران به أشعر بالحر والبرد يتناويان جسمي بتأثيرهما المتلف. قبال نيمو: ولم تهتم بهذا الأمر إذا كنت تشعر بالحر في الشناء وبالبرد في الصيف؟.. أتتمنى من نعم الله وآلائه فوق هذا؟ قوال المتولى سياسة الخيل: لا تظنوا المشكلة قد انحلت، فبعاكس رجل دفين الحقد شديد إرغار الصدر لا يستلها منه شيء حتى الشدائد، فمهما نئن عناية الملك به ورفعه إياه إلى أشرف السرتب فلابد من يوم يحاسب فيه مولانا على غدره وقبيح فعله. قال نيمو: أن رأتوتي لا تحفل بهذه السفاسف ولا تصرف همتها الآن إلا إلى قبض ما لمينا صهرها من خير المال. ومع هذا فقد اتجهت ف العهيد الأخبر مبولها إلى إعبادة صيلات الود بينها وبين أسرة بعباكر، وظفرت

يمه افقة الوالي على سعيها، لأن من أحب الأمور إليه أن يرى البيتين مرتبطين بعرى الألفة الوثيقة والاتحاد الأكيد. ثم التفت إلى الرئيس قائلا: اسعفني بقطعة من أطايب شو إنك فإن معدتي خاوية على عروشها. قال رئيس الطهاة: أظن يا نيمو أن الخزانة التي تحفظ مولاتك فيها أموال مينا أصبحت كمعدتك خاوية على عروشها؟ أجاب القرم: أجل هي كعقلك خاوية على عروشها. ثم التفت إلى الرئيس وأحد الخدم فطلب من الأول معاجلته بقطعة ثانية من الشواء ومن الثاني كوب شراب. قال متولى سياسة الخيل: أما قلت الآن أن حجم معدتك كرأس الذبابة، فلمُ أراك تبتلع اللحم الآن كتماسيح أراضى شد و(١) ولكن لا غرو فقد جئت في عصر انقلب كل شيء فيه على عقبه وتحول إلى ضده حتى أصبح الإنسان بحجم الذبابة وأصبحت الذبابة بحجم الإنسان. قال نيمو باسما مع استمراره في الأكل: أود أن يكون وعاء جسمي أوسع مما هو رأغلظ بشرط ألا يبلغ غلظ أخلاقك وشدة حسرصك المانعين لك من معاجلتي بقطعة ثالثة من الشواء.. إلى سريعاً يا هذا بقطعة من ضلع الغزال الذي بيد الرئيس حتى أبتهل إلى زيفا (٢) أن تغدق عليه الخيرات وتشمله بالبركات. قال الرئيس: خذ أيها المسعور.. إلا أنى أنصبح لك أن ترخى نطاق ثوبك حتى لا تتعطل حركة معدتك.. ولقد كنت أود أن أخص نفسى بهذه القطعة الشهية ولكنى أعطيكها اعترافاً بدقة حاسة الشم فيك. قال نيم و: لم لا تكون حاسة الشم دقيقة عندى؟ أما دريت أن أنف المرء ميزان تمييزه بين الجيد والردىء؟ قال قيم البساتين: أو هذا من المكنات؟ قال الرئيس: هات من كلامك الذي يشبه الدر إذا ما انتثر عسى أن يلهيك

⁽١) أراذ ى شد هى الفيوم الآن، وبها هيكل الإله «سبك»، الذى تدبى فيه التماسيح وتحلى بالذهب والفضة.

⁽٢) زيفا إلهة الخمس والخير والبركة عند قدماء المصريين.

الكلام عن تناول الطعام. قال نيمو: أما دريت أن باستطاعة المرء أن يتكلم ويأكل كما ترانــي أفعل الآن؟.. إن الأنف الأحدب الشبيــه بمنقار النسر آيــة علوَّ الهمــة وسموٌّ. الشأن.. انظر إلى فرعون وأسرته الكريمة تجد أنوفهم مصبوبة في هذا القالب وهي غير أنف السوالي فإنه أقنى معتبدل كأنف تمثال آميون الدال على الاستقامة وإرادة الخير. ولقد اختص من هذه الفضائل بالنصيب الأوفي واشتهر بالاعتدال في جميع الأعمال، فلا هن بالمختال الفخور ولا الوضيع المتسفل، بل هو على منا ينبغي أن يكون ذو المروءة والهمة، وإني لأراه أجدر بالتربع في دست الملك من سواه، قال رئيس الطهاة: إذا كانت مبايعة الملوك بالأنوف فعلى الدنيا العفاء.. على أن أنف رعمسيس إذا كأن كمنقار النسر في الاحديداب فإنتي أفضله على سواه.. ويعد فما قولك ف أنف سيدتك نيفرت؟ قال نيمو: أنف دقيق لطيف ينفعل بمؤثرات خاطرها الشريف وإنك لترى مارنه يهتـز اهتزاز كؤوس الزهر إذا ما حـركها نسيم الفجر. قبال رئيس الطهاة: ومنا رأيك في أنف بعاكبر؟ قال نيمن: أنف أقطس عظيم واسم الخياشيم.. إذا دنا صاحب من خصمه في معركة وأثار (ست) العثير انبثت فيه ذراته فاهتاج غيظاً وحرداً.. أنف ترتبط به أحوال بعاكر وأطواره إلى حد لا أعد مبالغاً فيه إذا قلت: «إنه ليس في بعاكر بل إن بعاكر فيه»، أنف يكفي النظر إليه لاستكناه سر هذه الخطوط الزرقاء التي سطرت بها جلودكم.. أنف مستمد من أنف ستخم شقيقة سيدتي راتوتي.. أنف مكور مرن المارن.. فقاطعه مقدم الخدم بقوله: نحن يا بذيء الاسان دعوناك إلى لحم الغزال لا إلى القيل والقال.. أمسك عن كلامك أمسك و إلا جلنتك من طوقك وأسقطت كواكب السماء على قتبك! قال نيمو رابط الجأش : هذه خير فرصة لأستخرج من قتبي ما يقع فيه من الكواكب لأتحفك منها بما يقوم بحق مكافأتك على ما أطعمتني من أكلتك.. لقد وصل بعاكر ف عجلته فاستودعكم الله أيها الصحب وأوصيكم، إن جاءكم أنف محدوب كأنف النسر وساقكم إلى ميدان الحمام في بلاد الشام، أن تذكروا ما قاله نيمو القصير لكم، فإنه بأسرار الرجال بصير وبمزايا أنوفهم خبير.

كانت عجلة بعاكر قد اجتازت الباب خلال ذلك بقرقعة رددتها جوانب القصر، فهبت النلاب من أوجارها وأخذت تهز أذنابها وتهر هرير الفرح نلقاء سيدها وصاحبها، وتراكض الخدم من أماكنهم فأحاطوا بالعجلة لتلقى أوامر سيدهم، فأمسك سائس الخيل بأعنة جواديها، ووقف مقدم الخدم تجاهها لخدمة مولاه عند نزوله منها، وتسرب رئيس الطهاة إلى ناحية المطبخ لإعداد الطعام وتفرق الباقون ليؤدى كل منهم عمله. أما بعاكر فنزل عن العجلة قاصداً إلى الحديقة فما كاد يصل إلى بابها حتى طرق سمعه دوى الطبل النحاسى الذى كان يدق في هيكل أمون وصدى أصوات الكهنة الذين كانوا يرتلون الأناشيد الدينية، فوقف فجأة ونظر إلى السماء هنيهة ثم قال لمن حوله: ها قد طلع كوكب سوتيس. قال هذا ثم خر ساجداً واضعاً جبهته في كفيه، فاقتدى به أتباعه في مظاهر التقوى والصلاح.

عُرف كهنة قدماء المصريين بترصد الفرص السائحة لتأييد شوكتهم بين العامة، فكانوا إذا لاحت ظاهرة سماوية كبرق أو رعد أو غيم ألقوا في نفوس العامة من الاعتقادات الدينية بشأن الحوادث العلوية ما يخولون لأنفسهم به حق الإشراف على أعمالهم السرية والجهرية، وبلغ من نفوذهم لذلك أن المصريين كانوا – إذا فاض النيل، يقولون إن لفيضائه سراً إلهيا لايحيط به غير الكهان، وأن الواجب عليهم مقابلة هذه النعمة بالحمد والشكران. ولهذا كانوا في مدة الفيضان يقيمون الأعياد ويسيرون المواكب ويترنمون بالأغاني الدينية ويقربون القرابين، وغير هذا مما يدل

على استقرار ذلك الاعتقاد في نفوسهم وانتقاشه على صفحات صدورهم.

لبث بعاكر وخدمه جاثين على ركبهم فترة من الـزمن، منصرفة أنظارهم إلى كوكب سوتيس المقدس، منصتين بالخشوع والسرهبة إلى الأناشيد الدينية التي كان يترنم الكهنة بها ف هيكل آمون. فلما انقطع الصوت نهض بعاكر فتراءي له شبح رجل عارى الجسد مستنداً إلى جدار قريب منه، فأشار إلى الخدم أن ينهضوا ثم أمرهم بالاتجاه صوب هذا الشبح، فلما دنوا منه قال لرئيسهم: أجل هذا الرجل مائة جلدة لتخلفه عن أداء الصلاة وعصيانه أوامر الآلهة. قال الرئيس: مولاي هذا الرجل إنما هـ منانع الحصر وقد وصناه الطبيب بالراحة والإخلاد إلى السكون. وهو لا يستطيع أن يحرك ذراعه لشدة ما يشعر به من الألم، وقد ضرب مولاي بعصاه. قال بعاكر بصوت جهير: لقد استحق العقوية لسوء أدبه وفرط تقصيره. ثم ولى عنه بكتفه ودخل الحديقة حيث أمر حافظ المؤن والأغذية بتوزيع كمية وافرة من الجعة على الخدم. ثم قصد حجرة والدته. وكانت جالسة بدهليز منمق بالأزهار المتسلقة تداعب طفلة ف الحول الثاني من عمرها، وهي ابنة ولدها الأصغر، فسلم عليها باحترام فاستقبلته بوجه باش وثغر باسم. وكان بالقرب منها كلاب صغيرة، فلما أن دخل أخذت هذه الجراء تثب عليه فرحاً به، فأسكتها ثم التفت إلى الطفلة وشرع يداعبها فبكت وصوتت صارخة فنأى عنها بجانبه قائلا: إنها لفتاة سيئة الخلق رديئة الدابع. قالت ستخم: إنى أداعبها منذ ساعة فلم تجفل منى كما جفلت منك، وما ذلك إلا لأنها تراني على الدوام، أما أنت فلست مثلي حتى تميل إليك. قال بعاكر: قد يكون هـذا التعليل حقاً، ولكن أليس بعجيب ونادر أن تنفر الطفلة مني في حين تميل هــذه الكـلاب إلى وتستأنس بي؟ قــالت ستخم: لا عجب وأنت جــاهل بأساليب ملاطفة الأطفال. قال بعاكس: إذا كنت ملمة بهذه الأساليب فهلمي بإسكاتها، فقد ملا صراخها أركان القصر.. واعلمى أنى أرغب في مكاشفتك بأمر خطير. فلاطفت ستخم حفيدتها حتى أسكتتها ثم بعثت بها إلى حجرة أخسرى مع بعض الخدم، ودنت بعد ذلك من بعاكر وأخذت تلاطفه بأمرار يدها على خده قائلة: لو كانت هذه الطفلة ابنتك لأقبلت عليك لتثبت لك بحركاتها البعيدة عن التصنع أن أجزل هبة وهب بها الإنسان ولد تقر به العين وتطيب النفس. أجاب: فهمت الآن ما الغرض الذي ترمين إليه، دعى هذا المرضوع.. موضوع الرواج لنتداول في حادث جلل جنت خصيصاً لمسورتك فيه. قالت: تكلم. قال: إننى منذ يـوم النحس الذي انقبض فيه قلبك لم أوجه إلى نيفرت كلمة إلا في هذا النهار. ولقد رأيت بعد هذا الهجر الطويل أنه خلبق بنا نسيان ما فات و تجديد ما كان بيننا وبين خالتي من قديم الصلات.

تحولت ستخم نحو ولدها، وقد هش وجهها وافتر ثغرها وترقرت بالعبرات عيناها، وقالت: لقد أثلجت صدرى وأجليت كربى حتى أكاد لا أصدق ما تقول. قال: لقد راق لى وصل ما انقطع بين البيتين، فقد كفانا ما فات من خصومات وحزازات. قالت: صدقت يا بنى فقد طال الأمد، ولكل شيء حد.

ثم أطرق برأسه ملياً. فجاش بخاطر والدته أن تدعوه إلى الدنو منها والاطمئنان إلى صدرها ولكنها لم تفعل حرصاً على راحته واكتفت بأن تناولت يده فجعلتها بين كفيها وطفقت تناجى نفسها بقولها: لقد حدثنى وسواسى بأن ختام هذا اليوم سيكون على ما نشتهى لأننى رأيت الليلة الماضية فيما يرى النائم كأن أباك تقمص في جسم أوزريس وأننى كنت في طريقى إلى الهيكل فإذا ببقرة ناصع بياضها تمشى على مقربة منى ومن ورائها موكب عرس، ورأيت كأن ثور الإله آمون المقدس يأكل

فطير الحنطة. فالتقت بعاكر إليها وقال: إن رؤياك هذه لبشرى خير ويمن وبركة. قالت: هلم نقوم إذن بمفروض الشكر والحمد لاللهة على هذه الآلاء المتتابعة ونقضى, حق الطاعة الواجبة لهم. ولنقصد في صبيحة الغد إلى منزل أختى راتوتى لنتصافى ونتصافح ونغضى على مافات من الأغلاط والزلات ونوشق فيما بيننا الروابط والعلاقات.. وبعد أقلم نكن ابنتيّ أب واحد وأم واحدة؟.. إن نظام الكون يتوقف على تبورثيق الرابطة بين أفراد الأسرة الواحدة، ولن يتطرق الخراب إلى العائلات إلا بما ينبت فيها من الخلاف والمنازعات، في حين أن تمكين الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة داع إلى إعلاء شائها وتخليد ذكرها... لقد مات ما فات، واعلم يا بنى أن بطيب غادات ف الجمال بارعات يضارعن نيفرت ف حسنها إن لم يفقن عليها. ولايدهب عن بالك أن الأعيان وذوى المقامات الرفيعة إليك طامحون وفي مصاهرتك طامعون، فوقف بعاكر وأخذ يسير في الحجرة مسبهلا، بينما كانت والدته تتمم كلامها في هذا الموضوع إذ قالت: لا أجهل أنني لمست بهذا الكلام جراح قلبك، ولكن أما لهذه الجراح التئام بانقضاء الساعات وانطواء الأيام!.. إذا لم يكن مرور الليالي كانياً لشفائك من هذا الداء العضال فلابد أن تصبح يوما هنيء البال.. الم تك أوفس حظا الآن من مينا وأسعد جداً؟ فعلى م جعلت له في صدرك دفين البغضاء والحقد؟.. أجل.. لا أنكر ما لنيفرت من الجمال الفاتن والقد الرشيق، ولكن ألا تدرى أنها ما برحت صغيرة السن عاجزة عن إدارة شؤون البيوت وللمعاشرة لا تحسن؟ ألا تدرى أننى قد بلغت من الكبر عتياً ، وقريباً يدرج جسمى الضئيل في لفائف التحنيط وأودع في القيور إلى يوم النشور، وأنك إذا دعاك داعي الحرب إلى الشام لتطعن الأعداء بالحسام، فلا تلبث أن تقع في الحيرة حين لا تجد في منزلك من يديره؟ إن إدارة البيوت تستدعي التدبير الصائب والرأي الثاقب!.. أما قلت لك إن

جدك أسا كان يقول وإن البيت إذا استقامت أموره دلَّ على حسن تدبير أهله وقبامهم بواجباتهم ؟؟.. إني أبتهل لهاتور أن تلقى في أحضانك زوجة على ما يروم قلبي وتطميع إليه نفسى. فقبل بعاكر ما بين عيني والدته قائلا: ليس ف الإمكان أبدع مما كان..تريدين يا والدتي أن يكون النساء مثلك في التدبير والإتقان؟ فتبسمت ستخم وقالت: أنت تطنب في مدحى وتنشر مناقبي مسداهنة منك ورياء. ومع هذا فلا يخلو مدحك إياي من الصواب، فإن نساء اليوم اقتصرن على لبس الديباج المنسوج ف فينقيا، وجاوزن القصد في التبرج والتنزين واقتدين بنساء الشيام في لهجتهن السريانية، وأبحن للخدم التصرف في شؤون منازلهن على ما تسبوله لهم نفوسهم الخبيثة، في حين أن من أقدس واجبات المرأة صيانة البيت من عبث الخدم بالمراقبة المستمرة الحازمة. وأسوق لك مثلا على ذلك.. أختى راتوتي وابنتها نيفرت.. فقاطعها بعاكر قائلًا: ليست نيف رت كبنات هذا العصر، لأنك أحسنت تأديبها وما فرطت في تهذيبها. ولو أنها بقيت في بيتنا لكانت له كركب سماء وتاج سعادة وهناء. فحدقت ستخم في ولدها بعين تخامرها السدهشة وقالت: نعم نعم هي غادة فاتنة إذا أصمت قلب عاشقها بسهام لحاظها أغضى على هفواتها وأقالها من عثراتها، وهل نسيت أنني كثيراً ما غضبت عليها لتواتر شكواك من معاملتها إياك بالصد والهجران؟. ولكن حيث قد أسبلت ستار التفاضي على الماضي فإنبي أسامحها وزوجها مينا وأتجاوز عما ارتكباه من الأعمال التي أدت بك إلى اضطراب البال.

ما كادت لفظة (مينا) تدوى في أذن بعاكرحتى تربد وجهه وتغضنت جبهته وقال بصوت جهير: نسامحه!.. نتغاضى عن سيئاته! هو.. كلا، بل ليهلك كما يهلك السفلة الطغام في الصحارى والقفار ولتمزق جثته الضوارى، فلا يواريها التراب مدى الأحقاب. فسترت ستخم ووجها بكفيها ثم قبضت على التميمة المعلقة بعنقها

وقالت بصوت خافت: إن في صوتك ما يلقى الفرع في القلوب ولا يعلم مقدار ما روعنى إلا علام الغيوب.. أعلم أنك على وغر في الصدر دفين من زوج نيفرت. أعلم ذلك منذ شهدت على وسادتك السهام السبعة التي كتبت عليها وليهلك مينا» وقد ظهر لى منها أنك اقتديت بأهل سوريا في هذه الحيلة التي يظنون أنهم بها على أعدائهم يتغلبون.. أيها الآلهة أغيثوني من رؤية هذا الوجه العبوس الباسر.. حذار حذار يا بعاكر، فإنك بتلك الفعال المقوتة تغاضب الآلوهية وتعارض قضاءها المبرم. لقد ربيتك أنا ووالدك على احترام الآلهة وتعظيمهم فلم لا تكل إليهم شؤونك وتدعهم يعاقبون الباغين بما بغوا والمعتدين بما اعتدوا؟ أما علمت يا بني أن أوزريس يسلب الذين يتخذون ولياً ونصيراً من دونه ما أولاهم من النعم ويصب على رؤوسهم جام العذاب والنقم؟

قال بعاكر: أو تجهلين أننى بمثابرتى على تقديم القرابين قد خصتنى الآلهة بالفسوز على المعتدين. أو تجهلين أن مينا إذ غصبنى خطيبتي قد أصبح من اللصوص الأشرار وهو لم يخجل حتى الآن من هذا العار. وكيف تريدين بعد هذا العناد ألا أسلط عليه روح الشر والفساد؟. إذا كان بقلبك يا والدتى ذرة من حبى فلا العناد ألا أسلط عليه روح الشر والفساد؟ إذا كان بقلبك يا والدتى ذرة من حبى فلا تسمعينى اسم هذا الشيطان الرجيم والعدو الأثيم. فهزت ستخم رأسها قائلة: أتدرى في أى طريق نحن مسوقون؟ إن حرب الشام لابد لها من نهاية بعد شهور وأيام فيعود مينا إلى طيبة في معية الملك رعمسيس ويتبدل الصلح الذى نرتع فيه الآن بأشد الأحقاد والأضغان.. ولست أرى لهذا الفتق رتقاً إلا بإصغائك لنصيحتى وعملك بمشورتى، ألا وهى التزوج بامرأة جديرة بمثلك. قال بعاكر: لاتذكرى الزواج.. إذ لا حاجة لى به الآن ولا تتعجلى فالعجلة من الشيطان. لقد اعتزمت السفر بعد أيام إلى بلاد الشام، أفتريدين إذا تزوجت أن أقتدى بمينا في فعله الذميم فاترك

زوجتى كالأرمل لا أنيس لها ولا عشيرة ؟ ثم لماذا أراك شديدة الرغبة في زواجي ؟ أما كفاك أن أخى متزوج وأنه يقيم وزوجه عندك ؟ ألا تكفى معاشرتهما إياك لترويح نفسك وتسرية هموم الوحدة عن قلبك ؟ أجابت : يعلم الله مقدار حبّى لهما وبثنغفي بهما وأولادهما . ولكن أنسبيت أن أخاك هوروس أصغر سناً منك وإنك أنت وحدك الوارث لما تركه أبوك من المال . وهذه ابنة أخيك التي أبكيتها الأن قد جمعت من الظرف والحسن ما يسر الخواطر ويقر النواظر ، إلا أن عنايتي بها لن تحرمني لذة السرور بالقيام على تربية ولد ترزق به ليرجع في المستقبل إليه أمر الأسرة ، وليكون الوصلة بين أصولها وفروعها . ثم لا تنس يا بنى وصية أبيك لك فإنها وصبية مقدسية يطلب من مثلك احترامها وعدم الحيد عنها . أفلا تذكر أنه سرّ بطلبتك لابنة خالتك وتضاعف سروره حينما علم أن سلسلة أسا لن تنقطع حلقاتها وأنه لا بدّ من بقاء هذه الحلقات متصلة بهذا الاقتران طول المدى ؟ أما الآن وقد تزوجت من غيرك وآثرته عليك فليس ثمة ما يحملك على ألا تتخذ بديلًا منها تحقيقاً للمقاصد الأبوية الشريفة قال بعاكر: إذا أكتلا رجائي المرمى ولم تحقق الأيام أمنيتي فليس ذا لذنب اقترفته .. دعيني أودعك يا أمى لتأخذي من النوم حاجتك فقد إرتفعت الكواكب حتى كادت تبلغ ساورت الرأس وإنى أسالك إذا توجهت في صحوة الغد لزيارة أختك ـ أن تؤكدي لها بـأن بيتي ما بـرح مفتوحــاً لها على السعة والرحب . وقد غاب عنى أن أوافيك بخبر خطير ، وهو أن قيم منزل خالتي قد عرض على قيم منزلنا أن يبيعه قطيعاً من البقر ، وإست أدرى لهذا سيباً لا سعيما وأن الماشية اللازمة لفلاحة أراضى مينا قليلة العدد ، قالت : أنت تعلم أن بيد خالتك الآن زمام أملاك صهرها وإنها في عوز دائم لأموال تنفقها في الترين والتجمل حتى لا تضاهيها امرأة من نساء طيبة كلهن في زخرف الثياب وتالق الحسن ولمعان الزهرة، ولا تزاحمها على استهواء الأعيان والعظماء إلى التردد على قصرها المنيف وفي مقدمتهم وإلى هذه المدينة. ثم لا تنس أن ابنها لا يشق غباره في الإسراف والتبذير، فلا عجب بعد كل هذا إذا كانت كل أن في حاجة إلى الأصفر الرنان.

فهز بعاكر كتفيه مستنكفاً من سماع هذا القول وانصرف إلى مخدع نومه. وكان هذا المخدع خالياً من كل أثر يدل على التأنق وحب الرفه والنعيم، إذ كانت جدرانها مجصصة بالجير ومجردة من السرسوم والنقوش ما خلا بعض كتابات تحيط بالنوافذ والأبواب وتتضمن طائفة من الأمثال والقواعد الدينية. وكان بصدر المخدع سريسر يمثل أسدا رابضاً وعليه فروة أسدة سوداء، وعند رأسه متكا من خشب الساسم مجلل بنقوش وكتابات كثيرة وإلى جانبه كرسى قصير القوائم من هذا الخسب يتخذه من يريد النوم سلماً يصعد فيه إليه. وكانت تحيط به أسلاب من الأسلحة ومجمرعة سياط والسهام السبعة التي كتب عليها «ليهلك مينا». وكانت هذه الثياب مثبتة بالجدار بحيث تتقاطع في جزء منه كتبت عليه حكمة في الحث على إغاثة الملهوف ومواساة الفقراء وتفقدهم بالمطعم والمشرب والملبس ومعاملة الكبير والصغير بالعدل والمواساة.

وكان عند رأس السرير مخبأ مغطى بستار من ديباج أحمر وبالقرب من زواياه الأربع أعمدة تحمل تيجانها تماثيل تمثل ثلاثة منها صورة الآلهة آمون وموت وخون، والرابعة صورة والد بعاكر، وإلى جانب كل منها مذبح لتقديم القرابين وتتجاويف لوضع المواد العطرية وخزانات مدهونة بالوان زاهية تحتوى أمتعة شغيسة حاصة ببعاكر من ملابس وكتب وتماثيل وتماثم وجواهر، ومنضدة بوسط المخدع حولها جملة من الكراسي الواطئة.

وكانت تضىء الحجرة مصابيح عديدة، فلما أن دخل بعاكر فيها و ثب فيها كلب هائل فاغراً فاه، لم يلبث أن عرفه وأخذ يحوم حوله ويثب فرحاً به، فأخذ بعاكر برأسه بين كفيه وقبله وكان شكله بحيث يدل على الذكاء والهمة. وكان إلى جانب السرير عبد طاعن في السن بدين الخلقة وافي النراعين مدمج المفاصل، فدفعه بعاكر بقدمه قائلا: لقد اشتد بي الجوع فانهض لتهييء مائدة الطعام. فقام العبد متثاقلا وخرج لتنفيذ أمر مولاه وظل بعاكر وحده فتذكر الماء السحري في استخرجه من القطرمين المعلق بنطاقه وأخذ يتأمل فيه معجباً ثم وضعه في صندوق خشب به قناني كثيرة تحتوى الزيوت العطرية الخاصة بالقربان. وكان من عادة بعاكر في كل مساء أن يملأ بهذه السوائل العطرية التجاويف المنقورة في المذابح ويجشو على ركبتيه أمام الآلهة ويستغرق في الصلاة زمناً. إلا أنه صرف عنهم في هذه الليلة نظره وشخص في تمثال والده زمناً أخذ بعده يقبل قدميه بخشوع واحترام قائلا: لابد لى يا أبت من قضاء لبانتك والرضوخ لإرادتك، فإن الغادة الحسناء التي تخيرتها لتكون قرينة ولدك سوف يُعقد له عليها. وأخذ بعد هذا يجوب أقطار الحجرة مقلقل الشخص مروع العين منزعج الضمير، لانه كان يعرض على نظره حوادث الامس فتنفعل نفسه بما طرأ عليها فيه من المؤثرات.

ثم وقف أمام الآلهة يرمقها بعين الاستهتار والاحتقار والتوى بعيداً عنها بجنبه منصرفاً نصو جهة أخرى، فنظر السهام السبعة فافتر ثغره باسما وتهلل وجهه بشراً وترنحت أعطافه سروراً وطرباً وقال: لابد ليدى هذه من الإجهاز عليه. ولقد كان في أول أمره كالغريب الحائر يتخذ لنفسه دليلا يرشده إلى سواء السبيل، فإذا لم تعدله به حاجة أغضى عنه ولم يبال به وأعرض عنه احتقاراً حتى يعدل بنفسه عن ملازمته.

وكان الكلب يتابع مولاه بنظره في حركاته فلما سمعه يقول « لابد ليدي هذه من الإجهاز عليه، خيل له أنه يناديه، فأسرع نحوه ووثب عليه مراراً فلم يسع بعاكر إلا أن زجره وقال: لقد اعتدت أيها الكلب مطاردة الضباع في الصحراء واقتناصها قبل أن تصيبها رمية الرامى، وهذا فضيلة فيك يجوز لى أن أحرزها إذا لم تسعفني الآلهة بمددها وتشد أزرى بقهر خصمى اللدود. ثم صعد نظره في تمثال أبيه قائلا: وأنت يا أبت لم لا تشد أزرى وتشرح صدرى .. ألا تعلم أننى بحاجة إلى معونتك ودوم رعايتك؟ ثم أمسك عن الكلام لأن العبيد كانوا دخلوا في الحجرة يحملون على رؤوسهم صحاف الطعام، فقال بعاكر: ألم أنبهكم مراراً إلى تهيئة لون واحد دسم ومحرض لشهوة الأكل، فلمّ جئتم إذن بهذه الأصناف الكثيرة، ثم أين النبيذ؟ أجاب أحد العبيد وهو متمدداً إلى جانب السرير: لم نأت به لأن مولانا لم يعتد تعاطيه. قال معاكر: لكن أود احتساء كأس أو كأسين منه في هذا المساء. كلاء بل عجل بخابية من نبيذ راسم العتيق. (١) فأخذ العبيد يتأمل بعضهم في وجوه بعض ثم سارعوا إلى تنفيذ الأمر، وقال أحدهم وقت انصرافهم لأحد رفقته: جرت العادة أن يأكل مولانا كالأسد الأسيد ريشرب كالذباب ولكنه اليوم.. فقاطعه صاحبه قائلا: صن لسانك عن الزلل واسرع بنا إلى صحن الدار لنحسو الكؤوس ونريل البؤوس، فقد أمر مولانا بتوزيع الجعة على جميع الخدم لأنه على ما يظهر قد قاز اليوم بمأمول أو وافاه نبأ ميمون.

كان لوقائع اليوم الماضى تأثير عميق فى عقيدة بعاكر أفضى إلى انقلاب عظيم فى عاداته. فإنه بعد إذ كان يبغض الشراب ويتجنب المضالطة ويرفض الدعوة إلى

⁽١) راقم بلدة بجوار هرم سقارة المدرج بالقرب من مقابر منفيس كانت شهيرة بزراعة الكروم وعصير النبيذ الذي ورد ذكره في كثير من أوراق البردي .

الولائم تخلصاً من تعاطى المسكرات، مال في هذه الليلة إلى الانفراد ليحسو من الشراب كأسا بعد كأس. ولقد ظل يتجرع حتى ثقلت رأسه وحجبت بصره غشارة، فقام يتلمس سريره حتى إذا اهتدى إليه رفع الستار المسدول على المخبأ فاستخرج منه تمثالا من الحجر للإلهة هاتور مصنوعاً على مثال صورة نيفرت ومبرقشاً بأبهج الألوان، لأن رعمسيس كان قد أمر أحد مهرة المثالين بصنع تمثال لها يشبه نيفرت. فلما تم صنعه بذل بعاكر مبلغاً طائلاً من المال للحصول على صورة منه طبق الأصل، وهى التى ما كاد يخرجها من المخبأ حتى أجال طرفه في أنحاء المخدع لاتقاء الرقباء. فلما اطمأن خاطره وضع تمثال نيفرت أمامه وألقى بنفسه عليه وأخذ يقبل ثغرها الجامد البارد، ثم ترامى على السرير بدون أن يخلع ثيابه أو يطفىء السراج فنام نوماً ثقيلا.

غير أن بعاكر لم يدق لذة النوم في الجنح الأخير من الليل إذ فياجأته الأحلام المزعجة، فأخذ يصيح صياحاً عالياً قام ذلك العبد فزعاً بسببه، وطفق الكلب يهر هريراً مستطيلا حتى هب بعاكر من نومه وتنبه من رقدته وأخذ يتلفت يمنة ويسرة، مكداً فكره في تذكر الأحلام التي أزعجته ليعرضها على أحد المنجمين. وبينما هو كذلك إذا بأصوات الكهنة— الذين أزاحوا عن أعينهم غشاء الهجود ونهضوا لاستقبال الشمس بأناشيدهم الدينية في هيكل آمون— قد استأذنت على سمعه، فلزم الصمت برهة خشوعاً ورهبة وأحس انفعالا في القلب اعتقد معه أن الآلهة تنعى عليه سوء سسوكه، فخلا إلى نفسه وأخذ يحاسبها حساباً عسيراً ورماها بسوء النية وفساد السريرة وآلى ألية أن يترك السحر والسحار ويكل أموره إلى الأقدار.

قصد بعد ذلك إلى الحمام وبينما كان يحرك فيه الماء الفاتر المروج باذكى الروائح العطرية تذكر نيفرت وتأثير الماء السحرى في فؤادها ودهش لتردده في

إعطائها إياه، ولعبت بنفسه الهواجس وساورته الأمانى التى تحجب عن البصيرة نور الحق والصواب وتزين الباطل بالتمويه الزائل، فجمح في غوايته ومضى في تيار عمايته حتى اعتقد في الظلام الحالك أنه اسطع الأنوار وفي شوك القتاد أنه أنضر الأزهار. غير أنه شعر بالعشق، وقد أخذ عليه مشاعره، فكبر عليه أن يعجز عن مقاومته فبذل في هذا السبيل كل جهوده. ولكنه لم يلبث أن وقع في براثنه ورضخ لجاثر حكمه فكان من شأنه—وقد نزلت به هذه الضائقة—ما يدعو إلى تشبيهه بمن تنزع به أمنينة الربح إلى قطع أجواز الفلوات وجوب القفار، حتى إذا فاجأته العواصف وحاول الخلاص من شر ما تسفيه الرياح الهوجاء انهالت عليه وطمرته كما ينهال الشرى ويطمر جثث الموتى. غير أن الصبح ما كاد ينبلج وما كادت تطلع الشمس من خلف الروابي، حتى عاوده البشر وانشراح الصدر فلبس ثياب المزركشة وجلس برهة يجيل فكره في حادثات اليوم الماضى فازدرى بما كان ضميره يعيبه عايه ويسوقه ساعة الاستحمام من العظات إليه، وقال إنه لقادر على مكافحة الآلهة ومقاطعتهم وتحقيق مقاصده دون أن يفزع إليهم. وتطوح في الإلحاد حتى أنكر عليهم القوة والقدرة والسداد.

الفصل التاسع أخدار شؤم من الشام ويوم بؤس من أنكد الأيام

كانت الشمس في سمت الرأس ترسل أشعتها إلى مدينة طيبة وترشقها من كنانة حرارتها بسهام حادة النصال، وكان المار بالطريق المستقيم المؤدى إلى قصر رعمسيس تصيبه لفحاتها فيحس أنه أصبح ناراً تلظى. وجرت العادة أن يكرن هذا الطريق إذا توهجت الودائق معطلا من الأنيس والطارق. غير أنه كان في ذلك اليوم يموج بأفواج من الناس يتدافعون فيه بالمناكب بين راجل وفار وراكب، وكانت جماعات من العبيد يحملون على متونهم قرب الجلد يطيرون منها رشاش الماء على الأرض لتسكين تورة العثير وتلطيف حرارة الهجير، ومع هذا فقد كان الغبار يتطاير كالشرار فيغشى الرائحين والغادين الذين انحلبوا من جميع الأقطار لاستطلاع الأخبار التي وردت من ديار الشام. وكان كلما ذاع خبر بين المتزاحمين سرى بينهم سريان ريح الجنوب، إذ كانوا يهتمون به على السواء لتأثيره فيهم جميعاً باليأس تارة وطوراً بالرجاء.

وبيان ذلك أنه ما تمزق ستار الليل وأسفر من خلاله وجه الصبح الوضيء حتى وصل إلى طيبة من المعسكر المصرى ببلاد الشام ثلاثة بسرد يحملون خرائط مملوءة كتباً ومراسلات تتضمن أنباء القتال وما يكون قد أحرزه من الفوز أبناء مصر الأشبال(أ). وكانت جماهير الأهلين تنتظر وصولهم بصبر يخالطه الرجاء تارة واليأس أخرى، فكانوا وقد أصبحوا نهباً للظنون والهواجس كمن يرقب (١) كان المصريون يميلون إلى انشاء الرسائل ولهم ذوق مشهور فيها، وهم أول من أحدث البريد ورتب السعاة وكانوا يسمونه وفاتسعات، وقد أفاض المؤرخ ماسبيرو في هذا الموضوع في كتابه الموسوم وإنشاء الرسائل عند المعريين في عهد الفراعنة».

المزن إذا لاحت على أفق السماء فإما أن تهطل أراضيه غيثاً منبتاً أو صيباً فيه ظلمات ورعد وبرق.

وأغلب ما ورد من الكتب والمراسلات كان يحمل خبر السوء بقتل زوج أو شقيق أو جرح ابن أو صديق. وكانت تلوح على وجوه بعض المزدحمين عندئذ علامات السرور والبشر لأنهم— وقد وصلت البرد وتخلصوا من مرارة الانتظار والصبر- جعلوا لا يحفلون بما تكون الكتب الواردة إليهم قد احتوته من أخبار الشؤم، لأن المرء فطر على التعلة برجاء الخير والتباعد عن مظان الضير.

وكان الناس يخفون سراعا إلى ساحة قصر الوالى ويحومون حول الأعوان المنوط بهم فرز المكاتيب وترتيبها لتوزيعها، الخاص منها على من وردت بأسمائهم وعناونيهم وتالاوة العام على مالأ الحاضرين. وكانت الرسائل العامة عبارة عن بيانات بأسماء القتلى والجرحى في مواطن القتال، وكان الأعوان إذا شرعوا في القراءة تطاولت إليهم الأعناق ورمقتهم الأحداق، لأن المستريب أشد الناس ألما بما يداخله من الريبة في أمر يمسه بذاته أو أحداً من أهله. وكان السامعون – إذا تليت عليهم تلك الرسائل و يعالجون الخلاص من هذا العذاب بإنصاتهم إليها واستكشافهم جانب سرها ليزيحوا الريبة عن ضمائرهم، سواء أكانت الأخبار الواردة صادقة أم كاذبة. وكثيراً ما كان اهتمامهم باستطلاع الضار منها أعظم منه باستطلاع السار. ألا ترى رسل السوء يجدّون السير في أسفارهم وينشطون إلى باستطلاع السار. ألا ترى رسل السوء يجدّون السير في أسفارهم وينشطون إلى

وكان بقصر الوالى (آنى) القريب من قصر فرعون أماكن خاصة بأولئك الكتبة والأعوان يتصل بعضها ببعض على هيئة إيوان مستطيل إلى جانبه فناء ينتهى إلى

غرفة كبيرة جُعات للفصل بين الناس في خصوماتهم. وكان الوالى يتصدرها متربعاً في دست الحكم لإقامة الرزن بالقسط. وكان الموكلون بإدخال الخصوم عليه— وهم من الحر'س— واقفين بالأبواب وبأيديهم المحاجن الطويلة يلقون بها الرهبة في قلوب المتقاضين.

وكان منظر القوم بعد تلاوة الأخبار موجباً للدهشة والاعتبار، ودالا على انقلاب الأمور وتغير الأطوار. فإن المتعقبين للأنباء بعد إذ كانوا سواء في الياس والسرجاء تعاكست أحوالهم وتناقضت أشكالهم فما كادت الكتب العامة تتلى على مسامعهم حتى أخذ البعض يصيح بصيحات السرور والطرب لتأكدهم سلامة أقاربهم في الجيش من كل عطب، وطفق البعض الآخر يعول ويبكى لنعى قريب أو قتل حبيب. وكان النفر الأولى تبدو على وجوه رجاله نضرة السرور والبشر لعلمهم أن لهم حصة في أسلاب العدو، أما الرهط الثاني فكانت قلوبهم تقطر حزناً وتنال منهم الآلام فجالت الدموع في عيونهم ثم هطلت كالمطر المدرار.

وكان الناظر يدى غير هولاء وأولئك جموعا من النساء يحتين التراب على رؤوسهن ويخمشن الوجوه بأطفارهن، نائحات صائحات يشققن الثياب مولوات: وا زوجاه! وا ولداه! وا أبتاه! وكان الشيوخ الذين وافتهم أنباء البريد بالباساء يكتفون بإمرار أيديهم على لحاهم البيضاء. أما الأيامى فكن يتعلقن بأذيال الأعوان والكتاب يتوسلن إليهم أن يعيدوا تلاوة الأسماء إذ كن يعللن بالأمانى أنفسهن بأنهم يكونون قد أخطأوا فتطمئن خواطرهن لإصلاح الخطأ وتهدأ نفوسهن بزوال الريبة، وإلا استسلمن إلى مظاهر الحزن وعلاماته المحسوسة من لطم وخمش وحثو تراب، وغيره مما كان قدماء المصريين لا يستحيون من صدم الابصار به على

ملأ من الناس في قوارع الطرقات وأعطافها.

وكان نيمو يغدو - خلال هذه الحوادث - ويروح بين جموع المزدحمين مستثبتاً في وجه كل فريق ، كما لو نيط به استطلاع أسرارهم واستقراء ضمائرهم أو كما لو نكاته هذه المناظر المحزنة وآلمت قلبه فحفزت نفسه للعطف عليهم والرفق بهم. وكان يخص باهتمامه الجموع التي يكثر فيها النواح والعويل، فاتفق أن دنا من امرأة مشرية تنسكب العبرات من عينيها كوابل المطر، إذ عال من صبرها ونال من جلاها نبأ وفاة زوجها في آخر واقعة فقال لها: إذا استطعت أن تقرئي السطور المنقوشة بين أفاريز هذا البناء وتميزي حروفها من خلال الدموع المنحدة على خديك فلابد أن يدهشك معناها... إن تلك السطور تحتوي اسم رعمسيس مشفوعا بالالقاب السامية والنعوت العالية! أفتعرفين أية هذه الصفات تستدعي الاهتمام أو الالتفات؟.. هي التي ذكر فيها أنه دواهب الحياة ومفيض النعم» نعم.. إنه بلا خلاف واهب الحياة ومفيض النعم، بل باريء النسم وموجد الكائنات من العدم.. فلا عجب، فليس بعزيز على من يميت الأبناء والأزواج في ميدان القتال أن يحيى ولا عجب، فليس بعزيز على من يميت الأبناء والأزواج في ميدان القتال أن يحيى

فظلت المرأة كالمندول بها دهشة من ذلاقة لسانه وقصاحة بيانه، وما همت بمجاوبته حتى رأته متعلقاً باذيال شيخ قوس ظهره الهرم ولاحت عليه إمارات الضعف والسقم، وسمعته يقول له:أرأى أحد في طيبة كلها شاباً يماثل ابنك في بارع الجمال ونادر الخصال، قبل أن تغتاله يد المنون في ساحة القتال؟ كلا.. لو كنت أباه لخلقت لكل من أبنائي الباقين عاهة لا يصلحون بسببها للجندية التي هي أصل كل بلية.. فعليك إذن يا أبت بهذه الحيلة فإنها لجلاء الكرب عنك خير وسيلة. ثم اعلم أن

بلاد الشام قد أصبحت للشبان المصريين الضريح العام. وأنه ليبدو لى أن رعمسيس تعهد لنسور لبنان بتغذيتها مدى السنين بأجسام المصريين، لأنها أجسام سليمة ومن الأمراض عقيمة.

وكان الشيخ قبل أن يجاذب نيمو أطراف الحديث راضياً بالقضاء الذى نزل مغضياً عما به قد حل، فلما سمع هذا الكلام هاج منه الشجن وتولت عليه الإحن، فشبك أصابع يديه ووكفت الدموع من عينيه. ثم انتقل من البكاء إلى الأنين والرثاء، فلما شهد نيمو منه هذا الانفعال لفت نظره إلى الوالى وقال: لو كان هذا الشهم الهمام قابضاً على أزمة الأحكام في هذه الأيام، لما سيق ابنك إلى ميدان الفناء حيث يتبدد جسمه أشلاء ، بل لما وجد في وادى النيل كله من اليتامي والشحاذين والأيامي من خساق بهم رحب الفضاء وارتفع أنينهم إلى عنان المساء. الحمد لله على أن ماء النيل لايزال حلو الذاق، ولكن دوام الحال على هذا المثال يجعل هذا الماء العذب أجاجاً كماء بحر الشمال لإنحدار دموع المنكوبين فيه على التوال.

وما سمع الوالى هذه الكلمات حتى ترك منصة الحكم وأخذ يتعمل من الحركات والإشارات ما أراد الايهام به أنه متأشر من الحالة الحاضرة في البيلاد وما يقع من الحيف بالعباد، فاستقر في خلد الحاضرين أنه مشاركهم في أحزانهم فطفقوا يعولون حتى دوت أصواتهم في أركان المكان وطرقت آذان كل إنسان، وبهت لها سائر أولئك الذين كانوا يملأون رحب الطريق الموصل إلى القصر منتظرين نوبة دخولهم على الوالى لاستطلاع الأحوال.

وشرع الحراس في الآن نفسه يخرجون الناس من غرفة المجلس كي يحل محلهم غيرهم ممن لم يسمعوا أسماء القتلي والجرحي، فأخذ الكتاب ينادون بها وعاد

الوالي إلى منصة الأحكام.

وكانت تجمعه وفرعون لحمة القرابة، وكان معروفا بالعلم وكرم الأخلاق وشدة الطموح إلى الملك، ولكنه كان يكتم أصحابه هذا الطموح ويتظاهر بالقنوع بمنصبه وبما له من الحظوة عند فرعون. وكان رعمسيس الأول جد رعمسيس الشانى من أسرة سامية استوطنت مصر بعد نروح عرب الرعاة (١) وامتازت بالشهامة في قتالهم، على عهد تحتمس وأمينوفيس. ولكنه استعان فيما بعد بأمواله الكثيرة على إسقاط العائلة المالكة واغتصاب الملك منها ودبر لذلك مختلف الوسائل والحيل.

ولما توفى رعمسيس الأول أراد ابنه سيتى الأول أن يوثق أركان عرشه فاقترن بتائى حفيدة أمينوفيس الثالث فرزق منها برعمسيس الثانى الذى لم يعارضه أحد ف ملكه على مصر، لأن قوانين البلاد ف ذلك العهد كانت تجيز للأنثى أن تتولى الملك وتحكم في الناس ولذا اعتبر المصريون أن الحكم انتقل من والدته إليه فثابوا إلى الدعوة والسكون.

على أن سيتى كان قبل موته قد أصدر أمراً عالياً للأمة بمشاركته ابنه في الحكم (٢) فانقطعت بذلك أسباب الفتن التى كان في قدرة الناقمين والمتبرمين أن يضرموا نارها بعلة أن سيتى الأول لم يكن من الأسرة المصرية القديمة. وكان أنى (١) عرب الرعاة أو الهكسوس أقوام تواردوا على مصر من جهة الشرق مع أقوام من آسيا كانوا يهاجرون إليها فاستولوا على وادى النيل وحكموا فيه ٥٠٠ عام، وقد اضطرت الاسرة الفرعونية الملكة وقتئذ أن تلتجىء إلى النيل الاعلى ولكنها دابت على مقاتلة الهكسوس حتى طردتهم من

والده سيتي الأول بأعماله.

مصر واستأصلت شافتهم،

⁽٢) شارك رعمسيس الثانى والده في الملك منذ ساعة ميلاده وتوجد في هيكل أبيدوس (العرابة المدفونة) نقوش فسرها مارييت وماسبيرو بأن الملك رعمسيس كان يفتخر فيها بقوله «إنه كان ملكا وهو في البيضية»، ورعمسيس هذا هو الذي كان يسميه اليونان سيزوستريس ويسمى على الآثار القديمة باسم (جيزورا)، وقد اعتاد اليونان في كالمهم على رعمسيس أن يخلطوا أعمال

ابن أخ تائى أصغر سناً من رعمسيس فرباه والد هذا في هيكل سيتى وعامله معاملة الأب الرحيم لولده البار، فأظله برعايت وحاطه بعنايته، بينما كان من جهة أخرى يشتت شمل الأسرة المالكة المغلوبة على أمرها ويصادر أملاك أفرادها ويقصيهم إلى أبعد الآفاق.

ولقد أثبت (آنى) رغم ذلك صدق ولائه للملك سيتى وابنه رعمسيس. وكثيراً ما كان بعض أخصاء فرعون يتزلقون إليه بالسعاية في حق آنى ويحذرونه عاقبة الثقة به والركون إليه بقولهم إنه من سلالة الأسرة البائدة وأنه طامح للملك ويسعى جهده للاستيلاء عليه، فكان رعمسيس لا يفتح أذنه لوشاياتهم بل كان - كلما ازداد تد ذيرهم إياه - يغمره بنعمه ويفيض عليه غيوث كرمه، إذ ما غائدة آنى من انتمائه إلى الألوسية وانتسابه إلى سلالة رع، بل ما فائدة قوله إن رعمسيس لا يلتحم بهذه السلالة إلا من ناحية الأم فقط.. ألم يكن رعمسيس قابضا فعلا على زمام الأحكام ومتصرفا برقاب الأنام وبيده صولجان الفراعنة العظام؟ ألم يرزق بثلاثة عشر ولداً حسبه وكفى أن يخلد أحدهم ذكراه ويكفل بقاء الملك في أسرته إلى ما شاء

كل هذه الأسباب حدت برعمسيس قبل شروعه فى حرب الشام إلى تنصيبه واليا على طيبة لما بينهما من لحمة القرابة ولأنه قام فى بلاد كوش $\binom{1}{1}$ بأعمال جليلة جعلته مكينا عند فرعون وأثيراً بثقته، فكان خليقا بتقلد ذلك المنصب الرفيع.

وقد جرت العادة أن من يكن حاد الطبع عجولا ملولا يسكن ثائره ويهدأ روعه تجاه صاحب السكون والتؤدة، بل ينظر إليه بعين الإجلال والاحترام ويرضخ لما يبديه من الآراء أو يقرره من الأحكام. وكان آنى ممن عُرفوا بالرصانة والجلد عند

⁽١) بلاد كوش هي الحبشة

ندول الملمات، وألف رعمسيس فيه هذه الفضائل مراراً فخصه من دون رجال بطانته وأساطين حكومته بذلك المنصب الخطير مفضلا إياه على كل أمير.

وما كان لأحد أن يجرؤ على اتهام أنى بالطمع في دست الملك أو يصمه بدس الدسائس ونصب الشراك لتحقيق هذا المراد، لأنه كان مشهوراً بالعفة وعزة النفس والتصون عن الدنايا، لاسيما وأن رعمسيس لما عرض عليه النيابة عنه في الحكم مدة غيابه أبى ولج في الإباء، إلا أن الملك تمكن من اقناعه بأنه لا مفر له من القبول، فلما قبل كان هذا عنده غاية المأمول، وليس من حرج عليه فيما فعل مادام يعتقد أن عامة الناس وخاصة البطانة الملكية لا يتهمونه بالتطلع لتلك الغاية العزيزة والتشوف لذاك المرام البعيد، فهم يعلمون أنه لم يتزوج ولم يكن له ولد وأن من جعل وكده تقلد الرئاسة أو الاستيلاء على الملك فإنما تخدعه بوارق الطمع بحفظ العرش للأعقاب من ذريته تخليداً لذكراه وإحياء لسمعته.

وفي ذلك اليوم المشهبود تقدم إلى آنى – وهبو في مجلسه – فلاح يشكو إليه ما أصابه من الأذى بهجوم الجند على أرضه ومصادرتهم ماشيته ومحصوله، فتلطف به وواسساه ووعده بالنظر في دعبواه، فانصرف البرجل قريبر العين معللا النفس ببلوغ المرام، وفي غضون الجلسة ذكره الكاتب بما وعد من الأمبر بتعيين المحقق فأجاب: البواجب على أفراد الأمة المصرية التكاتف على دفع النفقات الحربية وسد حاجة الجند من ميرة ونخيرة وعلوفة لما في التقصير في أداء هذا الواجب من تعريض الجند للمعاطب. فشكوى الرجل باطلة ومن حلية الحق عاطلة.

تقدم إليه بعد الغلاح مأمور أسوان من أعمال مصر الجنوبية، فطلب إليه التصديق على صرف مبلغ من المال لصيانة شواطىء النيل من طغيان المياه، فاستمع الوالى لقوله مبتسم الثغر طلق المحيا ثم قال: إن نفقات الحرب استهلكت الميزانية

حتى لم تبق فيها بقية تفى بإنجاز تلك الأعمال النافعة.. على أننى ، موف أوافيك بجانب من مالى الخاص حتى لا تتعطل المصلحة العامة. ثم ودعه ورجا منه أن يبلغ إلى سكان أسوان تحيته. وما غادر المأمور المجلس مبتهجاً بما لقيه من الحفاوة والإكرام حتى أمر آنى له بملبغ جسيم. وكان آنى أثناء إصغائه لما يُطرح عليه من الشكاوى يتعمل الحزن إيهاما للشاكين بأنه يحس الامهم ويشاطرهم أحزانهم ليخفف وطأتها الشديدة عن كواهلهم.

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب حينما طرق أسماع الملتفين بالكتبة صراخ فاستفاثة فنحيب، فلم يكن إلا مرور الطيف حتى تحولوا نصو مصدر الصياح واشرأبت أعناقهم لاستطلاع الخبر، بعد إذ كانوا منكسى الرؤوس حزناً وأسى. وأخذ الحراس يفرقون الحشود التي توردت على ذلك المكان فعلا صياحها وازداد أنينها حتى تجاربت الآفاق بدوى أصواتها. وساقت فصيلة الجنود الليبية الصارخ الأول إلى السجن وألقته في غيابته وأنفذ الوالى من عنده رسولا لاستجلاء الحقيقة، فعاد معه إليه ضابط الحرس ليخبره بأن قزم الأميرة راتوتى ما برح منذ ساعات يخترق صفوف الناس ليحرضهم على الثورة. قال آنى: إذا كان ما تقول مطابقاً للواقع فعجل بالقيض عليه وزجه في السجن. ثم التفت إلى بعض خاصته موعزاً إليه أن يأتي له بذلك الرجل سراً مع تطفيل الشمس.

وكان المحتشدون قد لمحوا الكاهن الأعظم في ملابسه الكهنبوتية يحف به لفيف الكهان، فوقفوا صفوفاً ألوفاً على عطفى الطريق وركعوا إعظاماً وإجلالا، فمر بينهم مباركا فيهم وداعيا لهم. وما أبصر به الوالى حتى سارع إليه لاستقباله في مظاهر الخضوع والخشوع، ثم صحبه إلى صدر المجلس وما كاد أميني يستقر فيه حتى قال له: أيتأتى أن يكون المستحيل ممكنا.. وهل يجوز أن ينتظم رجال الدين في سلك الجند؟. أجاب أنى: لابد من أبطال للظفر بالأعداء الأنذال. قال أميني: ولابد أيضاً من

العمال لأداء ما تستدعيه الحياة من الأعمال. قال الـوالي: قضت إرادة الملك بحشد فسلاحي الهيكل وتوجيههم إلى محاصد الأرواح قبل أوان البندار. ولا مفر لنا من الخضوع لإرادت، فما نحن إلا عبيد جلالته نعمل بإشارته. قال أميني: تالله إني لأراك أطيب منه مغرسا وأكرم محتداً وأولى على كل حال بالاستواء على أريكة الملك.. وبعد فهل يحسن بك تعطيل الزراعة وإلقاء الناس في خطر المجاعة؟.. أما كان حقيقا بك أن تسوسع منها النطاق بل أن تفتح لها أبسواب الصحسراء لتبلغ إلى أقصى الآفاق؟(١). فتجاهل آني ما ترمى إليه هذه الكلمات من المغازي والمعاني وقال: إن أرضنا لا تبقى كلها في حرمان من البزرع فإنه لابد لبرعمسيس من الانتصار على عدوه بما يصل إليه من الأمداد. قال أميني: وأي الآلهة يسعف بالمعونة والمدد وقد جعل وكده إغالاق الهياكل وتعطيل الشعائر؟ قال آني: لا تجزع يا أبت فعما قريب ينال الانتصار ويعود إلينا مكللا بالغار، فيجزل لكم العطاء ويضاعف القربان دفعا لغضب الآلهة واستنزالا للسرحمة والغفران. ولا مراء في قدرب ودمسول أنباء الانتصار، فقد جاءني من جلالته كتاب يـذكر فيه اعتزامه عقـد الصلح متى تمّ له الفوز في المعركة المقبلة، وهل انتهى إليك ما تسواطأت الراوية به من اعتزامه الاقتران بابنة (حيتسار) ملك الخيتاس؟ ثم حدّد بصره إلى أميني باسما وقال: فما رأيك في هذا المرضوع؟ أجاب: رأيي أن رعمسيس مازال يعتقد أنه غصن الدوحة الفرعونية وخلاصة الجنس المصرى، مع أننا لو تقصينا الحقيقة لأيقنا أن ليس فيه من المصرية إلا ما استمده من أمه عمتك التي لولاها لما خلص له هذا اللك الواسع المصون بوحدته من كل مساس إن شاء الله.

⁽١) قال نابليون الأول ما يوافق هذا المعنى «إذا حسنت الإدارة في مصر واستقامت فإن خصب النيل يتناول أراضى الصحراء ويجعلها قابلة للزرع وإذا ساءت الإدارة فيها أوغلت الصحراء في الأراضي الخصبة حتى تبلغ ضفاف النيل».

قال الوالى: إن يخطأ في زعمه فقد أصاب في انتسابه إلى الدم الملكي المستمد من دم إله الشمس. قبال أميني: نعم لقد أصاب.. إلا أن هنذا الدم يجرى في عروقه مشوباً بمختلف العناصر، أما دمك فملكي صريح لا يشوبه شوب. فأشار إليه الوالي أن يصمت، ثم ساره ف أذنه: صن لسانك واعلم أنا لم نكن في خلوة. قال أميني: ليس ف هذا الجمع الحاشد من يفهم مغزاة حديثنا، على أن ما جهر به من الأقوال تداولته ألسنة الأطفال. قال آني: وماذا يكون المصير إذا اتصل بالملك أنك تحض الناس على المروق من طاعته؟ أجاب: إذا اتصل ذلك به فسيعلم أنه مما يخالف أصول السياسة والعدل الافتئات على حق من له وحده النظر فيما إذا كان دمه ملكياً صرفاً مستمداً من إله الشمس أم لا ، وإن أعجب فعجب أن يظل رعمسيس في منصة رع!. قال آني: أتردّ عدم إطاعة الأوامر، فقد قلت لك إننى عبد الآمر. قال أميني: كيف لمثل أن يخلع الطاعة لمليك البلاد والمتصرف في رقاب العباد؟ غير أني لا أبت الآن في أمر قبل انعقاد مجلس الكهان الذي يرجع إليه حق النظر في مطالب رعمسيس والبت فيها بالرفض أو بالقبول. قال أنى: إن الاستشارة تفضى إلى التأخير في تعبئة الرجال وإرسالهم إلى ميدان القتال، وأنت عليم بأن الحاجة ماسة إليهم إذ هي الحرب متعطشة للدماء وإرواء ما بها من لهب الظماء. قال أميني:إذا كان للحرب ملك مقدام، فللصلح غيره ممن يحيون السلام.

أمسك أمينى عن الكلام فوضع أنى محجن الكهنوت كما يضعه أمام تماثيل الآلهة ثم تقدم إلى صدر الغرفة فتبعه الوالى باسما وقال: أما عندك حديث طريف؟ أجاب: بلى، فقد سقطت بنت أنات أمس في وهدة الخطيئة فأمرت بإقامة الصلاة في الهياكل وتقريب القرابين لتطهيرها من لوثها. فأطرق الوالى ملياً ثم قال: إذا كان الغد بكرت إلى بيت سيتى وأرى أن تؤجل الصلاة إلى أجل غير مسمى، فوعده أمينى بإجابة طلبه ثم انصرف، وبرح أنى قاعة الجلسات عائداً إلى القصر.

فلما وصل إليه وجد به ملفات تبادر إلى ذهنه أنها تحتوى أخباراً خطيرة فطرحها جانباً وتناول غيرها مما كان يعلم أنه لا أهمية له وأنشأ يتلوه. وكان إلى جانبه عبد يتسلم منه كل ورقة تليت ليلقى بها فى أتون نار بينما كان أحد الكتبة يسطر ما يمليه الوالى عليه من المذكرات رداً على ما قرأه. فلما أتى على آخرها صرف الكاتب وتناول رسالة وردت إليه من فرعون عنوانها هكذا وإلى أخى آنى، فأيقن أنه لا صلة لها بأعمال الحكومة بل بشأن خاص فعجّل بفض ختامها فإذا غيها ما يأتى:

« بعثت إليك بخط الكتبة طائفة من الرسائل ماسة بشؤون مصر إذ اعربت فيها عن عطفى الدائم على أمتى المصرية، وأفصحت عن رغبتى في إنهاء الحرب قريباً، واليوم أكتب إليك بخطى هذه الرسالة أوافيك فيها بأسرار ليس لسواك أن يطلع عليها. ولقد تعلم أن روح الألوهية السارية في جسدى طالما حفرت لسانى للنطق بإحدى كلمتى (نعم) أو (لا) تنفيذاً لمشروع أو عدولا عنه، وموافقة على اقتراح أو رفضاً له. وإذ ق، سألتنى الاقتران بابنتى المحبوبة بنت أنات فلن أكون فرعون مصر ان لففت عليك و كتمتك أنى ما انتهيت من تلاوة كتابك حتى انطلق لسانى بلفظة (لا).

« ولايرعك هـذا الأمر وقـد وردت دائما منى على ما تحب ، فإن لـه سبباً حـرياً بالاعتبار. ذلك أنى استطلعت النجوم واستشرت أحشاء الموتى في موافقة هذا القران أو مخالفته فأجمعت الطـوالع على رفض طلبك. وقد كان مما يتحـرج له صدرى أن أفاجئك بهذا الـرفض، وأنت منى بالمكان الأثير بل وأنت الذي يسرى في عـروقه من الدم الملكي مثل ما يسرى منه في دمى، بل ما هو أطهر منه وأنقى كما أكده لي صديق ما برح يحذرني منك ومن الثقة بك لطمعك في عرش الملك.

«وإذا كنت قد خست بعهدى لك فليس لرهبة منك، فلن أكون ابن سيتي إن أثر

الخوف في إرادتي أو ضعضع من همتي. وكل ما في الأمر أن طلبك جعلني في موقف اضطرني إلى رعاية ما أبداه لي صديق حميم من حق الولاء، وإلا فمن غيرك أهل لبنت أنات وجدير به الطموح إلى أبعد الغايات، وهل يكون كفؤا لها إلا الطامح لاغتصاب زمام الحكم على مصر والاستيلاء على مايتبعها من الولايات؟ فعليك بالاستيثاق إذن من رضاها فإن مالأتك على طلبك ورضيتك لها بعلا فحبا وكرامة، ولا مناص في هذه الحالة من إقامة الأعراس يوم عودتي من بلاد الخيتاس. ولا يذهب عنى أنك من فتاء السن بما يضمن السعادة لزوجك وأن ابنتي العزيزة ستجد من خبرتك وحكمتك سياجا واقيا. ولك أن تخبرها بموافقتي على رغبتك وإني لأبتهل إلى هاتور أن تفتح لك قلبها وتسلم إليك مقاليدها إن شاءت أن تكون بعلا لها، فإن إرادتها حكم يخضع كلانا له صاغراً».

كان آنى فى أثناء مطالعته هذا الكتاب يتربد وجهه ويتبين فيه الضجر والتنكر. وكان يقف تارة ويمشى مسبهالا تارة أخرى أو يستند خائر العزيمة إلى أحد أساطين الغرفة ضاربا فى بيداء الفكر والهواجس، فلما جاء على آخره تعبست جبهته وهم بالتلاوة مرة أخرى فما كاد يتمها حتى صاح: «هذا دواء مر ممزوج بالعسل فهل خامر لب فرعون أنني امرأة؟ (١)» ثم لزم الصمت هنيهة وقال: فهمت الآن كيف يجمع المرء إذ اتجه إليه أحد بطلب بين الرفض والقبول وكيف يرده بالخيبة بعبارة ظاهرها إجابة المأمول. يالرعمسيس فى دهائه وحيلته!.. يتعمل مظاهرتى على تحقيق أمنيتى وهو أدرى بأطوار ابنته وأنها كأخواتها فى السن لا تود الزواج من مثلى، وقد ناهر الأربعين ولو اقترن من قبل لرزق بمثلها!.. ثم

⁽١) جاء في قراطيس البردي الطبية المحتوية شرح صناعة الحبوب الطبية أنها كانت تعطى للنساء ممزوجة بالعسل وللرجال كما هي

يكلفنى الخضوع لحكمها بعلة أنه سيعمل بإرادتها، وما هي إلا فتساة غير مسؤولة عن تصرفاتها!!

خامرت هذه الهواجس آنى زمناً لم يتمالك بعده من أن يطرح على الأرض كتاب رعمسيس فيلتقطه العبد ويعيده إلى مكانه. ومن أن يلقى كرة معدن في طست فضة فيتقدم إليه بعض الأعوان ويأمرهم بإحضار القرم نيمو. وكان الوالى وقد كاد مقراض اليأس يأكل خيوط آماله مضطرباً ثائراً على رعمسيس لما يتصنعه من الرفق به. وهو في أقاصى الشام، وكان يرى في سلوكه معه ما ينطبق عليه المثل « إذا أهداك عدوك وردة فليس لتشم رائحتها بل ليؤذيك شوكها».

اقبل نيمو خلال ذلك فترامى على قدمى آنى فأمر هذا أعوانه بالانصراف من حوله، فلما انصرفوا اذن له بالمشول بين يديه وقال له: قضت الضرورة بإلقائك فى السجن اليوم. قال نيمو: شكراً لمولاى على هذه النعمة فإنه سيمد بها فى عمرى. فسأل آنى: وكين يطول بها عمرك؟ أجاب: ذلك لأن ساعات السجين تعادل الأشهر والسنين. قال آنى: خلك من هذا المجون والهراء فإنه لا يليق سمعهما إلا بالنساء.. ولمولا أن راتوتى هى التى حرضتك على هذه الفعلة لقتلتك شر قتلة أو بعثت بك إلى الليمان حيث تُضرب وتهان. قال نيمو: وكيف ترضى لى بالليمان ويدى الصغيرة لا تتقل شيئاً أكبر من الفرزان.. ولئن أكن قصير اليدين فلسانى يتجاوز فى الطول ذراعين، وهو إذا انطلق انساب كالأفعوان أو جرى كالسيل فى الوديان، فتارة يغمر المزارع الناضرة وطوراً ينكشف عن الاراضى الغامرة. قال آنى: إن سيلك مهما تدفق بالماء فمن المكن إحاطته بالجسور وهو بهذه الوسيلة لا يجور. قال نيمو: مولاى أدرى بأننى لا أتعدى الحد خشية الوقوع فى الضد، وكل ما أتيته من الأعمال أننى أطاعت الناس على حقيقة الأحوال، وكشفت لهم الستار عن سبب ما عراهم من الأحزان والأكدار، ووصفت لهم وسائل العلاج ومن هو الطبيب الذى هم إليه فى الأحزان والأكدار، ووصفت لهم وسائل العلاج ومن هو الطبيب الذى هم إليه فى

أشد الاحتياج. قال آنى: ولكن ما قولك إذا كان هذا الطبيب لم يكلفك بهذه المهمة؟ ومع هذا فقد أحسنت إذ بفعالك على كفاءتك قد برهنت ولأنت من يعول عليه فى الأحوال الخطيرة والمهمات الكبيرة فكن حكيما فطناً ومدبراً لبقاً، واعلم أنى قد احتاج إليك وأعول فى بعض شؤونى عليك، فالزم الآن بيت سيدتك حتى استقدمك وسارع إليه فى الحال وسلمها هذا الكتاب الوارد برسمها مقروناً بأزكى التحية. قال نيمو: سلام على آنى بن الشمس.. وبعد فهل عندك كتاب آخر لسيدتى نيفرت؟ أجاب: لم يرد كتاب من مينا، ولكن علمت أنه على ما يرام فاذهب على عجل وصن لسانك من الخطأ والخطل.

توارى نيمو عن الأنظار ونهض آنى إلى غرفة مُدت له فيها مائدة حوت شهى الطعام ولذيذ المدام. ولكنه لم يتعاط منها لاشتغاله ببنت أنات وما ستتلقى به طلبه من رفض أو قبول. وبعد هينهة أمربالعبيد فحضروا وأخذوا يسوون شعره ويفرغون عليه ملابسه فلما انتهوا تناول المراة وتراءى لنفسه فيها ثم ركب عجلته قاصداً إلى بنت أنات. وكان في أثناء سيره يزين له ابليس أنه صار قرين بنت أنات وخليفة رعمسيس.

الفصل العاشر

قلة مال واضطراب بال

كان الناظر إلى قصرى مينا وبعاكر من نقطة متساوية البعد عنهما لا يفرق بينهما في تنضيد بناء ولا في احتفال تنميق. ولكن كان أولهما أقدم عهداً من الثانى وأقل منه حظوة بالعناية والتعهد، إذ كانت نقوشه الجميلة تندثر وأركانه المدعمة تتداعى إلى السقوط وحديقته الغناء يذهب ببهجتها الإهمال بحيث كان يكفى النظر إلى عدم تناسق أشجارها وانطماس مجاري الماء فيها للحكم بأن أصحابها اغفلوا العناية بها لضرورة ماسة من الضرورات.

وكنت الحديقة كلها ف هذا الحال من الإهمال على اتساع أرجائها وتباعد أطرافها، اللهم إلا الطريق الموصل إلى مسكن راتوتى ونيفرت فقد كانت تحف به أشجار باسقة ذات ثمار يانعة.

وكانت حجرة راتوتى مؤثثة بأجمل الأثاث وأحسن الرياش ومنعقة بما يبهر الأبصار ويحير الأفكار من عجائب الصناعة ونوادر الاختراع، فمن مناضد الساسم الملتوية القوائم على شكل حلزونى يذكر الناظر بالثعبان في تلويه، وأرائك يعلوها الفراش الوثير من المخمل والاستبرق وأصص أزهار يعبق أريجها فى الأرجاء وأكواب للشراب وخزانات قام بتكفيتها على أبدع النقوش أحذق الصناع وصحاف مرمرية يسطع منها شذا السوائل العطرية وطنافس سميكة طرية بثت فى كل مكان، وما إلى ذلك كله من بواعث الراحة ووسائل الرفه والنعيم اللذين تصبو إليهما نقس كل إنسان، وإذا كانت ربة البيت قد تعمدت إغفال ترتيب هذا الأثاث

الفاخر على قاعدة التشابه والتناظر فقد زاد هذا الإهمال في حسن الرونق والجمال.

في هذه الحجرة الباهرة الجاذبة بحسنها للناظر كانت نيفرت مضطجعة على إحدى الأرائك تلاعب بأناملها هرة بيضاء دون أن تنبس شفتاها بكلمة، بينما كانت إحدى الجوارى أمامها تروح لها بمروحة كبيرة لتلطيف الهواء إذ كان اليوم شديد وقع الشمس محتدم الهاجرة، وكانت والدتها تودع ستخم وبعاكر وكانا قد حضرا لزيارتها ثم انصرفا.

مضت أربع سنوات لم تطأ قدم بعاكر ووالدته عتبة بيت راتوتى لما كان مستحكما بينهما وبينها من النفور والجفاء على أثر تزويج نيفرت من مينا. وقد أبدت ستخم خلال زيارتها ما يدل على زوال الجفاء وحلول المودة والصفاء رعاية لحرمة القرابة وصلة الرحم، فلما توارى الزائران عن العيان خلف أشجار الرمان التى كانت أزهارها القانية كالنار المتأججة أقبلت راتوتى على ابنتها وسألتها: أو يخطر هذا ببال؟ أو يظن أحد أن يقيم بعاكر على حبك إلى الآن؟ فاحمر وجه نيفرت حياء وأخذت تضرب الهرة البيضاء بمروحتها ضرباً خفيفاً متداركاً، ثم تنفست الصعداء وقالت بصوت العاتب: دعينى يا والدتى الآن من هذا الكلام.

كانت راتوتى معتدلة القوام أملود الساقين ريا المعاصم متجانسة الأعضاء. كانت معروفة في طيبة بجمالها الفتان ومحاسنها الغضة وبالتفنن في التجمل والتزين والميل إلى التبرح بالأزياء الجديدة حتى كنّ في ذلك لا يأخذن إلا عنها ولا يقلدن غيرها في حسن الشارة وتنسيق الزينة وخلاعة المشية ولطف الحركات. وكانت يوم زارتها ستخم تحمل مطرفاً مسهما من الخز يزيدها التبختر فيه بقوامها اللدن رقة ورشاقة. وكانت عادتها ألا تتكلف في التجمل ولا تتحرى شيئاً من أسباب

التصنع والتعلم إذ كانت لا تهوى التحلى بالعقود والدمالج والجواهر التى تصبو إليها نساء مصر عامة، بل كانت تجد خير معاض عنها في تنميق الأزهار الطبيعية على جسمها ووضع أكليل ذهب مصفى على رأسها يحيط بغدائرها المنضمة ضفيرة واحدة مرسلة إلى كتفيها بما يدل على قصد الإهمال مبالغة في التبرج والدلال.

وما كان لراتوتي مال تالد ولا طارف، وما امتلكت أرضاً للزراعة ولا دوراً للسكني. لهذا وذاك لجأت إلى مينا وعاشت في بيته مع نيفرت لتدير أملاكه وتتعهد شؤونها بالمراقبة، ولم يكن لها ملائ-قبل هذا القران- سوى دار أختها ستخم لأنها كانت تزوجت من أخيها (1) وعاشرته زمنا أتلف فيه كل ما أفاضته عليه الأسرة المالكة من الهبات وما ورثه من وافر المال في شهوات النفس وملاذها، فلما توفي لم تجد ما ترثه عنه فلائت مع ابنها وابنتها باختها ستخم التي استقبلتها بصدر رحيب ووجه منرق وتنازلت لها عن دارها لتتخذها مثابة لها ولتستغل من إيرادها ما تنفقه في بعض شرونها ثم عهدت بالموهار زوجها القيام بتربية شقيق نيفرت، وكان فتي حلو الطلعة كثير الازدهاء بنفسه ميالا إلى دنايا الأمور وسفاسفها.

وكانت راتوتى لا تشعر باعباء هذه المنن المترادفة على عواهنها، إذ كانت-بما جبلت عليه من الكبرياء والأنفة والاعتداد بذاتها- تعتقد أن ما تفيضه أختها عليها من المكرمات وتطوق به جيدها من المنن ليس إلا فرضاً محتوماً عليها وواجباً يطلب منها أداؤه، بل دينا تقوم بوفائه نحوها، وأن ليس في ذلك ما يحط بالقدر أو يذهب بالجاه وحسن الذكر.

⁽١) كان زواج الأغ شائعا عند قدماء المصريين، وقد نقل البطالسة عنهم هذه العادة التي كان يمجها المقدونيون، ولهذا انتحلوا حينما تزوج بطليموس فيلادلف بشقيقت أرسينوه سببا لهذا الزواج.. وهو اقتران الزهرة بزحل ف الحسابات الفلكية وقتئذ.

وكان مما يحرج صدر راتوتى أن يُسمعها ذوو الحجى من معارفها عبارات الحض على وجوب قيامها بتأديب ابنها وتثقيف عقله ليعتمد على نفسه متى نزل فى معترك الحياة، لانها كانت لفرط حبها إياه لا تود أن تسمع فيه لوما ولا عذلا، ولو كان القصد منهما مجرد الإرشاد والنصح. وكانت لا يستولى عليها الحياء إلا إذا ضرب لها زوج اختها الأمثال بالمسرفين السفهاء وحذرها من التبذير وصور لها ما يستتبعه من ذل الفقر، فإنها كانت تمسك عن الكلام أو تتهم أختها بالرهو وحب الفخر وأنها لذلك وحده تكرم مثواها، لا لرعاية حق القرابة أو الحرص على صلة الرحم وأنه أصبح من ثم لا يحق لأحد مطالبتها بأن تقابل بالشكر والثناء صنيعا مشوبا بالرياء. وقد جاء كفرانها بالنعمة على هذا الوجه مصداقاً لحقيقة ثابتة يتضمنها المثلان السائران «التحدث بالجميل حمل ثقيل» و «لايقابل صاحب الإحسان إلا بالجحود والنكران»

وكانت راتوتى لشدة عوزها ترتقب الفرص لتنفض غبار الفقر عن نفسها، فما أقبل مينا عليها في طلب يد نيفرت حتى أجابته فوراً بالقبول، إذ كان في مسارعتها إلى ترجيحه على ابن اختها ما يغنيها عن الاعتماد على أقاربها في سد عوزها ورتق فتوقها ويطابق إرادة رعمسيس الذي كثيراً ما أعرب عن رغبته في إتمام هذا القران.

ولما تم الزفاف أقامت راتوتى مع نيفرت بدارها الجديدة، ولكن لم تمض أيام حتى شب ضرام الحرب بين مصر والشام فرحل مينا في جيش الملك لقتالهم، فتم لراتوتى ما كانت تتمناه من الاستئثار بالرقابة على أملاكه الواسعة وتسديد ديونها الخاصة من إيرادها والتصرف في الباقى على مشتهاها. وقد ابتسم لها على الجملة ثغر الأماني وأتت لها تلك النعمة الجزيلة من وراء الآمال، إذ أصبحت وق

قدرتها بذل جزيل المال فيما تميل إليه من التجمل بالمخمل الموشى والجواهر النفيسة فتستدرك ف بحبوحة ما أسنى لها من الرزق وأرغد عليها من العيش – ما فاتها من مظاهر الترف والنعيم في أيام الحرمان إذ كانت عالة على غيرها.

ولم تقتصر على نفسها ف الإسراف من أموال مينا، بل أغدقت على ابنها من هذه الخيرات ما استطاع به الظهور أمام الجمهور بمظاهر العظماء فاقتنى المركبات الجميلة والخيول المطهمة ونظم بمساعى والدته في سلك ضباط البطانة الفرعونية. أما نيفرت فلم تدع راتوتي واسطة إلا اتخذتها لإرضائها بقضاء مشتهياتها، فأصبحت من رفعة القدر وسمو المكانة بحيث تناظر في الترف والبذخ أميرات الأقطار الاسبوية.

وكان أنى يقيم في أثناء الحرب بقصر فرعون فأصبح بذلك جاراً لراتوتى فاغتنمت هذه فرصة الجوار لاستدارجه للتردد عليها، حتى انتهى الأمر به إلى الهيام بها واستشعر بضرورة لقائها كلما أمكنته الفرصة. وكثيراً ما كانت هذه المقابلات تفضى إلى محادثات تتحرى راتوتى خلالها استفزازه إلى الطمع في عرش الملك. ولولا أنه كان واقفا على صلتها بالأسرة المالكة السالفة وأنها حُرمت مثله الحقوق الملكية لما اختلف إليها للانس بحديثها.

وهى التى حرضته ف أحساديتها على خطبة الأميرة بنت أنات دهاء منها ومكراً، فقد كانت على يقين ثابت أن فرعون سيرفض طلبه فيحنق عليه فتستدرجه بوسائل الإغسراء إلى العمل بما ترسمه له من الخطط وتضعه من القواعد المطابقة لماربها والمحققة الأمانيها.

وكان نيمو الة مطواعة ف يدها يؤدي بالهمة والنشاط والأمانة كل ما توعز به

إليه، مع أنها لم تكاشفه بشىء من أسرارها ولكنه سرعان ما كان يتبين مرادها قبل أن ينطلق لسانها بكملة أو تندفع يدها بحركة، فكان كمن يقرأ في وجهها ما ينفعل به قلبها من المؤشرات. وكانت عادتها إذا أرادت معاقبته على أمر أن تضربه بالمروحة ضربا يكاد يكون لمسا. وقد بدرت منه كلمة اليوم الغابر عاقبته عليها بهذه العقوبة، لأنه قال في خلال حديث له « لو سمى فرعون مصر بانى بدلا من رعمسيس لاصبحت راتوتى إلهة لا ملكة » فارتاعت لهذه الكلمة ونظرت إليه بعين المستفهم فقال: نعم لأنها حينئذ تكون منه بمنزلة المرشدة المشيرة لا الجارية الأسيرة.

وفي مساء ذلك اليوم لم تنتبه راتوتى إلى ما بدا من الاحمرار في وجه نيفرت بسبب ما سمعته من ذمها في بعاكر لأن نظرها كان منصرفاً نحو باب البستان ترتقب عودة نيمو، فلما عيل صبرها قالت: أين نيمو يا ترى؟ لا شك في وصول رسائل إلينا اليوم من معسكر الجيش بالشام. فتنفست نيفرت الصعداء قائلة: لقد مضى زمن طويل ولم يصل كتاب من مينا. ثم تهالت فرحا وصاحت: ها قد حضر قيم دارنا. فالتفتت راتوتى إليه وقد دخل الحجرة من باب عرشت عليه أغصان الأشجار وسألته عما يريد. فأجاب: إن التاجر (عبشا) قد لج في طلب ثمن المركبة السورية وأقمشة الخز. فأمرته راتوتى ببيع الغلال وتسديد ما عليها له من المال. فقال: البيع غير جائز ونحن لم ندفع حتى الآن الضرائب المفروضة للهيكل. ثم إننا سلمنا للمتعهدين بتوريد اللوازم من هذه الغلال ما لم يبق بعده إلا ما يفى بمؤونة البيت والبذار. قالت : بع بعض الثيران، وادفع له المطلوب من الأثمان. قال: وكيف العمل وقد بعنا منذ أيام إلى الموهار قطيعاً برمته فلم يبق إلا ما إذا بعناه أصبحنا لا ندرى كيف تدور النواعير والطواحين؟ وهل نسيت يا مولاتى أنه لابد لنا من

استقائها للبنها وزبدها وجبنها ولنتخذ من روثها ناراً للاصطلاء بها عنيد الحاجة(١)؟ فأمسكت راتوتي هنيهة عن الكلام ثم قالت: اذهب إلى هرمونتيس وقل لمباشر جياد مينا أن يبعث إلينا بعشرة منها. قال: لقد كلمته في هذا الأمر فأكد لي أن مينا حذره من التفريط في جواد واحد من جياده إلا ما يلزم لجرٌ مركبة نيفرت. قالت راتوتى: يجب أن تطيعوا أمرى وهائذه منتظرة وصول الجياد غداً. قال: إن مباشر الجياد رجل عنيد. فقاطعته قائلة: فليعلم هو ولتعلم أنت أننى صاحبة الأمر والنهى ف هذه الدار، فعليك بإحضار الجياد هنا بالرغم من أوامر مينا. وكانت نيفرت قد و قفت : للل هذه المناقشة على قدميها، فلما سمعت الكلمات الأخيرة من حديث والدتها قالت: كلا، بل يجب أن تكون أوامر زوجي هي التي يتحتم تنفيذها، وإذن فلا يبرح جواد واحد مربطه، وإذا كنتم في حاجة إلى مال تسدون به ديونكم فهاكم الدمالج التي أهدانيها الملك أنـزعها من معصمي لتنفقوها في هذا السبيل أو في غيره، و إن تكن قيمتها تعدل عشرين جواداً، وإذا فرطت فيها فلن أفرط في جواد واحد لروجى. فتناول القيم الدمالج وأخذ يجيل فيها نظره فاحصاً ناقداً فإذا بها مرصعة ما لأحصار الكريمة والجواهس النادرة. ثم أرسل إلى راتوتي نظرة المستفهم فهزت كتفيها إشارة الرضى المصدوب بعدم الاكتراث وقالت: فليبقها عبشا عنده حتى تصل إلينا حصة مينا ف الغنائم التي نرجو وصولها قريباً فنوفيه كل حقه. ثم تحولت نحو ابنتها وقالت: لقد مضى عام يا عزيزتي لم يرسل مينا إلينا في خلاله شبيئاً يذكر. وانصرف القيم بعد ذلك، فطرحت نيفرت نفسها على فراشها كما كانت وقالت بصوت خافت: لقد كنت أعتقد أننا في غنى ويسر. قالت راتوتى: كان في

⁽١) كانت مصر كما لاترال إلى اليوم محرومة من الغابات، ولذا كان قدماء المصريين يتخذون نارهم من روث المواشى بعد تجفيفها كما يفعل الفلاحون الآن.

الوسع أن نصل إلى درجة لا تسامى من الثروة وسعة العيش، إلا أنه لما يجرى فى عروقنا من الدم الملكى أصبحنا تجاه واجبات ينبغى أداؤها، ولايذهب عنك أن الأنظار متجهة إليك من أقاصى التضوم لأنك زوج بطل الأبطال فى الجيش. فلا يسمعن أحد أنه أهمل شأنك أو لم يتعهدك بما يحفظ مكانتك فى نظر الجمهور.. يالله. لم غاب نيمو حتى الآن؟ قالت نيفرت: إنى أسمع وقع أقدام فى صحن الدار فلعل الوالى حضر لزيارتنا. فصوبت راتوتى نظرها إلى البستان فإذا بخادم مقبلا نحوهما، فلما داناهما أنبأهما بوصول بنت أنات فى موكبها الفخم ودخولها من باب الدار مع شقيقها راميرى.

فتركت نيفرت مضجعها مسارعة هى ووالدتها إلى لقاء الأميرة وأخيها. وما كادت تلمحها حتى دنت من بنت أنات وحاولت لثم شوبها إجلالا لمقامها فتنحت الأميرة وقالت باسمة: حذاريا نيفرت أن يسرى الدنس منى إليك، فإن الكهنة لم يطهرونى بعد. قال الأميرراميرى: أنت طاهرة رغم أنوفهم ونقية كعين رع.

كان الأمير فتى يعد من العمر سبعة عشر عاما، كان من طلبة هيكل سيتى وأوشك أن يتم دروسه ويتخرج. فقالت شقيقته هازلة وصارفة كلامها إلى نيفرت وراتوتى: سأبلغ الكاهن الأعظم خبر هروب هذا البرذون الذى أبى إلا مرافقتى هذا. ولست أستطيع بيان حبه لقرينك يا نيفرت، فإنه يعتبره فريد العصر في الشجاعة وآية مصر في فنون الحرب، وهو الذى ألح على في زيارتك، والحمد لله أننا جئنا نحمل إليك أخبار اليمن والخير. فخفق قلب نيفرت خفقانا شديداً وضعت يدها بسببه على قلبها سائلة: وهل هذه الأخبار عن مينا؟ أجابت: نعم يا صديقتى فإن والدى الملك بعث إلينا برسالة يخصه فيها بالمدح والثناء ويصف ما أبداه من ضروب البسالة

وأساليب النكاية بالأعداء، ولقد ذكر أنه سيخايره فيما يريد أخذه من غنائم العدو وأسلامه.

فنظرت نيفرت إلى والدتها وقد تهلل وجهها بشراً وأشرق بهجة وسروراً. أما راتو تي فتنفست تنفس المكروب الذي انفرجت غمته وإنفك عنه العناء ولاحظت بنت أنات منهما ذلك فربتت بكفها خد نيفرت، تلطفاً بها وعطفا عليها. ثم خلت براتوتي و تمشت معها حتى وصلتا إلى الحديقة، وكان مما قالته لها إنها تحترمها احترامها له البدتها، وإنها لذلك جاءت تستميد رايها في أمر خطير طالبة منهيا تحري الصدق والإخلاص في نصحها. ثم سارّتها بما اعتزمه الوالي من خطبتها، إذ قالت: لقد أخبرني الملك والدى بأن الوالي طامح للتزوج منى وأنسه يشير على بالقبول مكافأة له على صدقه وأمانته للعرش، وإنما أحب أن أنبهك إلى أن إشارت لم تكن حكما لأنه خيرني بين الرفض والقبول. سالت راتوتي: وماذا رأيت؟ أجابت بنت أنات: رأيت أنه لا منساص لي من رفض طلبه. سالت: وكيف ذلك؟ أجابت: نعم لابد من الرفض، وهو السبيل الوحيد الذي ليس في قدرة مخلوق أن يلزمني الحيد عنه. قالت راتوتي: حيث إنك كنت مصرة على الرفض وتقولين الآن إنه ليس لأحد أن يلزمك الحيد عنه فأنت في غنى عن نصيصة مثلى. قالت بنت أنات: إن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون إلزامي القبول ولئن جئت اليوم لاستطلاع رأيك فما هو إلا لعلمي بأنك صديقة أني وأن في قدرتك انباهه بالشارة خفية إلى ضرورة رجوعه عن عزمه ليكفى نفسه مؤونة السرفض الصريح في وجهه، وهو رجل جدير بالاحترام والاجلال، وأود بعد هـذا الا يعلم ما دار بيننا من الحديث لكيـلا يتبين لـه منى- إذا التقينا في يـوم من الأيام- ما يدل على معرفتي بما بذله من السعى للاقتران بي. فأطرقت راتوتي راسها ثم قالت: نعم، إن الوالي يختلف إلينا من أن إلى أن ويتجاذب معنا أطراف

الحديث ولكننى است أدرى إن كنت أستطيع مفاتحت في مثل هذا الأصر الخطير. سألت بنت أنات باسمة: ألم تكن مسائل الزواج من اختصاص السيدات؟ أجابت راتوتى: نعم، ولكن زواج الأميرة من المسائل المرتبطة بأعمال الحكومة، ومع هذا فلا بدلا من أن أطلعك على حقيقة أنى.. إن الرجل رفيع القدر ملحوظ المنزلة.. فإذا ارتضيت به بعلا فلسوف ترين منه المبادرة إلى إجابة مطالبك والخضوع لرغائبك والعمل بما ترسمين له.

ثار في بنت انات ثائر الأنفة والكبرياء إذ سمعت هذا الكلام وقالت بصوت جهير: اتظنين يا راتوتي أنه مما يليق بكرامتي التماس السعادة الروجية في رجل سهل القياد لين العريكة مطواع لأصرى، رعاية لمكانة والدتي أو والدى من كرم المحتد وبسطة الملك ومطلق التصرف في هذه البلاد؟ كلا.. إنني أرباً بنفسي عن هذه الدنايا، ولقد تبينت من كلامك أنك مازلت جاهلة حقيقة أمرى مع أنك تعلمين أن الخدم والحشم والضباط يتسابقون إلى تلبية ندائي وتنفيذ أمرى، وأنني لا أمر بطريق حتى يتزاحم الناس للركوع أمامي إجلالا لمقامي، بل إن منهم من يفتضر بلثم قدمي.. ولقد قابلت بالرفض الصريح طلب عشرين ذاتاً كانوا يصبون إلى الاقتران بي.. وما كان الرفض لأنني كنت أخشى أن يحط الزواج من مكانتي أو يذهب بشيء من مهابتي وكرامتي، بل لأنني كنت أحس بسمو مقامي عليهم. إن ما أصبو اليه أن يكون بعلي أسمى مني همة وأمضى عزيمة وأقوى إرادة وأن أكون له تابعة ولقدمي في مواطىء قدمه واضعة، وأن المس بيدي عجزي عن مداناته في المواهب الفطرية التي خص الله بها من قضت حكمته بأن تكون له القوامة على الزوجة.

كانت راتوتي تسمع هذا الحديث وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة

الاستخساف، فما انتهت منه بنت أنسات حتى قسالت لها: إذا صبح أن الله قسد خلق في العصور الخالية بعلا تسوافرت فيه هذه الصفات الفاضلة فسلا أخالك تعثرين عليه، مهما يكن بحثك الآن عن بعل مثله، وإذا كنت لا تسزالين مصرة على موالاة البحث عن هذا البعل الذي بتراءى لك في الخيسال فثقى بأن شعورك ستبقى مضفورة (١) حتى تشيب نساصيتك ويبيض فؤداك.. ثم أطرقت قليلا وقسالت: ها قد حضر أضوك مع نيفرت. فسسألتها: أفتتعهدين ببذل ما في طاقتك لحمل أنى على العدول عن نيته؟ أجابت: إننى قيد أمرك. وحدقت بنظرها في الأميرة وقسالت: كان أميني رئيس بيت سيتى – وهو في نضرة شبابه – كالسرجل الذي تصفينه. ثم التفتت إلى راميري قائلة: أما أنت يسا ابن رعمسيس .. أنت الذي ينمو بين الأشجار التي ستتفيأ البلاد بظلها يوما ما خبرني أي أصدقائك يفوقهم شرف خصال وحدة ذكاء وشدة عارضة وثبات عزم؟ أدباب: نحن كسافة كأسنسان المشط في هذه الفضائل. قسالت: لم تصب بإجابتك المرمى.. إنني أسألك أتعرف ببيت سيتي شاباً امتاز على الطلبة والأساتذة بحدة الفهم والنبوغ في العلم بحيث يشبه سنورو (٢) أو تحتمس أو أميني؟ أجاب:

لم يستأذن هذا الاسم على سمع بنت أنات حتى احمر وجهها حياء واستشعرت بقلبها يخفق خفقاناً شديداً بينما كان أخوها يتابع حديثه مع راتوتى قائلا: لقد فاق هذا الشاعر سائر الأقران برجاحة العقل ورقة العاطفة وشرف النفس، فإذا تكلم خُيل لسامعه أنه ينطق بلسان الآلهة ويعرب عما في ضميرهم. وكنا قبل التلقى عليه يأخذنا النعاس أثناء الدرس، بخلافنا وقد تتلمذنا له فإنا في كل يوم يسحرنا ببيانه

⁽١) كان من عادة الأبكار وقتئذ ضفر شعور هن إلى أن يتزوجن.

⁽٢) سنورو مؤسس الأسرة المالكة وكان مشهورا بالفضائل والصفات العالية.

ويخلب عقولنا بفصاحة لسانه، ولعلك رأيته رأى العين يا بنت أنات، فقد كان معك ف بيت بينم المحنط وملازماً لك في فناء الهيكل حينما أعلن الكاهن الأعظم أميني تلويك سالدنس، ولاحظت ما لوجهه المشرق من الشب بمحاسن وجه (موت) إله الحرب، وهو جمال إذا استطلعته الأنظار انطبع في القلوب. ولقد سحرنا أمس، عقب رحيلك من الهيكل بسحر بيانه وملك أفئدتنا بفصاحة لسانه، وأضرم فينا نار الشوق إلى استحلاء الحقائق الدينية وأفادنا من زاخر علمه بما يستهان ف سبيله كل تليد وطارف. ومازلت حتى الساعبة أحس بتلك النار القدسة تنبث في جوارحي و تلتهب بين جوانحي.. ولقد آسفنا فراقه صبيحة هذا اليوم إذ قرر أميني نفيه من الهبكل دون أن يسوغ هـذا القرار يسبب، إلا أننـا وقفنا على الحقيقة لأن لنـا أعيناً ترى وآذانا تسمع.. السبب أنه لم يعاملك بالشدة والعنف بل أطاع أمرك وعاملك باللطف.. ولما كان بعده عنا خسارة لا تعوض علينا فقد اتفقنا على المطالبة بإعادته، ونعتقد أن طلبنا لن يقابل بالرفض فقد وقع اختيارنا على أثانا التلميذ الأول لتحرير الاحتجاج الذي سنوقعه جميعاً بامضاءاتنا. وإذ كنا نخشى أن تنزل صواعق غضبه بمن يجازف برفع الاحتجاج إليه فقد عقدنا النية على تقديمها معاً لنتحمل جميعاً عاقبة عملنتا، فإذا ألفيناه مصرًا على اقصائه إلى شاسع الأقطار فلابد لنا من الشكوى إلى آبائنا ولست أرى أن أميني يمتنع عن إجابة مطالبهم ما دامت تتعلق بمستقبل أبنائهم،

قالت راتوتى: هذه حركة عصيان صادرة عن نزق الشبان، حذاريا بنى من أمينى وأعوانه، فإنهم لايحبون المزاح والمهازلة ولا يحتملون البحث والمجادلة. قال راميرى ضاحكاً: ونحن أيضاً نحب الاستقامة والجد، وعندى أنه إذا أصر على إبعاد بنطاؤر فلابد لى من ترك بيت سيتى لاتمام دراستى فى عين شمس، وإنى لواثق أن

جميع رفاقى سيحذون حذوى ويقتدون بى.. والآن هلمى معى يا بنت أنات فلابد لى من العودة إلى الصومعة قبل مغيب الشمس، أما أنت يا راتوتى فاعذرينى ولا تعذلينى إذا قلت الصومعة، فقد اعتدنا – نحن معشر الطلبة – أن نطلق هذا الاسم على المدرسة. ثم التفت إلى الباب وقال: ها قد جاء القرم نيمو.

استأذن راميرى وبنت أنات من راتوتى بالانصراف، فخرجا من باب البستان وما ابتعدا عنه قليلا حتى صافحت الأميرة أخاها بشغف وقالت: إن طلبكم من أمينى حق صراح، فاعملوا بجد على تحصيله واتركوا المزاح.

الفصل الحادى عشر يحتاج الإنسان إلى أصغر منه في غالب الأحيان

ما ابتعدت بنت أنات قليلا عن بيت مينا، حتى دخل نيمو في البستان يحمل كتاباً مختوما، فلما مثل أمام راتوتى ونيفرت قدمه إليهما ثم قص عليهما حوادث اليوم الماضى بلهجة لم يسعهما معها إلا الإغراب في الضحك. غير أن راتوتى تصنعت الجد فأخذت تعيب عليه تصرفه وتنحى باللوم عليه ولكنها لم تلبث أن اطنبت في مدحه لما يبديه من الحذق والذكاء، وأمعنت النظر في الكتاب فقالت بصوت خافت: لعل في هذا الكتاب بشرى تنشرح لها الصدور! قالت نيفرت: فضى ختامه فعسى أن أرى فيه شيئا عنه (أى مينا) . ففضت راتوتى ختامه ومرت به مرا سريعاً. وما جاءت على آخره حتى طفقت تساهيها وتداعبها قائلة: الراجح عندى أن أخاك كتب إلى مينا لأنى لا أجد هنا كلمة بخطه.

فتأملت نيفرت في الكتاب لا لتقرأه بل لتستوضح فيه خط مينا. وكانت كغيرها من نساء مصر في ذلك العصر تلم بالقراءة والكتابة، وكان يلنذ لها أن ترى خطه المتموج الأسطر لأنه كان على نقيض خطها الجميل الواضح الحروف المستقيم الأسطر، فلما لم تر لخط زوجها أثراً فيه انسكبت عبراتها حتى أثرت في جلباب خدها. وقالت بصوت متهدج: حيث إن الكتاب ضال مما يتعلق بى، فلا حاجة لى بوجودى في هذا المكان. فرضتها راتوتى وهدأت خاطرها بقولها: أما سمعت ما كتبه أخوك؟ فهزت نيفرت كتفيها كمن ينفض عن كاهله حملا ثقيلا ثم برحت المكان دون أن تنبس شفتاها بكلمة.

قلنا إن راتوتي كانت تتقلب في نعم صهرها مينا وتمرح في خيراته، وكانت مع هذا لا تميل إليه بل تخص بميلها وإيشارها ولدها الذي اشتهر بين رفقته بالنزق والخفة و توافرت فيه خصال والده من العكوف على مجالسة النساء ومداعبتهن، والنزوع إلى المظاهر الباطلة. وقد كتب هذا الكتاب إلى والدته يستحثها فيه على إقراضه مبلغاً. باهظاً من أموال مينا التي تتصرف فيها على منا تشتهي. وكانت عادته -إذا حرر كتابا- الإقلال بالاقتصار على بضعة أسطر لعجيزه عن الإسهاب ف التسطير وقلة يضاعته ف التحريس، ولكنه استرسل في كتابه هذه المرة لأن الموضوع كان مما يستدعى البرلحاح والإسهاب وكانت كلما فكت طلاسم خطه وحلّت ألغاز عبيارته وانتقلت من سطر إلى سطر امتقع لونها وانقيض صدرها فطرحت ورقة البردي جانداً وسترت وجهها بكفيها. وقد ذللت في هذا الاضطراب النفسى بينما كان نيمو حالساً القر فصاء أمامها يرشقها بنظراته وينتقد حركاتها ويتابع إشاراتها. وقد بدا على و حهه ما خامر نفسه من الدهشة حينما رأى من سيدته مالم يألفه منها قبلا، وشهدها- وقيد وردت على آخر الرسالية- تثب من موضعها وثبة ارتاع لها قلبه، وتصرخ صراخا استطار منه لبه وتتطامن بجبهتها بعد ذلك إلى جذع نخلة قريبة ملازمة الصمن والسكون العميقين. تجاه هذا المنظر المرهيب، لم يسم نيمو إلا أن يدنو منها قليلا قليلا وأن يكب بوجهه على قدميها يغمرهما بالقبل سائلا: مولاتي! مولاتي! ما الذي نزل بك، وأي سوء أصابك؟ فحاولت راتوتي أن تصلح من قواها الخائرة و تجمع من عزيمتها التي بددها ذلك الجزع الشديد وودت أن لو تجاوبه، لولا أن شغتيها اللتين بدلتا من لونهما العقيقي لوناً اصفر لم تطاوعاها إذ ظلتا متلاحمتين متلاصقتين. وكل ما انبعث منها من آيات الحياة ودلائلها أن صعدت في السماء عينيها شم ارتجفت أعضاؤها رجفة المحموم. ولما أن يئس نيمو من سماع

الجواب على ســؤاله وهى بهذه الحال أعـاد كرة الســؤال بصوت جهير: مـولاتى! مـولاتى! ما الـذى نزل بك وأى سـوء أصـابك.. وهل تأذنين لى بأن أنطلق فى طلب نيفرت؟ فاشـارت إليــه ألا يفعل ثم تلعثم لســانها بهاتين الكلمتين: السفلة!.. الأوغاد!..

وتبرادفت أنفياسها بسرعية غيريبة عقب نطقها بهاتين الكلمتين واحمر ليون وجنتيها وعينيها وعمدت إلى ورقة البردى المتضمنة رسالة ابنها فداستها بقدميها، ثم أخذت الدموع تفيض من عينيها وتنحدر على خديها وعراها من الجزع ما ضاعف ارتباع نيمو وهلعه لاسيما وأنه لم ير سيدته من قبل في مثل ما غشيها من الخواطر الرديئة وتمكن منها من المشقة والعناء. وقد كادت تقف ضربات قلبه من الخوف عليها حتى طوَّح به إلى اعتقاد أنها أشرفت على الموت. فما وسعه إلا أن صاح مراراً: واسيدتاه!.. وإرات وتيتاه!.. أجابته عندئذ بصوت متهدج وقد لاحت على ثغرها تباشير الابتسام: ويلك لم تناديني بهذا الصوت المزعج وتنطق باسمي الذي تدنس بالعبار والشنار؟.. لقد قضينا النهبار في سرور وايتهاج فما أقبل المساء حتى قضت ساعة نحس منه بأن يختم بالغموم والأتراح. وقد جاء في الأمثال أن الواجب على المرء إفشاء الفرح وكتم الترح، وهو خطأ صوابه عكسه إذ الواجب كتمان السرور عن البشر والآلهة معاً لأنهم جميعاً من الحسيدة الأشرار! قال نيمو: سمعت منك الآن كلمة (العار) ولم أسمع كلمة (الموت)، وفيما تلقنت من مبادئك وتلقيت من تعاليمك أنه لا يأس مع الحياة والقدرة على مجالدة الحوادث ومنازلة الأقدار. فارتاحت راتوتي لسماع هذه الموعظة التي قبوّت عزيمتها ويدّلت من بأسها رجاء. ثم قالت لنيمو: عهدتك حاذقاً لبقا أميناً.. فهل لك أن ترشدني إلى طريق الصواب والسلامة وأن تجعل ما بيننا سراً لا تبوح به لأحد ولو كان الإله آمون؟ فحدق نيمو فيها ببصره وقال: أنا مازلت على ما تعهدين في من الإخلاص في النصح والحرص على السر، قالت: حسنا.. وإلا فلا نلبث أن نسمع الصبية في الطرقات يتحدثون بما حل بنا من النكبات، وإذا درى الناس بمضمون الكتاب فلن يجوز إيقاف نيفرت على شيء منه. ثم نظرت في اتجاه الباب وقالت: أسمع وقع أقدام زائر لعله الوالى آني.. فعليك يا نيمو بمقابلته والاعتدار لى عنده بمرض الزمنى الفراش وحرمنى لقاء الزائرين، وحذّر الخدم من الإذن لأحد بالدخول على..

خرج نيمو لتنفيذ هذا الأمر ثم عاد فألفى سيدته فى قلق شديد، فلما نظرته قالت له: اصغ يا نيمو لما أذكره لك من الحوادث المصرنة. سأبدأ بأخفها وقعاً على النفس ثم أتدرج إلى ما ترتعد منه الفرائص وتنقبض له القلوب.. لقد أغدق الملك رعمسيس على مينا الصلات وأجزل له العطايا والهبات، إذ جعل لكل قائد من قواد الجيش سهما معلوما ونصيباً محدوداً. ولكنه استثناه فترك له الخيار فى أخذ ما تطمع نفسه إليه منها إيثاراً له عليهم.. فقاطعها نيمو قائلا: هذه علامات خير وبشائر بركة ويمن، فلم إذن هذا الحزن؟ قالت: حقاً إن الخبر فى ذاته لمن دلائل اليمن والإقبال إلا أن مينا لم يفكر في زوجته ولم يتفضل عليها بسؤال، بل إنه تنحى عن جزاء له على بسالته فى الميدان وسار بها معجباً إلى الصيوان. قال نيمو متلعثما: جزاء له على بسالته فى الميدان وسار بها معجباً إلى الصيوان. قال نيمو متلعثما: ان نيفرت سيئة الحظ بلا مراء، إذ كان هذا جزاء ما أظهرته من الولاء. سأل نيمو بصوت الاكتئاب والحزن: وأين بقية الحديث؟ أجابت: لقد كنت أود السكوت عليها ولكن لا مندوحة فى عن الكلام.. أنت تعلم أن ابنى مع طيشه وسوء تدبيره وقصر ولكن لا مندوحة فى عن الكلام.. أنت تعلم أن ابنى مع طيشه وسوء تدبيره وقصر نظره ف مصائر الأممور يحبنى ويحب اخته حباً جماً.. وقد بعدر منى لحظى العاثر نظره في مصائر الأممور يحبنى ويحب اخته حباً جماً.. وقد بعدر منى لحظى العاثر

أننى حادثته فيما نحن فيه من شدة العوز إلى المال، لا أقصد – علمت الألهة – سوى حضه على الاقتصاد والتقتير خوفا من وخامة العاقبة وسوء المصير. وكانت الأنباء قد نقلت إلينا ما ارتكبه مينا من تلك الجريمة ، فلما رأى منه ابنى صده وانصرافه عنا أحب إسعافنا بما يخلصنا من مخالب الحاجة ، وكانت حصته من الغنائم لا تفى وحدها بقضاء حاجاتنا فلاعب أصحابه عليها أملا في كسب مبلغ طائل من المال نسدد به ديوننا فخسرها جميعاً وها هو قد عاد إلينا خاوى الوفاض، ثم عاوده الأمل في الربح إذا هو استأنف اللعب فلاعبهم على مبلغ جسيم، كلا.. بل على شيء ثمين كان يبتنى به تفريج ضائقتنا وسد عوزنا.. وهل تدرى أي شيء هو يا نيمو؟ تابوت أبيه ويا للحسرة!(١) فكانت صفقته فيه خاسرة مثلها في الغنيمة.. وقد عاد الينا كسير الخاطر كاسف البال احتواه اليأس وسدّت في وجهه المسالك، وغير خاف عليك أن من أصول المقامرة إذا لم يدفع المقامر ما خسره بعد انقضاء ثلاثة أشهر صار عرضة للتعزير والتشهير، لأنه مضطر بحكم هذه الأصول إلى نبش القبر واستخراج التابوت وتسليمه إلى الرابح، فنعيش ما بقي من حياتنا موصومين واستخراج التابوت وتسليمه إلى الرابح، فنعيش ما بقي من حياتنا موصومين

وما أتمت راتوتى هذه الكلمات حتى انسكبت من ماقيها العبرات، فقال نيمو: وكيف يرضى ابنك لنفسه أن يكون مقامراً ومزوراً؟ إن في هذا الأمر ما يوجب الأحزان ويضاعف الأشجان. ولكن لا تيأسى .. فما مقدار ما عليك من المال؟ أجابت (١) ذكر المؤرخ هيرودت أن أزشين أحد ملوك الأسرة الرابعة كان أول من أذن برهن توابيت الأجداد وجعلها الضمانة القصوى لدفع الحقوق فمن لم يوف ديونه بعد هذا الرهن كان نصيبه عقب موته الحرمان من الدفن في القبور فتلقى جثته إلى بنات آوى نهشنها وتناولت هذه العقوبة أحفاده.

ثلاثون تلانا بابليا(١) فارتاع نيمو وصاح: ومن ذا الذي يجازف بهذا القدر من المال في مقابل رهن لاقيمة له؟ أجابت: هو (أوتيف) بن السيدة (هاتور) وقد خسر بمدينة طيبة في ليلة واحدة كل ما تركه له أبوه من المال. قال: إن مثله لايهمل و لاشك حقاله على الغير ولو كان حبة قمح. ثم أين أنت من مينا؟ أجابت: لا أظنه بعد ما أتاه من الأعمال بيتز من أوتيف شيئا من المال، ولقد نصحني ولدى أن استنجد بالوالي في هذه الأزمة والملمة المدلهمة، قال بعد أن هز كتفيه: الرجوع إلى الوالي في هذه الأحوال جهل بحسن التدبير وقصور عن النظر في مصائر الأمور، قالت: نعم إني أعرف أحواليه الداخلية ولكن ألا ترى أن شهرته ومبركزه.. فقياطعها قائلا: سيدتي لا تضحى المستقبل بالحال ولا تعلل النفس بسراب الأمال، نعم يحق لك أن تلتمسي منه للعونية والإسعاف اعتماداً على قيامك بتذليل منا يحول من المصاعب بينه وبين بلوغ المرام من استلام زمام الأحكام، وإنما أخشى أن تفقدى دلالك عليه ونفوذك عنده متى استشف من سعيك التعويل عليه في استرداد ثروتك، وأنت أدري الناس بثروتيه وأنه منغمس في الديبون لناصيته، قيالت: أعلم ذلك جيداً. قال: لاغبرابة إذا علمت فداحة ديونه فإنه لم يصرفها إلا ف سبيل استرضائك وقضاء شهواتك وأهموائك. ولعلك لا تنسبن الحفيلات الباهرة التي كلفت من الأموال مالايطاق الاحتمال، والمبالغ التي أتحف بها كهنة منفيس بصفته حارس العجل أبيس (٢) والهدايا الفاخيرة التي أتحف بها قواد الجيوش المصرية الظافيرة، في بلاد الحبشان

⁽۱) يوازى التلان البابل ٢٢٥ جنيها تقريبا.

⁽۲) لما مات العجل أبيس في عهد بطليموس سوطر الأول المنطقي صرف الحارس المكلف بحراست على تشييع جنازته جميع المبالغ المخصصة لهذا الغرض واقترض من الملك عليها ٥٠ تسلانا (اي ١٢٥٠ جنيها تقريبا)، وقال ديودورس الصقلي إن حراس أبيس كانوا ينفقون على تشييع جنازة هذا العجل نحو ١٠٠٠ تلان أي ٢٢٥٠٠ جنيه.

وكم وكم غير ذلك مما لا يعيه الجنان.. إن صادق الرأى عندى ألا تعتمدى على الوالى في قضاء حاجتك. وكفى الرجل ما فيه من الضيق وخلو الكف والعجز عن إجابة مطالب العيون التى بعثها إلى معية الملك وبثها فى كل مكان لتنقل له الأخبار، وهو ما أدى به أخيراً إلى اقتراض ما يلزمه من المال من خزائن الأقاليم.. فانتظرى حتى يقبض على صولجان الملك لتطلبى منه ما تحبين وهو يبادر إلى إجابة مطالبك وتحقيق رغباتك.

أخذ بصر راتوتى ينهب وجه نيمو لما أدهشها من نجابته إذ قالت له: أراك خبرت الناس واستنبطت حقيقة أحوالهم. قال: نعم، ولخبرتى بهم رجوت منك ألا تواجهيه في طلب مال والإساء بك المآل.. ثم لابد لك من التروي في أمر ولدك وما ينبغى من السعى لرد شرفه إليه. قالت: وشرف زوجى! وشرف! أه لو علمت بما ملا قلبى من الأحزان والآلام! الشرف كلمة يعرفها الأرقاء بمبناها دون معناها ويدرك الأحرار ما انطوت عليه من الأسرار.. أنتم معشر الأرقاء إن ضربكم أحد ضربا مبرحا فإنما يكفيكم تضميد جروحكم ومعاناة آلامها.. أما نحن فإن رفع السبابة نحونا قصد التشهير بنا يعمل في قلوبنا مالاتعمل السهام المسمومة النصال.. أيها الآلهة المخلدون! من ينتشلنى من الهاوية التى في دركها تنكست.. من يقذني من بلائي

ثم سترت وجهها بكفيها فنظر نيمو بعين العطف إليها وقال: أتذكرين – سيدتي حجر الماس الذي سقط يوماً من خاتم نيفرت وكم قضينا من الزمن في البحث عنه حتى يئسنا من وجوده، وكيف أنى في اليوم التالى بينما كنت أمشى صدمت قدماى جسماً صلباً فالتفت إليه فإذا به ذاك الحجر الكريم؟.. إذا كان ما لا تهتدى العين إليه قد وجدته القدم أفتستبعدين على نيم و - وهو أحقر عبيدك وأجهلهم بمعنى كلمة

الشرف— أن توفقه محاسن الصدف لحيلة ربما غابت عن خاطر سيدته الواسعة العقل الشريفة ، لأصل؟.. قالت: ماذا جرى لك.. هل خولط في عقلك؟ أجاب: عقلى والحمد لللآلهة في سلامة واستقامة، وما بلغنى من زيارة أختك لك ومصالحتها إياك.. أصحيح هو؟ أجابت: جاءت لتصافحنى ورضيت عنها. قال: وأي مانع من أن تسأليها حاجتك.. إنها وقد صافحتك لن تتأخر عن إسعافك بالمال، لأن العدواة إذا خمدت نارها كالجرح إذا اندمل لابعد في لمسه من الحذر والاحتراس حتى لا ينفتح فيسيل منه الدم، ولا تستكبري السؤال في مثل هذه الأحوال، فإنك إنما تسألين أختا يهمها أمرك ويعنيها شأنك. قالت: ولكن ثروتها ليست واسعة إلى حد تستطيع معه مساعدتي بما يقنعني.. وجميع ما في بستانها ملك لأبنائها. سألها: وهل حضر معها بعاكر هنا؟ أجابت: نعم ولكن بإلحاح من والدته لأنه كما تعرف يكمن الحقد لمينا. قال: وما رأيك إذا دعته نيفرت إلى الحضور؟

ما سمعت ر: توتى هذا الطلب حتى كاد إهابها يتمزق من الغيظ ونهضت واقفة وقد تبادر إليها أنها أخطأت بالاسترسال في مكاشفة تابعها بأسرارها، فلم يسعه عندئذ إلا أن تناول ذيل ثوبها بالقبلات مستعطفا وقال معتذراً: أتريد سيدتى أن أطرح أسرار هذه المحادثة في زاوية النسيان أو أعمل الفكر في انتشال أبنها من هاوية الخسران؟ فترددت راتوتى ثم قالت: دعنى الآن وشائى فلست أود استشارتك في أمر مادامت الآلهة ستلهمنى الصواب فيما أنا إليه منصرفة. سأل: وهل سيدتى في حاجة إلى خدمتى غدا؟ أجابت: إننى في غنى عنك، قال: إذن تأذنين لى بالتوجه إلى المقبرة لتقديم النربان. قالت: لك ذلك إن أردته. ثم دخلت المنزل وبيدها الكتاب الذي صب عليها الهموم والأوصاب. وظل نيمو في مكانه نهباً للهواجس ثم أخذ يناجى نفسه: «هم يخشون العار والمقت ويتمنون بسببهما الموت، ولكن ما هذا الشرف

الذي لاكته السنتهم ومضعته أفواهم ولم يولد أحد متحليا بوشاحه؟.. إن الناس طرًا يدرجون بعد مماتهم في الأكفان وكانوا من الشرف مع هذا في حرمان.. وغاية الأمر عندي أن الأغنياء من ذوى البطالة والجهالة ينتحلون الشرف ويتخذونه على أنفسهم دلالة، وهم في هذا الادعاء كالحبشان الذين يطلون رؤوسهم بشحم الضان، فتنقلب سحنتهم وتتغير هيئتهم، ثم هم بهذه العادة يفخرون وعنها لايعدلون، وأفضل عندهم أن تقطع منهم الآذان من أن يتركوا هذا الدهان، وعلى أي حال فلابد من استشارة والدتى في كل أمر ذي شأن، فإنها أكثر خبرة من الكهان».

الفصل الثاني عشر

استشارة الساحرة الغادرة الماكرة

ما ولى الليل بركنه وأضاء الصبح بنوره حتى شوهد نيمو ممتطياً حماراً أبيض اللون يعدو به نحو المقابر كيلا يدركه القيظ إذا تعالى النهار. وكان عارفا بمنعرجات الطرق وتشعباتها ف هذه الجهة فلم يسلك النهج الواسع الذي يطرقه كل الناس، بل اتجه صوب الجبل الذي يعترض بين المقابر وسهول النيل.

وكان يبرى امامه صخوراً عالية في شكل نصف دائرة ترتسم على سفوحها الصلدة معابد ضخمة شادتها الملكة حاتاسو التي نصبت وصية على اثنين من ملوك الاسرة البائدة. فلما دنا منها نيمو جعلها إلى يمينه وسار في طريق منحدر تراءت له المدافن منه تتخللها المنازل والهياكل والتماثيل، ونظر فيما يلى ذلك كله نهر النيل ينساب نحو الشمال كانه سبيكة مصهورة من اللجين، ولفت نظره الغسق الأحمر رائداً لأشعة الشمس وقد انطبعت على لونه الأرجواني منازل طيبة وهياكلها منظرها الشائق وارتفاعها الشاهق.

كان بصر نيمو شاخصاً في هذا المنظر البديع، إلا أنه كان لايميز جمال تصويره وحسن تأثيره لانه و هو على متن الحمار – كان هائما في أودية الأفكار غير ناظر إلى ما يعترى دابته من التعب لصعوبة المرتقيات ووعورة المنحدرات. وبينما هو سائر في مسلك ضيق بوسط الجبال إذ سمع همس إنسان يجد في أشره حتى أدركه ، فتبادلا السلام و ظل الاثنان سائرين حتى بلغا إلى منعطف يتسع عنده الطريق، فانفتل نيمو إلى أحد عطفيه إذ لحظ أن السائر معه أحد الكهنة المحترمين وقال له:

عليك يا أبت بالسير أمامى لأنك بقدميك الاثنتين أسرع من حمارى بأرجله الأربع!. قال الكاهن، وكان نبسشت صديق بنطاؤر: حسناً فعلت.. إنى أغدو في التماس علاج أحد المرضى.

هنا برزت الشمس من حجابها وتجردت من جلبابها، فأفلت الشفق الأرجوانى مولياً الأدبار خيفة أن تفتك به جيوش النهار، وطرق الآذان نشيد الكهان، فانكب نيمو من متن حماره لصلاة الصباح واقتدى نبسشت به ووقف كلاهما نظره على اله الشمس (فتاح)، وكان نيمو شاخص البصر إلى الشرق. أما نبسشت فيينما كان باسطا يديه بالدعاء ومصعداً نظره في السماء، إذ حانت منه التفاته إلى اليسار فرأى صدفة من أصداف البحار وقد تجمدت كالأحجار.. فمد يده إليها واستولى عليها ونهض بعد ذلك واقفاً فاقتدى به نيمو ولأثره اقتفى، ثم قال: ما ألطف هذا الصباح! أرى فيه أن الكهان الذين سمعنا نشيدهم الآن قد انتبهوا من نومهم قبل الساعة المحدودة لقيامهم. فابتسم نبسشت وقال: نعم، ولعلك آت من المقبرة، ومن جاء بك إلى هذا الطريق الـوعر المحفوف بالصخر؟ أجاب: جئت بنفسى، ولكن أتأذن لى بسؤالك عن فقراء السكان الذين يقصد إليهم طبيب بيت سيتى في مثل هذا الآن؟ قال نبسشت: إن للفتاة التي نيط بي علاجها أبا فقيراً ، أما هي فمرضها خطير. فحدق نيمو فيه النظر وقال: لابد أنها الفتاة التي دهمتها مركبة الأميرة، وكيف حالها الآن؟ أجاب: متماثلة إلى الشفاء وعسى أن تحقق الآلهة في نجاتها الرجاء. قال نيمو: حمداً للآلهة على هذه المن وشكراً لهم على انكشاف المدن.

جدّ نبسشت بعد ذلك فى المسير، فلما بلغ من الجبل إلى ذروته انحط منحدرا إلى سفحه حيث يوجد وجار المحنط بينم، فلما هبطه تولى علاج الجريحة. أما نيمو فواصل السير حتى وصل إلى مغارة أمه نيخت الساحرة التى علّمت بعاكر كيف يستهرى النساء بالقدح الملوء بالماء.

وكانت هذه العجوز الشمطاء والداهية الدهياء بباب المغارة جالسة القرفصاء، وإلى جابها لوح خشب جعلت بطرفيه عارضتين متصلتين بعدة لوالب إذا دارت اقتربتا أو ابتعدنا. وكان بين العارضتين طفل ممدوداً وقد لامست رأسه إحداهما والأخرى أخمصى قدميه. وكانت العجوز اللعين تستعين بهذه الآلة على تعطيل نمو الأطفال بمنع أعضائهم من الوصول إلى مداها الطبيعى، ليصيروا على مر الأعوام أقراماً كابنها نيمو تبيعهم الأمراء والمثرين بالمال الجزيل، ليقطعوا بالتماجن والتملح معهم ساعات الفراغ. وما طرق أذن العجوز وقع قدمى نيمو وهو مقبل عليها حتى أسرعت برفع اللوح وطرحه بآخر المغارة وقالت للطفل: لا تتحرك وإلا أثخنت فيك ضربا وأمعنت أذية أو شددت وثاقك فلا تعود تستطيع في اللوحة عراكا. قال الطفل: دعيني ولا تربطيني، ولك أن أظل مطروحاً على اللوحة بإرادتي. فصاحت به: كلا.. ثم شدّت رباطه وهو يبكي ويستغيث، إلا أنها تكلفت العطف عليه وقالت: إذا لزمت الصمت ناولتك فطيرة بالعسل وأذنت لك في ملاعبة الدجاج.

فسكت الطفل ولاحت في عينيه بارقة السرور والاغتباط، ولكنه تعلق بأذيال العجوز وقال بصوت خافت: سأسكت سكوت الجرذان حتى لايعلم أحد أنى بهذا المكان، ولكن أود أن تأذني لى بالذهاب إلى وردة لأعطيها الفطيرة الموعودة. قالت: وردة طريحة الفراش فلا حاجة لك بالغدو إليها. قال الطفل وقد اغرورقت عيناه بالدموع: أتمنى لو أعطيتها الفطيرة. فأخذت العجوز تداعبه وتسليه ثم مدت شفتيها لتقبله بين عينيه ولكنها سرعان ما تحولت عنه قائلة بصوت مزعج: أمرتك ألا تتكلم فالزم شأنك وسأرى إذا كان لك أن تزور وردة أو لا تزورها. ثم ألقت على وجه الطفل كيساً من القماش السميك وعادت إلى الباب. فلما أبصرت بنيمو تلقته بمظاهر الاشتياق وأكرمته بشيء من الخبز واللبن والعسل ثم طمأنته على وردة إذ

أنه يكثر من ذكرها وسألته عن سبب حضوره وعما إذا كانت سيدته هى التى أرسلته في حاجة تريد قضاءها أم أنه جاء من تلقاء نفسه. ثم ذكرت له أن جماعة الأمراء ولفيف الأعيان والعظماء اعتادوا ألا يزوروا الفقراء ولا أعتاب منازل البؤساء لغرض يرمقون إليه، وسألته عم يود منها الآن؟ أجاب: لست أريد شيئا ولكن.. قالت ضاحكة: ولكنك جئت إلى هنا بإيعاز غيرك لا بمحض إرادتك فالنتيجة إذن واحدة، لأن الذي يطلب أمراً برسم الغير كمن يلتمسه لنفسه. قال: يدل كلامك على ثبات عقلك وحضور ذهنك وأنه لم يتغير منذ زيارتي الأخيرة لك. وهذا الأمر يسرني ولا شك ملاحظته لأني في حاجة لنصائحك الرشيدة وارائك السديدة. قالت: إنى أقدم لك نصائحي بثمن بخس، فقل لى ماذا جرى.

فقص نيمو عليها في اختصار وصراحة كل ما اتفق لسيدته راتوتى وذكر لها ما أوشك أن يلحق بابنها من العار والفضيحة لرهنه جثة أبيه. فهرت رأسها وتركته يسترسل في حديثه فما أتى على آخره حتى حدقت فيه النظر وقالت: وهل مازلت تعتقد إدكان رفع آنى إلى عرش رعمسيس، أى استبدال الباشق من البازى؟ قال: كيف لا وجيش الحبشة معاضد لنا وزمرة الكهنة متذمرون من الأحكام ومستعدون جميعاً لخلع ربقة الطاعة ومبايعة آنى اعتماداً على نسبه المتصل بدم رع؟ قالت: يبدو من كلامك أنكم أعددتم للكفاح عدته. قال: لا ريب، وأنت تعلمين أن الكلاب الكثيرة مهما تبطىء في العدو تدرك الغزال وتفتك به. قالت: ولكن رعمسيس أسد أسيد لا يستطاع إخضاعه ولو كبل بالحديد، وأنتم إنما تجازفون بأنفسكم وتلقون بها في الهلاك. قال: نعم إننا نجازف وما مجازفتنا إلا بقدر سمو غايتنا، وستقرن مساعينا إن شاء الله بالنجاح. قالت: من ينشد النجاح فليتوقع الفشل،

ومع هذا فافعلوا ما بدا لكم فإنه لايهمنى من يسوق أبناءها إلى مواطن القتال ويخطف الماشية من الرجال، ثم قل لى ماذا تريد منى؟ قال: جئتك بمحض إرادتى لتوقفينى على ما تصون راتوتى به شرف ابنها وأسرتها. فوقفت العجوز واستندت إلى عكازها وقائت بعد أن أطالت النظر في نيمو كمن يحاول استطلاع سر كمين في صدره واستقراء مضمر فكره: مالى أراك أيها السقط الحقير كثير الاهتمام بأولئك العظماء؛ أجاب: إن سيدتى راتوتى من أكرم السيدات سجية وأعزهن نفساً، فإذا أصبحت في ثرو، لائقة بها فلابد أن يصينى وإياك سهم منها.

فهزت نيضت راسها استنكاراً وقالت: ربما أعطتك رغيف خبز وتصدقت على بفتات رغيف أخرر. الظاهر لى أن في الأمر سراً غير ما أفضيت إلى ، فإننى أنفذ ببصيرتي إلى ما يكنه فؤادك وببصرى إلى أحشاء الغربان التي أشق بطونها.. إنك لمن ثقلت عليهم البطالة فدبروا التدابير واستنبطوا الحيل للتدخل فيما لا يعنيهم حتى ينفوا عنهم معرة الكسل والفراغ من العمل. ليتك كنت يا بني أطول منك بعشرين ابهاما فقط، إذن لنظمتك في سلك الكهانة ولصعدت فيها إلى أسمى مكانة، وعشت حتى تعلق بالمشنقة فيقول ناظروك «علو في الحياة وفي المات».

ثم ضحكت ظهراً لبطن فعض نيمو شفته غيظا وقال: لمو كنت أرسلتني إلى المدرسة ولم أكن قصير القامة ولا ابن ساحرة لدبرت للكبراء أنواع التدابير وقابلتهم بمثل ما يقابلونني به من التحقير ، لأنهم وإن علت أقدارهم - لن يدركوا شاوى في الذكء وسعة الحيلة ولن يستطيعوا أن يلتسموا لأنفسهم مخرجا من المازق إذا زجتهم فيها حوادث الدهر أو اندفعوا في تيار التهور، أما أنا فإني ألبس لكل حال لبوسها وأروغ روغان الثعالب وأعمل عمل من حنكته التجارب. قالت: إذا

كنت كما تدعى بهذه المهارة فلم جئت للاستشارة؟ قال: لايأس بها ف هذا الزمان لأنها البصر لمن ليس له عينان، ثم لايذهب عنك يا والدتي أنك ملزمة بمساعدتي. سألته باسمة: ملزمة! ولماذا؟ أجاب: ملزمة لأنك السبب في قصر قامتي. قالت: ولكنني بهذا الفعل فتحت لك أبواب الرزق وجعلتك في غني عن الناس. فهز نيمه رأسه قائلا: لا أنكر هذه النعمة التي تغيد كل من يولد فقيراً مثل ولكنك زدت على تقصير قامتي أن افسدت مني خلقي وطبيعتي، ثم أطرق رأسه ووضع يده على قليه كمن يحاول تسكين خفقان ألمّ به . فدنت العجوز منه وقالت في رفق: ماذا جرى با ولدى؟ لقد كنت أظنك في حالة سارة ببيت مينا! فانسكبت الدموع من عينيه وقال: أمازلت على اعتقادك أنني لم أكن سيء الحظ منكود الطالع؟ لقد أطلعتني على مستقبل أمرى فأيقنته كما يوقن المرء حقيقة ذاته إذا تراءى في المراة، ولا تنسى أنك أنت التي علمتني أساليب المكر والدهاء حتى أقوم بالمهام الدنيئة الموكوات إي عهدتي .. تذكري جيداً ... أنسيت أنك بعتنى للقيم على خزائن رعمسيس بمبلغ زهيد من المال، فأهداني إلى صهره والد مينا؟ وها قد مضى على هذا الحادث خمسة عشر عاماً وكنت وقتنذ صبياً دون البلوغ ومتفوقا على أندادي في حدة الذهن وخفة الروح ورشاقة الحركات. فلما انتقلت إلى البيت الجديد اتخذوني العوبة لمينا فكان يشدني ف عجلنه الصغيرة بعد أن يروق جسمى ورأسى بالأشرطة والريش ثم يأمرنى بالركض فإذا تولاني التعب فخفضت السير أهوى بسوطه على جسمي الضئيل لأنشط. وكانت بالمنزل فتاة حنّت لها جوارحى وهي ابنة البواب، فكنت لا أمضى أمامها جارًا المجلة إلا وتغرب في الضحك لشذوذ ملابسي، وكان لسان السوط متدلياً على أذنى ينذرني بالعقوبة إذا توانيت في الركض أو اعتراني الكلال، وكان العرق يتصبب من جبيني والدم يتقطر من قلبي الجريح. فلما توق و'لد مينا دخل مينا بيت سيتى للتعلم وتخصصت بضدمة زوجة الملاحظ الذى طردته راتوتى إلى بلدة هرمونتيس، فأصبحت في شقاء ونكد، لأن بنات المنزل يتخذننى وسيلة للهوهن ومجونهن، إذ كن يضعننى في مهد صغير ويلزمننى البقاء فيه بلا حراك مع غمض العينين حتى أبدو لهن كمن يكون في سبات عميق ويسترسلن بعد ذلك في ضروب المزح والمعاجنة بينما كانت تنتاب قلبى عوامل الحقد والضغينة تارة وأسباب العشق والهيام أخرى. وكنت إذا مللت الاستقرار في هذا الوضع والتمست الراحة بالالتقات أو التحرك الهبن ظهرى ضربا بالعصى، وحدث أن تملكنى الغضب يوما من هذه المعاملة القاسية إذ ضربتني إحداهن ضربا مبرحاً أسال دمى، فأخذنى مينا وقد اشتد بى الغضب إلى مستودع الحبوب وعلقنى من نطاقى بمسمار مثبت بالسقف وتركنى معلقا هكذا في الفضاء أياما معدودة، قاسيت خلالها من البلاء والمحنة مالا أنساه أبد الدهر، فقد تكاثرت على الفئران والجوع. وهذه هي آثار العض ما برحت ظاهرة في ذراعي بلونها الأبيض، فإذا والجوع. وهذه هي آثار العض ما برحت ظاهرة في ذراعي بلونها الأبيض، فإذا والتناب خلصني مينا من مخالب الموت بعد أن اعتذر بأنه نسيني!

ولما تم اقتران مينا بنيفرت دعا إلى السكنى في بيته والدتها راتوتى فجعلتنى هذه في خدمتها. وقد أخلصت الولاء لها حتى تبيئت منى الصدق في القول والإخلاص في النصيح وأيقنت أنها لا غنى لها عنى فحملنى ذلك على إرادة الخير لها والجاه والعزة. ولا خلاف في أنا إذا استوى أنى على عرش الملك فسأكون وإياها المديرين لسياسته.

كانت العجوز ف خلال هذا الحديث واقفة ومسلازمة الصمت. أما نيمو فقد اشتد

سعبر العبط الكامن ف صدره لينا فأخذ يرغى ويزبد ويقوم ويقعد، حتى إذا أتم كلامه حلست العجوز على كرسي من الخشب وأخذت تنتف ريش هدهد قائلة: لقد فهمت الآن مرادك، إنك تريد الانتقام من خصومك لتصعد - في أمان من مكرهم-إلى أسنى المراتب وتلتمس منى العضد والنصير. اجلس يا بنيُّ واشرب هذه القدم الملوءة لبنا ليهدأ خاطرك ويسكن روعك واسمع ما سألقيه عليك من النصائح الرشيدة لا أبتغي منك جزاء ولا شكورا.. أما راتبوتي فلا أرى لها خلاصا من العار الذي لبس ابنها إلا بالأصفر الوضاح وهو موفور بعتبة دارها، فما عليها إلا أن تخطو خطوات لتحصل منه على ما تشتهى .. وبعد أفلم يكن الموهار بعاكر ابن شقيقتها؟ أجاب نيمو: نعم. قالت: إن نيفرت الجميلة ابنة راتوتي وزوحة سيدك مينا قد اتصل بي أن رجلا من الأعيان يحاول اجتذابها إليه. قال: لعلك تريدين بهذا الرجل بعاكر إذ هو السابق إلى خطبتها فلم تشأ الاقتران به مؤثرة عليه مولاي مينا. قالت: لقد حضر بعاكر عندي أول من أمس واشتري منى ماء سحرياً ، وإذ كنت شديدة الرغية في استطلاع قصده من شراء هذا الماء فقد اقتفيت أثره من حيث أراه ولا يراني، فنظرت يقدم الماء إلى امرأة ذات جمال فائق علمت فيما بعد أنها نيفرت. سأل: وهل شربت الماء السحرى؟ أجابت: نعم.. شربت ولكنه لايؤثر فتيلا في فؤادها، إذ هو مزيج من ماء وخل وعصارة لفت، وأرى أن في قدرة ننفرت - لتزيد بعاكر افتتاناً بجمالها الساحر- اقتراض ما يلزمها من المال لتسدد به ديون أخيها وتكشف العار بمنه وعن والدتها. قال: ولكن راتوتي عزيزة النفس حمية الأنف، إذ سبق لى أن عرضت عليها هذا الاقتراح فوبختني وطردتني. قالت: إذا كانت لا تحب أن تواجه نيفرت بعاكر في هذا الطلب فلتذهب بنفسها. أما أنت فعليك أن تقابل بعاكر وتعلله بأمنية ميل نيفرت إليه وهيامها به ثم تنفض له جملة حال أهلها وما

أصبحوا فيه من الذابة والمسكنة فإن رفض طلبك فأفهمه أنك واقف على سمّ مسألة الماء السحري، ففكر نيمو قليلاً ثم التفت إلى العجبون وقال: هذا هو التدبير الصائب والرأى الثاقب، قالت: كنت بادىء ذي بدء أرى أن مساعيك ربما لاتقترن بالنجاح ولكنني تأكدت العكس الآن، واعتقادي أنه يجب على راتـوتي أن تشكـر لنجلهـا مقامرت على جثة أبيه. قال: اتقصدين بهذا الكلام أن يشكر لراتوتي من لم يقفوا على حقيقة الواقع من جمهور الناس بذلها المال في سبيل المحافظة على شرف اسم.. قالت: نعم هـ و هذا والعلم أنك إن تقنع بعاكر بحب نيفرت لـ وإعطاء راتوتي ما تطمع فيه من مال فعقدة الأشكال تنحل.. وعندئذ تتحرك عوامل الانتقام في صدر معاكر فتحفزه لنقضاء على مينا كي يخلو له الجوِّ فيقترن بنيفرت وبذا ينتقم ف الآن نفسه ممن أذاقك مر العذاب. وقد يحدث أن يصاب رعمسيس برمية سهم تورده موارد الحتوف فيخلفه الوالي أني على عرش الملك فتتم السعادة وتنال راتوتي ما كانت تتمناه وزيادة. قال: لأربب ف أنك مصدر التدبير الصائب ومستودع الحكمة وصيدق النظر في العواقب. قالت: إنى على ثقة من أنك ستبسط لسيدتيك راتوتي ونيفرت وللوالي هذه التدابير الحكيمة منتحلا لنفسك فخار ابتكارها، ولكن لايذهب عنك انك إنما تتربع نصيحتي وتعمل بمشورتي وأن لي وحدى فضل الابتكار الذي سيقيلك من العثار. على أنه لا يمضى الغدحتى تنكر هذا الفضل الساطع وتدرجه ف طى النه يان كما لا ينقضى اليوم بعده حتى تعتقد أنك بأشعة عقول 'لآلهة التسعة تستنير ومن فيبوض حكمتهم وصادق إلهامهم تستمد القدرة على القيام بجلائل الأعمال.. وهذا اسا أنا به واثقة ولكن لايغرب عن بالك أنه لابد لهذه النصائح من ثمن، فإنما أعيش من ثمن نصيحة أقدمها أو رأى أشير به أو اقتراح ابتكره.. أما أنت فلك من قصرك ما يكفل لك أرغد العيش وأسنى الرزق كما يعيش غيرك بحدقه ف

الصناعة أو جلده على أعمال الزراعة. وإذا التقيت ببعاكر والقيت في روعه أن نيفرت تحبه حباً جما فبادر بمقابلة الوالي أني وخبره بأن في صدري سراً مكنونا يستطيع به استذلال بعاكر، وهو سر لا أبوح به إلا بثمن معلوم على شروط معينة. قال: ليس دون اخباره بمرادك عائق، ولكن ما الثمن الذي تطلبين؟ قالت: ثمنا زهيداً وهو وصية يكتبها بإعفائي من ضرائب الكهان والهياكل لاقضى ما بقى من عمرى فيما أشتهي ولابتني قبراً يليق بي بعد وفاتي. قال: أرجح ألا يوافقك الوالي على الطلب الأول لانه يتجنب في سياسته ما يمس بسلطة الكهنة، ميلا منه إلى مداراتهم ومحاسنتهم. قالت: .. ولانه يخالف أوامر رعمسيس أيضاً. على أنني لا أكلفه أمرا جديداً فقد سبق أن زودني رعمسيس وصية من هذا الطراز لقاء نجاحي في علاج جواده المحبوب، ولكن النار أكلتها فيما أكلت من متاعي حين صدر الأمر بإحراق بيتي الحقير لاتهامي بالسحر وبأن ما لدي من الادوات من عمل الشيطان، أما القبر فلا حاجة لي به الآن بعكس الوصية فإنه لا مناص لي منها بعد قليل من الزمان. قال: لا تجزعي فلابد لنا من الحصول على المأمول، وسأقصد إلى المقابر لتفقد القرابين ولاعام هل قدمت في الوقت المعين، فإذا لم تشتد وقدات القيظ ضحى هذا النهار فسأسلك هذا الطريق لاعود وردة وأزور جدها بينم وأبقي ساعة عنده.

الفصل الثالث عشر العواطف الكريمة في القلوب الرحيمة

كان نيمو يحادث أمه الساحرة حينما أخذ رجلان يغرسان أمام بيت المحنط أوتاداً طويلة نيطت بأطرافها خرق بالية. هذان الرجلان هما بينم وابنه الجندى الذي عاد حديثاً من الشام. وكان الشيخ يعزره لهذيه وثر ثرته ويطلب الصمت منه حتى لايروعها صوته الجهوري. فلما قضيا عملهما وضعا تحت الظلة المركبة من تلك الخرق والأوتاد شيئا من قش القمح جلسا عليه ولبثا زمنا يحددان البصر فى مدخل البيت حيث كان نبسشت ينتظر بذاهب الصبر انتباه الجريحة من نومها لمباشرة علاجها.

ولقد سأل الطبيب جدّ الفتاة عن الجندى الجالس إلى جانبه، وهـو شاب طويل شاحب اللـون غزير شعر اللحية، فأجـاب: هو ابنى، وقد ورد من الشـام منذ أيام. سأل: لعله والد وردة. فهز الجندى رأسه علامة الإيجاب ثم قال بصوت خافت: إن بعض الناس لا يسلمـون بأنى والدهـا لكونها بيضاء البشرة بينما لـونى أقرب إلى السواد، ولكن فليعلموا أن أمها أجنبية أورثتها لونها الأبيض المشرب بالحمرة. ولقد كنت لشغفى بحسنها الفتان أخشى أن تمس جسمها اللطيف أناملى فقضى القضاء أن تمر العجلة على صدرها الناصع. وإن تعجب فعجب أن تبقى على قيد الحياة مع قوة الصـدمة وما عانت من شـديد الآلام! عندئذ دنـا بينم من الطبيب وقال مشيراً إليه: لولا عناية هذا الأب المحترم لما عاشت ابنتنا، فجزاه الله خيرا تلقاء ما أجزله لنا من النعمة. فأبرز الجندى من نطاقه كيساً محشواً بالنقود وضرب عليه بيده قائلا: إنا وقد غنمنا الأموال الكثيرة من سـوريا نستطيع أن نوق الطبيب أجرته ونشترى

عجلا نقدمه قرباناً للآلهة. قال الطبيب: خير لك الاقتصار على تقديم مثال للعجل من عجين (١) وكفى به شهيدا على اعترافك بصنيعة الآلهة وصدق نياتك نصوهم. وما يبقى بالكيس بعد ذلك فسلمه إلى أبيك يقضى به حاجة ابنتك من غذاء ودواء.

فأخرج الجندى الكيس وأخذ يرمى به بين كفيه طرداً وعكساً كمن يعبث بأكرة اللعب قائلا: إنه ثقيل ومحشو بالمال فياليتنى انفقت ما فيه مع الإخوان في معاقرة بنت الدنان.. وحيث إنى أخطات هذه الفرصة فضده يا والدى لتنفقه في العناية بوالدتى وابنتى وردة. وفيما كان الشيخ يبسط يده لتسلم الكيس ويقبضها مترددا إذا بالجندى قد رفع يده إلى جبهته كمن يتذكر أمراً غاب عنه ففتح الكيس قائلا: دعنى يا أبت أخذ من المبلغ سبع أو ثمانى حلقات فإنى في هذا اليوم وأنا على موعد مع بعض الخلان للهو والطرب بأحد مجامع الجند يجب أن أترود اليسير من المال. وما أخذه من الكيس الآن إن هو إلا نفقتى الليلة وما يتبقى بعده فإنى في غنى عنه، فأشار نبسشت إشارة الموافقة على هذه القسمة وتلقى الجندى هذا الاستدسان بالشكر وقال له: وأرجو منك أيها الأب المحترم أن تالى الجريحة بعنايتك حتى يلتثم جرحها فقد مللت تقديم القرابين وليس عندى من المال ما أنفقه في هذا السبيل، واعلم أنى ما برحت متين القوى وافي الذراعين فإذا كنت بحاجة إلى من يساعدك على أعدائك فإنى مستعد لدفع أذاهم عنك ولو بلغوا العشرين عدا.. حياة بحياة.. أنت أنقذت من الموت حياة ابنتى وأنا أبذل في سبيل الدفاع عنك مهجتى.

⁽١) كان فقراء المصريين ممن لايقدرون على تقديم القرابين من الحيوانات الحية كالعجول والخنازير بصنعون ما يشبهها شكلا من العجين ثم يقدمونه إلى الهياكل بعد انضاجه، وتحتوى الآثار القديمة رسوماً عديدة تمثل تقديم هذه الحيوانات إلى الآلهة في المعابد والمقابر.

قال هذا وتشاول مدية كبيرة طفق يجرح بها ذراعه فيسيل الندم منها على حجر قريب من نبسشت، ثم قال: هذا هـ و برهان شكري لك وإعتراق بصنيعتك، وأو د أن تعلم أنى قد أصبحت بعد ذلك اتبع لك من ظلك، فمر بما أنت آمر فحياتي فداء لك. قال الطبيب متلعثما: إنني رجل صلح وسلام لا رجل حـرب وحسام، وحسبي هذا الشوب الكهنوتي الأبيض ضمينا بدفع شرور الأعداء اللئام.. والآن هل انتبهت مريضتنا من النوم يا تسرى؟ ثم قام ودخل في وجار المحنط فيوقع نظره على وردة ١ مطمئنة إلى جدتها، فلما تراءى لها حدقت فيه النظر بعينيها النزرقاوين. فقالت جدتها للطبيب: إن وردة تشتهي الخروج وقد نامت نوما طويلا هادئاً. فجس نبسشت نبضها وفحص جرحها، وكانوا قد وضعوا عليه أو راقاً حُضراء، فقال و قد بدت على وجهه عبلامات الفرح والاستبشار: من أعطباكم هذه الأوراق الطبية؟ فلم تحر جدة وردة جواباً ، فقالت وردة بتؤدة وسكون: وافتنا بها نيخت الساكنة هناك بالمغارة السوداء. قال نبسشت على عجل: نيخت الساحرة؟ لا بأس مع ذلك من بقاء هذه الأوراق في موضعها، فإنها لا تضر إذا لم تنفع. قالت العجوز: وقد تدوقت نيخت أيضاً الشراب الذي جهزته لـوردة فمدحته بقولها إنه جالب للشفاء. قال: حسن كل هذا وخير منه نقل الجريحة إلى خارج البيت لاستنشاق الهواء الطلق والتخلص من هذا الجو الثقيل فإنه لا تحتمله الرئتان. قالت وردة: إن تخرجوني من هـذا المكان فحسنا تفعلوا.. أيها الطبيب إنني مبتهجة بحضورك اليوم دون صاحبك الذي يعذبني بصياحه حينما يتلو التعازيم والرقي.

قال لبسشت: لعلك تريدين الأعمى تيتا، أما أنا فقد اعتزمت ألا أسحبه فطيبى نفساً وقرى عينا، غير أن الكاهن الذي كان يهدىء ثائرة جدّك يوم زارتك الأميرة بنت أنات سيحضر لبعودك اليوم، وهو رجل صادق النية حسن السريرة..فواجب

عليك.. فقاطعته قائلة: إذن سيحضر بنطاؤر؟ أجاب: نعم قبل ساعة الظهر.. ومن أين عرفت اسمه؟ أجابت من زمن مضى. فنظر إليها الطبيب مندهشا وقال: أمسكى! لا تتكلمى إنى أرى خديك قد علاهما الاحمرار وأخشى أن تعاودك الحمى.. والآن وقد جهزنا لك ظلة أمام الباب فلابد من حملك إليها. قالت: أمهلنى من فضلك! يا جدتى أرجو منك تسوية شعرى الذى ما عدت لكثرته أطيق حمله منا فاهت بهذه الكلمات حتى تناولت شعرها بملء يديها وشطرته غديرتين وأخذت تنقيه من القش الذى اختلط به لملامسته الأرض. قال الطبيب: الزمى السكون والسكوت يا وردة، وتجنبى كل ما يسبب لجسمك الاضطراب. قالت: أشعر بثقل هذا الشعر على رأسى. ثم رجت من جدتها أن تساعدها على تسويته، فدنت العجوز وأخذت ترجله بمشط غليظ من القرن فلما نقته من الشوائب جعلته ضفيرتين متساويتين أرسلتهما إلى كتفيها. وكان نبسشت يرى أن حركتها—وهى لاترال مريضة — قد تفضى إلى الخطر. وكان يود أن ينبه إلى ذلك من حولها من النساء فلم عطاوعه لسانه على الكلام ، لما اعتراه من الدهشة حينما نظر إلى وردة في روعة عمالها فافتتن بها قليه وطار لبه.

أما وردة فلم تكن ملتفتة إليه حينما انتهبته هذه العواطف، لأنها طلبت من جدتها أن توافيها بالمراة فناولتها العجوز قطعة فخار مدهونة بطلاء لامع فتراءت الفتاة فيها بعد أن جعلتها مقابل الضوء ولبثت برهة تتأمل في ذاتها ثم قالت: مضى زمن طويل لم أشم فيه أريج الأزهار. فقالت لها: عليك بالصبريا ابنتي. ثم عمدت إلى إناء فانتشلت منه الوردة التي كانت بنت أنات وضعتها على صدرها حينما سقطت لوجهها وأغمى عليها وقدمتها إليها، فما مستها بأناملها حتى تساقطت أوراقها الذابلة منتثرة حولها، فسارع الطبيب إلى التقاطها ورقة ورقة ورقة وقد مها إليها. فنظرت

إليه مبت ممة وقالت: أشكر لك صنيعتك، وأخبرك أننى كهذه النزهرة أسمى وردة وأحب الورد والنسيم العليل، فهل تخرجوا بى من هذا المكان؟ فأشار نبسشت إلى بينم أن يستعين بابنه على نقل الفتاة وأن يترفقا بها في ذلك، فصدعا بأمره ووضعاها بالمكان المعد لها تحت الظلة وكان الجندى ترتعد فرائصه وتضطرب يداه المدمجتا المفاصل وهو يحمل ابنته خوفا عليها من أن ينتابها ألم، فلما تم وضعها بذلك المكان بدت عليه علامات الغبطة والارتياح، إذ لم يقع ما كان يخشاه. أما هى فتلفتت يمنة ويسرة حتى وقف بصرها على بعض الأشجار فقالت: ما أنضر هذه الأشجار وما أصفى أديم السماء! يظهر لى أن جدى قد عنى بريها وتشذيبها. وها هى الحمائم قد هبطت من الجو وأخذت تحلق حولى فأئتنى ببعض حبات القمع يا جدتى لتلتقطها في حضرتي فتضاعف بذلك مسرتي.

أخدت هذه الحمائم المطوقة الناعمة الريش تحوّم حول وردة وتتسابق إلى التقاط ما كانت تلقيه يدها السخية من الحبوب. وكثيراً ما كانت تمسك الحبة لها بشفتيها فتنحط الواحدة منها عليها لتخطفها من بينهما بسرعة ولطف. وكان نبسشت يجيل النظر في هذا المنظر البديع فيروّعه حسنه وتترامى الآفاق أمامه إلى أبعد مدى فيستشف منها ما يهديه إلى الاعتقاد بوجود عضو في بحبوحة صدره ينفعل بمؤثرات طالما غاب عنه إدراك كنهها، ثم استوى جالساً على الرمل وأخذ يفحص الشرى بطرف قضيب فحصاً تجلى عن صورة وردة زاهية بسوقها وأوراقها.

وكان السكون ضارباً فسطاطه على تلك الأرجاء، فأوت الحمائم إلى الظلة، وما هي إلا برهة اشتد فيها نباح كلب بينم إيذانا بقدوم قادم حتى طمح بصر وردة إلى

الطريق وصاحت قائلة: جدتى! ها قد أقبل الكاهن بنطاؤر. سألت: ومن أخبرك بمجيئه؟ أجابت: إنى موقنة ما أخبرتك به. وما هو إلا مر الطيف حتى طرق الآذان صوت قائل يقول: «السلام والبركة عليكم.. كيف حال مريضتنا اليوم؟» . وكان بنطاؤر صاحب الصوت، فشرح نبسشت له حالتها، فدنا بنطاؤر منها متهلل الوجه. وكان يحمل طاقة أزهار ساطعة الأرج أخذها من مذبح الإلهة هاتور التى جعله أمينى في اليوم السابق كاهنا لهيكلها فقدمها إلى الفتاة، وقد علت رجهه حمرة الخجل، وقال لها: إن الإلهة العظيمة التى توليت خدمة هيكلها بعثت إليك هذه الخمافية، فتشبهى بها إذن وتحلى بخصالها الشريفة من طهر وعفاف ورقة وانعطاف، ليكون لك من النفوذ ما لها. وكما أن أشعتها الساطعة تبدد المتكاثف من الظلمات على أفق الكائنات، ينبغى أن تكونى لهذا البيت الصغير سراجاً وهاجاً وبدراً منيراً. وكما أنها ما وطئت من الأرض مكانا إلا ونمت فيه الأزهار الطيبة الشذى، فلابد لك من التحلى بمطرف العفاف والصون لتتفجر ينابيع الحب الطاهر الصادق من مواطىء قدميك(١)، وإنى استنزل عليك بركاتها واستهطل خيراتها ونفحاتها.

قال ذلك وأخذ يجيل النظر في والدها وجدها ثم تحفر للانصراف فإذا بصوت استغاثة ارتفع من خلال أعواد الذرة المزروعة على مقربة من المكان الذي ما كادت تردد جوانبه هذا الصوت حتى تجلى لأنظار الحاضرين شبح غلام صغير رافعاً يده إلى أعلى ما استطاع، وفيها فطيرة يظهر من تقوس جزء من أطرافها أن كلباً دهمه فقضمها، وأن هذا هو علة ارتفاع صوته بالاستغاثة. فما راه الحاضرون وتبين فقضمها، وأن هذا هو علة ارتفاع صوته بالاستغاثة. فما راه الحاضرون وتبين (١) كان أهالى دندرة يسمون هاتور بالإلهة ذات الاقدام الذهبية، وهي تقابل أفروديت إلهة الجمال عند اليونان.

لبينم أنه الطفل الذي تعذبه العجوز بوضعه في الأداة الخشبية ليكون من الأقزام حتى سأله: ما خبرك يا (شراعو)؟ ومن جاء بك إلى هنا؟، أجاب والدموع تنحدر من عينيه: جسّت بهذه الفطيرة لوردة، فقد وصلنى خبر مرضها. وأنا أيضاً مريض فقربه المحنط منه وقبّله بين عينيه قائلا: لك أن تهدى ما شئت إلى وردة. فتهال وجه شراعو بشراً وطلاقة ثم اتجه مسرعا نحو وردة وقال لها بعد أن جثا أمامها على ركبتيه: إليك هذه الفطيرة.. فإنها لذيذة الطعم سكرية المذاق.. وسأهدى إليك أمثالها كلما سمحت لى نيخت بذلك. قالت: أشكر لك يا شراعو هذه الرعاية. ثم قبّلته بين عينيه، ونظرت إلى بنطاؤر قائلة: هذا الطفل المسكين قد مضت عليه أسابيع ولا طعام يقتات به سوى جذور البردى(١) والنيلوفر الأزرق(٢)، ومع هذا فإنه يجيئنى اليوم بالفطيرة التى أهدتها جدتى أمس إلى العجوز نيخت.

فاحمر وجه الطفل حياء ثم قال متلعثما: لم أقدم إليك إلا نصف الفطيرة ولكن ثقى أنى لم أذق طعمها، لأن كلبكم هو الذى أكبل النصف الآخر بعد أن دهمنى وأنا مستتر بأعواد الذرة انتظر انصراف الأجانب من بين يديك لأستطيع تقديمها إليك. وقد أراد بالأجانب بنطاؤر ونبسشت، قال ذلك وانصرف عائداً :فأمسك بنطاؤر به ورفعه بين يديه ليقبله بين عينيه وقال الطبيب له: بارك الله فيك أيها المسكين (١) قال هيرودت وديودورس الصقل وبليناس المؤرخون إن المحريين كانوا ياكلون جذور شجر البردى وسرقها بعد تجفيفها على النار.

⁽٢) كان المصريون يسحقون نبوى النيلوفر الأزرق الذى يشبه الخشخاش ويتخذون منه خبزا غليظا يأكله فريق منهم (انظر تاريخ هيرودت). ويؤخذ من أقوال المؤرخين ومما هو مسطور على الآثار أن البردى والنيلوف الأزرق كانا من النباتات الشائعة الزراعة في مصر، وكانا يصلحان لغذاء الفقراء. وأكد ديودورس أن الرجل يغذى ابنه من هذين النباتين حتى يبلغ العشرين من عمره فلا يكلفه سوى عشرين درهما أى ٧٣قرشاً.

وجزاك خير الجزاء على حرمانك نفسك التمتع بما تشتهى. نعم إنك لن تصير من المشريان إذا دأبت على الخلق الكريام، ولكن قلبك سيصبح كناز يحوى نفائس الخصال ومحاسن الشيم، فألصق شراعو صدره بصدر بنطاؤر ووضع وجهه بين كفيه كالرجل الكبير يداعب الطفل الصغير وأغرورقت عيناه ثم انحدرت دموعه على صدر بنطاؤر الذي لم يسعه إلا أن أنزله إلى الأرض وتركه يركض حثيثاً في الوادى نحو مغارة العجوز الساحرة، فما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى وقف بغتة إذ كانت الشمس في كبد السماء. فحدثته نفسه بأنه إن ذهب إلى المفارة وضعته الساحرة على خشبة التعذيب، فاستحسن أن يتعداها إلى حيث مئات العمال يشتغلون بإنشاء قبر للملك رعمسيس وأن يقضى في التفرج عليهم بضع ساعات ثم يعود فيذوق آلام العذاب.

وكان على مقربة من هذا البناء الضخم كوخ من سعف النخل اعتاد النقاش الشهير (بتاؤ) أن يقضى فيه ساعات الفراغ من العمل لالتماس الراحة، وكان هذا النقاش أصم، إلا أن شهرته بإتقان فن النقش انتشرت في الآفاق فأصبح في عداد كبار الرجال الذين تشد إليهم الرحال، فهو الذي نقش الكتابات والرسوم الهيروغليفية على المبانى الباذخة التي شادها الملك سيتى الأول في أبيدوس وطيبة وأبدع في تنميق قبر هذا الملك الجليل القدر وابتكر الرسوم الجميلة المثلة لوقائع الحروب ومناظر الأعياد والحفلات على جدار قبر رعمسيس الثاني.

ما بلغ شراعي إلى هذا المكان حتى أخذ يدخل الكوخ ويخرج منه ويكرر ذلك حتى لا يشعر به بتاؤ. وكان فى كل مرة يجيل النظر فى أعماله ممعنا، ففاجأه هذا النقاش ذات يوم وهد يصنع من الطين تماثيل بأشكال الدرجال والحيوانات، فأخذ بعض

هذه التماثيل وأمعن فيها النظر ثم أعادها إليه باسما بسمة الاستحسان. ومنذ هذا اليوم تأكدت روابط المودة بينهما واشتد ميلهما بعضهما إلى بعض، فكان شراعو يتردد عليه كل يوم ويجتهد في تقليد الأعمال الدقيقة التي يتمها بتاؤ في الهيكل. وكان هذا النقاش يمسك عادة عن محادثته، وإنما كان إذا لاح له نقص في عمله أصلحه له أو أتمه ثم سلمه إليه مبتسما ومستحسنا. وكان إذا لم يحضر شراعو كعادته شعر بتاؤ بانقباض في صدره وقلق في خاطره لما كان يحسه من الارتياح لوجوده عنده ساعة يتلقى عنه فيها علم ما لم يعلم من ضروب النقش والتصوير. وكان بتاؤ يقدم إليه كلم حضر قطعة من الطين الصالح لصناعة التماثيل، فيأخذها بعه إلى مغارة العجوز ويرتقب انصرافها عنه ليصنع من التماثيل أنواعاً شتى وأشكالاً متباينة. وكان اشتغاله بها ينسيه ما يلقاه من العذاب في آلة تقصير القوام ليكون من الأقزام.

الفصل الرابع عشر لا تحرك الثعبان إذا نام.. ولا الكاهن إذا تناول الطعام

برح بنطاؤر بيت المحنط وسار مفكراً في طريق الصحراء المؤدى إلى الهيكل الذي يتولى إدارته، وكان يضرب أخماسا في أسداس ويتوقع الاحتكاك بصعوبات جمة في سبيل إدارة هذا الهيكل(١) الذي شادته حاتاسو(٢) للإلهة هاتور. وكان للكهان القائمين عليه امتيازات خاصة يتناقلونها بالوراثة، من أهمها أنهم يرشحون للرياسة واحداً منهم. وكان رئيسهم السابق (روني) في نزاع الموت فراى أميني صاحب الحق في الإشراف على كهنة هذا الهيكل أن يعين بنطاؤر رئيساً عليهم بدون أن يستشيرهم في أمره، فكبر عليهم هذا التصرف وأصروا على مناوأة الرئيس الجديد، وعقدوا عليها نياتهم إلى حد أنه لما تسلم مقاليد الرئاسة لم يلق منهم غير الإهانة والتحقير. وقد زادوا على ذلك أن استظهروا بمعصيته على طاعته وبباطلهم على حقه لاسيما وقد أنسوا منه الصلابة في الحق والميل إلى الإصلاح. وكان من المفاسد الشائعة بينهم والمنغرزة في طباعهم التهاون في العمل والركون إلى البطالة والكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون والكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون بالكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون بالكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون بالكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون بالكسل حتى بلغ من أمرهم في ذلك أن ترخصوا في فروض الدين وصاروا لايؤدون بان صلاة الصبح المفروضة لفتاح إله الشمس، فقضى بنطاؤر لرتق هذه الفتوق بأن

⁽١) لايزال هذا الهيكل موجودا إلى الآن بشكله الأول دون أن يعتوره خلل. وقد أورد دوميشن فى كتاب لبسيوس كتابه الموسوم هذا الهيكل ونقوشه. وجاء فى كتاب لبسيوس شرح ضاف هذا الأثر القديم.

⁽٢) حاتاسي هي ابنة تحتمس الأول وقد تزوجت بأخيها تحتمس الثاني وعينت وصية لأخيها تحتمس الثالث، وقد اشتهرت بسمو الهمة ومضاء العزيمة. وفي عهدها أنشئت أعمال كثيرة عادت على جميع الأهالي بالمنافع العامة. وقد أمرت أن يصورها النقاشون بلباس الرجل ولحيته.

يبكر صغيرو السن منهم بترتيل الأناشيد لينبهوا كبارهم إلى قضاء حق الواجب عليهم. وكانوا فيما عدا ذلك يتجرون بالتحف النادرة التي تهدى لهاتور فأصدر أوامره الصارم؟ بالحرص عليها وحفظها وعدم التصرف فيها، كما حال أيضاً دون احتكاكهم بالنساء اللائي يحضرن من أقاصى القطر أسرابا متتالية وشتاتا لزيارة هذا الهيكل والتبرك بصاحبته العبودة ذات المناقب العديدة.

وكان بنطاؤر قويم الخلق عفّ النفس شغوفا بالترتيب والنظام شديد الوطأة على أهل الكسل مبغضاً للبهتان والكذب. فلما عُين كاهنا أعظم لهيكل حاتاسو ورأى في رجاله نقيض هذه الصفات الفاضلة على خط مستقيم انتوى إصلاح حالهم وتقويم المعوج من أمورهم وإيقاظهم من غفلتهم واستفزازهم إلى إحراز قصب السبق في ميدان الكد والعمل، لعلمه أنه لو نفض أولئك الكهنة غبار الدعة والسكون وقاموا بواجباتهم وأدوا أعمالهم الموكولة إليهم لنفعوا العامة وأصابوا الغرض الذي لأجله انتظموا في سلك الكهنوت، وهو تخفيف ويلات المنكوبين وايتاء الصدقة للفقراء والمساكين.

وما مر عليه اليوم الأول في رياسة كهنة ذلك الهيكل حتى تبين طباعهم واستبطن أخلاقهم وعداداتهم، بما تبجحوا أمامه به من الغطرسة والزهو والتيه وتعمدوه من الإغضاء والإهمال في حق امرأة ذليلة جاءت تشكو بثها من زوح عاملها بالحرمان والهجر وأخرى في عنفوان الشباب غرر بها مغرر حتى أخرجها من عصمة ربها وثالثة تندب سوء حظها لما أصابها من العقم ورابعة انزعج خاطرها على ولدها وفلذة كبدها فجاءت تلتمس طمأنينة النفس وخامسة من الأيامي طلبت أن تطفىء لوعتها بالعراء الجميل والسلوان. فقد رأى أن أولئك

الكهان بدلا من أدائهم مفروض الواجب يبالغون فى احتقار تلك النسوة أو يهتمون بابتزاز المال منهن أو يعهدون إليهن بيع الهدايا والتحف النفيسة المقدمة للإلهة هاتور ويختصون أنفسهم بأثمانها.

وكان بنطاؤر قد دنا من الهيكل ، وملء رأسه الأفكار والهواجس، فحانت منه إليه التفاتة صوّرت له هذا المعبد في شكل أنيق ومنظر بهيج، إذ كان عبارة عن أربع بنايات تبدو لعين الناظر متصلة بمنحدر الصخور التي تناطح قممها السحاب ارتفاعا وعلى حافات سطوحها تماثيل كبيرة من النسور تمثل الإله حورس وتشير إلى الاعتقاد في الإله الحق الذي يحيى العظام وهي رميم ويبث في الاغصان الجافة ماء النضرة والحياة.

وكانت كل بناية من البنايات الأربع عبارة عن بهو فسيح الجوانب تستوى سقوفه على اثنين وعشرين عموداً (١) وتتغطى جدرانه بنقوش تخلد ذكرى عهد الملكة حاتاسو وما امتاز به من رغد العيش واستقرار الأمن وعزة الجانب وامتداد السلاطن، ومن إنفاذ الدوننمة المصرية إلى بلاد العرب لفتحها $(^{7})$, وبيان ما قامت به من جليل الأعمال كجلبها من عجائب الشرق وتحفه كل نادر ومستغرب وأنواع سكانه وحيوانه ومساكنه وصنوف أسماك البحر الأحمر $(^{7})$. أما البنايتان الثالثة

⁽١) هذه الأعمدة مضلعة، وقد صنعت في الأصل لتزيين قبسور العائلة الثانية عشرة، تم استعملها ملوك العائلتين السابعة عشرة والثامنة عشرة في مبانيهم الدينية والمدنية.

⁽٢) نقل مارييت باشا من نقوش أعمدة هيكل الكرنك أسماء الشعوب الذين قهرهم الملك تحتمس الثالث، ولاسيما في الحملة البحرية التي وصل المصريون فيها إلى شواطىء أفريقية الشرقية أي أراضي بلاد الصومال.

⁽٣) وصفها الدكتور دونتز وصفا دقيقا في كتاب له وأورد رسمها يدقة كذلك .

والرابعة فمؤلفتان من غرف أبوابها من الحجر الأعبل. وقد تم بناؤهما في أيام حاتاسو وأخويها تحتمس الثانى وتحتمس الثالث. وهما قريبتان من البنايتين الأولى والثانية وكانتا خاصتين بالتطهير وعبادة التماثيل المثلة للإلهة هاتور ويتقديم القرابين لروح الملكة حاتاسو، وبإحداهما مكان الكاهن المنوط به تلقى الاعتراف ممن يحرزون فضل الدخول لأداء فروض العبادة فيهما. أما البقرة المقدسة فكان لها مكان خاص إلى يمين الداخل في المعبد.

فلما وصل بنطاق (إلى المدخل الاكبر للبناية الأولى من هيكل حاتاسو شهد منظراً ازعجه وأثار غضبه. ذلك أن امرأة كانت تستأذن في الدخول إلى مكان الصلاة الاستنزال الرحمات بصالح الدعوات على زوجها المريض، فانفتل إليها البواب وكان رجلا بدين الجثة قبيح السحنة فدعها عن الباب بعنف ونهرها وقال لها مستهزئا ومشيراً بأصبعه إلى الكتابة المنقوشة عليه: انظرى هذه الكتابة، فقد جاء فيها أنه لا يتجاوز عتبة هذا الهيكل إلا من كان طاهراً من الدنس. والتطهير لا يكون إلا بالبخور. قالت المرأة المسكينة ملحفة في الطلب: حرك مبخرتك وخذ هذه الحلقة الفضية في مقابل صنيعتك، واعلم أننى لا أملك سواها. صاح الكاهن مغضباً: هذه الحلقة المقضة!. أتريدين بها أن تهبط الآلهة من علوة مجدها وسامى مكانتها التقضى حاجة بنفسك؟ أما علمت أن حبوب (ألانتا) الصالحة للتطهير تساوى من التمن عشرة أمثال ما تعطينني من المال؟.. قالت المرأة. قلت لك إننى لا أملك غير هذه الحلقة لأن زوجى الذي جئت لاستنزال الرحمات عليه مريض ولا يستطيع العمل الحقق بسد مطالبك الأمل، دع أن أولادى.. فقاطعها بقوله: أتريدين أن تسمنى أولادك على حساب الآلهة؟.. اعطنى ثلاث حلقات. وإلا أقفلت دونك هذا الباب. قالت المرأة باكية: كن رحيما بي.. لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل المائية؛ كن رحيما بي.. لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل المرأة باكية: كن رحيما بي.. لا أدرى ما أصنع إذا لم ترض هاتور عن زوجى العليل

وتمنحه رعايتها. قال الكاهن: أو تظنين أن إلهتنا سترسل إليه الأطباء لمعالجته؟ أوما علمت أز له يها من الأعمال ما يصرفها عن العناية بالمرضى الذين يموتون جوعاً؟.. اعلمى أن ليس من مناقبها شفاء المرضى، فيحسن بك إذن أن تقابلى (أمحوتب) و (خون) صاحب المشروعات أو (تيشوتى) المنوط بها مساعدة المرضى (١) وإلا فلسنا ممن يبيعون الأدوية والعقاقير. قالت وقد أخذتها العبرة: إن أقصى مرادى التعزى على مصابى و تخفيف الامى وأوصابى، فتبسم البواب وأطال النظرة فى المرأة، وكانت على جملة من الحسن وريعان الشباب، فقال: أتريدين التعزى على مصابك و تخفيف الامك وأوصابك؟ إن التعزبة التى تريدين بضاعة لا تكلفك شيئاً من المال.

فما استأذنت هذه الكلمات على سمع المرأة حتى اصغر وجهها ودفعت البواب بعنف عنها. وكان قد أخذ بتلابيبها وشهد بنطاؤر فعله الذميم فثار فيه الغضب ولم تكن إلا طرفة العين حتى توسطهما، فاندهشا لظهوره على حين غرة ورفع هو يده ليبارك في الزوجة الحزينة التي جثت أمامه على ركبتيها وقال: إن الإلهة هاتور تأذن لمن يستغيث بها ويبتهل إليها أن يدنو منها. واعلمي أيتها المرأة أنك طاهرة ولك أن تدخلي معبدها. فنهضت المرأة واقفة ثم انطلقت مهرولة إلى ناحية الباب بينما كان

⁽۱) امحوتب بن فتاح، وكان قدماء اليونان يسمونه اسكليبوس، وكانت مدينة منفيس مقر عبادته، وكان يمثل جالسا وبيده كتاب وعليه ما يغطى رأسه، وتوجد جملة من تماثيله في برلين ومتحف اللوفر ومتحف الجيزة، ويملك القس هاهرون الروسى تمثالا جميلا له

أما خون فأحد معبودات طيبة الثلاثة، وقد أرسل تمثاله إلى آسيا في عهد العائلة العشرين لينقذ من الشيطان ابنة أحد ملوكها، وجاء في كتاب «الأثر الجليل لقدماء وادى النيل» بيان هذه الحادثة بالتفصيل (صفحات ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥)

بنطاؤر يلتفت إلى البواب ويوبضه على فعله بقوله: أبمثل هذا تخدمون الإلهة هاتبور؟.. أبمثل هذا تخففون ويلات المنكوبين وتتصدقون على بنى الإنسان بالبر والإحسان؟.. أنت معزول عن عملك فاعطنى مفاتيح الباب، وبكّر من غدك إلى المرعى لحراسة أوز الإلهة هاتور.

فترامى البواب على قدمى بنطاؤر باكيا منتحباً ، فلم ينثن عن عزمه ولم يرث لحاله بل ولى عنه بكتفيه وصعد ببطء إلى المكان المعد لإقامته بأعلى البناية الرابعة. وكان كلما التقى بطائفة من الكهان أعرضوا عنه إما بغض الطرف أو الالتفات إلى ناحية أخرى، ذلك لأنهم تألبوا عليه وتحزبوا ضده لاعتبارهم إياه دخيلا فيهم. فلما وصل إلى حجرته المفروشة بأحسن الأثاث وأفخر الرياش، خلع ملابسه ولبس الحلة الكهنوتية. ثم أخذ يفكر في مركزه الشاذ إزاء أولئك الكهان ويقيس حاضره بغابره ويبين مقدار الفرق بينهما، فاستنتج من المقارنة أن حكم أميني عليه بالنقل إلى هذا المكان كان حكما صارماً، لأنه كان في بيت سيتى مرموق المنزلة ومحترماً من الأساتذة والطلاب. أما في هذا الهيكل فقد أصبح بين نارين: الضجر والضغينة، لأنه كان إذا سار في فناء هيكل سيتى هرع إليه الطلاب من كل فج ومكان وأحاطوا به إصاطة الهالة بالقمر وأخذ يطارحهم الحديث في العلوم والمعارف فيزداد بهذه المطارحة رسوخاً في العلم وسعة في الاطلاع والفهم.

وكان يناجى نفسه بقوله «إن الإنسان ميال بطبعه إلى كل جديد طلى إلا أنه يتعذر عليه التنحى عن العادات التي شب عليها». ثم سرح الطرف في حوادث اليومين الماضيين فمثلت له بنت أنات بشكل أخذت حقائقه تبدو بما استهوى فؤاده وملك قياده. وكان قلبه في هذه الأثناء مترادف الخفقان شديد التأثر والانفعال، كما

كان عقله محلقاً في سماء التأملات الخيالية، فتدذكر ما قالته الأميرة من اعتزامها سلوك منهجه واقتقاء اثره وتساءل عم إذا كان أهلا لأن يكون لها مرشداً ودليلا. ثم انتقل من هذه الدذكرى إلى ما كان من إفشائه الأسرار الدينية وانكاره الطقوس والعادات الكهنوتية، ولكنه راجع نفسه بالتساؤل عن الذنب الذى جناه إذا كان الغرض الذى رمى إليه بإذاعة الأسرار جلاء المبهم من الحقائق وسلموع الأنوار؟ وأية إساءة تعاب على الإنسان إذا اعتقد بحقيقة يراها في كفة الرجحان؟ ثم استرسل في هذه التصورات استرسالا حمله على اعتزام الثبات في عقيدته ومداومة السير في طريقته، فلما هذا باله وسكن روعه خرج إلى سطح الهيكل مرتاح الضمير مصراً على دعوة الكهان إلى تأييد الحق وازهاق الباطل، وأضد يتناجى بقوله.. « ما هو الجنس البشرى؟ إن أمهاتنا تلدننا فنقبل على هذا العالم ورائدنا الآلام والاسقام، وندبر عنه تاركين خلفنا الأحزان والأكدار.. أفلا يكون من الواجب المحتوم علينا— ونحن بين المهد واللحد— أن نقوم بتسكين الآلام ومعالجة الأسقام وإزاحة الأتراح؟ وإذا رأينا دموعا تنهمل فلم لا نبادر بتسلية الباكين وإيداع الفرح والرجاء في قلوب العانين حتى يكفكف وا الدموع المنحدرة على خدودهم؟ إن هذا هو الوجب، وأداؤه علينا ضرية لازب».

لم يلتق بنطاؤر بأحد في طريقه لأن الكهان كانوا قد احتفوا بالبواب ليسمعوا منه ما اتفق له مع رئيسهم على الباب وليتدبروا الوسائل لنكايته، فلما شهدهم ملتئمين تقدم نحوهم بقدم شابتة وقال: لقد عزلت هذا السرجل عن خدمة الهيكل، إذ في بقائه بيننا العار الفاضح والوصمة التي لا تمحى أبد الدهر. قال البواب بصوت المتبجح بعد أن تصفح وجوه الكهان بما يدل على ما بينهم من الاتفاق والتامر: سأبرح على الفور هذا المقام قاصداً الكاهن الأعظم أميني لأسأله أيجوز للمدنسين الدخول في

الهيكل الطاهر المقدس. ثم دنا من الباب فاعترضه بنطاؤر قائلا: ستبقى هنا اليوم والغد وبعد الغد والمدة التى أريدها، فإذا لم تسنح فرصة للعفو عنك فلابد من صرفك لحراسة الأوز. فأرسل البواب إلى الكهان نظرة المستفهم الحائر فبهشوا جميعاً ولم تبد من أحدهم حركة كأنهم الخشب المسندة أو التماثيل الجامدة. وإذ رأى بنطاؤر ذلك منهم قال للبواب: عُد إلى مكانك. فلم يسعه إلا إطاعة الأمر. فأغلق بنطاؤر الهيكل وسلّم مفتاحه إلى بعض الخدم قائلا له: لقد جعلتك في حراسة الباب بدلا من هذا الرجل، وكن عيناً عليه حتى لايفر من هذا المكان وإلا قضيت عليك مثله بحراسة الأوز.

ثم التفت إلى الكهنة وقسال: أنتم ترون أيها الأصدقاء أن الهيكل قد غص بالعابدين وأنهم متجهون إلى الإله بقلوبهم، يستدرون بركاته بصلواتهم، فأهرعوا إلى أداء واجباتكم الدينية. أما أنا فسأذهب إلى غرفة الاعتراف لسماع بث الشاكين وتفريج هموم المنكوبين.

فتفرق الكهان شتاتاً فى كل مكان، وصعد بنطاؤر فى الدرج قاصداً إلى محل الاعتراف الذى كانت صورة حاتاسو مرسومة على جداره تستدر لبن الحياة الأبدية من ضرع بقرة هاتور. وما كاد يصل إليه ويسدل على بابه الستار حتى جاءه النيكور (فريق من الكهان) فأخبره بوصول سيدة تبدو عليها أمارات الحسب والجاه، وأنها تلتمس الدخول إلى محل الاعتراف وأنها وأتباعها متنكرون بحيث لا يستطيع التعرف عليهم أحد، ثم قدّم إليه العلامة الرمزية التى أطلع الكاهن الأعظم هذه السيدة عليها لتستطيع بواستطها الدخول فى الهياكل المقدسة. فوقف بنطاؤر خلف السيدة عليها لتستطيع بواستطها الدخول فى الهياكل المقدسة. فوقف بنطاؤر

إليه وهو ف بيت سيتى استقبال الأميرات والأمراء العظام لتفسير ما يرونه من الأحلام.

ولم تكن إلا جولة الخاطر حتى أقبلت سيدة رشيقة القوام سارت مندفعة نحو غرفة الاعتراف ولزمت الصمت، ثم جثت على ركبتيها أمام المعبودة هاتور في وضع يدل على الطاعة والخشوع. أما بنطاق رالذي كان وقتئذ خلف الستار، فقد بسط يديه بالدعاء إلى فاطر السماء أن يؤيده بروح منه ويثبته على الطهر والنزاهة. وما أتم دعاءه حتى رفعت السيدة رأسها فخيل للناظر أنهما سواء ف التجرد عن المحسوسات الكونية والتوجه بقلبيهما إلى المقاصد العلوية، ووقفت السيدة بعد ذلك حاسرة النقاب عن وجهها فاذا هي بنت أنات جاء بها إلى هيكل المعبودة هاتور قلق تسلط على الفؤاد فسلبها لذة الرقاد، وقد خاطبت المعبودة بقولها: يا ملكة السموات يا زاهية الطلعة يا صاحبة الأسماء العديدة.. المعبودة هاتور.. أنت المطلعة على أسرار السعادة والشقاء والأفسراح والاتسراح، أنت التي أحساط علمك بحوادث الحال والاستقبال، اقتربي من ابنتك واهدى عقلها الحائر إلى قصد السبيل والمثل الأعلى للحق والصواب. إنى أكرم ابنة لأكرم أب في هذه الديار، بل أقرب الناس عند المقارنة إلى مكانة الربوبية. دعاني هذا الوالد الكريم إلى الاقتران برجل لا يهواه فؤادى ولا تحن إليه جوارحى، ولم يكن طلبه هذا لزاماً إذ خولني حق الرفض والقبول وكانت محاسن الاتفاق قد ساقت إلى طريقي رجل اخر، إن يكن وضيع الأصل خامل الذكر فهو رفيع الهمة رحيم القلب متوقد القريحة..

وكان بنطاؤر منصرفاً عنها بتلاوة الدعاء، فلما بلغت من المناجاة إلى هذا الحد وأدرك أنه هو القصود بها، أخذ يفكر أيجوز له البقاء في مخبأه لاستقصاء ما يكنه صدرها من الأسرار أو البروز من خلف الستار حتى لا تفوه بعد الذي أبدته بما لا

تود إطلاع الغير عليه، فآثر البقاء قليلا حتى تنطق باسمه أجمل أميرة وأشرف أمرأة في الأمة المصرية، غير أنه هتف به هاتف يقول له «خذ حذرك يا هذا ولا تدع تلك التي أوليتها خلص حبك تفوه بكلمة تفضى بها إلى الاستحياء منك إن فهمت أنك كنت آذنا لمناجاتها من وراء ستار» فاتبع نصيحة الهاتف إذ بادر في الحال بفتح الستار والتقدم نحو بنت أنات بقدم الحزم والثبات.

ما وقف نظر الأميرة عليه حتى عراها وله فتراجعت إلى الخلف قائلة: يا لله.. من أنت؟ ومن أين أنصببت على انت بنطاؤر أم إله من آلهة هذا الهيكل؟ أجاب: كلا بل أنا بنطاؤر.. أنا المحب لخير الناس وبرهم على ما بى من ضعف وعجز.. أنا الراجى منك البقاء في هذا المكان حيث لا أثر للمخاوف والأحزان.. افتحى قلبك للإلهة هاتور وثقى أننى سأقضى حياتى كلها في الدعاء لك واستمطار غيوث الرعاية الربانية عليك. وكان بنطاؤر يتناولها بنظره وينصرف إليها بلبه وفؤاده، وإنه لكذلك إذ حانت منه التفاتة إلى باب السر، لمكان الاعتراف فذهب مهرولا نحوه كما لو توقع خطراً على نفسه، فصوتت به بنت أنات فأقبل عليها متباطىء فقالت: لا أريد وأنا ابنة رعمسيس الجهر بحقيقة ذاتى ولا المطالبة بالمفروض من احترامي، وإنما باعتبار كونى الفتاة بنت أنات أخبرك بأننى لم أتوقع رؤيتك في هذا المكان بدلا من باشيخ رونى الذي جئت أسارة في أمرى وأفضى إليه بما في صدرى. وحيث إنه من هذا قد مضى فدعنى أتم صلواتى وأوجه إلى الإلهة دعواتى.

ثم جثت على ركبتيها وخرج بنطاؤر، فلما أتمت الصلاة برحت المعبد. وكان قد طرق أذنيها دوى شديد وجلبة عظيمة من ناحية الجنوب فأطلت من الشرفة لاستطلاع السبب، فسمعت أفواج الشبان ينادون: ليحيا بنطاؤر! ولم يكن إلا مر الطيف حتى أقبى الشاعر مسرعا ووقف إلى جنب بنت أنات، فما بصرت به جموع

المتظاهرين حتى ضاعفوا الهتاف قائلين: بورك ف بنطاؤر! يقوى بنطاؤر! هو مولانا وسيدنا! عُد إلى بيت سيتى! ليسقط الظالمون! ليهلك المعتدون!

وكان راميري شقيق بنت أنات في طليعة الطلبة المتظاهرين الذبن لم يكن احتشادهم نتيجة اتفاق سابق بل جاء من طريق المادفة، لأنهم ما كادوا يقفون على خبر نفى أستاذهم من لسان الأمير حتى تسللوا من الهيكل بعضهم في أثر بعض وتركوا الدرس بتحريضه وإغرائه ثم تدفقوا بقضهم وقضيضهم إلى فناء الهيكل للقيام بتلك المظاهرة الولائية الدالة على مكانة بنطاؤر من نفوسهم. ولما وصلوا قبال الشرفة أشار راميري إلى أخته إشارة الفرح بالانتصار والفوز، ووقف الشاب أنانا أمام زملائه الطلاب فألقى خطبة فصيحة العبارة بليغة المعانى أبان فيها أنه ورفاقه قد عقدوا النية على مغادرة بيت سيتي إذا لم يلغ أميني أمره الأول القاضي بإنعاد أستاذهم وحرمانهم الاستفادة بثمار معارفه اليانعة. قال هذا بذلاقة لسان لم تتمالك معها بنت أنات من أن تصفق بيدها على اليد الأخرى إعجابا واستحساناً. أما بنطاؤر فقد كان وجهه يتربد ويكفهر حينما أوشك أنانا أن يتم خطبته، فلما أتمها نشب يعنفه على مروقه عن الطاعة الواجبة للكاهن الأعظم، وذمم إليه وإلى زملائه عدم الأخذ بالتؤدة والحيطة في الأمر وقال: إنه لجدير بي أن أحزن إذا كان ما لقنتكم إياه من الدروس لم يثمر إلا تشجيعكم على مخالفة النظام واحتقار القوانين. إن القصور الشاهقة والدور الرفيعة الندري كانت مساقط رؤوسكم، فإن أنتم لم تشبوا على الطاعة فبم تسودون غيركم وتحكمون؟ عجلوا الأوية إلى مدرستكم فإن ترددتم فإنى مرغمكم على ذلك بقوة الحراس، ولايدهبن عليكم أن مظاهرتكم إياي المراس، بالميل لى على هذا الوجه لن تتفق مع سمو مكانتكم، كلا بل ولا تطابق الأصول التي نقشتها في صفحات صدوركم. لم يجرق المتظاهرون أن يردوا بكلمة على هذا الاعتراض، ولكنهم تداولوا ملياً فانحط رأيهم على العودة إلى المدرسة، وقد وخر الندم ضمائرهم. أما بنت أنات فقد مدت نظرها إلى راميرى وهو يهز كتفيه ضجراً وتبرماً فاغضت عنه الطرف ثم التفتت إلى بنطاؤر وقد تنازعها عاملان: الخجل والاحترام. وفيما هى ترشقه بنظراتها إذا بالوادى وقد امتلاً ضجيجاً وعجيجاً، ولاح من بعيد غبار كثيف وطرق الآذان صهيل الخيل ووقع حوافرها وفرقعة المركبات التى تجرها، وانجلت الجلبة عن قوم وقفوا أمام الهيكل فإذا بهم سبتاح رئيس المنجمين ونفر من الحراس يحفون به.

نزل سبتاح عن مركبته وعلامات الغضب بادية على وجهه وأخذ يعنف الطلبة الهاربين من المدرسة بأشد الألفاظ وقعاً في النفس. وبعد أن أمر أعوانه بسوقهم إلى هيكل سيتى، دخل المعبد فاستقبله الكهان بمظاهر الاحترام والإجلال وأنشأوا يعرضون عليه شكاياتهم فأصغى إليهم وتلطف بهم. وبالرغم مما نأله من الإعياء والتعب صعد مسرعاً في درج الهيكل فالتقى في طريقه ببنت أنات، وما كاديقع نظرها عليه حتى أسدلت النقاب ومرت بجواره. وكانت موقنة أن بقاءها في الهيكل قد يفضى إلى تأييل أسبابه على غير ما تحب، إلا أنها لم تعبأ في بادىء الأمر بسبتاح بل صعدت فيه النظر، والغيظ محتدم في صدره. فلما وقف على خبرها أحنى رأسه أمامها إجلالا دون أن يبارك فيها. ثم استأنف الصعود فالتقى ببنطاؤر فأمره بإخراج المصلين على الفور من المعبد، فنفذ أمره فانتشر السكون بأرجائه، وإنما اتفق أن وقع حادث جلل لم يقع مثله بساحة المعبد منذ أنشىء وأقيمت فيه صلاة المعبودة هاتور.

ذلك أن سبتاح كان خصما لدوداً لبنطاؤر، وكان كثيراً ما ينتقد الكاهن الأعظم لإبقائه إياه في سلك الكهنة ناعياً عليه أنه زلرل أركان الدين وضعضع جدران التقاليد القديمة التي كان في مبدأ أمره من أول المتمسكين بها والمتعلقين بأهدابها. ونسب اضطراب الطلاب في هذا اليوم إلى ما يكون قد بثه من الدسائس، فما كاد يقع نظره على بنطاؤر حتى أنحى عليه باللائمة ولم يراع له كرامة إذ قال: لقد ألقيت بأبنائنا في مهاوى الوبال وأغريت بنت أنات بالتمادى في الضلال ولا أدرى كيف أجزت لنفسك الاتفاق معها على التلاقى بهذا المكان الأقدس مع تلوثها بالدنس؟ وكيف زدت الطين بلة بأن جعلت موعدك بلقائها في معبد الإلهة هاتور البريئة من العبوب والنقائص؟.

إذا كان الثناء يبدل من ضعف القلوب قوة بما يبثه فيها من الثقة ويحييه من ميت الأمل فإن اللوم الجائر يكون في طريق القوى الثابت الجنان كالحجر الذى تزل فيه أقدام الشجعان. فإنه ما كادت ترن في أدن بنطاؤر عبارات التأنيب التى وجهها سبتاح إليه حتى هاج غضبه وقال: إن ما رشقه به من سهام التنديد والتبكيت لم يكن على شيء من الحق والعدل، بل هو مما لا يليق بمثله منزلة وسنا وشهرة أن يلفظه. وقد اقتصر على هذه الملاحظة دفعاً لسوء العاقبة إذا هو مضى مسترسلا في إدحاض التهم التى وجهها إليه، ثم ولى بجانبه عن سبتاح فجأة فتعلق هذا الشيخ بأذياله وأمسك بتلابيبه وصاح بكهان الهيكل فهرعوا إليه وسألهم عن سيرة بنطاؤر فتطابقت شهاداتهم على ما يؤيد إدانته قائلين: إنه لم يكتف بفتح باب الهيكل على مصراعيه لبنت أنات، بل أدخل فيه امرأة أخرى ملوثة بالدنس مثلها، وزج بالبواب في السجن لأنه أقام الحجة عليه إزاء هذا الخروج على الأنظمة الكهنوتية.

أمر رئيس المنجمين بإطلاق سراح هذا السجين ف اهتاج بنطاؤر لذلك واحتج، لا لانه ستطاع أن يدحض التهم المسندة إليه، بل لأنه المسؤول وحده عن إدارة شؤون الهبكل، ثم طلب إلى رئيس المنجمين — وقد تهدج صوته — الخروج من المعبد، فأبرز له سبتاح خاتم أمينى الذى يثبت نيابته عنه في إدارة الأعمال الكهنوتية أثناء غيابه وقال إنه بمقتضى السلطة المضولة له قد قرر عزله من منصبه الكهنوتي وأمره في الآن نفسه ألا يبرح الهيكل إلا بإذن، وقصد بعدئذ هيكل سيتى ليرفع إلى الكاهن الأعظم نتيجة المهمة التى عهدها إليه. أما بنطاؤر فمذ وقع بصره على الخاتم أحنى رأسه احتراماً وطاعة وانقلب من فوره إلى الغرفة التى اجتمع فيها ببنت أثات. وكان يحس اضطراباً في ضميره وخفقاناً بقلبه وأنه في متنازع العواطف المتناقضة والأفكار المتباينة، واختلط عليه حتى صور له أنه يرى الكهان وهم يسخرون منه ويحقرونه والبواب وقد تجاوز في مخاطبته حدود الأدب، إذ أخذ يرشقه باللفظ ويحقرونه ويعيب عليه صرامته في معاملته ويذكره بما تم لأهل الهيكل من الغلبة عليه في كيدهم له. وقد كان في سماعه لهذه الأقوال يرعد وينتفض كما لو أتى ذنباً يسجل عليه العار ويقبحه في الأنظار.

ولكنه ما لبث أن هدا روعه شيئاً فشيئاً بعدما برح الغرفة وفصد إلى أحد مستشرفات الهيكل. فإن شعاعاً من الأمل انبعث إلى فؤاده فصبره على تجرع الغصة وقواه على كظم الغيظ. ولقد حانت منه، وهو واقف، التفاته إلى ما يلى نهر النيل من ناحية الشرق فأبصر قصر الملك رعمسيس مسقط رأس بنت أنات ومعهد أنسها، فدبت فيه روح الهمة وتضاءل أمامه بأس أعدائه حتى تلاشى، وتضخمت في نظره خساستهم وضعة قدرهم فازدرى بهم وترفع عن مناوأتهم، ولكنه لم

ينهب عليه أنه أصبح محفوفاً بخصوم ألداء وأن قد حانت الساعة للنضال والمقارعة في ميد أن النزال.

الفصل الخامس عشر ربما أرشد الكبير صغير ..وقاد ذا العينين ضرير

كانت الشمس مؤذنة بالمغيب حينما وقفت الأنظار على مركبة بحرها اثنان من الجياد الصافنات، تجري في النهج المؤدي إلى هيكل حاتاسو ، يتبعها كلب كبير الحثة يلهث بلسانه. وكنان بعاكر يقود هذه المركبة ويتبعها العبد الحبشي الذي سيقت الإشبارة إليه في بعض الفصول المتقدمة، فما دنت من جدران الهيكل حتى طرق الآذان صوت يصيح صاحب مناديا « يا بعاكر!»، فاتبأد بعاكر في سبره لاستجلاء الخبر، وبينما هن يتلفت يمنة ويسرة كالمرتاب في أمره إذا برجل قصير القامة يهرول مقبلا من مخبأ اختبا فيه كما لو كان يتوقع مروره واللقاء به. فما وقع نظر بعاكر عليه حتى عرف أنه القرّم نيمو، فقال له: أمثلك من يعترضنني في طريقي.. ما تريد إذن مني؟ .. فأطرق نيمو رأسه إعظاماً وإجلالا وقال: إني أيتهل إليك بما عز عندك أن تأخذني إلى طبية متى عدت من قضاء ما لأجله قد جئت، قال بعاكر: ألم تكن قزم مينا؟ أجاب: كلا، إنما أنا خادم نيفرت قرينته المهجورة المنسية.. وإذا رفعت إليك هذا الملتمس فما هـو إلا لأن قدميّ الصغيرتين لا تستطيعان أن تقطعا هـذا الطريق الطويل الكثير الرمل و العثير، بخلاف جيادك الصافنات فإن أقدامها تنهبه نهباً. قال يعاكر: دونك والركوب معم! ولمَّ جئت ماشياً إلى هذا المكان؟ أجاب: ما جئت ماشياً بل راكبا حماراً فأصابه مس من الشيطان فهوى إلى الأرض بلا حراك. والراجح أن بنات أوى ستجعل اليوم منه غذاءها فتكون أوفس منا حظاً، قال بعاكر: المتبادر من كلامك أن الخبر عند سيبدتك غير موفور، قال نيميو: أما الخير فلا يزال عنبدنا منه بعض الرغفان، رأما الماء فالنيل طافح به، وأما اللحم فمن عادة النساء والأقزام الأ يميلوا إليه. ولقد تشكلت آخر بقرة بقيت في حوزتنا بشكل جديد إذ صار لحمها جامداً وكان طريا، فلم يفهم بعاكر معنى هذه النكتة، فالتفت إلى نيمو بعين المستفهم فقال هذا له، وقد تبين سبب حيرته: نعم، إنها بيعت فاكتسبت شكل النقود، والنقود جامدة. على أن النقود أوشكت أن تنفد من عندنا فنضطر إلى التغذى بالطين والماء وأوراق النخل. أما أنا فلا يهمني أحضر الطعام أم غاب لأن معدة القرم صغيرة يملؤها الشيء اليسير، بخلاف مولاتي السكينة الرقيقة الحواشي .. عندئذ أهوى بعاكر بسوطه على غاربي جواديه حتى الهما فأخذا يثبان ويجمحان، وعجز عن إذلالهما وكبح جماحهما إلا بما بذل من الحيلة والسياسة وما إليهما من مختلف الوسائل. واطلع على حقيقة الأمر العبد الحبشى فقال لمولاه ربما أودى بحياتهما ضربك بهذه القسوة، ومن الخسار أن نفقد هذين الجوادين الكريمين. فتبرم بعاكر بهذا الكلام وقال: وهل يسالك أحد ثمنهما إذا ماتا؟ ثم التفت إلى نيمو وقال متأثراً: وكيف يهمل مينا شؤون بيته فيتركه بلا مؤونته من الطعام؟ أجاب نيمو: لأنه يكره نيفرت قرينته وقد طلب إليه الملك بعد الفوز الأخير أن يختار ما تصبو إليه نفسه من الغنائم فانتخب من بين السبايا من راقه جمالهن وسار بهن إلى صيوانه. ولا أعلم كيف أقدم على هذا الفعل وليس في نساء مصر من يداني نيفرت في حسنها الفاتن. سأله: أتحبها يا نيمو؟ أجاب: كيف لا وهي أعز عندى من إنسان عيني.

كانب المركبة فى أثناء الحديث قد بلغت إلى باب المعبد فالقى بعاكر بازمة الجياد إلى العبد الحبشى ثم نزل عنها وأشار إلى نيمو بالانتظار فيها حتى يعود. وسأل بعاكر البواب فى الدخول لمقابلة رئيس الكهان ثم وضع بضع حلقات من النقود فى يده فأخذ الرجل يطوف بالبخور حول بعاكر وفتح الباب قائلا: عسى أن تجده

بالقسم الثالث من الهيكل، ولكنه لم يكن الآن رئيسنا. سأل بعناكر: وكيف وهنو المعروف في هيكل سيتي بأنه الكاهن الأكبر لهذا المعبد؟ فهز البواب كتفيه مبتسما وقال متهكما: قد يريد الإنسان رأس النخلـة فيجد في البلوغ إليها بعض العناء ثم لا يلبث- إن سقط- أن يصل إلى أسفلها بأسرع مما وصل إلى أعلاها، والحجر الثقيل رفعه عسير وحطه يسير. قال هذا وصحب بعاكر إلى مكان بنطاؤر. فما وقع عليه نظر الشاعر حتى عرفه وسأله عمّ جاء به إليه. فأجاب : إنه جاء في استفسار حلم راه.. وقبل أن يقص رؤياه عليه قال إنه لا يسأله التفسير بالمجان بل إنه اعتزم أن يرسل في مقابله هدية فاخرة إلى الإلهة هاتور، إذا جاء التفسير مطابقا لمشتهاه. سأل بنطاؤر: وما كنت تفعل لو جناء على غير منزادك؟ أجاب: اكتفى منهنا بنرأس من الضأن. قيال هذا دون أن يفهم المراد من سيؤال بنطاؤر، لأنه كان اعتاد ف تقديم القبرابين والهدايا إلى الآلهة أن يجعلها بحسب أهمية التفسير ومطابقته لمشتهاه، وكان من جهة أخرى يجهل أن بنطاؤر لايكترث لما يقدمه النزوار من الهدايا والقرابين. ولقد تذكر بنطاؤر ساعتئذ ما سمعه من الكاهن جاجابو وهو يزن الموهار ويبدى رأيه فيما اتصف به من الجهالة والضعف والاغترار، فأحب أن يختبره ليقيس حكمه عليه بحكم ذلك الكاهن فسأله: وإذا فسرت رؤياك بما لا يكون طبياً ولا خبيثاً ، فماذا أنت فاعل؟ أجاب: أقدم غزالا وأربعاً من الأوز. سأل بصوت شديد: وماذا تفعل إن امتنعت عن قضاء حاجتك ورأيت أنه لا يليق بشرف الكاهن الإتجار بوظيفت، وتعريضها للتحقير والامتهان، وقلت لك إنه لايجوز له قبول هدية في مقابل ما هو مكلف به من قضاء مصالح الناس؟.. إني أعرفك مذ كنت معنا تلميذاً بالمدرسية وأردد تعريفك الآن بأن من الأشياء مالا يصلح للشراء ولا للبيع، مهما تكن ثروة المشترى من مال طائل تليد وطارف.

فتراجع الموهار إلى الموراء مبهوتا، إذ لم يسبق له أن رأى من كماهن مثل هذا الشمم وهذا الإباء. ولم يحر جوابا على كلامه، فاستأنف بنطاؤر حديثه قائلا: لم أكن هنا إلا عبداً خاضعاً وخادماً حقاراً للإلهة هاتور، وقد بدا لي من وجهك أن صدرك ممتلىء بالغضب والحقد على وأنك على وشك المضى فيما جبلت عليه من الشدة والعنف، ولكن فلتعلم أن القدرة الرّبانية لم تبعث إلينا بالأحلام في المنام لتعليل النفس بفيرح أو لصيانتها من همّ وترح، وإنما هي وسيلة تمهد للنفس السكون والطمأنينة بالتوكل على الإله في حالة الهم والترح وبالشكر له والثناء عليه في حالة السرور والفرح. والذي أراه وأذهب إليه هو أن يكون بكاؤنا وضحكنا مراة ما وصلت إليه نفوسنا من درجات الكمال، ومن ثمّ أرفض رفضاً قاطعاً تفسير رؤياك، على أن لك أن تعود إلى هنا مرة أخرى صفر اليدين من الهدايا والهيات وممتلء القلب بالصدق والخشوع، فأسأل المولى عندئذ أن يفيض على من نوره ما اهتدى به إلى تأويل الرؤيا بما يدعو إلى التفاؤل بالخير ولو كانت مما يدعو إلى التفاؤل بالشر، وأرجو منك بعد هذا أن تتركنى وشأنى وأن تبرح الهيكل. فحرق بعاكر الأرّم غيظا ولكنه غلب على نفسه فكظم غيظه وانصرف مدمدماً بقوله: لـو لم تعد إلى الصواب بنفسك لعاقبتك على تبجحك ووقاحتك، ومع هذا فلسوف أريك كيف يكون تأثير التروة ولو كانت آتية من طريق الميراث. أما بنطاؤر فقد قال في نفسه: هذا عدو آخر ولكن من غير طرار أولئك الأعداء!

كان نيمو ف خلال محادثة بعاكر وبنطاؤر، قد استدرج البواب إلى الايغال معه في مناجاة افضى هذا إليه أثناءها بكل ما وقع من الحوادث في المعبد صبيحة اليوم، فلما خرج بعاكر وركب العجلة كاد نيمو يتميز من الغيظ لأنه لم يركب معه فجذبه العبد الحبشى من ناصيته ورفعه حتى ألقاه بالقرب من قدمى مولاه حينما كان

يزمجر قائلًا: هذا الحقير! هذا الوغد الدنيء! هذا الكلب لسوف يرى ! لقد علمت أن اسمه بنطاؤر! فلما سمع نيمو اسم الشاعر قال لبعاكر: يظهر أنهم عينوا لرياسة هذا المعبد لصاً يقال له بنطاؤر كان ببيت سيتي ثم نُفي منه لقبح سيرتبه وسوء سمعته. ومن أفعاله الشائنة أنه حرّض طلاب المدارس العليا على العصيان والدخل في هذا المعبد نساء بالدنس ملوثات. وقد نقل لي البواب الآن أن رئيس المنجمين فاجأه البوم مع بنت أذات فعزله عن وظيفته الكهنوتية، فبهت بعاكر وقال متعجبا: مع بنت أنات!.. وسكت هنيهة ثم قبال: نعم مع بنت أنات، وهو الذي لابيد قد قضى معها في بيت المحنط تلك الساعات وقتما كنت أحادث نيفرت وأجلب الماء إليها من مغارة الساحرة. قال ذيمو: إنى لا أتمنى أن أكون في موقف بنطاؤر لأنه إذا كان رعمسيس بعيداً عن هذا الكان فإن أنى قريب منه. ولست بمنكر أن أنى بطيء الحركة فاتر الهمة، ولكني اعتقد أنه لايود أن تدرج تلك الحمامة من عشه أو تفلت من يده. فرمق بعاكر القررم بعين الحيرة، إذ لم يدرك المراد بهذا الكلام، فقال نيمو الماكر وقد تبين سبب حيرته: إن الوالي آني التمس من رعمسيس أن يروجه من ابنت فلم يجاوبه سليا، لأنب حفظه الله ممن يحبون البسط والانشراح بإقامة الأفراح. ولعلك تعلم ذلك أكثر مما يعلمه غيرك. سأل بعاكر: أنا.. أجاب نيمو: ومَن غيرك؟.. وهل ذهب عليك أن مليكنا هـو الذي أكره راتوتي على تزويج فتاتها من مينا.. لقد أفضت إلى بهذه الحقيقة وهي على ما اعتقد لا تنكرها إن حادثتها في موضوعها. فهز بعاكر رأسه استنكاراً، ولكن القزم استرسل في الحديث بصوت المقتنع بصدق ما يقوله إذ قال: ومع هذا مقد كان من أحب الأماني إلى راتوتي أن تكون زوجا لابنتها، وإنما قضت الإرادة الفرعونية بترويجها من غيرك. والسبب ف ذلك على ما أيقنته أنك لم تكن محمسود السيرة في الباب العالى بدليل ما يعيبه رعمسيس عليك ويتذكّرك على

الدوام به مما لايرضيك سماعه، ولا يدهشنك علمى بهذه الأسرار فإنما أنا أشبه بالفأر المختبىء وراء الستاريرى كل شيء ويسمعه دون أن يراه أو يسمعه أحد.

هنا أوقف بعاكر مركبته ونزل عنها وأشار إلى نيمو بالنزول بعده، فلما صدع بأمره دعاه إلى مسايرته حتى يبلغا النهر ليستطيع أن يسمع منه كل ما يعلمه منذرا إياه بأنه إن تبين له كذبه تركه فريسة للكلاب تمزق جسده شر ممزق. قال نيمو: أعتقد أنك على فعل ما تقول أقدر منك على قول مالا تفعل ، غير أنى أرجو منك أن تمشى الهوينا فقد ابتدأ التعب ينال من قدمى ... وبعد ففى وسعك أن تستقصى من راتوتى ما وقع من الحوادث بينها وبين رعمسيس، وأنا ضمين بأنها لن تتراجع عن الجهر لك بأن فرعون أكرهها على تزويج نيفرت من مينا. وما أشقى حظ سيدتى المسكينة التى أمنت بأكاذيب ذلك الأحمق وأباطيله فكان نصيبها أن تواصل الليل بالنهار في الأحزان والأكدار. ولطالما مررنا أنا وراتوتى أمام منزلك فكانت إذا لسقوط عزها وامتهان كرامتها ولأنها أوشكت أن تضطر إلى السكنى مع أمة الأمو (١) النازلة في البلاد الواطية، لأن الأشراف والعظماء سيفرون منها ومن ابنتها فرار السليم من الأجرب.. ويحق لمثلك في الواقع أن يهنىء نفسه لأنك لم تخلط حظك بحظنا، وإلا لمسك بعض ما مسنا.. هذا ولا مناص لى من ملازمة سيدتى الفاتنة للعقول بجمالها إذ ينبغى لى كما شاطرتها أيام الفرج والرخاء أن أشاطرها أيضا للعقول بجمالها إذ ينبغى لى كما شاطرتها أيام الفرج والرخاء أن أشاطرها أيضا

⁽۱) الآمو قوم من أبناء سام كانوا في عهد حوادث هذه الرواية يقطنون الجانب الشرقى من الوجه البحرى. راجع كتاب (المصريون وكتاب موسى) لجورج ايبرس مؤلف هذه الرواية والفصل الخاص بالساميين في مصر من كتاب (تاريخ مصر) تأليف بروكش. وذكر ماسبرو أن لفظة آمو أو (بي- أمو) انقلبت فيما بعد بتواتر الاستعمال (بياميت).

أيام الشدة والضيق. فقاطعه بعاكر: لم تكثر من الألغاز والأحاجى، وما معنى هذا الهذر والهذيبان اللذين لا أساس لهما ولا أركبان.. أفتخشى أذى إن أنت أفصحت وللحقيقة أوضحت؟..

أخذ نيمو عندئذ يقص عليه ما اتفق لأخى نيفرت من مقامرته على جثة أبيه وخسارته إياها وأنه أصبح مثقلا بالديون وأن راتوتى ونيفرت أصبحتا من ذلك في غم شديد لانثلام شرفهما وسقوط جاههما وتلوث صحف تباريخهما على مدى الأيام. ثم سكت هنيهة واستأنف الحديث بصوت المتوجع: ولكن لابد لهذا الداء من دواء إذ مازال بالإمكان انقاذهما من وهدة الذل والامتهان.. إنى أرى زوج نيفرت يبعثر ماله التليد والطارف وما انضم إليه أخيرا من حصة وافية فى غنائم الحرب دون أن يفكر فى زوجته. وليس فى قدرة راتوتى أن ترتق هذه الفتوق لأنها إن دعت الناس إلى معاونتها انفضوا من حولها وتقرقوا بددا كالدجاج الذى تهوله رؤية أدرى فى هذه الأيام التى عم العسر فيها وطم حتى أصاب الناس جميعا كيف تدفع أدرى فى هذه الأيام التى عم العسر فيها وطم حتى أصاب الناس جميعا كيف تدفع سيدتى عنها العار بتسديده للدائنين. ولقد أنست من نيفرت العزم البات على هجر زوجها والبعد عن مخالطته، بعد إذ عهدت منه الكذب والتراخى فى أداء حقوقها المغروضة شرعاً عليه، ولعلها الآن لهذا السبب تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه.

فتصفح بعاكر وجه نيمو تصفحاً ينم عن ارتيابه في صدق أقواله وتنبه نيمو لذلك فابتدره بقوله: نعم تفكر فيك أضعاف ما كانت تفكر فيه، لأنها ما برحت منذ التقيت بها في المقبرة – تنذكر اسمك وتحدث بأمرك. وكثيراً ما أفاضت في مدحك وذكر مناقبك وإيثارك الجد على المطايبة والمهازلة. وهذه المزايا لم تتوافر قط في

زوجها الذي عهدت فيه الخفة والنزق. ولقد بدا لى منها ما أيد عندى الظن في انها وقعت في شرك حيك. فأحس بعاكر حينما سمع هذه الكلمات قشعرسرة اختلجت بشدة تأثيرها أعضاؤه فمشى مغذًا فاضطر نيمو إلى الرجاء منه ثبانياً أن يتئد في سيره ويتباطأ، فأجابه بعاكر إلى طلبه وظل الاثنان يسيران الهوينا حتى بلغا إلى ضفة النيل دون أن يلتقيا بأحد، إذ كان السكون سائداً على جميع الأرجاء. وكان زورق بعاكر المزخرف بأبدع النقوش والرسوم راسياً عند الضفة لستقله لدي عودته إلى طيبة، فنزل إليه مع نيمو والحشم والمركبة وجواديها وجلس ف غرفة بمقدمه وإلى جانبه نيمو. فلما استقرا في مكانيهما، قال بعاكر لنيمو بصوت خافت: أنا من قرابة راتوتي.. كنا في خصام ثم تصالحنا أخيراً ، فلم لم تقصد إلى ف قضاء حاجتها وتفريج كربتها؟.. أجاب: لصلفها وعزة نفسها وتجافيها عن كل ما يحط من قدرها.. ولاعجب مادام الدم الذي يجرى في عروقها هو عين دمك. ولقد سمعتها ذات يـوم تقول إنها تفضل الموت مع أبنائها على أن تبدل ماء وجهها ف التماس النجدة من رجل تعتقد أنها أساءت إليه، وقد اتبعت في ذلك المثل القائل « لا تطلب الإحسان ممن أسأته». قيال بعياكر: يوقيد من قولك أنها فكرت في الاستميداد بمعونتي»؟ أجاب: نعم فكرت ف ذلك من بادىء الأمر، وإن ترد أن أبوح لك بالأسرار كلها فأنى أؤكد لك أنها لم تشك لحظة ف كرمك وسعة جنابك وما رأيت منها إلا الاحترام لاسمك والتعظيم من شأنك، فإن ساعدتنا الأقدار وأصيب مينا بسهم في الحرب أو غيرها يصمى فؤاده فإنها ستعد نفسها ولاريب سعيدة بأن تضع ابنتها العزيزة بين يديك، وأعتقد أن نيفرت لن تنسى ذكرى رفيق الطفولة والحبيب منذ نعومة الأظفار، بدليل أننا حينما عدنا ذاك المساء من مدينة الأموات وقبل أن يُفتح الخطاب الوارد من ميدان القتال كانت ملآنة منك(١). ولقد اخبرتني خادمتها بانها

⁽١) كان قدماء المصريين يقولون فلان ملآن منك أي ممتلىء بحبك، وباللغة المصرية القديمة (يه).

سمعتها تهذى باسمك أثناء نومها. فأطرق بعاكر برأسه وقال: إن هذا لمن أعجب العجب!.. ف الليلة التي ذكرتها رأيت فيما يرى النائم أن نيفرت برزت من خدرها تتهادى في أحسن مظهر وأجمل رواء، وقد أبى كاهن الهيكل ذاك الجبان الوقح أن يفسره لى. قال نيمو: إنه لرجل مجنون.. ومفسرو الأحلام هنا كثيرون، وإنى لن أوسعهم خبرة بتفسيرها، وقد ذهبت لى بذلك شهرة يعرفها الجمهور وفي مقدمتهم أتباعك، نسلهم إن لم تكن من المعدقين. وكثيرا ما جاءت الوقائع مؤيدة لصدقى ف التأويل. فقص إذن علي ما رأيته ف المنام، فأنشأ بعاكر يرسم بمقبض سوطه على البسط خطوطاً ملتوية متعرجة ثم قال: رأيت أننى كنت على مقربة من النيل وأنى أرى الماء راكدا والسماء صافية الأديم، فلمحت نيف رت بالضفة الأخرى تناديني باسمى، فأشرت إليها باصبعى فهرولت نصوى جرياً على وجه الماء، كما لو كانت تجرى في السهل. فلما تدانت حتى صارت منى على قيد شبرين مددت إليها يدى لتمسك بها، فما هو إلا مر الطيف حتى غاصت إلى قرار الماء واختفت عن الأنظار. عندئذ لم أتمالك أن القيت بنفسى إلى الماء ونزلت فيه هابطا فإذا بي قد أدركتها واخدنتها ف دراعى، غير أنى لم ألبث أن شهدت صورتها الجميلة تتلاشي قليلا قليلًا، كما يتلاشى برد جبال سوريا إذا جُعل في قبضة اليد وتأثر بحرارتها فاستحال إلى ماء، ورأيت شعرها الفاحم وقد انقلب لونه إلى أبيض ناصع ناعم كزهر النزنبق، وعينيها وقد انبعثت منهما سمكتان اختفتنا في عجاج الماء، وشفتيها وقد اصبحتا فرعى مرجان هويا إلى قاع النهر، وجسمها وقد تشكّل بشكل تمساح راسيه كراس مينيا، وقد أخذ هذا التمسياح يرشقني بنظيرات الازدراء ويبتسم ابتسامة التهكم. ولذلك استولى الغضب على فلم يسعني إلا أن جردت سيفي وانقضضت على ذلك الوحش الهائل الخلقة. ولقد أحسست أسنانه الحادة تنفذ في

جسمى فمكنت السيف من حلقه فجرى دمى ودمه ممترجين كالسيل فاصطبغ بهما ماء النيل. وكانت المناجزة بيننا شديدة مديدة قمت عقبها من النوم مرعوبا يتصبب جسمى بالعرق الغزير وترتعد فرائصى ويتركنى صوابى.

وما انتهى بعاكر من قص رؤياه حتى تنفس الصعداء، وبدا لمن يراه أن هذا المنام الذى أقلق راحته وأحرج صدره قد تجدد في ذاكرته فأشر في نفسه تأثيرا وحرك في قلبه لواعج العشق والغيرام. وكان نيمو يمعن فيه النظير فلزم الصمت دقائق معدودة حالها بعاكر بقدر عددها سنوات، ولكنه قال متثاقلا في الكلام: حقا إنه لحلم من أغيرب الأحلام، ولكن ليس من العسير تفسيره على العيارفين بأسرار التأويل. إن رؤياك تفيد في القرب منك ولكن يحسن ألا ترى الوصول إليها سهلا.. إذ لابد أن تحبط أمالك وتتحلل كما تتحلل دقائق البرد إذا تأثرت بحرارة اليد إن لم تقض قضاءك الأخير على التمساح الحارس للأمنية التي تريد الظفر بها.

وما انتهى من تفسيره إلى هذا الحدحتى وصل الزورق إلى ضفة النهر ورسا إلى جانبه، فوقف بعاكر وقال: ها قد وصلنا. قال نيم و متفائلا خيرا: نعم وصلنا إلى الغرض المطلوب ويا حبذا لو اجتزنا الآن القنطرة الضيقة التى بين هذا المرسى والساحل. فلما اجتازها كلاهما قال نيمو لبعاكر: إنى أشكر لك إكرامك إياى وحفاوتك بى. وإذا كنت ترى أنى كفؤ لقضاء حاجة لك فمرنى بما تشاء. قال بعاكر: تعال هنا. ثم جذبه إليه ووقف معه في ظل شجرة ، وكانت الشمس على وشك الغروب فسأله: ما معنى قولك هذه القنطرة الضيقة واجتيازها.. أنت تستخدم المجاز كثيراً في كلامك ولهذا يغيب عنى معناه. فأطرق نيمو ملياً ثم صعد نظره في بعاكر وقال: أتبود أن أصارحك على شرط ألا يؤلك كلامي؟ قال بعاكر تكلم ولا

تخف. أجاب: التمساح في رؤياك هو مينا فابدأ بحذفه من الوجود لتجتاز القنطرة وتظفر بمرادك. فإن تتبع نصيحتى تصبح نيفرت في قبضة يدك. فأشار بعاكر إشارة أراد بها إفهام نيمو أنه سمع قوله وعقد النية على تنفيذه. ولكى يوقن حسن طالعه وصدق فأله، خصوصاً وقد أفضى بعزمه إلى غيره وقف بحيث يصير الهلال إلى يمينه تيمناً واستبشاراً. أما نيمو فنظر إليه حين بدرت من بعاكر هذه الحركة وقال له: تحرز يا هذا من أن تتلاشى نيفرت قبل أن تقضى منها أربا كما تلاشت ف المنام، واجهد نفسك بانتشالها هى ووالدتها من وهدة العار، لأن في دخولهما دارك وقد تلوثتا به سبة لك باقية في الأعقاب. وكان بعاكر مطرقا رأسه يفكر، فختم القزم حديثه بقوله: أتأذن في في أن أزف إلى سيدتى بشرى ما انتويته من نجدتها وانتشالها من وهدتها. أأفعل ذلك؟.. إن تأمر بذلك فقد جاءت العاقبة طبق مرامك لأن من ينفق من وهدتها.. أأفعل ذلك؟.. إن تأمر بذلك فقد جاءت العاقبة طبق مرامك لأن من ينفق

الفصل السادس عشر ما وقع من الحوادث والأحوال لأحد الأبطال

آذنت الشمس بالمغيب فلبست مدينة الأموات جلباب النوم والتمست الراحة من عناء اليوم، وطلع القمر من ثنيات وادى المقابر الملكية ساطعا بأشعته اللجينية، وارتسمت ظلال الصخور والجبال على صفحات الرمال، ومد السكون على الآفاق أوسع الأوراق، وسبحت طيور الليل في الأجواء فشاكلت في طيرانها أسلاك حرير سوداء يلاعبها الهواء، ونشر البوم أجنحته وتنقل من جدار إلى جدار لينذر المتشائمين بالويل والدمار، وراغت بنات آوى بين القبور بسكون وسكوت تتحرى ما سيق لها من الرزق والقوت، غير أن ذلك السكون لم يكن مستمر الاتصال بل كانت تتخلله ضجة مغالبة الضباع والرئال.

على أن سكان ذلك الوادى لم يتمتعوا جميعا بلذة الرقاد، إذ شوهدت أشعة ضوء منبعثة من مغارة نيخت الساحرة ووميض نار أمام بيت بينم كانت تذكيها جدة وردة – من وقت إلى آخر – بأقراص الروث المجففة. وكان يعشو إلى هذه النار رجلان أخذا يتأملان أشعتها المدنسة الضوء، وقد بهتتها أشعة القمر الزاهية الطاهرة الضياء. وكان والد وردة عاكفا على سلخ كبش ذبحه، فقال له بينم: أسمع الأفاق تدوى بعواء بنات آوى. ثم أفرغ على كتفيه رداء ممزقا من القطن ليقيهما رطوبة الجو. فقال نبسشت: متى انتهيت من السلخ فألق إليها الأمعاء. أما الفخذان والظهر فاجعل منها شواء لذيذاً وانتزع القلب بلطف أيها الجندى.. أى نعم هكذا، فما وقع نظر نبسشت على القلب حتى تناوله وعنى بفحصه. وكان بينم يرقب

حركاته مضطرب الخاطر منزعج الفؤاد فسارة بقوله: وعدتك أن تعمل ما تشتهى يلكنك الآن تطلب منى محالا. فرد الطبيب عليه قائلا: المحال! المحال! ما سبب هذا لحال؛ لقد قضيت عمرك تشق جثث الموتى بدار التحنيط التى أجزتك بالدخول فيها والخروج منها على هواك. ولابد أثناء قيامك بعملك أن تكون الآنية (۱) معك، فعندئذ لا يبقى إلا أن تضع هذا القلب في إناء منها ثم تبدّله بقلب إنسان ولا خوف عليك أن يراك أحد أو يشي بحقك. واعلم أنه سواء عندى أقمت بهذه المهمة غذا أم بعد غد فإن لك اختيار أنسب الوقت لقضاء حاجتى. وما على ابنك إلا أن يشترى كل يوم كبشا أدفع إليه ثمنه من مالى فتأخذ قلبه بعد ذبحه تبدّله بقلب إنسان وهكذا حتى أوفق للنجاح في عملى.. وهل تستريب بعد ذلك في أن حفيدتك العزيزة ستحرز بفضل هذا الغذاء الصحة والشفاء.. هيا .. هيا.. لا تخف. قال الشيخ: است أجزع من الدنس والفاقة سنوات طويلة، فبم أجاوب يوم الحساب إن سئلت؟ ولايذهب عليك أنى مازلت طامحا إلى المقام في (عالو) وفي زورق الشمس استدراكا لما فاتنى من ملاذ الدنيا، ولست أدرى كيف تريد أن يحرم مثل سعادة الآخرة قضاء للبانتك ملاذ الدنيا، ولست أدرى كيف تريد أن يحرم مثل سعادة الآخرة قضاء للبانتك وتحقيقا لأمنيتك؟!.

قال الطبيب: أنت عاجز - ولك العذر - عن فهم المراد من طلبى، وإدراك ما أرمى اليه بالحصول على ذلك القلب. ولكن ثق بأنك إذا جئتنى به ستشاركنى في فضل اليه بالحصول على ذلك القلب. ولكن ثق بأنك إذا جئتنى به ستشاركنى في فضل

⁽۱) يريد بها آنية الأصوات التى تتخذ من الطين أو الحجر لتحنيط أحشاء الموتى فيها. وكانوا يعتقدون أن هذه الآنية الأربعة مشمولة بسرعاية شياطين الموتى المسماة أمست ونابى ويومنترد ويبسنود، وكان لكل واحد منها غطاء يمثل مقبضه شكل الشيطانة التى يعزى إليها أى رأس إنسان ورأس قرد ورأس ابن آوى ورأس كلب

عمل جليل جزيل النفع للناس. وما كان إلحاق عليك أن تنجز طلبي لغرض ذاتي أو شهوة ثار في النفس ثـائرهـا بل لقصـد خبري سيعم نفعه النـاس جميعـاً ولست -والحمد لله- ممن تطيب نفوسهم إلى الفراغ المفسد للطباع حتى أصبح تواقاً إلى قضاء المنافع الذاتية والتماس الشهوات النفسية.. أما ما اعترضت به من خوفك على سلامة روحك في الحياة الأخرى فكل ما أسألك أن توقنه أنه لا خوف عليها وأنه لاداعي لحزنك واسترابتك.. وحسبك أن تعلم أني من طائفة الكهان، وبالتالي من أدرى الناس بما إذا كان عليك فيما أدعوك إلى فعله تبعة فأقيلك من العثار بها، وإن لم يكن غيه تبعة فأحضك كل الحض على القيام به، لاسيما إذا قُصد به الخير والإحسان والنفع العام. على أنه إذا سألك قضاة الموت في الآخرة عن أخذك قلب الموتى من الأوانى المعدة لتحنيطها وراموا محاسبتك على هذا الفعل فلك أن تجاوب بأننى أنا اللذي أمرك به والذي أخل تبعته على نفسه. فأطرق الشيخ راسله مفكراً حائراً، فلما شهد الطبيب ذلك منه قال: لك تلقاء مبادرتك بقضاء حاجتي أن أضع الأحجبة على جثتك بعد وفاتك، وسأكتب برسمك منذ اليوم كتباب الخروج (١) وأضعه تحت اللفائف والأكفان التي سيدرج فيها جسمك فتتساوى في هذا الامتياز بالأمراء والعظماء ولا تكون لهم عليك ميزة، وبذا يتوافر فيك من القوة ما تصد به الشياطين إذا حادوا بك عن الصراط السوى، دع أنك ستستطيع بفضل تأثيره الدخول في معهد الاحكام الزوجي الذي تبوزع فيه المثوية والعقوبة على فاعلى الخبر والشر فتستمتع بالحياة الأبدية بين الأخيار والأبرار في عليين. قيال الشيخ متنهداً: ولكن ربما خففت سرقتي لقلوب الموتى في موازيني وضاعفت ذنوبي. فأطرق

⁽١) تسوجد القصسول المستخرجة من كتباب الموتى مع الموميناوات أو تحت اللفائف وفي طيبات الأكفان.

نبسشت هنيهة ثم قال: إذا أخذ الخوف منك والحدر هذا المأخذ فإنى مرودك منذ الآن كتابة أعترف لك فيها بأننى أنا الذى أمرك بالسرقة ولك أن تجعل هذه الكتابة فى قطعة قماش وتضعها على صدرك لتدفن معك متى انقضى أجلك، وإذا سألتك تيشوتى المنوط بها أمر الدفاع والمرافعة عن الروح أمام أوزريس وقضاة الموت (١) فقدم إليها هذا الكتاب ومتى قرأته بصوتها الجهورى فإن القضاة سيحكمون ببراءة ساحتك.

قال الشيخ: من أين لى علم مضمون الكتاب إذا كنت أجهل القراءة والكتابة؟ أجاب نبسشت: أقسم لك بالآلهة التسعة أننى لكاتب فى الورقة ما ذكرت لك وهو أننى أمرتك بنزع قلب أحد الموتى وأنه إن يستتبع هذا العمل تبعة فإنما تقع على لا عليك. قال الشيخ: لا باس الآن.. هات الكتابة. فبدأ الطبيب أولا بمسح العرق الذى كان يتقطر من جبهته ثم مد يده إلى بينم وقال له: غدا تكون الكتابة بين يديك واعلم أنى سأباشر علاج حفيدتك حتى يتم شفاؤها.

وكان والد وردة مازال عاكفا على سلخ الكبش الذى ذبحه فلم يفهم مادار من الحديث بين والده وبنسشت، فلما اتم هذا العمل انفذ قضيبا ف فخذ الكبش ووضعه

⁽۱) يحتسوى الفصل الخامس والعشرون بعد المائة من كتساب الموتى رسم مجلس العدل الذى يحاكم فيه الفسارون من الحياة، وقد مُثل فيه أوزريس جالسا تحت ظلسة مستديرة وإلى جسانبيه الثنان وأربعون قانسيا وأمام أوزريس قرد برأس كلب وهو حيوان توت المقدس الذى يقيم الوزن ويضع على إحدى كفتيه قلب الميت وعلى الأخرى صسورة الهة الحقيقة التى ترشد الروح إلى دار الاحكام، ويحرر توت صورة الحكم فتقيم الروح الدليل على أنها لم ترتكب ٤٢ جرما توجب حسرمانها، فإذا سلم القضساة برزعمها سميت ميساشروا (أى الحقيقة المتكلمة) وجُعلت في عداد السعداء والأبرار ويرد إليها قلبها فتنمو في حياة جديدة وتصير شبيهة بالآلهة.

فوق النار فامتلأ الجو برائحة الدهن المعترق ونفذت هذه الرائحة ف خياشيم بنات آوى، فأخذت تتوارد تباعا من كل فج مهتدية بحاسة الشم إلى مكان الشواء. ونسى الشيخ ثقل المسؤولية على عاتقه منذ رمق بعينه الشواء، لأنه لم يكن ذاق اللحم منذ عام. وكان نبسشت يرسل إليه وإلى ابنه وقرينته نظرات الحنان والعطف وهم يفترسون اللحم كالوحوش ويتعرقونه بشراهة ولاسيما والدوردة اللذي كانت تبدو عليه علامات الغبطة لازدراده ذلك الطعام الشهى. وقد كان سريعا في اللقم والقضم والمضغ والابتلاع والتمطق بشكل تربدله وجه الطبيب وتقززت منه نفسه فتحولت رأفته على القوم اشمئزازا منهم، وحدّث نفسه بأنهم حيوانات مفترسة ولكنها ذات ضمائر وقلوب. وأنهم يقدرون على الخلاص من عالم المحسوسات إلا أنه أنس منهم الطموح إلى السعادة الأبدية في العالم الباقي.. ولا يبعد أن يتحقق متمناهم دون غيرهم من الناس. وقد رأى الجندي الطبيب تضطرب شفته إذ كان يناجي نفسه، فصاح به قائلا: ألك في قطعة لحم من هذا؟ ثم انتزع بأسنانه نسيرة مما بيده وقدُّمها إليه، فتراجع نبسشت إلى الخلف وقد غثت نفسه حينما شهد بعيني, رأسه أسنان السرجل مصبوغة من الدم بلون أحمر داكن، وقارن بين وجهه الدميم ووجه وردة الساجية الطرف الوضاءة الجبين، فلم يتمالك أن سأل العسكرى: أأنت صدقا والدوردة ؟ فضرب الرجل صدره بيديه وقال: لاريب في أني والدها صدقا كما لا ريب في أن سيتي والد رعمسيس. وما أتى الرجلان على الكيش قضما وإزدراداً حتى همًا بمسح أيبديهما بخبيز رقيق ابتلعناه بعد. وكنان سيؤال نبسشت لايزال يدوى ف أذن الجندي فتنفس الصعداء وقال متمما إجابته: أم الفتاة أجنبية وليست بمصرية، وقد ولدت هذه الأيكة البيضاء في عش الغراب الأسود. سأل الطبيب: وما هو وطن امرأتك؟ أجاب: لا علم لي بوطنها. سأل: كيف .. أولم

تسألها عن أصلها ووطنها لما تزوجت بها؟ أجاب: سألتها، ولكن من أين كان لها أن تجاوب؟ إن شأنها غريب وتاريخها طويل. قال: أرجو منك أن تقص هذا التاريخ على لأقطع بسماعه الوقت وأسلى الخاطر فالليل طبويل والفؤاد جريح، ولكن تريث قبل البدء بالكلام حتى أتعهد المريضة واتفقد أحوالها. ثم دخل وجار المحنط وأكب على فراش القش والقصل البذي كانت وردة مطروحة عليه. فلما تأكد من نومها وانتظام حركة أنفاسها عاد إلى الجندي وجلس إلى جانبه وأخذ بينم يبرقب القمر فاغـراً فاه فأنشأ ابنه يقص حـديث امرأته حيث قـال: «ماأقصه عليك من الـوقائع يرجع إلى عهد سيتي الأول وأوائل حكم رعمسيس، وكنت ببلاد الشمال مع الجيش الـذي سير إليها لتحصين مدينة رعمسيس الشهيرة بـاسم (زوان). وكـان تحت إمرتى ستعة من الآمو العبرانيين الذين اضطهدهم رعمسيس وكبلهم بقيود الاستعباد. وكان في العمال جملة من أبناء العظماء والمثيرين لم يسالهم أحد حينما سيقوا إلى العمل عن أصلهم ولا عن ثروتهم. ولم تكن أعمال التحصين وحفر ترعة الاتصال بين النيل والبحر الأحمر قد تمت، فسخر رعمسيس أولئك الناس الذين هم سلالة أعدائنا بشرق مصر في إتمامها. وماذكرت تلك الأيام إلا وعرتني هزه السرور وأخذتني نشوة الفرح لما أمضيته من أوقات الهناء والصفاء في أراضي (غوشن) المعروفة بخصبها وجودة تربتها وحسن مناخها ووفرة خيراتها من حبوب وبقول وأسماك وطيور،

« وكان بين الستة السرجال الذين تحت قيادتى رجلان كان أهلوهما يبالغون فى الرفق بهما والعناية بأمرهما، إذ كان لا ينقضى يوم إلا ويتحفانى فيه بحلقات الفضة حتى لا أقسو في معاملته. على أن محبة المرء ولده وذوى قرابته أمر طبيعى ولا يختاف اثنان في أن العبرانيين فاقوا فيه على غيرهم من أمم الأرض فوقا عظيما.

وكان المقرر علينا أن نورد كل يوم عدداً معينا من الآجر، فإذا احتدم حر الهاجرة ساعدتهم على العمل فكنت أصنع منه في ساعة واحدة قدر ما يصنعونه جميعا في ثلاث ساعات، ما ذلك إلا لوثوق عضلى ومتانة قوتى، ولاسيما في ذلك الوقت الذي كنت فيه أقرب عهداً بعنفوان الشباب وقوة الساعدين منى الآن.

وفيما كنت قائما بالعمل على ما يرام، إذ صدرت الأوامر باستدعائى إلى طيبة لأكون من مراقبى أسرى الحرب الذين تقرر تسخيرهم فى تشييد هيكل (أمون). وكان لدى من المال الشىء الوفير ففكرت فى الزواج. وكنت قد أقصيت النساء المصريات عن نظرى ومحوتهن من صحيفة صدرى، إذ لم يكن لى بد من التزوج من إحدى بنات المحنطين. وكثيراً ما كنت أتمنى على الله المنى أن ينقذنى من هذه الطائفة اللعينة، فاتجه خاطرى نحو بنات البلاد الواطية من أقوام (الآمو) و(الشازو) الشهيرات بالجمال الفاتن. وكانت السبايا اللائى أتى بهن الجيش معروضات للبيع، فلم يرق أكثرهن لعينى، وأما الباقيات فكانت أثمانهن غالية بالقياس إلى جمالهن الباهر. وكانت نقودى تنطلق من كيسى انطلاق الماء من الإبريق لكثرة ما كنت أنفقه الباهر. ولللاذ، ومشاهدة الراقصات في حى الأجنبيات.

واتفق لى عندئذ حادث اتجهت بسببه معيشتى على نظامها المالوف عندى إلى غاية غير التى كانت منصرفة إليها. ذلك أن جماً غفيراً من أسرى الحرب جيء به إلى طيبة والحفلات فيها قائمة بعيد (آمون شم) فأقيمت سوق كبرى بالقرب من الأسكلة كان ضمن ما يباع فيها عدد عظيم من السبايا. وكانت البارعات منهن ف الجمال يبعن بثمن فاحش، فلم آنس من نفسى القدرة على اشتراء إحداهن. وفي ذات يوم جيء بامرأة عمياء وأخرى خرساء رشيقة القوام، وكانت العمياء بدينة الجسم

ملساء البشرة فاشتراها صاحب حانة وهى لاتزال عنده حتى اليوم تطحن الحبوب على السرحى. أما الخرساء فكانت تحمل طفلا على ذراعيها، وكان من يحاول استطلاع الخفى من أمرها يتعذر عليه تقدير عمرها أو تعيين منزلتها جمالا أو قبحاً، إذ كان يبدو للناظر أن سحابة تحول بين عينيه وحقيقة وجهها. وكل ما كان يستطيع أن يبديه من الرأى فيها أنه لم يكن بينها والموت إلا ساعات معدودة، وكذا ابنها فقد اعتراه من النحول ما كان يخيل للرائى معه أنه صار في عداد الموتى. وكان شعرها يشبه الجمر لونا كما كان وجهها يشبه الثلج بياضاً، إلا أنه كان خلواً من كل أثر للجمال، وإن تكن القلوب تحن إليه والانظار تحوم عليه. وكانت شرايينها ولولا اضطرارها إلى حمل طفلها لاساقطت يداها إلى الجنبين كما لو سلبتا نعمة الحياة. وكان يخيل لى أن النسيم إذا هب لابد أن يكتسح المرأة والطفل ويسفيهما كما تسفى الرياح الرمل. ولقد طالما صاح المنادى بملء فيه لترغيب الناس في شرائها فلم يقدم أحد على اقتناء هذا الشبح الخامد الجامد الذى هو أقرب إلى خيال الموتى منه إلى أشباح الأحياء. وما كان أثقل عبئها لو ماتت ، إذن لكلفت صاحبها ما لا قبل له عليه لكى يوارى جثتها.

«ثم مرّت بالدلال فترة من الـزمن لم يكف فيها عن الصياح دون أن يلقى لندائه اذانا واعية، وعيل صبره واشتمله الياس فتناول سوطا وأهوى به على جسم المرأة المسكينة لتتحرك فتوقظ في الحاضرين الرغبات النائمة وتنبه الميول الساكنة، فتلوّت أعضاؤها لشدة ألم الضربة وضمت طفلها إلى صدرها وسرحت النظر حواليها دون أن تنبس شفتاها بكلمة، كأنها كانت تلتمس لنفسها ناصراً ومغيثاً من هذا البلاء. وقد وقع نظرها آنئذ على فاضطرب ضميرى وحدث بقلبى ما لم أعهده فيه قبلا من

التأثير الشديد ورأيت عينيها تلمعان على صورة استهوت فوادى إليها وألقتنى في حبائل حبها، فقلت للدلال: إنى راغب في شراء هذه الخرساء بكل ما معى من مال. وكان في وسعى اشتراؤها بثمن بخس دراهم معدودة، لولا أننى كنت أجهل الحساب. فلما سمع زملائي هذا الكلام سخروا بي وتهكموا على وأكثروا من لومى به له بل دفعت النثود التي استولى عليها بائع السبايا بلهف بعد أن وتعنيفي، فلم آهز كتفيه، وأخذت أنا المرأة والطفل وقصدت بهما إلى شاطىء النيل حيث استأجرت زورةا وصلنا إلى الضفة الأخرى. وهناك اكتريت مركبة وضعت إلمرأة والطفل عليها كما أضع الحجر الصلد لاحراك به وذهبت بهما إلى أهلى.

« وما وقع نظر والدتى عليها حتى هزت رأسها، أما والدى فالتفت إلى ممعنا النظر ليعلم إن كان بى مرض أو مس من الجنون، لأننى اخترت امرأة لا تصلح لشىء، غير أنهما لم يسخرا بى ولم يوجها لوما إلى كما فعل أصحابى، بل أخذا بتحضير فراش لها. أما أنا فقد اجتهدت الليالى التالية في بناء هذا المكان الذى تراه الآن أنقاضا مكدسة بعد أن كان عامراً بالسعادة والهناء. على أن والدتى لم تلبث أن شغفت بالطفل حبا، لما رأته عليه من ملامح الجمال والحسن. أما أنا فعدلت عن التردد على حى الأجانب حيث تقام الملاهى وتنفق الأموال ضياعاً في سبيلها فاقتصات مالاً اشتريت به رأساً من المعز وقضيت به حاجات البيت. وكانت المرأة في العلم على بكمها تسمع الكلام ولكنها لم تكن تفهم بلغتنا. وأرى أن أكثر الكهان رسوخا في العلم كان يعجز عن تفسير ما ترسمه حركاتها من آيات شكر صنيعتى معها، وما كانت ترغب في شيء أو تعرب عن أمر إلا وكنت أعرفه بمجرد التحديق في عينيها، فهما كانا جنانها ولسانها. وفي أول ما عشنا معاً كانت تنفد منى جملة الصبر وتضيق الدنيا في وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وتضيق الدنيا في وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وتضيق الدنيا في وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وتنهكها وقد أضناها التعب وأنهكها وتشعيق الدنيا في وجهى إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وتنهيه وأنهكها وأنهكها وأنهكها وأنهكها وأنهكها وأنهكها وأنهكها وأنه و مهي إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وأنهكها وأله و مهي إذا رأيتها مستندة إلى حائط، وقد أضناها التعب وأنهكها وأله و كليه المناه و المهراء و

الضعف، أو قمت منزعجا من نومي على بكاء الطفل فكانت تكفي النظرة الواحدة منها لإراحية خاطري ومحو آثار الكراهية من قلبي وإيداع البرحمة والحنان في فؤادى، بحيث كان يخيل لى أن ذلك البكاء غناء يلذ للأذن وعى نغماته المطربة. وكان (بينو) وهو هذا الطفل يبكى أكثر مما اعتاد الأطفال أمثاله في العمر، ومع هذا فكنت أراه جميلا وأرى غيره من الأطفال قبيحا رذيلا. وكانت أصابعه صغيرة ناصعة البياض، فحدث يسوما أن أكثرمن الصبياح فانكبيت عليه لأرفعه عن الأرض فقيض على لحديثي، فسرنى فعله سروراً يقوق الوصف. ومنذ هذا العهد كان سلوانه الوحيد القبض على لحيتي والعبث بها، وأدركت والدته بسكوتي عنه أنني مغتبط بفعله ومحظوظ بمزاحه. وكنت إذا اشتريت شيئًا من الحلوى أو أية حاجة يتفكه بها كبيضة أو زهرة أو فطيرة كانت تأخذ الولد بين ذراعيها وترفعه حتى تلمس يده لحيتي، وكنا قضينا ف هذه الحال أشهراً متتابعة كسبت المرأة ف خلالها من القوة والصحة ما استطاعت به بذل هذا المجهود. وكان عمرها وقتما اشتريتها لايتجاوز العشرين عاماً. ولم أكن عرفت اسمها فكنا نطلق عليها اسم «المراة». وبعد ثمانية أشهر هلالية من مخالطتي إياها توف الطفل بينو فبكيته مع أمه بكاء مرًا وطرحت نفسى على جئته وأخذت أصبيح: لقد قضى الأمر وحم القدر وصارت هذه الأصابع الرقيقة اللطيفة لا ترتفع إلى لحيتي ولا تلامس خدى وجبهتي. وبعد انتهاء دفنه وقعت المرأة في . حبائل المرض فعنيت بأمرها والسدتي حتى استقامت صحتها وتحسنت أحوالها. وكنت أعاملها معاملة البوالد الرؤوف ابنته البارة، وكان شانها يعظم كل يسوم ن نظري بتوافس اسباب السرقة والسدلال في ذاتها، حتى إنها كثيراً ما همَّت بإظهار عطفها على وميلها إلى ولكنها كانت تجد من شيطان عينيها ما يقعدها عن بلوغ القصد ونيل الوطر، ولما وقم جمالها من قلبي هذا الموقم ازداد شغفي بها

وحرصى عليها. فحجبتها عن الأنظار رجاء التروج بها. وكانت يداها من الرقة واللين بحيث لا تمكنانها من مباشرة الأعمال المنزلية حتى حلب الماعز وغيره مما كانت تقوم به والدتى خير قيام، إلا أنها لم تضع وقتها عبثاً بل كانت كثيرة الاهتمام بالتطريز وتشبيك أسلاك الخيط على شكل يحاكى في رقته نسيج العنكبوت. وكانت والمدتى تشترى لها بأثمان ما تنسجه على هذا المثال كل ما تحتاج إليه أو تحب اقتناءه من عطر أوأزهار. وكانت إذا جن الظلام وغادر الزوار مدينة الموتى ترتاض في الوادي وتمعن النظر في بدر السماء، ففي ليلة من ليالي الشتاء كنت عائداً إلى المنزل بعد هد أة من الليل فسمعت الآفاق تردد عواء بنات آوى على مقرية من مغارة الساحرة نيخت، ففهمت على القور تواصل عواء هذه الحيوانات أنها قد دهمت إنسانا وافترسته. وكنت ساعة وصولى إلى المنزل لم أجد المرأة ببابه كما عودتني الانتظار عنده، فانقبض قلبى وضاق صدرى إذ وهمت أن تلك الضوارى افترستها وأنها لخرسها لم تستطع التماس النجدة بالاستغاثة. وقد شعرت كأنما قد خولط في عقلى فأخذت الوتد المربوطة به المعزة وجذوة نار وسارعت إلى منبعث الصوت حيث وجدت بنات آوى متكالبة على المرأة فأجليتها عنها، ثم عدت بها بين ذراعى مغشما عليها. وقد ساعدتني والبدتي على إفاقتها ثم انصرفت فلما انفردنا بالغت في ملاطفتها ومواساتها ومزجت دمعى بدمعها وحسبت نفسى سعيدا باستخلاصها من مخالب تلك الحيوانات الضارية. وتروجت منها عقب الحادثة، ففي ختام العام الشالث من تاريخ شرائي إياها وضعت لي أنثى سميتها (وردة) وهي التي طلبت تسميتها بهذا الأسم بإشارتها إلى زهر الورد فأدركنا مرادها.

« وقد تـوفيت المراة عقب الوضع بيسير، ولاريب في أنه إذا دعائى داعى المنون ومثلت بين يدى أوزريس فجعلني في عداد السعداء والأبرار فلابد لى من السؤال

عنها، فإن أجابنى حارس الأبواب بأنه لا وجود لها فقد هانت على مغادرة هذه الدنيا للحظوة بها واستجالاء محياها الزاهر النضير، ولو كان مقامها في السعير». فسأله الطبيب نبسشت: ألم يطلعك أحد على اسمها؟ فوارى العسكرى وجهه بكفيه وأكثر من الانتحاب والعويل حتى صار لايعى شيئاً مما يسمع. فقال الشيخ بينم: لابد أن تلك المرأة كانت ابنة أحد من الأعيان أو ملك من ملوك هذا الزمان فقد وجدنا في ثيابها مصوغا من ذهب مرصعاً بالأحجار الكريمة ومنقوشا بحروف عجيبة تدل على أنه من أندر التحف وأغلاها قيمة، ولهذا حرصت عليه زوجتى حرصها على إنسان عينها لتسلمه إلى ورده في السن التي يبلغ المرء فيها رشده.

الفصل السابع عشر

انقلاب المناقشة الفلسفية الدينية إلى مناجاة غرامية

في فجر اليوم التالى برح نبسشت بيت المحنط بعد إذ أيقن أن المريضة تماثلت للشفاء وأن لا خطر عليها من جراحها، ومضى في طريقه إلى هيكل حاتاسو تعصف به الهواجس، وكان يرجو أن يلتقى بصديقه بنطاؤر ليستمد من معلوماته الدينية ما يستطيع أن ينفق به التعهد الذي وعد بينم أن يجريه له مقابل ما سيتحفه به كلما لاحت له الفرصة – من قلوب الموتى. وكانت الشمس في ساعة وصوله إلى ذلك المعبد المقدس قد سطع نورها بتمزق حجاب السحاب دونها فعلل نفسه بامنية تشنيف الآذان بسماع ترنيم الكهان نشيد الصباح تكريماً لإله الشمس فتاح. ثم اندفع نحو الباب فألفي البواب قد أخذته سنة من النوم، فأيقظه وسأله عن رئيس الهيكل. فأجاب متثائباً: توفي الليلة. فهلع قلب الطبيب لسماع هذا النعي وسأل غير مصدق: ما تقول! من ذا الذي مات؟. أجاب: رئيسنا الشيخ روني، ذلك الرجل مصدق: ما تقول! من ذا الذي مات؟. أجاب: رئيسنا الشيخ روني، ذلك الرجل الشهم. فاطمأنت نفس نبسشت وأنبهه إلى أنه إنما يسأل عن بنطاؤر. سأل: كيف المقرمين كهان هذا المعبد أبوا مشاركته في إحياء مولد (رع) بنشيده المعلوم؟.. لعله المحترمين كهان هذا النشيد في أعلا المنار فاهرع إليه أو عليك بالانتظار.

صعد الطبيب في السلم مسرعا، فلما شهده بعض الكهنة أخذوا يترنمون بالأناشيد الدينية فلم يلو لهم عنقه، بل أمعن صاعدا حتى التقى بصديقه على سطح

الهيكل متفرغا للتحرير والتحبير ووقف منه على ما اتفق له من الحوادث فصاح قائلا: إنك باستسلامك إلى كهان هيكل سيتى قد وضعت الثقة في غير موضعها وعرضت كرامتك للامتهان وشرف نفسك وعلو همتك للتهمة والتظنى بين رجال معبد حاتاسو الذين عجنت ضمائرهم بماء الخسة والدناءة. وقد كنت أتوقع هذه الحوادث ويحدثنى بها وسواسى حينما أطلعوك على الأسرار الدينية. ومن كان في مثل عقليتنا وثقافتنا لا مخرج له من المأزق إلا بأحد أمرين: إما الكذب وإما السكوت. قال بنطاؤر: لم تتوفق للحق في قولك، فإنا نعلم أن الألوهية واحدة لا تتعدد سواء أسميناها بالكل (۱) أم بغلاف الكون (۲) أم بس (رع). إلا أننا معشر الكهان نعرف أن مدلول الرمز رع غير ما يعتقده العامة، إذ نقول إن الكون هو مظهر الألوهية الصحيحة وأن ألوف من الحادثات التي وقعت وتقع في كل زمان ومكان ليست إلا مظهرا محسوسا وحجة بالغة على أن مقدوراتها لا تحصى وعظمتها ومعلموماتها لا تتناهى، وأنه لا أول لوجودها ولا آخر لابديتها، وأنها

⁽۱) تطلق الكتب المصرية المقدسة على الألوهية اسم الواحد أو الأحد. وقد ورد تفسير مذهب مقارنة الألوهية بالكون في النقوش المشهودة على جدران مداخل قبور الملوك بطيبة وهو يحتوى مدح (رع) والاستغاثة بمظاهره الأصلية البالغ عددها ۷۰ مظهرا. وقد شرح ذلك المذهب والتعاليم الدينية السرية المتعلقة به عند قدماء المصريين العلامة (أرنست لافيل) في كتابه (الأغانى والدعوات الشمسية)، وتتضمن نصوص كتاب الموتى في الفصل المعنون «نشيد الشمس» المحقوظ بمتحف الجيزة وترجمه غريبو واسترن ونقوش توابيت وجدران هيكل بطليموس وكتاب «أيزيس وأوزريس» لبلوتارك وكتاب «أسرار المصريين» تأليف جامبليك وخطبة هرمس تريماجست في الدوح البشرية التفاصيل الاساسية التي غذى بها موضوع الفصل السابع عشر من هذه الرواية.

⁽٢) غلاف الكون معناه باللسان المصرى القديم (تب تم)، وهذه التسمية هي منشأ الاعتقاد بأن شكل العالم كدائرة في وسطها نقطة.

منزهة عن أن يحدها زمان، ومقدسة عن أن يحيط بها مكان.. فقاطعه نبسشت: أرغب إليك الاسترسال في موضوع الكلية ولا عليك منى. قال بنطاؤر: لست أخشى أحداً حتى أكتم الأسرار في أعمق قرار، وما أنا بضان بها إلا على من أعتقد فيهم العجز عن إدراك الحقائق واستقراء كنهها، وهل أكذب إن قلت إنى أتكلم بدلا من قولي إن لساني يتكلم أو إن قررت أن بصرك يرى في حين أن بصيرتك هي التي ترى بوسيلة هي أداة العن؟ إنا إذا تلألأت على صفحات الوجود أشعة الأنوار الإلهية فبهرت الأيصار وحيرت في كبرياء ذاتها العقول والأفكار لا تلبث السنتنا أن تلهج بالثناء عليها لما أولتنا من النعم وأفاضته علينا من غيوث الكرم.. إن رع أسطع مظهر من مظاهرها الحسوسة، فإذا راق لي الاعتبار بمشهد المزروعات النضيرة والثمار البيانعية والأزهار الدانبة القطوف فإنى لا ألبث أن أدعيو من حيولي من المؤمنين إلى القيام بمفروض الحمد لرينوث إلهة المحصولات. أعنى الصفة الإلهية الموكول إليها إنداء النبات وتكوين سنابله وابلاغه إلى النضج الذي بجعله صالحا لغذاء الإنسان، دام حمدها وجل ثناؤها وتعالى ذكرها، وإذا تأملت في القوة المخصية ف هذا النهر الذي عن على الباحثين الاهتداء إلى ينبوعه علت همتي إلى أداء واجب الشكر لمن أمطر علينا سحائب فضله ألا وهو الإله الواحد الذي غرس الأشجار وشق الأنهار وجنى الثمار، هـ والإله (هـابي الخفي) كثيرت الاؤه وحلت نعماؤه.. ولتطمح أحداقنا إلى اللامع العلوى بل إلى ما يسبح فيه من كرة الزمهرير ولننعم النظر في هذه النباتات، وقد زهت في ثوبها السندسي ولنبعث الطرف كرة إلى النيل المفخم فإنا لا ننشب أن نرى في كل ما أبدع وصنع وفطر وقدر، وفي كل ثنية من ثنيات هذه الموجودات وطية من طيات هذه الكائنات دليلا على أنه الإله الظاهر بآياته

الباطن بذاته.. هـو الذي أنشأنا من العدم إبداعا وجعل كل ماق العالم تحت قدرته وتسخيره واستخلفنا على الأرض دون مخلوقاته وآثرنا بإلهامه لندرك حقيقته ونعلم السر وما خفى من كنه نفوسنا. قال نبسشت: إنا معشر الكهان غير مباح لنا أن نكاشف الشعب من أسرار معلوماتنا القدسية بأكثر مما يعطى الطبيب مريضه من كسر الخبر المرطبة بحساء اللحم، لكيلا تعوق هضمه إذا أكلها. قال بنطاؤر: إنما الواجب علينا أن نخفف الأشربة القبوية بشيء من الماء. إذ لا يجوز مشلا أن تعطى الطفل مالا تقوى عليه سوى معدة الجندي. وبعد، فقوة الإدراك في الشعب لا تتجاوزها في الطفل الرضيع. ولقد كان الحكماء والفلاسفة فيما انقرض من الدهر كسون الحقائق الجليلة بثوب الرموز والكنايات ثم يصنفون من أوضاعهم قصيصاً واسساطير تدنيها من أذهان العامة دون أن تنال من كرامتها، ولكن مهما يسترها من ذلك الكساء ويخفها من هذه الأساطير لابد لشعاعها الباهر من السطوع ولسرها الخفي من الشيوع. سأل نبسشت.. السطوع .. الشيوع.. وماذا كان إذن الغرض من الكساء؟ أحاب بنطاؤر: أطننت أن أفناء الناس يستطيعون النظر إلى الحقيقة مجردة من لباسها (١) دون أن يردوا موارد اليأس ويلم بهم البأس. سأل: وهل لمثلى أن يراها، بل هل منا من هو متصف بالصدق الحض ليعترف بأن الحقيقة لم تنحدر قط به إلى غيابة الهموم والأحرزان؟ ألسنا نعلم أيها الصديق أن أحوال البشر لا تراها العين في صورتها الصحيحة وقالبها الحقيقي، بل يرى هذه الصورة

⁽١) يوجد على تمثال نيث ببلدة (صا) نقوش هذه ترجمتها «انا القديم في الأزل والمرجود في الحال إلى ابد الاباد لا يستطيع احد من المخلوقات أن يدرك كنه حقيقتي أو يرفع جانبا من ستارها، وقد ورد ذلك أيضا في كتاب أيزيس وأوزريس لبلوتاوك.

منعكسة في مبرآة الأهواء النفسية .. إني مثلا أرى أسود ما أظنه أسود وأبيض ما أخاله أبيض ولكنى أسمو دائما إلى استقصاء الحقيقة الكفيلة بإدراك الأشياء على وجهها الصحيح وفي قالبها الذي صببت فيه وأروض نفسى على اعتياد ألا يكون لآرائي الشخصية دخل في تحديد أشكال القبوالب ولا في تقرير الحقائق. وأنت مثلي تحري وراء تمجيص حقائق الأشياء بالنشاط وصيدق العزيمية، غير أن الأفكار سرعان ما تتحول حقائقها ف نفسك. ذلك لأن ف قلبك عمالا لا تدركهم الأبصار همتهم منصرفة إلى تقويم المعوج وإصلاح الفاسد وتحسين القبيح والتبديل من كل شيء بضده. ومنا هو إلا لأنك شاعس يمضى به الخيال في تيار الوهم، ومنا هو إلا لأننى ممن يجدون في البحث عن الحقيقة يلتقط ونها حيث يجدونها ، تدركها أبصارهم وتلمسها أصابعهم. قال بنطاؤر: طموحك إلى الحقيقة لمما يضاعف لك احترامي ويرفعك إلى أسنى المراتب وأشرفها، غير أنك عليم بأننى ما طاردت في حياتي ولن أطارد إلا الحقيقة الشاردة، فهي مطمحي وضالتي في كل زمان ومكان. قال نبسشت: أحل إنبي لذلك موقن ولكن ما أشبهنا الآن ونحن نجري في طريقين متوازين بفرسي الرهان في الميدان، نبقى – مادام الجرى – متوازيين لا نتلاقي أبداً وجها لوجه مع وحدة الغاية التي نسعي لإدركها، وهي حل مختلف الأصاجي والمعميات العلمية والأدبية. ولقد يجول بخاطرك أنك تستطيع التمييز بين صحيح الأشكال وفاسدها مع ما في قدرتنا من تعرف الصحيح منها. قال بنطاؤر: خليق بنا الاقتصار على الشكل الأجمل الذي يوافق مشتهانا. صاح نبسشت: الأجمل.. إذا كان السر العجيب الذي تسميه الألوهية جميلا وينبغي أن تكون القوة المتولدة من تواتر تلاشيها وزوالها جميلة أيضاً فعل الدنيا العفاء.. تقول إن الربوبية هي الكون

وأن الكون مظهر السربوبية وأنها دائمة أبداً لا تعطى ذرة من السرمل ولا شعاعا من الضوء ولا نسيما من الهواء إلا وتسترده وتـؤلف منه وجودها، وتقـول إنها خفية عن الأبصار وبينها وبين المدارك العامة ستار وأنها تعلم كنه ذاتها علمها بجميع المعلومات لا يعزب عنها مقدار ذرة في الأرض والسموات.. إذا سلمت لك بهذا القول جدلا فلل أخالك تقصد بكلامك سوى القوة القاهرة التي لا مصدر لها إلا العماية والجزاف، قال نبسشت: إن ما تقوله لن شر الكفر والإلحاد اللذين تقشعر منهما الأبدان.. أوَّما دريت أننا بالعقل بلغنا إلى تعليل الكلية وعرفنا أنها فاعلة الأرواح والأشباح ومحركة الأفسلاك المديرات ومقررة الأرض وممهدتها للحيبوان والمعدن والنبات؟ سبال نيسشت: لكن ما قولك في تطبور الأشباء والكائنات وما يعتريها من السقوط و النهوض والخفاء والظهور.. أفي هذه التقلبات ذرة من الحكمة والعقل وهل ترمى إلى غرض كائن وغاية معينة؟ إنك بإسناد العقل إلى الكلية العظمي تخدع نفسك بالأباطيل التي أخشى أن تذهب بك إلى ادعاء المشابهة بينك وبين الألوهية لمجرد توافر المشابهة بين هذه والآلهة الرحيمة التي تمثلونها في الهياكل تمثيلا. أحاب بنطاؤ ر: المشابهة التي تحدثني بها خيالية لا حقيقية وظنية لا قطعية، إذ لبيان الحقائق وتفهيم الأسرار يجب إبرازها ف مظاهرها المحسوسة ليسهل إدراكها والاقتناع بها، ونحن لا نسمى الألوهية بالكلمة إلا إذا تجلت لعقيدتنا في مظهر العلة المبدعية للكون البواهية للعقبول، وإنها كما ورد ف النصوص المقيدسة القوة التي أحكمت صنع كل شيء وسبكته ف شكله الذي عليه قوامه ولا يصلح إلا به، فالجعل(١) الذي نذهب إلى أنه ولدها يذكرنا بالقوة الفكرية للكلمة الموجدة من العدم

⁽١) الجعران

كل شيء والمتجددة من ذاتها بذاتها على الدوام. ولقد جاء اختيار هذا الرمز حكيما لصلوحه من كل الوجوه، فأنت أدرى بأن ليس للجعران أنثى وأنه يتولد من ذاته بذاته. قال نبسشت متبسما: إن تكن القواعد التي تقيمون عليها أسراركم الدينية من طراز اختيار الجعل ابنا للألوهية لأنه لايتناسل من أنثى فما أوهاها من قواعد وما أقربها إلى التداعى والانهيار. انقضت سنوات عديدة ولا رفيق لى في أبحاثى ودراستى سوى الجعل الذي وقفت على أسرار حياته ونظامه العضوى. وأقل ما عرفته من هذا النظام أن منه الذكر والأنثى كما هو من القرود والسنانير وبنى الإنسان. ولو أنى أمعنت النظر في قواعدك الدينية لما وجدت بداً من التمييز بين أمرين: العنصر الطيب والعنصر الخبيث. فإذا تقرر هذا عندك فقد وجب أن تجاوبنى عن: الأسئلة الآتية: هل الكلية هي الألوهية؟ هل الكلية طيبة وليست بخبيثة كما جاء في تعاليم أجدادنا وتقايرهم؟ هل هناك – فيما عدا الألوهية – ما يمكن وصف بالكلية؟ وأين مكان الشر في هذه الأحوال؟

فتربد وجه بنطاؤر غضباً وتذمراً إذ ثقلت هذه الأسئلة على سمعه وقال: صاح إن كلامك ككلام صبية المكاتب ولكنى أرد عليه بأن كل موجود حسن ومعقول ف ذاته إلا أن الإلى الواحد الأحد القادر القهار ملهم الشرائع ومناهج الحق وواضع أساسها على قرار مكين هو الذي يعطى الزائل صفة الدوام بما يسوقه إليه من أسباب التجدد المستمر، فتراه يتشكل بمختلف الأشكال. فما نسميه الآن الشرأو المصيبة يرجع إلى سبب رباني حسن في ذاته ومعقول في وسعنا إدراك غايته الحقيقية إذا ألهمنا الرشد والصواب على غير انتظار، إلا أننا تعودنا النظر إلى الشياء من وجهها القبيح، لأنه لما كانت الروح الإنسانية يعبيها النقص كان ديدنها

الانصراب إلى الرسائل لا إلى الغايات والنظر في الجزئيات لا في الكليات، فأصبحت أشبه ما يكون بالجهلاء الذين ينتقدون الموسيقار لأنه لا يجيد أداء لحن من الألحان مع أنه لم يفاجىء الأسماع بما يخالف القواعد الواجبة الابتاع إلا لتهيئة السامعين للتمييز بين الغث والسمين. وإنك لترى الطفل يسب الأشجار السامقة ويعيب أفنانها الباسقة لا لشىء إلا لعجزه عن اجتناء ثمارها اليانعة. وهو يجهل ما أودعته الطبيعة هذه الثمار من بدور لو غرست في الأرض لأتت بنبت نضير لا يلبث أن يصبح من أكبر الأشجار. على أن الشر الظاهرى ليس هو الدريعة إلى السعادة الحقيقية كالموت ليس هو إلا عنوان حياة جديدة ورقدة يستريح المرء فيها بعد السهاد. وهذا ضياء الشمس في أفاق الغرب، ألا تلاحقه جنود الظلماء ليصبح في الغد متألق السناء؟

قال نبسشت ساخراً: أعتقد كل ما تقول لأن كلامك—مع ما فيه مما تعافه النفس وتحتج عليه العراطف— لا يكتسب بمروره بين شفتيك الذهبيتين إلا رقة وانسجاما فيتلقفه السمع وتسيغه المدارك،غير أن في قدرتي إدحاضه بالأدلة القاطعة والبراهين المقنعة فأثبت مثلا أن الشر هو الحاكم المطلق على الكون والمتصرف فيه بإرادته الجائرة وشهواته المتحكمة. حقا قد تغفل عنا عينه أحيانا فيدعنا نستمتع بشيء من السعادة والهناء، ولكن ما هذه السعادة إلا تعساً وشقاء بل صدقة كاذبة جرت على يد بخيل برحت به آلام الحياة. وما أراه الآن صواباً هو أن الحياة ثمرة الشهوات للنفسية، وأنها مازالت في معترك دائم يذهب المغلوب فيه فريسة الغالب.

قال بنطاؤر: أنت لا تحس – إذن – جمال العوالم الخفية، بل لا يتطرق الخشوع والاعجاب إلى نفسك إذا تأملت في النواميس المدبرة لحركة الكائنات لا يعتورها تغيير ولا تبديل؟ قال الطبيب: الجمال الذي تشير إليه لم أنس من نفسى ارتياحاً

لرؤيته، ولعل سبب ذلك نقص في بعض مشاعرى كان حقا عليها أن تلقى هذا الميل في روعى، على أن هذا لم يحل قط دون تمتيعى الطرف بالنظر في الجمال الخفى كلما جاذبتنى أطراف الحديث فيه لأن براعتك في تصويره على ذلك الوجه الرائع يكفينى مؤونة التنقير عنه والجرى وراءه، ومع هذا فإنى ممن يقدرون نواميس الطبيعة وهي قوام الكون وروحه المتشععة في أرجائه حق قدرها، فأنت تطلق لفظة (تم) أي الأحدية على ما يفيد معنى المجموع أو الوحدة التي تتألف من تضام الاف الآحاد بعضها إلى بعض وهو تخريج جميل يؤخذ منه أن ناموس الأعداد هو المهيمن على الكون إذ به يتيسر حساب المقاومات وتحديد مجموعة القوى المطردة والمنعكسة في الطبيعة، ولكن ليس في هذا الحساب ما يشير إلى جمال أو يدل على رحمة.

قاطعه بنطاؤر: هذا القياس إنما هو نتيجة أبحاثك الغريبة. فإنك تواصل الليل بالنهار في القتل والذبح لاستبطان أسرار الحياة وكان خليقاً بك أن ترمى إلى غايتك من طريق البحث في الكائنات الحية المنتشرة على وجه الأرض. افتح عينيك وتحر بهما أسرار الحياة نفسها لا في الموت، يكن لك عن مثلي غنى للشعور بجمال العالم. واعلم أن الألوهية التي إليها ترفع صلواتك وتوجه دعواتك لا حول لها ولا قوة. قال نبسشت: أنا لا أصلى ولا أدعو لأن النواميس المدبرة لهذا الكون والمسيطرة على حركته لاتشعر بصلواتي ودعواتي. ثم من ذا الذي أخبرك بأني لست ببالغ مرادي من استكشاف أصول المخلوقات واستبطان أسرار الكائنات؟ ألم أكن الآن أكثر وقوفاً منك على سر حياة الجعل؟ لقد قضيت على حياة حيوانات لا حصر لعددها واستقصيت بالبحث حقائق أنظمتها العضوية وأطوار نموها منذ ساعة ميلادها إلى حين مو تها.. وجائز أن يكون هذا العمل قد طمس في قلبي معالم التفكر في الجمال،

ولكن ثق بأن البحث في أسباب الولادة والوجود كالبحث في أسباب الموت والعدم كثيراً ما يفضى إلى حبوط الآمال وتثبيط الهمم.

حدق بنطاؤر في الطبيب بعين المستفهم، فاستأنف هذا حديثه قائلا: أرى مو. الأفضل لتفهيمك مرادى الاستعانة بالأمثال والتشابيه. أنظر إلى هذا النبيذ ألم يكن عطرى الرائحة شفاف المادة، ومع هذا فلم يستضرج إلا بعصره من قطوف العنب دهساً بالأقدام الملوثة بالتراب؟ ثم انظر إلى هذه السنابل التى تنوء بحمل ما تحتويه من الحبوب كيف تلمع كالعسجد مع أنها لو وضعت بين شقى الرحى لاستحالت إلى دقيق أبيض كالثلج ذى رائحة زكية تتحراها الخياشيم، ومع هذا فقد أخرجته حبة وضعت في الأرض فتعفنت فيها بما سيق إليها من الماء ومواد النماء، ولطالما سمعتك تعجب بالردهة الكبرى في هيكل آمون (١) الذى سيبقى مدى الدهر المثل الأعلى لمانة التذجيد وحسن التنضيد، هذه الردهة شهدت البنائين يرفعون منها يتطاير العثير بينها إلى عنان السماء فيسد مسالك التنفس ويعمى الأبصار، وكان يتطاير العثير بينها إلى عنان السماء فيسد مسالك التنفس ويعمى الأبصار، وكان أغلب العمال يمرتون بحر الشمس وتفتك بهم الحميات الحاصدة للأرواح، فلو أنى كنت شاعراً مثلك لصورت هذه المناظر القبيحة في صورة ينبو عنها النظر وتشمئز منها النفس ولما قلت عنها قط إنها جميلة دون أن أقف على أسباب حدوثها،، ومع هذا فيكفينا البحث الآن في الحياة والقوة الخفية المسببة للوجود أو العدم.

⁽۱) بدىء بناء هذا الهيكل في عهد رعمسيس الأول وتم في عهد سيتى الأول ورعمسيس الثاني، ولا يوجد على سطح الأرض بناء يضاهيه في الفخامة والدقة والمتانة لاسيما القاعة الكبرى منه التي كانت محمولة على ١٣٤ عمودا ضخما منقوشة بأبدع وأدق نقش.

قال بنطاؤر: ما كنت حتى الآن أدرى أنك ترمى من أبحاثك إلى غاية معينة، وليتك كنت تفرغت لدراسة علمي النجوم والمواقيت لأسالك إن كان لما يطرأ على الحيوان والنبات من التطورات ارتباط بقانون ثابت أو كمية معينة أو اتساع محدود كحركاب الكواكب. قال بنسشت: ما أبدع هذا السؤال وأجمله.. ألا تكون اليد القوية القديرة التي نثرت هذه الكواكب في الفضاء وجعلتها تجرى في أفلاكها قادرة أيضاً على تقدير طيران العصفور واحصاء خفقان قلب الإنسان.. قال بنطاؤر متبسما: ها قد طرقنا باب المعضلة معضلة القلب، وهل بذلت من المساعي ما يبلغك إلى الغاية المطلوبة؟ قال نسشت: من المرجوّ أن أحصل غداً على ما أطمح إلى معرفته. وإني أرى في دواتك مدادين أحمر وأسود، أفتسمح لي بقرطاس لأدون فيه ما خطر بالبال من الخواطر والأفكار؟ أجاب بنطاؤر: خذ ولكن خبرني قبل أن تكتب. قال نبسشت: لا تسألني شيئاً مادمت لا تستحسن مشروعي، وربما جار الكلام إلى الجدال والخصام. فأهوى بنطاؤر بيده على كتف صديقه وقال: إنى موقن أن الخلاف بيننا لن يخشى منه على ما يربطنا من المودة الوثيقة العرى. وهل لم يكن ما ثار بيننا حتى الآن من ثائرات الخلاف والتعارض في الآراء ممتناً لعقدة هذه المودة ببننا؟ قال نبسشت: كان ومازال كذلك مادام أنه لم يتعدّ الآراء إلى الأفعال. قال بنطاؤر: وهل مازات باقياً على إصرارك على البحث في قلب الإنسمان؟ تفكر قليلا يا أخي وصديقي من الناس كلهم وتأمل فيما أنت عليه الآن مقبل.. إن القلب يحتوى مبدأ الحياة وعنصرها الأول وهو العضو الرباني الذي يزيح لنا الستار عن العوالم الخفية التي تسبح في أجوائها الأرواح. سأل نبسشت مغضباً: أوأنت واثق مما تقول؟ إن تكن واثقا فهات بسرهانك، إذ من من الأطباء اجترأ حتى اليوم على تشريح القلب؟ أما

دريت أن الكهان إخواننا يحسبون القلب من أقدس أعضاء الجسم وأحقها بالصيانة والاحترام، ولو كان قلب أشقى الأنام؟ وإذا كنا بحضرة مريض وأخذنا الشك في حقيقة دائه وتولتنا الحيرة في تقريس دوائه، ثم أسقيناه من بعض المركبات الدوائية حرعة لم يحصل له بها المرجو من الفائدة والمنفعة، أفسلا يكون ضررها أكثر من نفعها؟ وهسلا يجب أن تقع مسؤولية هذا الخطأ وهذا الاعتلال على من يسوقنا في طريق الغواية والضلال، ألم نكن الآن أشب بعلماء النجوم الذين يطلب إليهم رصد الأفلاك من نافذة مغلقة؟ لقد رجوت وأنا بمدرسة عين شمس من الكاهن الأعظم (أور مارع حوتب) وهو من أساطين العلم وجباسرة الفكر وأركان المباديء القويمة أن ياذن لى بتشريح قلب أحد الآمو فسرفض طلبي بعلة أن الإلهة (سخت) تقود إلى دار السعادة الأبدية والرضوان كل من اشتهر ف حياته من الساميين(١) بالفضائل ومكارم الأخلاق. ولقد أقمت على مضض السرفض طويلا حتى عيل صبرى وعلمت أن وساوس القوم تحول بيني وتحقيق أمنيتي، وذلك لاعتقادهم أن استئصال قلب الحيوان يزج بالعابث به مهواة الخطيئة. وهم يذهبون في ذلك إلى احتمال أن يكون هذا القلب سكناً لروح بشرية لاذت به، لا يبعد أن تكون روح شخص من المكوم عليهم فالزمت تبل التمتع باستجلاء وجه الأحدية أن تقضى العقوبة المفروضة عليها وتطهر نفسها من أدناس الخطايا وأرجاسها بالعيش زمنا ف جسم حيوان دنيء، غير أن هذا الاعتقاد لم يقع عندى موقع القبسول فقلت للكاهن الأعظم إنه لابد

⁽١) تؤييد ذلك الكتابات التي نقشت في عهد سيتي الأول والرسوم التي تمثل الشعبوب الأربعة وهي شعوب المصريين والساميين والليبيين والأوتبوبيين

أن يكون جدى انطبيب نبسشت قد فحص هذا العضو قبل تأليفه رسالته المشهورة ف القلب(١) فأجاب بأن ما دونه جدى فيها لم يكن ثمرة فحصه وبحشه بل نتيجة الوحى والإلهام، ولهذا أصبح كتابه ضمن كتب توت المقدسة (٢). ثم أخذ الكاهن الأعظم يلطف بي ويكسر من حميتي ويلويني عن متابعة البحث والتقصى قائلا: إن الأخلق بي منزاولة مالا يجلب من الأعمال قلق الخاطر وتعب الضمير، وأن أنتظر ريتما تتجلى لى الحقائق عن طريق الإلهام الربانيّ.. وكنت آنئذ في عنفوان الشباب ولى شعف بالبحث في العقائد الدينية وميل إلى أداء الصلوات في أوقاتها فلم أشأ مخالفته ، إلا أني كنت من جهة أخرى أحس نار الميل إلى البحث والتحقيق تتوقد في قلبي فاجتهدت أن إخمادها وانقضى بعد ذلك أمد لاحظت بعقبه أن سحابة مظلمة قد غشيت عقلى فحالت بيني والحقيقة الساطعة، فعقدت النية عندئذ على البحث في قلوب الحبوانات بأنواعها فبدأت بالطيبور ثم ثنيت بالجرذان والأرانب فكنت بعد ذبحها أشق قلوبها وأمعن النظر في قنوات الدم المتصلة به فلم يزدني هذا علما، لأنه كان بجب لتقرير المسواب وتحقيق الحق فحص قلب الإنسان لا قلب الحيوان. قال بنطاؤر: عياذاً بالله.. ماذا تقول؟ أتريب مغالبة الألوهية باستطلاع الأسرار الخفية؟ سأل نبسشت: أقرأت رسالة جدى في القلب؟ أجاب الشاعر: تصفحتها لأنني كنت كلما قلرت فيها النظر لا يقع على شيء سوى لفظة «القلب»، وأن القنرات الدموية المتشعبة في الرأس واليدين والمعدة متصلة بالقلب لأنه المركز الذي يندفع الدم منه

⁽١) هذه الرسالة هي أهم قراطيس ايبرس وأعظمها فائدة. وقد نشرها المسيو انجلمن بمدينة لبسك.

⁽Y) كان يسميها قدماء اليونان كتب هرمس.

إليها. وقد فهمت منها أيضاً أن الحالات المختلفة التي تطرأ على النفس من غضب وألم واحتقار إلخ، تؤيد آراءه في القلب. قال الطبيب: نعم هذا هـ و موضوع الرسالة وقد دارت بيننا المحادثة فيه وأرى أن جدي أصاب في كلامه عن الدم وعلاقته بالمشاعر وما أخطأ. أما الإدراك فمركزه غير مركز القلب. ثم رفع يده إلى جبهته وقال: هنا.. ولقد بحثت في مئات الرؤوس ونزعت أغشية جماجم الحيوانات وهي حية (١) ولكن دعني أكتب قبل أن يجيء أحد فيزعجنا. ثم تناول اليراع فغمسه في دواة المداد الأسود المتخذ من فحم البردي وكتب بالحروف الهيراطيقية الجميلة (٢) التذكرة التي وعد المحنط أن يزوده إياها. وقد ضمنها أنه هو الذي كلف هذا الشيخ أن يوافيه بقلب إنسان وأنه يتحمل عنه تبعة هذا الجرم إن ثبتت إدانته أمام أوزريس وقضاة الأموات.

وما أتم كلامه حتى مد بنطاؤر يده لتناول الكتاب، فعجل نبسشت باخفائه ف مخلاة صغيرة كان يحفظ فيها الأحجبة التي علقتها والدته ف رقبته وهي تعالج

⁽١) جاء فى قرطاس ايبرس الطبى ما يشير إلى فائدة معالجة العيون بنضاع الإنسان، وكان نبروفلس أحد كبار العلماء فى مدرسة الاسكندرية (رواق الحكمة) يستعمل فى تدريس فن التشريح أجسام المجرمين الذين صدر فيهم حكم الإعدام وهم على قيد الحياة، وكان يذهب إلى أن مركز الروح فى التجاريف الأربعة للرأس.

⁽٢) كان للمصريين في عهد حوادث هذه الرواية كتابتان: الهيروغليفية ، وكان غالب استعمالها في النقوش المنقورة أي المرسومة على الآثار وكانت حسروفها عبارة عن إشارات ورموز اتفاقية، ثم الهيراطيقية وهي خاصة بالتسطير على الورق، وفي القرن السابع بعد الميلاد كانت هذه الكتابة شائعة الاستعمال في التجسارة وسميت بالديموطيقية. ولاتـزال الكتابتان مبدأ للكتابات القديمة الموضوع مصنفات دوروجيه وبروكش وماسبيرو وأيبرس،

سكرات الموت. وقال متنهداً: هكذا أفعل معك بيا بنطاؤر، وإني لأستودعك الله. فاعترضه الشاعر ومنعه من مزايلة المكان ملحاً عليه في العدول عن نيته ومبينا له سوء مغيتها، فلم يعبأ الطبيب بقوله. وكان بنطاؤر ممسكا بيده يشدد عليها الضغط لئلا بتمكن من الإفلات، فقال بصوت المتسجير: ماذا.. لقد عصرت أصابعي عصراً الذي. قال بنطاؤر: عفواً يا صديقي، فإنك تعلم قوة يدى وعذراً فإنما شدة ضغطها على أصابعك بقدر مخالفة مشروعك للصواب والعقل. قال الطبيب ضاحكا: نعم إن مشروعي مخالف للصواب والعقل، ولكن ألا تعلم أن بنا -معشر المصريين-ميلا إلى الحنون ومحبة للنزق والطيش فنبيع منازلنا وأراضينا ونضيع أموالنا في الملاذ والترف؟ قال الطبيب: إذا جازت إضاعة المنازل والأراضي ويعثرة الأموال فلا يجوز أن تعرض للهلاك حياة ربما كانت ينبوع سعادة وآمال كبار. قال نبسشت: أكرر لك يا صديقى أنى لا أسلم بأن يكون القلب مركز الإدراك.. ومع هذا فلابد لى من متابعة البحث لتمحيص هذه الحقيقة. ولا يهمني إذا مت أن أدفن بقلبي أو بقلب شاة.قال الشاعر: لا أقصد بكلامي الميت الذي تنزع قلبه من بين جنبيه ليبدل به قلب حيوان، بل أقصد الأحياء، لأنه إذا فضح سر الشيخ بينم وثبت أنه اعتاض عن القلوب بقلوب غيرها مرضاة لك فإنه يجر على نفسه عقوبة الإعدام، وعندئذ لا تكون أنقذت وردة من غائلة المرض إلا لتلقيها في هاوية الفاقة والأحزان.

فحملق نبسشت بعينيه إذ لم يخطر بباله قط أن يؤذى جد وردة فكان في هذه الآونة كالنائم الذى يهب من نومه فيكون أول من يلتقى به مخبراً بشوم أو نذيراً بسوء ثم قال: انى أقاسم وردة وجدها بينم كل ما أمتلك. سأل الشاعر: ومن

يحيمها ويدفع أذى الناس عنها؟ أجاب الطبيب: والدها الجندى. سأل الشاعر: وهل لرجل مثله – غليظ الطبع ديدنه السكر ليل نهار – أن يتعهد تلك الوردة النضيرة بما ينميها ويصون نضرتها؟ وإذا سافر إلى مكان سحيق للقيام بفروضه العسكرية فماذا يكون الحال والشأن؟ أجاب الطبيب متلعثما: أما الرجل فشهم كريم وقد خبرته بنفسى، ولكن من ذا الذى يجرؤ على الإساءة إليها وجمالها رائع وحسنها كضوء القمر ساطم؟

فاه بهذه الكلمات واحمر وجهه حياء كما يحمر وجه الأوانس الخرد ثم استأنف الحديث فقال: لقد وافقتنى على أنها جميلة ولئن أكن عاجزاً عن الافصاح عما يجول بضميرى ووصف ما استحسنه من الصور والمرائى، فقد شعرت بأن ما قصر عنه لسانى قد تملك جنانى وأثار فى نفسى من العواصف وحرك من السواكن ما أسكرنى بخمرة الحب والهيام. وهذه أول مرة عطفت فيها على مريضة، ولكم قضيت من الوقت إلى جانبها ولا هم لى غير التأمل فى شعرها وتعداد أنفاسها بينما يقصد انناس إلى الهيكل فى طلبى لأعالج مرضاهم، وأخشى أن يدفعهم حب الاطلاع يقصد انناس إلى الهيكل فى طلبى لأعالج مرضاهم، وأخشى أن يدفعهم حب الاطلاع وما فيها منذ جئت إلى هنا لأن وردة الفاتنة بحسنها الغض قد جذبتنى إليها وكبلتنى بقيود حبها. ولو كنت كالعامة في أوهامهم لقلت إن بى مساً من الشيطان أو عقلة من السحر، ولكن الحقيقة غير ذلك لأن الميول البهيمية قد اضطرمت فى قلبى منذ رأيتها طريحة الفراش فتغلبت على عاطفة الطهر والعفاف التى مقرها الدماغ.

أن تلك الميول غالبة في نفسى على هذه العاطفة التي تقول أنت إن مصدرها الألوهية.

وكان قد بلغ التأثر من نبسشت أثناء حديثه ما لفت نظر بنطاؤر الذى حدق فيه بعين تخامرها الحيرة والرفق ولبث الاثنان ساكتين فترة من الزمن تناول بنطاؤر بعقبها يد صديقه وقال له: إننى أحس فى نفسى انفعالا كالذى تشعر به ويجب عليك ألا تجزع، فما الانفعال الذى يحس به كلانا إلا أشر من آثار الرفق الذى يعلو فوق الشعور العادى، وإن يكن من نوعه. واعلم أن الذى حرك فيك الساكن ليس هو ما تسميه الميول البهيمية وإنما هو سر ربانى كنار يذكيها دوام تفكرك فيما يتأثر به قلبك من العواطف الكريمة كالحب والأمل وغيرهما. ولقد ذكرت لك أن الخير من أجل ما يتحل به سكان السماء من الصفات. فإذا كنت لاتزال على ما عهدته فيك من الميل إلى الخير بفطرتك ومحض إرادتك فلا ريب فى أنك تتمنى أن لو تحولت البحار إلى سعادة وهناء لتهديها من تحب.. أفلا تشعر فى نفسك الآن بنزعة إلى تضحية كل نفيس عندك لإرضاء وردة ودفع الأذى عنها؟

لم يستطع نبسشت الإجابة عن هذا السؤال لما عراه من الدهش والذهول فأوما بالإيجاب. أما بنطاؤر فقد استأنف حديثه قائلا: إذا كان الأمر كما ذكرت فلم لا تخضع للتأثير الربانى الذى ألبسك الآن شوب الذهول والحيرة ولم لا ترأف بوردة وتحب الخير لها وتضحى في سبيل هذا الحب الأمنية المستحيلة التي أزعجت خاطرك وأقلقت بالك؟.. وكيف تبحث عن أسرار الحياة والروح دون أن ترى دلائلها ومظاهرها العديدة فيما برأ الله من الكائنات التي جعلها لك كتاباً تقرأ فيه ما شئت بدون تكلف عناء ولا شقاء؟ .. أما فكرت فيما يصيب وردة لو حرمت جدها حارس

خدرها حامى نمارها، وهى كما تقول أحب الناس إليك وأسماهم مكانة في نفسك؟ ألا ترى أن هذه 'لفتاة التى تفتن النساك بجمالها الساحر وحسنها الزاهر تصبح عرضة للسقود فيما ينصبه لها من شباك المكايد مئات الدنين استعبدت نفوسهم النزعات الشهوانية فعكفوا على الملاذ والملاهي؟ وهل ترضى بما تزل فيه قدمك من الهفوات أن تكون سبب انضمامها إلى الراقصات في حى الأجانب فتخلع شوب العفاف والصون لتلقى به في مهواة العار؟ بل أتود أن تقذف بتلك الوردة النضيرة من حالق لتعبث بها أقدام المارين؟ وهل يستوى عندك قلب الميت وروح وردة؟ أما لهذه الروح في نظرك رجحان وفضل على هذا القلب؟ اتق الله وانصرف إلى بيتك ثم عد في الغد إلى أنا صديقك الذي كان من أجل نعم الألوهية عليه علمه بجميع ما مر وما يمر بخاطرك ويخفق به قلبك ومشاطرته إياك ما ينتابك من الآلام، واعلم أن مكاشفتك إياى بسرك قد زاد عقدة المودة بيننا وثوقاً، فثق بإخلاصي واعتمد على محمتى في كل حن.

ثم مد بنطاؤر يده إلى نبسشت فتلقاها هذا بين يديه ثم زايل المكان دون أن تنبس شفتاه بكلمة واحدة وأخذ يسير رويداً رويداً غير متأثر بحرارة الشمس التي كانت ترسل أشعتها الحادة كالسهام النافذة إلى طريق مهجور يفضى بسالكه إلى الجبل ووادى المقابر الملكية ومنهما إلى دار المحنط بينم حيث رأى والد وردة جالساً إلى جانبها فدنا منه وسأله عن والده الشيخ فأجابه: انطلق إلى بيت التحنيط بعد أن كلفنى اتذكيرك بالعهد الذي عاهدته عليه إذا وقع له ما لا يود من الحوادث. وكان مكفهر الوجه منزعج الضمير حينما انصرف عنا لأنه كان قد وضع قلب الشاة في

مخلاة يحملها وأسرع إلى ذلك البيت دون أن يخبرنا عن سبب أخذه إياه، وها هى ابنتى وردة تريد منك الجلوس إلى جانبها حتى يعود أبى أو تتم والدتى عملها. أما أننا فسأذهب إلى هرمونتيس (١) التى يعانى بها أسرى القتال ضروب الإهانة والإذلال.

⁽١) هي أرمنت الآن وكانت واقعة جنوبي طيبة على مسيرة يوم منها

الفصل الثامن عشر

هبات وعطايا سنية .. لأغراض ذاتية

بينما كان نبسشت يتحدث إلى بنطاؤر ووالد وردة وقع من الحوادث في حديقة دار مينا ما يستحق أن يؤثر، فقد كانت راتوتي تروح وتغدو في ظل أشجارها وعلى وجهها من علامات الانزعاج والقلق ما يسهل على المتصفح أن يتبينه، وكانت كلما طفرت في سيرها بخطوة وثب خلفها هر أبيض ظريف الشكل وثبة عنيفة وتعلق بذيل مطرفها الخز الذي كانت تميس فيه دلالا وزهوا، ثم التفت وراءه حيث كان القزم نيمو جالساً على عمود صغير يحمل تمثالا من الفضة اضطرت راتوتي منذ أيام إلى بيعه لتسد عوزها بثمنه، وكان نيمو يحب الجلوس على ذلك العمود ليتمكن من مواجهة محدثه، لانه كان إذا وقف على الأرض اضطر إلى جعل رأسه في الوضع الذي يجعل رأسه فيه من يتصفح السماء ليدعو الله أن يغفر عما تقدم من ذنبه.

تحولت راتوتى بغتة نحو نيمو وبعد أن هرولت إليه قالت له: إن تبين لى أن ما نقلته إلى من الكلام غير صحيح وأنك خدعتنى فالويل ثم الحويل لك! قال: إن ثبت عندك أنى خدعتك فلك أن تلقينى إلى النهر لتلتهمنى التماسيح. وعلى أى حال فسأحاول الوقوف على الطريق الذى سيتبعه بعاكر فى تقديم النقود إليك.. سألته: أو تقسم لى مرة أخرى أنك لم تذكر اسمى حينما طلبت إلى بعاكر أن يهم بإسعافنا وإخراجنا من مأزقنا؟ أجاب: أقسم لك بأيمان الأرض جميعاً أننى لم أذكر اسمك، أما الرجل فقد أنست منه ميلا صادقاً إلى مساعدتك خيل لى معه أنه ربما استصغر ما سيعرضه عليك من أمواله الكثيرة فجعل تحت تصرفك مزارعه الواسعة وقصره

الباذخ الشامخ في مقابل نظرة يستحلى بها طلعة نيفرت. فتنفست الصعداء وقال ليت مينا كان يحبها كابن خالتها. قالت هذا واستأنفت السير رواحا وغدوًا. وكانيمو لا يكف عن الشخوص في باب الحديقة، فوقفت راتوتى بغتة وقالت له بصو مزعج: إنى أفضل بقاءها عزبة. فهبط نيمو من علوة مكانه قائلا: لقد وقفت بالبه مركبة لعلها مركبة الموهار، وما هذا الذي أسمعه إلا نباح كلبه الكبير. أفتأذنين باستدعاء سيدتى نيفرت؟ قالت بصوت خافت: كلا.. ثم سقطت في كرسى قر منها واستلقت على ظهرها كمن تخور قوته وتتفكك مفاصله، فاختفى نيمو الأشجار وأوغل بعاكر في الحديقة وقصد إلى مكان راتوتى بعد إذ وقع عليها بم في استقبلته بجنان ثابت وجأش رابط وحيته بما لايخرج عن المعتاد من مظاه الحفاوة، وقالت له: تفضل اجلس فقد كنت على يقين من حضورك، وإنى لارجو تزول آثار البغضاء لتحل بيننا محلها المودة القديمة الوثيقة العرى.

وكان حضور بعاكر بنفسه ليعرض على خالته كل ما هى في حاجة إليه الأموال لاستخلاص تابوت زوجها. وكان قبل أن يهم بالحضور متردداً بيز يكلف والدته بهذه المهمة أو أن يؤديها بذاته فجنح بعد طول الموازنة بين الأمريز ثانيهما ليظهر أمام خالته بمظهر الرفعة والثروة والاقتدار، وليجعلها تشعر بخسرت فيه زوجاً لابنتها متدلها في حبها مسرعاً إلى قضاء أوطارها واضعا تشارتها كل ما يملك من مال كثير وخير وفير. ثم خطر له بعد ذاك أن يبعث إساجتها من المال عن يد بعض الأرقاء كما يفعل الأمراء المغلوبون على أمرهه أدوا الجزية صاغرين إلى الملوك القاهرين، فلم تقع هذه الفكرة عنده في ما الصواب بل رأى أن أبلغ ما يقيمه من الحجج على شروته وقدرته أن يتختم بالذ

المرصع بالماس الذى أهداه الملك سيتى الأول إلى والده وأن يزين جيده ومعصميه بقلادة ودمالج من الذهب الإبريز المرصع بالأحجار الكريمة.

تحلى بعاكر بهذه المصوغات والجواهر فارتاح قلبه وانشرح صدره ثم نظر في مراة من الصلب الثقيل فحد دن نفسه بأن هذه المصوغات وحدها تفوق قيمتها ما ورثه مينا عن والده من مال ونوال. وكانت الأمانى تخامر قلبه وتداعب فؤاده منذ أن التقى في اليوم الماضى بنيمو الذى رسم له خطة الاستحواذ على نيفرت بانيا إياها على إنقاذ والدتها من العار أولا ثم الفتك بمينا، فأخذ وسواسه يحدثه بأن أكبر عون له على بلوغ غايته ثلاثة أمور؛ قرته الوحشية التى يسميها الهمة والنشاط ودهاء القزم نيمو والماء السحرى الذى جهزته العجوز نيخت. فلما دخل في بيت راتوتى ودنا منها في زى العظماء المتجبرين وهيئة من يود شراء شيء نفيس يأنس في نفسه القدرة على دفع قيمته أضعافاً مضاعفة تلقته بمظاهر العلو والكبرياء. وكان في بيادىء الأمر يعتقد أنها بمجرد وقوع نظرها عليه ستلقى بنفسها على قدميه مستميحة العفى عنها وملتمسة المعونة لها. ولقد سأل عن نيفرت مراراً ورطب لسانه بذكرها فلم تدعها والدتها إلى الحضور ليطفىء نار هيامه بتسريح النظر في محاسنها الفتان.

وكان بعاكر يمنى نفسه بأن خالته ستطارحه الحديث فيما يطابق مواجسه، ولكن الزمن الطويل انقضى بينهما في أحاديث تافهة ضاق منها صدره وعيل صبره فبغتها بقوله إنه وقف على ما وقع فيه ابنها من التفريط في حقوق والده فجاء لإنقاذها من العار وإعلائها إلى قمة المجد والفخار. فشكرت له راتوتى هذا العطف وقالت له إنه بهذا العمل المبرور والسعى المشكور إنما يصون كرامة أبناء خالته

وهم جميعا لايزالون في عنفوان الشباب وغضارة العمر. أما هي فلا تبغي شبئاً ما لنفسها بعد إذ قارب نجم عمرها الأفول ولم يعد لها من مطمع في الحياة. قال بعاكر: لست يا خالتم بالطاعنة في السن كما تنذكرين، فأنت من رونق الشباب وطراوة الحسن على قسط واف وطلعتك لا تمل أبداً. قالت: الحمد لله إذ أمتعنى بهذا الشباب النضير الذي لولاه لأصبحت الحياة عبئاً لا يطاق حلمه. قال: لعل إدارة هذه الأملاك المثقلة بالديون هي التي جلبت عليك الهموم. فأومأت راتوتي بإيماءة الموافقة ثم قالت بصوت الحزن: لقد كنت أستطيع التغلب على هذه المصاعب لو لم أكن مضطرة إلى مواساة نيفرت التي أضناها الحزن وأصبحت بلا نصير ولا مجير. ولطالما تمنيت أن تكون لها بعلا، فأنت أليق الرجال بها وهي أليق النساء بك .. نعم وإني لموقنة أنك لم تسر في مدينة طيبة على سعتها وكثرة الفتيات فيها من يدانيها جمالا ورقة ودلالا.. وهي بلا شك جديره بأن يتهالك على عشقها الشبان.. وبعد أرأيت أنها تستحق من زوجها هذا الهجران المتلف والصد المؤلم.. بل أرأيت أنه كان لايجوز له أن يفضل عليها تلك الجارية التي أخذها إلى سرادقه ليحتظى بها حتى ذهب الناس إلى الظن بانه طلق زوجته؟! أم إني استشف من عينيك الآن ما يجول بخاطرك من الرغبة في معاتبتي وتحميلي تبعة هذه الحالة الذميمة التي أثرت في نفسى بقدر ما أثر فيها البرهان الذي أقمته على حبك وصدق ولائك لنا وحسن استعدادك لتضحية ما تملك ف سبيل إسعافنا وتفريج ضائقتنا.. لو أن نيفرت اقترنت بك لكان حظها اليوم موفوراً وحياتها هنيئة وعيشها رغداً ومكانتها ف أوج العزة والشرف والصون.

ثم تناولت يد بعاكر ولزمت الصمت زمناً كان في خلاله يحدق فيها النظر فقالت:

لقد برزت اليوم لي في مظهر المحسن العليّ الهمـة السريع النجدة وقابلت إساءتي لك بإحسان لا متجاوز بعده لذي مطمع. ولا عجب، فقد كان والدك شديد العطف علينا أنا وأبنائي. ولكثرة منا أغدق على من نعمه ووافر كرمه كنت أطوع له من بنيانه وأسرع مبادرة إلى تنفيذ أمره. أما والدتك -شقيقتي- فكنت أتحرى ما يبرضيها ويسرها وأتجنب ما يسوءها. وهي لم تدخير جهداً ولمُ تضنَّ بمال في تثقيف ذهن نيفرت وتربيتها على أقوم المباديء لتكون في يوم ما قرينة الشاب البطل الذي أقام الدليل على بسالته وإقدامه في الحروب الأسيوية، وهو أنت يا بعاكر لا سواك.. ولكن جاء القدر هادماً لصروح الأماني إذ توفي والدك ففقدت فيه أقبوى عضد ونصير و..قاطعها بعاكر: إني ملمّ بتفاصيل هذه المسألة. قالت: لم أغلقت والدتك باب دارها ف وجهى وقطعت علاقتها بي قبل أن تطالعني ببيان أسباب تلك الحوادث؟ بل لماذا كتمت على أسماء من سعوا عندها في حقى وبذروا بذور الضغينة في صدرها ضدى حتى أثمرت ما نحن فيه من التقاطع والتنافر؟ ولم لم تفرض أنهم لم يفضوا عمداً إليها بحقيقة عذرى وبأن الملك هو الذي حتم علينا تزويج نيفرت من مينا، إذ قال إنه أعز عليه من ولده وأننى لما ذكرته بخطبتك إياها وبعدم قدرتي على فصم عروة هذه الخطبة لما يجمعنا من أواصر القرابة ولحمة النسب، قال مستبداً: إن تلك إرادتي التي لا مفر من تنفيذها. فهل كان في وسعى والحالة هذه مخالفة أمر ملك الخافقين وابن الشمس؟.. ولقد قلت بمناسبة هذا الحادث إن الملوك يجمدون الجميل وينسون الفضل، إذ كم من الوقائع تعرض فيها والدك للموت الأحمر باقتصامه صفوف الأعداء في مواطن القتال، وكم أصيب بالجراح البالغة ذوداً عن حمى الوطن والملك فنسى رعمسيس هذه الفعال كلها وجعل نصيبك الحرمان من التمتع

بريحانة فؤادك وقرة عينك وأوقعني أنا في هاوية لا قرار لها من الهموم والأكدار.

وكان الدم قد صعد في رأس بعاكر فاكتست وجنتاه بلونه تأثراً وانفعالا فاندفع يقول: وأنا.. وأنا أما خدمت الملك أيضاً كما خدمه والدى؟ أجابت: نعم خدمته ولكنه لم يكن يعرفك وقتذاك معرفة تامة، ولست أدرى لم يكرهك وينفر منك. فأرعد بعاكر لسماع هذه الكلمات من شدة الغضب وقال: ما تقولين؟ أجابت: لندع الكلام ف هذا الموضوع فإن رضاء الملوك وسخطهم كرضاء الإلهة وسخطهم أمر ليس منه مفر، والعاقل من ينتفع بالأول ويحتمل الثاني بالأناءة والصبر. قال: وكيف يجهر الملك بعدم ارتباحه منى ويتظاهر بالإعراض عنى؟ قالت: إنه بذلك يجحد فضلك لكي بستميل مينا إليه ويحمل نيفرت على الرغبة فيه دونك. وكان جبين بعاكر في خلال هذا الحديث يتصبب عرقاً بارداً، وكانت عيناه شاخصتين وفمه فاغراً. فلما طرقت سمعه الكلمات الأخيرة صاح: ثم ماذا قال في حقى؟ فارتاعت راتوتي وتراجعت إلى الوراء، فأمسك بذراعيها وكرر قائلا وقد بحّ صوته: خبريني ماذا قال ف حقى؟ فعاتبته على قسوته في معاملتها وقالت: إليك عنى يا بعاكر.. إنني إن أمسك عن الإفضاء إليك بسرٌ ما قاله فرعون فيك ليحمل نيفرت على كراهيتك فما هو إلا رفقاً بحالك وعطفا عليك .. فخل إذن عن ذراعي واعلم أن التي ألمتها بقوة يدك إنما هي خالتك. فلم يصبغ بعاكر لقولها بل زاد ذراعها ضغطاً بأصابعه وكرر قوله: ماذا قال فرعون في حقى؟ فصاحت راتوتي بملء فيها: حذار لنفسك يا بعاكر! إن من أفضح العار وأقبح الشنار عليك أن تعاملني بالشدة، وإذا كنت لاتزال راغباً في معرفة ما قاله فرعون فيك فهاكه: « لولا ما أعهده في والدته من العفاف والصون لقطعت بأنه لا يمتّ إلى والده بحسب ولم يليس له جلدة، كما هو ظاهر من الفرق بين سحنتيهما. فإنه لا يشبهه إلا بقدر ما يشبه البوم النسر» فما استقرت هذه الكلمات في أذن بعاكر حتى اصفرت شفتاه غيظاً ودمدم بعبارات الاستياء، ثم أطلق يد خالته وأخذ يمعن النظر فيها فاستأنفت حديثها قائلة: عندئذ حاولت أنا ونيفرت الدفاع عن كرامتك لإزالة ما علق بذهن فرعون من الأوهام فذهب عبثاً ما بذلناه من الجهود في هذا السبيل. على أنه لا محل لاغتمامك بافتراء فرعون الكذب في حقك فكفاك فخرا أن والدك كان من صفوة الأمة وعظمائها. والراجح عندى أن فرعون لم يجهر بما جهر به إلا لحقد في نفسه، فإنه لم يذهب عليه بعد أننا من الأسرة الملكية القديمة وأن هذا الانتساب يمضه أشد المضض ويقلق باله. وكان خليقا به أن يأخذ حذره ويعمى علينا أمره، فليس هو ووالده سيتى إلا دخيلين في الملك لا يسقط إلى الملوك المتقدمين بحسب ولا يلتحم معهم بنسب، وكان أجدر منه بالحكم رجل نسبه صريح محفوظ وحقه في الاستواء على عرش الملك واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

سأل بعاكر: اتريدين بهذا الغمز الوالى آنى؟ قالت: بلى ثم دنت منه وسارته بقولها: لست أكاتمك بنات صدرى ولا أوارى عنك مضمون سرى، ولست بخائفة ولا وجلة إذا فعلت، لانك كما تعلم ابن أختى وصهرى.. وأود أن تفهم أن ما أسيت له كل الأسى حتى طار الرقاد عن عينيك استفزنى إلى ممالاة الوالى آنى والعمل معه على تحقيق أمنيته في الملك. ولم يكن لى من هذه المناصرة بد إذ من واجب المرء إذا كرم أصله وزكا فرعه المسارعة إلى تلبية نداء الضمير إزاء ما يلقاه من ظلم ذلك الجائر رعمسيس و تجبره و تغشمره، وسلبه إياك خطيبتك على الوجه الذي أوغر صدرك وأنزل بقلبي الألم والحسرة على السعادة المفقودة.. ولا يغيب عنك أن دم حات اسو

ماذال يجرى في عروقي وأراني قادرة مثلها على الأخذ بيد الرجال في طريق الصواب. ولقد هبّت في فؤاد الوالى عواصف الأماني والمطامع بعد أن كانت ساكنة فطوحت به في تيار الطموح إلى الأريكة المصونة المكلوءة بعيون الآلهة.. وهناك أمر ذو بال وهو أن الكهان الموكلين بخدمة القدرة الربانية قد أعوزتهم تلك الحال إلى الانحياز إلينا فوافقوا على مشروعنا واستعدوا لتلبية ندائنا في أوفق الأوقات وأنسب الفرص.

وهنا طرقت الآذان جلبة نفر مقبلين فأمسكت راتوتى عن الكلام وما هى إلا صرة الحالب حتى أقبل عليها أحد العبيد مهرولا ليخبرها بوصول الوالى أنى وأنه بالباب . وكان لايزال بعاكر واجماً كاسف البال مقلقل الضمير، فهم بالانصراف ، ولكن راتوتي قالت له: قف مكانك فإننى غادية إلى استقبال الوالى الذى ستسره ولا شك - رؤيتك لما أعلمه من حبه واحترامه لك، كما كان يحب أباك من قبلك ويحتره . ومازايلت راتوتى بعد ذلك مكانها ومضت قدماً في طريقها حتى برز نيمو من مخباه ووقف أمام بعاكر سائلا: أما رأيت أن الصواب فيما قلته لك؟ فلم يلتفت بعاكر إليه بل أقصاه عنه بقدمه، ثم أخذ يجوب أقطار الغرفة تتقاذفه الخواطر والهواجس. وقابلت راتوتى الوالى وسط الحديقة وكان يحمل قرطاساً من البردى ، فحياها من بعيد تحية المبتهج، فنظرت إليه باهنة متحيرة ثم سلمت عليه باسطة يديها إليه كما يحيني من يجلس على عرش مصر ويوضع التاج الثنائي على مفرقه (١) يديها إليه كما يحيني، هل قابلت الآلهة التسعة (٢) وهل شهدت الالهة هاتور فيما

⁽١) التاج الثنائي هو تاج الوجهين البحرى والقبلى.

⁽٢) كان المصريون يمثلون آلهتهم ثلاثا ثلاثا ولى رواياتهم القديمة أن الآلهة التسعة العظمى كانت ذات يوم تسير مجتمعة فوجدت «بتال» وحيداً فريداً فخلقت له المراة ليانس بها.

يرى النائم فقبَلتها؟ إن هذا اليوم ليوم نور وسعادة من يتوسم فيه وجهك الزاهر النضير يفز بالخير والهناءة والنعيم.

قال آنى: قلت، حقاً ، وإليك هذا الكتاب فاقرأيه. فتناولت راتوتى قرطاس البردى وقرأته ثم ردته إلى آني قائلة: إنه لخبر خطير، إذ يؤخذ منه أن الجيش الذي حشدته قهر الحبشان رأسر عشرة آلاف من رجالهم سيصلون قريبا إلى طيبة مع أميرهم والغنائم والأسلاب فحمداً للللهة وشكراً على ما أظلنا من قضلهم وأغنانا من رفدهم. قال أني: حمداً لهم أيضاً إذ حفظوا حياة القائد (ششنك) أخي في الرضاعة وصديقي الحميم وردوه إلى سالما غانما. ويلوح لى من بوادر هذا النجاح يا راتوتي أن آمالنا ستقرن بالفلاح، قالت: هذا ما لاريب فيه أيها الأمير، أما شعرت بالعناية الإلهية وقد نفحتك بأنعمها وكلأتك بعينها التي لا تأخذها سنة ولا نوم؟ أما علمت أنك كلما سرت إلى جانبي خلت أنك ابن رع وأن بوارق الشجاعة تنبعث من عيني (منث) كما أن تغرك يفتر عن الابتسام كما تفتر عن الزهر الأكمام، أو أنك (حورس) وقد سر بالانتصار وكلل بتاج الفخار؟ قال: كلامك أيتها الصديقة كالشهد بل أعذب منه منذاقا، ولكنني منازلت مصراً على رأيي من أنه ينبغي للمنزء أن يحسب حساب عدوه، ولا عليه إذا بالغ ف تعظيم شأنه وتحقير شأن نفسه ليكون له من هذا الوهم منبهاً لوجوب التحرز والحذر واتخاذ ما يتقى به الخطر، وكثيراً ما اتفق لى أن نجوت من الأخطار والمساعب التي كنت أخشى منها سوء العواقب لحذرى وتيقظى. قالت: لست بمعارضة فيما عن لك من الرأى، ولكن أبقى ف ذهنك أثر من الريب ف أن السعادة مقرونة بالشقاء وأنها لا تأتى المرء إلا وهو لها تبع؟ قال: إنى مشايع لرايك فيما قلت، لأن حادشات الحياة تسير مثنى مثنى، فلكل سعادة مماثل

ولكل شقاء مشاكل. وهل أتاك حديث آخر من حوادث الفوز تخبرينى به؟ أجابت باسمة: لا ، لأن النسوة لا شأن لهن في الحروب، وإنما عرفن بالحذق واللباقة ولطف الحيلة في حشد الجنود واستمالة القلوب إلى مشايعة الأحزاب، يشهد بذلك الحليف الذي ساقته لك المصادفة والذي لا يختل اثنان في بسالته وعلو همته. سألها: ومن هو.. إله أم جيش؟ أجابت: لا هذا ولاذاك، وإنما بين بين.. هو بعاكر الذي حالفنى على التفانى في نيل المرام وتحقيق الأمانى.

ثم أنشأت راتوتى تشرح ما جرى لها مع بعاكر وأنه ما برح متدلها في حب نيفرت فاستمع لحديثها ووعته منه أذن واعية. قال لها: لكنى عهدت هذا الشاب مخلصا لرعمسيس وسيعود قريباً إلى معسكره وإنى لأخشى أن تأخذ الناس ريبة في حقيقة الأغراض التى نرمى إليها فيسعى الخونة منهم بالوشاية في حقنا فلا يكون إلا ما نكره. والذى أراه أنك تستعجلين الحوادث وتستدنين المستقبل لتجنى يكون إلا ما نكره. والذى أراه أنك تستعجلين الحوادث وتستدنين المستقبل لتجنى ثمار المشروع الذى وضعنا لإنجازه الخطط، ولهذا أرى أو أوصيك بالتؤدة والاتئاد، فعندى أن ألف عدو يجاهرونى بعداوتهم خير من حليف واحد يعمل ضدى في الظلام. قالت: طب نفساً فبعاكر شاب أمين، وأنا واثقة من أمانته وإخلاصه. قال: ومن أين لك هذه الثقة دون أن يكون هناك ما يضمن لنا بقاءه على ولائنا واستحسانه لمشروعنا؟ أجابت:إنه سيمكنك من يده ويعطيك قياد نفسه، ذلك لأن القزم نيمو قد رقف على أسرار له إذا انزاح عنها الستار فسيكون جزاؤه عليها القزم نيمو قد رقف على أسرار له إذا انزاح عنها الستار فسيكون جزاؤه عليها المجزاء؟ أجابت: لا.. وبما أن القزم نيمو قد أقسم ألا يفضى بجملة سره إلى غيرك الجزاء؟ أجابت: لا.. وبما أن القزم نيمو قد أقسم ألا يفضى بجملة سره إلى غيرك فلك أن تثق به وتركن في مهام الأمور عليه. قال: قد يكون الصواب فيما رأيت إلا أن فلك أن تثق به وتركن في مهام الأمور عليه. قال: قد يكون الصواب فيما رأيت إلا أن

نيمو طائش العقل خفيف الحلم لا يصح الركون إليه في معضلات المسائل، ونحن الآن معه كفارس الرهان يدفع بفرسه إلى الميدان غير مكترث بما إذا كان يجرى على بسيط من الأرض منجاب أو على أسنة الرماح، فإذا كبا الجواد ونفق اضطر أن يقطع بقية الشوط سيراً على الأقدام. قالت: لقد تلطفت في العبارة إذ كان ينبغى القول بأن تلك الأسنة تنفذ في جسم الفارس كما نفذت في جسم الجواد ويُصرع الاثنان، ولكن هل ذهب عليك أنك إلى الربح والفوز أحوج منك إلى التعرض للخسارة والفشل وأن أحقر الناس تدفعه الغريزة إلى الحرص على ذاته والضن بحياته؟ ولايغب عنك أنذى بمعاونتي إياك على إصابة غرضك لا أجرى وراء غاية، وإنما أنا امرأة أحبك كما تحب الأخت أخاها، دع أنك الآن تمثل من حقوق الأجداد ما انتهكته الاسرة القابضة على صولجان الحكم في هذه الأيام.

فمد آنى يده إليها وقال: أرجو أن تكون المفاوضة انتهت بينك وبنت أنات في موضوع الزواج. وهل لى يا ترى أن استبشر بسكوتك فأعده فألا حسناً على قضاء الوطر؟ لم تجاوبه راتوتى على هذا السؤال بل هزت الرأس ثم أطرقته. أما آنى فقال: لقد مر ببالى أمس أن أعدل عنها للتزوج من غيرها إلا أننى آنس من نفسى ما يشجعنى على متابعة هذا الرأى، ولو أسعفتنى الإلهة هاتور بمددها وشملتنى برعايتها لفزت بما يتجاوز المأمول. قال هذا وتقدم نحو الغرفة التى كان فيها بعاكر مروع القلب منزعج الضمير، فلما توسطها نهض بعاكر واقفاً وأحنى رأسه إجلالا واحتراماً فحياء آنى مصافحة، على وجه تستشعر منه دلائل الغطرسة والصلف والتجبر ملطفة بشىء من تعمل المودة ورفع الكلفة. ولما جلس بعاكر جاذبه الوالى الحديث في شؤون جعل وكده فيها إظهار الميل إليه والعطف عليه والتذكير بما كان

بينه ووالده من الود القديم ولحمة القرابة. ومما قاله في مدحه: « لقد خصك الإله بالشجاعة التي نزول بها العقبات وتذلل الصعوبات وأرى أنه يندر من يضارعك في الفضائل والسجايا من شبان هذا العصر، وقل من اعتمد عليه منهم تحت إدارتي فليس عجيباً أن يكون من أعز أماني مشاركتك إياى في أعمالي، ولكن ماالعمل وأنت لا غنى لرعمسيس عنك بحكم منصبك عنده فإنه بحاجة إلى من يشق به من ذوى الإلمام الواسع بمختلف العلوم والفنون بل إلى رجل يجمع بين فضيلة الجندى الباسل والكاتب البارع والعالم النابغ. أما البسالة فأنت بلا خلاف القابض على زمامها وأما التحرير فلئن لم تكن فيه ممن يشار إليهم بالبنان لرداءة خطك وقصورك عن ابتكار المعاني فكثيراً ما عجزت يد عن تحريك اليراع وبرعت في الخطران بالسيف على مثال يبهر الأبصار ويأخذ بالألباب. وحركة القلم على القرطاس تستعدى لين الأنامل ومرونة الأصابع بخلاف خطران السيف يتطلب من اليد الصلابة وانقوة. وإذا انتقد الملك رعمسيس تقاريرك وعابها وضرب بها عرض المائط فلا لوم عليه ولا تثريب.

قال بعاكر: إن أخى (حورس) احذق منى فى فنون التحرير والتحبير وهو الذى يرافقنى فى رحلاتى وجولاتى. قال الوالى: لو أنى رئيسك لجعلت معك خمسة كتاب أو ستة لا كاتباً واحداً وعهدت إليك من جلائل الأعمال ما يستغرق كل أوقاتهم فى تحبير تقاريرك عنها، وأنت فى منصبك بحاجة إلى الرصانة والشجاعة وهما صفتان قلما اجتمعتا فى شخص واحد. أما الذين يدعون العلم بالكتابة والتحرير فكثيرون امتلات بهم الهياكل. قال بعاكر: حق ما تقول. شم سكت أنى برهة واستأنف الحديث لا أدرى لأى سبب لا يفتأ رعمسيس يقارن بينك ووالدك فيقول فى كل حين

إن والدك الذي صار في صفوف الأبرار والقضاة والعادلين كان فيما عدا ما تحلى به من الفضائل النادرة شجاعاً مقداماً وكاتباً أريبا، وقال غير هذا مما خيل لى معه أنه يريد الإساءة إلى سمعتك بالحط من قدرك، وهو ما يستدعى الأسف والحزن لأنك أحد أعضاء أسرتنا الشهيرة التى ذهب الحكم من يدها وبودى لو أتاحت لى الفرصة إيثارك بمنصب سام جدير بفضلك وكفاءتك. وبعد، فهلا ترى أن الملك قد غض من جنابك وقصد إرهاقك وإحراجك، إذ ما كدت تقيم بطيبة زمنا قصيراً هو بعض ما ينبغى لالتماس الراحة من عناء الحروب التى أبديت فيها من ضروب البسالة والإقدام ما هو جدير بالثناء حتى بعث في تعجيل رحيلك إلى الشام. أما كان خليقا به— وقد قمت بما لايعد من جلائل الأعمال— أن يدعك تتقلب زمنا في بحبوحة نعمتك وتتمتع بلذة الأنس بروجتك. فبهت بعاكر دهشا وقال: لست بمتزوج على ما تعلم بل أعيش وحدى. قال أنى: وحدك! ولم لا تطلب من راتوتى أن تخطب لك أجمل بنات مصر؟ حقا إن التى لا تفتا تتراءى لنفسها في المراة أعرف الناس بمصاسن

قال هذا ثم حيا بعاكر بمثل ما تصنعه قبلا من العطف والمحبة ثم قال لراتوتى وهو يصافحها مودعا: أرسلى المنديل إلى اليوم.. مع نيمو. ثم خرج إلى البستان وأوما إلى بعاكر من بعيد قائلا: سيتناول طعام العشاء عندى هذا المساء لفيف من الأصدقاء فهل لك في تلبية دعوتي إياك إلى مائدتي؟ فأحنى بعاكر رأسه شاكراً له هذا الالتفات. ولما غاب الوالي عن نظره و خلا إلى نفسه تأمل مليا في موضوع المحادشة وأخذ يضرب اخماسا في أسداس وشعر كأنه وقع في أحبولة لا يدركها البصر، وعمرض على رويته ما نقله الوالي إليه من ازدراء الملك به وتهكمه عليه

وتنقيصه من قدره بالقول المقذع وقوله إنه لم يبقه في منصبه المحفوف بالمكاره إلا لإكرام سيرة والده واعترافا بما له من سالف الفضل في خدمته وكثر عليه أن تكون هذه منزلته من أمير البلاد مع أنه ضحى في سبيل الإخلاص له كل شؤونه الخاصة، إذ أهمل العناية بفلاحة أراضيه الواسعة وانصرف عن العيش في بحبوحة الهناءة والنعيم مؤشراً احتمال المشاق في سبيل مرضاته. ومما فت في عضده أن يفهم أنه سخر بخطه وإذشائه مع أنه البطل المقدام الذي طالما أرهب العدو ببطولته وبسالته وأورده بطعنات سيفه موارد الحتف، وزاد على هذه الصفات الشريفة أن كتم أسرار منصبه فلم يرض بما عرضه الوالى عليه من تعيين طائفة من الكتبة لتدوين التقارير ضنا بأسرار الحكومة من الاقتضاح وأن تلوكها ألسنتهم واستغنى باتخاذه أخاه عونا له على تحرير تقاريره وإلزامه إياه ملازمته تحرزاً من شيوع بالشرار. وبالغ في الحذر إلى حد أنه بعد زواج هذا الأخ فرض عليه ملازمته ملازمة الظل للشبح وناط بوالدته القيام على شؤون زوجته وأبنائه. ولقد أقامه مقامه في الشام ريثما يقضى بطيبة ردحا من الزمن ثم يعود فيسترد منه زمام أعماله.

قضى بعاكر فترة من الزمن تتقاذفه الهواجس والوساوس حتى نسى المكان الذى هو به ولم يشعر براتوتى إذ دخلت عليه وجلست إلى جانبه وأخذت تحدق نظرها فيه. وكانت عيناه أثناء ذلك شاخصتين في غير ما تدركه المشاعر ودون أن تستقر على شيء، لكثرة ما غلبت الهواجس نفسه حتى ملكتها. ولعله كان يتخيل الملك رعمسيس يسومه سوء العذاب ويمعن في التنكيل به وينكر عليه حقه وفضله، ويتنقل بعد ذلك من هذا الخيال إلى وجوب الانتقام من خصومه حرصاً على شرفه ومواساة لفؤاده المكلوم. وكان يخيل له أن الظلام قد غشى نظره فلم يعد يرى

شيئاً ثم فكر ف نيفرت وحاجته إلى الظفر بها وراجع بالفكر ما قدمه بسببها من القسرابين إلى الآلهة فيضيق رحب الفضاء في نظره ويخفق قلبه بعاملى الحب والضغينة ويعتقد أن الآلهة عمدوا إلى أذاه وخيبوا مسعاه وقابلوا بالتغاضى عنه مظاهر عبادته وتقواه.

لم يبق له- وقد أساء الظن بالآلهة- إلا اعتماده على نفسه و ركونه إلى سداد رأيه وحسن تبديره، ولكن كيف كان يستطيع تصريف أموره بمقتضى هذه القواعد الحكيمة إذا كانت الغيرة قد أنشبت في قلبه أظفارها وإذا كانت قد عبثت بآماله يد الخيبة فسلبته نعمة الطمأنينة وصار من نفسه في حرب عوان؟ ولم يسعه وهو من هذه الحالة في أشد الضيق والحرج إلا أن يعتمد رأسته كمن يهب فزعا من نومه على أثر حلم مزعج رآه. ثم أجال النظر فيما حواليه فرأى أنه لم يكن وحده بالغرفة بل إن إلى جانبه بها خالته راتوتي فعاد إليه صوابه وتذكر ما أسره إليه نيمو وما دار بينه وخالته والوالي من المحادثات وما ذكرته هذه من قدرتها على حشد البرجال والتحكم في مشيئتهم بما تشتهي ثم قال: لعلها تعطف عليٌّ وترأف بي فإني لم أعد أجد نفسي قادراً على الإدراك والتصور، بل ولا على العمل بما يوحي إلى ويلقي في روعي، وإتحه بعدئذ نحوها قائلا: قد اتفقنا على التحالف والتناصر. أجابته: أي نعم ضد رعمسيس ومع أني . قال: سأساف إلى الشام بعد أيام ، فعليك بالتفكير قبل سفرى فيما تودين أن أحضره لك منها. أما المال المطلوب لتسدى ديون ابنك فسيصلك مع تطفيل شمس اليوم. ثم أتسممين لي بالسلام على نيفرت؟ أجابت: نيفرت بالهبكل تؤدي فروض الصلاة. قال: إذن أحبيها غداً . أجابت: بلا ريب، وأنها لتحسب نفسها سعيدة إذا قابلتك وشكرت لك معى صنيعتك – قال: استودعك الله

يا راتوتى. قالت: لا تدعنى باسمى، وقل ياوالدتى. فلما ابتعد عنها أومأت بردائها إيماءة الوداع مغتبطة بما يبشر به الحال من حسن المال.

الفصل التاسع عشر

حيث يدور الكلام على زوج محظوظ.. لا من ذوى الأفهام

ما كاد يتوارى بعاكر خلف الأشجار المثقلة الأفنان بألوف الأزهار وصنوف الثمار حتى دقت راتوتى إطاراً معدنيا لم يلبث أن ملأ بدوى رنينه أركان الدار، فلم تكن إلا غمضة الطرف حتى برزت إحدى الجوارى وتقدمت إليها لتتلقى أوامرها، فسألتها راتوتى: هل عادت نيفرت من الهيكل؟ أجابت: عادت منه إلى الباب الصغير في محفتها . قالت راتوتى: إننى بانتظارها في هذا المكان. فانصرفت الجارية وما هي إلا لحظة حتى دخلت نيفرت وخاطبت أمها: أتسألين عنى يا والدتى؟ وبعد أن قبلتها طرحت نفسها على فراش وثير ثم التفتت إلى نيمو فأمرته بتحريك المذبة ليطرد عنها الذباب فدنا القزم منها وأخذ يحرك تجاه وجهها مذبة كبيرة من ريش النعام، فالتفتت إليه راتوتى وقالت له زاجرة: دعك من الترويح وانصرف على الفور فإن بيننا حديثاً لا ينبغي لثلك أن يسمعه.

فهز نيمو كتفيه وهم بالانصراف. أما نيفرت فتأملت والمدتها بعين الذهول وقالت: دعيه يا والدتى فقد عال صبرى ازدحام الذباب حولى، وأما الحديث الذى أشرت إليه فنيمو مستودع أسرارنا وسيكون أحرص عليها منا. ثم مرت بيدها على رأس القزم كما تفعل عند ملاطفة الكلب الصغير والتفتت إلى الهر الأبيض فدعته بالنداء المألوف فأقبل نحوها مسرعا. عندئذ قالت راتوتى: يا نيفرت إن ما أردت الإفضاء إليك به سر خطير أخشى إن تجاوزنا شاع وملأ الأسماع، قالت نيفرت: مازلت متمسكة برأيى فإن كنت تريدين.. فأنشأت راتوتى تدللها وتواسيها كالطبيب إذا لاطف عليله بمظاهر الرفق والعطف، وقالت: فليبق نيمو هنا. فتهللت

نيفرت فرحيا رقبك رأس الهر ووضعت المذبية في يد نيمو ثم شكرت لوالبدتها مسارعتها إلى إجالة طلبها. وكانت راتوتي ترسل إلى نيفرت من حين إلى آخر نظرات الرفق والعطف، ثم دنت منها وأخذت تطيل التأمل فيها كما لو كانت تعجب بجمالها وقالت متنفسة الصعداء: كنت أريد أن أكتم عليك ما أردت إيراده من الأخبار المحزنة ولكن لم أجد مفراً من إبلاغها إليك، فدعى اللهو واللعب جانباً وأنصتى لقولي. قالت نيفرت: تكلمي يا أمي فإني متجهة إليك بكل جوارحي ولا تخاف أمراً فلن تنال من نفسي الأخبار مهما احتوته من بواعث الأكدار. وعندي أنه مادام طالع مينا في رج السعادة فقد كفاني هذا الفوز وزيادة. أقول هذا لأن الهواتف جاءتني بأنباء تفيد وفور الخيرات عنده فدعوت وصليت ابتهاجا بما نبأتني به. وقد علمت فوق هذا أن الكتاب الذي أرسله أخي إليك لا يتضمن من الأنباء ما يشرح الصدر بدليل أنني شهدتك بعد تلاوته تهطل الدموع من عينيك ورأيت على وجهك علامات الغم والاكتئاب نهار أمس كله. قالت راتوتي: حقا فإن أخاك قد جر إلينا من الهموم ما لا قبل لأحد بحمله، وأتى من قبيح الفعال ما لطخ شرفنا بالعار. قالت نيفرت: وما الذي ارتكبه من الآثام؟ أجابت: حُسر في المقامرة مبلغاً طائلاً كان برجو ربحه فقامر. على جثة أبيه رجاء الربح فكان نصيبه الخسران أيضاً. قالت نيفرت: ما أشنعه خبراً سيلصق بنا العبار إذا لم نلتجيء إلى الملك ونستنجد بكيرمه، ولقد عقيدت النبة على مكاتبته ف أمرنا وهو بلا شك لا يتوانى في نجدتنا وإنقاذنا من ورطتنا، إكراما لمينا. ورعمسيس من علو الهمة بحيث يأبي تعريض شرف أسرتنا للامتهان بسبب سقطة سقطها شاب طائش الفكر خفيف الحلم كأخي. نعم لا مفر لي من الكتابة إليه ف هذا الموضوع. قالت ذلك بعبارة تنم على وثوقها التام بنجاح سعيها. فلما سمعت راتوتي هذا البيان ساءها أن ابنتها لم تحفل بالكارثة كما كانت تنتظر وظهر عليها الامتعاض، إلا أنها لم تلبث أن ذهب ما في نفسها من الغيظ وقالت في سكون وتؤدة: إذن ما رأيك في نجدة ساقتها إلينا الأقدار على غير انتظار؟ قد وجدت الرحمة إلى قلب بعاكر سبيلا فأقبل على انتشالنا من وهدة العار مدفوعاً إلى ذلك بصلة الرحم وعاطفة الرفق التي مازجت دقائق قلبه. قالت نيفرت: بعاكر رجل كريم بلا ريب.. ألا تذكرين افتتانه بي منذ صباه؟ لا يختلجني شك في أنه لم يعرض علينا معونته إلا حبا في أن ما زال هذا الحب متأججا في فؤاده. قالت هذا وأغربت في الضحك وجعلت رأس الهر بين يديها وأخذت تشخص فيه بعينيها ثم أدنته من رأسها وقالت بصوت الطفلة الصغيرة: أترى يا ماؤ(١) كيف يخلص أصدقاء صاحبتك الولاء لها ويقيمون حتى النهاية على حبها؟

كادت راتوتى حينما رأت من ابنتها هذه الخفة تتمزق غيظا فقالت: عجبا كيف تكبين على اللعب واللهو بينما يجب عليك الأخذ بناصرى للخلاص من هذا المأزق ومحو ما لصق بنا من العار؟ إنه ليسوءنى أن أراك قليلة الاكتراث بما يرفع من قدرنا بين الناس، ومع هذا فلست أدرى على من تعتمدين وبمن تلوذين إذا كان زوجك.. فما طرقت الكلمة الأخيرة أذن نيفرت حتى وثبت من مكانها وثبة الهر إذ تلوح له الفريسة وأخذتها العبرة وكادت تقف ضربات قلبها من الياس، فأسفت راتوتى لمفاجأتها إياها بقول كان يجب عليها فيه التنقل من العتب اللطيف إلى اللوم فالتعنيف، فخفنست من حدة لهجتها إذ قالت لها بصوت يخالطه الحنان: كنت منذ برهة تفتخرين بأصدقائك لافتتانهم بك والتماسهم رضاءك، وهو مالم يكن بمستنكر عليك، فكفى أن ترشقى قلوب الشبان بسهم من كنانة لحظك لتأتى إليك

⁽١) اسم الهر باللغة المصرية القديمة

صاغرة منقادة. ولست أجهل حب مينا لك وتدلهه في عشقك، ولكن أما سمعت في الأمثال قولهم «الفراق عدو الحب» «والبعيد عن العين بعيد عن القلب» وأن زوجك. فقاطعتها نيفرت للمرة الثانية وكان مارن أنفها يرتجف لما عراها من الغضب والاستنكار وقائت: ما فعل مينا من المنكرات؟ قالت راتوتي بصوت تمازجه الشدة: لم يقم لك بواجب الأمانة والوفاء، بل هتك. فلمعت عينا نيفرت غيظا فألقت الهر من يحون يديها وه ثبت من مكانها وقاطعت والدتها للمرة الثالثة قائلة: مينا. أمثله من يخون العهد؟ قالت راترتي بصوت التأكيد: نعم! فقد شرح أخوك في كتابه ما أتاه من قبيح الفعل وشائن التصرف، وذكر أنه لم يأخذ حصته من الغنيمة مالا أو متاعاً بل امرأة جميلة من السبايا يقال إنها ابنة ملك الدنائم، وهي الآن في سرادقه، فياله من دنيء خائن! قالت نيفرت وقد روعها هذا البلاغ وجالت في عينيها الدموع: يا له من دنيء خائن! قالت نيفرت وقد روعها هذا البلاغ وجالت في عينيها الدموع: يا له من دنيء خائن! ثم كررت هذا القدح مرتين ضاع من بعدهما وعيها وذهب رشدها.

ولقد تمكن الغضب من نفس نيفرت فغير من سحنتها وبدل من حسنها الفاتن بما يصورها للناظر كأنها تمثال يمثل شيطان الانتقام. إذ كانت عيناها تلمعان كالبرق حتى كادتا تخرجان من الحجاجين وأنفاسها تترادف في حلقها زفيرا وشهيقا بسرعة مضطربة وجسمها يرتجف ارتجافا. وقد أمسكت بيد نيمو وزجت به في غرفة فتحت بابها بعنف ثم أغلقته عليه وعادت إلى والدتها في حالة كانت فيها أشبه بالاسدة اضطرابا وضراوة منها بغادة هيفاء، وقالت بصوت مبحوح: تقولين عن زوجي إنه دنيء خائن! فهل هو دنيء خائن حقا؟ اسحبي كلامك يا أمي اسحبيه وإلا فاصفر وجه راتوتي ولكنها عالجت التغلب على عواطفها والتروى في كلامها فقالت: يبدو لك من قولي ما يقرب من الشدة ولو أمعنت في الأمر نظرك لأيقنت أن زوجك خان عهدك وترك ودك وفضحك بقبيح فعله وسوء تصرفه. قالت

نيفرت هازئة: هذا كذب لا أسمعه ولاسيما إذا كان مفتريه ذلك الشاب المتشرد الذى قامر على جثة أبيه وشرف أسرته. أما زوجى مينا فإشارة منه تكفى لايراد مثله موارد العدم، وماذلك إلا لحسن سريرته واستقامة أحواله.. إنى إذا فرضت يا والدتى أن هذا العمود الذي ترينه أمامى عمود سرادق مينا وأنك هو وأننى رأيتك تجذبين نحو هذا السرادق امرأة في نهاية الحسن، فلا يسعنى إلا تكذيب ما رأيته رأى العين أو تأويله بأن بينك وتلك الغادة مناجاة في أمر خطير. إذ لا أسلم بأن يدخل مينا في سرادقه ابنة ملك الدنائم لسبب يصدف به عن محبتى وينسيه واجب الولاء لى..كلا.. وما أخى إلا خائن مائن أراد بافترائه بذر الشقاق بينى وزوجى لغاية في نفسه. ولو قيل لى إن أوزريس يخون عهد ايزيس وتأكد لى هذا القول فلن اعتقد أن مينا يقتفى أثره ويسير على سنته، ولو حفت به مائة من الحسان تستميله كل منهن إلى نفسها بسحرها الفاتن ولطفها الجاذب، بل أثق الوثوق كله أنه لن يفضلهن على ولن يتخذ إحداهن بديلة منى.

قالت راتوتى: أسلم جدلا بأن الحق فيما تقولين إلى جانبك، ولكن لم أراك تسفهين رأيى مع أن لى من صدقه أيات دالات وشواهد قائمات؟ قالت نيفرت وقد بدت عليها علامات الغضب: لست أعارض فكرك ولا أقبح رأيك وكل ما أريده منك الكف عن اغتياب رجل أبى النفس زكى الخلق، أخذ على نفسه تسديد الديون الفادحة التى اقترضتها أنت وولدك وأنفقتها وإياه فيما ضر ولم يفد. وما خطر لى ببال قط أننا سنصير إلى حالة من الضيق والفقر يرثى بها الشامت. ولطالما فكرت ف هذه الحالة وسالت نفسى أين ذهبت خيراتنا الوفيرة من زرع وضرع فلم أقف على سبب زوالها بعد أن نشأنا بها في عيش ناعم رقيق الحواشي إلا حين علمت أن أخى السفيه هو الذي بددها في الميسر.. ولن أستحق أن أكون زوجة مينا الشريف النفس

إذا سمعت النمائم والوشايات في حقه وأنا تظلني سقوف داره.. إن مس السماء لأهون على من النزول إلى هذا الدرك.. أما إذا أقمت عاى رأيك فيه فليس هنا من يستنزلك عنه، ولكن فلتعلمي منذ الآن أنه لا مفر لأحدانا نحن الاثنتين من مزايلة هذه الدار على ألا تعود ثانيا إليها.

ما انتهت ننفرت إلى هذا الحد من كلامها حتى أخذتها العبرة وانحدرت الدموع على خديها النضيرين وجثت على ركبتيها أمام فراشها وأكبت بوجهها على الوسادة واسترسلت في البكاء والنحيب، بينما كان قوامها الليدن يتلوى ويضطرب لشدة ما غشي نفسها من التأثر. فلما رأت راتوتي هذه الحال جزعت فلم تستطع التفوه بكلمة أو القيام بعمل لأنها لم تعهد من ابنتها مثل هذه الجرأة وأخذت تسائل نفسها هل أخطأت أم أصابت فيما أفضى إلى هذا الحادث. ومع هذا فقد دنت من نيفرت وضمتها إلى صدرها وقالت بصوت المشفق: أيتها الفتاة القاسية القلب اصفحي عن والدة أحدر بحنيانك ويرك من سواها، ولا تضاعفي أحزانها. فيوقفت نيفرت وبعد أن لثمت يد والدتها انصرفت إلى حجرة أخرى تاركة إياها في خلوة شعرت معها كأن يداً ساردة انحمت على قليها. وتذكرت في الوقت قول الوالي إن الإنسان لا يصبيه الخبر إلا من حيث يخشى الشر فرفعت بدها إلى جبهتها شبه المتفكر وظلت هكذا هنيهة عرضت فيها على ذاكرتها ما اشتهر عنها من التؤدة والإفدام والثبات فطرحت جانباً عواطف الرفق والحنان التي كانت تحبب إليها التساهل مع ابنتها وتضخمت في نذارها عبارات اللوم التي وجهتها هذه إليها واشتبد وقعها في نفسها وتوسعت في تأويل معانيها توسعا تحول معه لطفها الوالدي إلى شدة ورفقها إلى عنف، ثم أنشأت تحدث نفسها: ما العمل وقد ظهر لي أنها ما برحت مقيمة على وده بالرغم من بعده، وتحقق عندى الآن أنها لا تضحى والدتها فحسب بل الكون كله ف سبيل الوفاء له؟ إن رعمسيس يحب مينا ويعضده ويتفقده برعايته العالية، فإذا اطلعت نيفرت على ما دبرته من الوسائل وأحكمت عقدته من الدسائس مع بعاكر فليس بعزيز عليها أن تمهد لهما سبيل الانتقام منا.. كنت حتى اليوم أكاشفها بأسرارى فتضرب بها عرض الحائط وأنسج شباك الحيل على مرأى منها فلا تبالى بها. أما الآن فإذها لابد واعية لأقوالنا ومتعقبة لحركاتنا وسكناتنا وسيكون شأنها معنا شأن الأبكم الاصم الذى يزول عنه البكم والصمم فجأة بقوة فوق طاقة البشر فيسمع كل شيء ويتكلم بكل شيء. فلأكن منذ الآن على حذر! لم تبق نيفرت ابنتى المحبوبة بل خصمي المقوت ورقيبي العنيد!

ما لفظت راتوتى بهذه الكلمات وإنما كانت تناجى نفسها بها، وكانت إذ تناجت بها تشعر بخوف امتلاً به فؤادها ففتحت الغرفة التى كان بها نيمو وأمرته بتحضير المحفة لأنها اعترمت التوجه إلى الهيكل وزيارة الجنود المصريين الأسرى الذين فُك اسرهم وحضروا أخيراً من الشام، فقال نيمو: أنسيت يا مولاتى المنديل الذي طلب الوالى أن أحمله إليه؟ قالت: لم يرد آنى بالمنديل إلا انتحال سبب يحملنى على إنفاذك إليه. والحقيقة أنه لايرغب في غير الاطلاع على أخبار بعاكر والوقوف منك على أسراره وهو أمر عليك هين، قال نيمو: أود ألا يسألنى عن بعاكر لاننى لا أجرؤ على إفشاء سره، والأحسن عندى نسيها أو تناسيها. قالت: حقيقة إن ما وافيتنى به من الأخبار كاف بحاجة اليوم، فانصرف من فورك إلى آنى وابذل معه سأكافئك عليه بتحرير رقبتك من ربقة الرق وإغداق الخير الكثير عليك، ولاسيما إذا تحققت الامانى والآمال. فلثم نيمو طرف ثوبها وسأل: وما موضوع هذه المنى والآمال؟ أجابت: علمت ما يطمع آنى إليه ويتمنى الحصول عليه، أما ما أتمناه أنا

فشىء واحد ليس غير.سال: وما هو؟ أجابت: أن يحل بعاكر من الملك محل مينا. قال: إذن فأمانينا كلنا واحدة. ثم هم بالخروج، فقالت راتوتى: نعم لا مناص من ذلك، وإلا فإن دأمت الحال على هذا المثال وعاد مينا من ميدان القتال والزمنا بعمل الحساب.. آه.. لا أود أن تفضى الحال بنا إلى هذا الأمر وإلا فقد لعقنا ما هو أمر من الصبر.

الفصل المتمم للعشرين

مناجاة بالأسرار عند الراقصات بالإطار

برح نيمو دار الوالى وفيما هو في طريقه إلى دار راتوتى إذا بطفل قد أقبل عليه وطلب إليه أن يصاحبه إلى حى الأجانب قائلا إن امرأة تنتظره فيه، فتردد في إجابته إلى طلبه. فلما بدا للطفل منه هذا التردد أبرز خاتما علم نيمو بمجرد الاطلاع عليه أنه خاتم الساحرة نيخت، وكانت قد جاءت إلى المدينة لقضاء حاجة لها فرغبت في مشاهدته لم جعض الشؤون.

كان نيمو قد احتواه التعب وأعياه النضب لضيق خطواته ولأنه لم يكن اعتاد السير طويلا على القدمين ولا استعاض من حماره الذي نفق في الطريق بحمار غيره يخفف عليه متاعب النقلة، ولاوجد باسطبلات مينا دابة يركبها بعد أن باعت راتوتي كل ما كانت تحتويه من الدواب إلا ما رأته ضروريا لها ولابنتها. نعم، إن في الأسواق وعلى قوارع الطرقات أولادا يؤجرون حميرهم المسرجة (١) باثمان هيئة لمسافات معلومة أو لسحابة النهار كله، ولكنه لم يكن يحمل فلساً واحداً، وقد أنفق كل نقوده في اقتناء ثياب جديدة يليق أن يمثل بها بين يدى الوالى، وكان جيبه لايخلو عادة من المال، إذ كان مينا يلقى إليه كلما وقع نظره عليه حلقة فضة كما يلقى المرء بعض الحبوب إلى الطير. ولكنه لم يأسف على انقضاء ذلك العهد عهد الرخاء والرفه والنعيم بل فضلً عليه ما يكابده من الفقر والشقاء إذا اقترنا باحتياج الغير

⁽۱) جاء ف الآثار القديمة ما يدل على أن أغنياء قدماء المصرين كانوا يحصون ضمن ما يمتلكونه من المورة من الحمير. وأورد لبسيوس في كتابه (الجزء الثاني ص ٢٦١) صورة رجل جالس على كرسي معلق بين حمارين

إليه واعتمادهم في المشورة عليه، خصوصاً وقد أصبح من المطلعين على أسرار الحكومة والمتفوقين على كثير من العظماء والأثرياء الذين لايمتازون على عامة الناس وأفنائهم إلا بالتجبر والزهو. دع أنه فوق هذا وذاك كان حظياً برعاية الوالى يجلس ليحدثه بأحوال بعاكر ووقائع عشقه لنيفرت ويصب حديثه في قالب يستفز السامع إلى الضحك. ولقد أفضى إليه بأحاديث أخر كان إذا هم بالقائها يشبه صغار البط تندفع إلى الماء بحكم الفطرة أو العصفور إذا انطلق في الفضاء بعد أن عاش محبوساً في القفص منذ نفقت عنه البيضة.

ولقد أخذ يرن بميزان الفكر مشروعاته الخطيرة ويدبر لنجاحها التدابير ويحسب لحوادث المستقبل ألف حساب فعدل عن بعضها إلى البعض الآخر وبدل من تدبير بغيرها لترجيحه نجاح هذه وفشل تلك. وأمعن في التفكير وأطال في الأخذ والرد حتى بلغ إلى المدينة وسمع ضوضاء المارة فأحس بجلالة قدره وأنه من ذوى الشأن الذين يقعصون أعمال الحكومة ويتدخلون في شؤونها. وكان في أثناء مسيره قد مر بهيكل استارتة (۱) التي كان يعبدها أفراد الجالية الفينيقية في طيبة وبمعبد ست (۲) ملتقى الؤمنين بديانة (بعل) دون أن يتلفت إلى ما كان ينبعث هنه من صياح

⁽۱) كانت الإلهة استارتة التى عبدها الفينيقيون تمثّل على الآثار بشكل يشبه شكل الإلهة سخت وهى في آثار إدف ممثلة برأس أسدة تسوق عربة تجرها الخيول، وقد ورد اسمها في أوراق البردى التى كُتبت في عهد حوادث هذه الرواية مع اسم رعمسيس وجواده وكلبه المحبوبين عنده. (۲) اتخذ أحد ملوك الرعاة المسمى أبابى أو أبا توبس ست إلها له وتظاهر بئانه لايعبد غيره في مصر. وسمى المصريون بعد ذلك بعلا إله الساميين باسم ست كما يظهر من نص المعاهدة المبرمة بين رعمسيس الثانى وقبائل الخيتاس فقد احتوت هذه المعاهدة التى وُجدت في الكرنك صحيفة منها فيها دعوات للإلهين ست واستارته وصحيفة ثانية لآلهة مصر. وتوجد التفاصيل المتعلقة بالديانة الفينيقية في مؤلفات بليت وشاباس وبروكش وميبر وجورج ايبرس.

الصائمين ووقع أقدام الراقصين ورنين الصنوج. وعبر بعد ذلك الميدان الفسيح الذي تحيط به مساكن الراقصات الأجنبيات المزينات الصدور بالحلى الأجنبية، وقد أقبل على مشاهدته أهل البطالة والكسل الدين كانوا ينثرون أموالهم في هذه البؤرة ذات اليسار وذات اليمين وكانت تلك الراقصات يغلقن أبواب منازلهن الخشبية في النهار التماسا للراحة من عناء الليل. وكانت بيوت المقامرة تبيت مفتوحة الأبواب فيسمع منها قهقهة الضاحكين ومجون الممازحين وتشاتم المتنابذين، وكان هم رجال الشرطة طول النهار الفصل بين المتخاصمين من المقامرين، وكانت الحانات غاصة بالسكاري يحسون الكؤوس تلو الكؤوس من غير حساب ولم يكن ليرى بينهم أحد من جماعات المحترفين بالحرف الدنيئة كالموسيقيين المتنقلين والمشعوذين وأكلى النيران والمجان المطايبين والمقلدين وحواة الثعابين والسحرة والنخاسين وغيرهم من المحترفين على اختلاف مللهم ونحلهم.

واعتاد نيمو رؤية هذه المناظر فلم يعبأ بها لاسيما وأنه كان ينفر من الملاهى الخشنة والمناظر المبتذلة ويعاف شرب النبيذ ويميل عن كل ما يجنح إليه الهمل والمتشردون بطباعهم الخسيسة من العشق الوقتى الذى لا يكلفهم جهداً في استمالة المعشوق وغيره مما يكون عليهم فيه الغرم ولغيرهم الغنم. ولم يعبأ في مروره أمام تلك البيات المدنسة بما كانت الراقصات يرشقنه به من عبارات التهكم والتحقير كما لم يصغ أيضاً إلى ما كان المتفرجون المعجبون بخلاعتهن يصوبونه نحوه من سهام التبكيت ازدراء به وحطاً من أقداره، لأنه كان يعلم منهم العجز عن مجاراته فيهما. ولقد كان معروفا في طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاكر قال فيهما. ولقد كان معروفا في طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاكر قال فيهما. ولقد كان معروفا في طيبة كلها بالبراعة فيهما حتى أن قيم بيت بعاكر قال فيهما ما المنان القرم نيمو سيف

أصد نيمو إلى خباء كبير مخروطى الشكل فرقع ستره البالى وانساب فيه، وكان هذا الخباء مفروشا ببسط عتيقة جلست عليها غادات فاتنات أسبغن على قدودهن حللا مبرقشة بالألوان. وكانت إلى جانبهن عجوز شمطاء تلطخ أظافر أيديهن وأرجلهن بمعجون الحناء وتكحل عيونهن بالمستسم وتدمم (١) خدودهن وتدهن شعورهن بالبزيت المعطر. وكان الهواء في الخباء ثقيلا يكاد لثقله يحبس الأنفاس، وكانت البنات صامتات ساكنات لا يتحركن أحيانا إلا لتناول آنية من الصلصال فيها الماء الزلال، أو ذر الكحل بين شفاههن المدممة. وكانت الدفوف وآلات العزف والطرب على مقربة من أركان الخباء، ومنها إطار ثبتت فيه صنوج فضة صغيرة، كانت هرة صاحبة الخباء وجراؤها تداعبها بأطراف مخالبها فتسمع لها وسوسة خفيفة تغرى تلك الحيوانات الأليفة بتحريكها. وكان تجاه باب الخباء شق تدخل منه وتخرج جارية حالكة السواد، تحيط برأسها كلما دخلت أو خرجت أسراب الذباب، فترفع ما فوق البسط البالية من الصحاف المكسورة الحافات ممتلثة بفتات الخبز وقشور الرمان والثوم وغيره مما تركته الراقصات من المأكولات بعد أن اكتفين شبعا وريا.

أما العجوز نيخت التى كانت جالسة على صندوق مبرقش بالألوان الزاهية بجوار تلك الراقصات فقد أخرجت من طيات ثوبها صرة صغيرة ثم صاحت بالجارية وكانت تحرك يديها حولها لتذب النباب عنها قائلة: خذى هذه الحبوب العطرية واحرقى منها ثلاثاً فيخرج النباب حالا، ولى معرفة واسعة بطرد الجراذن من المنازل واستخراج الأفاعى والصلال من أوكارها ترفعنى درجات فوق الكهنة

⁽١) أي تطلى خدودهن بالأحمر والأبيض

والأطباء. قالت إحدى الفتيات: دعينا من هذه الأرجاس فإنك منذ نطقت بالرقى على جسمى وأعطيتنى الشراب الذى يجعل المرأة رشيقة القوام لدنة العود أصابنى سعال شديد يكاد يمزق صدرى وينهك قواى إنهاكا يمنعنى عن الرقص. قالت العجوز: ولكن لا خلاف ف أن جسمك الآن ضامر وقوامك رشيق بعد إذ كنت بدينة الجسم لا تستطيعين لسمنتك وترهلك حركة. أما نازل السعال الذى نازل بك فلسوف ينصرف عنك. قالت الجارية: نعم يزول بموتها كما مات غيرها من قبل.

فهـزُت الساحـرة كتفيها مستنكفة ثم وقفت فـرأت نيمو مقبـلا عليها وكانت الراقصات يعرفنه فالتفتت إليه إحداهن وقالت: به إبه! يا نيمـو، لقد نما جسمك فصار أضخم منه يوم زيارتك الأخيرة. فلفت قولها أنظار صويحباتها إليه وأخذت كل منهن تبث عبيحة الذهـول: هو! هو! فلما دنا نيمو من تلك الـراقصة قال: وأنت أيضاً لقد كبرت وطال لسانك. فقـالت له: ما أعظم خبثك وأقصر جسمك! قال: كيف يتفق عظم الخبث مع صغـر الجسم؟ السلام عليكن يـا ربات الجمال.. لتسـاعدكن الإلهة (بيزا) على إتمام زينتكن.. وأنت يا والدتى مبـارك يومك وسعيد نهارك هأنذا جئت بناء على ظلبك. أشارت العجوز إشـارة الموافقة على أنها دعته إلى الحضور ثم خنبته إلى صندرق كانت تجلس عليـه وأفضت إليه بسر ثم قالت: يظهر أن التعب قد أضناك، فهل جئت مـاشياً وحر الشمس محتدم؟ أجـاب: نعم لأن حمارى نفق وما كان معى من المال مـايكفي لشراء غيره أو تأجيره. قالت مازحة: هـذا بشير بسعادة جدك وحسـن مستقبلك، وماذا ربحت بعـد؟ أجاب: لقد انتشـل بعاكر مـولاتي من وهدة الإفـلاس، وكنت منذ ساعـة أفاوض الوالي آنـي في موضوع طـويل عريض. سالت . ماقال لك ومـا قلت له؟ أجاب: قال إنه سيعفيك من الـرسوم على أن تمهدى سالت . ماقال لك ومـا قلت له؟ أجاب: قال إنه سيعفيك من الـرسوم على أن تمهدى لتحقيق أمنيته وبلوغ مراده من بعاكر. قالت: أحب أن ياتي عندى ولو متنكراً. قال:

لا أكون داهية ف السياسة إن طلبت إليه ذلك، وهو رجل خؤوف شديد الحذر. قالت: أصبت لأن المرء إذا تشعبت مطالبه قلما يستطيع تحقيقها، بل كثيراً ما يحول أحدها دون انصراف أريحية المجسن إلى قبولها جميعاً.. ثم ماذا بعد هذا؟.. أجاب: لقد قهر الوالى بجيشه الأحباش الاثيوبين، وها هو عائد إلى طيبة تتبعه الغنائم من أموال وأعلاق. قالت العجوز: هذه بشرى ما أحسنها ثم ماذا؟ قال نيمو: لقد شحذ بعاكر غرار سيفه وأرهف حده.. أما مولاي مينا فلست أوافيك من أخباره إلا بقدر ما معي من النقود. وأنت تعلمين أنى جئت إليك ماشياً. قاطعته العجوز: ليسكن روعك وليهدأ بالك فلسوف تعود إلى مكانك ممتطيا حماراً. ثم أتحفته يحلقة فضة وسالته: أعاد بعاكر فالتقى بنيفرت؟ أجاب: اتفقت لهما حوادث عجيبة. ثم أنشأ يقص على أمه ما وقع بين بيفرت وراتوتي من الجفاء على أثر ما بدا لهذه من وفاء ابنتها لمينا مع بعده عنها. فأصغت العجوز إليه ثم أخذت تقول في نجواها: آه.. إن هذه الوقائم غريبة ندل على اشتراك طبقات الناس في الشعور، بحيث أن ما يقع في ظلال الأكواخ والأخبية يحدث مثله في سامخة القصور، وكل ما هنالك من الفرق أن الأم تشبه القردة التي يعذ بها صغارها فتستحلي هذا العذاب وأن الزوجات يصغين إلى ما ينقل اليهن في حق أزواجهن من الوشايات ويقبلنه قضية مسلمة، ولكن الحال غير ذلك بالنسبة لسيدتيك، لقد فنيت راتوتي في محبة ذاتها وآثرت نفسها على ابنتها بدليل ما أخبرتنى به من مبالغتها في التجمل، حتى إنها لتنضد الأزهار في شعرها كلما برزت لحضور الأعياد العامة وتراعى التناسب والتجانس بين ألوانها وألوان ثيابها ولا يهولها أن تضحى كل غال ورخيص ف سبيل الغاية التي تجدّ لتحصيلها. ألم تحرض بعاكر على قتل مينا وهو زوج ابنتها نيفرت؟

قال نيمو: ليتك رأيت نيفرت وقد هاج هائجها على أمها، إذن تعتقدين أنها ليست

تلك الأيكة التي ألفنا منها السكون والرفق بل أسدة لا تبدركها الآساد في ضراوتها وفروسيتها، قالت العجوز: لا غرابة مادامت هذه الغادة الفاتنة الحسن تحب زوجها مينا بقدر ما تحب أمها نفسها. ألم يقل الشعراء فيما نظموه من الشعر في محجها «إنها ملآنة بزو.جها» و «إنها لاتروم سواه»؟ قال نيمو: لقد شهدت نساء بلغ منهن التبدلية في العشق ما يتجباوز حبدود العقل، لكن.. فقهقهت العجبوز ضحكا حتى استرعت أسماع الراقصات حولها ثم قالت: إلا أن من تحدثني عنهن من النساء لم يسلكن مسلك نيفرت، وقل أن تـوجد في الألف واحدة تضاهيها إخلاصاً لـزوجها وهياما به.. إن العشق داء عضال ليس في قدرة طبيب أن يستأصله من فؤاد كما لا قدرة له على استئصال جرثومة الكسل من نفس الفتاة التي تفغر فاها هناك للتثاؤب. ويباليت شيطان الداء يذهب بحياة المعشوق فيصبح العاشق إما تعسأ ومغضوباً عليه وإما سعيد الجد. ولقد كنت في شبيبتي ممن سطا عليهم سلطان العشق وما برحت حتى اليوم.... قاطعها نيمو: ما برحت كيف؟ قالت وقد تمددت في وضع من يلتمس تبديد الكسل عقب النهوض من النوم: لقد كان ذلك من ضروب الجنون، والجنون فنون.. إن المعشوق الذي ألم إليه مات من عهد بعيد. وعلى فرض أنه مازال حياً فقد كان واجبا ان أبقى بحالتي الحاضرة لأن الرجال أشباه ونظائر وليس مينا بمستثنى منهم. سأل: لكن ألم يكن لشيطان الداء الذي ذكرته الآن نفوذ على بعاكر وسلطان؟ أجابت: ولم لا ، ولكن بعاكر اعتاد الاستمساك برأيه ولو أدت هذه الخصلة به إلى الجنون.. ألم يقتحم الأخطار ويستسهل الصعب ليدرك المني والأوطار؛ وعسى إذا استحوذ على نيفرت أن يكسر من حدثه ويطفىء من نار غبرته. اقد حريت في محادثتك شوطها بعيداً فدعني أذهب إلى السرادق الذي امتلأت بالندهب اكياس المتفرجين فيه على الراقصات، فلي كلام مع صاحبته. سأل: وأي

شأن لك بها؟ أجابت: تعلم أن وردة ذات جمال يفتن النساك فأنا أريد مفاوضة تلك المرأة ف مكافأتي إذا جئتها بالفتاة لتعلمها الرقص وتنظمها ف سلك الراقصات.

فامتقع وجب نيمو جزعا وقال للعجوز: لابد لك يا والدتي من العدول عن هذه النية. سالت: ولم وتيار النقود يسيل من أيدي القادرين على شرائها. أحاب متلجلجاً: لا أجيزك شراءها. فضحكت العجوز بطنا لظهر وقالت: ما معنى هذا النهى، أتريد التشبه بنيفرت ف دلالها على أمها فتقفني تجاهك موقفها تجاهها.. أم تطمح إلى الاقتران بوردة؟ أجاب: نعم، فتلك غاية شريفة أرنو إليها ولقد وعدتني سيدتى راتوتى بفك رقبتي وإغداق الخيرات على إذا نجح مشروعنا وتحقق مأمولنا. وعندئذ لا أتردد في شراء وردة من جدها فأتخذها قرينة لي أعيش معها في هناء ورغد. ومتى تم القران أشيد داراً بجوار دار العدل للمرافعة عن المتقاضين فيها. ألا تذكرين الأقتب (سوك) الذي أقدم على هذا الفعل فأصبح من الأثرياء والأعيان، لا يتنقل من مكان إلى مكان إلا في مركبة خاصة؟ قالت العجوز: حيذا الرأي، ولكن أما سمعت وردة حينما اعترتها الحمى لا يلهج لسانها بغير اسم الشاب الذي حضر من بيت سيتى لزيارتها؟ والمفهوم- بصرف النظر عن ورود اسمه على لسانها- أنها ترضى به بعلا وتؤثره على سواه لسمو مركزه ورفعة قدره، وليس ذاك الشاب إلا الشاعر بنطاؤر. صاح نيمو: بنطاؤر ذاك الذي يمشى الخيلاء ويلبس جلدة الموهار السابق لشدة شبهه به؟ حقا لمثله أن ينشد المعالى ويطمح إلى غايات المجد، ولكن ف الإمكان مع ذلك كسر شوكته والحط من كبريائه وشموخه. قالت العجوز: نجح الله مسعاك فإنه أحب إلى أن تصبح وردة قرينة لك لما اتصفت به من الجمال البارع.. ومن يا ترى يعلم أصل.. فقاطعها نيمو: عم تسألين؟ أجابت أسأل عمن يعلم أصل والدتها فإنه لا خلاف عندى ف أنها أجنبية بدليل الخاتم النفيس الذي وجد معها منقوشاً بحروف لم يستطع أحد حل رموزها. ورجائى أن نبذل عقب قرائك بوردة الجهد في ترجمة هذه النقوش بمعرفة أحد أسرى الحرب، والراجح عندى أنها من أسرة طاهرة المنبت كريمة المحتد لما يبدو على وجه ابنتها من أمارات الشرف والمجد.. لم أراك تضحك يا نيمو، ألا تدرى أيها الغرّ أن ألوفا من الأطفال عرضوا على فكنت أعرف بالتأمل في أقدامهم وبصرف النظر عن ملابسهم إن كانوا من أسر رفيعة أو وضيعة؟ فإن شكل القدم يا بنى يدل على الأصل، وهناك سمات أخرى توصلنى إلى معرفته. فاعلى ذلك ولا تهزأ وكل ما أتمناه أن تبقى وردة حيث هى الآن دون أن يعرفها أحد لاساعدك على الاقتران بها. وعليك أن تنصرف الآن وأن توافينى بما يجدّ من الحوادث الخطيرة جهد الإمكان.

الفصل الحادى والعشرون فسما دار من المحادثات بإحدى الشرفات

عاد نيمو إلى منزل مينا ممتطياً حماراً اكتراه ببعض ما اتحفته به العجوز من النقود، فلم يجد به دياراً ولا نافخ نار، لأن راتوتى كانت فى اثناء غيابه قصدت إلى الهيكل ثم إلى المدينة. أما نيفرت فكانت خرجت لزيارة صديقتها بنت أنات.

وكان قصر فرعون أشبه بمدينة صغيرة منه بقصر عالى الذرى وثيق البناء منيع الأركان. وكان الجناح الخاص منه بالوالى أنى يشرف على الخلوات والمزارع، أما الجناح الخاص بسكنى فرعون وأسرته فكان يمتد على ضفة النيل ويبدو للنوتية والمسافرين بحراً في أحسن رونق(١) ولم يكن البناء في ذاته متناسق الأوضاع ولا متجانس الأجزاء، إذ كان عبارة عن بنايات متفرقة في ثلاثة صفوف تفصل بعضها عن بعض أنهار تتدفق المياه فيها دوماً فيسمع لها خرير لطيف، وتتدفع في مجار أعدت لها تعلوها قناطر وطيدة البناء تيسيراً للمواصلات من ضفة إلى أخرى. وكان يحيط بتلك المبانى الجليلة أشجار باسقة ناضرة الأزهار يانعة الثمار تنحط على أغصانها الطيور فتجلو صدأ الهم بتغريدها من الصدور.

وكان يتخلل أسوار الحديقة على مسافات متفاوتة أبواب عالية يقف دونها الحراس من الجند مدججين بالأسلحة، ويلزمون مواقفهم فيها ليل نهار. وكان تجاه كا، باب منها أدقال ساريات في الجو إلى علو سامق، فإذا كان فرعون في قصره

⁽۱) يرى بعض المؤرخين أن الفراعنة كانوا يسكنون الهيكل وهو رأى تاكد بطلانه، إذ تبين بالبحث في الهياكي التي مازالت باقية على حالتها الأولى كهيكل دندره وإدفو أنها كانت خاصة بإقامة شعائر الدين ليس إلا. أما الفراعنة فكانوا يسكنون بيوتا واسعة مشيدة بمواد البناء الخفيفة في وسط حدائق كانوا يعنون عناية تامة بغرسها.

رُفعت عليها أعلام حمراء وزرقاء وإن لم يكن موجودا ثبتت باطرافها العليا نصال حديد لجذب الصواعق إليها أو صرفها إلى ناحية أخرى(١).

وكانت مقصورات الأميرات من هذا القصر الفسيح إلى يمين القسم المتوسط منه تظللها أشجار باسقة الأفنان وارفة الظلال فيها من كل فاكهة زوجان، وينطبع مراها البديع في صفحات الماء المنساب تحت جدرانها انسياب الأفعوان. وكان يليها من الجهة الأخرى مخازن القصر ومستودعاته متراصة متراكنة، بعضها إلى جانب بعض. وتلي القسم المتوسط الخاص بالملك أبنية عديدة وتكنات واسعة للجند والضباط المنوط بهم حفظ القصر وصيانة ساكنيه من الأثمة المعتدين وإلى يسار الثكنات منازل الحشم والخدم والعبيد وسائر الأتباع، على اختلاف وظائفهم وتباين أعمالهم.

وكان هذا الفصر - بالرغم من غياب رعمسيس في حرب الخيتاس - مظهر حركة دائمة تُوقع في يقين الناظرين أن الملك ما برح مقيما به وموجوداً فيه، فقد كان مئات العمال في الحديقية دائبين على تعهد الأشجار بالتقليم والريّ وغيرهما من وجوه العناية بها، فإذا أتموا هذا العمل انكبوا على غرس أشجار جديدة أو حفر مسارب وقنبوات عديدة لجر المياه إلى المواضع التي لم تكن وصلت إليها. وكان الجند في إحدى الساحات يتمرنون - بقيادة قوادهم - على أداء الحركات العسكرية فيبهرون الأبصار بلوامع أسلحتهم ويسحرون الألباب برشاقة حركاتهم، وكان الخدم في ساحة غيرها يدربون الخيول ويكبحون من جماحها. أما الأميرات فكانت حجراتهن الشبه بخلايا النحل، دوام حركة وطنين أصوات، إذ كان الواقفون بأبوابها من

⁽١) يشهد بذلك النقش الذي عثر عليه العالم دوميشن في هيكل دندره

ضباط وعبيد وموسيقيين وتجار وزوار لا يحصى عددهم.

وصلت نيفرت إلى باب القصر المفضى إلى حجرة بنت أنات فلم يتعرض لها أحد المتولين للحراسة بتفتيش محفتها، كما يجرى مع غيرها من الزوار، إذ اشتهر أمرها بينهم بأنها رفيقة الأميرة وصديقتها الحميمة. بل كانوا يسارعون إلى التنحى عن طريقها وإفساح المجال لها. وكانوا يطرقون رؤوسهم احتراماً لها وإكباراً. وقد أقبل عليها أحد الحجاب مهرولا بداخل الحديقة لاستقبالها وصحبها إلى ديوان كبير الأمناء الذي أحسن لقاءها وصحبها إلى مقصورة بنت أنات.

وكانت بنت أنات آنئذ بحجرة والدتها، وهي عبارة عن بناية جمياة مؤلفة من طبقة واحدة جامعة أسباب النظام. وكانت مقصورة بنت أنات تشرف على النيل وبها نوافذ تفضى إلى شرفة يحيط بها حاجز نحاس دقيق تلتف بأجزائه فروع النباتات المتسلقة. فلما دخلت نيفرت على بنت أنات أمرت هذه بعض جواريها بإزاحة الستار المسدول على تلك النافذة. وكانت الشمس آخذة بالأفول، والنسيم يحمل شذا عطور الأزهار والوقت من أوفق الأوقات لما اعتادته بنت فرعون من التأمل في (رع) الذي أمسى باختفائه وراء ستار المغرب، فيما يلى القبور المنطبعة مواقعها على الأفق الغربي بحي الأموات متسربلا بسربال (طوم)، تاركا مصر من خلفه إلى الأصقاع الخفية من العالم السفلى، حيث مقام الأبرار والأخيار، ينيرهم بشعاعه الساطم اللامع فيبهر منهم الأبصار.

ولم يكن بمقصورة بنت أنات من وسائل النينة والزخرف ما توافر منها ف حجرة نيفرت التى صرفت راتوتى ومينا عنايتهما في فرشها بالبسط المطرزة الحواشى بالحرير اللازوردى تتخلله أسلاك الفضة، والكراسى المكسوة بالنسيج

الدقيق الوشى بأنامل الحبشيات توشية تُرى الناظر فيه صور الطيور ناشرة اجنحتها فتخيلها له مخترقة طبقات الجو صعدا، وزينتها بدميات الإلهة هاتور المرصعة بأحجار الزمرد ترصيعاً تحار فيه الألباب، وبالموائد الحاملة مختلف التحف والطرف، فمن صناديق صغيرة صنعت من العاج أو حجر اليشب إلى أكواب نُحتت في المرمر الناصع البياض، إلى غير هذا وذاك من الأعلاق والنفائس التي زادت بهجة المكان فأصبح خليقا بصاحبته ذات الحسن الفتان

أما مقصورة بنت أنات فلم تكن بهذا التأنق البالغ، بل كانت ببساطة مفروشاتها وسداجة أثاثها تنم على طباع صاحبتها وعاداتها وميولها. فقد كان البهو الكبير مرتفع الأزج تخفق فيه الرياح ولم يكن فيه من آثار الزينة والتنميق إلا ما كسيت الجدران به من مربعات الخزف المتعاقبة الأوضاع بحسب لونها، الأبيض فالبنفسجي فالأبيض وهكذا، وبوسط كل مربع منها شبه النجمة من لون المربع الأخر. وفيما يل صفوف هذه المربعات بسط قماش أخضر من نسيج مدينة (صا) يتدلى من أطرافه ما يستر الكراسي والآثاث المحيطة بالغرفة التي كان تتوسطها منضدة كبيرة صُفّت كراسي الخشب من حواليها بكشل الدائرة.

وكانت مفروشات الغرف الأخرى المجاورة لهذا البهو كمفروشاته جامعة بين البساطة والحشمة، إذ لم يكن بأركانها سوى أصص غرست فيها النباتات النادرة وقوائم من خشب السأسم تحمل مباخر يتصاعد منها الدخان العطرى، إلى غير ذلك مما يشير إلى شغف الأميرة بالمناظر الطبيعية والتحف النادرة أكثر منها بما يغلب فيه حب الترف على الذوق السليم.

وكانت حجرة نوم الأميرة تليق بإقامة أمير من المغرمين بمشاهد الطبيعة

ومناظرها البديعة، أو أميرة جمعت إلى الكمال ضروب الحسن والجمال. وما كان ميلها إلى البساطة عن عجز في الإنفاق فهي أميرة ابنة أمير يقبض على زمام أمة كبيرة بل عن إيثار للهواء والنور يتخللان حجرتها دون أن يعوقهما عائق من الرخرف الباطل. وكانت الستائر مضروبة على نوافذ غرفتها، وهي لم تعتد إسدالها إلا في حمارة القيظ فتكون خالفت بذلك نيفرت التي اعتادت أن تحكم غلق نوافذها.

تحفيزت الأميرة للقاء صديقتها وكبائت بباب المقصورة في موقف الخضوع والاحترام، فوقفت ولمست ذقنها بأطراف أناملها إشعاراً بعطفها عليها ورعايتها إياها كما كان يفعل قدماء المحريين. ثم قبِّلتها بين عينيها وقالت وهي باسمة الثغر: لقد أتيت اليوم لزيارتي وتفقد حالتي بلا دعوة مني، وهو ما تستحقن من أجله الشكر، لاسيما رأنت منذ سافر الجيش إلى ميدان القتال لم تتخطى لى عتبة . وف هذا الدليل الناهض على هجرك وإطراحك إيايٌ في زوايا النسيان. فرفعت نيفرت إليها الطرف وأجالت النظر بعينين مفرورقتين بالدموع، فكانت نظراتها أبلغ في التعبير عن المراد من البيان باللسان وأدل على ما يخالط القلب من الهموم والأحزان. وقد اضطرت بنت أنات إلى قطع كالأمها، وبعد هنيهة أمسكت بياديها وقالت: أتعلمين ما صديقتي أن لا مثيل لعينيك المتلوزتين وطرفك الساجي سوى عيون الآلهة التي إن رشقت الأرض بسهامها نبتت في مراميها الأزهار الجميلة؟ فاحمرٌ وجه نيفرت خجلا وقالت بصوت متهدج: أود أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهما حتى الأبد فأرتاح من شقائي وأخلص من ذلى وعنائي. ثم تساقطت الدموع على مهديها كلاليء العقد إذا انفرطت، فجـ ذبتها بنت أنات إليها جذبة عطف وحنان كمن يرفق بالطفل الصغير وقالت: ماذا وقع؟ فالتفتت نيفرت بعين يخامرها القلق إلى السيدات اللائي لزمنها حتى باب المقصورة ، فأشارت إليهن بنت أنات بالانصراف كما أشارت به إلى ضابط التشريفات. ولما استوثقت من انفرادها بصاحبتها وأنه لاثالث لهما أقبلت عليها قائلة: خبريني.. مادهاك من الأحزان التي غيرت معالم جمالك الفتان، خبريني كيلا أدخر وسعاً لتخفيف هذه الآلام. أجابت: من أين لمثلى بلأة السرور والظفر بالمارب إذا كنت أصبحت ألعوبة بأيدي الأجانب والأقارب.. قالت: لقد أنكرت هيئتك وغابت عنى معرفتك بما نالته الآلام منك.. فأي مصاب دهاك وبغدره رماك؟ خبريني! فمن ذا الذي راك قبل اليوم ولم يخل له أنك في منام تتمتعين بلذيذ الأحلام! أجابت: صدقت، فقد كنت حقاً غارقة في بحار الأحلام حتى أيقظني مينا، فلما تركني عدت إلى النوم، وها قد مضى على عامان وأنا في سبات عميق ولكن القوم أطاروا اليوم النعاس من عيني فأصبحت ولا سبيل إلى الراحة والسكون.

وكانت بنت أنات في إصغائها لهذه الكلمات ترى قطرات الدمع منحدرة على خدى نيفرت فأشفقت عليها كما لو كانت من فلذات كبدها إذ أجلستها على الأريكة القريبة منها وقعدت هي أمامها تربتها بيديها وتلاطفها، ثم سألتها عن سبب ما دهاها وكدر صفاءها.

وكانت نيفرت لم يعد أحد ممن عاشوا في أفقها وخالطوها مخالطة قرابة وجهها وكمد لونها حتى لم يعد أحد ممن عاشوا في أفقها وخالطوها مخالطة قرابة أو مودة يتعرف عليها. ذلك لأنها وقد فوجئت بتلك الحادثات كانت تشبه من يخُلق كفيفا ثم تنفتح عيناه للضوء على غير انتظار منه فتؤثر أشعته في عينيه تأثيراً يؤلمها، ثم لا يل ثن يتبين له أن الأشياء التي وقع عليها نظره تختلف شكلا رحجما ولونا وكيانا عما كان يخمنه لهما من الصور في عمايته، وتبدو له حقائق الأشياء في أقبح المظاهر وأبعدها عما كان يخيله لها من الحسن والاكتساء بغير الثوب الذي برزت له

فيه وسياء بصره، فبلا إنشب أن يتلمس بعينيه منظراً عليه مسحبة من النهاء والحسن، وما أصدق انطباق هذا المثل على نيفرت! فإنها لم تجل النظر فيما يحيط بها من الكائنات إلا بعد إذ وقعت تلك الحادثات. وقد فكرت أنئذ فيما يمكن أن يفضى إليه الطريق الذي تسير فيه، وجددت في نفسها ذكري ما وقع لها مع والبدتها، ثم راجعت نفسها متسبائلية: لم لا أستلم بيدي زميام بيت أنيا صاحبتيه وسيدة من يأويه من الخدم والحشم، إذ أنه بيت زوجي؟ ثم سكتت هنيهة خُبل لها فيها أن هاتفاً بناجيها حواباً على هذا السؤال: السبب أن هذا الزوج لم سرَّ فيك الكفاءة للتبصر والعمل. وكان مينا يقتصر في ندائها بقوله: «ياوردتي»، وماكانت نيفرت في الحقيقة إلا وردة زاهية يحسن بالمرء أن يطيل النظر فيها إعجابا وسروراً، أو يستروح رائحتها الزكية. ولكن أيكفي المرء أن يقضى حياته تأملا في الورود واستنشاق أريجها المعهود؟ ثم التفتت إلى بنت أنات وقالت: لا ريب عندي أن والدتي تحبني حباً جماً ولكن لا تمربي خلجة شك ف أنها أساءت التصرف بأموال زوجي. ولقد كنت وهي تنفقها من غير حساب لاهية عنها لا يسامني إسرافها، بل لا أكاد أشعر به، وهائذه أراها الآن تخاف مغبة عودة زوجي وتحسب لها ألف حساب. ومخافة امرىء تحمل الخائف عادة على كراهيته والنفور منه ثم على تقبيح فعله وتسوئة سيرته ولو لم يكن عليهما غبار. وعلى هذه القاعدة حقدت والدتى على مينا لأنها كانت تخشى عاقبة اطلاعه على تصرفها الضارّ، فسلمت بكل ما نُقل البها من الوشايات ف حقه. وليس فيما يسنح للواشي من الفرص ما هو أوفق للسعاية والدس كغياب المقصود بالوشاية. اعتقدت والدتى بمفترياتهم التي رموا زوجي فيها بأنه خان أمانة الزواج إذ جعل ف سرادقه سبية من سبايا الحرب ذات جمال رائق وحسن فائق.. فهلا ترين أن هذه المزاعم تلفيق؟ إنى لا أريد مخاطبة والدتى بعد الآن لما سببته لى من الأحزان وعملت عليه من سلب راحتى وسعادتى.. ألا ترين انها- بإثارة الشكوك في نفسى نحو مينا- أرادت أن تسلبنى كل شيء حتى الهواء الذي أستنشقه والدم الذي يجرى في عروقي وعليه مدار حياتي؟ أما علمت تلك الأم الخشنة الفؤاد الغليظة الكبد أن هيامى بزوجي هو سبب وجودي وعلة كياني في هذه الدنيا؟

كانت بنت أنات تنصت إلى هذا الحديث فلم تقاطعها مرة حتى إذا أمسكت عنه قالت: تعالى بنا إلى الشرفة لأفضى إليك بما عن لى من الأفكار ومر بخاطرى من الهواجس، وأرجو أن يلهمنى توت الحقيقة ويهدينى إلى الصواب، فإن نصيحتى لك وأنا التى خبرت أحوالك وسبرت طباعك بما يجمعنا من روابط المودة أقل ما أفرضه لك على نفسى في هذه الأونة.. يسندون إلى النزق والتهور وعدم التروى، ولكن لى أحيانا نظراً صائباً وحكما جازماً فثقى بى أيتها الخليلة الوفية وهيا بنا نسير الهوينا وإنى لخير معين لك على السير.

وكانت خطرات النسيم تمر مراً خفيفاً على سطح الماء فتبعث فيه قشعريرة تستحيل إلى موجات صغيرة تتعاقب في توازن وانتظام على القرطاس كأسطر الكتابة في استوائها. وكانت المبانى الكبرى ومنازل الخاصة تنطبع صورها على وجه الماء، والزوارق الكثيرة تعود من مديئة الموتى مقلة المثات من الزوار، والنيل تتدفق مياهه نحو الشمال كالحسناء تسير في جلال واختيال، والشرفة تطل على أبهج المناظر من نهر يتيه عجباً وحديقة أشجارها نواضر، وكان النظام مستكملاً لا يستريب العاقل في أن المهندس المتقن الذي وضع رسم هذه الحديقة في عهد الملكة حاتاسو قد أودعه من المبتكرات البديعة ما تعجز عن تنسيقه يد الطبيعة، فإن هذه

الحديقة التى تحسر اللب بجمال وضعها وحسن تنسيقها كانت إذا رؤيت من قمة لاحت له كالسجادة الفارسية في تشعب فروعها واشتباكها وانفصالها واتصالها. وكان من بين أشجارها ما جلب في السفن الكبيرة من بلاد اليونان وسواحل بلاد العرب رأنفقت في سبيله الأموال الباهظة. وهي لغرابة أشكالها وأنواعها تلفت النظر وتحير الفكر.

وكانت بالقرب من هذا المكان جزيرة آمون ذات الغابات المقدسة وفيما يليها على الضغة اليسرى من النيل مدينة الأموات بما احتوته من التماثيل المتراصة على صفين متوازيين بين النيل وتمثال أمينوفيس الثالث الكبيرين ومداخل بيت سيتى وسطوح هيكل حاتاسو وأماكن جثث الموتى، إلى غير ذلك من المبانى الخاصة التى ترى مبعثرة من بعيد على ثرى الناحية الغربية، وينطبع على الآفاق فيما يلى تلك المدينة خيال جبال (لوبيا) وقد شقت الأخاديد فيها لدفن جثث الموتى فازدادت تلك الجهة بسكونهم سكونا.

كاند بنت أنات ونيفرت تمعنان النظر في هذا المشهد العجيب المؤثر مع تطفيل الشمس بعد أن تذبذب قرصها العسجدى فوق الأفق فترة من الزمن. وكانت الشمس المحب الخفيفة تجرى في بحبوحة الأثير غير بادية للأنظار، فلما غابت الشمس وانعكست الأشعة عليها برزت من خدرها مكتسية بألوان زاهية يخيل معها للرائى أن يد القدرة الربانية نثرت على بساط السماء حفنة من النيلم والعقيق والياقوت فجاءت في وضعها على تمام التناسب والنظام. ولما شهدت نيفرت وابنة فرعون كوكب الشمس وقد آذن بالأفول بادرتا بالجثو على ركبتيهما بحيث يحجب نظرهما عن رؤيته تلك النباتات المتسلقة الملتوية الفروع على حاجز الشرقة، وتفرغتا للصلاة

والعبادة. وكان النسيم يحمل إليهما صدى الأناشيد الدينية التي يرتلها الكهان في هذه الساعة على سطوح الهياكل، فتؤثر في السامعين تأثيراً يحرك فيهم عواطف التقى والورع. وما أتمتا الصلاة حتى كان الليل أرخى سدوله وخيم على الآفاق، لسرعة زوال الشفق في جهات مصر العليا بالنسبة للبلاد التي تليها شمالا. وكان كل ما التقى ببصرهما من المرثى سحباً يشبه لونها الورد أخذت تختفى بعضها تلو بعض كما ازداد كوكب المساء علوا في الفضاء.

قال بنت أنات: إنسى أشعر بطمأنينة وطيب نفس عقب ما أديناه معاً من فروض الصلاة وأقمناه من شعائر العبادة فعسى أن تشعرى بما شعرت به. فهزت نيفرت رأسها فدنت بنت أنات منها. وبعد أن أجلستها مالت إليها لتكاشفها بما في صدرها وتمحضها النصح إذ قالت: أرى يا نيفرت أن قلبك أصيب بجرح أرجو له سرعة الالتثام.. لقد صوروا لك الماضى في أشنع الصور وأوقعوا في فؤادك الرهبة من الحال والاستقبال، فدعيني أخلص لك القول وإن يكن فيه ما يولك.. وإن كنت مريضة وأنا الطبيب الذي يتوقف على علمه شفاؤك فهل تعى أذنك نصيحتى وهل ما تتمرين بأمرى؟ أجابت نيفرت: كيف لا أصغى ولا أطيع وأنا رهن إشارتك وما مقادتي إلا بيدك؟ قالت: تعلمين شغفي بممارسة الأعمال واعتقادي أنها أيسر عندي من الأقوال، ومع هذا يخيل لى أني وقفت على حقيقة حالك وما يجول من الأفكار ببالك. أنت تحبين زوجك الذي أقصته عنك الحاجة إليه في قهر الأعداء، فلما غاب محياه عن نظرك أحسست بآلام الوحدة تنتاب فؤادك.. وهذا أمر طبيعي لا شك فيه ولا مراء .. ولكن ألا تدرين أن لى مثلك والداً وإخوة في ميدان القتال يحاربون الأعداء إلى جانب زوجك، وأن والدتي قبضها الله إليه منذ زمن بعيد، وأن السيدة النبلة التي وكل الملك إليها مسلازمتي وتسليتي في وحسدتي قسد لحقت بها في السماء التي وكل الملك إليها مسلازمتي وتسليتي في وحسدتي قسد لحقت بها في السماء التي وكل الملك إليها مسلازمتي وتسليتي في وحسدتي قسد لحقت بها في السماء

فأصبحت مثلك ملقاة فى زوايا النسيان والهجر؟.. سرحى الطرف فى أرجاء هذا القصر أفتجدين به أحداً غيرى.. ألم أكن مثلك وحيدة، وأن الوحدة أثقل وطأة على نفسك؟

قالت نيفرت: المرأة المهجورة هي التي تنتظر عبثاً عودة محبها الذي أطال أمد حرمانها استجلاء طلعته. سألتها الأميرة: أوتعتقدين بحب مينا وصدق ولائه؟ فلم تحر نبفرت جواباً لما أخلفها من الذهول والحيرة فرفعت يمناها إلى قلبها وأشارت بإشارة الإيجاب. قالت بنت أنات: ثقى أيتها الصديقة بأنك لسوف ترينه هنا فيسعدك القررب منه. قالت نبفرت بصوت منخفض: أود لو تتحقق هذه الأمنية. قالت الأميرة: مادام الرجاء ملء فؤاد المرء فلا يسوغ القول بأنه ملك زمام السعادة المستقبلة وجذبها من ناصيتها.. أثق بأنك لو خبرت بين الدخول في عداد الآلهة والتحلى بالمزايا لعديدة التي اختصوا بها وبين البقاء مع مينا لفضَّلت ثاني الأمرين، ولكن ألا تملكين الآن مع بعده عنك كنـزاً ثمينا هو تـذكار السعادة الماضيـة والهناء السابق معه؟.. أناشدك المودة ألا أنبأتني مناهي السعادة التي أشعر بها لو تذكرت حوادثي الماضية وما هو الهناء الصحيح الذي أزعم أني عشت في يحبوحته؟.. قالت نيفرت. إذا كنت لا تشعرين بالسعادة الآن ولابذكراها في الماضي فما هو إلا لأنك سلمت من الحب وتأثيره الشديد في القلب.. أنت تشبهين البدر مجدا في السير غير حافل بما حوله من ساطع الكواكب ولا تعلمين ماهية السعادة في الحياة ولا سر ما يعتورها من الشقاء. سألت بنت أنات: وأي شقاء تقصدين؟ أجابت نيفرت: أقصد به الام الانتظار في قلب تذكى (سحت) فيه ضرام النار.

هنا أمسكت بنت أنات عن الكلام واسلمت نفسها للخواطر والهواجس ثم رفعت

راسها فجاة وبعد أن أجالت النظر في صديقتها قالت: لا صواب فيما تقولين يا نيفرت، فإنى أعرف الحب كما تعرفينه، وكل ما هنالك من الفرق بيننا أنك تنتظرين يوما تتحلين فيه بحلية هي في قبضة يدك، وليس بيدى شيء من الحلية التي يطمح فؤادى إلى التحل بها. وما هذه الحلية الثمينة بالنسبة لي إلا كلؤلؤة في قاع البحر لا أراها ولا أستطيع اقتناءها. قالت نيفرت: إذن أنت تحبين! الحمد لهاتور أن أودعت قلبك الحنان والشفقة.. ولكن لم لا تأمر ابنة فرعون غواصاً خبيراً بالغوص على اللؤلؤة التي حازت إعجابها والمجيء بها إليها، بل لم لا تشيرين بطرف بنانك إلى تلك اللؤلؤة التي حازت إعجابها والمجيء بها إليها، بل لم لا تشيرين بطرف بنانك إلى تلك اللؤلؤة النفيسة فلا تلبث أن تطفو من قاع البحر على سطحه ثم تدفعها الأمواج فتلقيها عند قدميك؟

تبسمت بنت، أنات سروراً بهذه الاستعارات فعمدت إلى نيفرت وقباتها بين عينيها وقالت: لقد ترامى بنا الحديث إلى موضوع نبه خاطرك وأيقظك من سباتك. ولله در أستاذى في الموسيقى إذ كثيراً ما قال «إذا اتفق وتران وجس أحدهما إنسان اهتز له الثانى» والذى أراه أنه إذا داومت على الكلام في هذا الموضوع حتى الصباح فستصغين إليه حتى يتم، ولكنى أود ألا يذهب الوهم بك إلى اعتقاد أن هذا هو ما حبب إلى ترك الشرفة. وعليه فلتع قولى منك أذن واعية.. إننى الآن أعيش في الوحدة والعزلة مثلك وأحب كما تحبين ولكنى لست بواثقة إن كان من أحبه يقابل حبى بمثله، ومع هذا فما يزال السرور أليفي والرجاء في المستقبل حليفي، فبم تعللين ذلك؟ قالت نيفرت: ما أبعد مسافة الاختلاف بيننا! قالت الأميرة: نعم نحن الاثنتين على طرفي نقيض ميولا ونزعات، ولكن أغاب عنك أننا ما زلنا في نضرة الشباب ومقتبل العمر وأننا نميل إلى الخير؟ لقد توفيت والدتى وأنا طفلة جاهلة فلم أجد من اعتمد عليه في تقويم طبعى وتثقيف عقلى، فشببت بين أناس لا هم لهم إلا الخضوع

لأمرى والمنادرة إلى تلبية طلبي، ف حين أنني كنت إلى إرشنادهم أحوج مني إلى امتثالهم. أما أنت فقد قامت والدتك على تربيتك وعنيت بتهذيبك ووجهت خطواتك في سبيل الحياة الكثيرة المعاثر، ولاعجب فليس في الفتيات أحق منك بهذه الحياة الهنية والسعادة الرضية، حياة الشمس المنيرة التي تملأ الكون بأشعتها المحيية. إلا أنها مع هذه العناية البالغة لم تفكر قط ف أن تصد ميولك بعزيمة التحرز والاحتياط للمستقبل. فقد جنح فؤادك الخلى إلى مينا فانفتحت لحبه أبوابه فاستقر فيه وتمكن منه بحيث لاتزحزجه عنه قوة بالغة ما يلغت. ولقد انقضت أربعة أعوام لم تظفري فيها من قربه والتمتع بمخالطته إلا بأشهر معدودة.. لزمتك والدتك في هذه المدة ولم تفارقك فكنت تتخيلين أنها أخذت على عهدتها إدارة شؤون منزلك وأنها كفتك بذلك مؤونة التعب وأنسحت لك المجال للانكباب على أمر واحد وهوالتفكر في حبيبك الذي طال غيابه عنك.. أعرف هذا يا نيفرت وإذا لم يتصل بعلمي من قبل فقد اتصل به من عهد قريب.. والذي فهمته أن كل ما وقع تحت مشاعرك في العشرين شهر الماضية لا يرجع إلا إليه ولا ينحصر إلا فيه، ولا عليك من ذلك. إلا أنه خليق بك إمعان النظر وإطالة التأمل للاعتبار والاستبصار.. تأمل في شجرة الورد تلك التي تسر الناظر وتشرح الخاطر فهي لولا ما يتعهدها البستاني به دواماً من الرجب والتقليم والري والتقويم لما نمت هذا النمو الذي اضطرنا إلى إغلاق النافذة وحجب الضوء عن النفاذ ف هذا المكان.. إليك يا عزيزتي هذا الرداء استرى به كتفيك فقد نزل الندى ولم أتم حديثي معك بعد... إن الهيام بمينا قد ملا قلبك وخطف لبك، وهو ما استعيذ بالآلهة منه، فإن العشق يشبه على ما أظن شجرة طبية المغرس ممتدة الأفنان وارفة الظلال لا شجرة تنبت من أي بـذر أودع أرضاً مـا.. ولست بمنحية عليك بلـوم ولا محيلة بتعزيـز، لأن من تعرض لتهذيب خلقك وتثقيف طبعك فالته الالتفات إلى ما فطرت

عليه من ند فالمراس وسرعة الجماح.. ولقد كنت مثلك أيام كان شعرى مرسلا إلى جبينى، إذ م اطع لأحد أمراً ولم أفعل إلا ما رسمته لى الأهواء الصبيانية بيد الطيش والنزق وإنما يميزنى عنك أننى لم انخدع بما كانت الأحلام تزينه لى من الأوهام، بل كنت أميل إلى الحقائق المحسوسة فشاركت إخوتى فى ألعابهم التى كانوا يمرحون فيها ويهوشون، وعنيت بتربية الكلاب والخيل والطيور الجارحة حتى كان أهلى وذوو قرابتى وخلطائى ينعون على هذه الميول التى اختص بها الدكور دون الإناث. وكانوا كلما غالوا فى نعيهم وتعبيرهم ضاعفوا في نفسى الميل إلى التشبه بالرجال والاقتداء بهم فى جميع الأعمال.

ما استقرت ، لذه الأقوال في أذن نيفرت حتى هبّت قائلة بصوت الاستنكار: أما أنا فلن أروم لنفسى ما رمت أنت لنفسك. قالت الأميرة: إن تنكرى على هذا الميل فما هو إلا لأنك زهرة جميلة ووردة نضيرة، أما أنا فما ناهزت الخامسة عشرة من العمر حتى شعرت بنالسأم من الحرية التى كان مجالها منفحسا أمامى بحكم مركزى، وزادنى ضبحرا أن أكون على الدوام مظهراً لأداء الفروض الواجبة لى من مسارعة إلى قضاء مطالبي وتنفيذ لكل رغباتي، وما سبب تحولي فجأة عن هذه الأحوال إلا أن والدى دعاني منذ أربعة أعوام أي قبل زواجك بقليل إلى ملاعبته بالضامة (١) وكان من أمهر الناس في هذه اللعبة وأكثرهم تفوقاً فيها، فاتفق يوماً أن غلبته دفعتين، وبدا لى أنه كان يفكر في أمر ذي بال ففرحت لفوزى عليه وقلت له بعد أن قبلت رأسه ويديه: عجباً أن تقهر فتاة صغيرة الإله العظيم الجبار الذي صرع

ا را) يرى في مدينة آبو رسم غريب يمثل رعمسيس الثالث لا رعمسيس الثاني يلعب هذه اللعبة مع ابنه

لأجانب وطرحهم عند قدميه (١). فابتسم ثغره وقال: تغلب الإلهات الآلهة أحياناً... أو لم تكن إلهة النصر عندنا امرأة وهي نيخت (٢). ثم انتقل من الهزل إلى الجد فقال: يقولون عنى إننى أحد الآلهة وهو وصف أراه غير مطابق للواقع، فإنى لم أشعر قط بزناد الربوبية يقدم ف قلبي إلا إذا قمت بعمل كبير ثواباً كان أم عقاباً (٣) ففيم أشبه الألهة إذن إلا في القدرة والشابرة على العمل.. وقعت هذه الكلمة من فؤادي وقسوع البذور السليمـة من المغرس الطيب إذ تنبهت لما ينقضي من صفات الكمال، فلما سافر والدى وزوجك إلى حومة الوغى يتبعهما مائة الف مقاتل عقدت النية على الاقتداء بهذا الوالد الرحيم في القيام بجلائل الأعمال لاستحق نعمة الانتساب إليه فاسكنت تلك المنازل التي ترينها وراء الأشجار هناك ثلاثمائة فتاة وأمرتهن بغزل الكتان ونسج اللفائف اللازمة لتضميد الجرحى. وهن يعملن بإدارتي وتحت رقابتي، وعهدت إلى طائفة من الغلمان وفريق من الشيوخ انتقاء الحشائش والنباتات الطبية من الجبال واصطناع العقاقير والمراهم منها، بناء على أوامر الأطباء وإرشاداتهم. وقد كفّ الطهاة في مطابخ القصر عن تجهيز الأطعمة اللذيذة والماكل الشهية للمادب الرسمية، إذ أمرتهم بتجفيف اللحوم للعساكر كي يتمكنوا من اجتياز الفلس ات بلا كبير عناء، كما أمرت المتولى حفظ الأنبذة بنقلها من دنان

⁽١) تكرر هذه الجمل عادة في رواية حوادث الانتصار

⁽٢) كان اليونان يسمونها (إيلتيا) وتسمى أيضا إلهة الجنوب المضادة لإلهة الشمال (بوتو)، وكان قدماء المصريين يعتقدون أنها تطير في صورة نسر كاسر أمام الجنود المصرية التي يقودها فرعون

⁽٣) إن الرموز التى تُرى بأيدى الفراعنة وبعض الآلهة في النقوش والتماثيل هي المجن والكرباج، وهما إشسارتان رمنزيتان معناهما أن واجبات الملوك تنحصر في المثوبة والعقوبة وفي العفو والقصاص.

الفخار إلى القرب الجلدية ثم يفرغها فى قنانى تسد فوهاتها بفدامات مدهونة بالقطران أو القار، صونا لها من تطرق الفساد إليها أثناء نقلها وتوزيعها على الجند لتروى زناد الحمية والغيرة فى قلوبهم. كنت أتولى هذه الأعمال فوق اشتغالى بمراقبة البنائين فيما أمرت بتشييده من الأبنية أو ترميمه أو توسيعه، وبهذه الطريقة تنقضى الأيام فى صالح الأعمال، فحجبت الآلهة عنى الأحلام المرعبة ومنعتها من التحويم حولى بينما أذوق لذة المنام، بل كنت كلما طرحت نفسى على الفراش فاجأنى النعاس وأظلنى بجناحيه الهادئين فلا أنتبه إلا فى الصباح. ماذلك إلا لانى رضت بعسى عنى أداء ما فرضته عليها من الفرائض ومارست الاقتداء بوالدى الذى كان كلما خُيلت لذهنه وتمثلت لخاطره سرّته رؤيتى وافتخر ببنوتى.. فهل لك يا نيفرت أن تشاركيني فى العمل النافع ليذكرك مينا فيفتخر بك ويعظم قدرك؟!

لزمت نيفرت الصمت وأطرقت رأسها رويداً رويداً حتى لمس نهدى بنت أنات ثم عانقتها وأخذت تذرف من عينيها دموعاً غزيرة كالطفلة الصغيرة، وعالجت بعد ذلك الجلوس في مكانها الأول قائلة بصوت شبه المبتهل: نعم خذى بيدى إلى المدرسة. إلى دار الصناعة، أرشديني إلى العمل النافع لأقوم بالفرض الواجب. قالت الأميرة وقدابتسم ثغرها: لقد كنتُ من قبل عالمة بأنه لا ينقصك إلا الاعتماد على يد صادقة أمينة تأخذ بك إلى الغايات الشريفة والمقاصد العالية، ولا تنحرف عن جادة الصدق. أما الآن، وقد وُفقت لهذه اليد وأرادت بك الآلهة خيراً ، فلسوف تعالجين آلام الانتظار بمرهم الصبر وتعلة النفس. وعليك الآن أن ترجعي إلى والدتك ، فقد أزف الليل وكاد يبذد بظلمائه جيش النهار، وأن تعامليها بما فرضته الآلهة عليك من

الاحترام. وساحضر في الغد لأرجو منها أن تفوض أمرك إلى، فهل رضيت يا حبيبتى أن تقو عن في هذا القصر مقام صديقتى التي اختطفتها المنية من بين يبديّ؟.. لا يمضى يومان حتى أكون أعددت لك هذا المكان لتشاطريني فيه من الأعمال ما سوف تشعرين بلنة إنجازه. وإنى لألتمس من الآلهة أن يباركوا في هذه المشاركة وأن يغدقوا عليها الخير والبركة.

الفصل الثانى والعشرون زيارة للأموات.. وتعظيم للرفات

كان نبسشت فى أثناء المحادثة بين نيفرت وبنت أنات جالساً تجاه بيت المحنط ينتظر عودته بناهب الصبر، وقد تنازعته الهواجس القلقه عليه وسوقه إلى تعرف نتيجة المهمة التي عهدها لليه ولكن هذا القلق لم بليث أن زال تجاه ما كان يعتقده من فائدة تلك المهمة للمجموع ، لما ينبنى على تشريح القلب من بيان حقيقة وظيفته العضوية. وقد ظل هادىء الروع مطمئن الفؤاد فترة من الزمن عاوده من بعدها القلق بما ضاعف هواجسه وروع نفسه وقلقل شخصه.

وكانت وردة طريحة الأرض على مسراى منه، عمرت به فى ذلك الانتظار ساعات طويلة كان يجبل خلالها النظر فى محاسنها الشائقة ويمتع النفس بآيات جمالها النادر ريفكر تارة فى والدها الجندى الذى ذهب إلى بلدة هرمونتيس وطورا فى جدتها التى لم تستطع التخلى بعد عن حرفة الندب والعويل على الموتى. فقد كانت وهو غارق فى تيار هذه الهواجس- ترسل شعرها الشعت حول جسمها وتمكن صدرها وجبهتها بالطين وتبعث فى الفضاء صيحات الشجو والحزن فى انسجام وترادف، مع نحو المائة من العجائز يستثرن بذلك كوامن الأشجان فى النفوس حزنا على الموتى الذين كانت تاتى بهم الزوارق إلى وادى المقابر ليدفنوا فى بطونها أبد

وكانت وردة، والشمس أفلة، لا تزال ملقاة على ظهرها تحت الظلة التي الهيمت لتقيها حرارة الشمس، وكانت تبدو على وجهها الزاهر علامات السام والضحر، وانفكت ضفائرها التي تخللتها قطع القش، فلما دنا منها الطبيب ليجس نبضها

ألوت عنه وجهها فانصرف عنها، ولكنه عندما غابت الشمس خلف الجبل اقترب منها وقال: لقد بدأنا نحس البرد أفتريدين أن أحملك إلى داخل الكوخ؟ أجابته بصوت الحانق: دعنى وشأنى وابتعد عنى، فمازلت أشعر بالحر وقد زال الألم المبرح وصرت أقدر على القيام والدخول وحدي. على أن جدى وجدتي لايلبثان أن يصلا الآن إلى هذا المكان.

ماكاد يرن صدى هذه الكلمات في أذن نبسشت حتى تراجع إلى الخلف وجلس على قفص الدجاج، وقال متلعثما كعادته، إذ أخذته ثورة الغضب: أتحبين أن ابتعد عنك أكثر من هذا؟ أجابت: ابتعد أو لا تبتعد فالشأن شأنك. قال: لا أدى في لهجتك شيئاً من الرقة واللطف. أجابت: لست أطيق شخوصك في ودوام اتجاهك إلى مع شدة قلقى على جدى الذى رأيته صبيحة اليوم على غير عادته، إذ كان يناجى نفسه بكلمات فهمت منها أنه يشكو مر الشكوى من فداحة الثمن الذى تريد أن تتقاضاه لمعالجتى. وقد ردد لسانه أنه سيموت، وسألنى ألا أنساه أبداً وألا أمحو صورته من صحيفة قلبى.. فأين هو الآن يا ترى، وماذا هو صانع؟.. لقد مضى ميعاد حضوره وأنا تائقة إلى رؤيته.

قالت وردة ذلك وأجهشت بالبكاء فانقبض صدر نبسشت ووخره ضميره حينما فكر فيما طلبه من الشيخ مقابل معالجته حفيدته.. وقد كان واقفاً على نصوص القانون وموقناً أنه إذا فوجىء بينم وهو يسرق قلب إنسان أو يستبدله بقلب حيوان فلا مفر له من العقوبة إعداماً بالسم.

وكان الليل قد أرخى سدوله، فكفّت وردة عن البكاء وقالت للطبيب: أظن أن جدى قصد إلى طيبة ف إقتراض المبلغ الجسيم الذي طلبته أجرة علاجك إياي. ولكن

لم يحمل نفسه هذا العناء وهذا الشقاء ولدينا الخاتم الذهبى الذى تفضلت علينا به الأميرة بنت أنات ونصف الغنيمة التي جاء والدى بها من الشام وما ربحته جدتى من المال من مزاولة الندب والعويل في العامين الماضيين؟. ألا يكفى كل هذا لدفع أجرة الطبيب؟..

فاهت وردة بهذه الكلمات بصوت المعنف الأسف الحزين، فلم يحر نبسشت جوابا بل لـزم الصمت. ومن أين كان له أن يجاوب، وهو لو قال (نعم) لخالف الحقيقة التي يحترمها ويصون كرامتها وتعدى حدود واجباته التي تحرم عليه التماس مال في مقابل عمله. ومع هذا فقد اقتضى ما هو أغلى منه وأعلى. عندئذ تجاوب في أذنيه صدى نصيحة الشاعر بنطاؤر، محذراً إياه من الاجتراء على سلب قلب الإنسان لتشريحه، فتضاعفت أشجانه وتراكمت أحزانه واشتد الحرج على صدره وضاقت الدنيا بما وسعت في وجهه.

وقد سمع وهو ف هذه الحالة عواء بنات آوى، تردد صداه الآفاق فعمد إلى قضيب النار (١) فأشعل به قطعة من القار، شم لم تلبث الهواجس أن انتابته فأخذ يسائل نفسه عن وردة ومصيرها لو مات جدها وجدتها ولم يبق من يعنى بأمرها. ولزم الصمت برهة ثم قال مناجيا نفسه بأنه إذا لم يعد الشيخ بينم فسيطلب من المحنطين (٢) قبوله في طائفتهم. فإن أجابوه إلى طلبه وهو مالايرتاب فيه بسبب ما اشتهر عنه من المهارة والحذق في علم الطب اقترن بوردة وكفاها مؤونة الحاجة.

⁽۱) مستقل المساورة المهاروسيات (مسم) مساورة المساب المساب

⁽٢) كانت هذه الطائغة باقية في عهد الامبراطورية الرومانية وتحتوى أوراق البردى المكتوبة بالبونانية بيانات مفيدة عن انظمتها.

وظل هذا الخاطر يساوره حتى استمكن من نفسه وعقد النية عليه، وقال إنه بهذا القران يعيش في عزلة عن الناس لايهمه من شؤون الحياة إلا أن يتحرى رضاءها ويتفرغ للبحث في تركيب القلب، بتشريحه قلوب من يكلف بتحنيط أجسامهم من الموتى. ولم يكن نبسشت طموحاً إلى المعالي ولا منصرفاً إلى التماس الرتب ولاطامعاً في اجتياز الشروة، ولهذا كان يعتقد أن ما سيعترضه من الشدائد والمحن في طريق الحياة سيمهد له نيل بغيته من أبحاثه الطبية التشريحية التي ما فتىء يشتغل بها ويفكر فيها ليل شهار.

وعدا هذا فرنه لم يكن ميالا إلى الوعظ الدينى ولا إلى العمل لإعادة المنشقين والخارجين إلى عظيرة الدين. دع أنه لم يكن من أصحاب الكبرياء الذين لا يبتغون من وراء أعمالهم إلا الظهور بالباطل على أهل أفقهم.. ولهذا كان يرى أن ابتهاج المرء بالحياة ينبغى أن يقوم على أمرين: مزاولته أعماله الشخصية، وقيامه على شؤون السرته. ولقد قضى ثلاثة أيام ف جوار وردة نسى فيها فروض الدين وواجبات الكهان، فلم يغير ثيابه ولم يسوّ شعر رأسه ولحيته، ولم يتوضأ بالماء. وكثيراً ما أحس كأنه أصبح من شذاذ الآفاق والمتوحشين أو من المحنطين الذين يضع الجمهور من أقدارهم ويرون أنهم من أفناء الناس وأحطهم قدراً في المجتمع الإنساني، فكانت ترتاح نفسه لهذا الانحطاط وهذه الضعة مادام أنهما هما الوسيلة إلى وردة، تلك الحسناء التي ظلت طريحة الأرض أياماً شعثاء الشعر تبث الشكوى من الألم الذي ذبها. ولقد سألته هذه الفتاة فجأة: ألا تسمع صوتاً يا طبيب؟ فأعار نبسشت بأذنه إلى مصدر الصوت فإذا به هرير كلاب ووقع أقدام على الصخر الصلاد. وما كاد الظن في نفسه يتحول إلى يقين حتى ظهر له الشيخ بينم وامرأته وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في وسمعهما يودعان الساحرة نيخت التي كانت التقت بهما في طيبة فرافقتهما في

العودة منها. فتنفس الطبيب تنفس من زالت عن صدره العلة وصاحت وردة: لقد غبتما زمنا طويلا حتى أزعجنى الخوف. قالت العجوز: كيف ولست وحدك؟ ثم دخلت الوجار لتهيئة الطعام بينما بينم يجثو على ركبتيه بالقرب من وردة لملاطفتها ومداعبتها. ولما نهض واقفاً سلم نبسشت كيساً من القماش الخشن كان يحمله على كتفه وقال: القلب الذي طلبته ستجده في هذا الكيس فخذه ثم رد الكيس إلى لأنه يحتوى جميع أدوات الجراحة وآلاتها مما أستعين به على صناعتى وأقضى بها حاجتى.

فدس نبسشت يده في الكيس وأخرج منه القلب فوضعه في علبة العقاقير الطبية. وقد كاد يطير فرحا بفوره فدنا من الشيخ وقال: خذ هذه الورقة المكتوبة وعلقها في عنقك، فإذا فاجأتك المنون آجلا أو عاجلا فسأضع كتاب «خروج الايام» في لفافات الكفن الذي سيدرج فيه جسمك فتغدو ولا فرق بينك وبين الأمراء والملوك. وقد لا أقتصر على هذا الاحتياط للآجل فأرسل إليك عاجلا كل ما ورثته عن والدى من المال الذي ما برح أخي الخبير بالمعاملات الدنيوية يدفع لي أرباحه منذ عشر سنوات.

فتسلم بينم منه الورقة فلما أتم الطبيب كلامه— وكان يسمعه في روية وسكون—قال له: أما أموالك فخلها لنفسك، ومتى شفيت وردة لا يدين أحدنا الآخر بشىء. قال الطبيب: هى الآن على وشك الشفاء، ولكن لم ترفض هديتى؟ أجاب: إنى إلى هذا اليوم من حياتي الطويلة لم أبذل ماء وجهى في اقتراض مال أو التماس صدقة، أفتريدني الآن- وقد قوس ظهرى الهرم—على فعل مالم أفعل في الشباب. حياة بحياة. ذاك كان شرطنا الذي عليه اشترطا، واعلم أن خزائن رعمسيس لن تعدل جزءاً مما وافيتك، به اليوم.

فاطرق نبسشت رأسه عجزاً عن الإجابة عن هذا القول، وبرزت العجوز من الوجار فوضعت على الأرض طبقاً من العدس وشيئاً من الفجل والبصل (۱) ثم دخلت بوردة فيه. وعادت العجوز بعدئذ فرجت من الطبيب أن يتناول ذلك الطعام. فأجابها إلى رجائها لأنه لم يكن ذاق منذ أمس الدابر ما يحفظ به الرمق ويمسك النفس. أما العجوز فدخلت عندئذ الوجار، فقال نبسشت لبينم: وقلب من هذا الذى جئتنى به؟ ثم كيف انتزعته من بين جنبى صاحبه؟ أجاب بينم: خبرنى قبل كل شيء، لم أكرهتنى على ارتكاب هذه الجناية؟ قال نبسشت: سببه أنى أحب البحث في قلب الإنسان للوقوف على سر تركيبه لأننى متى وقفت على هذا السر استطعت معالجة القلوب العليلة. فوجم بينم لما انتابه من الهواجس ثم سأل: أوما تقول محيح؟ أجاب الطبيب: نعم إنه لكذلك. قال بينم: لقد ارتاح الآن ضميرى واطمأن عليم، ومما يزيدنى اطمئنانا أنى أراك تعالج الفقراء. قال نبسشت: أبذل في علاجهم فحدت هذا الثلث أن تخبرنى الآن أين

التقط بينم قطعة من الحجر الصلد وأخذ ينحتها بحذق ليتخذ منها مدية ماضية الحد، ثم شرع يحدث الطبيب بما يأتى: وجدت في بيت المحنطين ثلاث جثث نيط بى عمل القطوع الثمانية المقررة فيها بالمدى الحجرية. ومفهوم أن الموتى إذا جُردوا من ملابسهم وطُرحوا أمامى على المائدة الخشبية ولم يبق بهم حراك ولا أثر للحرارة يدل على كمون الحياة فيهم فقد تعذر على التغريق بين الأمير منهم والحقير، ذلك لأن

⁽١) هكذا كانت أطعمة المصريين في الغالب، يثبت ذلك النقوش التي تمثل الفجل والبصل والثوم على الآثار القديمة. وقد أكد هيرودت (في الجزء الثاني من كتابه) أن ثمن ما استنفده العمال الذين بنوا أهرام كيوبس في الجيزة من هذه النباتات يبلغ بنقود عصرنا ٣٦٠ الف جنيه مصرى.

جثة الشحاذ كجثة الكاهن الأعظم يعتريها الهمود والخمود فلا تبدو منها حركة. ولكنى كنت مع هذا عارفا بحقيقة الأجسام الثلاثة المطروحة أمامى، فالجسم الضخم الأوسط كان لرونى) نبى هيكل حاتاسو لانى قبل مماته شهدته أكثر من مائة مرة وهو في محفته المدجلة بالذهب. أما الجسمان اللذان إلى جانبيه فكان أحدهما لرجل مسكين من ناحتى الأحجار في المقالع، والثاني لامراة من حي الأجانب توفيت بالسل الرئوى.

فلما أتممت القطوع الثمانية في الجثث الثيلاث، بدأ الناس كالعاءة يرمونني بالأحجار. فلما نتهوا من فعلهم استأنفت العمل مع زملائي في تحضير باطن الجثة فوضعنا أحشاء النبي روني في إناء مرمر ناصع البياض، والقينا أحشاء الرجل والمرأة في بطنيهما. عندئذ أنشأت أسائل نفسي: قلب مَن من الثلاثة أسرق، وبأيهم الحق هذه الخسارة الكبيرة؟ فاتجه خاطري طبعاً في باديء الأمر إلى الرجل والمرأة الفقيرين، لأن الفقراء كبش الفداء في كل زمان ومكان، وسرعان مادنوت من جثة المرأة التي قضت حياتها في الموبقات. ألا أنني سمعت هاتفا – بل شيطانا – يصوت بي: «لقد كانت هذه المرأة منكودة في حلها وترحالها على ظهر سب، (١) فلا تسلب قلبها فتسلبها معه نعمة السعادة والهناءة في العالم الباقي». وما استقر نداء هذا الهاتف في قرارة سمعي حتى تراجعت عن جثة المرأة وانصرفت إلى جثة الحجّار، فأول مأ وقع بدري كان على يديه النحيفتين اللتين جعلهما إدمان العمل أقسى من يديّ. وما كدت أصل إليها حتى سمعت ذلك الشيطان يودع أذني مثل ذلك الكلام،

⁽١) سب إله الدهر والزمن، وكان قدماء المصريين يعتقدون في دوام المادة وتجددها بدون انقطاع، ولذلك كانوا يرمزون بإله الدهر (سب) للدلالة على الأرض أيضا.

فتقهقرت إلى الخلف فإذا أنا تجاه جثة النبى رونى، وكان قد مات بالسكتة لتدفق الدم في رئتيه. وخيل لى أنئذ أننى أراه ماراً أمامى في محفته الذهبية أو متفرغاً لاستقبال المدعوين إلى مآدبه الشائقة، وتذكرت ما تمتع به من نعيم الحياة الدنيا. وحينما رأيتنى وحيداً بعيداً عن أعين الرقباء فما أسرع ما أخذت قلب الخروف الذى في مخلاتى وجعلته في مكان قلبه.. وقد أكون بهذا العمل أثقلت كاهلى بالذنوب، ولكنى موقن أن له فيما سيعلق بجسمه من ألوف الأحجبة والتمائم وما سيوضع في مكان القلب من الجعلان والكتابات المقدسة التى ترشده إلى الجهات الخفية خير معاض له عن قلبه. وبعد فما نسيت قسمك الذي أقسمت، فهل أنت له ذاكر؟

فمد نبسشت يده إلى الشيخ قائلا: نعم خذ هذا الدواء وأعطه وردة على أربع دفعات، فإنها تشفى سريعاً. ولسوف أعودها وأتفقد حالتها. أما أنت فانصرف الآن لتلتمس الراحة بينما أقضى خارج الكوخ ردحاً من الرنمن ثم أزايله قبل اختفاء كوكب ايزيس (۱) لأن القوم في بيت سيتى ينتظرون عودتى.

لما خرج الشيخ في اليوم التالى من كوخه لم يجد الطبيب بل رأى في موضع النار خرقة ملوثة بالدم، ففهم على الفور أن نبسشت لم يطق الصبر فانكب على تشريح قلب الكاهن رونى والبحث فيه، فارتباع فؤاده وارتعدت فرائصه وبكّته ضميره لانتزاعه هذا القلب من جوف صاحبه. ولبثت تنتابه الهموم حتى أشرقت الشمس في زورقها الذهبي، فجثا على ركبتيه وأخذ يصلي ويبتهل إليها أن تقى وردة وإياه شرور العالم، ثم هم واقفاً رابط الجأش بالإيمان مطمئن القلب بما وعده إياه الطبيب. وبعد أن استأذن من زوجته ووردة بالانصراف تناول مديته الحجرية

⁽١) هو كوكب سوتيس أو الشعرى اليمانية.

ومشبكه النحاسي (١) وانصرف قاصداً إلى دار التحنيط.

وكان هذا المكان سحيق البعد عن كوخ المحنط، إذ كان بسفح الجبل على مقربة من الصحراء جنوبى بيت سيتى. وكان قائما على منبسط قسيح من الأرض تحيط به أسوار عالية بأحدها باب يواجه النيل، وكان خاصاً بدخول الجثث. أما المنوط بهم التحنيط والتمليح ونسج اللفائف وتحضير الماء فكان لهم باب آخر يدخلون منه ويخرجون وبداخل الأسوار بيت خشبى أعد للكهان يقضون فيه النهار لتلقى طلبات أهل الموتى والطاعنين في السن الذين يرغبون قبل أن يدركهم الموت في إعداد التوابيت التى ستودع أجسامهم.

وقة الوصل بينم إلى هذا المكان كان نحو خمسين رجلا وامرأة مزدحمين به، يقدمون إلى الكهنة تلك الطلبات أو يشترون ما يختارونه فيه من المصنوعات، فقد كان بمه عدد كبير من التوابيت المختلفة الأشكال والألوان المتفاوتة الدرجات من الساذج الرخيص الثمن الخالى من كل أثر للنقش إلى المنقوش بالألوان الزاهية البديعة، وغير هذا وذاك الشيء الكثير من اللفائف الدقيقة الناعمة أو الغليظة الخشنة مصفوفة على الرفارف لتتبينها الأنظار ويفرها المشترون أدق فرار. وكانت اللفائف تُنسج في طيبة مبصومة بطوابع الهات النساجين الشلاث وهن (نيث) و (ايزيس) و (نفتيس).

وعدا هذا كليه فقد كان معروضاً للبيع الشيء الكثير من التماثم والأحجبة وأدوات الزينة للموتى كالعقود والجعلان والمناطق والمسائد والمثلثات والحلقات والحلقات والمدالثرخ هيردوت أن قدماء المصريين كانوا يستخرجون نخاع الموتى من أنوفهم بمشبك نحاسى، ولاحظ العالم زرماك بالبحث في الموميارات المحفوظة بمتحف براغ أن غضروف الأنف منتزع منها وهو ما يؤيد قول هيرودت.

المكسورة والمدرجات الخشبية والمعدنية والصور الرمزية التى تناط بالمومياوات أو تدرج في اللفائف المقدسة . وكان الناس يشترون غير ذلك قطعاً من الفضار مخروطية الشكل يصفّونها حول الموتى لتكون حداً وأرفة بين كل مدفن أو قبر ومجاوره من المدافن والقبور الأخرى، كيلا يقوم نزاع بين الأسر في ملكية الأراضى التى أقيمت عليها هذه المدافن والقبور، وكانوا يشترون منه التماثيل الصغيرة الضرورية في تطهير ثرى المقابر وإبعاد أرواح الشياطين عنها، وكانت هذه التماثيل في صور أناسى تحمل أكتافها فؤوسا ومحاريث وأكياساً للبذور رمزاً إلى مساعدتها الموتى على القيام بأعباء الأعمال في الأخرى!

* * *

وكانت أرماة النبى رونى وقيم بيتها وأحد كسار الكهنة منصر فين إلى اختيار أجود التوابيت وأفخمها لجثة فقيدهم، يساومون صاحبه على الثمن. وقد اشتروا مقداراً كبيراً من التمائم والأحجبة المصنوعة من الأحجار النادرة كاليشب واللازورد. ونقشوا اسم الفقيد على قطع من شمع العسل وإلى جانبه أسماء زوجته وأولاده وذوى قرابته، وذكروا رتبه والوظائف التى تولاها ونقشوا مالم يكن بد من نقشه في خشب التابوت وأوراق البردى.

أما النقوش التى كان يراد رسمها وحفرها في جدران القبر وقاعدة التمثال فقد أجل النظر فيها إلى يوم آخر لكثرتها وصعوبتها، ثم نيط بأحد كهنة بيت سيتى حصر ما تركة الفقيد من الثروة وفرز ما يخص الهياكل منها قبل توزيعها على مستحة يها. وكانت العادة أن تبلغ هذه الحصة مع النفقات – ما أنفق من المال على إنشاء القبر ونقشه الشطر الأوفى من التركة (١).

⁽١) ذكر المؤرخ ديودورس أن عملية التحنيط من الدرجة الأولى كانت تكلف ما يوازى من عملة العصر الحاضر ٢١٣ جنيها ومن الدرجة الثانية ٦٥ جنيها.

وكانت أرملة رونى بثياب الحداد معفرة الجبين بالتراب، وكانت في وجودها مع أتباعها بذاك المكان تساوم الكهان تارة على الأثمان وتقول لهم مستنكرة هازئة: إنها أثمان غالية، وتبكى تارة أخرى ثم تصرخ صرخة عالية تردد صداها الأودية. وكان الأهلون من الطبقة الوسطى لايساومون في الأثمان، بل يدفعونها في الحال كتقدير الكهان. وكانت نفقات دفن رب الأسرة منهم تستغرق إيرادها أحياناً مدة عام، أما الفقراء نمكان لايكلف تكفين موتاهم إلا النذر اليسير من المال.

وكان العامة يرون في المكفنين أنهم لم يكونوا أحطّ قدراً من المحنطين بل أعلا منهم درجات، ولهذا كانوا يسيرون مرحا في الطرقات لايخافون اضطهاد أحد بعكس المحنطين فقد كانوا إذا اجترأوا على السير فيها جعلوا أنفسهم هدفا للإساءة غالباً وللهلاك أحيانا.

وكان المكان المعد لبينم وزمالائه يؤدى إلى الغرف الخاصة بتمليح الجثث وتحنيطها ومخازن الأدوية والعقاقير. وكان إلى جانب هذه المخازن فناء فسيح تظله سقيفة من سعف النخل حجباً للأشعة الشمسية من النفاذ إليه، ويتوسطه حوض ممتلىء بمحلول النطرون فكانت توضع فيه الجثث زمناً ثم تُستخرج منه لتجفيفها في مكان تحت الأرض بتيار من الهواء الحار يسلط عليها بوسائل الصناعة.

وكان بجوار المكان الذى تباع به حاجات الموتى أسطر من بيوت خشبية صغيرة هى بيوت النساجين والنجارين والنقاشين. ويليها على مسافة منها بناء ضخم فسيح جيد التنجيد بحجر النحت، يعلوه سقف محكم هو المكان المعد لتزيين المومياوات بالتدائم والأحجبة لمساعدة الموتى على النقلة الربانية في العالم الثاني. وكان لا يجوز لأحد أن يستطلع ما يحدث به، إذ لم يكن مأذوناً لغير الكهان أن يدخله

⁽١) ذكر المؤرخ ديسودورس أن عملية التحفيظ من الدرجة الأولى كانت تكلف من ما يوازي من عملة العصر الحاضر ٢١٢ جنيها، ومن الدرجة الثانية ٢٠ جنيها،

فاستقر في أذهان العامة من جراء ذلك وشاع بينهم أن هذا المكان معبد للآلهة يهبطونه كي يمهدوا للموتي طريق الوصول إلى الآخرة ويرشدوهم إلى أصول الحياة المستأنفة فيها. وكان الناس في كل ساعة من الليل والنهار يسمعون من نوافذه وكواته المطلة على الطريق العام أصوات الكهان يترنمون بالأناشيد الدينية والصلوات الجنائزية، وقد تنكروا بما يسترون به وجوههم من وجوه صناعية تمثل آلهة السماء السفلي(١) ولاسيما أنوبيس ذي الرأس الشبيه برأس ابن آوي. وكان يه اونهم على أداء الصلوات وبث الدعوات غلمان تنكروا بوجه حورس. وكان عند رأس كل مومياء نائحة تنكرت بصورة نفتيس وأخرى لدى قدميها بصورة ايزيس. وكانو: يقربون إلى كل إله عضوا مبيناً من أعضاء الفقيد. وكان في التمائم من الأمثال والعظات ما يراد به الحض على التقوى والورع. وكان كل عضو في كفن من الأمثال والعظات ما يراد به الحض على التقوى والورع. وكان كل عضو في كفن على راحة الميت والتماساً لسلامته في أخراه. وكان هذا المنظر العجيب بما يضاف على راحة الميت والتماساً لسلامته في أخراه. وكان هذا المنظر العجيب بما يضاف العطرية واشتداد الحرارة بالمكان عيثر في النظارة تأثيراً يصرفهم عن الحياة العطرية واشتداد الحرارة بالمكان عيثر في النظارة تأثيراً يصرفهم عن الحياة الدنيا بزينتها إلى الحياة الأخرى بمثوبتها وعقوبتها.

وكان هذا القسم من مدينة الأموات تسطع فيه دوما رائحة زيت الورد والمسك والنتر، فإذا هبت ريح الجنوب الغربى حملتها إلى مدينة طيبة على الضفة اليمنى من النيل، فإذا شموا الناس تحرجت صدورهم وتشاءموا، اعتقاداً منهم أن رياح الصحراء تجف على أثرها كل خضراء وغضراء، وتضعضعت بسببها قوى الإنسان، فضلا عن أنها تدرج قوافل برمتها فيما تسفيه من الرمال.

* * *

⁽١) تدل على ذلك نقوش وكتابات عديدة ولاسيما ورقة البردى الثالثة المحفوظة بمتحف الجيزة، وكان للمصريين حذق خاص في صناعة الوجوه من الورق المطبوخ. وتسرى هذه الوجوه على كثير من المومياوت ممثلة وجه الميت كما كان في حياته.

وكان بعض أهالى طيبة ممن جاءوا إلى سوق الأكفان والتوابيت يترقبون أهالى الموتى لتعزيتهم وتسرية الهموم عن أفئدتهم. وإنهم لكذلك إذا بمفتش قرابين هيكل آمون، وقد احتواه الخوف واستمكن من قلبه إلى حدّ لم يحفل معه بما كان يقوم له الناس به من مظاهر الاحترام ولم يسلم على أرملة النبي روني التي كان يعرفها بالذات، بل كان كل همه أن يتوسط جموع الناس لينبئهم بحادث خطير وقع في طيبة بالكان المقدس أي هيكل آمون ملك الآلهة. فما كاد يستقر هذا النبأ في اذانهم و تعبه صدورهم حتى اشرأبت إليه أعناقهم وحومت عليه أنظارهم تطلعا لمعرفة الواقع بحذافيره، فنبأهم أن جناب الوالي قد ابتهج بظفر الجنود المصرية في سلاد الحيشة فوزع على حامية طيبة وحراس الهيكل مقداراً وافيا من الخمر فأدمن هؤلاء الشراب وأهملوا حراسة الباب فانسابت منه الذئاب(١) إلى حظرة الأكباش المقدسة(٢) فافترست بعضها وتركت البعض الآخر. إلا أن الجنب تنبهوا ف آخر الأمر للحادث، فلما ذهبوا بجملتهم لدفع السبوء عنها رأوا أن الذئاب فتكت بالحمل البذي أهداه رعمسيس لآمون قبل تحرك ركابه لقتال الأعداء. وكان أرسله إلى بلدة منديس(٣) فوا أسفاه على هذا الحيوان الميارك الشريف الذي اختص آمون نفسه به فاستودعه روحه الحياة الدنيا. (٤) ولقد انتشر خبر الفاجعة بأرجاء طبية بأسرع من البرق الخاطف ووقف عليه الخاص والعام. وبينما كان الناس طرًا ف الحيرة متخبطين إذا برسول من مدينة منفيس يوافينا بنبأ ضاعف الأحزان، ألا وهو موت العجل أبيس.

⁽١) كانت الذئاب بمصر كثير عددها ، وقد أقام المصريون لها هيكلا في ليكوبوليس «أسيوط الآن». وكانوا يدفنونها بمظاهر الاحترام والتبجيل إذا ماتت. وفي هيرودت حكايات غربية في ذلك.

⁽٢) كان المصريون يقربون الأكباش والثيران للإله آمون

 ⁽٣) وجدت آثار هذه المدينة ف الدلتا بجوار بلدة المنصورة، وفسر العالم الأثرى بروكش أغلب ما شهده فيها من النقوش وهي تتضمن معتقدات القوم وقتئذ في الكبش.

⁽٤) كان الكبش يسمى باللغة المصرية القديمة (با) وهو نفس الاسم الذي يطلق على الروح، وكان المحريون يعتقدون ان با أو الكيش هو الغلاف الحافظ لروح الإله رع في الأرض.

ما كاد المفتش ينتهى من إعلان هذه الفواجع على ملا السامعين حتى صاحبوا صيحات الجزع واليأس واندفعوا ينعرون ويشقهون حتى التقت أضلاعهم فهرع الناس من كل فج وتواردوا من كل صوب إلى مكان الزحام، إذ ترك المحنطون والنساجون والنجارون والنقاشون والسقاءون أعمالهم لاستجلاء حقيقة الخبر وتبين أسباب الضير والضرر، فما كادوا يقفون عليها حتى اندفعوا مع الآخرين في العويل والأنين راخذوا يخمشون الوجوه وينزعون الشعور ويحثون التراب على الرؤوس، وظلوا كذلك مدة ساد بعقبها السكون فانصرف العمال لمزاولة الأعمال، إلا أنهم ما فتئوا أن سمعوا صدى أصوات بعيدة اتضح أنها منبعثة من طيبة فأيقنوا حلول المصائب ونزول الكوارث والنوائب.

وكان مفتش القرابين أشار فيما قال إلى أنه ينتظر أخباراً غير سارة عن الملك والجيش. ذلك لأنه لم يكن بد أن يشمل الحزن رعمسيس لموت الكبش الذى سمًى باسمه وأن يشجيه هذا الحادث أكثر من نعى العجل أبيس، وحسبه أن يكون موت الكبش دليلا على شوم طالعه ونكد حظه. قالت أرملة رونى: إن زوجى المرحوم أوزريس رونى قد توقع هذه الحوادث من قبل. ولو أن في وسعى الكلام لانباتكم بنبأ يهد أركانكم ويثير أحزانكم. فتبسم مفتش القرابين لعلمه بولاء نبى هيكل حاتاسو للأسرة الملكية السابقة وقال: لربما تغشى سحب المحن والكوارث شمس الملك رعمسيس فتحب ضياءها الساطع، ولكن أحداً من أعدائه لن يكون على قيد الحياة عند أفول هذه الشمس المتألقة الضياء.

ثم ودع الأرملة بفتور وذهب قاصداً إلى بيت الحائك لقضاء حاجته، واستوت هي في محفتها التي كان يحملها الخدم بالباب ومضت لوجهها. وكان بينم في هذه

الأثناء يشاطر زملاءه الحزن والبكاء جبزعاً على موت الحيوانين المقدسين، وظل ف نحيب وعويل حتى اثرت الدموع على خديبه وبح صوته. وكان الوقت ظهراً فأحس الجوع يحفر أحشاءه فجلس القرفصاء في غرفة التشريح الحالكة الظلام، لان الشمس لا تنفذ أشعتها اللجينية إليها إلا من ثقب ضيق بالسقف، فتبدو للساظر كتيار ضوء تتلاطم فيه ربوات الجراثيم وذرات الهباء، وترسم على البلاط الرطب دائرة متساوية الاقطار يخالها الرائى صحفة من اللجين. وكانت توابيت المومياوات مرصوصة بعضها إلى جانب بعض بطول الجدار، وجثث الموتى مطروحة على موائد كبيرة مغطاة بقماش خشن. وكان الناظر يرى من آن إلى آخر فأراً يخرج من ثقب بأسفل الجدار فيمر في الغرفة مرور الطيف، وعقارب تدب ببطء على مربعات البلاط لا تعلم أين وجهتها وفيمن تنفث سمها الزعاف.

لم يهلع قلب بينم لمنظر هذه الغرفة ولم يخف خوف الداخل فيها لأول مرة، لأن اعتياده التردد عليها بضع سنوات قد محا من فؤاده سورة الخوف. ولهذا تأهب مطمئناً لتناول الطعام فغطى ركبتيه بخرقة بالية وضع عليها ما هيأته زوجته له من الغذاء، وهو كسرة خبز وشيء من الملح ونبتة فحل ثم أبرز من كيسه قطعة لحم ملفوفة بورقة كرنب وهي جزء من فخذ غزال جاءت به نيخت الساحرة من طيبة هدية لوردة، فاحتفظت النساء للشيخ منها بتنك القطعة ووضعنها في مخلاته على غير علم منه. فلما وجدها أبي أن يرفعها إلى فمه اعتقاداً منه أنها من حق وردة حفيدته وأنه لابد من حفظها لها. ولقد جعلها أمامه واقتصر على أكل الحبز والفجل غير أنه كان من حين إلى أخر يبرسل إليها نظرة إعجاب كما لو كانت من نفائس الإعلاق أو نوادر التحف التي تثير في الخاطر ذكرى أمر خشير. واتفق أن دنت منها نبابة ففاجأها بضربة أودت بحياتها، وانتهي الأمر به بعد تردد طويل إلى

تذوقها. وكانت عيناه تجودان بالدموع كلما تذكر صنيعة وردة إذا جلس إلى الطعام من تنسيقها الأزهار والرياحين ووضعها إياها أمامه لتشرح صدره بمراها.

وإذ ذاك صانت منه التفاتة إلى المائدة المعدة لجثث الموتى فارتعدت فرائصه وسقط في يده، إذ خُيل له أنه يبرى بدلا من جثة رونى الملقى عليها جسم وردة فناجى نفسه بقوله: إن الطبيب الذى تولى علاجها وأنقدها من مخالب الموت لم يكلف نفسه هذا العناء طمعاً بالجزاء، وأنه لو كان طلب منه قلبه لا قلب غيره تلقاء عنايته بها لما تردد هنيهة في انتزاعه من بين جنبيه ليعطيه إياه. حدّثه وسواسه بذلك ولزم السكون فترة من الزمن استخرج من طيات ثوبه بعدها تعهد الطبيب نبسشت وبسط به يده مستشهداً السماء على برءاته وطهارة ذمته. ثم طفق يصلى ويبتهل إلى الألهة أن يغفروا له ما فرط من الدنوب ويتقبلوا رونى أمام مجلس العدل الإلهى في الأخرة، وإن يكن قلبه انتزع من بين جنبيه.

وهنا سُمعت فجأة جلبة تصم الآذان وطرقت مسامع بينم أصوات تلهج باسمه. ففيما هو يتحفز لاستطلاع الخبر إذا بأحد الشرطة قد بدا له وأمره باقتفاء أثره. وكان بفناء غرفة المحنطين الممتلئة الجو بعبير الروائح الزكية ثلة رجال يتدافعون بالمناكب حول شيء وُضع ف إناء من حجر النهاء، فما وقع نظر بينم عليه حتى ارتعدت فرائصه إذ أيقن أنه قلب الكبش الذي بدّله بقلب الكاهن روني. وقد سأله رئيس الشرطة أهو الذي شرّح جثة هذا النبي واستخرج منها القلب، فأجاب متلعثما بالإيجاب. سأله: هل القلب الذي بالإناء قلبه، فأجاب كالأول. وعلى أشر هذا الاستجواب القصير تفاوض رجال الشرطة مليا بينهم، ثم خرج أحدهم لاستدعاء رئيس المشرحين ومفتش القرابين في هيكل أمون. وما أقبل به حتى سأل: وأبن هو

القلب؟ فلابد لى من معرفت ولى في الظلام الحالك.. إنى أفحص في اليوم المواحد المثات من قلوب الحيوانات فائتونى به سريعاً!.. أقسم بالهة السماء أنه قلب حيوان لا قلب إنسان. فأوما أحد الشرطة الحاضرين إلى بينم وقال معترضاً: إن هذا الرجل شق الجثة أمامنا بالأمس واستخرج القلب منها. قال كاهن آمون: إن هذا لعجب عجاب! وهل في لفرق بين قلبى الإنسان والحيوان شبهة أو ارتياب؟ أذبحتم هنا كبشا؟. قال رئيس المشرحين: كلا ، فإنا منذ عشرة أيام ممسكون عن أكل اللحوم احتفالا بأعياد الوادى، فمن أين لنا أن ننحر بهذا المكان كبشا أو أى حيوان؟. ثم إن مذابح الحيوانات بعيدة عن هنا لوقوعها بعد حى النساجين، فلا سبيل قطعا لوصول قلب المعيوان إلينا. قال الكاهن: في الأمر ما يستوجب العجب.. ولكن لابد من الاحتفاظ بالقلب حتى يُعَرض على الكاهن الأول بهيكل آمون ليحقق أمره، فربما كنان إحدى المعجزات في عصرنا هذا الذي امتاز بخوارق العادات. قال رئيس المشرحين: الأولى عندى عرض هذا القلب على الكاهن الأكبر في بيت سيتى. قال كاهن المون: ها نحن أ, لاء طوع أمرك ورهن إشارتك فلنذهب!..

قصد مفتش القدرابين ورئيس المشرحين إلى الوادى محمولين على الأعناق، كلاهما في محفته الخاصة به ومن حوله أعوانه وغاشيته. وتلاهما على مقربة منهما أحد الشرطة في هو دج يحمله حماران ومعه صندوق عاج وضع فيه قلب الكبش المستخرج من جثة رونى. وكان بينم يتبعهم بنظره وهم يتوارون عنه خلف أشجار الأثل، ولا يصدت في ذلك عينيه. وكان هذا الرجل من المطبوعين على التقوى والورع، فلما أيقن ما في فعله من الشناعة وبخه الضمير وأظلمت الدنيا في عينيه وأحاطت به الشكوك واحتوى فؤاده الهلع الشديد من سوء العاقبة، إذ كان أقبل ما فيها شيوع الأباطيل واليد عبن الناس. وقد انتابته الهواجس بما أدى به إلى الاعتقاد بخطيئته

وإنه أهل للعقوبة عليها. وبرز له شبح الحقيقة - التي كان من أحرص الناس على مبادئها السامية البريئة - في هيئة المعرضة عنه احتقارا، الناحية عليه بأشد اللوم، فلم يأخذه بعدئذ شك في أن قاضى الموت سيحرمه الاندماج في هيئة مجلس الحقيقة والصدق، والانتظام في سلك العدول والمنصفين، وأنه أصبح على الجملة من المغضوب عليهم الضالين عن صراط الحق ومحجة السداد، وأن هذه العاقبة السوأى ستكون خاتمه حياة قضاها في الطاعة للآلهة والتوكل عليهم في أموره والمثابرة على إقامة الصلوات اعترافا بفضلهم. فظل يسكب العبرات حتى شعر بطنين في أذنيه وسحابة تغشى عينيه وأحس الأرض تميد من تحته كما لو زُلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها أو نسفت حتى أخطأتها قدماه. ولما استأنف العمل كان لايزال مضطرب الفؤاد لأنه عالج انتزاع مشط القدم في إحدى الجثث(١) فارتجفت يداه وارتعدت فرائصه وكاد يقع منها مبضع التشريح.

⁽١) بحث العالم كزمرك في جثتين محنطتين من جثث قدماء المصريين ومحقوظتين بمدينة براغ، فوجد مشط قدم إحداهما موضوعا بتجويف الصدر. وجاء بالفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الأموات شرح معنى هذه العادة وهو أن الغرض من نزع مشطى القدمين أن لا يدنس الإنسان بهما قناعة المحاكمة إذا استقدم بعد الوفناة للمشول بين يدى الإله أوزريس

الفصل الثالث والعشرون كيف استغلّ الكهّان قلب الضان

أصبحت مدينة طيبة وأهلها في ذهاب وإياب وحركة واضطراب لما فاجأهم من أخبار السوء، وسرت عدوى هذا الانزعاج إلى بيت سيتي الذي توالت عليه الحوادث وهاجمته الكوارث كما تهاجم الذئاب قطيع غنم لا رعاة له ولا أرباب. ذلك لأن أمينى - رئيس كنهنة هذا البيت - كان منذ شلاثة أيام في طيبة، وكان تلاميذه ومرؤوسوه ينتظرون أوبته بذاهب الصبر. وكان رئيس المنجمين تواقا إلى فضح ما وقع بين بنطاؤر وبنت أنات ومعاقبة المتمرديين من الطلبة الذين نزعوا إلى الفتنة فبادر بحبس هؤلاء ف صحن الهيكل لضيق مكان السجن عن احتوائهم حميعاً بعد إذ قضوا ليلتين بمستودم الغلال نائمين على حصر رقيقة. وقد هالهم وأقلق بالهم ما اتخذ قبلهم من التدابير الشديدة ووسائل القمع القاسية وحسبوا لمغبة عنادهم و تمردهم على أساتنذتهم ألف حسباب، وظهيرت على كل منهم عبلاميات الأسي والأسف بما يتفق مع مزاجه ويلائم فطرته، إلا راميرى- شقيق بنت أنات وزعيم تلك الاضطرابات- فإنه مع مشاركته زمالاءه في ندمهم ومقاسمته إياهم العقوبة التي وقعت عليهم ظل ثابت الجنان رابط الجأش لم ترعه العقوبة على قسوتها كما راعتهم، بل نشط لتحريضهم على العصبيان والتمرد، بينما كان الطالب أنانا الفائز بحظوة الالتفات من بنطاؤر معتمداً راسه في إحدى زوايا المكان، مفكراً يشحذ رأيه بالتأمل في المصائر وتقدير العبواقب ويلتمس لنفسه مخرجاً من هنذا المازق، ولقد شهده راميري وهس مختل بنفسه فقصد إليه ف خلوته وبغته بضربة خفيفة على الكتف وقال له: لقد ركبنا متن الشطط ووقعنا في هوة الغلط، وكان هذا أمراً مقدوراً ما هجس لنا في ضمير ولاتحرك به خاطر، وما كان مقدوراً فهو لا محالة واقع. فلم تجعل للخوف مسرباً إلى فؤادك؟ .. إنى أراك وقد احترقت ماقيك من شدة البكاء فما داعية ذلك؟... كن يا صاح ماضى العزيمة جلداً في المحن، واعلم أنك الآن قد ناهزت السابعة عشرة من حياتك النشيطة وأنك بعد بضعة أشهر وأيام ستصبح من الكاتبين الكرام.

صعد أنانا بصره في راميري، وبعد أن كفكف الدمع قال: ألم أكن أنا الدى دبر هذه المؤامرة والذى ستقع تبعتها على عاتقه فيبادر أميني بطردى من الهيكل قبل أن أتم الدراسة وأنقلب إلى والدتى المسكينة الحزينة التى تبتغى أن أكون لها سندا وعمادا فيما بقى من حياتها، ضائع المستقبل مسربلا بسربال الدل والخجل؟ قال راميري مترفقاً ومواسياً: حقا أيها الرفيق الصديق لقد حبط تدبيرنا وساء مصيرنا وذهبت جهودنا هباء أو كطعنة في ماء، ومع هذا فلم نفد بنطاؤر وتلك عاقبة الغرور. قال أنانا: ليت الأمر وقف عند انعدام الفائدة بل إنه تعداه إلى الضرر ومعظم النار من مستصغر الشرر، وإن من دقيق الأمور ما يهيج به العظيم. فأمسك راميري هنيهة ثم قال: ألا تدرى يا أنانا أنه لا ضلع لك في المؤامرة وأن المدبر لها والمسؤول عنها هو ولا مفر لى من مبادهة الكاهن الأعظم بهذه الحقيقة. وهو كما أعتقد سيجر ذيل الإغضاء على هفوات ابن رعمسيس أكثر منه عليها لو كان الذي سقط فيها من العامة أو أفناء الناس. قال أنانا: ولكن أنسيت أنه سيحصرنا في نطاق ضيق من العامة أو أفناء الناس. قال أنانا: ولكن أنسيت أنه سيحصرنا في نطاق ضيق من تحقيقاته ويرزج بنا في مأزق لا تجد معه مندوصة من الاعتراف بالحق والجهر تحقيقاته ويرزج بنا في مأزق لا تجد معه مندوصة من الاعتراف بالحق والجهر

بالصدق؟ فاحمر وجه راميرى وصاح بصوت جهير: اسمعت منى منذ عاشرتك وصرت من رفقتك سبأ أو هجواً في حق ابنة رع ذات الشعاع الساطع؟.. أناشدكم الحق أنتم معشر الرفقاء، أنت يا (أنتيف) وأنت يا (نابى) وأنت يا (سانت) وأنتم كافة أيها الزملاء والأصدقاء، أناشدكم بل أضرع إليكم أن تقولوا من ذا الذى كافة أيها الزملاء والاصدقاء، أنا أم أحد سواى؟ ومن ذا الذى نصحكم بالبحث عن استفزكم للثورة والهياج، أنا أم أحد سواى؟ ومن ذا الذى نصحكم بالبحث عن بنطاؤر؟..ألم يكن أنا الذى تهدد رئيس الكهان بالخروج من هيكل سيتى؟!.. ألم يكن أنا الذى حرضكم على رفع لواء العصيان وامتشاق حسام التمرد على الاساتذة؟ لست أخالكم تنكرون هذه الحقائق الساطعة إذا حانت ساعة الاعتراف بها.. لقد ثبت لك الآن يا أنانا أنى صاحب الشأن في هذه المؤامرة، فإذا استاقونا للحكم علينا فيما وقع منا فدعوني في المقدمة ولا يأت اسم أنانا على السنتكم. فإن صدر الحكم علينا بالجزاء ضربا بالمقارع أو إمساكا عن الطعام فلايتوان أحدكم عن إلقاء التبعة كلها بالكراء ضربا بالمقارع أو إمساكا عن الطعام فلايتوان أحدكم عن إلقاء التبعة كلها على أ.

قال ابن النبي الأول لهيكل آمون وقد أخذ من راميرى بإحدى يديه وتناول أنانا اليد الأخرى شكراً وامتناناً: ما أشرف نفسك وأعلى همتك وأصدق ولاءك!.. فاستخاص الأمير يديه منهما باسم الثغر وقال لأصحابه: الآن وقد 'تفقنا على ما سيكون فعليكم بالاتحاد قلباً وقالبا وحذار أن تحيدوا عن نصيحتى، وأقسم لكم بأنى ما دمت أدعى راميرى فلا مفر لى من مطالبة والدي بإخراجى من هذا الهيكل لادخل هيكل (خينو) احتجاجاً على حرماننا التلمذة لنبطاؤر. قال أصغر التلاميذ المتمردين: لكن أنسيتم يا صحبى الكرام ما عزرنا به من وصفه إيانا بالأطفال المتشردين والصاقه بنا تهمة الخفة والرعونة؟.. أجاب راميرى: ما قال في هذه

الأوصاف إلا حقا، فإننا من نزق الشباب وغرة الحداثة لعلى شيء كثير، وليس يسعني إلا أن أمجده وأشيد بذكره لوصفه إيانا بتلك الأوصاف. ولعلك ترتاب في أمرى إنها الصديق فتتهمني سالتحين لهذا أود أن تقف على ماهية رأيي في المرضوع. ثم التفت إلى أحد أقرانه- وهو يتكلم- التفاتة توخى فيها تقليد الكاهن الأعظم أميني حينما يهمّ بالكلام وقال: بم يمتاز صاحب الهمة العالية والنفس الأبية على السواتة والأخلاط، إن لم يكن بالترفع عن الدنايا والسفاسف واجتناب المظاهر الميتذلة؟ الرجل الذي تلك سماته هو الذي يمر مرّ الكرام بما لايسمو به إلى أشرف الرتب وأعلاها، وينصرف عما يحيد به عن الصراط السوي.. ولقد تلقيت عن والدى هذا المبدأ الذي أثبتت صحته التجربة.. فإذا استقر هذا في أخلادكم، فلننظر الآن فيما إذا كان يسع بنطاق المعروف بعزة النفس ورقة الشعور أن يعمل معنا أكثر مما عمله. قال أنانا: لاتعُرب يا صديقي الأمير عما يشعر به وجداني فلقد سلكنا-- والحق يقال-- مسلك الأطفال ولم نتبع خطة الرجال.. أردنا أن ننفع بنطاؤر فالحقنا به السوء والشرور.. وما أتم حديث حتى سُمعت قرقعة مركبة وقفت أمام الباب فصاح راميري: ها قد قدم أميني فتجلدوا واثبتوا ولا يذهب عنكم أني المذنب وحدى. وإني لواثق أنه متى أيقن ذلك لا يجرؤ على معاقبتي . وكل ما أتوقعه أنه سيعبس في وجهى ويعرض عنى، ولكن غضبه على سيكون سحابة صيف ثم تنقشع،

هبط أمينى من مركبته فقيل له ف الوقت إن رئيس المشرحين ومفتش القرابين يبغيان مفاوضته ف أمر خطير، فأجاب: لينتظرا بالحديقة وأين هو زعيم المنجمين؟.. وما أتم سؤاله حتى أقبل هذا الأخير مهرولا ليطلعه على ما وقع أثناء غيابه. وكان أمينى قد أحيط علمه بذلك وهو ف طيبة لأنه قبل مزايلته للهيكل أمر بموافاته بتقرير

شامل لأحوال بيت سيتى. ولهذا قاطع رئيس المنجمين بقوله: لقد الممت بجميع هذه الحوادث التى لايدعو وقوعها إلى الدهشة، ولا يعرب عن الخاطر مع ما شب تلاميذى عليه من الميل إلى بنطاؤر والتعلق به إلى حد استفزهم لركوب متن الشطط. واتصل بعلمى غير هذا أنه التقى بالأميرة في هيكل حاتاسو حين همت بدخوله قضاء لفروض الصلاة، وساعدها على تنفيذ مرادها وهو عالم بأنها لم تتطهر من الدنس بعد.. نعم إن هذه الحوادث وأشباهها تستوجب اللوم والتعنيف ولابد أن يجُزى مرتكبوها شر الجزاء.. ولكن في غير هذه الأوان.. وثق بأن بنطاؤر لن يفلت من يدى قبل أن يذوق عداب العقوبة، إلا أنى أطلب حضوره هنا لحاجة ماسة بحفلة عيد الوادى، وأود الآن ألا يكاشفه أحد بدخيلة قلبه ولابما يبطنه من العداء والكراهية له، فبلغ إلى جميع الكهان إرادتي وليعملوا على طاعتي وامتثال كلمتي.

حاول رئيس المنجمين عبثاً أن يقنع أمينى بالعدول عن نيته مصوراً له دهشة الناس واستنكارهم إذا عامل الشاعر بالتسامح، فلم يتمالك الكاهن الأعظم أن تناول خاتم المهمة من رئيس المنجمين وعهد به إلى أحد صغار الكهان وأمره بالانصراف فوراً إلى هيكل حاتاسو للعودة ببنطاؤر إلى بيت سيتى. فلما رأى رئيس المنجمين ما حلّ به من الخزى استجمع قواه الواهنة وقال: وأولئك الخائنون الأشقياء أيبقرن في منجاة من العقوبة والتاديب؟ أجاب أمينى: لسوف أعاملهم معاملة بنطاؤر. ومما لا ينفسح له مجال فهمى اعتبار ما ارتكبه أولئك الأطفال من مغادرتهم المكتب وهجرهم الدرس جريمة لا تغتفر . فخل عنك هذا العناء ودع أولئك الأطفال فيما هو طبيعة سنهم من نزق الشباب، فإنه إذا لم يغض المربى الطرف عن زلات كثيرة من زلاتهم فقد اساء وما أصاب. والواجب عليه أن يحيط بالأمور كلها كبائرها

وصغائرها، ولكن لا حاجة بأحد إلى العلم بأنه أحاط بها ووقف عليها. وأحرى الأمور بالتجاهل والتغاضى ما يبديه الأطفال من نزق الشباب والانحراف عن جادة الصواب. أنسيت أن ما يرتكبه الأطفال دليل على مايجنحون إليه بطبيعتهم فى الاستقبال.. لقد عزمت على مؤاخذة طفل واحد بخطيئة زملائه جميعاً. ولولا أن هناك من الأسباب الخاصة ما يضطرنى إلى إبعاده من الهيكل فى غضون أعياد الوادى لأعفيته من العقوبة.

فسكت رئيس المنجمين مفحما، لاسيما وقد رأى عينيه تقدحان بشرر الغضب وشفتيه مضطربتين بما ينم على ما انتاب نفسه من شديد التأثر. ولقد أدرك الكاهن الأعظم حقيقة ما خالج فؤاده فقال له: إنك لا تستطيع فهم مقاصدى ولسوف أكاشفك بها مساء اليوم متى عُقدت جمعية العارفين بالأسرار الدينية. إنا نتأهب الآن لتنفيذ جملة من المشاريع الخطيرة، فإنه لم يذهب عليك ما أصبح زملاؤنا كهان هيكل آمون فيه من الضعف والخور، وهذه فرصة متاحة لنا معشر الكهنة أصحاب الجلابيب البيضاء لنقدم الدليل دونهم إلى الآلهة على إخلاصنا وصدق نياتنا. وستجمعنا الأعياد وإياهم وجها لوجه فلا محيد لنا عن الاتحاد والتعاضد.

وسيعتلى بنطاؤر في الغد منبر الخطابة فيقرع الأسماع ببديع لفظه ويسحر الألباب ببلاغة وعظه. وإن من بين التلاميذ المتمردين من يمكن التعويل عليهم في النشيد لسرخامة أصواتهم ولاسيما التلميذ أنانا. فدع عنك الاشتغال بأمر هؤلاء المغرورين.. شم قل لى وهل كان راميرى بين الثائرين؟ أجاب رئيس المنجمين: نعم، وكان من أشد زعمائهم حماسا وتطرفاً. فالتقت أميني إلى الشيخ باسما وقال ساخراً: لقد تجلت الأسرة الملكية بجلباب الشرف والفخار.. فبينما تنتهك كريمة الملك

حرمة القوائين وتضع من قدرنا في نظر العالمين، يثور أخوها راميري علينا ويعصبي ما ينبغي أن يُطاع من أو امرنا.. والواجب في هذه الحالة طرده من المدرسية و إقسامها؟ لمَّ أرى بوجهك دلائل الخوف والوجل؟ أثري أن أبناء الملوك والسلاطين لا تسرى عليهم القوانين ولو كانوا خاطئين؟.. كن رابط الجأش هادىء البال فقد حان أوان العمل وفات زمن التواني والكسل.. ثم قل لي: أوافاكم نيأ الحمل المقدس الذي كان رعمسيس أهداه إلى الإله أمون بعد أن أسماه باسمه؟.. لبئس الفال النذير بخبية الأمال. قال رئيس المنجمين وقد بسط يبديه إلى السماء قانطيا: نعم، جاءني هذا الخبر الـذي ملأ أفئدتنا بالحزن والكدر، وقد نفق أيضاً العجل أبيس وفاضت منه النفس، فهي انتهى إليك هذا الخبر النحس؟ قيال الكاهن مكتبِّياً: نعم، صعدت روحه الربانيية إلى السماء للاستمتاع بالسعادة والهناء. وقد أصبحننا بموته تلقاء واجبات لا مفرَّ من أدائها، وسيعترضنا في ممارسة هذه الواجبات مالا حصر له من الصعوبات. ولكن ما الحيلة، ومثلنا من ينهض بالأعباء ويهون عليه العناء.. يجب علينا في ذلك الاحتفال الوقوف عند حسن ظن الناس بنا فنعرض على أنظارهم ما نخلب به عقولهم، ولا ننسى أن الوالي قد أجرى علينا باهظ المرتبات ووافر الأرزاق و... فقاطعه رئيس المنجمين قائلا: يدرك القادرون من أصحابنا معنى الواجب عليهم، لا كما يدركه كهنة هيكل آمون، لأنهم بينما يادبون المآدب ويصاقرون بنت الدنان نقوم نحن بشعائر الأعياد ف مذا الهيكل للملك الديان. فقال أميني باسما: لكن الم نفد الأمة مثلما أفادوها؟ وهل لم تكن الأمة أشد احتياجاً منهم إلينا؟ وإذا كانوا هم مرشديها ف الحياة الدنيا، افلم نكن نحن الرشدين إلى الطريق الأخرى؟ والحياة نور والموت ظلام، والحاجة إلى الدليل في الظلام أشد منها إليه في النور. أفلا

نستطيع بعد ذلك مناهضتهم ومقاومتهم؟ قال رئيس المنجمين: نستطيع مقاومتهم والغلبة عليهم مادمت أنت رئيسنا، وصاحب الكلمة النافذة فينا. التفت أميني هنا إلى الكاهن سبتاح والنبي جاجابو وكان مقبلا عليه، وقال بعد أن رشق ببصره رئيس المنجمين: ومادام أن بهذا البيت ضيوفا كراماً مثلكما. ثم قصد الثلاثة جهة الحديقة حيث كان ينتظر أميني الكهنة ومعهم القلب العجيب الذي وُجد بجثة روني.

فلما دنا من مكانهم حيا مفتش قرابين هيكل آمون بأحسن تحية ورمق رئيس الشرطة بعين الرعاية والعطف. وبعد أن اطلع على ما أودعاه تقريرهما من نتيجة بحثهما في الحادثة التي حضرا من أجلها، أمر بفتح الصندوق الذي سطعت منه الروائح العطرية، فتناول القلب منه بأنامله النحيلة وأمعن النظر فيه فترة من الزمن، ثم قال في تأن وسكون: إذا لم يكن هذا القلب قلب إنسان كما تقول أنت يا رئيس الشرطة ، بل قلب كبش وجد في حنايا ضلوع أوزريس روني كما يقول به أخونا مفتش قرابين هيكل آمون، فقد أصبحنا تجاه معميات لايقدر على حلها غير الربوبية صاحبة المعجزات. فاقتفوا إذن أثرى وطئوا مواقع قدمي حتى نصل إلى الساحة الكبرى وعليكم بدق الطبل النحاسي أربع مرات إيذاناً باجتماع الإخوان للمداولة في الأمر، فعسي أن نهتدي بمشكاة آرائهم إلى الصواب.

فطفق الحاضرون يدقون الطبل تنفيذاً لأوامر الكاهن الأعظم فرددت أركان الهيكل صداه، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تدافع نحو مصدر الصوت مسرعين جميع من كانوا به من أنبياء وآباء وغاشية وطلاب، ذلك لأن الطبل لا يُدق أربع مرات إلا لأمر جلل وشأن خطير. وكان نبسشت الذي اعتاد العزلة في أيام الحفلات والمظاهرات في مقدمة المتقاطرين شتاتاً وزرافات، واهماً أن النار قد شبت

ف الهيكل وانداع لهيبها إلى الأركان وتداعت له الجدران. فلما تكاملت جموعهم أوقفهم أميني ف الأماكن المعينة لهم. ثم أنشأ يروى على مسامعهم الأمر المريب والحادث الخروب، وقال إنه اعترم ازاءهما استيصاء الآلهة ليقف من وحيهم على جلية الأمر. وكان الصندوق الصغير بين يديه، فوقف هنيهة في مقدمة المجتمعين ثم سايرهم نحو صدر الهيكل، فلما بلغ إليه توارى خلف الستار المقدس. وكانت جماهير الناس تزدحم أثناء ذلك في ساحات الهيكل وحواليه لاستقصاء الخبر واستطلاع نتيجة التجليات الإلهية والإلهامات الربائية التي استنزلها أميني على نفسه. وقد انقضت ساعة ولا من يسمع صوتاً أو يدرك همساً، وكل ما في الأمر أن دخان البخور كان يتصاعد من المجامر فيتكاثف تحت الآزاج أو يتبدد ف أجواز الفضاء. ثم برز أميني من وراء الستار مرتديا أمساحه الكهنوتية الثمينة التي كانت تزيده فضامة وجلالا وأبهة وكمالا، يتقدمه كاهن يحمل بين يديه إناء من الذهب المرصيع بالجواهير، وقد رفعه إلى منا فوق ليراه الماضرون. وكنان الكاهن الأعظم وهو يتهادى خلف هذا الكاهن متكتاً على المحجن لا ينفك عن النظر إلى الإناء والجثو بركبتيه من آن إلى آن. وكان الحاضرون، من كهنة وطلاب وغاشية - حينما برز من مخباه- يخرون إلى الأذقان سجداً. أما هـو فقد واصل السير ف أثناء ذلك إلى المذبع الذى كان الكاهن وضبع عليه الإناء ثم وقف فوقه وقال بصوت جهير وعبارة تحرى فيها التفخم في جلال وتؤدة ما ياتي:

«هلموا إلى السجود أيا معشر الحاضرين! وحى على الصلاة! حى على عبادة الإله! ما أخطأ مفتش قرابين هيكل آمون في قوله وما غوى وما نطق قط عن الهوى. فقد ثبت بالدليل المقنع والبرهان وتايد بمشاهدة العيان، أن القلب الذي احتواه صدر

نبينا المحترم روني لمن قلوب الحملان. تجلت لى هذه الحقيقة بالإلهامات الربانية وأيقنته أنا بما أطريني من كلماتها اللدنية التي هي آية الآيات ومعجزة المعجزات.. خبرتني هذه الإلهامات بأن هناك على الضفة الأخرى من النيل، وفي هيكل آمون مزقت الذئاب الخاطفة أحشاء الكبش المقدس وفتكت به الفتك الوبيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لم تشأ الآلهة أن يلحق بهذا القلب شيء من الأدناس، فأودعته صدر أحد كبار الكهان ولا مساس. تلك هي المعجزة الكبرى وآية الآلهة العظمي! تبشر بوقوع حادث جلل مريب في المستقبل القريب، وإن ذلك القلب الإلهى لما ضاق به جسم الكبش التمس الرحب من أجساد الأبرار، فنزل في صدر روني النبي مبارك المختار.. وسيبقى عندنا في هذا الإناء ليتبرك به المريض والمكروب فيُذهب الأمراض ويجلو صدأ القلوب. فهلموا جميعاً إلى الصلاة والابتهال، وحيَّ على عبادة ذي الجلال، وأبصروا كرة ما تقدفه مجامر البخور من الدخان لتروا فيه ما سطر بحروف النار مساهو ظاهر للعيان. ثم انهضوا وقوفا على الأقدام وضعوا بينكم القلب الرباني تحيط به الصور المقدسة وتقدموا إلى الأمام لنطوف به أرجاء هذا الهدكل مترنمين باناشيد الحمد والثناء، لياسط الأرض ورافع السماء. أما أنتم أفواج السرسل والغاشية، فاحملوا عصيكم وانتشروا بالأنصاء الدانية والقاصية، لتنديعوا في الأهلين، بشرى معجزة بيت سيتبي القائم على أسماس متين من عقائد الديڻ»،

ما أتم الموكد، طواف بالهيكل وتفرق رجاله فوجاً إثر فوج حتى استأذن كاهن هيكل آمون في الانصراف بعد إذ قام بالتحية الكهنوتية وقال لأمينى في فتور يشف عما يبطنه من الحقد: ولسوف يقابل كهنة هيكل آمون ما تزعم أنه وحى أوحى إليك

بما هو أهل له من التقدير. ومن المكنات وقوع ما أعلنته من المعجزات ولكن سوف يقف جلالة الملك على سر وقوعها وطريقة إبلاغها للأهلين. قال أميني: إنما تمت المعجزة بإرادة الملك الواحد القهار، ثم أحنى رأسه واندس ف أخلاط الناس الذين كانوا في ساحة الهيكل يتحدثون بما وقع من خوارق العادات وأعد للاحتفال من المعدات، واستدعى إليه بعد هذا في ساحة المدرسة التلامييذ المغضوب عليهم، فكان أول القادمين منهم سبتاح، فلما مثل بين يديه أخبره بوصول بنطاؤر، ثم عاد إلى أقرانه الذين كانت تصل من بعيد أصوات ضحكهم سروراً بهذا النيا السعيد. وكان راميرى بن رعمسيس يمحضهم النصح وقتئد فيما لو عوقبوا عليه بالجثو على الركب فوق حبات الحمص الجاف لعنوا قبل ذلك بإنضاجها حتى لايشعروا بشدة إيلامها. قال تلميذ آخر كانت بيده هليونة يضرب بها كتف وهو مول إليهم ظهره: الأحسن أن تستبدلوا من الحمص بالهليون. وهو مجون أراد به الإشارة إلى الضرب بالسوط أو الدرّة. وبينما التلاميذ في هذا الهرج إذ طرق أسماعهم وقع أقدام أميني، فثابوا جميعاً إلى السكون والصمت. وليس هذا بغريب لأن أميني كان منظره يُشعر بالوقار والهيبة. فكان مجرد وجوده بين الطلاب- منصباً عليهم من حيث لايعلمون- داعباً إلى وقوفهم عند حدود الأدب والنظر إليه بعين الإجلال والاحترام.

غير أنهم لم يلبثوا أن عرتهم الدهشة حينما شهدوا أمينى يتقدم إليهم باسم الثغر منشرح الصدر محبذاً عواطف ولائهم لبنطاؤر وتعلقهم به. إلا أنه أخذ عليهم في عطف ورفق التسرع في الولاء لهذا الرجل الفاضل الحكيم ووصف حركتهم هذه بأنها جاءت قبل أوانها، ثم تحوّل نحو راميرى وقال: هب أيها الأمير أن رعمسيس والدك الكريم أمر بنقل أحد قواد جيش الشام إلى جيش (روش) فتمرد جنده تذمراً

من مفارقته، قماذا عسى أن يكون حكمك عليهم؟.. أيحق لك في هذه الحالة تناول أمر الملك بالنقد والتجريح؟.. أظن لا.. ومع هذا فإنى أعفو عنكم وأغضى على سيئاتكم، لأن جرائكم كانت محمودة الأسباب شريفة المقاصد، وإكراما لمعجزة اليوم التى لم يُسمع بمثلها في سالف الحقب.. لكن لايذهبن الغرور بكم إلى توهم أنكم أصبحتم في منجاة من العقاب، فإن تطبيق القانون على محرضى الطلاب وقائديهم إلى التمرد والاضطراب ليس عنه منصرف. فمن أغرى منكم أصحابه بانتهاك حرمة القوانين عليه أن يبرز من بينكم ويعترف بما قدمت يداه.

فبرز الأمير راميرى وأقبل نحوه خاضعاً خاشعاً وقال: أيها الآب المحترم! اعترف لك بأن ما أتيناه من الأعمال كان من غرور الأطفال ولم يكن من أخلاق الرجال.. لهذا نعرب لكم عن صادق الأسف والندم ونعطيكم موثقا علينا بسلوك سبيل الرشاد والإقلاع منذ الآن عن هذا العناد. ومما يضاعف في نفسى الأسى والأسف أنى كنت الزعيم الذي أغرى رفاقه بالنزوع إلى الفساد والعصيان، وما حملنى على هذا الغرور إلا شدة تعلقى بالشاعر بنطاؤر الذي أحرز قصب السبق في كل ميدان. فبدت على وجه أمينى علامات الغضب، إذ تربد وجهه واكفهر ونم على ما في صدره من الحقد والشر. فقال بصوت جهير: ليس لطالب أن يوازن بين الأساتذة ويفضل بعضهم على بعض، ولو رمى بذلك إلى إعلان فضله والإشادة بذكره. ولقد تصديت بعضهم على بعض، ولو رمى بذلك إلى إعلان فضله والإشادة بذكره. ولقد تصديت الأمور، فقد صرتم إزاء المسئولية سواء. ثم سكت هينهة وقال: لو لم تكن ابن ملك الأمور، فقد صرتم إزاء المسئولية سواء. ثم سكت هينهة وقال: لو لم تكن ابن ملك مصر الذي يحكمها كما يحكم (رع) لأنزلت بك من العقاب على جرأتك ووقاحتك ما أنت له أهل، ولكنى رغبة في صون الطلاب من عدوى الاقتداء بك أرى، من الصواب

معاقبة المذنب منهم بما يردعه عن غيه. قال راميرى: إنى مقر بذنبي وراض بالعقاب واحتمال شديد العنداب مادام حكمك به مطابقا للعدل والنظام. فرمقه أميني بعين الرفق، وكانت نفسه تحدثه بأن يتناول يده ويصافحه إعجاباً بصراحته ومروءته، غير أن العقاب الذي انتوى توقيعه عليه كان مما تفتق عنه احتياله لتحقيق أمانيه ونيل مطامعه. وما كان أميني بالرجل الذي يضحى بفائدة آجلة أو يضع العقبات لنفسه في الطريق الذي آلي عليها اتباعه لاقتناص فرصة سانحة، لمجرد إمتاع العين بشهود شيء جميل أو الاعجاب به. لذلك عاد فقال لراميري بصوت يشف عن صدق العزيمة: إذن سأنزل بك عقوبتي وهي الطرد منذ اليوم من بيت سيتي والحرمان من تلقى العلوم فيه، فامتقع لبون الأمير فزعاً واستنكاراً لصرامة العقاب ونسج الخوف على وجهم طبقة من الاكتئاب ولحظ أميني ذلك منه فقال بصوت لطيف: لايذهبن الفزع بك إلى اعتقاد أنى طردتك من بيتنا. وكل ما ف الأمر هو أنى مع توديعي إياك مازلت حريصاً على محبتك حرص المرء على حدقة عينه. والآن وقد أمرتك بمزايلة بيت سيتى والبعد عنه فلا مناص من مفارقتك إيانا بأمر الملك الذي نسأل له البقاء والصحة والقوة، ولست أقف منك- ومكانتك معروفة للجميع -موقف من يؤثر عقوبة على غيرها أو يتخير أسهلهما احتمالا وأخفهما وقعاً ليطبقها عليك، فإن الواجب يقضى بتنفيذ القانون على مخالفيه أيا كانوا.. والآن ناولني يديك لأصاف ك.. وإذن لبشرك بانك ستكون في يوم ما من الأبطال والشجعان المشار إليهم بالبنان، أم يقدم راميري ينده ولم يصافح الكاهن الأعظم لما وقع فينه من الدهش والاختبال، وليث مسامتاً واجماً حتى طلب آني منه أن يصافحه بقوله: ما الذي أرى منك الآن مما يخالف قولك إنك راض بعاقبة خطئك؟ ألا تعلم أن من أقدس

الواجبات على ابن قرعون البر بالوعد والإقامة على العهد؟.. هلم يا بنى! خذ عدتك لمزايلة هذا الهيكل المقدس قبل غروب الشمس. قال الكاهن الأعظم ذلك وولى عن الطلاب بظهره فبدت عليهم جميعاً علامات الجزع والحزن. وقد اجتاز صحن الهيكل فشيعه راميري بنظره حتى غاب عنه، وكان قد علا وجهه الاصفرار واضطربت شفتاه، ورأى أقرانه هذا الجزع فتركوه وشأنه وأمسكوا عن حديثه مكتفين بالنظر إليه في سكون وانكسار واستخزاء. ولحظ منهم ذلك فعمل على امتلاك مشاعره والأخذ بعنان عواطفه، ثم بسط يده لأنانا فلبقية أقرانه مصافحا بعضهم تلو بعض وقال: هل أنا شقى عابث حتى يقضى على بالطرد من الهيكل؟ سيحنق والدى على بلا ريب إذا بلغ إليه هذا الخبر وذاع سره بين الناس وانتشر. قال أنانا: لعلك لم تنتبه إلى أنه بسط لك يده لمصافحتك فلويت عنه عنقك وهي بادرة غير حكيمة لا يصلحها ولايردها إلى مكانها من الصواب سوى المسارعة إليه لمصافحته والاعتذار له وطلب الصفح منه. قال راميرى وقد غلب عليه العناد: كلا ثم كلا!.

وقبيل غروب الشمس غادر راميرى بيت سيتى فبارك فيه أمينى وقال له معتذراً عن شدته في معاملته: ستعلم حينما تأخذ بزمام الحكم أن معاملتى إياك بالشدة لم تكن مما ينافي العدل والحق في شيء.. ثم أذن لزملائه بمرافقته حتى ضفة النيل ووداعه عندها. أما بنطاؤر فسايره حتى باب الهيكل وزوده النصائح الحكيمة وشيعه بالطف العبارات وأرقها. وما استوى راميرى في زورقه الذهبى حتى اغرورقت عيناه بالحموع، فقال له مربيه وكان جالساً إلى جانبه: لعل مولاى الأمير يكف عن البكاء. سأل راميرى، وما تعنى بهذا الكلام؟ أجاب: أظنني لمحت دموعا تتلألاً في ما قبك. قال راميرى وقد حاول أن يكظم ما به: إن ما لاح لك من

الدمون إنما هو دموع الفرح بترك هذا الهيكل الذى حلّ فيه الغضب مكان الحلم. خلال الحديث بينهما كان الزورق قد بلغ إلى الضفة الأخرى، فهبط الأمير منه البر، منشرح الصدر، ولم ينقل على الضفة بضع خطوات حتى التقى بشقيقته بنت أنات.

الفصل الرابع والعشرون

خيالات زائلة .. وأوهام باطلة

لاعجب أن نزلت بطيبة الأحياء الكوارث بعد ما وقع بطيبة الأموات ما رويناه من الحوادث. فإن راتوتى استيقظت من نومها بعد أن أمضت الشطر الأكبر من ليلها، لا يلتقى لعينيها جفن بجفن لما انتابها من القلق والحزن. ولقد دخلت نيفرت عليها بعد هدأة من الليل فاعتذرت عن تخلفها بما قطعته من الوقت الطويل في مناجأة الأميرة بنت أنات. ثم وضعت جبهتها على ثغر والدتها لتقبلها قبلة المساء. وقصدت هذه بعد ذلك إلى حجرتها حيث كان نيمو يشعل المصابيح لإضاءتها، فمر بخاطر راتوتى وقتئذ ما أفشاه هذا القزم من أسرار بعاكر وتسلط الوالى عليه واتخاذه إياه كاني يتصرف فيه على ما يهوى، فأمرته بأن يكشف لها الستار عما خفى من الأسرار فأبى، وكنها ألحت كثيراً فقال لها: إن بعاكر حفظ عنده ما بقى من الماء السحرى لذى كانت نيفرت شربت نصفه الآخر على اعتقاد منها أنه ماء قراح. ولو أن نيمو استلت من قرارة نفسها ما كان كامنا فيها من الحقد، فلما وقفت على جلية الخبر قبحت فعل الموهار، ثم سألت نيمو عن الشراب السحرى وقوة تأثيره في نفس شاربه فأجاب: أما تأثيره يا سيدتى فهو أشد ما يكون في الافئدة، ولنحمد الإله على أن نيفرت لم تفرغ في جوفها سوى النصف منه.

اكتأبت راتوتى ولبثت إلى ما بعد منتصف الليل لا تستقر على حال لما انتابها من الشجن، فكانت تغدو ف حجرتها وتروح مفكرة في هيام بعاكر بابنتها وخيانة مينا موثق اليفاء لها، وفيما شهدته بعينيها من تغير أحوال نيفرت في أقوالها وأفعالها.

وما اكتحلت عبناها بالتهويم بعد هذا الأرق حتى فاجأتها الأحلام المزعجة والخيالات المرعبة والمرائى المكدرة، وكان جزعها منها يشتد كلما توارد على خاطرها ما شهدته من جفاء نيفرت وقسوتها عليها ومعاملتها إياها بما يدل على تأصل جذور العقد في نفسها.

وما لاح الصبح حتى قصدت إلى الهيكل ثم عادت فلم تجد ابنتها في المكان الذي اعتادت تناول الطعام فيه معها. وكانت راتوتي شديدة الميل إلى العزلة في وقت الصبح، فلما رأت أن ابنتها لم تستيقظ بعد من النوم استحسنت أن لا تنبهها منه ثم جلست إلى المائدة وحدها. ولكنها ما كادت تأخذ مجلسها حتى انتصبت واقفة وأخذت تستر خبز الحنطة وأكواب النبيذ الفضية بقطعة من نسيج الكتان، وانطلقت بعد ذلك نحو مخدع نيفرت فما كان أشد جزعها لما لم تجدها في سريرها! ولقد ثابت إلى السكينة وهدا بالها بعد ذلك فقصدت إلى الخدم تسألهم عن ساعة خروجها، فأجابوها بأنها ذهبت إلى الهيكل قبل طلوع الفجر، فتنفست الصعداء ثم عادت وحلست تحت الظلة.

لم تمض ساعة بعد هذا الحادث حتى أقبل بعاكر يطأ مواقع قدميه اثنان من أرقائه يحملان باقتين مرصعتين بالأزهار النزاهية الألوان، وخلفهما كلب هائل الخلقة من كلاب والده. فتلقته راتوتى بمظاهر العطف والإيناس، اذ خرصت عليه أن الماء السحرى الذي وافاها نيمو بخبره قد جاء بالأثر المرجو منه، وهو حبه لنيفرت حباً يتجاوز الظن ويحقق ما فوق المأمول. حقاً إنها تبينت أطواره ووقفت على ميوله منذ كان طفلا وعرفت عيوبه ونقائصه، ولكن استعانته بذلك الماء على استمالة نيفرت، مهدت عندها لحسن الظن فيه وأوقعت في وهمها أن له مع رذائله

المموقتة، ما يلطفها من المناقب الكثيرة. دع أنها رأت فيه - بعدما تبين لها من هيامه الأكيد بابنتها- صديقاً مخلصاً لها ينصرها على أعدائها وببذل مهجته في الذود عنها. وكانت راتوتي تنظر إلى بعاكر محددة فيه البصر كما لو أرادت أن تقارن بفكرها بينه ووالده، فرأت أنها قد وقعت مما أرادته فيما لم يكن في حسابها، ولم توفق لما كانت تحب استنتاجه من حسن الظن به وصدق الأمل فيه. وثبت عندها ما حملها على تفضيل والمده عليه لاستئثاره دونه بالكثير من المناقب العالية والصفات الفاضلة، فقد كان جميل الطلعة معتدل القوام حسن الشارة بعكس اينه، فإنه مع قوة عضلاته ومتانة أساطينه كان قصير القامة يظنه الرائي إذا مشي كرة تتدحرج. ومما أنبه راتوتي ولفت نظرها بصفة خاصة شكل يد بعاكر، رأتها وهو يبحث في نطاقه عن شيء يظهر أنه كان أخفاه فيه من قبل. وقارنت بينها ويد الموهار السابق فرأت أن الفارق بينهما عظيم. لأن يد بعاكر كانت شثنة غليظة ينصرف النظر عنها لقبحها بخلاف يد والده فقد كانت تشبه يد المرأة في حسنها وانفتال أصابعها، مع قوتها وصلابتها إذا امتشق الحسام وخطف به رؤوس الأعداء وأوردهم موارد الحمام. ولقد حيل لها وهو يفتش في نطاقه أنها رأت قنينة صغيرة ربما كانت تحتوى ما أعده لابنتها من الماء السحرى، فعلا الاحمرار وجهها وارتعدت فرائصها ولحظ ، عاكر منها هذا الاضطراب الذي احتار في تعليله، فسألها في فق: أبك ألم، هذا الذي يزعجك؟ هل ورد إليك من رئيس اسطبلات مينا في هرمونتيس نبأ لايسر؟ أجابت: كلا .. لا هذا ولا ذاك، ثم إنه لم يحضر بعد ولم يعرفني بخبره. قال: لقيت هذا الرجل أمس فالتمس منى أن أدرجه في سلك جنودي المسافرة قريباً إلى بلاد الشام. وقد استخلصت من الحديث معه أنه ناقم عليك لإكراهك إياه على بيع أفراس مينا، وهي الأفراس التي كنت حظياً باشترائها لأنها من أفضل الخيل، وعندى أنه يريد اللقاء بمولاه لتحذيره منك.. ماذا عراك يا خالتي ولمَ امتقع لونك.. ماذا دهاك؟

حاولت راتوتى أن تكظم ما كان مستكنا في صدرها من الغيظ وتصنعت الابتسام ثم قالت مغضبة: أيظن ذلك الأبله أن بيت مينا لايستقر له ركن ولا تقوم له عماد إلا ببقاء الجياد؟.. ثم أترضى أن تجعله في صحبتك وضمن غاشيتك ليحذر مينا منى ويحمسه ضدى؟ لم يكن مينا والحمد لله أعشى أو أعمى حتى يستعين بالناس على فتح عينيه. نطقت راتوتى بهذه الجملة بصوت خافت. فلبث بعاكر في دهشة هنيهة من الزمن ثم قال: إذا أبطأت نيفرت ولم تعد فليس لى من الانصراف بد. قالت راتوتى: لا لا.. أرجو منك انتظارها فإنها لا تلبث أن تعود ، لاسيما وهى لم تتناول طعام الفطور الذى بقى كما ترى – على مقربة منك – مؤلفا من نبيذ وخبز سميذ. على أننى سأدعك وحدك هنا حتى استعلم أعادت أم لا.

ما تحقق بعاكر من خلوته حتى اغتنم هذه الفرصة لقضاء وطره، فإنه عمد إلى المائدة التى عليها الخبر والنبيذ وأخرج من نطاقه القنينة التى تحتوى الماء السحرى، ثم بسط يده بها نحو السماء مستشهداً أباه أوزريس على ما هو فاعل وأفرغ مشمولها في الكوب حتى كادت تقيض حافاته بالشراب. وما كاد ينتهى من هذا الكوب حتى دخلت نيفرت ووالدتها فطمح بصره إلى الأولى وهي تتبختر في تيه ودلال لم يعهد لهما مثيلا من قبل. ولقد راعه حسنها فلم يتمالك أن تناول باقة الأزهار وقدمها إليها وهو يتعثر في أذياله خجلا وتأثراً بعوامل الهيام في قلبه. ومما ضاعف الانفعال في نفسه مشاهدته نيفرت الجميلة مادة يدها إليه لمصافحته. فلما صافحها أشادت بذكره وغالت في مدحه وحمدت له تفانيه في محبتها وإخلاصه الميل إليها وإعطائه المواثيق بالمحافظة على عهده معها، فخُيل لصاحبنا وقتذاك أن

هذا الانقلاب السريع هو نتيجة تأثير الماء السحرى الذي يلين القلوب القاسية وينقش على معفحاتها آيات الحب والهيام.

وبعد المصافحة والسلام دنت نيفرت من المائدة لتناول طعام الفطور وأومأت إلى بعاكر بالجلوس إلى جانبها. وكان هو وراتوتى يبرقبان حركاتها ويعيران السمع يتعجب واستغراب إلى كلماتها، وقد انتظر أن تشرع في عمل ما فأول ما أتته أن رفعت الكأس إلى فمها، ولكن لم تكد تلمس شفتيها حتى أعادتها إلى مكانها لما عراها من الخجل ، حينما لاحظ بعاكر عليها أنها تفطر في غير الموعد المالوف ، فقالت له: لقد كنت تعودت الكسل فأحببت أن أخلع عنى شعاره وأمحو عاره، فقمت مبكرة من النوم لمزيارة الهيكل صبيحة اليوم وأظنك لا تجهل المصاب الجلل الذي دهم الأفئدة بموت الحمل! فيالعظم هذا المصاب الدي أقلق رجال الكهنوت وسبحان الحي الذي لايموت. على أنه بالرغم من هذه البلايا العظام قد استقبلني المحترم (بك ان - شونسو) وفسر لى ما قصصت عليه من الرؤيا فطابت نفسي لذلك وثلج به صدرى. قالت راتوتي عاتبة بلفظ تسبق إلى مخارجه الرقة والعذوبة: وكيف أقبلت على زيارة الهيكل دوني؟ أجابت: أنت عندي أعز عليّ من نفسي، وأنت فرحي من الناس كلهم. وما تفردت بزيارة الهيكل إلا ضناً براحتك وحتى لا أزعجك من نومك. ثم قالت بعد أن أمسكت هنيهة: ومع هذا فإنك لم تسمحي لي قط بمصاحبتك في جولاتك الكثيرة بمدينة طيبة ولا في زياراتك لهياكلها الفضمة الضخمة.

قالت نيفرت ذلك ثم رفعت بأناملها كأس النبيذ وأخذت تجيل فيه النظر قائلة: أتدرى يا بعاكر ما الرؤيا التى رأيتها ف نومى؟ إنها وحق ولائك لجديرة بالعجب والدهشة. فألح بعاكر أن تقصها عليه، فوضعت الكأس في مكانها دون أن تمسها

شفتاها وقالت: إن لهذه الرؤيبا مساساً ببالشجرة التي تبراها مغروسية هناك في الصندوق الكبير والتي أهدانيها من بلاد آسيا المرحوم والدك وأنا مازلت طفلة.. أطل فيها التأمل ترها قد صارت ممتدة الأفنان وارفة الظلال، لأنني ما برحت أتعهدهما بما يكفل نماءها وصونها من الأفات. وهي واقعة الآن من نفسي موقعا اعتبرها معه الشجرة المباركة التي استأثرت بحبى وجدد حسن منظرها في نفسي ذكري والدك، زوج خالتي. فلقيت هذه الكلمات عنسده استحساناً لم يعبر عنه بأكثر من إيماءة الرضى والموافقة، غير أنها لم تلبث أن أمسكت عن الحديث إذ رأت خديه قد خالطتهما حمرة الخجل وسمعته يقول: لقد احتدم الحر أفلا تطيب نفسك إلى ارتشاف كأس نبيذ مشوب ببعض الماء؟ فتقبلت منه الكأس التي قدمها وما أصابت منها جبرعة حتى أقصتها عن فيها وتقلصت شفتاها تقلصاً دلٌ على ما عراها من الاشمئزاز والنفور، وإن سطعت بهجتها وازداد حسنها بهذه الحركة الفجائية. وكانت راتوتي جالسة من ورائها فالوت نيفرت إليها عنقها وقدمت لها الكأس قائلة: إن لى في النبيذ شرطا من طعمه، ولقد أحسست الآن بمرارة فيه جفلت منها نفسى.. ولتوقنى ذلك فإليك الكأس تذوقى منها قطرة. فأخذت راتوتى الكأس من يد ابنتها ووضعت حافتها بين شفتيها متصنعة الشرب منها، دون أن تذوق شيئاً. وبدا في وجهها من الأمبارات ما نمّ على ميلها إلى الضحك مما مرّ بيبالها وهو أنه إذا شربت من هذا النبيذ المزوج بالماء السحرى فلا يبعد أن تصبو إلى بعاكر وتهيم به، وهي تعلم أنه لايريد عن نيفرت بديلًا. وكانت عادتها إذا غلبها الضحك عجزت عن مقاومته وصبون النفس منه. غير أنها رأت لتعزيز مكانتها وحفظ كرامتها في نظر ابن أختها أن تملك نفسها وأن تحول بقهوة إرادتها دون انبعاث الضحك منها فأعادت الكأس على الفور إلى ابنتها قائلة: كان ينبغي أن يكون هذا النبيذ أحلى مذاقا

وأجود نبوعا، على أن حموضته ترطب الجسم فيما يعانيه من الحر الشديد. قالت نيفرت: صدقت. ثم استوعبت الكأس بجرعة واحدة وعادت إلى قص رؤياها على بعاكر إذ قالت: رأيت أمامي هذه الشجرة، فيما يرى النائم ، كما أراها الآن وهأنذه أستنشق رياها العطر، فمنوت منها. وفيما أنا معجبة بمنظرها المونق، إذا بألف سكن تمسكها أيد خفية قد لاحت لى في فضاء الجو وهي تهوى على أغصان الشجرة وأفنانها فتفتتها، ومازالت بها حتى سقطت على الأرض برمتها واجتثت من بعدها جندعها الضخم الندي كنت أحسب أن طعنات تلك السكاكين لن تعمل فيه. ولم يفزعني هول هذا المنظر، كلا، بل إنه أبهجني بما كنت أشهده من لمعان الأسلحة وتطاير شظابا الأغضان، وهو ما خيل لى معه أننى أرى فوارة لايكف الماء عن الانبثاق منها. وما تلاشت تلك الشجرة المباركة ولم ييق منها إلا الجذور المتأصلة ف الأرض حتى أخذني العجب، إذ شهدتها تنمي من جديد نميواً بقع تحت الحس. وقد تواصل هذا النمو حتى بلغت إلى حجمها الأصلى، فأخذت عندئذ جرة ملأتها بماء المستنقع ثم جئت فرويت به الجذور وقضيت ساعة في جلب الماء على هذا المثال حتى أجهدني التعب. غير أنه مما أثلج صدري وملا بالغبطة والسرور قلبي أن رأبت الأغصان قد تكامل نموها واخضرت أعوادها، وأن طلعاً طلع انبثقت منه ورقة خضراء تلتها ساق لينة أخذت تنمو وتمتد وتتضخم حتى صارت جذعا كسرا تفرعت منه أغصان صغيرة تحمل أوراقا ناضرة وأزهاراً زاهرة، بين بيضاء وزرقاء وحمراء. ولما تفتحت أكمام هذه الأزهار انحطت على أغصان الشجرة أطيار كثيرة أخذت تغرد تغريداً جميلا وتترنم بصوتها طويلا، إلا أن ترجيع فؤادى لصدى هذا التغريد كان أجل ووقعه في السمع أعذب وأحلى، ما همو إلا لأننى كنت سبب إنقاذ تلك الشجرة من مخالب الفناء واستمتاعها ينعمة الحياة والنماء. قالت راتوتى: ما أحلى هذه الـرؤيا!.. إنها تجدد في نفسى ذكرى أيام طفولتك، إذ كنت تقضين الليل في ابتكار القصص اللطيفة والنوادر المستملحة، ولكن خبرينى كيف فسر الكاهن لك هذه الرؤيا؟ قالت نيفرت: قال بصوت شبه اليقين إننى بعد الذي لقيته وألقاه من المحن سيبتسم لى ثغر الـزمن وأدخل دوراً جديداً من السعادة أحظى بالحسنى فيه وزيادة. فهمت راتوتى بالوقوف للانصراف وقالت في تكلف وتعلم: لا تنسى يا ابنتى أن أبا بعاكر هو الذي أهداك الشجرة التى رأيتها في رؤياك. وقد أمن بعاكر على ذلك بقوله: لقد جاء بها والدى المرحوم من أقاصى الشرق. قالت نيفرت: في هذا ما يزيدنى غبطة وانشراحاً لأنى كنت من والدك بالمكان الأثير، وقد أولانى من بره رعطفه أكثر مما يولى الوالد ولـده منهما. وبعد فهل مازلت تذكر وعدت بى إلى الشاطىء مغشياً على؟ إن أنس لا أنسى في حياتي ذلك اليوم الذي وقع نظرى فيه عليك بعد أن أفقت من غشيتى وأنت ترمقنى بنظرات الحنان والعطف. أه! ما وجدت في حياتى مثلك رجلا جمع إلى سمو الإدراك التحلى بمكارم الأخلاق.

أثار هذا الكلام في نفس بعاكر ذكرى تلك الساعة التي كان يحسب فيها أنه أحرز السعادة كلها بوجود نيفرت بين ذراعيه وتقبيله إياها قبلة الهيام الذي استمكن منذ الصغر من فؤاده وقال: صدقت، فقد كان والدي يحبك كأحب الناس إليه. قالت: إنه لمما يبهجني ويسري همي أن يتاح لي الكلام فيه بما يدعو إلى تمجيد سيرته والتحدث بفضائله. هذا ومما آلم قلبي وأمر عيشي أن أرى الرابط بين أسرتينا على غير ما يبغى لذا الصديق من الوثوق والتوفيق. ولكن الآن وقد انقشعت الغيوم وانقطعت أسباب الهموم وعرفت فيك ما كنت أنكره عليك قبلا من أدب ولطف ورقة

وظرف، فإنى أحمد الإله على هذه النعمة كلما خطرت ببالى أيام الطفولة وتمثلت لناظرى بمظهرها الحقيقى الذى ما علمت منه إلا الآن فقط أنك سبب هنائى، وهل أوثق دليلا على اتصال المودة بيننا من أن كلبك الأكبر (ديكر) لم ينسنى وأنه ما برح كعادته يحوم حولى ويداهننى ويتملق إلى؟ فنظر بعاكر إليها نظرة عطف وهيام وقال: نعم! نعم! قد كنت ومازلت في شغاف قلبى. قالت: ما أجمل حديقتك وأنضر أزهارها وأينع أشجارها أننى أعطيك عهد المحبة وميثاقها أن اتعهد باقتك النضيرة التى أهديتنيها اليوم بما يكفل بقاءها ناضرة مزدهرة أياما عدة.. ذلك لأنها تذكرنى التي مستقبل زاهر لا انقضاء له ولا انصرام.

قالت هذا ورفعت الباقة إلى شفتيها فلم يتمالك بعاكر وقد هزته عوامل الهيام أن القى بنفسه عليها وأخذ يلثم أناملها فرابتها منه هذه المفاجأة وعملت جهدها للخلاص من بين يديه ولكنه مد ذراعيه يبغى عناقها، وكان عندما لامس عودها اللدن قد ارتجفت يداه لشدة ما أحس به من السرور والغبطة . وإنه لكذلك إذا بجلبة بلغ صداها إلى أذنه فتسمع لها الاثنان، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أقبل نيمو مهرولا ليخبرها بوصول بنت أنات، ولم تمض لحظة بعد ذلك حتى لاحت راتوتى تتلوها ابنة رعمسيس.

أما بعاكر فرأى أن يركن إلى الفرار كيلا تجد نيفرت من الوقت مجالا للاستياء منه. وما اعتلى مركبته حتى سار بها متيامنا تارة ومتياسراً اخرى، كانه ثمل بنشوة الخمر. ولعله اعتقد أن نيفرت أصبحت بتأثير الماء السحرى ، وتدلهة في حبه فعقد النية على موافاتها بالذهب الكثير والخير الوفير. وفي منتصف الطريق ألوى عنان جياده نحر دار الوالى ليتلقى الأمر منه بالرحيل إلى الشام، ولسوف يعلم فيها أيهما سيحظى -- هو أم مينا – بنعمة الرعاية من الآلهة العظام.

الفصل الخامس والعشرون

مذكرات الأمراء ..ومحادثات العمال الأجراء

بينما كان قلب نيفرت يتحفز من هول ما شهدته ولسانها يعجز عن الترحيب ببنت أنات والإكرام، كانت هذه الأميرة تحدث راتوتى فيما اعتزمته من اتخاذ ابنتها وصيفة لها وأخذها إياها إلى قصرها لتقيم فيه معها على الدوام. وقد وضح لراتوتى من أقوال الأميرة وإشاراتها أنها لم تعد تميل إليها كما كانت قبل أن تبث لها نيفرت الشكوى منها. وخشيت أن يفضى هذا الجفاء إلى حرمانها الرعاية الملكية وساورتها من أجل ذلك الهموم والأحزان، وزادها هما على هم افتكارها في فراق ابنتها، فلم تتمالك من البكاء ثم جاوبت الأميرة: إنك يا مولاتي تريدينني على أن أنزع قلبي من بين جنبي، ولكن لاحيلة ولا حول إذ علينا الطاعة ولك الأمر والطول.

أومات بنت أنات بإيماءة الموافقة على هذا القول، واتخدت في أثنائها أوضاع الشمم والكبرياء، غير أن نيفرت ما كادت تقف على موضوع المحادثة حتى ألقت بنفسها في أحضان والدتها واسترسلت في البكاء على وجه هيّجت به بكاء بنت أنات، خصوصاً عندما تقدمت راتوتي نحوها وسلمت إليها نيفرت بعد أن قبلتها على جبينها قبلة الوداع، عندئذ صافحتها الأميرة وحيتها بأجمل تحية وظلت معها حتى فرغت من تسليم ما كان عندها لابنتها من الثياب وأدوات الزينة والتجمل إلى اتباعها. ولقد قالت نيفرت لوالدتها في أثناء ذلك: لا تنسى الصندوق الذي يحتوى الأزهار المجففة والأحجبة ودمي الآلهة، وسأحمل معي أيضاً الشجرة التي أهدانيها زوج خالتي. وكان الهر الأبيض في خلال هذه الحوادث واقفا عند قدميها يعبث بباقة الورد التي جاء بعاكر بها وكانت سقطت من مكانها. فلما أحست نيفرت

فتاة فى مقتبل العمر تناظر بقوامها اللدن أشجار الأثل مترنحة بخطرات النسيم. وكانت فى بادىء الأمر تبدو الحقائق لها متضاربة يغشاها اللبس والاشتباه، ثم وضحت لها محجة الطريق فسارت فيه بقدم ثابتة وجأش رابط إلى الغاية التى ترمى إليها. ولذا ناجت نفسها بقولها: نعم، لقد تحسنت الأحوال وابتسم لى ثغر الزمان وإنقادت الآمال، فلابدلى من العمل بلا خوف ولا إمهال.

ووصل في هذه الأثناء أرقاء الملك فتولت راتوتي توزيع ما طلبته نيفرت برسمهم عليهم وأمرت نيمو أن يدعو الوالى إلى مقابلتها في أمر ذي بال. فما مضى القزم قدما في سبيله حتى لاحت له طليعة ركاب أنى مقبلة على دار راتوتي، ولم تمض فترة قصيرة من النزمن حتى كان الاثنان يروحان ويغدوان في الحديقة. وقد أخذت راتوتي تفضى إليه بما تم من «خطف» ابنتها نيفرت، وما عقدت النية عليه من تنفيذ المشروعات التي ابتكرتها بما دبرته من الوسائل الناجحة. قال أنى: لاعجب فقد عرفنا عنك من شهامة الرجال وثبات الأبطال ما لم تتحل به امرأة سواك. وثقى بأن تحريضك إياى اليوم لن يذهب عبثا، فالكاهن الأعظم على أهبة العمل لأول إشارة منى وكذا بعاكر الذي بدأ منذ اليوم بحشد جنوده والتصرك بها بعد غد إلى الشام عقب انتضاء الأعياد. سألت راتوتي: وهل حضر إليك بعاكر؟ أجاب: نعم، حضر عقب خروجه من عندك، وكان خداه يتقدان ناراً ففهمت منه أنه لن يدع جهداً إلا بذله لإصابة غرضه وتحقيق أمنيته.

وفى غضون الحديث بلغ الاثنان إلى الظلة التى كان نيمو عاد إليها وتوارى خلف بعض الشجيرات ليرقب حركاتهما ويتسمع لحديثهما، وجلسا على مقربة من منضدة، وما استقر بهما المقام حتى سأل الوالى راتوتى إن كان نيمو كاشفها

باسرار الساحرة، فتصنعت الجهل بهذا الأمر وتمادت في إنكاره على وجه اضطره إلى سرد مسألة الماء السحري، فلم يرق لها هذا القول بل خرج بها إلى ما لا يليق بمثلها في حنانها و رفقها من الغيظ والغضب. فأخذ الوالي يهديء روعها ويلطف بها ذاهبا إلى أنه ريما كان الماء السحري الذي ورد ذكره على لسانه عديم التأثير. قالت راتوتي: وقفت الآن على سرما تناول ابنتي من التغير والانقلاب، إذ لابعد أن يكون بعاكر صب الماء السحري في كأس نبيذها، فلما جعلت تشرب منها تحولت كراهتها إياه إلى محبة ودنورها منه إلى ميل وأخذت تحدثه بما كان يحب سماعه من الفاظها العذبة وعباراتها الطلية، وكان لابد لمن هذا شأنها أن تعتقد أن عاشقها الذي كان ممقورتا منها ومن أبغض الناس إليها أصبح محبوبا وأهلا للكرامة. وهو ما يستفاد منه أن الماء السحري كان له من صادق الفعل والأشر مالم يخطر قط له ببال. سأل أني: وهل لشراب أن يأتي بمثل هذا التأثير..؟ المرجح عندي أن تأثيره أشد ما يكون ف الشيان. فإذا أصاب حدسي شاكلة الصواب فلست أفهم كيف تستفيد منه الساحرة تلك الأرباح الوافرة. إن الشباب وحده كفيل ببث العشق في القلوب. أه.. آه.. إلا ابت الشيباب يعود يبوما لأكون كيعباكر في فتباء السن وميعية الشباب.. لا تسخري مني 'لأسفي على مافات، فإنني شيخ جعلت تعلتي الأماني المستحيلة وأرجو منك أيتها الصديقة أن تفسري لي أمراً أشكل فهمه عليّ، وهو أنبي في عهد الشباب كنت من جمال الصورة بحيث كان النسوة يكبرن من شأني ويلهجن بذكرى ويتسابقن إلى التماس رضائي. وقد اتخذتهن آلة لتنفيذ مشيئتي وقضاء حاجتي ولم استثن منهن واحدة حتى زوجتي التي ليت نداء ربها وهي في مقتبل العمر. وهائذا اليوم أجاهد في سبيل الاقتران بآنسة لطيفة وخريدة عفيفة تكون من السن بالنسبة إلى كالابنة من والدها. ولقد اهتديت ف آخر الأمر إلى طلبي وبلغت والحمد للآلهة إلى غايتى إذ طلبت الاقتران بأنسة من نشاط الشباب وحدة الذكاء بما كنت أرجو معه الاعتماد عليها والركون إليها، ولكنها وا أسفاه لم تجبنى إلى طلبى دون أن أقف على سبب. وأغرب ما في الأمر أنى ما برحت منذ اتصل بى نبأ هذا الرفض – أشعر بقلق بالى واضطراب حالى، إلا أننى من الأمر قد عقدت النية على أن لا أقتدى ببعاكر في شراء المياه السحرية لأستميل بها من نأت بجابنها عنى وقاطعتنى وهجرتني.

سألت راتنوتى: لعلك فاوضت بنت أنات في الزواج، أجاب: نعم فعلت، وقد رفضت في وجهى وأخيلك لا تجهلين استيائي وحزني. سألت: ولأي سبب نبذتك .. الست لها كفئا؟ أجاب: لأي سبب نبذتني؟.. وهل بنت أنات بحاجة إلى تعليل أوامرها وهي على ما تعرفين من كرم المحتد ورفعة القدر والعيش في ظل (ما) إلهة الصدق التي ترمقها على الدوام بعين رعايتها.. ما أسوأ حظى وأجل مصابي! إنى ما قارنت بينها وبيني حتى تضاءلت في نظري جلائل أعمالي وتصاغرت أماني وأمالي. إن محن الحياة وتجاربها قد علمتني الخشوع والاستكانة بالرغم من سريان دم تحتمس في عروقي. إلا أنني مازلت أرى الهوان والذلة عذابا.. لم أقض من حياتي يوما كنت فيه قانعاً بحظى ولا مغتبطا بعملي، لأن المناصب التي توليتها كانت دونها قدرتي على الاضطلاع بها.. ترين من هذا أني مقر بعجزي وتجردي من حلية الكفايات، ولا يغرنك ابتسام ثغري فإني أتكلف السرور لا لقصد سوى إخفاء النار المستعرة في فؤادي. وقد أصبحت اليوم لذلك غيري بالأمس، إذ صار التصنع لى عادة مألوفة وطبيعة معروفة غيرت بهما معالم وجهي. ألم أكن مضطراً إلى خدمة نلك الذي ما بلغ إلى ذروة السيادة والعرز إلا من طريق أصلي الملكي.. إنني لابغضه وأكمن له من الحقد في قرارة نفسي مبالا تستطيع أن تستله منها قوة. رعمسيس

يدعوني بيا اخي ولست أدري أهو مسادق أن زعمه أم كاذب. رعمسيس الذي أخلفني على ملكه فعملت جهدي لهدمه ومحوه.. لقد أصبحت حياتي سلسلة صيغت حلقاتها من مادة الكذب والزور والبهتان، قالت راتوتي: سوف ينقلب هذا الكذب صدقا متى ارادت الآلهة أن يراك الناس على ما ينبغي أن تكون.. أي سيد هذه البلاد وولي امرها. فتبسم أنى وقال: من اتفاق الخواطر أن تمنى الكاهن الأعظم هذه الأمنية بما عبرت به الآن عنها من اللفظ ، لكن لاعجب فالكهان والنساء في انفاق الخواطر سواء.. وهل سلاح الفريقين إلا واحد وهو سهام الكلام لا حد الحسام؟.. قالت راتوتي: لا أدري ما إذا كان ما تقول مدحاً ام ذما. على أن قوة النساء والكهان لا يجهلها إنسان، وهما إذا تعاهدا على أمر وفيا بالعهد. قال أني ضاحكا: اصبت! فإنه لم تنحدر دموع من عين لسرور أو حزن إلا وكان المسبب لها كاهذا أو امرأة. ولست باراتوتي بهذا الكلام أطلب المزاح، فالمرأة هي السبب المحدث لتسعة أعشار ما ينزل بالناس من المصائب والمحن. أسوق على ذلك مثلا مسالتنا الحاضم ق.. ألست أنت سبب ما يتهيأ لها الآن من المقدمات والمقومات، ولسولاك لعدات عن مطمعي في عرش الملك منيذ ساعات بزواجي بتلك الفتياة العجية بنفسها. قالت واتوتي: تريد بكلامك هذا إقامة الدليل على أن المرأة اصلب عوداً وأشد مراساً وأمضى عزما من الرجال؟ إن يكن هذا ما تبغيه فهو الصواب الذي لا أعارضه ولا أنفيه، لأن المراة إن زوجت من أحد سميت ربة البيت والرجل إن قوس ظهره الهرم أو انقطع عن العمل لعاهة لزمته أو لمرض طال عهده لايحل الفتية محله في عمله والايدفعون الغوائل عنه في شيخوخته وعجزه، بل الفتيات يقمن بهذا الواجب المقدس. ونحن معشر النسوة مازال يعيبنا الشيء الكثير من النقص كضعف الجانب والنزق والشغف باستبطان كوامن الأسرار واستقراء اسباب الحوادث. لنذا اسالك عن عذر بنت إنات في

الامتناع عن قبولك بعالاً لها؟ أجاب آني: أنت من أحوالها على علم كفيل بكشف الغطاء عن الأسرار والموقوف على دفائن الحقائق. ومع هذا فلقد التقيت بها عقب عودتها من الهيكل الذي كان يطهرها فيه من الدنس نبيه الشيخ الخائر العزيمة، فإنها في ذلك اليدم أقبلت على تتهادى في مظاهر جمالها وعزتها وشممها فكان لذلك منها روعة شديدة في نفسى جعلتني استشعر بما تلاقي في ذاتها الشريفة السنية من مزاء االإمارة وصفات الملكية وأحسست قلبي يخفق كما لو كنت في العشرين من عمري. ولقد أخذت يومئذ تعرض على نظري أزهارها الـزاهية فحدثني وسواسي باني ما طمحت إلى الاقتران بها إلا لنيل مطمع وتحقيق مارب، ولكنها إذا لبِّت ندائي وحققت رجائي فلا مناص لي من إخلاصي الولاء لرعمسيس والدها كصديق بل أخ وأن أكون عونا له في السراء والضراء. وحسبي هذا باعثًا على انحيازي إلى جانبه وانضوائي تحت لوائه، أما إذا لم تجنبي إلى طلبي ولم تحقق أمنيتي برضائها عني بعلا لها، فلا مندوحة لي من إثارة حرب استرد بها حقوقي المغصوبة وامتبازاتي المنهوبة. ولقد رأيت في وم لقائي بها أن الفرصة مواتية، فكاشفتها بدخيلة نفسي، فما كان منها إلا أن قاطعتني بقولها: أنت في عشيرتك نجمهم الثاقب وبدرهم الطالع، ومن الشرف وعظيم الخطر ف أرفع منزلة، وأنت أنت الكفء للقتران بي ولكن.. فانتدر تها بالسوال عن سر هذا الاستدراك، فقالت : لا تسل ، ورجت مني الاقتصار على العلم بأن طلبي منها مرفوض قطعاً. فاستعطفتها كثيراً وابتهات إليها طويلا فقالت: لا تطل الحديث فيما لايجدي فإنني أحب غيرك. سألتها عن اسم من تحب، فأمسكت عن الجواب. وكنت آنئذ أحس بخفقان شديد في قلبي واضطراب في جسمي مصدرهما بلا شك الحب الذي استعبد نفسي واستأثر بلبي. قالت راتوتي: أراك غيوراً با آني، ولكن أتدرى على من؟ أجاب: كلا ، ولهذا أحب أن تطلعيني على

الحقيقة، وثقى بأنى إن دخلت قصر بنت أنات حائرا متردداً غير مستقر على أمر، فقد خرجت منه والحزم رائدي والعزيمة فيما أنا ماض فيه قائدي، ولا شك في أن الآلهة ستعاونني على بلوغ المراد. ولقد قابلت ف عودتي إلى بيتي الكاهن الأعظم أميني والموهار فتعهد أحدهما بتنفيذ تدابيرنا في مصر والثاني في ديار الشام. وإذا كان الغد دخلت جيوشي العائدة من الحبشة مدينة طيبة بمظاهر الانتصار وأعددت لاستقبالها من الحفلات وأقمت من الأعياد مالم يسبق له نظير في الأبهة والجلال.. وستشرك تلك الجنود غدا في الاحتفال بأعياد الوادى فترفع من شأنها وتبدى من حسنها ماياخذ بالألباب ويقضى بالعجب العجاب. ومتى انتهت تلك الأعياد وانشرحت بها حمدور العباد انفذتها إلى الشمال لاحتلال حصون مدائن (تانيس) و(دفنه) و (بيالوز) و(مجدول). ولايغيب عنك أن رعمسيس قد أثار في صدور الكهان كوامن الأضغان، إذ نظم في سلك جيشه من اعتادوا من الأهلين موافاتهم بالنذور والقرابين. فإذا أرسلت إليه بنصف الجيش وحجزت هنا الآخر ألقيت بينه وبينهم بذور الأضغان والحزازات فجنيت من ذلك تحقيق الأماني.. وقد اعتزمت تسفير حامية منفيس- وهي على ما تعلمين من المظاهرة بالعداء لى- إلى بلاد النوبة لأتقى شرها وآمن خطرها. ولما كان سكان طيبة راضخين لأوامر الكهان عاملين دائماً بما يرسمونه لهم من الخطط فسيغتنم الكاهن الأعظم فرصة اجتماعهم في الغد للمقارنة بين الأسرة الملكية التي انتزعت من يدها أزمة الأحكام وبين الأسرة المالكة الآن. ولا يبرح عن بالك أنه طرد من الهيكل الأمير راميري ابن رعمسيس. وهو لن يأذن لبنت أنات في شهود ما سيقام في الغد من الحفلات ، وبهذه المعاملة التي تحط من مقام الأسرة المالكة تثور خواطر الأهلين وتنفض القلوب من حول هذه الاسرة. ولنا في موت بعض الحيوانات المقدسة أخيراً خير معين على قضاء مآربنا، اذ

ما برحت النفوس تحت تأثير الأسف والحزن لهذا الحادث المكدر، ومعناه أنها قابلة للانفعال بغيره من المؤثرات. ولا تنسى أن رعمسيس لن يستطيع الاخناء على أمة الريتاس لتذمر جيشه من استطالة الحرب، وها قد كاد التذمر يتحول إلى تمرد ومروق عن الطاعة، فإن نجح في سعيه تحققت الأمال بلا معاناة قتال. ولكن لا مندوحة لنا في ذك من الإسراع بالجزم والثبات على العزم.

قالت: لم أعد أراك الأن على ما ألفيته فيك من البطء والتوان.

قال: إنسى إذا طلبت السرعة فما هو إلا لأنسى لا أرى من الحكمة إعمال الروية ف مثل ما نحن فيه.

قالت: وماذا تفعل لو درى الملك بما تدبره له من الدسائس؟

قال: هذا ما لا أحب النظر والروية فيه، خلافاً لعادتى. قالت: لا يسعنى إلا موافقت على المبادرة والعجلة، ولكن لا مناص من إتخاذ الحيطة التي من أهم وسائلها الاستيثاق من وصول رسائلك إلى معسكر الملك في الاسابيع السابقة على اليوم المضروب لإنفاذ مشروعنا.

قال: ها قد وافق خاطرك لثانى مرة خاطر الكاهن، وهو ما يدل على سداد رأيى وصواب حكمى، فلقد أوصائى أمينى بما توصيننى أنت به الآن، لأنه ما من كتاب يُرسك من خط الحصون المتد بين (بيلوز) والبحر الأحمر إلا ويصادر بأمر الملك رعمسيس، وحيث كان الأمر كذلك فإنه لا يصل إلى فرعون من رسائلى سوى التقارير التى تتضمن الشكوى من تعديات أهل الصحراء وسلبهم القوافل ومهاجمتهم حملة البريد والعساكر المنوطين بحراستهم.

قالت: إذا كان الأمر كما تقول، فماذا يمنعك من مراقبة مواني احر لاحمر

وملاحظة حركات الكتاب ومحررى الرسائل، حتى إذا جلست على تخت الملك ميزت بين أوليائك وأعدائك؟.

قال: إن الحيطة التي تحضينني على اتخاذها تحرج موقفي، ولذا كان الأولى ألا أكلف نفسى استقراء أحرال من يخدمون أميرهم بالأمانة المطلوبة منهم.. ألا ترين أنه من المتعدر 'لتماس المنفعة ممن لم يستحوذ على تمام الثقة أو استعباد من على شاكلته؟.. لا تخجلك يا صديقتي هذه الملاحظة فإنا قد ربطتنا بيعضنا آصرة القرابة ورابطة المصلحة. وإذا كشفت لك عن ضميري فليس في ذلك ما يبعث على العجب.

قالت: أصبت ولست أطلب من الجزاء لنفسى ما يعدو أن تسترد أسرتنا الكريمة حقوقها الشرعية الموروثة وأن تجلس على عرش الملك من جديد.

قال آنى: لعلنا نوفق للنجاح فى مشروعنا، ولكن نجاحنا تعوزه السرعة مقرونة بالثبات وإلا.. أعينينى ببصرك واسعفينى بتأييد نيفرت ابنتك على معرفة هوية عاشق بنت أنات. فارتعدت فرائص راتوتى لسماع هذا الكلام لأنها لم تأنس من آنى مجاوزة الحد فى الجرأة، ولكنها تعملت السكون وأخذت تسرد أسماء أشراف شبان طيبة. وقالت: أفلا يكون حبيبها أخاها (ساموس)؟.. ولكنه بالمعسكر الأن..

ما بلغت هذا الكلمات إلى أذن نيمو وهو قابع في مخبأه حتى برز منه مقبلاً على راتوتى وأقبل ببدو عليه من السكينة والاطمئنان ما يوقع في وهم الناظر أنه أت من الخارج وأنه يجهل ما دار من الحديث بينهما. ثم قال بعد السلام: أتأذنين لى بالكلام يا سيدتى؟ إن عندى من الأخبار ما يقضى بالعجب. قالت: هات ما عندك. قال نيمو: داع على السنة العامة أن الأميرة بنت أنات شغفت حباً بشاب من كهنة بيت سيتى. فما كاد نيمو يتم كلامه حتى تحركت في أنى عوامل الغضب وقال: إنك لدنىء

وقح!.. وهل عندك من الدليل ما تعزز به دعواك؟ ان يكن عندك فاذكره وإلا سللت لسانك من قفاك. قال نيمو: لسانى ملك يمينك فافعل به ما بدا لك، بل قطعه إرباً إذا لم يتأكد لك قولى.. بهذا تقضى القوانين والخضوع لها فرض واجب.. اتصل بك من غير شك ما قرر، الكهان من تلوث بنت أنات بالدنس للخولها بيت المحنط.. ف هذا البيت دارت المحادثة الأولى بينها وذلك الكاهن. أما الثانية فكانت في هيكل حاتاسو حيث فاجأهما سبتاح رئيس المنجمين.

لزم آنى الصمت عامداً ثم سأل: ومن هو ذلك الكاهن؟

أجاب نيمو: فقير لا حسب له ولا نسب، وقد نظم في سلك طلبة بيت سيتى رحمة به فحذق العلوم واشتهر بالنبوغ والتفوق فيها، ولا سيما في تأويل الأحلام وقرض الشعر، أما اسمه فبنطاؤر. وهو شاب جميل الطلعة تلوح عليه علامات الشرف والرفعة. ويقول الكثيرون إنه بوالد بعاكر أشبه من هذا به، أفنظرته؟

أجاب الوالى وقد أحفظه هذا القول وغاظه: نعم.

قالت راتوتى: إن ما رواه نيمو هو الصحيح، فقد رأيت بنت أنات قد علا وجهها الاحمرار إذ حادثها شقيقها راميرى في أمر احتوى ذكر الشاعر بنطاؤر، فلا ريب أنها كانت تفكر فيه.

قال آنى: لسوف يبرح الخفاء وتحل المعضلات. ثم خرج مهرولا.

ما اختفى آنى عن الأنظار حتى خاطبت راتوتى نفسها بصوت جهير: لقد نهض الدليل اليوم على مضاء عزيمته وشدة عارضته ولكن صبراً، فلن تمضي أيام معددوة حتى الدب عقارب الغيرة إلى فؤاده فيضطرب باله ويلجأ إلى ويعول ف أموره على.

أما نيمو فقد انطلق راكضاً في أثر الوالي فأدركه بالقرب من أشجار التين وأطرق رأسه احتراما وبادر مسلما تكريما وإعظاماً، ثم قال بصوت خافت: أيهذا الأمير الماجد.. إن لوالدتي دراية تامة بأسرار ذات بال ليس لها بما كاشفتك ب أي اتصال، وإذا كان اللقلق(١) المقدس لايعوقه مانع عن خوض المستنقعات الراكدة لالتماس الحشرات المائية يتغذى بها كما لا يعترض الرجل الشريف ما يحول دون التقاطه الذهب الملقي في القمامة، أفلا تود أن تتنزل لسؤال العجوز عن تلك الأسرار دون أن تراها ولا تراك؟

قال آنى: قل ما فى نفسك وأوجز.

قال نيمو: أدخل العجوز السجن، فإن أفادتك فائدة فيها خيرك ومصلحتك فأجزها بعض المال واطلق سراحها، وإن لم تفعل فأوجعها ضربا حتى تكاشفك به لأنه سر غريب في بابه. فاعتلى آنى مركبته وقال لنيمو بعد إذ ألقى عليه بضع حلقات من الذهب: لسوف أنظر في هذا الأمر.

وكان الناس, يتواردون زرافات وشتى فى الطرقات المؤدية إلى قصر الوالى حتى غصت بجموعهم. فلما رأى آنى ما هم فيه من هرج ومرج واختلاط واختباط ظن أنهم هبوا للثورة فسار بالمركبة سيراً وثيدا وأنفذ بعض الحراس ليوافوه بالخبر وينحوا الناس عن طريقه. فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى عادوا وأخبروه أن لا اضطراب ولا ثورة ولا أخبار تثير الحزن، إنما هى مظاهر سرور أقامها الأهلون بمناسبة ما سارت به البشائر من ظهور معجزة بيت سيتى، وهى انتقال

⁽١) يسمى باللاتينية (أيبس ريليجيوزا)، وقد اختفى هذا الطير من مصر وكان منه بها نوعان كانا يقدمان قربانا للإله توت. وقال بلو تارك إنه بالنظر لفائدة هذا الطير في إبادة الحشرات المضرة أقام المصريون الهياكل لعبادته.

قلب آمون الذي مزقه الذئب الخاطف إلى صدر النبى رونى الذي ختم أنفاسه في الدوم السالف.

ما استقر هذا الكلام في أذن أنى حتى هبط من المركبة وجثا على ركبتيه بينما كانت الجماهير يصفقون ببعض أيديهم على الأيدى الأخرى استحساناً لفعله ويقتدون به، وبسط نحو السماء يديه ليحمد الإله ويثنى عليه، ثم وقف بعد ذلك وانصرف متجها صوب القصر الذى خرج منه في هذه الآونة برهط من العبيد يحملون خبزا على صفحات كبيرة وأخذوا يوزعونه على الأهلين الذين لهجت السنتهم بالثناء على الوالى وتحدثوا بكرمه وسخائه.

فقال نجار من طيبة لواقف بجواره: حقاً إن والينا رجل كريم . فقد أجزل لنا العطاء من الخبز الطرىء والطعام الناعم.

وكان طفل عارى الجسد من المتشردين قد سمع هذا الكلام فوثب على رغيف الخبز الذى كان صاحبنا يطيل فيه التأمل إعجاباً بطراته وصفاء مادته، فخطفه وراغ بين الناس روغان الثعلب، ثم ظهر فقال: اعطنى منه كسرة صغيرة وأنا أرده إليك. أجاب النجار: أه يا ابن التمساح ويا سلالة البله والحمقى.. إن وقاحة الأطفال من أمثالك قد أخذت بالزيادة في هذه الأيام.

قالت امرأة شهدت الحادث: دعه يا ولدى، فالأطفال قد عضهم الجوع بنابه لبقاء آبائهم بميدان الحرب، ومن أين للأمهات القدرة على إعالتهم وهم لا غذاء لهم ولا قوام لحياتهم غير نخاع شجر البردى وبذور النيلوفر الأزرق؟

قال النجار ضاحكاً: ولم لا يداومون على التغذى بها؟ انظرى لترى الصحاف

قال صانع أحذية: لابد أنه قد بات قرير العين مبتهج الفؤاد سروراً بنبأ المعجزة، لانتى رأيته يجود بالعطايا الكثيرة على وجه لم نألف من قبل. والمحقق أن هذا السخاء كلفه ما إلى طائلا.

قال خباز: لم نسمع بهذا ولم نره منذ زمان، ولعل الباعث عليه الابتهاج بما كان من اختيار قلب آمون لجثة النبى رونى مستقراً له، وكان رونى نبياً لهيكل حاتاسو وحاتاسو جدة الوالى آنى. قال النجار: نعم وقد فهمت الآن أن الكهان أنصار للأسرة الملكية القديمة.

قال صانع الأحذية: هذا لا يحتاج إلى دليل .. واعتقادى أن الأحوال في العهد السالف كانت خيراً منها الآن، لأن الحرب غيرت معالم كل شيء حتى أصبح أشراف الناس وأتقياؤهم يسيرون حفاة لأنهم لايملكون ثمن حذاء. أما أسلاب الحرب وغنائمها فهل رأينا منها الشيء الكثير؟ إن رعمسيس ابن رع من أبطال الحروب، إلا أنه لايبرم أدرا ولا ينقضه إلا إذا استشار الآلهة. وقد وضح لى الآن أنهم يكرهون طيبة لأن قلب الحمل المقدس تخطى النيل وحل صدر كاهن من أنصار الأسرة الملكية الساد...

فقاطعه خواص كان حاضراً: حذاريك! فقد حضر أحد الحراس. قال الخباز: استودعكم الله أيها الإخوان فإنى عائد إلى مخبزى لتهيئة الخبز، وليس بعازب عليكم ما سأعانيه من جراء الاحتفال منذ الغد بأعياد الوادى.

فتنة س الحدّاء الصعداء وقال: إنى راحل لممارسة حرفتى وأسأل هل منكم من يطيق السير بالا حذاء في طرقات مدينة الموتى، وكيف بغيره يقتفى أشر إله الآلهة ورب الأرباب؟

قال الخواص، يبدو لى أنك كثير الربح.

اجاب الحذاء: هو كذلك كلما اتقن صناعنا عملهم وعجلوا به.. وإنى لاسف لوجود المتقنين منهم بميدان القتال ولبقاء الاغبياء العاجزين عن أداء واجباتهم. أما النساء فقد طمحت زوجتى إلى اقتناء ثوب جديد للعيد وعقود تحل بها أعناق الأطفال وسيعرزنا الإنفاق على القرابين نقدمها للموتى لنستحق عنايتهم إلى غير ذلك مما يربو كثيراً على ما أربحه.

قال الخباز: لما توفيت زوجتى أخذت على نفسى موثقاً بتقديم قربان صغير كلما طلع هلال ، وقربان كبير على رأس كل عام، ولكنى لم أحسب حساباً للمستقبل ولم أنظر إذا كنت أستطيع الوفاء بهذا النذر، فلما رأيتنى عاجزاً عن الوفاء به والتمست من الكهان إعفائي منه لم يحققوا رجائي فما برحت متقلبا في عنائي. وزاد الطين بلة أن زوجتي الشقية مازالت وهي في عداد الموتى تجصد فضلي كما كانت تفعل وهي على قيد الحياة. فإني كلما رأيتها فيما يرى النائم ألفيتها عابسة الوجه تريد بي السوء وتنحى على باللوم.

قالت اسراة الخواص: لعلها في الآخرة أبعد نظراً في العواقب منها في الأولى، أو لعلها عرفت من سابق معاملتك إياها أنك لم تكن لها وفياً صادقاً، ولا عجب فأرواح السعداء والأبرار تحيط بشؤون الحياة الدنيا.

قال صانع الاحدية: أقسم بانوبيس صاحب السماء السفل لئن خبرت لأطلبن الموت لنفسى قبل أن تموت زوجتى العجوز التي أوليها الحب والاحترام، لانها إذا انتقلت إلى الآخرة قبلي وروت على مسامع أهلها كل ما أتيته في الدنيا ثم تقمصت بشكل مما أميل إليه فستوافينني كل ليلة لتذيقني كأس العذاب وتلقى على من

الأثقال مالا طاقة لى بحمله، فلا يكون من الموت بدّ. قالت المرأة: وإذا قُبضت روحك قبلها، أفتظن أنها تربأ بنفسها عن اقتفاء أثرك لتعلم ما ينتهى إليه أمرك؟

فتبسم الحدّاء وقال: إن يكن الأمر كما ذكرت فلا بأس من النظر وقتئذ في أحوالها الماضية. وإنى على ثقة بأن فيها ما يذممها إلى ، إلا أننى أخشي— إذا أنا فاتحتها في الأمر فحنقت ثم حلمت على بحدائها تريد أن تهوى به على رأسى أن أقابل هذا الاعتداء بمثله.

مأخدت امرأة الخواص بيد قرينها وقالت: هلم بنا إلى المنزل، إذ لا شيء هنا يفيدك سماعه. فضحك الحاضرون جميعاً لكلامها.

وقال الخباز: لقد حانت ساعة الارتحال فإنى أود الوصول إلى المقابر قبل أن يولى النهار لأعد مكانا للبيع في عيد الغد. وقد تركت بضاعتى في مدخل الوادى ولابد لى من نقلها. وأرجو منك أن تبعث لى بأولادك لأتحفهم بالحلويات والفطائر. فهل لك في مرافقتى إلى ذلك المكان؟ قال الخواص: إن أصغر أخوتى هناك يحرس البضاعة. وأرى أن أبادر بالانصراف لأعد المعدات التى ألفت بها نظر المشترين والمشتريات. ولكن أنى النية أن يعرضوا في الغد قلب الكبش الذي تواطأت به أحاديث الناس؟.

أجاب الخباز: لا خلاف ف ذلك ولا التناس.

وردة مصر

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء في ماضى الحقب إلى ثلاثة آلاف سنة وخمسائة، فيحس إذ يتلهما كأنه يحيا بحياة المرين في عصر رعمسيس الشانى، وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب، ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية، ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنوتية ويلم بالأسباب التي علت بهم فوق شعوب الأرض طرا في زمنهم

أبرزها من الآثار القديمة وأوراق البردى الدكتور ايبرس الألماني

ونقلها إلى العربية بترجمة جديدة محمد مسعود الجسزء الثساني

مَكَتَّبَةُ مَكَانُولِي السَّامِيةِ مَالُولِي السَّامِيةِ السَّامِيةِ السَّامِيةِ السَّامِيةِ السَّ

الجـزء الثـانى من روايـة وردة مصر الفـصــل الأول

«مکائید و مصائید»

كانت المدينة في هرج واضطراب والأهلون في ذهاب وإياب ينصبون منها إلى المرفأ فينزلون في الزوارق ويشقون بها سطح الماء، قاصدين إلى الضفة الأخرى حيث المنظر أجدر بالاعتبار وأحرى، وكان الباعة وأعيان التجار بمدينة الأموات يتنافسون في نصب السرادةات وتزيينها من الزينات، بما يلفت النظر ويحير الفكر. ذلك لأنه كانت ستقام في الغد شعائر الاحتفال وتخصص الزوارق لنقل المتفرجين من رجال ونساء وأطفال. وكان الهرج داخل بيت سيتى مثله خارج الباب، ولئن تكن معجزة قلب آمون قد انصرفت نحوها العيون، وصرفت الهمم عن إعداد معدات الاحتفال بعيد الوادى، إلا أن الكهان والطلاب أتموا بالليل ما أغفلوه من هذا الباب، فكنت ترى فريقاً يتمرنون على إنشاد الأغاني الدينية و آخرين يمثلون فوق البحيرة المقدسة رواية هيراطيقية (١) وجماعة غيرهم يُفرغون على تماثيل الآلهة الحل

⁽١) كان فى كل هيكل لقدماء المصريين بحيرة مقدسة. وذكر هيرودت فى الجزء الثانى من تاريخه ماراً ه فى بلدة (صا) من تمثيل الكهان للروايات ليلا بالقرب من بحيرة (بيت) المقدسة وقال إنهم كانوا يسمون الروايات بالاسرار الواجب كتمانها

والحال (١) وطائفة يدهنون بالألوان الرموز المقدسة التى تقادم عليها الزمان، ثم يعرّضون للهواء جلود الفهود وثياب الكهان، ويخرجون من الخزانات المهام والمحاجن والشارات والرموز وزورق الاحتفالات المقدس والمشاعل والآلات الموسيقية وينسقون كل هذا في المواضع اللائقة به (٢).

وكان الأطفال يضفرون الأغصان لتزيين الجدران، ويرصعون بالزهر الأكاليل لتتحلى بها التماثيل، ويرفعون الرايات إلى أعلا الأدقال والساريات، ويفرشون الأرض بالبسط الفاخرة وينثرون فوقها الأزهار الزاهرة. وكان مفتش القرابين وبعض الكتّاب يحصون في السجلات ما قدمه أهالي طيبة والأقاليم (٢) لهيكل سيتي من الهدايا والهبات، من حبوب وماشية وما إليهما مما لا حصر لعدده. أما أميني فكان يشرف على هذه الحركة مراقباً ومرشداً ولم يهمل شيئاً، فكان تارة يُرى بين المنشدين ورجال المعجزات الذين يبهتون الناس بغريب الأعمال، وطورا بين المنوط بهم تدبير الأماكن لجلوس والى مدينة طيبة وأنبيائها ووفود الأمة المصرية الآتين من قاصى أنحائها. ولم يغفل على الجملة شيئا حتى مصابيح الزينة ومجامر العطر

⁽۱) يدل على أن قدماء المصريين كانوا يكسون التماثيل بالحلل الفاخرة ويزينونها بالحلى النفيسة ما وجد على بعض هذه التماثيل من المسامير التي كانوا يثبتون الحلل بها عليها ، وكانوا يكسونها بها ثم يجردونها منها بطقوس واحتفالات خاصة موضحة في قانون الاحتفالات الدينية. وتحتوي نقوش هيكل آبيدوس (المرابة المدفونة) التي نشر مارييت باشا ترجمتها معلومات كثيرة تتعلق بتلك الاحتفالات لكل منها معنى رمزي خاص به.

⁽٢) يؤخذ من السرسوم والنقرش البارزة المحقوظة إلى الآن في بيت سيتى (هيكل القرنة) أن هذا الزورق المقدس كان يسميه قدماء المصريين بسفينة سام.

⁽٣) تدل النقوش التي بالجانب الشرقي من هيكل القسونة على أن الوقود كانوا يأتون من أقاليم الوجه البحري إلى طيبة لشهود الاحتفال بعيد الوادي.

الموضوعة فى كل مكان لتعطير أرجاء الهيكل . وإذ تسأكد من حسن النظام واستقامة الأمور استدعى إليه في الحال الشاعر بنطاؤر.

وكان هذا الشاعر اللبيب قصد غرفة نبسشت الطبيب بعد أن ودع الأمير راميرى على أثر طرده من الهيكل، فألفاه بها في قلق وانزعاج لم يسبق له مثلهما، لأنه كان لا يكف عن السير فيها حائراً من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، يتأمل في قنيناته تارة وطورا في أقفاصه، وينحى بقدمه أنية بعض حزم النباتات الجافة ويضرب المناضد أحياناً بكفيه ضربا مسرفا. فلما شهد بنطاؤر ذلك أنشأ يقص عليه ما رأه في غرفته من الفساد والاختلال، إذ ألفى الطيور المحبوسة في الأقفاص ميتة والقرد قد التمس لنفسه مخرجاً من محبسه والأفاعي والحشرات الأخرى التي جعلها موضوع أبحاثه العلمية قد ذهبت بددا. ثم شرح حادثة القرد فقال:

ما أخبث هذا الحيوان! قلب الآنية التى تحتوى الجعلان وصندوق الدقيق المعد لغذاء الطيور، وألقى من النافذة ما وجده من المدى والمجسات والإبر والأقلام والبركارات. ولما دخلت الغرفة أتعرف أين رأيته ...؟ رأيته بأعلى هذه الخزانة، وقد استحال لونه إلى أبيض ناصع، لأنه تمرغ في الدقيق فصار كعبد الطاحون. وأمر من هذا وأدهى أننى وجدت في يده كراسة كنت أدون فيها مشاهداتى، وملاحظاتى واستكشافاتى في تركيب أعضاء الحيوانات ووصفها. وهى خلاصة أبحاثى في بضع سنوات. وقد حاولت أن أقبض عليه، وكان يقلد حركاتى في تلاوته تلك الكراسة، فما كان منه إلا أن اندفع بوثبة شديدة خارج النافذة ووقف بحافة البئر وأخذ يمزق ورق الكراسة ويلقى به فيها، فاشتد غيظى وطار عقل فوثبت خلفه من النافذة للقبض عليه، فما كان منه إلا أن استقر في إحدى دلوى البئر وأخذ يهوى بها النافذة للقبض عليه، فما كان منه إلا أن استقر في إحدى دلوى البئر وأخذ يهوى بها

الى القاع فجذبت الحبل لأرفعه فيها إلى ظاهر الأرض، ولكنه وثب منها وهوى إلى القاع، وفي يده بقية الكراسة المكتوبة بخطى.. قال بنطاؤر: إذن مات غرقا ذلك الحيوان المسكين؟ قال نبشت: كلا ، لأننى رفعت الدلو ثانياً إلى وهو فيها وعرضته لأشعة الشمس، فلما جف أكل بعض العقاقير والادوية فمات ظهر هذا النهار، وماتت معه الحقائق العلمية التي قيدت في كراستي أوابدها. نعم، إن جملة من تلك الأبحاث والملاحظات ما برحت عندي، ولكني أرى أنه لا غني لى عن تكرار التجارب والابحاث التي سبق لى القيام بها، وإنك لتستخرج من هذه الحادثة أن القرود كالرجال يعارضونني فيما أقوم به من الأعمال.

طابت نفس بنطاؤر إلى سماع هذه النادرة اللطيفة، إلا أنه شاطر صديقه الحزن على فقدان الكراسة الفريدة في بابها، ثم جال بضميره خاطر جعله يقول: إذا كانت جثة الحيوان لا تزال موجودة فلم لا تضعها في مصلى توت بالقرب من خزانة الكتب؟ ألا تدرى أنه من القرود المقدسة التي يشبه رأسها رأس الكلب؟.. ثم إن أمين خزانة الكتب ما أودعك القرد إلا لتعالج له عينيه، فهل ذهب عليك أنه سيطالبك به(١)؟ قال نبسشت: أما العلاج فقد تم وشفى القرد. قال بنطاؤر: أين جثته.. ألا تدرى أنه ربما طالبك بها؟ قال نبسشت، وكان في كلامه كالطفل الذي يحاسب على تفاحة أكلها: أو ترى أنه يطالبني بها..؟ قاطعه بنطاؤر: يلوح لي وهو الأرجح أنك شرحت الجثة. قال نبسشت: نعم شرحتها وقطعت القلب للبحث فيه. قال بنطاؤر: أنت في جرأتك على فحص القلوب كالمرأة التي تغزو قلوب الرجال.. أو تستطيع أن تخبرني بما أل إليه قلب الرجل الذي أعطاكه الشيخ بينم؟ فروى نبسشت كل ما

⁽١) كانت القرود توهب للإله توت، وقد وجدت في موميارات طيبة (وهرموبوليس) صور هزلية تمثلها وهي مشتغلة بالقراءة وعلى جدار هيكل إيزيس (أنس الوجود) صورة منها.

حصل ولم يكتم شيئاً ، إذ ذكر ما كان من مجازفة الرجل بنفسه واعتراف بأن البحث الدقيق فيه لم يوصله إلى حقيقة علمية جديدة ثم قال: ولعله قلب حيوان لا إنسان. على أنه لابد لى من درسه وقحصه من إحدى نواحى العلم الأخرى، ومقارنته بغيره من القلوب. واعلم يا صديقى أنى انتويت مغادرة هذا الكان للدخول في طائفة المشرحين. وليس في قدرة مخلوق أن يرهقني بالعدول عن هذه النية، مع ما فيها من بواعث السقوط إلى الدرك الأسفل من الاجتماع الانساني. قال بنطاؤر: لاشك عندى ف أنك تهذى ولا تقول حقا. قال نبسشت: لك أن تعتقد ما تريد وليس في اعتقادك ما يرجع بي عن تنفيذ ما اعترمته. قال بنطاؤر: إن في شغفك بتشريح القلوب وشق الجثث ما تشمئز منه النفس وينبذه النوق ولا يقره الطبع. وحيث إنك لم تستفد شيئًا جديدًا من بحثك في القلب كما تقول، فلمَ تكلف نفسك عملا لا خير فيه؟ قال نبسشت: ليست نتيجة بحثى - حسناً وقبحاً خسارة أو ربحًا- مما يهمني شأنه. لأنى لا أقصد بأبحاثي وتحقيقاتي إلا الحقيقة المجردة وما يمكن أن ترمى إليه من فائدة للنوع الانساني. قال بنطاؤر: من قولك هذا يؤخذ أنه لا يعصمك من العبث بالأمن والإضرار بالناس عاصم من ضميرك، ما دمت معتقدا أنك بالطموح إلى استبطان خفيات الأسرار ترضى شهوات نفسك. بل بلغ من أمرك أنك – مع إضرارك بالناس عامدا- تلحق الضرر بذاتك، فتطلق مهنتك الشريفة لتمارس عملا ليس من ورائه إلا السفال والهوان مضحيا في ذلك بما نسميه نحن الحقيقة والضياء والطهر. هش نبسشت لسماع هذه الكلمات بينما كانت تبدو على بنطاؤر علامات الغيظ والغضب، إذ أصفرٌ وجهه ووشجت عروق جبهته أنفة وكبرًا، وقال للطيب بلهجة حادة: أيها الغافل المغرور.. أخطر ببالك أنك ترى بعينيك وتلمس بيديك تلك الحقيقة الخفية، بل السر المكنون الذي عزّ مرامه منذ الأجيال على

فحول السرجال؟.. ألا تسدرى أنك بإصرارك على الفحص في الثسرى - كما يفعل المعتوهون - تهبط بنفسك إلى درك الأغبياء والبلداء؟. أما كان خليقاً بك أن توسع نطاق معلوماتك بدلا من أن تحصرها في أضيق الدوائر.. حذاريك وأنت تجرى وراء الحقيقة الوهمية - التي لاح لعينيك بريقها فغرك سناؤها - أن تزل قدمك في مزالق الخطأ والغرور، فتتعذر عليك الإقالة وتصير إلى أسوأ حالة..

قال نبسشت: ما الخبريا صديقي.. أرأيت لو أنني ملكت الحقيقة من ناصيتها أكنت أكلف نفسى مؤونة البحث عنها وتتبع آثارها..؟ إنني كلما أمعنت ف البحث وأدمنت المراقبة أحست نفسى ضرورة التوسع في العلوم. قال بنطاؤر: لست كما تعلم من تخدعه ظواهر تواضعك وحلمك، لأني عالم بماهية الغرض الذي ترمي إليه بوضعك من خطورة الأبحاث التي تفرغت لها وتوفرت عليها. أنت لا تسلم بوجود شيء ولا تقر بحقيقته مالم تلمسه يداك وتنظره عيناك. رسخ هذا الاعتقاد في نفسك فلم تجعل لاعتقاد غيره سبيلا إليها، وملك عليك إرادتك فأصبحت منه كمن يرضي البقاء ما عاش في سجن جدرانه المشاعر الخمس، ولكأني بك قد غفلت عن حقيقة من أمهات الحقائق وهي أن من وراء المادة الواقعة تحت هذه المدارك ما يسمونه «ما بعد الطبيعة». قال نبسشت: ولكن هاأنذا أراك لا تحيط علما بشيء منه. قال بنطاؤر: أوَّ تجهلني وتجهل نفسك ونحن من المطلعين على الأسرار الكهنوتية؟ .. انه منذ صنع قائم الذات ومفيض الخيرات هذا الوجود بباهر حكمته أدرك الإنسان طبيعة المادة التي تجحد عليٌّ وعلى نفسك العلم بسر تدبيرها وقوتها المحدثة. ولست فيما أسوقه اليك من أسرار ما بعد الطبيعة مبتدعا ولا مخترعاً ، بل ناقلا ومعلناً على الملأ نتيجة بحث الأمم الغابرة، وهي ثمرة جهودهم التي توارثتها الأعقباب على مر المدهور والأحقاب.. حقا إن علومنا ما برحت ضيقة الدائرة ولكن ألم يظهر في الشعوب أنبياء

صفت طيائعهم وسمت أحوالهم وولهت أذهانهم فاطلعوا على صحيفة المستقبل وأحاطوا بأسرارها من غير قياس على الحاضر الشاهد أو الماضي المعروف؟ ألم يبرز من بين الهمل وأفناء الناس من أتوا بمعجزات أدهشت العالم وامتدت نصوهم بسبيها الأعناق؟ كل هذه المعجزات وما أشرنا إليه من الأنباء بمستقبل الحادثات مخالفة في ذاتها للنواميس الطبيعية، إلا أن خروجها عن طور النظام المألوف لا يستدعى إنكار وجودها. وليس أقبح في نظرى ممن ينكر وجود مالا يقع تحت المساعر والإدراك.. إن روح الألوهية منبثة فينا انبثاثها ف الوجود، فاذا اعتبر الإنسان من ناحية الجثمان فقط فلا يكون كفؤا لإحراز قصب السبق ف العلوم العالية، أما إذا انفك من قيود الجثمان وحوَّم في مسابح المرئيات الإلهية وتسامى عن أوطان الحدثان لسماع صوت الوحدانية فقد تجاوز الشأو وبلغ من المدى غايته القصوى. واعلم أن الأنبياء وأصحاب المعجزات لم يسطم عليهم سوى شعاع واحد من ذلك الضياء الأقدس، بل قطرة واحدة من عميق بحار العلوم اللدنية والقوة السرمدية التي لا حدلها ولا نهاية.. قال نيسشت: خلنا من هذا الكلام ودعنا من الأنبياء والمعجزات. قال بنطاؤر: كنت بادىء ذي بدء أعتقد أن نواميس الطبيعة التي أخذت نفسك بالبحث الدقيق فيها تكشف لك أوجه عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، فلم إذن تجحد مظاهر الموحدة الربانية في هذا الكون؟ ألم تكن نفس الانسان بحراً بعيد القرار، ألا تتعرض أجسامنا لما لا يخطر في الوهم والخيال من شواذ الحادثات؟ أما رأيت اليوم رأى العين قلب الكبش المقدس؟.. قاطعه نبسشت وقد احتدم غيظا: اعلم يا صديقي أن هذا القلب إنما هو قلب كبش هزيل اشتراه جندی ثمل بل رجل دنس بثمن بخس دراهم معدودة، ثم وضعته سراً بد محنط حقير في صدر نبيك المقدس روني .. أعلمت وأدركت؟

قال هذا وعمد إلى الخزانة ففتحها وأخرج منها جثة القرد وطرحها أرضاً، ثم تناول آنية من حجر النهاء كشف عنها الغطاء وقال: رأيت رأى العين هذه العضلات المغموسة في الماء الملح.. هذه المادة التي لا حراك لها كانت ناعمة بنعمة الحياة والحركة، وكانت في صدر روني متأثرة بمختلف المؤثرات لما كان سيال الحياة ساريا في جسمه.. وإن تعجب مع هذا فعجب أن تقوم الأمة وتقعد غداً لقلب الكبش وأن يحمله السذج والبسطاء في الموكب بأطراف الأنامل كما يُحمل على الأكف القائد المنتصر. ولقد كان بوسعى أن أبثك هذا السر من قبل لولا ما وعدت الشيخ بينم من الكتمان.. ولكن ما ذا عراك وبمصابه دهاك؟

كان بنطاؤر فى حديثه مع صديقه موليا بجانبه يئن أنين الثكل، ففهم نبسشت أنه تأثر بما سمع من قوله فدنا منه بحركة الغلام الذى يحس بوقوعه فى هفوة ولا يجسر على طلب الصفح لنفسه، ثم ظل واقفاً خلفه متردداً حائراً حتى نهض بنطاؤر وبسط يديه نحو السماء وقال:

«إلهى أنت الواحد المتفرد بالبقاء المتوحد بالعزة والثناء، أنت مسير النجوم والكواكب في مسابحها الأبدية بمقتضى ما وضعت لها في سابق علمك من النواميس الثابتة والقواعد السرمدية، فلا تلجأ إلى الراحة والسكون أبد الآباد (١) أنت تلقى الشهب ليالى الصيف من أوج الفضاء الذي لا نهاية له وتعلم أسرار الكون وتضع أمامي من الأمثال ما أستجلى منه الصدق والكذب، أحدهما في أحسن رواء والثاني في أقبح الاشكال، فتجنح نفسي إلى الحقائق وتميل عن المفتريات. أفض نورك على نفسي وابعث شعاعاً منه إلى فؤادي اهتدى به إلى الرشد في عملي والحقيقة

⁽١) كان يقرن ذكر الكواكب في النصوص المقدسة بأنها لا تلجأ إلى الراحة والسكون.

ف قولى فأكون دائما سالكا مسلك الحقيقة الأبدية ساعياً إليها بجميع قواي».

قال الشاعر ذلك بعبارة شديدة التأثير في النفس، وكان نبسشت يصغى إليه كما لمو أنصت لصوت منبعث من مكان يجهله أو لوسواس هاتف لا يدركه البصر، فتجلت لنفسه به محاسن ما بعد المادة فدنا من صديقه ومدّ إليه يده فضغط عليها بنطاؤر بعد إذ تناولها ضغطا شديداً وقال: ما أشد لفحات الحزن الذي أحرقت ناره فؤادي! أنت تعلم مكانة الكاهن الأعظم أميني من نفسي.. أما الآن فآه.. وقبل أن يتم كلامه سمع وقع أقدام، فلم تمض برهة حتى طلع على الصديقين شاب من الكهان طلب اليهما أن يجيبا الكاهن الأعظم ويتوجها إلى المكان الخاص بالمطلعين على الاسرار الكهنوتية فهرع الاثنان إليه، وكان قد تكامل فيه عدد الأعضاء وأضيء مأنوار متألقة السناء.

وكان أمينى في هذا الاجتماع جالساً على أريكة خاصة أقيمت تجاه مائدة مستطيلة الشكل والى يمينه ويساره أساطين الهيئة الكهنوتية، كل واحد منهم بحسب رتبته. وجلس تجاهه بقية الكهان الذين كانوا يرتدون ثيابا من التيل ناصعة البياض فصلت على مثال نصفى دائرتين متحدتى المركز. وقد أقيم في بهرة هذا الجمع تمثال إلهة الحقيقة والعدل ونصب خلف العرش الكهنوتي تمثال الإله توت وصورة أخرى تمثل إلهة طيبة وأمامهما رعمسيس الأول وسيتي يقدمان إليهما الضحايا والقرابين. أما بنطاؤر فجلس في أخريات القوم لحداثة عهد انتظامه في سلك المطلعين على الأسرار الكهنوتية.

وكان البحث بينهم دائراً على احتفال الغد. فشكا الكهان قلة القرابين هذا العام، وقالوا: لعل الحرب استنزفت معين الثروة فلم تعد الأمة بقادرة على أن تقوم

بفروض الدين. ولاحظ غيرهم أن بهجة الاحتفال لا تكون بالغة قصاري درجات الكمال لغياب الملك وأسرته في الحرب، فقال آخرون ساخرين: ولكن له في طيبة ولدا وابنة يكون من الخرق ف السياسة طردهما من هياكلنا فأسكت أميني الجميم وقال: لا يمكن لسبب ما أن يعود راميري الى هذا المكان، لأنشا طردناه نهائلاً من مدارسنا. أما بنت أنات التي رأى كاهن هيكل آمون في تكسر وذالة وكعاعة أن يطهرها من الدنس فلابد لنا من معاملتها بشيء من الشدة ، لأنه إذا خُلة، أبناء الملوك ليطلبوا في ظلال القصور ورفاهة العيش الاستمتاع بملاذ الحياة، فقد خلقنا بارىء النسم لإعداد النفوس للحياة السرمدية، على أنه لا محل للخوف من أن يشوب بهجة الأعياد نقص أو فساد لأن الوالي آني من سلالة الأسرة الملكية السالفة سيبرز للجمهور في موكب فخم وزي عظيم، بل فيما يناسب نفوذه وقوته من مظاهر العظمة ومجالي الجبروت. ولا يرعكم قولي هذا أيها الأصدقاء والإخوان فأنتم الآن في ليلة حيل من عجيب الحوادث بما المستقبل وحده كفيل بإظهار مكنونه وكشف مستوره في يوم واحد. ولست أخالكم تنقمون، إذا بزغت على الأفق في ذلك اليوم شمس تجمع إلى تألق الضياء لطف الحرارة فتطرح على أفراد أمة أضنتها أثقال الحروب أشعة ساطعة لطيفة. ولقد تمت معجزات جمة ترتبط بتلك الحوادث، إذ رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا حلو الشمائل مكللا بالتقوى والصلاح قد جلس على عرش (رع) وأنه كان يصغى لنصائحنا ويوفينا حقوقنا ويرد إلينا العبيد الذين انتُزعوا من مـزارعنا انتزاعا حتى أصبحت معطلة، بل كادت تصير خـرابا لقلة من يفلحها من عمال الحقول، ويهدم الهياكل التي شُــيدت للآلهة الأجنبية ويطرد من أرضنا المقدسة جميم الدخلاء والمدنسين..

قال رئيس المنجمين: لعلك بكلامك هذا تشير إلى الوالي آني، فما طرق هذا القول

مسامع الحاضرين حتى هاجوا وماجوا واختلط حابلهم بنابلهم. قال أمينى بصبر وتودة بعد أن ثابوا إلى السكون والصمت: إذا لم يكن هو فلعله يشبهه. وليس بعازب عليكم أن رونى كان من الموالين للاسرة السالفة، ولهذا حل قلب الحمل المقدس في صدره. وما هو إلا الغد حتى تقف الأمة المصرية على سر هذا الأمر الدال على عناية الربوبية بها ورعايتها إياها. وقد اتصل بى منذ ساعة أن قد وُجد عجل جديد في قطعان الوالى أنى بمدينة هرمونتيس ليقوم مقام العجل أبيس.

ما أتم أمينى قوله حتى لاحت على وجوه الحاضرين علامات الدهش ولبثوا متحيرين في أمرهم زمنا استأنف أمينى الحديث بعده، إذ قال: لقد عهدت إلى بنطاؤر مهمة الخطابة في عيد الغد، ولأنتم تعلمون أن الشيطان استفزه بغروره فصرفه عن المرشد وزين له قبيح عمله فأضله عن سواء السبيل، ولكنى رأيت الصفح عنه لحسن ماضيه في خدمة الدين وتفانيه في إعلاء كلمة اليقين. ولا يبعد علينا مع هذا أن ننظر في أمره متى تم الاحتفال. فإن كنتم لا تخالفون رأيى — وهو ما أرجوه منكم فقل يا ولدى ماذا في استطاعتك أن تشنف به غدا مسامع القوم، وماذا اخترت من الموضوعات لتعالجه أمامهم بما ألفناه من فضلك ورجاحة عقلك ومتانة حجتك وعذب ألفاظك وشرف معانيك؟

فأقبل بنطاؤر على الكاهن الأعظم وأنشأ يسرد الموضوع الدى وقع عليه اختياره، وكان الحاضرون يصغون إليه فأخذوا بسحر بنلاغته وفي طليعتهم شانئوه، فإنهم لم يسعهم إلا التنويه بفضائله والإطراء في مدحه بعبارات ساهمهم فيها الكاهن الأعظم، إلا أنه قال: ولكن خطبتك تكون بتراء وغير مستوفية لشروط الكمال كلها إذا لم تتناول معجزة قلب الحمل بالشرح المستفيض. فللبد لك من

الإسهاب في موضوعه بعبارات الإعجاب والحماس والإطناب. قاطعه بنطاؤر وحدق بنظره في عينيه اللتين كثيراً ما نظم عقود الأشعار في وصف ما يتشعع منهما من بريق الهمة ومضاء العرم وقال بجهير الصوت: ولكن أرجو منك أن تخليني من مهمة إعلان المعجزة على ملاً من الأمة. فبهت الحاضرون لاستدراكهم وحاروا حتى أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض متسائلين بالإيماء عن سبب هذا الرفض. ثم وجهوا أنظارهم جميعا إلى بنطاؤر الذي كانت تبدو على وجهه علامات الثبات والعزيمة، ثم إلى أميني الذي كانت تحف به هالة من الوقار والسكينة، فتبين الكاهن الأعظم من لهجة الشاعر أن الشكوك خامرت عقيدته وأخذ يضرب لذلك أخماسا في أسداس. ثم لرم السكوت زمنا رمق عقبه بنطاؤر بعيني المستثبت وقال له: لقد أصبت باعتراضك كبد الحقيقة يا صديقي، إذ الواجب التطهر من الدنس قبل الكلام في موضوع المظاهر الربانية والتجليات الإلهية، وأنت لكونك لم تكفر حتى الآن عن سيئاتك لا يجوز لك الكلام في هذا الموضوع، فاقتصر إذن على البحث في الفضائل وحث الناس عليها. أما المعجزة فقد عولت على الإفاضة بنفسي في موضوعها.

تلقى الحاضرون هذا الحل بالرضاء والارتياح، فختم أمينى الاجتماع موصيا بكتمان سر الرؤيا التى راها ومستبقيا عنده من الحاضرين جاجابو وبنطاؤر. ولما خلا بهم المجلس قال أمينى للشاعر: قل لى لم رفضت البحث في المعجزة الكبرى التى ملأت أفئدة الكهان بالسرور والرضى؟ أجاب بنطاؤر. رفضته لأنك فيما لقنتنى من المبادىء والتعاليم أوصيتنى بالحرص على الحقيقة، فأنا لا أجهر بغيرها. قال: أنا مازلت أوصيك أن تستمسك بها، ولكنى أناشدك بابنة (رع) هل تسرب إلى ضميرك الشك في المعجزة التى رأيناها رأى العين؟ أجاب: نعم خامر ضميرى الشك في أنها حقا من المعجزات. قال: اشرح كيف استربت فيها، وكيف تلبدت في سماء إيمانك

سحب الأوهام، وظنى بك أنك من المخلصين في خدمة الحقيقة؟

فرمق بنطاؤر الكاهن بعين يخامرها الأسف والإنكار وقال: إنى على يقين من أن القلب الذى ستحمله الأكف غدا ويُحتفل به احتفال الظافر على مرأى من جماهير الناس ومشهد منا نحن معشر المطلعين على الأسرار الكهنوتية ونؤدى إليه إتاوة التبجيل والاحترام إن هو إلاقلب حيوان دُس في الآنية التي وضعت بها أحشاء النبي روني ساعة تشريح جثته.

ما كاد أمينى يسمع هذا الاعتراض حتى تخبل في أمره وتراجع إلى الخلف منزعجاً كالمنزول به. أما جاجابو فقد أرعد ارتياعا وحملقت عيناه دهشا وقال أمينى بعد أن رجع إليه صوابه: من هو الزاعم بهذا الادعاء وأين دليله على صوابه؟ لابد أن يكون المرء ممن قوس الهرم ظهورهم وأكل الدهر عليهم وشرب لكى يسمع مثل هذه المقولة ويسلم بها كأمر واقع. أجاب: إن ما سمعتماه منى هو الحقيقة التى لا ريب فيها، ولن أبوح مادمت حيا باسم من سارتنى اياها. فواجب الأمانة يقضى بالكتمان. قال: لعل مشعوذا محتالا استدرجك حتى أوقعك في شباك ختله وغدره، فإن كان الأمر كذلك فلسوف يظهر أمره ويلقى من الجزاء أشده. إن الذين يضعون من مقام الألوهية ويصغون للأكاذيب يرتكبون إثما غليظا ويكونون من الضالين المضلين كمن ضلوا وأضلوهم. اعلم يا أعمى البصيرة وياسىء السريرة أن القلب الذي سيعرض غدا على أنظار الشعب قلب مثلث التقديس. أسمعت؟ وستلزم إن اختيارا أو اضطرارا – بالركوع له. والآن أودعك وأتركك في خلوة إلى نفسك لتفكر فيما ينبغى أن تقوله موافقا لميول سامعيك. وأعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات فيما ينبغى أن تقوله موافقا لميول سامعيك. وأعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات

الم تركيف تقطع الشمس والكواكب في مسابحها خطوطا هليلجية لا منتهى لمداها مع ظهورها لعين الرائي مستقيمة لاعوج فيها؟ إن العلماء القائمين بإرشاد العامة في طريق الدين يذهبون أحيانا إلى الإتيان بأعمال قد لا تصل إلى فهمها مدارك الجهلة مع أنها لا تتعدى حدود الأعمال المرضية للألوهية، وهم مأذونون بعملها بل المتحتم عليهم القيام بها. أما علمت أن الغاية تبرر الوسيلة؟.. لعلك تعتقد أن الوسيلة إذا حادث عن الطريق المستقيم تعوج بنا عن محجة الصواب، والحقيقة هي أنها لا تفضى في الواقع إلا إلى الحق وتنكب بالمرء عن المزلات والمغالط. ولعلك تكون الآن أدركت بون ما بيننا وبينك، فنحن نقيس الأشياء بأشباهها ونعرضها على أصولها فتتجلى لنا أحوال المستقبل في ثوبها الناصع الذي لاشية فيه. أما أنت فتقصر فهمك على إدراك الحاضر دون سلسواء فيضيق على العقل مجال التصرف، ولا ينفسح على إدراك الحاضر دون السلاد الكامل المدى القياس الصحيح. فواجب عليك الآن أن تسلم بصدق ما تعتقد صدقا وتجهر بانه صدق لا ريب فيه. واعلم يا بني أن الكذب يدنس الدوح وأن الشك يسطو عليها وياكلها كما يأكل المبرد الحديد.

فاه أمينى بهذه العبارات وقد أخذ التأثر منه كل مأخذ، فلما انصرف بنطاؤر من حضرته سال جاجابو: ما معنى هذا.. مَن أفسد علينا هذا الشاب بعد أن كان كريم الخلق مهذب النفس؟ أجاب: هو الذى أفسد نفسه بانحراف عن طريق التقاليد القديمة وشذوذه عن الأصول المرعية رضوخا لشهوات النفس ومضيا مع تيار الباطل. قال أمينى: إن يكن هذا اعتقاده الذى يتمسك بأهدابه فقد أخطأ، لأن القوائين لم يستأثر بوضعها مقنن واحد، بل اشترك فيها الجم الغفير من الاساتذة الفطاحل والثقات في العلوم الشرعية بعد صبر وأناة في التروى والملاحظة والمقارنة والتجربة. فالقوائين في اتساع نطاقها وانفساح مجال حقائقها أشبه ما تكون بأشجار الأجام

تبدأ صغيرة ثم تكبر حتى تصير بتوالى الأعوام أشجاراً باسقة ذات أغصان ممتدة وظلال وارفة.. إننى أحب الشاعر بنطاؤر وأميل إليه، ولكن حبى وميلى يدعوانى إلى كسر شكيمته وكبح جماحه، وإلا فلا نلبث أن نراه كالنيل يعلو ماؤه شيئا فشيئاً فيطفى على الجسور ويفيض على الأرضين، ثم إن ما قاله الآن في معجزة..

قاطعة جاجابو: لعلك أنت الذي أثار غبار الشكوك في نفسه. قال أميني: كلا. قال جاجابو مفكراً: ومع هذا فإني أعهد في بنطاؤر علو الهمة والصدق. قال أميني: وأنا مثلك أعرف فيه هاتين الفضيلتين. ولذا سلمت من غير مناقشة بصحة ما نقله إلى من الأخبار، ولكن لا أدرى من الذي ارتكب الفعلة النكراء، وهي الإفضاء إليه بسر ذلك الحادث.

سكت الاثنان هنيهة بعد ذلك فقال الكاهن الأعظم: رأيت بنطاؤر ونبسشت داخلين في هذا المكان، وليست بالسر الكمين صلات المودة بينهما، فأين كان هذا الطبيب أثناء وجودى بطيبة؟ أجاب جاجابو: كان يعالج فتاة المحنط بينم وهى التى دهمتها مركبة بنت أنات فأصابتها بجرح أليم وقضى في العناية بأمرها ثلاثة أيام. قال أمينى: بما أن هذا الشيخ هو الذى حنّط جثة النبى رونى فقد فهمت الآن كيف غشيت الشكوك عقيدة بنطاؤر.. لابد أن يكون الشاب الطبيب هو الذى أفسد عقيدة صاحبه ولسوف يقر بهذه الحقيقة. والآن لا تنصر فن خواطرنا إلى غير الاحتفال بالعيد، فإذا كان يومان أو ثلاثة أيام بدأنا بسؤال المجرمين وأوقعنا بهم العقاب المهين. قال جاجابو: الرأى عندى أن تسأل الطبيب فيما تعزوه اليه من التهم. ولا تنس أنه ممن رفعوا الهيكل إلى ذرى المجد والشرف بسعة العلم والحذق والكياسة في العمل. قال أمينى: خلنا من هذا الآن فإن لدينا من الامور الخطيرة ما هو أولى

بالبحث والاستقصاء. قال جاجابو: أرى فى تأجيل البحث فى المسائل المهمة ضرراً بالغاً بل مصاباً فادحاً، إذ لا يغيب عنك أننا بتنا على قيد أنملة من الهلاك. حقا إنى شيخ قد تضعضع بالهرم ركنه ورق بالضعف جانبه، ولكن الخطر لا يروعنى وإن جل، وكفى أن أذكّرك بسلطان رعمسيس وجبروته وأحدرك التخبط فى تيار الانتقام، فإنك لن تجنى منه غير الغمط من حقك والنيل من حميد سيرتك وإلصاق تهمة القسوة والصرامة بما سرى مسرى الأمثال من رفقك وسلاستك.

قال أمينى: لم أبغض رعمسيس قط ولن أبغضه أبد الآباد. ولولا أنه القابض على صولجان الملك اليوم لكنت أقرب الناس إليه والحظى من دونهم برعايته.. لقد تبينت أطواره واستقصيت أحواله وأسراره فما وسعنى إلا احترامه لشرف صفاته ونادر فضائله وواسع إدراكه. غير أنه قد كاشفنا بالعداء والبغض لا كراهية في ذاتى أو حقداً على شخصك، بل كراهية في مبادئنا وغيظا مما تطمح إليه نفوسنا. ولو كان أقل شوكة ونفوذاً مما هو في الحقيقة لما تعذر علينا الخلاص منه بوسيلة ما. أما الآن وقد علمت ما له من قوة ونفوذ فيلا بد من اتخاذ التدابير للفتك به.. ولا يفزعنك ذلك لأنه انصرف عنا فياستغنى عن مشورتنا وإنكر علينا حقوقيا وانتهك حرمة امتيازاتنا وغض من كرامتنا بما يستفزنا للدفاع عن حقوق طائفتنا. أما الوسائل التى سنتذرع بها لنيل هذه الامنية فجائزة لا يحرمها شرع، لأنه لما كانت حقوقنا انه إذا أفلتت أزمة الحكم من أيدينا ولم تكن لنا سيطرة فيها ولا نفوذ فقد سقطت مكانتنا إلى حيث تتساوى مع العبيد والارقاء.

وافق جاجابو على هذا القول بإيماءة منه واستأنف أميني حديثه متخيلا أنه

يخاطب الشعب فقال: لقد كنت مولاي وسيدي فاحترمتك وأحببتك، فقف إذن على الأسباب التي دفعتني إلى هذه الحرب.. لقد ربيت مع رعمسيس في هذا الهيكل الذي قضت حكمة أبيه الملك سيتى أن يختلط فيه بسائر أبناء طبقات الأمة. وكنا ف الآن البواحد صديقين وخصمين، ففي الدرس واللعب كنا كفرسي البرهان ف احتراز المكافيات المقدرة للفائزين بالسبق. وكيان من أخص فضائله قوة الإدراك وسرعة الخاطر، ولكنى كنت أمتاز عليه بالمشابرة على الإصغاء. وكان محبا الحركة ننزقا بينما كنت مبالا إلى السكون والرصائة، وظل كل منا في مدة التتلميذ متصفا بهذه الصفات التي امتازيها على نده. فلما ألقيت ازمة الأحكام إليه دفع بالبلاد إلى حرب الفتوح والتوسيع في الملك، فأظفرها الإله بأعدائها إذ فازت فوزاً مبيناً في وقائع كثيرة كان هـ و بطلها المشار إليه بالبنان. فتفرغت للدرس والبحث في التقاليد القديمة وأحوال الأمم الغابرة في أخلاقهم وسيرهم، فثبت لي أنه لولانا معشر الكهان لأصبحت مصر خرابا يبابا، إذ من هم الكهان؟ هم كل شيء في العالم. وما هي المهمة التي وُكِّل إليهم أداؤها؟ تسكين كل ثائر وإرشاد كل ضال. فالملك ذاته ليس هو في الحقيقة إلا فرعا من روحنا وقبسا من نارنا وشعاعا من ضيائنا، وإن يكن شيئا فبكونه الواسطة بيننا والأمة التي يحكمها بسلطان القهر والإرهاب. وهو إذا قاومنا ف أمر أو اعترض علينا أو عدل عن التماس مشورتنا في سياسته فليسقط من علياء عرشه. هذا ما كان يجب أن تكون عليه الروابط بيننا والملك، وهو من الأصول التي حافظ عليها سلفنا الصالح من الكهان. أما الآن فقد تبدلت الحال غير الحال، إذ أصبحنا بأيدى اللوك آلة يتقون بها شر الأمة، ولا سبيل الى أن تحترم الأمة أميرها القابض على زمام الامور مالم تحترم الآلهة قبله. فإذن يكون الكهّان قوام الملوك وعمادهم فيما يجرونه من الأحكام على رعاياهم. ولقد كان سيتى ملكا جريئا عزيز

الجانب مرهوبا ومحترما، لأنه كان موفقا للنجاح في أعماله ولأن محاسن الفرص جاءت إليه منقادة فهم بانتهازها، وجرى رعمسيس على منهاجه فتراه شديد المحافظة على الصلوات وتقديم القرابين، حريصاً على صيانة الطقوس والتقاليد فلا يكف عن التنبيه على إشعال المصابيح وإحراق البخور في المجامر والترنم بالأناشيد الدينية وتفسير الأحلام، إلى غير ذلك مما لا يسع سرده المقام. ولكن مع هذا كله أرايتنا ولاشيء عند الناس كلها أكبر منا قد صغرنا عنده حتى صرنا كلا شيء؟.

أرأيت كيف تهاون بنا وأصبح لا يعدنا شيئا ونحن نحن؟ أما ينبغى أن نكون منه بمنزلة المشير والناصح، بل أن نمل عليه أوامره وأحكامه! ولقد حاول الكاهن المحترم الذى حللت محله أن يفرض على سيتى الأول الأخذ برأيه من العدول عن ايصال بحر الشمال بالبحر الأحمر المدنس الماء(١) وجاهد عنده في ذلك جهادا لم يقتنع معه بأن ذلك المشروع لا يعود بالفائدة على غير الآسيويين. وأنا.. هل تمكنت من حمل خلفه رعمسيس على إبقاء تقسيم مصر القديم إلى أقاليم كما هو والعدول عن تعديله، مع ما بذلت من شتى الوسائل لإقناعه بضرر التقسيم الجديد؟ وهل ازدجر بنصائحنا المتعاقبة حينما أثبتنا له ضرر تجهيز المعدات للقتال وتسيير الحملات لمحاربة كبار الأمراء والأفيال؟.. ألم يذهب به تجاوز الحد في العدوان الى حشد عبيدنا وعمال أراضينا مخالفاً بذلك التقاليد القديمة والقوانين النافذة؟ ألم

⁽١) كان الفينيقيون قابضين على أزمة الملاحة في البصر الأحمر الذي كان معروفا في ذلك العهد بالسم «البصر المغطى بنبات الديس»، وكانوا يتجرون فيه بالمواد العطرية المستوردة من بلاد العرب وبالذهب الذي كانوا يستوردونه من بلدة زفر (كان يقال إنها بلدة في اليمن)، وقد خطر ببال الملك تيخوس أن يجمع بين البصرين بترعة توصل أصدهما بالآخر ولكنه عدل عن هذا المشروع لأن الكهان قالوا إن الهواتف أخبرتهم بأن فائدته ستكون مقتصرة على الأجانب دون المصريين، إذ يمكنهم من الايغال في مصر والاستيالاء عليها «انظر الجزء الثانسي من تاريخ هيرودت».

بخرج به الشطط في الاعتقاد الديني إلى تشبيد الهياكل لآلهة الشرق الكاذبة السفاكة للدماء، بعضها على سواحل البحر والبعض الآخر في منفيس وطيبة! قال جاجابو: أصبت فما نحن الآن إلا كهانا بالاسم، يدل على ذلك ما قاله رعمسيس من أن مهمتنا دينية محضة يجب أن تقتصر على إعداد الناس للحياة الأخرى وآن عليه هو إرشادهم في الحياة الدنيا. قال أميني: أعلم أنه قال ذلك وهو بهذا القول قد أثم واعتدى. وهل نسيت أنبه وأركان أسرته قد اعتدوا على حقوقنا وامتيازاتنا التي يترقف على صيانتها مستقبل هذه البلاد، وهل أنا بحاجة إلى تذكرك أن رعمسس مدنس الأصل قذر الجرثومة؟ ألم يكن من سلالة أولئك اللصوص الذبن انقضوا على بلادنا انقضاض النسور الكاسرة وانتشروا فيها انتشار الجراد الفاتك؟ ولقد صد أجداد أنى غارتهم الشعواء، ولكن جد الأسرة القابضة الآن على زمام الأحكام من أولئك العرب العمالقة أستأذنهم في المقام مع أينائه يوادي النيل فأذنوا له، فما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى فان هؤلاء الأجانب المعروفون بالبسالة ولين الجانب، بالنزلفي من الأمير الحاكم فتوجه الايثار منه إليهم وانبسط له الجاه عندهم، ومازالوا به حتى استقر نفوذهم على أسس متينة واستمالوا رجال الجند إليهم بإفاضة الأموال فيهم وسن الجوائز والصلات لهم فتمكنوا بواسطتهم في النهاية من ثل عرش الاسرة الملكية السالفة وإلقاء سمائها عليها.. ولست بمنكر عليك أن جماعة الكهان الصادقين كجدك وجدى أخذوا بناصرهم وحوموا عليهم لما جال ف ظنونهم من أن الأسرة الجديدة التي خلقت بهم ستعيد ما انطمس ف عهد سالفتها من معالم التقاليد القديمة. وليس هذا بالأمر المستغرب، فإن لنا ف غضون الأجيال المنصرمة أجداداً يفوقون المائة عدا أحرزوا جانبا كبيراً من النفوذ والسلطان فسارت بدكرهم الركبان، وأشير إليهم في وادى النيل بالبنان.. وأن كهانا كثيرين غيرنا قد كرمت أحسابهم ورسخت أنسابهم.. ولكن كم لرعمسيس من الجدود يسمو بهم إلى ذروة الشرف؟. هب أن له عشرة جدود، ولكن بأي أصل يتصل أولهم وأية دوحة هو غصنها؟.. ألا ينتسب إلى جرثومة (الآمو) تلك القبيلة المعروفة عندنا بخبث الطبع ودنس الأصل؟.. ألا يكون الأمير القابض على زمام الحكم الآن وهو ذلك المتهاتر الجزوع سليل الساميين.. إنه يسمينا بالفلاحين استخفافا واحتقاراً ونحن لا ذنب لنا ولا عيب علينا إلا أننا نقوم بأشرف الأعمال التي قام بها آباؤنا من قبل في سكون ورضاء وصبر.. أما هو فليتماد فيما هو فيه من الحركة والانتقال ومتابعة الهوى بإضرام نار الحرب والقتال ومد الأيدى للنهب والاغتيال.. ومن غريب شأنه أنه كلما أشرفت خصوبة الأرض على النفاد لامناص له من مغادرة البلاد وانتجاع الوهاد والنجاد، مقتدياً في ذلك بأبيه سيتى الأول.. يقيم في طيبة يوما أو أياما أو شهراً أو عاماً ثم يفاجئك بشد الرحال قاصداً إلى قارة اسيا محط الآمال.. حقا قد كان الأجنبي ومازال سبب ما تعانيه مصر من صنوف البلاء، يعبد الأصنام والأوهام.. فليسقط ذلك الغاصب وليذهب هياء!

بادر جاجابو بمصافحة أميني وصوّت: ليسقط الفاصب وليذهب هباء. قال أميني: لا يذهب عليك أن آني رُكّب من طينة مصر، فهو بيضة بلده وفتى قومه بل سلالة ملوكها الأولين. ولقد اشتهر بالدهاء والحيلة، ولكنه يحبنا ويحترمنا، وإذ كنت أدرى الناس بما يجعله من القيود وثيق الارتباط بنا، فقد عولت على تنفيذ ما عقدت النية عليه لتأييده. فهل لك في مشاركتي لتحقيق أمنيتي؟ قال جاجابو: إني مشارك لك قلباً وقالباً وسراً وجهراً. قال أميني: هذا ما كنت أتوقعه من ودك القديم فعليك إذن بإضرام نار الحمية والحماس في أفئدة أصحابنا، وتفهم الطلبة والمطلعين على الأسرار الكهنوتية أنه إذا أجيز لهم فهم ما يتهيأ الآن من الحوادث فليس لهم أن يفشوا سرها وإلا نزلت بنا وبهم الكوارث.

الفصل الثانى

«كيف كان الإله يعبر النيل.. في عهد رعمسيس الجليل»

بزعت شمس اليوم التاسع والعشرين من الشهر الثانى التالى لفيضان النيل(١) فشوهدت عند أبواب أحياء مدينة طيبة وربوعها جموع من النساء بحلاهن متحليات، وأفواج من الرجال والأطفال والجند والعبيد ينتظرون بذاهب الصبر ساعة بزوغ الشمس. وكان الكهّان يتأهبون للتغنى بالأناشيد المقدسة وعامة الأهلين يستعدون للسير في الموكب الديني والطواف حول أسوار الهيكل المقدس وعبور النهر في الزوارق والسير بعد ذلك صفوفا منتظمة في الطريق الذي أقيمت على جانبيه تماثيل أبى الهول، مفضيا بسالكه إلى هياكل المقبرة. وكان من العادات المرعية في هذا الاحتفال أن يُصحمل آمون إله طيبة إلى مدينة الأموات ليقدم القرابين إلى آبائه الآلهة ويجعل نفسه قدوة لعابديه في احترام الحياة الأخرى ومحبة الآباء. ولا عجب إذا رُتب الاحتفال على هذا المشال، فإن هذا الترتيب يشير إلى معنى جليل لا يعزب عن الأفهام. فقد جعلوا الضفة الغربية من النيل مستقراً للموتى يلتمسون فيه الراحة الأبدية، لأن الغرب تستتر وراءه الشمس الأفلة، تسبقها إليه فيه شموس وتتلوها شموس، كلها بنات الليل ومستصدثات الظلام. فالضوء الجديد يلبث

⁽۱) هو يوم ۲۹ من شهر بؤونة وكان المصريون يقسمون السنة إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة أشهر وهى: فصل الفيضان وفصل البذور وفصل المصاد، وتسمى باللغة المحرية القديمة (شا) و(بر) و(شيمو)، وكان الشهر الثانى من أشهر الفيضان يدعى بوونة. وكان في التاسع والعشريين منه يوم الاحتفال بعيد الوادى وهو يوافق ٨ نوفمبر من السنة الشمسية الميلادية

مغموراً بما انعكس من أشعة الضياء المستتر الذي استمد منه سناءه المتالق، وإنما يؤدى آمون فروض التمجيد والتكريم للشموس الآفلة كي يتعظ الأحياء به ويقتدوا بفعله فلا يمحو من صحيفة قلوبهم ذكرى الموتى الذين استمدوا منهم الحياة وفازوا بنعمة الوجود في هذا الوجود.

على أن النصوص المقدسة صريحة العبارات واضحة المعانى في هذا الباب، فقد جاء فيها أن الواجب تقديم القرابين لروحى الأب والام اللذين دُفنا في القبر، لأن تمجيد الآلهة يقترن بتمجيدهما. وجاء في تلك النصوص أيضاً أن الواجب على المرء أن يزور موتاه إذا أراد أن يحفظ أبناؤه ذكراه. (١)

هذا العيد السنوى للموتى لم يكن فيه شيء من شارات الحداد كما يوهم مدلول اسمه، إذ كان المحتفلون لا يبثون صيحات الحزن ولا يبكون. بل كانت وجوههم ناضرة ومخايل السرور على شمائلهم ظاهرة، لا تلهج السنتهم إلا بترديد آيات الحمد وإحياء ذكرى من طوتهم الأرض، بالمطارحة في محاسن سيرتهم. وكانت الأسر تمد الموائد أمام المدافن والطرقات غاصة بالجموع، حتى كنت ترى الآباء والامهات والأطفال من الأسرة الواحدة متماسكين بعضهم ببعض، خيفة أن يضل أحدهم فلا يُعلَم له مستقر في هذه السيول المتدفقة من الخلق. وكان العبيد يتبعون مواليهم حاملين على رؤوسهم ما يعوزهم من الغذاء وأدوات الاستصباح يسيرون على ضوئها في كهوف المقابر ويهتدون بها في الطريق لدى العودة. وكان لسراة الدينة وأغنيائها زوارق خاصة بهم نمّقوها بما يعجز القلم عن وصفه من

⁽١) انظر ملحوظات المسيو ماسبيرو على أوراق البردى الموجودة بمتحف باريس، وانظر أيضا ورقة البردي نمرة ٢ المحفوظة بمتحف مصر.

الزخرف البديع والتنسيق الإنيق. أما الفقراء فكانوا ينزلون جماعات كثيرة ف القوارب متراحمين مترا كبين بعضهم على بعض حتى يبلغوا إلى الضفة الأخرى فينسابوا منها انسياب الماء من الجدول على بسيط الأرض.

وكان المحتفلون على تفاوتهم في المراتب وتباينهم في الدرجات ينتظرون بذاهب الصبر مرور الزورق المقل للإله آمون. ونذكر هنا أنه كان لا يوجد في أطفال طيبة طفل لا يقضى ليله مفكراً في جلال هذا النورق وجماله معللا النفس بأمنية مشاهدته في الغد. ما ذلك إلا لأن العناية بزخرفته كانت تتجاوز حد الإتقان، حتى كان يماثل الزورق الذهبي الذي يعبر عليه إله الشمس ورفاقه في كل نهار أقيانوس السماء ذات اللون اللازوردي.

وكان على مدرج هيكل آمون – المفضية درجاته إلى نهر النيل وترتطم بالأخيرة منها مياهه المشبعة بالطمى – جم غفير من الكهان، وفي المسالك المؤدية إلى الهيكل وعلى ضفة النهر أقوام لا يحصى عديدهم، شاخصة أبصارهم صوب جهة واحدة، كما كان غيرهم ينسلون إلى الساحل مقبلين من كل فج وحدب، الشهود الموكب خارجاً من الهيكل في جلال أبهته وعزة فخامته فلا يفوتهم هذا المنظر البديع المنقطع النظير، فخلت المدينة من سكانها وكادت الطرق تصبح قفاراً والديار معطلة من الأنيس. فلما أزف الموعد الموعود والأجل المحدود لتحرك الموكب ولم يتحرك بعد، أخذ الناس يتساءلون عن السبب لا سيما وقد كانوا يرون في الكهان قوماً موفين بالعهد محافظين على الوعد، وأخذ الضجر يشملهم شيئاً فشيئاً حتى إذا لم تعد لهم طاقة على الصبر انتشر بينهم الخبر بأن سبب تخلف الموكب عن المسير غياب أعضاء الأسرة المالكة، وكان من عادتهم فيه الحضور للانبشات بين الجماهير والاختلاط

بأفناء الناس والسير على الأقدام من القصر الملكى الى الهيكل الربانى. وأضيف الى ضبرهم ومللهم الانتظار التخبط فى تأويل غياب بنت أنات عن الاحتفال وقد كانوا يرون حضورها من بواعث الكمال له والجمال.

وبينما القوم في حيرة التساؤل إذا بأصوات الكهان يرن صداها في الأذان، منبعثة من فناء الهيكل المقدس خلف الاسوار العالية. ولم تمض برهة على ختام هذا النشيد حتى اجتاز آنى بابه في موكب تحف به المهيبة ويعلوه الوقار، لأنه ما كاد يبلغ إلى هذا الباب حتى انشق سريعاً عن مشات من الأطفال على صدورهم الميادع (١) وبايديهم الأزهار ينشرونها في كل اتجاه وصوب أي نشار، ليطأها السائرون في موكب الإله آمون. أما الروائح العطرية فكان يضوع شذاها في جميع الانحاء يحملها إليها النسيم فيكون لها في الأنوف أحسن شميم. وكانت الآلات الموسيقية تصدح بألحان تهز النفوس هزاً. وإن القوم لفي مرح وحسن تطريب وإذا بدوى شديد تردد الآفاق صداه من بعيد، إعلانا بتحرك موكباً مون فهاج الناس وماجوا وأخذوا للقائه يستعدون ولم يظهر لبنت أنات أثر ولم يقع على موكبها نظر.

وتداولت الألسنة في خلال ذلك عدة إشاعات ذهبوا في تأويلها مذاهب مختلفات، وأيد خدم الهيكل صحة إحداها، إذ أكدوا للسائلين أن الكهان قرروا منع بنت أنات من التطلع إلى تلك الاحتفالات. وما قرع دوى هذا الخبر آذان المزدحمين حتى تبرموا وعبسوا الوجوه. وما هي إلا خلجة الخاطر حتى شهدوا الأميرة بشرفات قصرها وإلى جانبها الأمير راميرى ونيفرت ينتظرون ساعة خروج الآلهة للتفرج على جماعات الناس وأفواجهم وهم بين غاد ورائح في الطرقات المجاورة لمساكنهم.

⁽١) الميادع جمع ميدعو، وهو الثوب يُلبَس ليكون وقاية لغيره.

أما حرمان الأميرة شهود الاحتفال فسببه أن (بك أن شونسو) كاهن هيكل أمون تعهد بتطهيرها من الدنس، غير أنه في مساء اليوم الذي جاء إليها فيه بهذه البشرى أخبرها أن الكاهن الأعظم أميني لا يسلم بدخول المقابر قبل الحصول على العفو والغفران من آلهة الغرب. ثم اعتذر بأنه في مركزه لا مفر له من إطاعة أمر هذا الرئيس، لأنها بدخولها هيكل هاتور في حالة دنس قد أثقلت أوزارها وضاعفت خطاياها. فلما سمعت بنت أنات هذا الكلام استنجدت بالوالي آني وسألته أن يلبي نداءها فوعدها بذلك. غير أنه تلكأ في إنجاز وعده وظلت تنتظر حتى إذا كان آخر الوقت أخبرها بأن أميني ما برح وطيد العزم على حرمانها الحضور في الاحتفال، ثم نصحها أن تذعن لأمره ولا تثير ساكن غضبه. ودنا القزم نيمو من نيفرت في الوقت نفسه ليبلغها رجاء والدتها راتوتي أن تحضر لزيارتها، فأجابته بأنها لا تستطيع بل لا تريد مفارقة صديقتها الأميرة في مثل هذه الظروف الخطيرة.

وكانت بنت أنات أذنت لكبار حاشيتها بزيارة المقابر وشهود الاحتفال وسألتهم أن يخصوها في هذه الزيارة بصالح الدعاء وطيب الذكر، وبعد أن قضت حصة من الموقت في استشراف الجماهير في حركاتهم واختلاطهم، عادت من الشرفة إلى حجرتها وأنحت على شقيقها راميرى باللوم والتأنيب لأنه بسوء تصرفه وطيش عمله جعل الكاهن الأعظم يضطهدها ويتابعها بعدائه الفادح، ثم أحالت على هذا الكاهن بالتعنيف واستطالت في سيرته وأساءت غيبته، غير أنها مع هذا قبضت على يدى أخيها وقالت له وهي تحنو عليه بقوامها اللدن: أي أخيه! حيث إننا ركبنا معا متن الشطط وسقطنا في هاوية الغلط، فلنكفر عما فرط منا بقبول ما حكم أميني به علينا. والرأى عندى الآن أن نمسك عما لا يجدى نفعاً من الكلام وأن تنتهج من الخطط والمسالك مالا يحيد عما كنت تنتهجه منها لو كان والدنا حاضراً.

فأجهش بالبكاء واندفع يشهق ثم صاح عالياً: لو كان أبى هذا لما اجترأ أمينى على هذا الهذيبان وأفاعيل الصبيان، بل لخلع عن كتفيه فروة الفهد وأخلى منصبه لمن يصون كرامة الملوك ويحفظ العهد.. سوءة له! كيف يعاملك بهذه الإهانة؟ قالت هدىء روعك يا أخى، وقبل لى أتذكر أنك كنت لاتزال طفلا لما شهد والدنا هذا الاحتفال لآخر مرة؟ أجاب: نعم أذكر، وما كان أجملها من صبيحة قضيناها فى سرور وابتهاج! قالت بنت أنات: وأنا كذلك مازلت أذكرها بما جمعت من أسباب السرور والاغتباط. لقد كنا آنئذ أطفالا وكانت الزينة التى أقمناها مما يبهر الأبصار وياخذ بالألباب، وكنا جميعاً جلوسا فى البهو الملكى الكبير فدعانا والدنا ثم أخذ بيدنا إلى حجرة والدتنا المغمورة برحمة الآلهة، وكان لم يمض على وفاتها زمن طويل، فقال لنا بصوت الحنان والرفق إنه قد عفا عنا وتجاوز عن سيئاتنا تلقاء ما أظهرناه من الندم على ارتكابها والحذر من السقوط فيها مرة أخرى. ثم قبلنا بين عينينا وجذبنا إليه بيديه الكريمتين قائلاً بصوت الشفقة: لا أكون ذلك الملك العدل.

وما سمعنا منه هذا القول حتى ألقينا بنفسنا عليه وأخذنا نقبله قبلات الاعتراف بالجميل، فدفعنا عنه بلطف وهو باسم الثغر وقال لنا: لقد كنت ولازلت احبكما حباً جماً وأسوى بينكما في هذا الحب، وإنى لموقن أنكما تقابلانه بمثله لى. ثم جاذبنا الحديث في والدتنا ونوه بذكرها وأطرى فضائلها وحثنا على الاقتداء بها وانتهاج طريقها ووعدنا باصطحابنا لزيارة قبرها وتقديم الهدايا والقرابين إليها. وتكلم بعد ذلك على ندرة الفرص المتاحة للمرء يقيم بها الدليل على براعته وشجاعته، وعلل ذلك بقلة الحوادث الجليلة والأخطار الجديرة بالاقتحام، وبأن الحياة سلسلة حلقاتها الحوادث المالوقة، تتألف منها كما تتألف السنوات من

انضمام الشهور والساعات، والساعة بالساعة والشهر بالشهر أشبه من الماء بالماء، فإن اتخذتم لتافهات الحوادث من ثبات وجلد تلقيتم كبارها من غير خوف ولا اكتراث. ولما جاء والدنا على ختام أقواله الحكيمة تصافحنا وتعانقنا متعاهدين على اتخاذه إماماً لنا في أعمالنا. وأذكر أنى ما كنت في وقت أرحب صدراً ولا أهدا بالا منى حينما شنف والدنا أذاننا بهذا الوعظ البليغ على مقربة من قبر والدتنا.

فشخصت نيفرت في بنت أنات بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت: إنه لهين على المرء كسب المصامد والفضائل إذا يلغ والمده مثل هذا المبلغ من المرفق واللطف في النصح. سألت بنت أنات: ألا تذكرين با نيفرت أن والدتك أطربت سمعك بمثل هذا القول في صبيحة تلك الأعياد؟ أجابت وقد علت وجهها حمرة الخجل: كلا ، لأنها كثيراً ما كانت تخطىء موعد الاحتفال لقضائها الوقت في تسوية شعرها وزينة نفسها فلا يكون لها هم ولا وكد إلا سرعة الوصول إلى الهيكل. سألت بنت أنات: أتأذنين في أن أحل اليوم منك محل والدتك.. وأنت يا راميري هل تعلم أن والدنا كان يعفو عن ضباط جيشه، ويصفح عن حاشيته وخدمه وعبيده، ويحضهم - كما كان يحضنا - على الاستمساك بعروة التقوى والصلاح واستلال الضغائن والأحقاد من القلوب؟.. ألم يكن من كلمه المأثورة قوله «لا يكفي المرء لبس الثياب الناصعة البيضاء، بل يجب أن يكون قلبه أرق من النسيم وأصفى من الدمع»؟.. فواجب عليك يا شقيقي أن تكف عن لبوم أميني وسبه والحنق منه، فإنما هي القبوانين والأنظمة تطالبه بالشدة ف تطبيقها. ولا يغيب عنك أن والدنا سيقف على ما دار بيننا وبينه من الحادثات، وله وحده حق الفصل بآرائه السامية وحكمته البالغة فيما شجر من الخلاف.. آه.. إني يا عزيزي راميري ويا عزيزتي نيفرت أشعر بقلبي يفيض حنانا ورافة، فليات كلاكما ليقبِّنني ولنذهب بعد ذلك إلى المصلى حيث نمتع النظر باستجلاء تماثيل موتانا الأعزاء الذين لم أحظ بتقديم القرابين إليهم في هذا اليوم النبر المقدس.

قال راميرى: سأصحبك إليه يا شقيقتى. قالت بنت أنات: أما أنت يا نيفرت فالزمى مكانك لتجنى من هذه الأزهار الزاهية النضرة باقة جميلة نعهد إلى بعض الأتباع وضعها على قبر والدة قرينك مينا. قالت هذا وانطلقت نحو المصلى مع أخيها، ثم عاد الاثنان بعد ساعة فوجدا نيفرت قد ضفرت أكليلين من الزهور انتوت إهداء احدهما لوالدة مينا عملا بإشارة نبت أنات والثانى لوالدة الأميرة. فلما علم راميرى بقصدها قال: سأتولى أنا وضع الأكليلين على القبرين. فسألت بنت أنات: وكيف تكون الحال لو شهدك أمينى وهو الأمر بمنعنا من دخول الهيكل؟ أجاب راميرى: لن أذهب إلى ذلك المكان بزيى وشارتى الحاليين، بل متنكراً بزى صبى بستانى. أتسمعين صوت البوق المؤذن بخروج الإله من الهيكل؟ قال هذا وهرول نحو الشرفة فاقتفت نيفرت وبنت أنات أثره، وتمكن الثلاثة من شهود الاحتفال كما لو كانوا فيه حاضرين.

قال راميرى: إن هذا الموكب لطالع شؤم ونحس مادمنا نحن ووالدنا غير موجودين به. (١) ولاريب أن تجرده من مظاهر الأبهة والجلال عزاء لنا عن عدم مثولنا فيه بأزيائنا الجميلة يحيط بنا الحراس والغاشية، ولكن عزف هذه الموسيقى جميل جداً.. وها أنذا أرى هناك حملة الأقلم والمنشدين والنبى الأول للهيكل الأعظم وهو الكاهن (بك أن شونسو) الذي تحف به المهابة ويحدوه الوقار، غير أن

⁽١) استدل الدكتور أيبرس في وصف هذا الموكب بالنقوش المثلة للاحتفال بعيدالدرجات في مدينة آبو.

علامات التذمر بادية على وجهه، وهما قد أوشك الإله أن يظهر لأن رائحة البخور قد بلغت إلينا محمولة على أجنحة النسيم.

قال الأمير هذا وجشا على ركبتيه فاقتدت به الأميرة ونيفرت، وكان نظرهما قد وقع على ثور تنعكس أشعة الشمس على جلده الأملس البراق، وبين قرنيه إطار ذهب خالص يعلو حافته ريش النعام الأبيض وتلاه حملة المراوح فالإله آمون، لا يكاد النظر ينفذ إليه لكثرة ما كان يحول بينهما من المرواح المتخذة من ريش النعام الأبيض والاسود مثبتة بأطراف قضبان من الذهب. وكان مستويا على عرش منصوب على مصطبة مفروشة بقماش مسدول وموشى بأسلاك الذهب ومزين بأكاليل الأزهار الغضة، يحمل ذلك كله على أعناقهم جماعة من الكهان يسيرون الهوينا بخطوات مقدرة، ينبعث من المجامر حولهم دخان البخور فينعقد فوق رؤوسهم. وما وضع الإله في وسط الزورق –الذي بلغ الغاية من الزخرف – حتى وقفت جموع الجماهير عل الأقدام بعد إذ جثوا طويلا. ثم توارد بقية الكهان يحمل بعضهم في صندوق مبرقش بالألوان شجرة آمون المقدسة التي لا تذوى. وجاءت بعضهم فرقة موسيقية ثم جماعة من الكهان يحرقون البخور في المجامر فتنتشر ريحه في أرجاء الفضاء.

تنفست بنت أنات الصعداء عندئذ وقالت: لو كان والدى حاضراً لبرز للنظارة بعد الإله في موكب حفيل جليل. قال راميرى مكملا: شم لتلاه موكبك يا شقيقتى العزيزة، فموكب مينا ورجال الحرس، ولكن هاأنذا أرى الآن بدلا من ذلك كله العم أنى سائراً على القدمين! وما أغرب الزي الذى برز فيه يريد أن يحاكى به أبا الهول. فسألته نيفرت: وما تعنى بهذا القول؟ أجاب باسما: إن أبا الهول حيوان بجسم ليث

ورأس إنسان، ولكن عمنا أني قد تدشر بأمساح الكهان التي هي رمز السكون والسلام، ثم غطى رأسه بخوذة الجند. قالت نيفرت: ليت الملك حاضر، إذن ما اجترأ أحد أن يحرمك المشاركة في هذا الاحتفال. قال راميري: الحق أولى بأن يُتبع، لو كان والدي حاضراً لتغيرت معالم هذا الاحتفال، إذ كان لابد له من الجلوس على عرشه الذهبي وخلفه تمشال الحقيقة والعدل حفيظين عليه، وفوق رأسه الظلبة المزخرفة. انظرى يا شقيقتى هذا الجم الغفير من المنجمين والكهّان الذين يحملون الأعلام وتماثيل الآلهة، انظرى قطعان الماشية التي تتبعهم لتُقدَم قرباناً. أفلو كان الملك والدنا حاضراً ، أما كان يتجاوز عدد هذه القطعان أضعاف ما هو عليه الآن؟ وأما كانت الوفود تترادف من أقصى الأقاليم لأداء ما يجب لمقامه السامي من التبجيل والتعظيم؟.. إنى لم يغب عنى شيء من دقائق الاحتفال حتى الشعار المرسوم على الإعلام(١) ، وهل تعرفين من هم جدود الملك والبدنيا البذين تمثلهم تلك الصور والأشكال؟ أظنك لا تستطيعين التمييز بينها لبعدها عنك.. أما أنا فأعرف من تمثلهم.. أرى أن الصورة الأولى تمثل (أحمس) الأول الذي طرد من أرض مصر قوم العمالقة البدين بُمْت إليهم والدنا بصلة، ولا تمثل جدى سيتى الأول تمثيلا تاما. أرأيت الجنود؟.. لعلهم ممن عادوا من الحبشة ظافرين ودخلوا بالأمس مدينة طيبة فرحين مستبشرين.. ما أجمل هذا الاحتفال! ما أحسن هذا الاستقبال! ما أشد هذا

⁽۱) كان لكل مركز من مراكز مصر شعار ضاص به يُرسم أو يطرز على الأعلام التى كانت ترفع في الاحتفالات والمواكب العمومية، وكانت تُرى في عهد سيتى الأول ببلدة أبيدوس والعرابة المدفونة، خافقة تتضمن اسماء المراكز والاقاليم، وتحتوى النصوص التى كانت تستعمل في هياكل دندره وأنس الوجود لتفسير قسوائم الاقاليم ببيانات مفيدة تتعلق بالانظمة السياسية والدينية لكل إقليم. وقد وصف هماريس وبروكش ودوميشن ودى روجيه وادى النيل وصفا جغرافيا دقيقاً.

التصفيق! إن الجيش لجدير به وحقيق! لأنه سلك مسلك الشجعان وثبت في مواطن الجلاد والطعان. وإذا كان استقبال الأهلين له على هذا المثال من الفخامة والجلال فكيف يكون استقبالهم إذا عاد والدى الهمام وحوله من أسرى الملوك مائة بالتمام، وكان يبدبر سير موكبه المنيف قرين نيفرت مينا ذو الأصل العريق الشريف؟ إنى أرى من هذا المكان جميع أصدقائي والخلان ، وأكابر رجال الدولة تبدو على وجوههم أمارات العز والصولة.

ما سمعت نيفرت ذكرى قرينها حتى تنهدت وقالت: واأسفاه! واحر قلباه! ما برح ميعاد عودتهم إلينا بعيداً. وكان الموكب لا يزال يمر في مجال أنظار الناظرين كأن لا نهاية له ولا ختام، إذ كانت الجنود تتلو الجنود بأشكالها المتباينة تتخللها الفرق الموسيقية وتتبعها الحيوانات النادرة (١)، يمسك بأرسانها وأزمتها العدد العديد من العبيد. أما زورق الإله آمون فكان في هذه الاثناء بلغ إلى منتصف النهر، فبدا لانظار الجموع المتزاحمة على الضفتين كالعروس تتهادى في أبهى حلة وتختال في أجمل زينة، لأنه كان مصنوعا من الخشب المصقول المطلى بالذهب ومرصع المحافة بكرات بلور (١) لونها كلون الزمرد والياقوت. وكانت سارياته مموهة بالمذهب وشراعه من الحرير القاني ومقاعده من العاج المصقول بلونه الجميل

⁽۱) وصف يونانى يدعى راليكسونوس شاهد هذه الاحتفالات الحيوانات الأجنبية التى كان يجلبها المصريون من الخارج ليتزين بها احتفال أمر بإقامته (بطليموس فيلادلف) أو (فيلو ذوفوس بن سوط)، وهو بذلك قد أحيا عادة سابقة تشهد بوجودها كتابات ونقوش الاسرة الشامنة عشرة فى قبر (رش مارا)، انظر صفحتى ٤٦ و٤٧ من كتاب والمنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية، تأليف معرب هذه الرواية.

⁽٢) وجدت أن المتحف المعرى ضمن مجموعة (مينو تولى) ومجاميع أخرى غيرها أنواع كثيرة من الأحجار التي مستعت تقليدا لسلاحجار الكريمة. ويقول العسارفون إن أمهر الصنّاع في العصر الحاضر يعجزون عن صناعة مثلها في إتقان التقليد.

وأكاليل الـورد والزنبق متعانقة متـزاوجة ف حبال الساريات بشكل جميل ومثال انيق. أما سفينة الوالى فكانت تتلألاً بانعكاس أشعة الشمس على رسومها ونقوشها الذهبية. وكانت مفروشة بالطنافس البابلية الثمنية النادرة، وفي مقدمها رأس أسد من الذهب، في موضع العينين منه حجران كبيران من الياقوت كسفن الملكة حاتاسو. وما كادت السفينة المقدسة المقلة للإله أمون والكهان – الذين أخذوا مجالسهم فيها – تصل إلى الضفة الأخرى حتى تهافت أخلاط الزمر على النورل في القوارب والزوارق الأخرى التي غصت بهم ، إلى حد كان يخشى معه عليها الغرق . وقد بلغت هذه الزوارق عدداً لا يُحصى وانتشرت فوق سطح النهر حتى لم يعد الراؤون يرون ماءه من خلالها ولا أشعة الشمس تنعكس عليه لاتصالها بعضها ببعض واختفاء سطح الماء تحتها.

فلما شهد راميرى هذه الجلبه قال: لقد تهيأت لى الفرصة فلابد من اغتنامها. لقد اعتزمت التنكر بزى بستانى لاجتياز النهر ولترصيع قبور الأجداد بأكاليل الزهر. قالت بنت انات: أو يرضيك أن أبقى وحيدة مع نيفرت ؟ أجاب بصوت المبتهل: لا تملئى فؤادى حزنا وشجوا يا شقيقتى، فقد كفانى ما لقيته. قالت الأميرة: اذهب أنى شئت، ولو كان والدى هنا لاستطعت مرافقتك. قال راميرى: وما الذى يمنعك منها مادام لا يعوقك أنت ونيفرت عن التنكر مثلى عائق قاطع؟

فنظرت بنت أنات لنيفرت بعين المستفهم وقالت: إن هذا لضرب من الجنون. فهزت نيفرت رأسها بما يفيد اقتداءها بها في كل عمل. فأدرك راميرى مغزى هذه الإشارة وقال وقد تهلل وجهه فرحاً واستبشاراً: هيا بنا ، فإنه لم يبق أحد ولو كان ابن شحاذ - إلا وقد برح داره اليوم ليلقى أكاليل الازهار في الهاوية التي غُيبت

فيها جثة والده، فكنف بليق بأولاد رعمسيس وقرينية مينا الطاهرة الذيل التقصير ف أداء هذا الفرض المقدس؟ وكيف لا يحق لهم وضع الأزهار على قبور موتاهم الأعزاء؟ فما سمعت بنت أنات هذه الكلمات حتى احمر وجهها خجلاً وقالت: إن في وجودي بجوار القبور ما يدعو إلى تدنيسها . فمد الأمير راميري دراعيه لعناق شقيقته وقبِّلها بين عينيها قائلا: أمثلك مَن يبدنس القبور! ... أنت التي خلقها الله لتخفيف ويلات المنكوبين وتجفيف دموع الباكين بحسن العزاء ومقبول الدعاء! .. أنت التي بصورتها الفاتنة ومخايلها الطاهرة تذكِّرنا بصورة والدنا الكريم؟.. أممكن أن يكون مثلك - أنت أيها الملاك - مدنساً ، يقدر بلوثه ويلطخ برجسه الموتى؟ .. إذا سلمت بالمستحيل فقلت إن البجعة الناصعـة البياض التي أراها هناك حالكة السواد كالليل البهيم أو الغراب الفاحم اللون، وأن هذه الورود الزاهية الألوان التي نُمقت بها شرفة القصر وامتلا بعبقها كل مكان ليست وروداً بل هي نبات الشكران، فأهون على نفسى التسليم بهذا النزعم من أن تتخيل لحوق الدنس بك . وبعد فهل أنت مدنسة ؟ .. ألم يطهرك الكاهن (بك أن شونسو)؟ وإذا كان أميني.. قاطعت بنت أنات: لقد أصاب أميني الحق في فعله . وأولى بك أن تفكر فيما نحن فيه لا أن تذمه . قال راميري ساخراً : نعم أصاب أميني وأجاد وأتى بما فوق المراد، وإني لمالئه على القول بدنسك وبأنه لا يجوز لك غشيان المقاس ولا الهياكل، ولكن أهناك ما يحول دون امتزاجنا بأخلاط الزمر؟ أم هل للطرقات في تلك الجهات حاسة شم تتبين بها طهر الإنسان ودنسه ؟ أما هي نفس الطرقات والمسالك التي تطأ ثراها صباح مساء أقدام المحنطين وغيرهم ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة لدنس حرفتهم؟ .. زنى كلامى يا أختاه بميزان العقل واعرضيه على محك النقد الصحيح واعدلى عن عزم البقاء في هذا المكان وتعالى معى إلى حيث ترمى بنا ظروف الحدثان .. تعالى نتنكر ، فإذا انطلت الحيلة ولم يتعرف علينا أحد جعلت نفسى مرشداً لك وهديتك السبيل . عندئذ نضع أكاليل الزهور على القبور ونصلى للموتى، ثم نتبع الموكب فنسمع الخطب ونمتع الطرف بعجائب أصحاب المعجزات ، ولابد لبنطاؤر بالرغم مما دهى به أن ينبرى للخطابة . ولا يـذهبن عليك اعتقاد أمينى أنه متى تكلم خلب المسامع بسحر بيانه وأطرب الأفئدة بالأناشيد المقدسة . فهيا بنا.. هيا يا أختاه لشهود الاحتفال . قالت بنت أنات فجأة : هلم بنا إلى الامام؟

ما سمع راميرى هذه الكلمة حتى اعترته دهشة السرور لاجابة أخته طلبه وتحقيقها متمناه. أما نيفرت فنظرت للأميرة بعين المستفهم المستثبت ثم حولت وجهها إلى جهة أخرى، بعد إذ أيقنت توله فؤاد بنت أنات وأنها دخلت في زمرة العشاق المستعرة قلوبهم بنار الأشواق.

الفصل الثالث «وقائع أميرتين وشاب اقتحم الأهوال.. فصار من الأبطال»

لم تمض ساعة من الزمان حتى كان ثلاثة أشخاص متنكرين بثياب خالية من الزخرف يجتازون نهر النيل، امرأة معتدلة القوام تبدو على محياها سمات الهرم إلا أن في رشاقة قدها ولين أعطافها ما يدل على فتاء السن. وشاب أسمر نيفرت وغلام يناهز الخامسة عشرة من العمر، وكان يتعذر على المتوسم فيهم التسليم بأنهم بنت أنات وراميرى ونيفرت الذين أتقنوا التنكر بتغيير أزيائهم وألوانهم حتى لا يرتاب أحد في أمرهم.

فلما بلغوا إلى الضفة اليسرى من النيل أشارت بنت أنات إلى اثنين من أتباعها أن يدنوا منها. فلما فعلا سارتهما بكلام شم صرفتهما فذهبا بعيداً عنها وأخذا يقتفيان أثرها بحيث لا يشوهم أحد أن لهما علاقة بها. ولم يكن الثلاثة قد تمكنوا من عبور النهر إلا بعد ما ذاقوا من المشاق ما لا يذوقه عادة غير العامة والافناء، ذلك لانهم لم يكونوا التمسوا دليلا ليفسح لهم الطريق كالمعتاد أو يمنع الزوارق الأخرى من مسابقة زوارقهم ومنزاحمتها في الوصول قبلهم إلى الضفة الغربية من النيل. ولم يكن على أحد في ذلك حرج لأن الظروف قضت بأن يجهل الطرفان أحدهما الآخر بهذا المثال. وما نزل الثلاثة هذه الضفة حتى كان الموكب بلغ الى هيكل سيتى ودخل فيه.

وكان الكاهن الأعظم واقفاً على ضفة النيل لاستقباله، يحف به الكهان والمنشدون وأنبياء مدينة الأموات الذين سارعوا إلى وضع الإله آمون في سفينة سام

المصفحة بالفضة والذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة. ثم تقدم ثلاثون خادماً فحملوا السفينة على الأعناق لينقلوها إلى صدر الهيكل حيث تقام الصلوات الدينية. وكان المشرّحون يركعون أمامهم وينثرون يمنة ويسرة في الطريق شذور الذهب(١). وكان نواب الأقاليم ووفود المراكز أفواجا وشتاتاً في فناء الهيكل يستعدون للقاء الإله وتقديم ما جاءوا به من الهدايا والقرابين إليه. وبعد أن قاموا بهذا الفرض المقدس تحرك الموكب من الهيكل سائراً في الطريق التي اعتاد السير فيها كل عام وهي الآخذة من الشمال إلى الجنوب. فلما دنا من مدخل هيكل أمينوفيس الثالث الذي نُصب أمامه تمثالان هما أكبر تماثيل وادي النيل حجماً وأعظمها روعة، قصد إلى هيكل تحتمس الأكبر(٢) تم قفل راجعاً ، مقتفياً في سيره السفوح الشرقية من جبال ليبية، وهي السفوح الصخرية الصلدة التي نُقبت فيها القبور على شكل يجعلها شبيهة بخلايا بيت النحل(٣) ثم صعد إلى سطوح هيكل حاتاسو وانحدر منها إلى السهل المجاور لقبور الملوك السابقين (٤).

ولما آذنت الشمس بالمغيب كان الموكب قد بلغ مقر الاحتفال بالقرب من مدخل الوادى المؤدى إلى مقابر سيتى، وفي نهاية قبور الاسرة الملكية التى اغتصب زمام الحكم من يدها. وكانت العادة في زيارة هذه القبور الاستضاءة بالمسابيح والمشاعل قبل رجوع الإله إلى الهيكل وأن يبدأ بالتمثيل قبيل نصف الليل فوق

⁽١) هي المعروفة اليوم باسم قرئة مواري.

⁽٢) هي المعروفة اليوم باسم الأساسيف ودار أبو النجأ

⁽٣) انظر منفحات ۸۸٬۸۵٬۶۳٬۶۱ من الجزءالأول من كتاب بابسروني المسمى «ايبري جركس رجى تورنن سيس»

⁽٤) هي أقدم جرَّء من هيكل مدينة أبو، ولا تزال محفوظة لم تعتد عليها عوادي الدهر.

البحيرة القدسة جنوبى مدينة الأموات. وكان قلب الحمل المقدس، أثناء سير الموكب، في إناء من البلور مثبت بطرف قضيب طويل يحمله رجل يتبع زورق الاله، وقد روعى هذا الترتيب لتقع عليه أنظار الجموع المحتشدة لشهود الاحتفال.

أما بنت أنات وراميرى ونيفرت، فقد تهيأت لهم بتدابيرهم الأسباب لوضع الزهور على قبور الأجداد دون أن يتنبه لهم أحد، ثم اندمجوا في الجماعات التي كانت تقتفي أثر الموكب، وظلوا سائرين حتى بلغوا إلى كهف جدود مينا الذي شاده والد جده (نفر حوتب) وقتما كان نبياً لهيكل آمون. وكانت رحبة ذلك الكهف غاصة بالناس يتسمعون في سكينة وخشوع صوتاً منبعثاً من الداخل، هو صوت شاعر بنشد نشيداً نظم لآليء الفاظه ودرر معانيه شاعر ممن عاصروا ذلك النبي، تعظيماً لمقامه وترفيعاً لقدره، لأنه أوقف قطعة أرض لينفق من ربعها على من يقوم بترتيل ذلك النشيد في كل عام لمناسبة الاحتفال بعيد الموتى، وحتى لا يعتور معانيه تحريف نُقشت عبارته على الصخر لتدوم بدوامه ما كر الجديدان وتعاقبت النيران.

وكان مينا يترنم فيما مضى بأبيات هذا النشيد الحسنة الانسجام، وكانت نيفرت تتابع نغماته بالإيقاع على العود. وليس في هذا ما يستدعى العجب لأن المصريين كانت تدفع بهم الفطرة إلى مرج الأفراح بذكرى الموتى، وهذا الدافع الغريزى نفسه هو الذى حمل بنت أنات ونيفرت وراميرى على الوقوف لسماع النشيد الذى نورده هنا بمعناه.

«أيها الميت الشريف ذو المقام المنيف! لقد لجأت إلى الراحة الابدية والسعادة السرمدية ، وتجلت لك حقيقة الاشياء بأسبابها بعد أن عزّت على طلابها ، وتأكد أن أحداً من البشر لا مفر له من يد القدر ، بل لا مناص له من محتوم القضاء لأن

الارض طريق السماء. لقد آذنت الشمس بالأفول وأمست في دنو أجلها كالشيخ الكهول، فيا أيها الكوكب البهى الساطع والجرم العلوى اللامع: لقد أقمنا لك شعائر الاحتفال على أحسن مشال. فلا غرو إذا تعاقبت الأعياد على ترالى العصور تعاقب الليل والنهار، وأطرقنا الرؤوس برهانا على الخشوع والوجل لتودع قلوبنا الامل، وسكبنا ما عندنا من الريت وزيادة تفاؤلا بالحسنى والسعادة، وطرحنا أكاليل الزهور على هذه القبور، التى غيب فيها خير الأهل والأقرباء وأعز الاصدقاء الأوفياء، فتقبل إلهنا هذه الروائح العطرية التى تسطع إجلالا لقدرتك الربانية، واطرح على وجوهنا شعاعاً من ضيائك المتألق ليظهر ما عليها من الدمع المتدفق، واجعلنا في موثل من صواعق غضبك والانتقام فإنها تمحق القلوب الضالة في حالك واجعلنا في موثل من صواعق غضبك والانتقام والسكون تقبلوا دعاءنا حققوا الظلام. أيها الآلهة الساكنون في منازل السلام والسكون تقبلوا دعاءنا حققوا رجاءنا، كونوا لنا أدلاء وأصدقاء أوفياء، يوم السفر إلى المحشر، يوم الرحيل الى الحظيرة الربانية بالضفة القدسية».

فلما أمسك المنشدون عن النشيد أخذ جمهـور السامعين يلقون على المصلى نثار الأزهار، إشارة إلى ما يداخلهم من الفرح والاستبشار. أما راميرى ونيفرت فنزلا الى كهف الموتى، فأخذت نيفرت تصلى وتلتمس من أرواحهم أن تصـون حياة مينا من غدر الزمـان وطوارىء الحدثـان. ثم وضعت برفق ولطف أكليلا من الـورد على التابوت الذى يحتوى جثة والدته. وحدث في غضون ذلك أن فريقا من رجال البطانة اللكية مروا بالأمير راميرى والأميرة بنت أنات دون أن يعرفوا منهما أحدا وازدحم الناس ازدحاماً اضطر الأميرة ونيفرت مراراً إلى اللوذ بالكهوف الموجودة بالطريق. وكان أغلبهـا ساطعـا بالأنوار يتهـافت الناس على غشيـانها أفواجـا حاملين معهم الشواء والفواكه والنبيذ والجعة. وليس في تقديمهم هذه الهدايا ما يستدعى العجب،

فليس الموتى بحسن العقيدة المستكنة في نفوسهم إلا قوما رحلوا الى بلد مجهول، هم فيه أحوج من سواهم إلى الزاد اللازم لصيانة حياتهم وحفظ دمائهم في هذه الرحلة الطويلة.

كانت الشمس تهوى إلى الغروب حينما مُدت على مشارف السياحة التي أقيمت بها الحفلات الموائد ورُصت عليها ألوان الطعام وما تشتهيه النفوس من الحلويات اللذيذة على اختلاف أشكالها والفواكه الطريشة من تين وأعناب وتمر ورمان، ومسنفت على موائد غيرها ألوف الصنوف من الأحذية والأنسجة والعطور والمراوح ومواد النزينة والزخرف وأدوات القرابين ووسائل التجمل والتزيين ، فما هي الا ساعة حتى خلت الأوعية الشاملة لتلك المعروضات مما فيها لاقسال الناس على شرائها وتنافسهم في اقتنائها، وتهافت الناس حول موائد اللعب وبيع السوائل المخمرة والمشروبات المضدرة. وكانوا يتلاقون في الطرقات فيسوق أحدهم للآخر مثلًا من أمثال الحض على التقوى أو حديثًا من الأحاديث الموضوعة للحث على الاحسان والخير. أما الأطفال فكانوا يتبعون والديهم ويشيرون إلى ما يروق لهم من الحلوى المعروضة والأحذية التي كسبت في اللعب، ويتكاثرون بما معهم من الحلقات النحاسية التي وُزعت عليهم للإنفاق والتنعم. وكان أرباب المعجزات ف بيت سيتى يستهوون الجموع ويستدرجونهم إلى الالتفاف بهم بما كانوا يعرضونه عليهم من غرائب الحيل، وكانت حلقة الجمع إذا صفقت استحساناً لمعجزة، توارد المارة حولها لاستطلاع الخبر. فلما مرت بنت أنات بهذا المكان كانت الحفلات الدينية قد انتهت، وبدت لأنظار الناظرين الظلة التي اعتاد الملك وأعضاء أسرته الجلوس في ظلها أثناء الاحتفال. ولكن لم يكن أحدهم جالساً تحتها، وإنما الذي اغتصب حق الجلوس فيها هـو الوالي آني تحف به هيبة الملوك، غير أن الكراسي التي صُفت إلى جانبي عرشه كانت خالية من الجلساء فضاع منها الرونق والرواء.

في هذا المكان المعظم وتحت تلك الظلة الملكية الجليلة نهض أميني الكاهن الأعظم واتفاً وأعلن للشعب معجزة قلب الحمل والاهتداء إلى عجل أبيس جديد في قطعان ماشية الوالى أني. وقد تداولت الألسنة الخبرين وأخذ ألوف الناقمين على الأسرة المالكة يفسرون خطبته كلمة كلمة ويحملونها على معاني كثيرة ويذهبون في توضيح غوامضها مذاهب شتى، ولكنهم أدركوا بالرغم من هذا التباين مغزى قوله «إن معجرزة قلب الحمل وسهولة الاهتداء إلى عجل أبيس في قطعان الوالى أني فالان مبشران بدخول مصر في دور جديد من السعادة والطمأنينة اللتين حُرمتهما منذ عهد بعيد»، إذ حولوا أنظارهم جميعاً نحو الوالى وقد أدركوا أنه المقصود بهذه الإشارة المبهمة. أما بنطاؤر فكان انتهى من إلقاء خطبته لما بلغت بنت أنات ورفيقاها ساحة الاحتفال، وقد صدمت في سيرها شيخا قوس الهرم ظهره كان وفيقاها ساحة الاحتفال، وقد صدمت في سيرها شيخا قوس الهرم ظهره كان أطرح هذا العبء الثقيل الذي أرهقت الآلهة به عانقي، وها هي المرة الاولى التي سمعت فيها الكاهن الشاب يقول ما فهمت منه أن الآلهة يعاملوننا برفق يوجب علينا لهم جزيل الحمد ووافر الثناء.

ثم سمعت زوجة كاهن تقول لابنها: أرأيت يا (هور أونزا) بنطاؤر الكاتب الحصيف والشاعر الجيد الشعر الحسن الانتزاع له، وهل سمعته وهو يقرع الأسماع بجواهر لفظه؟ .. إذا نظرته وعرفته فإننى مخبرتك عنه بأنه مع ضعة أصله قد سبق فحول الرجال برجاحة عقله وسعة علمه وصدق فراسته وحسن تصرفه في الاسترسال ووفور حظه من صياغة المعانى الشريفة في الالفاظ العدبة

اللطيفة ، وإنى لاتمنى له مستقبلا حسنا ومكانة علية بين رجال هذا العصر. وكانت غادتان واقفتين بالقرب من منبر الخطابة فلما شهدتا بنطاؤر أعجبهما حسن مرآه وجمال محياه فقالت إحداهما للأخرى: إن خطيب اليوم قد برع في الجمال كما برع في البلاغة وحميد الخصال، وما أرق صوته الذي يدخل الآذان بلا استئذان! فقالت الأخرى: لقد رأيت علامات الهمة والنبل بادية على وجهه حينما طرق باب البحث في الحقيقة والفضيلة ، لهذا لا أستبعد أن يكون قلبه ممتلئاً بالمنح الربانية والهبات الإلهية، وما الوجه إلا مرآة القلب.

ما طرقت هذه المدائح سمع بنت أنات حتى احمر وجهها خجلا وتمنت لو أرخى الليل سدوله لتعود الى قصرها مع رفقتها ، غير أن أخاها راميرى أبى إلا أن تقتفى معه أثر الموكب والاسترشاد في طريقه بنور المشاعل ليوغل في الوادى الفربى ويزور قبر جده سيتى، فوافقته الأميرة بالرغم منها لأنه كان يتعذر عليها الرجوع بلا رفيق في الطريق المؤدى إلى ضفة النيل لتدفق الناس فيه وتدافعهم بالمناكب ابتغاء السبق إلى هذه الضفة . وكان لا مفر لها إذا هي خالفت أخاها ، من أحد أمرين: إما الانحدار مع تيار الجموع، أو الرضاء بمصادمتهم في معارضتها هذا التيار الجارف ومقاومة حركته.

ما بلغت الأميرة ونيفرت وراميرى إلى الوادى حتى ارخى الليل سدوله ولم يبق للضباع وبنات اوى من أثر لما أجفلها من ضوضاء الناس وتألق الأنوار وهو ما لم تألفه في بطن الصحراء، بل ومن تحول غمغمة أصوات هؤلاء القوم وهم في طريقهم إلى الوادى إلى ضجة عالية وصياح مرتفع، وذلك بعد إذ انسابوا فيه وانتشروا في نواحيه يحملون المصابيح التى يحيط بلهبها ورق البردى ملونا بالألوان الزاهية

ويتصاعد من بينهم العثير والدخان فيصير فوق رؤوسهم كالسحب المتكاثفة.

وكانت بنت أنات قد بلغت من سيرها مع رفاقها إلى نقطة تجاه الكوخ الحقير الذي يسكنه الشيخ بينم، فوقفت مع من وقف من الناس، لأن الحراس المنوط بهم صون النظام كانوا يدفعون الجموع المزدحمة بعصيهم الطويلة إلى جانبي الطريق، ليمكّنوا الموكب من المرور، فأومأت الأميرة عندئذ الى بيت بينم وقالت لأخيها: أترى هذا المنزل الحقير؟ إن فيه الأيكة البيضاء التي دهمتها جياد مركبتي وأصابتها في صدرها بجرح بالغ. ثم نظرت من خلال الحاجز إلى الضوء الضعيف الذي يلقى أشعته على محياها السني، وقالت: ها هي تلك الجالسة إلى جانب جدها.. أفتراها؟..

فوقف الأمير على أطراف أصابع قدميه حتى استمكن من رؤيتها وما كادت تقع عيناه عليها حتى بسبه وصاح: إن جمالها ليأخذ بالألباب، ولكن ماذا تراها تعمل لهذا الشيخ الهرم..؟ يبدو لى أنه يؤدى فريضة الصلاة وأنها تضع منديلا على مكان والقلق يساور فؤادها. قالت الأميرة: لعل جدها الشيخ أصيب بعارض مرض. قال الأمير ضاحكاً: المرجح عندى أنه أفرط في شرب النبيذ فتوهم أن نفسه تسيل معه، وإلا فماذا أرى؟ إنه يحرك شفتيه وعينيه على وجه ترتاع منه النفس، ولعل بالرجل مسا أو طائفاً من الجنون. قالت نيفرت: كل ما في الأمير أنه من المنسين. قالت الأميرة: ولكن دنسه لا يحول دون اتصافه بالتقى والاستقامة. ولقد تقصيت أحسواله واستبطنت أسراره فعلمت أنه رجل قنوع محب للصلاح والخير متفرغ العبادة ومن ثم ترانى أرجح أنه محريض لا سكران. وما كادت الأميرة تتم هذا الكلام حتى ألقى راميرى المسباح من يده وصاح قائلاً: إنى أراها تقف على قدميها.. هلمى انظريها يا بنت أنات.. أفلا تكون في حاجة إلى معاونة أحد.. ما رأيت قط في

حياتى فتاة فاقتها في بياض البشرة ورشاقة القوام وحلاوة المنظر، غير أنى أتبين اضطراباً وتخلخلا في مشيتها لعل منشأهما ضعف قوتها على أثر مرضها.. ها قد عادت فجلست إلى جانب الشيخ وأخذت تعرك جبهته بكفها ما أشقى حظ هذه الغادة الفاتنة! فإنها بدأت تثن وتبكى.. أود أن ألقى إليها بكيس نقودى لعلها بما يمتويه تصرف الشجن عن فؤادها. قالت بنت أنات: حذاريك هذا الأمر، لأننى كثيراً ما أرسلت إليها الهدايا فكانت تأبى قبولها، وليست نقودك هي التي ستجلو صدا الحزن عن نفسها، لأن المال وأن كثير لا يكفكف الدمع ولا يستل الحزن من ثنايا الصدر. وقد اعتزمت أن أرسل إليها في الغد العجوز (أسنات) لتقف على سر ما برح بها من الحزن، فتعمل عندئذ على تسرية همها وإجلاء كربها.. أجيلي يا نيفرت النظر في الموكب واحتشاد الناس فيه ومضايقتهم إيانا بتدفقهم.. ولا مفر لنا عقب مرور الإله من الأوبة إلى القصر. قالت نيفرت: وأنا الأخرى أود أن لو سارعنا بالعودة إليه، فقد استطير في وملأ الرعب قلبي. ثم دنت من الأميرة والتصقت بها فيزعة مضطربة.

قالت بنت أنات: أخشى أن يقع ما لم يكن فى حسابنا من التأخر فى العودة. قال راميرى: ما أجمل هذا المنظر!.. فإنى أرى قلب الحمل يلمع فى إنائه لمعان الكوكب فى السماء. وكان الناس خروا على الأذقان سجداً إجلالا له، فاقتدى بهم أصحابنا الثلاثة. وحدث أن وقف الموكب فترة من الزمن تجاههم، لأنه كان كلما قطع ألف خطوة وقف ليلتمس السائرون فيه الراحة من عناء السير، لاسيما وأن عددهم بلغ الألوف ومنهم الضعيف وذو العاهة، وهم أحوج الناس إلى تزويد أنفسهم بالقوة لاستئناف المسير. ولقد سمعوا البشير فى مقدمة الموكب يرف إلى جمهور الأمة بشرى المعجزة ويفسر لهم أسبابها، وكان صوته الجمهوري يرن فى أركان الفضاء

فيرجعه الأفق ترجيعاً واضحاً صريحاً ، بالرغم من غمغمة الجموع المتزاحمة والافواج المتراكمة . ومما ضاعف اضطرابهم وضجيجهم عند تطفيل الشمس أن القلب الإلهى كان يسطع في إنائه البلورى، كان له شعاعاً ذاتياً ينبعث منه فيكاد نوره يضيىء الاقطار ويخطف سناؤه الأبصار.

أما (بينم) فكان لم يذق الطعام منذ برح - في اليوم السابق- دار المحنطين عائداً الى كوخه الحقير، بل ظل الوقت كله واجماً صامتاً لما ألقى في روعه من القلق والانتزعاج، وبلغ من ذهوله أنه لم يجاوب على سؤال واحد مما كانت زوجته وحفيدته توجهانه اليه. وكل ما شهدتاه منه أنه كان دائب التحديق بنظره في نقطة واحدة، وأنه كان يتمتم بكلمات لا يفهم السامع لها معنى ويرفع يده من وقت لآخر إلى جبهته بحيث كان يخيل لهما أنه مصاب بالم شديد في رأسه أو أن بهذا الرأس أفكاراً وهواجس رديئة سلبته الطمانينة وصبت عليه جام الهموم. وتمادت به هذه الحال حتى ضاع رشده وأخذ يهذى تارة ويضحك أخرى من غير سبب ظاهر، فلما خشيت زوجته عاقبة أمره عجّات بالذهاب إلى هيكل سيتى لاستدعاء الطبيب نسشت.

ولقد سبق إلى نفس وردة – لما رأته في هذه الحال- أن تضع على جبهته بعض الحشائش الخضراء التي جاءت بها الساحرة نيخت معتقدة أنها إذا لم تشفه من علته فلا أقل من أن تخففها عنه، وما وقف الموكب الذي كنانت تحف به الألوف من حملة المصابيح أمام بيت المحنط حتى قال رجل لأخر: هذا قلب الحمل، أفلا تراه؟ فلما سمع (بينم) سؤاله ارتعدت فرائصه، بيد أنه ملك جأشه ووقف على قدميه وأخذ بمعن النظر في القلب وهو يتلألا في إنائه البلوري الشفاف ويتصعد الدخان

حوله من مجامر الطيب فحفز الخوف احشاءه وتطاول عنقه للاستطلاع، ثم أخذ يتسمع أقوال الناس ليعى طرفا من حديثهم ويعير أذنه لكل صوت، فسمع المبشر يعلن بشرى المعجرة بصوت جهير وأخذ يتفرس في الوجوه فرأى الناس وقد لزموا الصمت والسكون خشوعا واجلالاً، وكان لهذه المظاهر أثر شديد في نفسه فلم يتمالك أن دفع بنفسه بينهم ومضى في تيارهم ونفذ في صفوفهم مغطياً بكفه وجهه وجبهته، واستمر ينزاحم الناس حتى إذا صار على مقربة من القلب المقدس ضحك ظهراً لبطن وعلت قهقهته حتى خيل للسائرين في الموكب أن من وراء الأكام والصخور رهطا من المجانين يضيعون في التماجن والتطايب الوقت الثمين.

وقف الناس لهذا السبب، وقد أخذ الهلع من نفوسهم كل مأخذ، فحدد الكاهن الأعظم نظره في بينم، ولم يكن يعرفه من قبل. وتصفح وجهه ثم وقع بصره على الضوء الضعيف المنبعث من بيته ففهم على الفور أن الرجل تسلل إلى الموكب من هذا الوكر الحقير وأيقن أنه لابد أن يكون من طائفة المخطين اللعينة وعالما بسر القلب، فمال على ضابط كان يسير إلى جانبه ليتلقى منه أوامره وهمس في أذنه بكلمات مومناً إلى بينم المجنون ثم استأنف السير كأن لم يحدث حادث ولم يضحك ضاحك.

أما الشيخ فكان لايزال يضحك ضحك من أصاب خبل المجاذيب حتى القى بنفسه على حامل القلب اللامع فانفتل إليه بعض الأعوان وأدركوه قبل أن يُلحق به أذى ثم قبضوا عليه، فحاول التملص من أيديهم فضربوه ضرباً مبرحاً ثم تركوه. وما كادت الزمر التى تتألف منها مؤخرة الموكب تمر بمكان الواقعة حتى كان مطروحاً أمام كوخه الحقير يتخبط في دمه الذي كان يسيل عزيزاً من جراحه الفادحة. ولقد برزت وردة فرأته في هذه الحالة، فلم تعرف بادىء ذي بدء أنه جدها

لحلكة الظلام.. وكان فريق ممن أخذتهم نعرة الدين اقتفوا أثره وهم سكرى بحمأة الغضب والنبيذ وأخذوا ينعقون: ألا فاسرعوا الوثبة إليه.. اقتلوا هذا الدنىء الحقير، سوأة له! .. قطعوه إرباً، أسخن الله عينه!.. احرقوا وكره المدنس.. القوه في النار مع هذه الفتاة التي برزت من هذا الوكر اللعين لترى ما حلّ به.. فإلى لعنة الآلهة كلاهما وحر سقر!..

وكان في الجمع المراتان نزعتا المصابيح من اطراف قوائمها ورمتا بها الرجل المسكين، ودنا جندى حبشى من وردة فجذبها من ناصيتها وسحبها على وجهها. ولكن لم تمض برهة حتى اقبلت زوجة بينم ومعها بنطاؤر، لأنها لم تجد الطبيب نبسشت فخبرت الشاعر بأن الشياطين حلّت في زوجها فحضر من فوره للاطلاع على هذا الحادث. وكان ساعتئذ بلباس العمل لأنه لما القي خطبته وعاد إلى الهيكل لم يتجرد من الثياب البيضاء وهي شوار الكهان وشارتهم التي يُعرفون بها وافرغها على جسمه حتى لا يقف أحد على حقيقة أمره.

ولقد مر بنظره حينما وصل إلى بيت المحنط أسر هائل ومنظر رهيب. ذلك أن أخلاط القوم وساقطهم كانت صدورهم تغلى بحزازات التعصب الديني فطرحوا ذلك الشيخ الضعيف أرضا وأمسكسوا بتلابيب وردة - كما قلنا- وأسرفوا ف الإساءة اليهما، فما وسعه عندئذ - وقد أحفظه هذا العدوان الذي لا مبر له إلا الانقضاض على الحبشي وإشباعه ضرباً. وقد أمسك به من نطاقه ورفعه في الجو بكلتا يديه ثم طرحه بعيداً عنه كما يطرح العبء الثقيل، وشهد القوم منه هذه البسالة فارتاعوا وتقهقروا متراجعين ، بيد أن الحقد الذي ملا صدورهم حفزهم للوثبة على بنطاؤر والتنكيل به وتناصروا في هجومهم عليه. وكان من شأنهم معه في

ذلك ما يرى من الذئاب الخاطفة حينما تهم بالهجوم على فريستها للفتك بها، فما تمالك أن اقتلع أحد أعمدة الظلة التي كان أقامها بينم لوقاية حفيدته من حر الهجير. وكان هذا العمود من خشب الحبشة المعروف بشدة الصلابة فأخذ الشاعر يدور على نفسه وهو قابض على أحد طرفيه فيرسم في دورانه بالطرف الآخر دائرة لم تُحدّث نفس واحد من أولئك الناقمين باقتحامه إياها لما كان يصيبه من الأذى لو أقدم على هذا الفعل، وبهذه الطريقة استطاع أن يستخلص وردة من مخالب عدوانهم، ثم قال لهم: إن من يجرق منكم على إصابة هذه الغادة باذى فليوطن نفسه على الاعتقاد بدنو أجله.. تعساً لكم وسوأة أيها الانذال! أف لا تخجلون وقد بلغ عددكم المائة أن تسيئوا الى شيخ قد وقع على الأرض مغشياً عليه وفتاة لا تملك لضعفها الذود عن حياتها؟ لاحياكم الله ولا حيا أباءكم، فقد دنستم هذا الاحتفال بارتكاب جريمة لم تُنسج في الشناعة على منوال.

فظل المعتدون تجاه هذا التقريع مبهوتين فترة من الزمن لا يدرون ماذا يعملون، ولكنهم مالبثوا أن أعادوا كرة الهجوم على الشاعر والفتاة والشيخ، بإغراء من لم يشهدوا الحادث من أصله بل كانوا ينسلون من كل فج وحدب لاستطلاع الخبر. وقد اختلط حابلهم بالنابل فلم تسمع إلاهمهمة تتخللها صيحة: فلنحرق المدنسين، فلنضرم النار في وكرهم اللعين؟ .. ودنا من الشاعر بنطاؤر فريق من صناع مدينة طيبة وأخذوا عليه الآفاق وضيقوا النطاق، دون أن يتمكن أحدهم من تبين حقيقته أو يعلم أنه من الكهان، بسبب تنكره من جهة واحتدام الفتنة في ظلام الليل من جهة أخرى، وتناول غير العمود عصا كبيرة أخذ يهوى بها ضرباً مسرفاً على كل من يدنو منه ويتقى بواسطتها لكمات المعتدين وضربات عصيهم، ولبث هكذا في جهاد عظيم وبلاء شديد حتى اصطدم وهو لا يدرى بصاحر ضعيف خلفه، فجاء سقوط هذا

الحاجز هدية، إذ اغتنم بقية الثائرين هذه الفرصة لمهاجمته من الخلف والقاء جذوة نار على بيت المحنط، فسرعان ما شب فيه ضرامها. وكان مبنياً بسعف النخل الجاف فأكله عن آخره وجعله رماداً تذروه الرياح وأضاء القوم لهيب النار فاستأنفوا كرة الهجوم، وكان بنطاؤر قد خارت قوته وتلاشت، بيد أن ذلك لم يثنه عن مواصلة الدفاع عن وردة التي كانت لائذة به لا تفارقه، غير أن رجلين اختطفا العصا من يده على غرة منه فأمسى أعرزالاً من سلاح يذود به عن حوضه ويدفع شر العدوان عن وردة، وصباح الناس لذلك صبيحات الفوز والانتصار. وكان الياس آنئذ يدب في قلبه ويحل منه محل الرجاء، فإذا بشاب قد احْتَرق الصفوف وبيده سيف مصلطاً قدمه إلى بنطاؤر، وتراكن الاثنان ظهراً لظهر فاخذ بنطاؤر يجيله متهدداً به القوم حتى تراجعوا بعيداً عنه لما تولاهم من الخوف. ثم حمل عليهم حملة صادقة صارخاً في وجوههم فكان في حركاته ووثياته وصبحاته أشبه بيطل كمى رأى مع ضعف قوته أن الغلبة له على أعدائه الكثيرين أو أنه ليث العرين أريد به السوء فخرج للذود عن حوضه مزمجراً مكشراً عن أنيابه فملا قلوب مريدي السوء به هلعاً وفزعاً. وكان الأمبر راميري وهو ذلك المجهول الذي حمل السيف إلى بنطاؤر ممسكا بخنجر يدفع به عن نفسه، فقال للشاعر: .. إن هؤلاء الجبناء يلقون علينا جذوات النار. ثم ترامي على وردة فأطفأ النار التي بدأت تشب بأطراف ثوبها. ورمى بعض الناس بنطاؤر بالأحجار فاصابه احدها بإصابة تزعزع منها ركنه وخارت قوته ثم تدفق القوم كتلة ولحدة على بنطاؤر فسقط حاجز كان قائما هناك وظهرت في الحال منه غادة سمهرية القبوام لم تنشب أن تبوسطتهم قائلية: قفوا مكانكم أيها القوم! .. إنني بصفتي بنت انات فتاة رعمسيس آمركم بالكف عن هذا العدوان الخسيس..

فما سمع المعتدون هدده الكلمات حتى بسهتوا وتولتهم الحيرة ووقفوا صامتين

واجمين، فرفع بنطاؤر رأسه وود أن لو جثا على ركبتيه أمام ابنة رعمسيس التى ساقها القدر في انسب وقت لإنقاذه من مخالب الموت شكراً لها. ولكنه تذكر ما تلقاه من الدروس عن الكاهن الأعظم وما بناه عليها من الحكم بخطأ الأميرة في مخالطتها جموعاً تسمو على عظماء أفرادها سمواً عظيماً، فبدلاً من أن يجثو على ركبتيه قال بصوت جهورى: مهما يكن من أمر هذه الغادة التى ساقها القدر لإنقادى من مخالب الموت، ومهما يكن بينها وبنت أنات من قرائن الشبه الكثيرة فليست هى حتما بابنة رعمسيس. أما إن أردتم معرفتى فإنى منبئكم بأنى بنطاؤر كاهن هيكل سيتى وخطيب الاحتفال في هذا اليوم وبصفتى هذه وباسم وظيفتى المقدسة آمرك أيتها الفتاة بمغادرة هذا المكان في أقرب آن.

خضعت الأميرة لإشارته وظل الناس سكوتاً زمناً قام بعقبه شاب أصيب في يده بجراح خطيرة فقال: هذا الرجل جندى لا كاهن كما يدعى، فلابد لنا من قتله لأنه غاش والغاش غير خليق بالحياة . ولكن سمع صوت آخر منبعثا من وسط الجمع يقول صاحبه: تنصوا للكهان.. دعوا بنطاؤر صديقى وخطيب الاحتفال في أمن وسلام.. أما من أحد بينكم يعرفني؟ أجاب نوتى من الحاضرين: أنا أعرفك، أنت نبسشت الطبيب.. أنت الذي عالجنى من كسر في ساقى. وأجاب آخر: أنت الذي عالجنى من رمد في عيني كاد يذهب بنورها. وقالت غادة هيفاء مومثة إلى بنطاؤر: أما هذا الشاب الجميل الطلعة فكان خطيب الأعياد اليوم.. فلما سمع الشاب المصاب في يده بالجرح هذا القول ثار فيه ثائر الغضب وحاول الوثوب على الشاعر قائلا: إن يكن خطيباً أو لم يكن فهذا لا يعنيني . فجذبه بعض الحاضرين من ناصيته وحالوا دون اعتدائه على الشاعر، ثم أفسحوا الطريق لنبسشت الذي مال على بينم هنيهة لم يلبث أن رفع رأسه بعدها وقد ظهرت على وجهه علامات اليأس والغضب وقال:

لبئس القوم هؤلاء الدين قتلوا الشيخ المسكين. قال بنطاؤر: وهذه أول مرة فى حياتى لوثت يدى فيها بدم الغير في سبيل استخلاص وردة النضرة الزكية من مخالب الموت الذي انتاب جدها العاثر الحظ.

ما كادت كلمة وردة ترن ف أذن نبسشت حتى أخذ يروح ويغدو مجداً في البحث عنها واستطلاع حقيقة أمرها. ثم أخذ يستطيل فيمن اعتدوا عليه بالسب الشائن، إذ كان يقول بصوت عال: يا ذوى القلوب المشوبة بالسموم! يا أولاد الافاعى والعقارب! يا قطاع الطرقات! ومازال يسترسل في هذا السباب، حتى عثر على وردة ريحانة فؤاده جالسة بالقرب من نيخت الساحرة، قزفر زفرة المكروب الذى زالت كربته وصسرفت غمته ثم عاد فاهتم بالجرح، وسأل الشاعر عما إذا كان هو الذى صرع وحده كل الدنين اعتدوا عليه. فتبسم بنطاؤر ابتسامة الحياء والتواضع لا الاستكبار والعلو والزهو، وكان في حالته هذه تجاه الشاب الذى جُرحت يده كالطفل الذى يجرح عصفوراً بعد صيده ثم يبكى حزناً عليه مع أنه السبب في مصابه. أما نبسشت فقد حدق بنظره في بنطاؤر، وقد أخذ منه القلق والذهول كل مماخذ وساله: لم لم تجهر باسمك في الحال؟ أجاب بنطاؤر: إن روح الإله (منث) سرت في عروقي حينما شهدت هذا الرجل الحقير وقد جذب إليه وردة من شعرها المرسل على كتفيها، فلم أعد قادراً على ضبط نفسي... قال نبسشت: لقد أحسنت، المرسل على كتفيها، فلم أعد قادراً على ضبط نفسي... قال نبسشت: لقد أحسنت، ولكن قل لى كيف نخرج سالمين مما دخلنا فيه متورطين؟

طرق الآذان دوى طبل كانت تردده أركان الوادى، فما هي إلا فترة قصيرة من السرْمن حتى وقد الضابط الذي أنفذه أميني للقبض على المحنط ومعه شردمة من الجند. فأمر المجتمعين حول بيت هذا الرجل أن ينصرفوا فأذعن بعضهم وعصى

الآخرون فحمل عليهم وشتّت شملهم حتى لم يبق في مكان الحادث أحد سواه وأعوانه وبنطاؤر ونبسشت. أما الأميرة وأخوها ونيفرت فقد زايلوا المكان من بادىء الأمر مع المتثلين لأمر الضابط، إلا أن راميرى كان كثير الاهتمام بوردة فلم يبرح المكان إلا بعد أن استوثق من سلامتها وأيقن أن لا خوف على حياتها. واستولى الجزع الشديد على نيفرت فلم تستطع السير على قدميها فحملها رؤساء حملة المحفات على أكفهم متشابكة الأصابع وساروا بها أمام الأميرة لتشملها بسامى التفاتها. ولم يفتر راميرى لحظة واحدة عن التفكر في وردة وما عسى أن يؤول اليه أمرها في هذه الليلة، فقال لأخته: لقد أصبح بيت المحنط أثراً بعد عين، فأين يقى أولئك المساكين أنفسهم من طوارىء الجو وأعراض الحياة في الخلاء ؟ ..

أما الضابط وجنده فإنهم بعد أن أجلوا الناس عن الوادى عادوا إلى مكان الشيخ بينم فوجدوا به الساحرة نيخت ووردة وبنطاؤر ونبسشت، فشرح الشاعر للضابط ما عاينه من الحوادث ثم عرفه بنفسه فمد إليه الضابط يده مصافحا وأمعن النظر في ذاته معجباً، وقال: ما أشد هذا الساعد وأمتن هذه العضلات! لو كان حول رعمسيس أعوان مثلك لما طال بمصاربته أمة الريتاس الأمد .. ومن الأسف أن يكون الذين صرعتهم هذه الساعد من أبناء طيبة لا من الأسيويين. ويريدني أسفا أن أكون مضطراً بحكم المهمة التي نيطت بي إلى القبض عليك والذهاب بك إلى الكاهن الأعظم أميني..

فأوما بنطاؤر برأسه إيماءة الامتثال وقال: أفعل ما بدا لك، فلست بمعارضك في شيء. فأمر الضابط أعوانه بحمل جثة بينم إلى بيت سيتى ثم التقت إلى بنطاؤر ونبسشت وقال لهما: أرى من الواجب القبض على هذه الفتاة. قال الشاعر: إنها

مريضة وليس لها شأن. قال الطبيب: والراحة لها لإزمة وإلا ضاع كل أمل ف نجاتها من الموت.. وعندى أن الصواب في تركها حيث هي، لا سيما وأن الأميرة بنت أنات كريمة ملكنا قد خصتها بمحبتها وجبتها برعايتها منذ أصابتها الجراج التى كادت تودى بحياتها. قالت نيخت: سأجملها إلى بيتى العناية بصحتها، ولقد بعثت إليه بجدتها لأنها كادت تختنق بدخان الحريق، إلا أنها قد أفاقت من غشيتها وعادت إلى سابق حالتها. قال الطبيب: كل ما أسمح لها به أن تقيم في بيتك بين عشية وضحاها، أي ريثما أهتدى إلى مكان يليق بهما. فتبسمت الساجرة وقالت ساخرة: إنى أعرف كثيرين غيرك يودون أن لو تقيم هذه الغادة في بيوتهم وأن لو يتولوا العناية بأمرها والمحافظة على حياتها.

كان الجند في خلال ذلك أتموا وضع الجرحي على الأسرة المعدة لنقلهم فأمرهم الضابط بالمسير فساروا ومعهم بنطاؤر وجثة الشيخ بينم أما بنت أنات وراميرى ونيفرت فوصلوا في غضون هذه الحوادث إلى شاطىء النيل بعد أن لقوا من الصعاب ما يقصر عن وصف القلم، وكانوا أتفذوا أحد حملة المحفات ليبلغ الى النوتية الأمر بإعداد الزوارق واستعجالهم في ذلك، لأن نغمات الآلات الموسيقية وأصوات المغنين كانت تصل إليهم من بعيد، كما كانت المصابيح الساطعة الأنوار تتحرك في الأفق فيتخيلها النظارة جذوات متحركة من النار. وفي هذا الدليل على أنهم إذا لم يبادروا باجتياز النيل قبل عودة الموكب في هذا المظهر الجليل فقد تعذر عليهم عبوره، إذ من العادات المتبعة في ذلك الوقت أنه مادام زورق أمون يشق خياله صفحة النيل السلامعة فليس لزورق آخر أن يجرى عليه ولو كان لأمير أو عظيم ويجوز بمثل هذا الانتظار أن تنمحي آية الليل ويسفر النهار فلا يعودون إلى مساكنهم، بل يلبثون في أماكنهم.

وكانت بنت أنات وشقيقها ينتظران في الظلام-بذاهب الصبر- عودة الرسول المذي أنفذاه لإعداد الزورق، وإلى جانبهما نيفرت وقد تلاشت قوتها وخارت عزيمتها. فألقت بنفسها على الأميرة فأحست هذه بارتعاد فرائصها واضطراب سائر أعضائها. وعاد الرسول في الأثناء فأخبر الأميرة بعودة الزورق من الضفة الأخرى وانه سار منها بهدوء وتوازن حتى رسا تجاه المكان الذي كانت تقف فيه مع أخيها ونيفرت فأسرع راميري إليه ونزل فيه وأمسك بالمجداف. وكان ضابط حراس هيكل سيتي آنئذ في طوافه يتعهد رجاله وأعوانه، فدنا من الزورق وقال لراكبيه: ليكن في علمكم أن هذا آخر زورق يرخص له بعبور النيل إلى الضفة الأخرى قبل أن يتم زورق الإله اجتيازه إياه.

فما سمعت بنت أنات هـذا الانذار حتى همت بالنزول فى الزورق وكانت تبذل قصارى همتها للمحافظة على نيفرت ووقايتها من الطوارىء. وكان يضىء مكان النزول من الشاطىء نور باهت منبعث من بضعة مصابيح، فما كادت الأميرة تصل إلى حافة النهر وهى على ما وصفناه من العناية بنيفرت حتى شعرت بيد شديدة قد هوت على كتفها وصوت أبح يدوى فى أذنها، عرفت على الفور بنبراته أن صاحبه إنما هو بعاكر وكان يقول: مكانك أيها الحقير! .. تراجع بزورقك إلى الوراء ليحل زورقى محله ، وعندك من الوقت متسع لتعبر بمن معك بعد انقضاء الاحتفال.

فلم تنبس شفتا ضابط الحرس حينما سمع هذا الأمر بكلمة بل تركه يهتر بما يشاء علما منه بجفاء طبعه وخشونة خلقه، ولم يعارضه بعد ذلك في صفيره الشبيه بزئير الأسد أو هرير الكلاب، ولم تكد تردده الآفاق حتى سمع اصطدام المجاديف بالماء من زورق أخذ يتقدم متهاديا نحو الشاطىء. وقد رآه بعاكر فصاح برجاله:

ادنوا الزورق منى، أما هؤلاء الناس فعليهم بالانتظار حتى يمر موكب الإله.

وكان زورق بعاكر أكبر من زورق الأميرة وأمتن، ولصدمة خفيفة منه تكفي لتحطيمه. فلما رأى راميري من بعاكر ما رآه أوعز لأخته أن تعجل بالنزول إلى البر، فأجابته إلى طلب مسرعة وبالغت في التنكر والتخفى حتى لا يعرف رئيس الطلائع هو يتها. إلا أن هذا الأخير استوقفها ثانياً وصاح بها: أما أمرتكم أيها المتشردون بملازمة هذا المكان؟ ثم أمر نوتيته بدفع الزورق إلى وسط النهر. فخشيت بنت أنات سوء العاقبة لاسيما وأن الخلاف بين أخيها وبعاكر اشتد واحتدم، لأن قائد الطلائع أمعن في مهاتراته وحماقساته حيث قسال: كيف يجرؤ هؤلاء المتشردون العرايا على معاندتي ومخالفة إرادتي؟ .. لابدلي من تاديبهم وتقويم المعوج من أخلاقهم.. عليك باديكر (١) بهذه المرأة وهذا الغلام!.. احمل عليهما واطردهما قصياً عن هذا المكان. قال هذا وأوما إلى الكلب فوثب عليهما نابصاً. فلما رأت نيفرت هذا الأمر صاحت صيحة الذعور فعرف الكلب صوتها فعدل عن توثبه ونباحه وتمسح بها مداهنا متملقاً. وكان بعاكر على وشك النزول في زورقه فلما شهد الكلب يحوم حول نيفرت ويتمرغ عند قدميها أخذه الدهش واتجه نصوها وصاح بها مغضبا: سوف أعاقبك أيها الشاب المفتون لأنك استعنت بالسم والسحس على إذلال هذا الكلب لطاعتك. ثم رفع سوطه وأراد أن يهوى به على نيفرت فسقطت على الأرض رعباً وهلعاً . ومما لا ريب أنه فيه لولا بنت أنات التي كانت أنشذ خلفه واستطاعت أن تجذب يده لمزق السوط خدها تمزيقا بدلا من الأثر الخفيف الذي تدركه فيه وكان سبباً لذعرها ووقوعها مغشياً عليها. وما وقع نظر راميري على هذا العدوان حتى برح الزودق

⁽١) اسم كلب بعاكر ، وقد سبق الكلام عليه أل الجزء الأول.

وبيده المجداف وابتدر المعتدى الأثيم بقوله: إنك لجبان سافل!!

أما بعاكر قلم ينبض له منذ سمع هذا القول نبض لاعتياده مكافحة الانداد في ميادين الجلاد، بل نظر إلى كلبه ديكر وصفر له صفيراً خاصاً يفيد معنى الامر بالهجوم على الامير وتمزيقه جلده باسنانه. ففهم راميرى هذا المعنى، وكان ثبت الجنان جريثاً كما كان صياداً حاذقاً حاضر الذهن طالما تقرغ مع رعمسيس أبيه الصيد في الآجام العامرة بالوحوش الكاسرة، فضرب الكلب بطرف المجداف ضربة أصابته في أنفه فصرعته. ولم يكن لبعاكر صديق أوفى له عهدا من هذا الكلب، إذ كان رفيقه الأمين في جولاته وأنيسه في سكونه وحركاته والصديق الذي لا يمل في وحدته واجتماعاته. فلما شهده طريح الثرى يتمرغ في دمه وتنازعه عوامل الموت والحياة غلب عليه التهور واستمكن من نفسه الغضب فرفع السوط يريد أن يهوى به على الأمير انتقاماً منه على فعلته.

أما راميرى فقد كانت تلك الحوادث المتتابعة بما تخللها من المصاعب والأخطار قد نبهت في نفسه عزة الملك وكرامة الإمارة فكبر عليه أن يجرؤ مثل بعاكر على ما ارتكب من اعتداء شائن وقذع مهين في حق أخته ونيفرت. وكان يحس كرجل أنه المسؤول عنهما، وأن الواجب عليه منع الأذى من الوصول إليهما. ودبت فيه نخوة الرجال وشجاعة الابطال فضرب بعاكر بالمجداف ضربة نثرت من يده السوط وجعلته يثن من شدة الألم ويعول كالثكل، غير أنه جرّد من نطاقه خنجراً ماضيا وحاول أن يضرب به الأمير فسرعان ما توسطت بنت أنات بينهما وجهرت باسمها ولقبها، فما طرق صوتها سمعه حتى تراجع إلى الوراء خشوعاً وخجلاً. ولم تنبس شفتاه بكلمة، بل وقف منها موقف العبد الخاضع يتلقى من مولاه الأمر. ولقد

أمرت النوتية بأن يدنوا الرورق من الشاطىء وراها تجذب إليها نيفرت التى روعتها هذه الحوادث وتأمر أولئك النوتية بالاتبعاد عن الشاطىء فتم كل ذلك طبق إرادتها، وأخذ الرورق يشق وجه النيل بمقدمته فما هى إلا دهائق معدودة حتى وصل إلى الضفة الأخرى فغادره ركابه جميعاً إلى القصر الملكى تتنازعهم عوامل الوصب والقلق والارتياع.

وكانت (ستخم) مضطجعة في محفتها باعدلا الجسر، فوصلت إلى سمعها ضوضاء المعركة التي نشبت بين الأمير وابنها. وقد تاقت نفسها إلى استطلاع الخبر، فلما جاء هذا الأخير في زورقه سألته عنه فلرم الصمت وكفت هي عن السؤال، وظل الاثنان كذلك إلى أن تم عبور الموكب للنهر، وعبره بعض المتخلفين بامره. وكان يلقى في خلال ذلك نظرات الأسف والحسرة على كلبه العزيز الذي قتله راميري ثم إلى يده التي أصابها المجداف بضربة مسرفة فجرحت جرحاً فادحاً فيمتلىء صدره حقداً ويتأجع بضراوة حب الانتقام ويقول: هذه البذرة الشريرة التي غرسها رعمسيس. هذا النسل الخسيس! لسوف يعلمون من أنا.. إن مينا ورعمسيس بالمعسكر متجاوران فهما لا محالة هالكان.

الفصل الرابع «وليمة في هيكل.. والكهان بين المشرب والمأكل»

بعد أن ظل بعاكر واقفاً طويلا على ضفة النهر عاد إلى طيبة مصطحبا والدته ورمة كلبه ليرسلها إلى كينوبوليس(١) وقصد بعدئذ إلى طيبة الأموات لحضور مادبة الليل. وإذ كان يحس في يده آلاما شديدة من جراء الضربة فقد ضمدتها له والدته كيلا يعوقه عائق عن حضور تلك المأدبة التي دُعي إليها لأول مرة بعد وفاة أبيه، ثم كان لا مفر له من الذهاب إليها، وقد أبلغه أميني أن الوالي راغب جد الرغبة في مقابلته ومحادثته.

كان بعاكر من أسرة اشتهرت بالأصل العريق والمحتد الكريم والنسب الراسخ، بل عُرفت بين العموم بأنها برزّت أسرة فرعون شرفاً ومجداً، غير أنه إذا رمت به المصادفة في جمع من علية القوم ووجهائهم ظهر عليه في الحال من الأمارات ما يوقن المتفرس فيه أن في أمره سراً خفياً لا قدرة لأحد على استجلائه . وكان حائزاً على لقب «كاتب» وإن لم يكن في الواقع من الكهان الكاتبين، كما كان جنديا وإن لم يُدرج اسمه في ديوان الأبطال المحترمين. فهو إذن لم تتوافر فيه فضيلة ولم تتحل نفسه بمحمدة من محامد الخصال. وكل ما أثر عنه أنه كان حريصا على أداء

⁽۱) هي سملوط الآن، وكانت مقر عبادة الإله (انوبيس)، وكان الكلب من بين آلهتها المحترمين، روى بلو تارك معركة حصلت بين أهالى (كينوبوليس) و (أوكسر نكوس) التي كان أهلها يعبدون السمك المسمى بهذا الاسم. وسبب هذه المعركة أن أهالى المدينة الأولى أكلوا سمكة من السمك الذي يعبده جيرانهم فانتقم منهم هؤلاء بأن أدبوا مادية تناولوا فيها ما أمكنهم الحصول عليه من الكلاب.

واجباته فى المواعيد الموقوتة لها، وإنه كان من الهمة والنشاط بما لا يجاريه فيه أحد متى كان الغرض الذى يرمى بهما إليه تحقيق أمنية أو قضاء وطر أو نيل مطمع. وبالجملة فقد كانت أطواره وطباعه تناقض ما عُرف عن أفراد الطبقة الرفيعة التى حشرته الظروف فى زمرتهم، وكان والده الموهار فى مقدمتهم فضلا وشجاعة وكرما.

ولم يكن بعاكر بخيلًا بل كان بما أسنى له من الرزقُ عليه من العيش رخي اللبب كثير البذل. ومما يؤثر عنه أنه أنفق أمو إلاَّ طائلة مما أخلفه له والده ف سبيل الخبر والبر، غير أن نقائصه الشائنة وعبويه الفاضحة أفقدته الصواب فلم بعد يستطيع وضم الأشياء في مواضعها أو يقدرها قيدرها. وكان إذا أجزل لأحد العطاء تقاضى منه في مقابل إنعامه عليه إتاوة الثناء على شمائله وضريبة الإطراء في كرمه وسخائه، وريما تعسف في الطلب فركب الركب الخشن وأتى من قبيح الفعل ما لعل سبيه أنه كان يرى حقاً لنفسه الظهور بالصرامة والعزم على مراى من الناس جميعاً . حتى من استداهم الجميل ووصلهم سالمنح. لنذا كنان لا يجنى من غيراس فعياليه الحميدة غير العداء له والحقد عليه، وكيان أخص ما يعرف به من الخصال الكبرياء والصلف، الا أن غياوته كانت تبدو من خلال هذه النقيصة وأضحة كالشمس بين السحب الكثيفة. وما يُعرف من صفاته المحسوسة خشونة صوته وصلصلته في رداءة تجزئة عند الكلام، واتساع وجه في انبعاج يشوهه، وقصر جسم في اختلال تناسب وانعدام تجانس وضيق عقل لا يبدرك معه لطف الإشارة ولا حسن الإنباه. ولقد كنان يفضل الإقامة في المعسكان عليها في المدينة لأنه في المعسكان غير مقيد بما يصده عن جماحه في غوايته وتخيطه في أياطيله واسترساله في شهواته، أما المدينة فإنه فيها مضطر إلى مخالطة أمثاله فلا ينعم بينهم بالله، بل يشعر أنه دخيل فيهم

وانه أدني منهم مرتبة. تلك هي علة إيثاره العزلة عن الناس وتجنبه مخالطتهم، فاذا أجاب يعوم أميني فما هو إلا ليظهر في مظهر العاتي المتجبر المتغشمر.

وجرت العادة بأن لا يمد السماط إلا في منتصف الليل ليشهد المدعوون ما يعرض على البحيرة المقدمة من المراثى العجيبة وليسمعوا الاناشيد والمدائح التى صاغ الشعراء قلائد نظامها وافترعوا أبكار معانيها تمجيداً لإيزيس وأوزريس. ومع هذا فإنه ما ولج مكان الاحتفال الذي بلغ برينته منتهى الأبهة والجلال حتى رأى المدعوين مجتمعين وتجلي له (أنى) مستوياً على العرش إلى يمين أمينى وأمامهما المائدة الكبرى، وقد صُفت حولها كراسى خالية من الجالسين، وكانت مخصصة لبعض كهنة هيكل آمون الذين دُعوا لشهود الاحتفال ثم امتنعوا عن إجابة الدعوة معتذرين. وما كان لتخلفهم عن الحضور من سبب صحيح سوى إخالاصهم الولاء لحرعمسيس وارتيابهم في صدق نيات أميني على وجه ألزمهم اعتبار جكاية المعجزة حيلة مبتدعة لدس دسيسة وتدبير فتنة انتقاماً منه فيما أظهره من الابثار لكهان طبية الاموات(١).

لما دخل بعاكر هِذِا المكانِ واتجه نحو المائدة كان يجلس إليها القائد العام للجنود

⁽۱) تبرع جميع ملوك الدولة الحديثة بالأموال الطائلة لهيكل الكرنك، وأقدم اسم نقش على جدرانه هو اسم أوزرتسن الأول من الأسرة الثانية عشرة. وقد عُطلت أعمال العمارة فيه في عهد الهكسوس أي عرب الرعاة ولكن ملوك الأسرتين الشامنة عشرة والتاسعة عشرة اهتموا بتوسيع نطاقه اهتماما عظيما فبلغ من السعة والفخامة وحسن التنميق مالم يبلغه هيكل آخر. فإن القاعة الكبرى منه التي بُدىء بإنشائها في عهد رعمسيس الأول وتمت في عهد سيتي وزينت بالنقوش والرسبوم في أيام رعمسيس الثاني كان تحتوى ١٣٤ عمودا وكان يبلغ طولها ١٠١ متر وعرضها ١٥ مترا. وقد ضم رعمسيس الثاني هيكل الأقصر إلى هيكل الكرنك وأتم نظامهما بمبان بلغت الغاية القصوى من الإتقان والفخامة. وكانت الهدايا والقرابين والتبرعات تنصب في خزائن ذلك الهيكل الجليل كالسيل الغزير وكان كل فرعون يلي الحكم يجاري أسلافه في العناية به.

الظافرة العائدة من الحبشة وفريق من عظماء الضباط، فرأى بجواره مكاناً خالياً نسارع إليه وما تأهب للجلوس فيه حتى رأى هذا القائد يوعز إلى جالس على مقربة منه أن يسبقه إليه ففطن بعاكر لهذا الايعاز وفهم منه أن القوم لا يتقبلون مثوله بينهم فولى عنهم مدبراً وأخد يتلفت يمنة ويسرة ويمد بصره أمام وخلف للبحث عن مكان يليق به، بينما كان ذلك القائد يتمتم لسانه بالكلمات الآتية: «إن نبيذى يحمض إذا نظر إليه هذا الفظ الغليظ» أى أن مجاورته إياه تفضى إلى غضبه وتذمره منه.

انصرفت الانظار نحو بعاكر وحومت عليه دون أن يدعوه أحد إلى الجلوس، وأحس أنه دخيل فاحتدمت نار الضغينة في صدره وبدت أمارات الغيظ على وجهه وعن لمه أن يفضح من قاموا بترتيب الاحتفال، فاتجه إلى الباب من فوره، غير أن الوالى شهده وهو عائد ففطن في الوقت الى حقيقة قصده وسار أميني في أمره فدعاه هذا إليه ورجا منه أن يجلس إلى جانبه مؤكداً له أن المكان الذي يدعوه إلى الجلوس فيه كان معداً برسمه ومحجوزاً له، والحقيقة أنه كان مما خلا على أثر رفض أنبياء هيكل أمون وكبار كهنته إجابة الدعوة إلى الوليمة. فما استقرت هذه الكلمات في أذن بعاكر حتى انجلى كربه واهتزت نفسه سروراً، فأحنى رأسه شكراً وإجلالا وجلس في الكرسي مطرقا براسه خشية أن يسرى حوله من يرمقه بعين الاحتقار ويستكثر ما لقيه من مظاهر الحفاوة والإكبار.

غير أن الهواجس لم تلبث وقد استقر في مكانه أن خامرته فأنشأ يقول جلس والدى مراراً في مثل هذا المكان وكذا جدى ومن قبله أجدادى الأولون، فلم لا أجلس فيه مثلهم وأنا غصن دوحتهم ووارث مجدهم؟.. ألم يكن لأسرتنا الفضل على رعمسيس بإخلاصها في خدمته؟ وبينما كان تائها في بيداء هذه الهواجس إذا بخادم

أقبل عليه ووضع غصنا منضداً بالأزهار على كتفه وتلاه آخر سكب في قدحه النبيذ ووضع أمامه من الوان الطعام ما يسيل له اللعاب، فرفع عندئذ رأسه فكان أول من أبصر به النبى الثانى جاجابو وهو يرشقه من نظرات السخر والاستخفاف بسهام حادة، فعاد إلى الإطراق حياء واستخذاء وأحس بنفسه الصغار والهوان. ولقد حانت من الوالى التفاتة إليه وهو في هذه الحيرة فهم بتخليصه من هذه القيود، إذ أخذ يطيب نفسه برقيق اللفظ وعذب المؤانسة وقال للحاضرين: إن الموهار سيرحل غداً إلى البلاد السورية لأداء مهمته الخطيرة. وأردف هذا القول بالإطراء في مدحه والثناء عليه، فلم يجاوب بعاكر بكلمة على هذه التحية الجميلة ثقة منه بأن الوالى كان يتكلف الظهور بهذه الرعاية ليبرر للحاضرين إجلاسه إياه الى يمينه أى ف أشرف مقام وأسنى مكان، ولكن صمت الموهار لم يمنع الوالى حينما حان أوان تعاطى الشراب من تمنى الفوز لبعاكر في كل ما نبط به من جلائل الأعمال.

وأردف الكاهن الأعظم هذا التمنى بالثناء على بعاكر بالنيابة عن كهنة هيكل سيتى، لأنه كان في اليوم السابق تبرع للهيكل بقطعة أرض جيدة التربة (١) وما ختم أمينى ثناءه حتى ارتفعت من السامعين أصوات الاستحسان والتصديق وثلج صدر بعاكر ورضيت نفسه ونعم باله، إلا أن علامات الألم من الجرح الذي بيده كانت ظاهرة على وجهه وفهم الوالى ذلك فسأل: أبيدك جرح؟ أجاب: نعم بها جرح ولكن لا خوف منه، وسببه أنى كنت أرافق والدتى إلى الزورق فسقط على يدى.. فقاطعه أحد كبار ضباط صامية طيبة مازحاً، وكان من رفاق بعاكر في المدرسة:

⁽١) توجد وثائق كثيرة تتضمن بيان تبرعات الملوك والكبراء بالأراضى الزراعية للهياكل. وكان الأغنياء من الأهلين يقتدون بالملوك إذ كانوا يتبرعون بمبالغ جسيمة لترميم المعابد وتوسيع نطاق الهياكل كما فعل الغنى (أمن أم أبت) في هيكل مدينة أبو.

سقط على يده مجداف أم عصا؟ فسأل الوالى: أو هذا من المكنات؟ قال الضابط: نعم، وقد وصلت إلينا تفاصيل ما وقع فى تلك الليلة ومنها يفهم أن الذى جرحه شاب فى مقتبل العمر وأنه قتل كلبه قبل أن يجرحه فى يده.

فسأل متولى أمور الصيد بصوت الآسف: أو قُتل كلبك ديكر!.. إن والدك كان كثيراً ما يحضر به للصيد والقنص وكنت أصيد معه جنبا لجنب، فصادق بعاكر بإشارة على هذا القول. وكان يبود أن لو ينتهى الحديث في الموضوع لولا أن قائد الحراس الذي له من سمو المرتبة ما يبيح له الكلام قال ساخراً منه غير مكترث بما بدا على وجهه من علامات الحياء والاستخذاء: نعم، وما صرع الفتى الكلب حتى قهرك وجردك من سلاحك. سأل أنى: وهل أفضت المعركة إلى هرج بين الناس؟ اجاب قائد الحراس: كلا، فإن الاحتفال انقضى على ما يرام من السكينة والسلام. ولو لم تعرض حادثة المحنط بينم الذي بما اعتراه من الخبل والجنون أخل بنظام الموكب فترة من الزمن لساغ لنا القول بأن هذا النظام بلغ من الإتقان أقصى حدود الإمكان. وقد أصبح لزاماً علينا الآن أن نشكر للمحتفلين حرصهم على النظام الجمعين. ولكن قل لى يا بعاكر: ماذا استلان فؤادك واستل من قرارة نفسك كمين الحقد حتى تنازلت عن الانتقام من ذاك الشاب الذي أصابك بيدك وصفحت عنه هذا الصفح الجميل؟ قال جاجابو: أصحيح ما ترعمه من صفحه عمن اعتدى عليه وما عرفنا عنه الا الغلظة في معاملة الناس والغدر في التشفي منهم لاقل حادث؟

تحول أمينى نحو جاجابو ورشقه بنظرة فهم منها مراده، وأنه كان لا ينبغى له نقل الحديث إلى هذا الوضع فسرعان ما تحوّل من هذا التهكم على بعاكر إلى الظهور بمظهر المهتم يأمره المشفق عليه إذ سأله عن أسباب المعركة وعن الفتى الغر الذي

تعدى عليه بالضرب والإهانة. أجاب: إن طغمة من الاشرار الأغرار راموا أن يحولوا دون رسو النورق الذي أعددته لكي تعبر والدتي به النهر على الشاطىء يبتغون بذلك المرور قبلنا فأقهمتم أن تقدمنا عليهم حق ثابت لنا، وبينما كنت ماضياً في حديثي إذا بفتي شرير توثب على فصرع كلبي ديكر ثم.. ولكن قسما برأس والدي الاوزريسي الذي طالما أكرم هذا الحيوان الأمين الشريف أنه لو لم تقف بيني وذلك الفتي المغرور امرأة قالت إنها ابنة رعمسيس، ولولا أنها بهذا الاعتراض منعتني من الانتقام لنفسي لكانت التماسيح الآن تنتاب في قباع النيل جثة ذلك الغر الذي يخيل لي أنه راميري المنبوذ منذ أمس من مدارسكم نبذ النواة.

فلما سمع متولى الصيد والقنص هذا القول قال: قف مكانك يا حضرة الموهار، فلست أنت بالثمل حتى تخبط ف حديثك خبط عشواء. كيف تجرؤ على ثلب أبناء رعمسيس والنيل من كرامتهم بمثل هذا التلبيس؟ وكان بعض الضباط الحاضرين من الموالين للاسرة المالكة قد ساءهم سماع هذا الافتراء، فمال أميني على بعاكر وساره أن يلزم الصمت ثم قال بصوت جهير مخاطباً متولى أمور الصيد: بدا من خلطلك في كلامك وعدم تدبرك مصائره ما أوقع في روعي أنك مصاب بحمى، تعال يا جاجابو لنفحص جرح بعاكر ولنقرر ما يحتاجه من علاج.. أرى في الاعتداء من أمير كراميري ما يحط من كرامة المعتدى عليه ويزرى بشرفه. فأخذ جاجابو يد بعاكر وبعد أن نزع عنها ما حولها من الضماد صاح: رباه!.. لقد كانت الضربة شديدة تكسرت بسبيها عظام ثلاثة أصابم.. انظر يا بعاكر زمردة خاتمك.

ما ألقى بعاكر نظره على الجرح حتى ساد على عقله إيمانه بالأوهام الباطلة، ولم يعد يشعر بالألم. وما كاد يوقن أن فص الخاتم قد شدخ، وهو الفص الذي كان

, عمسيس أهداه إلى والده لا الذي أهداه إليه تحتمس الثالث حتى زفر زفرة الاغتباط والرضاء وأحس بالهموم وقد انجل صداها عن صدره، وزاد اغتباطه أن أجزاء الخاتم تطايرت حتى لم يبق به أثر من كلمة رعمسيس المنقوشة فيه. واضطربت شفتاه بعد ذلك وسمم هاتفاً يقول له: لقد رسمت الآلهة لك الخطة التي يجب عليك اتباعها، لأنه وقد انمحى اسم الملك من الفص وذهب هباء فلابد أن يحسر صولجان الملك. قيال جاجيابو: يحزنني بل ويكمدني أن يضيم الفص دون اليد التي كانت تتحل به.. ولكن حمداً لــلآلهة أن جعلت الإصابة بالبيد اليسري.. والذي أراه أنسب بحالك الكف عن الشراب والبحث عن نبسشت فإنه هو الذي يستطيع دون سواه معالجتك واعادة العظام المرضوضة إلى مواضعها طبقاً لقواعد العلم، فهم بعاكر بالانصراف واعداً الكاهن الأعظم والوالي بالعودة نهاراً لمقابلتهما. وما كاد الباب بُغلق من خلفه حتى قال أمين صندوق الهيكل وكان يشيعه بنظره: لقد لقى الموهار اليوم من شؤم طالعه ما ينبغى أن يكون له العظة النزاجرة. وهو ما زال مصراً على إرادة الجهل بها حتى الآن وهو أن المرء في اختلاطه بالناس واحتكاكه بهم ينبغي أن يعاملهم بغير ما يعامل به الجنود في المعسكر. وإن تأذنوا لي فإني أقص عليكم حادثة وقعت له ليس فيها ما يرتاح له الفؤاد أو يثلج منه الصدر. فصاح المعوون جميعاً: نعم! نعم! هات ما عشدك هات. قال أمين الصندوق: أتعرفون الشيخ سيني؟.. هذا الرجل المعروف بشروته الواسعة تبرع للفقراء بكل ما تملكه يمينه، لأن أولاده السبعة لبوا نداء الآلهة وهم في مقتبل العمس إما في ميدان القتال وإما مرضوا بمختلف الأمراض. ولم يحتفظ لنفسه من تلك الشروة الطائلة بغير حديقة وبيت صغير. يعتقد هذا الشيخ أن الآلهة دعوا أبناءه إلى السماء فلبوا دعوتهم فرحين مستبشرين رانه لم يبق عليه بعد مغارقته إياهم إلا إسعاف المنكوبين ومواساة

البائسين ومراعاة اوامر الدين القاضية بإطعام الجائعين وإرواء العاطشين وكسو العرايا والمقرورين. ولقد استنزف في هذا السبيل كل ثروته فلم يبق عنده منها ما يدفع عادية الجوع والعطش وطوارىء الجوعن نفسه، وهو لذلك ما برح يقطع أقطار المدينة ويجوب أنحاءها جائعاً عاطشاً عارياً يستندى أكف السابلة، فإن تصدقوا عليه بشىء بذله للفقراء كيلا تنقطع عنهم سلسلة إحسانه. وقد عرف الناس منه هذه الشيم العالية فتراهم يتسابقون إلى الصدقة عليه، وشهدته اليوم حاملا زقه يسأل المارة إحساناً ناظرا إليهم بعين الابتهال وخص بالسؤال من بينهم بعاكر، فسرعان ما نأى عنه بجانبه وصاح فيه قائلاً: إليك عنى.. واخسأ لا تتعلق بأذيالى. ولكن الشيخ لم يعبأ بهذه الإهانة بل اقتفى أثره طمعاً في إحسانه وألحف في بأذيالى. ولكن الشيخ لم يعبأ بهذه الإهانة بل اقتفى أثره طمعاً في إحسانه وألحف في السؤال، فدار بعاكر على كعبه وضربه بسوطه ضربا مسرفا وقال: ها هى الصدقة التى تلح في طلبها، فتلقى الشيخ الضرب بالاحتمال والتجلد ومد يده بالزق إلى بعاكر وقال له وهو يذرف الدمع غزيراً من عينيه: إذا كان ضربك إياى نصيبى من صدقتك فأن نصيب الفقراء..؟

وكنت ساعتئذ مارا بجوار بعاكر فرأيته يتسلل كالحرباء حتى دخل كهفا معدا لجثث الأموات. فاغتنمت والدته البائسة فرصة اختفائه فأفرغت ما معها من النقود في زق سيني. فما لمحها الناس مقبلة على الصدقة حتى سارعوا إلى الاقتداء بها في التصدق عليه، إذ بسطوا له الأيدى بالإحسان إليه، فاجتمع عنده من الصدقات والمبرات مالم يخطر له ببال.

وكان الجالسون إلى المائدة مقبلين على سماع هذا الحديث بطيب نفس لأن الإنسان مفطور على حب سماع الذم فيمن اشتهروا بالتجبر والصلف والطموح الى

مالا يناسب حالهم من المعالى وشريف الرتب. وكان أمينى وأنى فى أثناء ذلك يتناجيان إذ كان الأول يقول للثانى: لقد شهدت بنت أنات الاحتفال من بدئه الى نهايته. قال آنى: لعلها كانت تود أن تتحين الفرصة للقاء الكاهن الذى شملته برعايتك. قال آمينى: لا بأس من سؤال بنطاؤر عن هذه الامور. قال آنى: أرى فى الظروف الحاضرة أن استدعاء الشهود لسماع أقوالهم تدبير سابق لأوانه. قال أمينى: وهل أنت بحاجة إلى شهود وقد عهدت فى شاعرنا الصراحة والصدق ولو أحرقه الصدق بنار الوعيد، قال آئى باسما: لنبرح هذا المكان فإنى أحب أن أراه فى متنازع بين الصدق والإنكار.. وهل نسيت يا صديقى أن للمرأة فى هذه الحادثة ضلعا؟ قال: صدقت فإن الحوادث بلا نساء كالطعام بلا ملم.

ثم دعا إليه جاجابو وعهد إليه برياسة المادبة بالنيابة عند ووصاه بمجاملة المدعوين وتحريضهم على الشراب ومنعهم عن الخوض في أحاديث الملك أو الحكومة أو الحرب ثم قال له: ولا ينذهب عليك أننا اليوم في قوم من الأجانب وأن النبيذ فاضع للأسرار هاتك للستار، وأن أس التدبير أن يتلفت الإنسان يمنة ويسرة في كل خطوة يخطوها ليتقى شرور من يترسمون أثره لتسمع ما يقول وتربص السوء به، فلا تنس هذا ولا يبرحن عن بالك!

فضرب أنى بكفه كتف الكاهن أمينى كما يمزح الصاحب مع صاحبه وقال: أما أن المدعوين سيستنزفون ف هذه الليلة ما ادخرته من النبيذ العتيق فهذا ما لا خلاف فيه. ولقد اتصل بى أنك لا تهتم بأمر الشراب وأنك لا تفرق بين الكأس ممتلئة بالشراب والقدح فارغا منه ولكنى أنصح إليك إذا طاب لك الشراب أن تطلب من

تابعى ذلك الواقف هناك ليملأ قدحك بنبيذ ببلوس (١) فإنه خير الأنبذة طعما ولونا على الإطلاق.

وكان مما جرت به عادة أمينى أن يبرح مائدة الطعام عندما يهم القوم بالشراب فلما ترك مع أنى بهو الاحتفال علت ضوضاء بين المدعوين، وجاء الخدم والحاشية باغصان الأزهار يطوقون بها أعناقهم وتبعهم غيرهم يحملون أباريق الشراب ليملأوا بها الاقداح الفارغة، وسمعت في أثناء ذلك ألحان موسيقية تهز النفوس لحسن صنعتها وصحة تجزئتها، فما هى إلا فترة من الرمن حتى وصلت إلى بهو الاحتفال جوقة من الموسيقيين يصدحون بالأنغام المطربة وفي طليعتهم رئيسهم موجها وجهه إليهم ضاربا بأطراف أصابعه اليمنى على كفه الأيسر لوزن الأنغام وضبط الإيقاع وأدائه الأداء الصالح في تطابق تام وحسن انسجام، وأخذوا يطوفون حول المدعوين ويواصلون العزف حتى دب الحماس في نفوسهم فأخذوا ينقرون على أقداحهم البلورية مراعين في الضرب والتلحين موافقة الموسيقيين.

تلألأت وجوه الكهنة عندئذ وأبرقت أسرتهم ومضى الضباط في المطايبة والتملح بعضهم مع بعض بينما كان جاجابو يشير إلى شاب من خدمة الهيكل فأقبل عليه مكلل الهامة بأكليل من الأزهار وبيده مومياء صغيرة سذهبة طفق يطوف بها على المدعوين قائلا لكل مدعو «كل مريئاً واشرب هنيئاً واطرح الهموم ظهريا فعما قريب تصير مثل هذا» (٢) ثم دعا النبي جاجابو بتابع الوالي الذي كان يحمل ابريق نبيذ ببلوس فشرب منه كاساً دهاقا بعد كأس حتى انتشى واتقدت في قلبه نار الغيرة على

⁽١) بلدة في فينقيا كانت شهيرة في ذلك العهد بكرومها.

⁽٢) أشار هيرودت إلى هذه العادة في الجزء الثاني من تاريخه.

آنى فأخذ يطرب ويتبسط فى تعداد مناقبه. وكان بين الحضور كاهن معروفاً بالوقار وحسن السمت فلما لعبث الخمر المعتقة بعقله خرج عن أفقه وانطلق لسانه من عقاله فقال: ما أطيب هذا النبيذ وما أجود طعمه وما أشبهه بالصابون! قال جاجابو: هذا تشبيه غريب فى بابه فاخبرنا عن أسبابه. قال الكاهن: إن النبيذ يطهر القلب من أدران الهموم والأكدار فهو من هذه الجهة كالصابون الذى يطهر الجسم من الاقذار. قال جاجابو: لله درك أيها الكاهن، ولا فُض فوك. ثم التفت إلى بقية الكهنة وقال: ليأت كل منكم بمثل سائر وقول معروف فى مدح هذا الشراب والتنويه بحسن أثره، ثم التفت إلى النبى الأول لهيكل أمينوفيس وقال: هات ما عندك، هات فأنت أول من يشنف سماعنا بتلك الآيات البينات. قال النبى: الحزن سم ترياقه النبيذ. ثم تلاه المستشار الخاص فى معية الملك فقال: لكل شيء سر، وسر النبيذ ويوصد الفرح. وانبرى أمين الأختام بعده فقال: النبيذ يطرد الهم من عتبة البيت ويوصد دونه البأب. واقتقى أثره حاكم هرمونتيس وكان من المعمرين فقال: النبيذ ينعش أفئدة الشيوخ ولا يفيد الشباب.

هنا صاح الحضور: هذا قول مبهم يحتاج إلى بيان فضحك الشيخ حتى بانت نواجذه وقال: أى بيان تبغون والقول من البداهة بمكان؟ ألا تدرون أن النبيذ يبعث الهمة والنشاط في نفس الشيخ ويكسب الشاب أخلاق الصبية؟ قال جاجابو ملتفتاً للمدعوين الشبان: لا تنسوا هذا البيان معشر الشبان. ثم قال لرئيس المنجمين: وأنت هات ما عندك من الأمثال. قال: النبيذ سم ناقع وشراب يستل من الرأس العقل النافع. قال جاجابو ضاحكا: إذا كان الأمر كما تقول أيها الصديق فليس لمثلك أن يخشى عاقبة الإدمان فدونك والشراب!. ثم التفت إلى ضابط الصيد والقنص يخشى عاقبة الإدمان فدونك والشراب!. ثم التفت إلى ضابط الصيد والقنص

احتساها كان كمن ارتشف الرضاب من ثغر الأحباب. ثم التفت إلى قائد وسأل: وأنت يا حضرة القائد؟ أجاب: أود أن يجرى في النيل بدل مائه الدافق مثل هذا النبيذ وأتمنى أن يضخم جسمى حتى يصبح كأحد تمثالى أمينوفيس، وأن تكون بيدى كأس يبلغ ارتفاعها مسلة حاتاسو(۱) لأجرع بها ذلك الشراب وأسكر حتى لا يهمنى أحضر عقلى أم غاب. وإذ قد جاد كل منا بما في نفسه من الأقوال فعليك أن تتحفنا أيها النبى المحترم بما في خزانة ذا كرتك من الحكم والامثال.

رفع جاجابو رأسه رويدا رويدا وأدنى الكأس منه وأخذ يحدق فيها بنظره مستثبتا كما يفعل العاشق المتوله إذا رمق معشوقه الكثير الصد، وبعد أن شرب منها متمهلا أرسل إلى السماء نظرة من نظراته الحادة كأنه يستنزل وحيها وقال: إن منزلتى لا تخولنى النهوض بمفروض الحمد والشكر للآلهة تلقاء ما غمرونا به من جزيل النعم. قال الوالى أنى وكان داخلا من الباب دون أن يشعر به أحد: أصبت أيها الكاهن، ولو كان لنبيذى لسان لما عجز عن أداء حق الشكر لك تلقاء تنويهك بذكره على هذا النسق البديع. فما بلغ صوته إلى مسامع الحاضرين حتى هموا واقفين وقالوا: السلام على الوالى. فسلم عليهم واستأذنهم في الانصراف، ثم قال: أدعو إلى تناول الطعام غدا كل من طاب له تعاطى هذا النبيذ حتى إذا سرّه شرابه في الغد كما سره اليوم فتحت له باب دارى في كل مساء ليتعاطى ما شاء من الشراب. وليكن خير وافد وأكرم ضيف وأجدر بالإكرام والترحاب.

ما كاد يتم آنى هذه الكلمات حتى دوت أركان المكان بالتصفيق وصيحات السرور وتضاعف دوى الهتاف له حينما دنا من الباب وشيعت الأفئدة والألباب.

⁽١) هى المسلة التى مازالت قائمة في هيكل الكرنك، ويبلغ علوها ٢٣ مترا. ويبلغ ارتفاع المسلة التي نقلت من الأقصر إلى باريس واقيمت بها في ميدان الكونكورد ٣٢ مترا.

ولبث المدعوون في تعاطى شراب وهرج واضطراب ولم يزايلوا مكانهم إلا بعد أن تنفس الصباح وكلل هامات الجبال بتاج لجينى من ضيائه المتالق. وكانت العادة في مثل هذه الظروف أن السواد الأعظم من المدعوين يقيمهم العبيد من الجانبين أو يحملونهم من الذراعين والقدمين ليضعوهم في المحفات ثم يسيرون بهم إلى دورهم شتى وزرافات، ولكن الكاهن الأعظم أمر بإعداد الاسرة أهم داخل الهيكل لهبوب العواصف المربعة وهياج عناصر الطبيعة.

وبينما كان المدعوون مقبلين على الشراب لا يكفون عن الضحك والاسترسال في التطايب والممالحة بلطيف النكات، كان الشاعر بنطاؤر في غيابة السجن جاثياً على ركبتيه باسطاً إلى السماء كفيه لا يفتر عن المدعاء والصلاة، وقد تجرد لهما حتى لم يشعر بالرسول الذي انفذه الكاهن الاعظم يستدعيه إليه ليستجوبه في حضرة الوالى عن حوادث اليوم الماضي. ذلك لأن بنطاؤر كان يجهل حقيقة الحب ومقدار سلطانه على القلب فاصبح من نفسه في حرب عوان، إذ كان تارة يتغلب عليه بقوة الإقناع وطورا يذل له بما فُطر عليه من الميل وسرعة الاندفاع. وكانت عادته في كل مساء قبل الاستسلام إلى الراحة من العناء أن يعرض على ضميره صحيفة سلوكه واعماله في اليوم الماضي ويحاسب نفسه حساباً عسيراً ويوازن بين حسنات واعماله في اليوم الماضي ويحاسب نفسه حساباً عسيراً ويوازن بين حسنات الليلة لم ينظر امامه غير الظلام الحالك ولم يوجه إلى ضميره كلمة لوم قارص ولم يتمثل لخاطره غير صورة خيالية واحدة هي صورة بنت أنات التي كانت تتجلى له بأحمل المظاهر فتسلبه المشاعر وتحيطه بسياج متين لا منفذ فيه للخلاص.

وزاده اضمطراباً وحيرة ف تلك الليلة أنه لم يعتد على أحد بالضرب من قبل ولم

يسفك قط دما فاخذ يقرع نفسه على سوء فعلها ودبت الوساوس ف ضميره. ولكنه كان كلما استمكنت هذه الخيالات من نفسه أحس بالجند الموكلين بحفظ الأمن يهوون بأيديهم الجافية على ناصية وردة ولح كأن بنت أنات تحدق فيه النظر تستحثه على إنقاذ الفتاة وتستنهضه إلى تخليصها من أيدى الظالمين فلا يسعه إلا تلبية ندائها بالمبادرة لتنفيذ طلبها. وكان يخيل له في أثناء ذلك أنه يراها تتابع حركاته بنظرها فتبث فيه الإقدام على القيام بالمهمة الخطيرة التي عهدتها إليه. وما كان له أن يتخلى عن تنفيذ أوامرها لأنه كان -فضلا عن انصياعه لميوله القلبية - يشعر بأن ما عمله يطابق الواجب تمام الانطباق، وأنه لا لوم عليه ولا تثريب على الإطلاق.

على أنه ما نشب أن تبين مما مرّ به من الحوادث أن مستقبله في الحياة قد أخذ سبيلا أخرى أجدر بالاعتبار وأحرى.. ألم يخالف التقاليد التي رسمتها عليه النصوص الكهنوتية.. ألم يرسخ في عقيدته أن التقيد بالقيود السابقة وحصر النفس في دائرتها الضيقة أصبح مستحيلا، وإن توافرت في هذه الدائرة أسباب الراحة والهناء والبعد عن الهرج والضوضاء..؟!

لما عبثت به لجات الحيرة وقد فقته على ساحل الشكوك والريب مد يد الضراعة والابتهال إلى الإله السواحد ذى الجلال أن يكلاه بعين رعايته ويسبل عليه ستر حمايته، ثم حلّق بأجنحة الفكر في سماء الهداية والتمس من والدته التقية الرحيمة أن تشد أزره في التماس الطمأنينة لقلبه والراحة لضميره والقناعة بحاله، غير أن إخلاصه في التوكل لم يعصمه من الوقوع فيما قدّر له منذ الأزل. لأنه كان كلما بالغ في الإنابة والطاعة وبذل في ذلك جهد الاستطاعة شعر في نفسه بدافع لا يقوى على

رده يلقى به ف تيار لا غاية له من الأمانى والأمال. ثم يتولاه الذهول فيقع ف وهدة الياس من الرشد والقنوط من الهداية إلى سبيل الصواب يضرب صدره أسفا وحسرة معتقداً أنه ارتكب جرماً لا يغتفر وذنباً لا شفاعة فيه، وعض أنامله حزنا وندما.

كان بنطاؤر في هذا النزاع الشديد بين أهوائه النفسية ووازع الضمير حينما وفد عليه رسول الكاهن الأعظم. فلما وقف على مهمته قام من فوره تلوح عليه علامات البشر والاغتباط لا علامات الخوف أو الامتعاض. فلما صار في حضرته روى عليه الحوادث بتفاصيلها وشرح كيف أنه نازل طغمة الأشرار، ثم وصف الخطر الذي أحدق بوردة من تعديهم عليها وتضافرهم على الفتك بها حتى اضطر إلى الإقدام على حمايتها. وذكر ما كان من جهاده في ذلك حتى تمكن من خلاصها وفاز هو بالنجاة من أيدي إرائط البلغاة.

فقال أمينى: ولكن أجهلت أنك للوصول إلى هذه الغاية قتلت أربع أنفس ممن حرّمت الآلهة قتلهم وجرحت ضعف هذا العدد من أنفس أخرى? وما الذى عاقك عن مكاشفة القوم بأمرك وأنك من الكهان ليكفوا في الحال عن العدوان .. لم لم تخبرهم بأنك أنت الذى قام فيهم خطيباً فخلب ألبابهم ببلاغته وملك أفئدتهم بفصاحته.. لم تجتهد في تسكين الخواطر الثائرة بما اشتهر عنك من شدة التأثير في الحث وقوة الحجة في الإقناع.. لم عدلت عن هذه الوسائل كلها مؤثراً عليها القوة الجائرة؟ أجاب بنطاؤر: لم أكن ساعتئذ في ملابسي الكهنوتية. قال أميني: هذه غلطة فوق تلك الغلطات وذنب أشد وأنكى من تلك الذنوب.. أنسيت أن القوانين تحرّم عليك مبارحة الهيكل في غير ذي الكهان المعروف بلونه الأبيض من قديم الزمان..؟ أتنكر

أنك لو كنت على الاقل لابساً ثياب العمل لكفت كلمة منك لصد المعتدين، أم كنت تجهل ما خولته من نفوذ الكلمة بين أقراد الأمة؟

قال بنطاؤر: لا أنكر أنه كان باستطاعتى أن أصد الناس عن التعدى لو لبست ذلك اللباس، ولكنهم كانوا قد اندفعوا في تيار الغضب والانتقام فلم ينفع معهم غير انتضاء الحسام، على أنى لم أجد من الوقت ساعتئذ فسحة للتفكير في ذلك الأمر، لاسيما وقد رأيت أحد الهمل المتشردين قد انقض على الفتاة المسكينة كالذئب الخاطف وجذبها من شعرها فلم أتمالك من الاندفاع لإنقاذها غير مفكر في أنه ربما عرضت للموت حياتي، وسرى في عروقي دم الغيرة والحمية بحيث كان في قدرتي أن أقتل ألف نفس بدون أن أحسب حساباً أو أخاف عقابا.

قال أمينى: أرى في عينيك لمع البرق الخاطف، ولحربما كنت الآن تعتقد أنك جئت بما عجز عنه الأوائل من آيات البسالة في حومة الوغي.. أما علمت أن الذين قاتلتهم وأصبتهم هم أبناء وطنك البررة وأنهم كانوا عزلا من السلاح كما لم يكن معهم من يدفع عنهم السوء، وأنهم إذا استشاطوا غيظاً فما هو إلا للغيرة على الدين حينما رأوا أن الحدنس كاد يلحق به بسبب ذلك الشيخ الحدنيء.. من أين جاءتك تلك الحمية العسكرية والحماسة الحربية وأنت لم تخرج عن كونك ابن بستاني يتفاني في خدمة الحربية في اخلاص وسكون؟. قال بنطاؤر: لما رأيت القوم قد تكاثروا من حولي وأني تأهبت للدفاع عن نفسي شعرت في قلبي بما يشعر به الجندي أو البطل الكمي إذا أحس ضرورة الدفاع عن نفسي شعرت في قلبي بما يشعر به الجندي أو البطل عن كوني كامناً وإني بهذا الوصف اعترف بذنبي وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه عن كوني كاهناً وإني بهذا الوصف اعترف بذنبي وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه دون تذمر ولا مقاومة. ولقد شعرت بما طرأ على نفسي من العواطف فلم يسعني إلا

العمل بمقتضاها. قال أمينى: وتريد بعد هذا أن تكفر عن ذنبك بقبول العقوبة! ولكن لم أغفلت في سياق كلامك الحادثة التي ترتبت عليها نجاتك...؟ أتريد أن تعلم ما هي.. هي وصول بنت أنات في خلال تلك الحادثات وتدخلها بين الجموع وهو ما لم يكن منتظر الوقوع.. وتكذيبك للأميرة أمام القوم بأنها ليست بنت أنات، مما دل على معرفتك اياها بالذات وأنك عمدت إنكار ذاتها لغرض في نفسك.. فجاوب على هذه التهم جاوب أيا من جعل نصب عينيه الترفع عن سفاسف الأمور ورفع بيمينه لواء الحق المنشور.

ماطرقت هذه الكلمات أذن بنطاؤر حتى تربد وجهه واكفهر وشخص بعينيه إلى الذى كان عند سماعه هذه الأسئلة يلزم الصمت ثم قال: لا أرى مجال القول ذا سعة إذ لسنا هنا بمعزل عن الناس. قال أمينى بفتور: الحقيقة واحدة لاتتعدد وماتريد الإجابة به عن سؤال يجوز أن يسمعه جناب الوالى، فهل عرفت بنت أنات وأنها كريمة فرعون. إن الحق لاينكره إلا الخاسرون؟. قال بنطاؤر وقد تخبل في أمره وارتاع: حقاً إن المرأة التى أنقذتنى من الخطر تحاكى بنت أنات، ولكن أوجه الشبه بينهما لم تكن متوافرة في نظرى، ولو أنى نظرتك وأنت أستاذى ومهذب روحى ومثقف عقلى، الذى طالما أكرمنى ورفع مكانتى، ثم قذف بى من حالق في درك المهانة، أقول لو أنى نظرتك كما نظرت بنت أنات لعاملتك بما تؤاخذنى به بلا وجل ولاتردد.. ألم يكن من واجبى إزالة الشبه في نفس الأميرة وصون كرامتها المستمدة من الألوهية والتى تسمو بها درجات على العناصر البشرية..؟ ألم تهبط من عرشها الملكى لتنقذ من الخطر رجلا مثلى منحوس الطالع؟ أما كان فرضاً محتوما على عد ذلك التفانى في حمايتها ودفع الأذى عن ذاتها؟..

قال: أمينى لاعجب، فأنت فارس الميدان في البلاغة والبيان. ثم تكلف العسف والتجبر في كلامه وقال: إنى أطالبك بأجوبة سهلة خالية من التعقيد. نحن موقنون أن بنت أنات كانت متنكرة بزى نساء العامة، وقد كاشفت بعاكر بحقيقة أمرها، وهو الذى أخبرنا بأنها شهدت الحفلة من أولها إلى أضرها وأنقذتك من مخالب الخطر.. فهل كنت تعلم أنها كانت معتزمة عبور النيل؟.. أجاب بنطاؤر: ومن أين لمثل الاطلاع على مكنونات الصدور؟ قال أمينى: لاريب أنك حينما تدخلت في الأمر، كنت تعلم أنها بالا اشتباه ولا تلبيس فتاة الملك رعمسيس. أطرق بنطاؤر رأسه وارتعدت فرائصه ثم قال: نعم كنت أعتقد أنها هي. قال أميني: إن طردك إياها مع والتعدت فرائصه ثم قال: نعم كنت أعتقد أنها هي. قال أميني: إن طردك إياها مع والجرأة بمكان. قال بنطاؤر: لست أنكر هذا الفعل إلا أنني رأيتها جازفت بكرامة والدها، إذ تقدمت لإنقاذي من الخطر، فأردت أن أفدي هذه الكرامة بحياتي وحريتي وسمعتي. قال أميني: كفي! كفي.. قال آني: وماذا تم في أمر الفتاة التي الشيخ بينم.

انتهى الاستجواب هنا، فأعيد بنطاؤر إلى سجن الهيكل وما كاد يتوارى عن العيان حتى قال الوالى: حق لنا أن تخشى هذا الرجل لما يبديه من التحيز لجانب رعمسيس. قال أمينى باسما: بل لجانب كريمته بنت أنات.. إن تشيعه إليها هو ما يُخشى منه، وأما ميوله فيما بقى من أحواله فأنا من أعرف الناس بها. قال الوالى: ولكن راعنى منه جمال منظره وسعة مخبره وطلاقة لسانه وثبات جنانه.. إنى أريد سجنه عندى لأنه قتل واحدا من جندى. فعبس وجه أمينى وقال بتؤدة: إن لهيئة الكهان وحدها الحق في محاكمة الخارجين عن القوانين من رجال الدين. وهو امتياز

ممنوح لها، فكيف تطالبني بذلك وأنت باعتبار كونك مليكنا والقابض في المستقبل على زمام أمورنا أقسمت بالمحافظة على هذا الامتياز، لاسيما وقد نصبنا أنفسنا للدفاع عن حقوقك المقدسة؟ فتبسم آني وطمأن الكاهن الأعظم قائلا: سأستبقى امتيازاتكم مصوبة دائما، وإكنى أرى الخطر سيتهددنا بهذا الرجل فملت إلى الصرامة في معاقبته. قبال أميني: أما الصرامة فهي منا لابد منه، ولكن ليس لأحد سوانا أن يجاسبه على ما قدمت يداه. قال آني محتدما غيظا: ارتكب الرجل جريمة القتل بسفك دم أربعة أنفس كان حراما قتلها بغير الحق فهو لعقوبة الإعدام مستحق. قال الكاهن الأعظم: متفق معك على أنه قتل أكثر من واحد، ولكنه كان فيما اجترمه مسوقا بحقه في الدفاع عن نفسه. ولست أرى ما يدعو إلى التفريط في حياة شاب أفاضت عليه الآلهة أسمى المواهب، لمجرد أنه لم يجد سوى التجبر مركبا فركيه في ظروف غير ملائمة. وإنه ليلوح لي من قولك وحركاتك أنك تضمر له الحقد، وهو ما يحملني على الربيبة ف نيتك نحوه ويدعوني إلى الخوف على حياته منك، فعدني وعدا صادقاً إن كنت لي محالفاً ولمشروعي مؤازرا الا تغدر به. فتبسم الوالي وقال: أعدك هذا الوعد. ثم مد يمينه مصافحاً، فقال الكاهن الاعظم: أشكر لك هذه المنن. إن بنطاؤر مقدّم على تالاميذي كلهم وهو أحقهم باحترامي ومحبتى رغم غلطاته المتكررة، وأناشدك الحق، أما لحظت وقتما كان يشرح لنا أسباب منازلته القوم تلك الشمائل التي كان يتجلى فيها فلا يسع الناظر إليه معها إلا القول بأنه آسا أو ابنه الموهار السابق الوالد الأوزريسي لبعاكر رئيس الطلائع؟

قال آنى: لابد مع توافر الشبه بينهما أن يكون وضيع الأصل خامل الذكر.. وإلى أي أصل تمت والدته؟ أجاب أمينى: أمه زوجة بواب الهيكل، وهي معروفة بحسن الخلق وسلاسة الطبع ولين العريكة. قال آنى بعد أن أطرق رأسه مفكراً: إنى عائد

فوراً إلى المدعبوين ولكن لى عندك حاجة أروم قضاءها، ذلك أنى كنت أشرت إلى سر يجعل بعاكر فى قبضتنا وآلة فى يدنا. وإذ كان لايعرف هذا السر سوى ساحرة أوت وردة عندها فمن صواب الرأى استدعاؤها هنا لاستجوابها فى أمور أروم تحقيقها بشرط ألا يصرف هذا الأمر الخواطر إلى مشروعنا. فوعده أمينى بقضاء هذه الحاجة إذا بادر بإنفاذ الجند ليأتوا بالعجوز وأمر أحد أعوانه بإعداد قاعة الجلسات وإضاءتها بالأنوار الساطعات ووضع كرسى له فى الحجرة المجاورة لها ليتسمع من وراء الباب ما يدور بين الوالى وبينها من السؤال والجواب.

الفصل الخامس

يبكى إحدى حسان طيبة الفاتنات.. وليلة التجليات

بينما كان ضيوف بيت سيتى يعاقر بعضهم النبيذ ويدبر البعض الأخر الدسائس على ما يوافق أطماع الوالى، وبينما كان حراس الكاهن الأعظم يقطعون وادى القابر ركضاً على الأقدام في طلب الساحرة، هبّت في وادى النيل ريح عاصفة اقترنت من ناحية الجنوب الغربى بريح السمائم التى كانت تطارد أمامها سحبا قاتمة اللون وتثير رملا أسود فتذروه في جميع الأنحاء وتلوى أشجار النخل العظام فتجعلها كالقوس إذا أرسلت منها السهام، وتقوض أعمدة الخيام وتقذف في واسع الفضاء قماشها فيبدو كالخيال الأبيض في حالك الظلام، ثم تصدم وجه النيل فبعد أن يكون في استواء المرأة يضطرب كالبصر الخضم فيلتمس راكبوه النجاة، وتصطدم موجاته ضفّافة بالتواتر كصفوف جيش انتضى جنده من السلاح كل حسام باتر.

وكان بعاكر آنئد ف زورقه فأخذ يحث النوتية على بذل الجهود لبلوغ الضفة الأخرى. وكثيراً ما أشرف الزورق على الغرق ولكنه تبلاف الخطر منذ قبض على الدفة وسير الزورق بنفسه حتى وصل في أمان إلى الضفة الأخرى. وكانت الرياح لشدتها أطفأت المصابيح المعلقة بأطراف الأدقال إيذاناً بالرجوع، فلما هبط بعاكر البر من الزورق لم يجد بانتظاره أحدا من الخدم وحملة المشاعل فاضطر إلى اختراق الطريق الموصل إلى بيته في حالك الظلام تعبث به الرياح المحرقة وتسفى على وجهه الرمال وتثير العثير. وكان إذا صار على مقربة من داره وسمع البواب نباح كلبه

بادر – وقد أيقن أنه عاد – بفتح الباب وقابله بالترحاب، غير أنه لما قتل الكلب اضطر النوتية الذين صحبوه لحراسته ومؤانسته في وحشة الطريق إلى طرق الباب ولبثوا يطرقونه بكل ما أوتوا من قوة زمناً طويلا فتنبه البواب من نومه وهم بفتحه خائفاً مذعوراً.

وكان صحن الدار حالك الظلام لأن المصابيح كانت أطفأتها الرياح ولم يكن بها كلها غرفة مضاءة سوى مخدع ستخم. فلما أحست الكلاب همسه هو ومن صحبه من الحراس عوت عواء طويلا فانقبض لسماعه صدر بعاكر إذ لم يتبين في هذا العواء هرير كلبه المحبوب. ولشد ما تألم قلبه وكسف باله لما أبلغ الشيخ الحبشى القائم على حراسة مخدعه قتل كلبه فبث أنين الحزن والشجو، لأنه كان شريكه في الحياة وقسيمه في السراء والضراء. وتغلب اليأس على بعاكر فألقى بنفسه على كرسى وسأل الحبشى ماء بارداً يضع فيه يده الجريحة عملا بإشارة الطبيب نبسشت. فلما شهدها الخادم الأمين والدم يسيل منها صاح صيحة الجزع سائلا: من الذي جرحك وقتل كلبك؟ أمازال هذا المجرم الغادر على قيد الحياة؟ فأوماً بعاكر بإيماءة الإيجاب ثم أطرق رأسه وعجل بوضع يده في ركوة ماء جاء أحد الخدم بها خلال ذلك الحديث.

وكان بعاكر يحس بضعف فى قوته وانحطاط فى مكانته وجسرح فى عزته. وكان يود أن لو تنشق مياه النيل كالاخدود فتبتلعه أو يعود طفلا ليسترسل فى البكاء دون أن يلومه لائم. واتجه خاطره بعد ذلك صوب غاية أخرى واشتد خفقان قلبه وجحظت عيناه وازداد تقلبهما فى حجاجيهما كما يفعل الذى به طائف من الجنون. وكانت نفسه ساعتئذ متأثرة بعامل التشفى والانتقام وإرادة السوء لمن صبوا عليه

جام الرزايا والآلام. ولقد بدا بعد من أمره أنه أطرح الهوى ولم يتخذه شفيعاً لدى من جنوا عليه، وظل تنتابه الهواجس ردحاً من الزمن ثم قال: أيا شأفة رعمسيس لسوف استأصلك وأمحوك من الوجود فلا يبقى لك من أثر. وسأعمل معاول الهدم والاستئصال في حاشيته القربين فلا يكبون فرق في الاندثار بين الملك في سماء المجد والعلياء ومينا والأمراء الذين أخذتهم الكبرياء.. لابد لي من إيادتهم جميعا والتعفية على أثارهم. وإني لعالم بالسبيل إلى تحقيق هذه الأمنية فصبراً صبراً! وما انتهى من مناجاة نفسه بهذا الكلام ورفع يده كمن تأخذه حدة الغضب فيهم بضرب من حوله حتى انفتح باب الغرفة، وإذا بستخم داخلة تسير على مهل. ولم يكن بعاكر سمع لها همساً حينما أقبلت على مخدعه لشدة قصف الرعود وعصف العواصف فرأته وهو ف ذلك الوضع الغبريب، فدنت منه وصاحب باسمة وقد تبولاها الذعر إذ كبان ما خمنته أنه أصابه من الشيطان مس فما أبصر بوالدته حتى أرعد ولكنه تكلف السكون وضبط النفس وقبال: يا والدتي! ها أنت ذه! لقبد أوشك الصباح أن يسفر وينتشر ضياؤه في الخافقين. وهي ساعة ما أحلى النوم فيها، فلم جئت هنا؟ أجابت: اعتراني سهاد لأن الرياح اشتد عصفها فخيل لي أنها تدك جدران الدار دكا وصرت من الفزع في حالة لايماثلها إلا حالتي يوم توفي أبوك. قال مشفقاً: أفضل أن تبقى هنا وتنامى في فراشى. قالت: لم أت هنا للنوم، بل لما وقع بضفة النهر فإنه ألقى في فؤادى الهلم والقلق. وليس هذا لأنك أصبت في يدك بجرح بالغ ولا لما تعانيه الأن من الألام، بل لأنك سلكت مع ابن الملك مسلكا يستثير عليك غضب ونقمته .. لا مفوتني أن جلالته لا يحبك كما كان يحب والدك، بل مقتك المقت كله، ولذا تراني على خوف من أن يفتك بك. ثم إننى لم أفهم معنى لضحكك الذي سمعته.. ونبراته بلياتها وعطفاتها ومداتها تدل على خبث الطوية وقصد السوء.. وما رأيتك عليه من

الأوضاع الشاذة.. أفلا يكفى أن يملأ قلبي رعباً وترتعد له فرائصى فزعا؟

لزم بعاكر ووالدته الصمت بحيث كان يتوهم الناظر إليهما أن قصف الرعود قد استرعى سمعهما فأصاخا إليه. ولقد ظلا في هذا الرضع الجامد زمناً قالت بعده ستخم: أحس بعاطفة غريبة تتملكني هي غير التي تظن أنني متأثرة الأن بها.. ما سرحت افكاري متبولية شطر ذلك الشباب بنطباؤر البذي خطب الناس فيهرهم مفصاحته وعواطفي نسزًاعة إليه لأنى أرى قرائن الشبه متوافسرة بينه ووالدك يوم خطيني من أهل.. أوجه الشيه بينهما تحملني على الاعتقاد بأن الألهة لما دعوا إليهم المرحوم زوجى قضت إرادتهم النافذة بأن تُبقى على وجه الأرض صورة حية من ذلك الأصل العدريق المليح. قال الشيخ الحبشي: أصبت!.. إني أرى بين سيدى المرحوم وشاعر القوم قرائن شبه كثيرة. ولقد أمعنت فيه النظر أمام بيت المحنط وهو ينازل المتعدين عليه فعرفت فيه الشهامة، وكان يرفع بيد واحدة عمود الخيمة ويجيله بها كما كنان سيدي المرحوم أسا- إذا ننزل في حومة الوغي- يشهر سيفه ويخطر به بين الأعداء. وما سمع بعاكر هذه الأراء حتى اندفع يقول: دعك من هذا الهذي يا مجنون، أين وجه الشبه بين واحد من الكهان ووالدي زعيم الشجعان؟ ولو أن هناك جامعـة شبه تربطهما لما منعنى ذلك من المضى في أخذ الثار ممن سبني وبوقاحته غلبني. قالت ستخم: ولم هذا العناد وهذه البغضاء، وكيف لاتقتدى بأبيك في خلاله الشماء؟ أتكره التشب به في إكرام الأشباه واحترام النظراء؟ قال بعاكر: وهلي يحبني هؤلاء الأشباه حتى أحبهم؟.. قد بلغ من نكد طالعي أن يعارض الألهة أنفسهم رغباتي ويعاكسوا مطالبي ويلقوا المعاثر في طريقي وأنا أنا الذي يوافيهم بالهدايا والقربان في كل أن. فيا للطامة الكبرى والمصببة العظمي!!

قالت ستخم: حذار يابنى! إن زمام أمور العالم بأيدى الألهة فلا تطير ريشة في مهب الريح إلا بأذنهم وسابق إرادتهم، وقد كان المرحوم أبوك على هذا الاعتقاد يجهر به في كل محفل وناد، ولكن ما أعظم الفرق بينك وبينه في محاسن الأخلاق وتصوير الخلاق؟ قد امتالاً قلبى ذعراً منذ رأيتك تقذف من فيك شواظ الشتائم الفاضحة على ولى نعمتك ومغدق الخيرات على والدك من قبلك، أميرك المبجل رعمسيس. قال بعاكر: أصبح هذا الملك ألد خصومي ولسوف تسمعين عنه ما هو أجدر من الشتائم بالاهتمام، بل لسوف يعلم أبناؤه أن ابنك وابن المرحوم زوجك لايتذلل لأحد ولايصبر على الهوان والضيم، بل ينتقم شر الانتقام ممن يريدونه بالإساءة أو يقصدونه بالحطة والدناءة.. إن صدري لينشرح سروراً لو رأيت تلك الذرية القذرة تتلوى حول قدمي. فصاحت ستخم وقد طار لبها: إنك لعتل ذميم وخائن أثيم.. نعم لست إلا امرأة ضعيفة الحول ولكنني أقسم بطاعتي لأبيك واجلالي لسيرته لأسلبنك نعمة حبى وعطفي إن لم.. أه لقد رأيت.. لقد فهمت.. لقد علمت.. أجبني أيها الجاني الاثيم أين السهام السبعة التي كانت معلقة هنا؟

ما كادت ستخم تفوه بهذه الجملة حتى القت بنفسها على بعاكر فتراجع إلى الخلف كما كان يفعل في طفولته إذا سقط في هفوة، وهمت والدته بعقابة فاقتفت أثره حتى أدركته وجذبته من نطاقه. ثم كررت عليه صائحة ذلك السؤال، فاضطرب حنقاً وحقداً لا خوفا من والدته واحتراما ثم قال: أما السهام فما برحت في كنانتي وها هي، على أننى ما زلت مصراً على رشقها في كبد عدوى ولسوف تقفين قريباً على حقيقة كل شيء.

وفاضت العبرات من عيني ستخم وثارت نفسها فرفعت يدها ثانيا في وجه

بعاكر الذى لم يتمالك أن دفعها بعيداً عنه قائلا: اعلمي است - أيتها السيدة - طفلا، وإنما أنا رجل ولى وحدى هنا الكلمة والأمر. لا مفر لي إذن من تنفيذ ما أردت ولو اقتفى أثرى مائة امرأة مثلك يعولن خلفي أو يعوين كالكلاب المسعورة. قال هذا وأشار إلى الياب يريد بدلك صرفها من حجرته، فطفقت ستخم تبكى وتنتحب حتى إذا بلغت إلى الباب وقفت ثم أجالت النظر في داخلها وكان بعاكر جالسا في كرسى معتمدا رأسه بيديه فصرخت مراراً باسطة يديها نحوه وقائلة: لايمنعني مانع من أن أضمك إلى صدري إذا عدلت عن نياتك الخبيثة ومشاريعك الشيطانية.

هز بعاكر رأسه إيماء إلى الرفض فتولى الأم من جراء هذا العقوق يأس شديد وأرخت ذراعيها وقبضت كفيها ثم قالت منتحبة: أتذكر يا ولدى ما جاء ف الكتابات المقدسة من الأوامر والنواهي التي لقنك إياها والدك في صغرك.. فقد جاء فيها «اعتبر طاعتك لوالدتك جزاء لها على صنيعتها لك بالقيام على تربيتك، ولا تُلجئها بسببك إلى بسط يديها بالدعاء عليك، وأسلك معها مسلكا يحجب عن السموات صعود شكواها إليها» (١).

ما طرقت هذه الكلمات أذن بعاكر حتى أخذ يئن وينتحب، ولكن لم يبرح مكانه ولم يتكلم بكلمة. فصاحت ستخم باسمه مرة أخرى وكان صوتها يدل بنبراته الناعمة على ما يخالج فؤادها من عواطف الحنان والرفق، فلبث ساكتاً ساكناً كأنه لم يسمع نداءها. وكانت في خلال ذلك قد لمحت الكنانة بين أسلحة أخرى فانقبض صدرها وتربد وجهها وقالت بصوت متهدج: لست أرضى لك المضى مع هوى النفس فيما تروم من الانتقام.. أسمعت قولى؟ أعوّلت على اتباعه؟ لم لا تجاوبنى؟

⁽١) هذه التعاليم تتضمنها الورقة الرابعة من أوراق البردى المحفوظة بالمتحف المصرى.

لقد ضقت ذرعا أيها الناس فخلصوني من شر هذه المحنة!

وبعد هنيهة انقضت على الكنانة فاستلت منها سهماً همّت بكسره فوثب بعاكر عليها من مكانه واستخلص السهم بعنف من يدها، فأصاب نصله ذراعها فسال الدم منه دافقاً على جسمها. وقد أحست الألم ورأت الدم متقطرا فتولاها خوف شديد، لأنها كانت تكره سفك الدماء، ثم قالت بصوت خافت: إن هذه اليد التى سفكت دمها عليها عهد الألهة وميثاقها ألا تلامس يدك ما لم تقسم الأيمان المغلظة لتعدلن عن نية الانتقام وتنبذن ظهريا هواجس القتل والإعدام وتطهرن ضميرك من كل ما يدعو إلى تلوث شرف والدك والحط من مقام أسرتك.

ما سمع بعاكر هذه الكلمات حتى جثا على ركبتيه متأثر الوجدان وأخذ لوخز الضمير وعقاب السريرة يتلوى كالثعبان، فاتجهت والدته نحو الباب إذ وقفت قليلا دون أن تنبس شفتاها بكلمة، إلا أن توجه نظرها نحو ابنها ونزوع نفسها إليه جعلاها في وضع يخالها الرأى فيه أنها تنادى ولدها وهو لايجاوبها وترجو منه وتبتهل إليه. ولابد أن قد أعيتها معه الحيل فضرجت من الباب الذى انغلق فجأة خلفها بقوة الرياح التى دفعته.

وكان بعاكر قد فطن لانصراف والدته فأخذ يبكى وينتحب قائلا: والدتى! والدتى! لا أستطيع العدول.. لايمكننى الرجوع.. وهنا كفّ عن الكلام لأنه سمع من قصف العواصف ما كاد يصم أذنيه وما لم يعهد له نظيرا من قبل وأحس الدار كأنها تنتفض كعصفور بلله القطر، وخُيل له أن صخوراً صلدة تتساقط من الجو ف فناء الدار فتُحدث تلك الرجة التي ارتاح لها قلبه، وقام نحو النافذة ونادى بالخدم يسألهم عن الحادث الجلل، فتقدموا إليه فوجاً بعد فوج. وكان في طليعتهم قيم الدار

فقال لمولاه: لقد اقتلعت العاصفة كل الأدقال المغروسة أمام الباب الكبير. قال بعاكر: أو ممكن هذا؟ قال القيم: مولاي هذا ما حصل، ولاشك عندى في أن الخواص الذي كسرت ترقوته قطع تلك الأدقال عند مغارسها في الأرض. وإذا حصرت الشبهة فيه فما هو إلا لأني بحثت عنه في أركان الدار فلم أجده ولعله أركن إلى الفرار. قال بعاكر: أطلق الكلاب في أثره، وليطارده من يحسن الركض منكم ليأخذ الأفاق عليه، ولمن يرجع به فك رقبته وملء يدى خمس مرات ذهباً.

* * *

كان ضيوف هيكل سيتى يلتمسون السراحة بالنوم وقتما ورد على أمينى خبر قدوم الساحرة مع الأعوان الذين أنفذهم في طلبها. فقصد في الحال إلى الغرفة التى كان أنى ينتظر بها ساعة اللقاء بالعجوز. وكان هذا الوالى نهباً للهواجس أنئذ، فلما سمع وقع أقدام أمينى وهو مقبل عليه هبّ من غفلته وقال فجأة: أوصلت العجوز؟ أجاب الكاهن الأعظم: نعم. فأخذ الوالى يسوّى شعره المرسل على كتفيه ونظم عقده الكبير ثم قال: في قدرة تلك الساحرة أن تلحق بي أذى، أفلا تمنحنى البركة أتقى بها شر سحرها. نعم إن معى التعاويذ الواقية من الشرور كعين حورس وفتنة ايزيس، وإنما يحسن من باب النظر في العواقب أن.. قال أمينى: في وجودى هنا وقاية لك من شر السحر، بيد أنى أعلم من جهة أخرى أنك راغب في مكاشفة العجوز بشئون ليس لى أن أطلع عليها، والأمثل عندى أن تدخلها الغرفة المنقوشة الجدران بالأمثال للي أن أطلع عليها، والأمثل عندى أن تدخلها الغرفة المقدسة ورش عتبتها بالماء وأمر كاهنا كان يسير وراءه: جيء بالساحرة إلى الغرفة المقدسة ورش عتبتها بالماء قبل أن يتخطاها الوالى.

قصد أمينى إلى خزانة صغيرة لصيقة بالقاعة المقدسة التى أمر الكاهن باستقدام الساحرة والوالى إليها ليتمكن وهو جالس بها من سماع ما يدور من الحديث بينهما بواسطة أنابيب وضعت بالجدار في أوضاع مديرة بحيث توصل الصوت مفخماً إلى الن المتسمع وإن يكن في الحقيقة خافتاً. وما هي إلا فترة قصيرة حتى دخلت الساحرة فتفزع أنى لرؤيتها واستطير لبه روعا من هيئتها. وزاد في تفزعه أن المرأة لبست ثيابا رثة بالية وفكت شعورها البيضاء المرسلة إلى ما يوازى منتصف الجبهة واتخذت لها عكازا تتوكأ عليه فلما أن وقفت شخصت في الوالى بعينيها الجبهة واتخذت لها عكازا تتوكأ عليه عليهما من الرمال حتى صارتا كجذوتي النار. وكان الناظر إليها في هذا الشكل الرهيب لا يفرق بينها والضبع الذي يتربص بالفريسة. فلم يلبث أنى حين رأها وسمع قولها وهي تسلم وتعاتب لأنه استقدمها في وقت لايلائمها أن ارتعدت فرائصه فزعاً وتوجس منها خيفة واستطردت هي الكلام فانتقلت من العتاب إلى الثناء والشكر تلقاء وعده إياها تجديد الإذن لها، إلى أن قالت معترفة إنها هي التي واقت بعاكر بالماء السحرى. ثم أزاحت الشعر عن وجهها فعلم أنى أنثذ أن الواقفة أمامه امرأة وكان قبلاً في ريبة من أمرها.

كان الوالى جالساً فى كرسى والعجوز واقفة تبدو عليها أمارات التعب والضجر فرجت منه أن ياذن لها بالجلوس قائلة إن عندها من جم الأخبار ما يمهد له اتخاذ بعاكر آلة فى يده، فأشار أنى إلى زاوية من زوايا الغرفة فانحدرت العجوز إليها وجلست فيها ولم تنتظر أن يأذن لها بالكلام، لأنها ما كادت تستقر فى مكانها حتى أخذت تناجى نفسها: نعم لابد لى أن اذيع له ما كان كامناً من أسرارى كى يرتاح بذلك ضميرى وتهدأ نفسى وأخلص من أعباء المسئولية، فلست أحب أن أحرم

تحنيط جثتى، بل أود الاطلاع على حوادث الحياة الأخرى.. أعرنى سمعك! يجب عليك قبل أن أثير لك ما هو كامن في صدرى أن تقسم بالألهة لتدعنى وشأنى أعيش في سلام وأمان وتباشرن في تحنيط جثتى بعد موتى.. أقسم باليمين وإلا فلست أبوح بشيء.

اقتصر أنى ف جوابه على ايماءة الرضى بهذا الشرط. فاعترضت العجوز: الايماء في هذا المقام لايكفى لتوكيد القسم. بل لابد أن تجهر في صراحة بصيغة اليمين التى أمليها الأن عليك وهى: «إذا لم أف لنيخت بوعدى إياها قضاء مرادها في مقابل عملها على أن تجعل الموهار في حوزتي وتلقى بزمامه في قبضتي فللشياطين الخاضعة لمطلق إرادتها والمنفذة لجازم مشيئتها أن تسلبني نعمة الحياة قبل الصعود إلى عرش الملك».. لاتحفظ على يامولاي إذا شرطت هذا الشرط، فإنما بقولك «نعم» توكيدا لهذا اليمين تستفزني إلى سرد حوادث على مسامعك هي لغرابتها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، مع أنها الواقع الذي لا اختلاف فيه.

قال أنى وقد عيل صبره: أقسم بذلك القسم وأقول «نعم» غير حانث ولاناكث. عندئذ تمتمت العجوز بكلمات لاتفيد معنى ولا تـودى إلى مراد وظلت ساعة في تأمل واستجماع فكر، ثم اشرأبت عنقها فبدا جيدها ضئيلا يكاد يظنه الرائى لشدة نحوله فقرات عظم مكسوة بالجلد، ثم شخصت فيه بعينيها المتقدتين ناراً قائلة: أسمعت في شبابك أن غادة تـدعى (بيكى) فتنت الشبان بجمالها الباهر وخلبت مسامعهم بصوتها الرخيم.. إذا كنت لم تـرها ولم تسمع عنها فانظر أمامك جيداً تجدها بين يديك. قالت هـذا وضحكت بطناً لظهـر ثم استجمعت بيديها أطـراف ثيابها الـرثة للبالية لتستر بها مـابدا من سوأتها وقبح صورتها. وبعـد هنيهة استأنفت الحديث

قائلة: نعم إن الرجل يتناول قطف العنب فيمتص عصير حباته بلذة وهناءة ثم يطرحها على الأرض ويدوسها بقدميه. فما أشبهنى اليوم منها أهينت وديست بالاقدام بعد أن استنزف خيرها وامتص كل حسن ولذيذ فيها.. لا ترمقنى بعين الرأفة.. لأننى وإن قوست الشيخوخة ظهرى والتصقت بالتراب ذلا ومهانة وفقرا واستكانة لم يستطع أحدهم أن ينكر على أننى كنت ذلك القطف اللذيذ الطعم الذي طالما جد الكثيرون في طلب التمتع بلذته.. ولست أجد فى ألف أمرأة مثلى كانت فى حياتها مجمعاً لتضارب الأضداد من سعادة وشقاء وحب وبغضاء وسرور وألام وتسامح وانتقام ونشاط وثبوط وأمل وقنوط. لذلك أرانى كلما فكرت في هذه الحياة جديرة بالصعود إلى عرشك المنيع والاستواء في مكانك الرقيع. ولاتوجس منى خيفة أبداً فقد اعتدت من أمد بعيد الزحف والتسلق والهجوم والتدفق، فاسمع إذن كل كلامى ولاتقاطعنى وأنا أوافيك بما تتوق إلى الوقوف عليه من الحوادث الجلى والوقائع العظمى.

كنت فيما غبر من أهل الطبقة العالية في الأمة، وكانت عادة الأكابر وذوى الحيثيات أن يتزلفوا إلى المرأة الجميلة بأنواع الملق والمداهنة وتصنع الخشوع، وابتسم لى ثغر السعادة والعز فأصبحوا طوع أمرى جميعا. هذا ولقد أن لى أن أقص عليك تاريخ حياتى وإن لم أجرؤ من قبل على مفاتحة أحد به ولو كان من أولياء الأمور.

قبل نحو الخمسين عاما كانت الشبيبة تتهافت على سماع صوتى وتتنافس في التقرب إلى للأنس بى والحظوة منى بلفتة أو ابتسامة أو كلمة، وكنت لا أغنى صوتا إلا ويجىء صحيح الصنعة والتجرئة فتراهم يتوثبون من أماكنهم إلى اهترازا

بتلاحينه وإعجابا بما كنت عليه من براعة جمال وحسن محاضرة وكان والدى ذا أصل وفضل وجاه. عهدت إليه في زمانه أزمة الحكم في مدينة أبيدوس ولجهره باللولاء والإخلاص للأسرة التي أنت غصن دوحتها والحلقة الأخيرة من سلسلة سلالتها اضطهده رعمسيس الأول بعد إذ خلص له الملك اغتصابا وتعدى بالبغى عليه وأوصل صنوف الأذى إليه، فقد أمر بإبعاده هو وأفراد أسرته إلى منجم الذهب ببلاد الحبشة فلقوا حتفهم فيها جميعاً ولم يبق منهم وقد انقرضوا سواى. وكنت لم أزل على جمال غض وصوت رخيم، فلما عدت إلى مصر اندرجت بطيبة في سلك فرقة موسيقية، فكانت لاتقام معالم الأفراح والحفلات إلا وأكون لها غرة جبين ودرة تاج. وقد جمعت من ممارسة هذه الصناعة مالا كثيراً وجذبت إلى دائرتى عدداً لا بأس به من الشبان وحصلت من مشهيات الحياة الدنيا ما تجاوز المأمول. ولكن الرزايا التي ألمت بأسرتي والمكاره التي حفت بإخوتي ووالدي ووالدتي والكن الرزايا التي ألمت بأسرتي والمكاره التي حفت بإخوتي ووالدي كنت في أقعمت قابي بهموم جعلتني ذاهلة دائمة التفكير كثيرة الهواجس، مع أنني كنت في سن يحلو فيه مذاق المر ويعذب طعم العلقم.

وكان لايجرو أحد من أبناء الأمراء والكبراء – الـذين تدلهوا في عشقى وتسابقوا إلى كسب مودتى وتنافسوا في مرضاتى –على أن يلمسنى بأطراف أنامله، إذ كنت أضن عليهم حتى بهذه الحظوة استعلاء واستكبارا..بيد أنه كان لكل كبرياء حد ينبغى أن تقف عنده، فقد قضت الألهة في حكمتها الأبدية ان تستذلنى وتكسر من شكيمتى، فساقت لى الشاب أسا الذي لابد أن تعرفه، وهو والد الموهار السابق وجد بنطاؤر، وإن تشأ فقل جد بعاكر رئيس الطلائع. كان ذلك الشاب يجمع إلى جماله الرائع شرف الأصل وكرم الأخلاق، فكنت كلما غنيت دوراً عمد إلى الجلوس أمامى ووضع عينيه على وأصغى سمعه إلى واستقر في مكانه لايتلفت يمنة ولايسرة. وفي

هذا القدر كفاية لكى تعرف ما وقع بعد.. ولكنك لاتستطيع أن تعرف ما حصل.. لم يتفق لمخلوق على وجه الأرض ان يتفانى في عشق آسا كما تقانيت في عشقه.. مالى أراك لاتهش لسماع هذا الكلام..؟ ولكن لعل لك عذرا فقد يكون من المضحكات أن تسمع الحديث من عجوز مثل لا سن واحدة في فيها.. توفي آسا منذ بعيد، ولعلي لم أزل أضمر له البغضاء ذلك لأن حبه ما برح متأصلا في فؤادى.. قضى آسا حولين كمالمين لم يعرف فيهما امرأة غيرى ثم سافر مع الملك سيتى في محاربة الأعداء، فكان لايمر بي يوم إلا كما يمر العام مللا من الانتظار. فلما حطت الحرب الأوزار وعاد إلى الوطن متوجا بأكليل الغار ومنيت النفس بقرب لقائه وبعودة المياه إلى مجاريها، فما كان أشد مصابى حين علمت أنه اقترن بفتاة جميلة من بيت عظيم ذي محتد كريم وما أسرع ما دبت في قلبي عقارب الغيرة حتى كدت أذوب غيظاً وأموت حسرة وكمداً.

وكنت لم أزل على جمال غض وشباب نضير فتحينت الفرص حتى التقيت به وجها لوجه عشرين مرة، غير أنه كان فى كل منها يصدف عن طريقى ويلتمس الفرار منى كما يفر السليم من الأجرب، فكبر الأمر على نفسى وانتابنى من جرائه جزع شديد وتوله لم يلبث أن نالتنى بسببه حمى شديدة عجز عن علاجها أعاظم الأطباء حتى كادت تذهب بحياتى. ولما يئست من شفائى وقنطت من تحقيق رجائى حررت له الحرسالة الاتية: «أشرفت بيكى على الهلاك وتتمنى أن لو تتزود منك نظرة قبل وفاتها فتفضل بتحقيق أمنيتها» شم طويت ورقة البردى التى حررت فيها هذه الكلمات على أول هدية قدمها إلى وهى خاتم وضيع القيمة.. أتعرف ماذا كان جوابه على رسالتى؟ أرسل إلى مالا وفيراً من النقدين الكريمين. فما وقع نظرى عليه حتى اليوم خيل لى أنه وضع في عينى حديدا حمى في النسار حتى احمر، وماذلت حتى اليوم

أحس لسعاته الحامية كلما فكرت ف خيبة أملي وفشل سعيى، ولكنكم أنتم معشر الرجال والسادة الذين طالما استسهلوا الصعب وانقادت لهم الآمال لاتقدرون تأثير البأس في القلبوب الكسيرة والأفئدة الكليمة. ولبو اجتمع منكم شلاثة أو أربعة وقصصت عليهم هذه الحادثة لما وسم أرفعكم مقاماً أن يقول بصوت جهوري «لقد أصاب فيما فعل» ثم يبني هذا الحكم على أن أسا كان متروجا زواجا شرعياً وأنه لا يليق به أن يختلف إلى غانيه تطرب الجمهور بصوتها الرخيم، لأنه إن فعل فقد نقض عهد الزواج ولم يقم بالواجب وجرّ على نفسه اللوم والتعنيف.. ولكن أفي مثل هذا التعليل ذرة من الحق والصواب؟ كلا! لأن صاحبه لابدأن يكون ممن يعتقدون في المرأة البائسة التي فوجئت بالهجر المتلف أنها ليست من اليشر وأن جوفها خال من قلب رحيم يتأثر بالعواطف الشريفة أو يحفظ عهد الوفاء، وأن هذا القلب لـ و وجد فعلا لبقى متنكساً في وهدة اليأس والقنوط خمسين عاما فلا يحس قلب امرأة أخرى شيئاً من الغيرة بسببه، فهو إذن وجود عدم.. إن أسا تحرى في سلوكه اجتناب اللوم من قرينته.. ولكنه جوزي على بغيبه بتساقط اللعنات عليه والتصاقها بذريته من بعده، فهي ملازمة لهم أبد الأباد.. رأى أنه كان حريصاً على الفضائل متمسكا باهداب العفة في حين أنه قد أثم إثما ليس له من شافع إذ القبي في مهواة الياس قلباً كان ما برح مقيما على عهد الولاء له.. ولا ريب ف أن اجتنابه الحضور عندى في ذلك العهد دليل على أنه كان لم يزل مغرماً بي، وإنما خشي أن تذكي رؤيته إياى بعد طول التنائي نار هذا الغرام في فؤاده، وحسبي ذلك باعثا على التماس العذر له. وإذا كان هناك ما يفت في عضدي ولا أعـ ذره من أجله فإنما هو إرساله إلى بذلك المال.. إنه بهذا الفعل الذميم قد جنى جناية لا شفاعة فيها ولاغفران.

فاهت العجوز بهذه الكلمات فكان يخيل للسامع أنها في حلم تهذي، فارتاع الوالي

من منظرها وبدرت منه حركات جعلته وهو في كرسيه يتراجع إلى الخلف، وتنبهت الساحرة إليه فاستجمعت قواها لاستئناف الحديث وقالت: أنتم معشر القوم الذين تحلقون في سماء السيادة والعز بأجنحة الكبرياء والعظمة كما تحلق الطيور الجارحة في أجواز الجو، لا يقلق بالكم ولاينزعج ضميركم شان أولئك الذين وضعتهم الأقدار في الدرك الأسفل .. ولكنى استأنف حديثي فأقول: لما كُتب لى الشفاء مما اعتراني من الأدواء شعرت بصوتى الرخيم وقد ذهبت محاسن نغماته ورصانة نبراته وعطفاته، وكنت مع هذا في مال كثير وعيش رغيد فصرفت ما أملكه على سحرة طيبة وشربت مياههم السحرية التي تجدد في القلوب ما اندثر من معالم الحب وتستأصل جرشومة الشر، وصرفت همتى إلى استرجاع صوتى الذي كان رسول الغرام بيني وقلب آسا وبه امتلكت قياده، فلم تجد الأدوية نفعاً، بل أصبح صوتى أقرب ما يكون إلى نعيق الناعق أو نعير الناعر. وقد اطلع على خبيئة أمرى كاهن طرد من هيكله وكان ساحراً ماهراً عرافاً، فلزمته ملازمة الظل للشبح حتى تلقيت عنه أسرار السحر، وإذ رأى أن أصدقاءه في وقت الصفاء والهناء قد انفضوا جميعاً من حسوله، فقد التجا إلى المقابر، فاقتفيت أثره بيد أن الحكومة ساقته إلى المحاكمة وانتهى أمره بالمشنقة فبقيت وحدى ف إحدى المغارات واشتهرت بين الناس- حتى الصبية في الطريق- بممارسة السحر، فكانسوا يعدلون عن طريقي وامتلأت صسدورهم على بالأوغار والإحن كما امتلأ صدرى بها على نفسى، وكان هذا كله جناية وحيد طيبة في التقوى والمروءة والصلاح.. آسا.

ومع توالى هذه النكبات كنت حذقت مهنتى المقوتة ومارست معها نصو مائة مهنة أخرى، فلما كان مساء ذات يبوم قدم إلى (سنت) مباشر البستان الذى كنت أشترى منه ما أحتاج إليه من الحشائش، ومعه غلام وليد أصابع إحدى قدميه تبلغ

الستة عدا، وسالنى أن أصلح منه ما أفسد الدهر بأن أجعل الستة خمسة، وقال إنه جاءنى على غير علم من زوجته وأنها لو كانت وقفت على سر ما أراده لمانعته فى تسليم الغلام إلى، وكان من المستطاع فى الواقع إصلاح ذلك التشويه أحياناً.

وفي ضحى اليوم التالى سمعت صدى ضوضاء وهرج في الوادى فما هي إلا برهة حتى أقبل فوج من الخدم يسألونني المبادرة بمصاحبتهم لإنقاذ مولاتهم، وكان أخذها الطلق وهي في زيارة قبور الأجداد، فأخفيت الغلام السداسي الأصابع طي ثيابي وأمرت خادمي أن يحضر الماء ثم عجّلت بالانصراف مع الخدم إلى مكان الحادث، فإذا بي أمام قبر والد أسا. وهناك علمت أن المرأة التي جعلتها آلام الطلق تتلوى كالثعبان إنما هي ستخم قرينة ابن أسا، وكانت قد وضعت الجنين قبل وصولي إليها بدقائق. غير أني رأيت في حالتها ما ينذر بالخطر فانفذت الخدم في الحال ومعهم محفة كنت رأيتها بجوار الباب لاستدعاء أحد الأطباء من بيت سيتي.

وفى غيابهم جميعاً قالت لى خادمة من غاشية السيدة إن مولاها الموهار والد الغلام فى ميدان الحرب وأنه جده الشريف أسا وعد بالحضور إلى المقبرة وهو لابد واصل إليها بعد فترة من الزمن وأنه لم ينته إليه بعد نبأ الوضع. وكانت ترمى بهذا القول إلى الاستثنان منى فى الخروج للقائه، فأذنت لها ولما ألفيت نفسى وحيدة غسلت جسم الطفل وأخذت أقبّله بشغف كأنه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام الطفل وأخذت أقبّله بشغف كأنه ولدى، ثم سمعت وقع أقدام على أحجار الوادى فمرت بضاطرى ذكرى ساعة النزع التى رأيت الموت فيها رأى العين. وكنت أنتظر أن يقبّلنى أسا القبلة الأخيرة ولكنه بدلا منها أرسل إلى من المال ما كنت عنه فى غنى، فتولانى من ذلك غيظ وامتلاً صدرى حقداً وميلا إلى الانتقام حتى أصبحت كمن فتولانى من ذلك غيظ وامتلاً صدرى حقداً وميلا إلى الانتقام حتى أصبحت كمن

مسها خبل، ولم أدر كيف استطعت أن أعطى خادمتى المولود حفيد آسا، وأن آمرها بالنهاب فورا إلى المغارة. ووضعت في حجرى ولد البستاني الذي كنت أحمله في طيئات ثينابي البالية. وقد خُيل لي عندئذ أن الدقائق تمر كالساعات لشغفي باستطلاع محيا آسا، فلما أقبل رأيت - بالرغم من بياض شعره - أنه مازال باسم الثغر حلو الشمائل فقدمت إليه ولد البستاني وأنا أشعر بقلبي وقد سكنته الشياطين والجن والمردة.

أما هو فأطال في الغلام النظر ثم أعاده إلى دون أن يعرفنى أو يستبطن حقيقة أمرى، وأبرز لى من جيبه بعد ذلك ملء كف ذهبا فتقبلته منه دون أن أفوه بكلمة واحدة، ثم انصرفت. وكان كهان بيت سيتى قد تواردوا منه تباعاً. فسمعتهم ينشدون الأناشيد يضرعون فيها إلى الألهة أن يكون طالع الوليد الجديد سعيداً ومستقبله في أوج السماء. فلما عدت إلى المغارة أغربت في الضحك حتى تساقطت الدموع من عينى. ولم يكن ذلك لابتهاج فؤادى الواله إلى حد أنه من كثرة ما قد سرنى أبكاني وإنما لأسباب، لا تخفى على اللبيب الفطن.

وبعد أيام سلمت إلى البستاني حفيد أسا قائلة له إننى قد نجحت ف إزالة إصبعه الزائد. وكنت - لخدعه وذر السرماد في عينيه - قد عنيت بخدش أصبعه وتضميده. وعلى هذا المثال شب ابن الموهار وحفيد آسا وترعرع في أسرة البستاني الوضيعة كما تسربي ابن هذا السرجل الحقير في أسرة ذاك. ولقد تلقى بنطاؤر العلموم في بيت سيتي واشتهر فيها بالتفوق على أقرانه.. وبعد أقلا ترى قرائن الشبه متوافرة بينه وأسا وأن بمقدارها تجد أسباب التباين واضحة بين بعاكر ذي الستة الأصابع وجده الشريف المزعوم؟..

أصغى أني إلى العجوز وكأن على رأسه الطير. وإذ كان الإنسان مجبولاً بفطرته على اصطناع من يحسن إليه أولا يفشى لـه سرا أو يساعده على إنجاح مشروع فإن أنى لم تحدثه نفسه قط بعقاب الساحرة على هذه الجناية، كلا ولا بتوبيخها على سوء فعلها، بل طفق يطيل التأمل فيما كانت عليه من جمال رائع وصوت رخيم، وفي أنها فتنت بحبها شبان ذلك العصر. ثم قارن بين خلالها في ريعان شبابها وبينها الأن فشبهها بالزهرة الزاهية وقد ذبلت وذوت وبالقناة وقد احدودبت. لهذا قال لها: يا بيكي! لك أن تعيشي ف أمان حتى ترحل من هذا العالم الفائي وإني لأع،ك وعداً صادقاً بتحنيط جثتك إذا مت، وإنما أرى أن قد أصبح جديرا بك ترك السحر والعيش بما عندك من المال في أرغد حال وأهنأ بال. وإذا كان المال يتقصك فضريني بما تحتاجين إليه منه وأنا لا أضن عليك به، واست أخشى أن أتحفك بشيءمن الذهب وإن أكن علمت من كلامك أن الذهب يثير كامن الحقد في صدرك. قالت: ربما احتجت يوما إلى مالك ولكن دعني السأن أذهب إلى حال سبيلي. ثم أتجهت مهرولة نحو الياب فاستوقفها أني ليسألها إذا كان أسا هو والد نيمو قزم راتوتي فضحكت ظهرا إلى بطن وقالت: ألحت في هذا القرم مشية أسا أو ملامح بيكى؟.. حقيقة أمره أننى ربيته ككثيرين من أمثاله. قال أنى: لقد أنست منه حيلة واسعة وذكاء مفرطا. قالت: لاعجب فإنه من أقدر الرجال على حسن التدبير وجودة التفكير. وقد امتاز بشدة إخلاصه ليراتوتي، وهو خير من يعاونك على نيل مقاصدك لأن له هو أيضًا مقاصد يسعى إليها. سأل: وماهى هذه المقاصد؟، أجابت: إذا أصبحت راتوتي قوية بعضدك ومثرية ببعاكر فلن يعترض الموهار مانع عن الرحيل للفتك بمينا وترميل زوجته نيفرت. قال: أرى أنك واقفة على أسرار كثيرة تدعوني إلى توجيه سؤال آخر إليك.. أصحيح أن هناك ماء سحرياً يذكى في شاربه نار الحب؟ أجابت:

ساقفك على الحقيقة لتفي لى بوعدك.. نادراً ما يؤثر الماء السحرى في شاربيه بقدر ما يؤثر ف النساء الخالية قلوبهن من الهوى، فأنت إذا قدمته إلى فتاة فاتنة تهوى فتي جميلا وشربته هامت به. سأل: أعندك حيلة للمرء يستطيع بها الخلاص من غائب؟ أجابت: كيف لا.. يكفى لذلك أن يسعى الوضعاء والأفناء بالنميمة في حقهم ويشهروا بسيرتهم. والظاهر لي من اسئلتك أن ما رويته عليك من الحوادث لم ينبه ف قلبك عاطفة الرحمة فإننى استخلص منها شدة كراهيتك لبنطاق... لمّ أراك تضحك.. إن ذكرى هذا الشاب ما برحت متمثلة لخاطرى لأننى بشطارتي حرمته ميراث أبيه .. إن جمال صورته وعزة نفسه يصوران لعبني تمثال آسا، فلاعجب أن أشعر في نفسى بعاطفة تدفعني إلى حبه كما أحببت جده وهو أمر من الغرابة بمكان ولكن لاعجب ولا دهش إذا قيس هذا الشعور بما أشهده من السيدات السيئات الحظ اللائي يفدن زرافات وشتى على مغارتي لالتماس معونتي. إنني أراهن على شغف عظيم بمن تنحوا عن ودادهن وهجروهن الهجر المتلف. ومنا اشبهنا معشر النسوة بعضنا ببعض في أمور كثيرة. ومع هذا فلست راغبة في حب حقيد أسا وليس لى أن أحب وإنما ينبغي لى أن أعمل على ايصال الأذي إليه بين خصومه .. نعم إن أسا مات وأصبح من الرفات، ولكن نار إساءته إلى ما برحت متقدة في جوانحي وهي لا تخمد إلا بخمسود حياتي، فليكن إذن ما قسدر ف سابق الأزل لنبطاؤر من الشقاء والتعاسة.. وإذا كنت تريد به سوءاً فما عليك إلا الاتفاق مع نيمو الذي يضمر له الحقد.. فإذا استعملته ف هذا الغرض، فإن عمليه سيكون بلا ريب أكبر أثرا من سحري وتمائمي وميهاهي السحرية.. وبعد فإنني أرجو منك أن تأذن لي في الأنصراف.

انقضت ساعات على انصراف نيخت من حضرة الدوالى فإذا برسول أميني يمثل بين يديه ليدعوه إلى تناول الطعام على مائدته، فلما ذهب إليه آني سأله: أتدرى من

هى الساحرة نيخت؟ أجاب أمينى: كيف لا، إنما هى بيكى فاتنة شبان طيبة بجمالها وساحرة عقولهم برقة صوتها.. وهل لى أن ألم بما قالته لك؟ فرأى أنى أن من الأوفق له ألا يكاشف أمينى بسر ولادة بنطاؤر ولهذا تردد فى إجابته إلى طلبه، وإذ كان أمينى داهية دلكته الحوادث وحنكته العبر فقد استأذن من حليفه أن يوافيه هو بمجمل الأسرار التى أفضت إليه بها ثم أخذ يسرد عليه مادار بينه والعجوز متعمدا التغيير والتبديل فى بعض الحوادث حتى لا يداخل الوالى أنه كان في مخبأ يتسمع لهما. وما استقرت الرواية فى سمعه حتى تظاهر بالدهشة ووافق على ما ارتأه الكاهن الأعظم من وجوب كتمان أصل بنطاؤر وإنكاره عليه. قال أمينى: إن بنطاؤر فر قريحة وقادة وفكرة نقادة وأخشى أن يدبر لنا المكايد وينصب المصايد إذا نحن لم نكاشفه بحقيقة أصله.

وكانت العواصف في خلال هذه المحادثة هدأت والسحب انقشعت وصفا أديم السماء وبرد الجو، ولكن الحرارة لم تلبث أن انتشرت فيه رويدا رويدا بطلوع الشمس على الأفق. وما غادر الناس مراقدهم لمارسة أعمالهم حتى رأوا وجه الأرض مجللا بما اقتلعته العواصف من الأشجار والأكواخ خاوية على عروشها والمنازل متهدمة والخيام المضروبة في حى الأجانب متمزقة، وطارت مئات السقوف المتخذة من سعف النخل بفعل تلك العاصفة التى لم تصدها قوة الإنسان ولم تنفع فيها حيلته.

عاد الوالى والكاهن الأعظم إلى طيبة وكان ثانيهما يود أن لو يقف بنفسه على ما أتلفته العواصف في حديقته فما كاد زورقهما يتوسط النيل حتى اقترب من زورق بعاكر فصوتا به، فلما التفت إليهما طلب الوالى منه في رفق وملاطفة أن لا يضن عليه بزيارته والتردد عليه لمشاهدته ومحادثته.

وكانت حديقة الكاهن الأعظم لا تقل انفساح جوانب وحسن تنسيق عن حديقة الموهار، لأنه ورثها عن أبيه فعنى بترتيبها على أجمل نسق. وكان يخيل للناظر أن الدار القائمة بوسطها -بين الأشجار الباسقة -قصر باذخ وبناء شامخ. وكان من عادت تناول طعام الغداء مع قرينته وهي امرأة مازالت في فتاء السن وتوافر الحسن، ومع بناته الفاتنات بجمالهن. فلما أن وصل إلى حديقته وشهد ما لحق بها من أذى العاصفة جلس معهن تحت أرجوحة متخذة من أغصان الشجر وأنشأ يسليهن عن تلك الخسارة الفادحة ويعدهن بإصلاح ما سقط على الأرض بقوة الربح من أقفاص الحمائم وأن يجعلها امتن وأحسن مما كانت، ثم انتقل من التسلية والدوعد إلى المزح والتملح، لأنه كان مع ظهوره ببيت سيتى في مظهر الرئيس الشديد الوطأة لين العريكة كان في بيته متواضعاً فكان لزوجته القرين الموافق ولبناته الدوالد الحنون بشاركهن في سرورهن ويقتدى بهن في محبة أزهارهن وطيورهن.

ولما تناول الطعام وغادر المائدة يحيط به بناته دخل أحد الخدم يعلن وصول السيدة ستخم والدة بعاكر. فأمره أمينى: أرشدها إلى مكان سيدتك. غير أن الخادم الذى كان يخفى فى كفه الهدية الثمينة التى أتحفته بها ظل واقفاً فى مكانه قائلا: إنها إنما تريد مقابلة الكاهن الأعظم لمحادثته فى أمر خطير. قال أمينى مغضباً: ألا يتاح لى التمتع بالراحة ولو ساعة من الزمن؟ الأحسن أن سيدتك تستقبل ستخم وأن تبقى معها حتى أستطيع مقابلتها بنفسى.. الم يكن المعقول يا أولادى أن أخصكم بهذه الساعة أنتم والدجاج والبط والحمام؟

فلم يجاوبه أولاده بغير التعلق برقبته والاستمساك بذيول ملابسه ثم انصرفوا يتوثبون ويطفرون مبتهجين. وقد مضت - وهو بينهم على هذه الحال- ساعة طلب بعدها إليه السيدة فجىء بها إلى الحديثة فأنشأت تقص عليه مانالت الأحزان والهموم منها، وكانت عيناه أثناء الحديث تترقرقان بالدموع. ومما قالته له: أنت المرشد الروحاني لولدى وفلذة كبدى، وغير خاف على مقدار ما يقدمه للآلهة من القرابين إثباتا لاحترامه إياهم، إلا أنه لا يصغى لنصائحي ولايحترمني احترام الولد البار لوالديه. وظهر لى أخيراً أنه يضمر النيات الخبيثة والمقاصد السيئة، فإذا لم تتهده بغضب الآلهة عليه فلا خلاص لمينا من بين يديه وربما.. وربما.. قال أميني: وربما اعتدى على الملك.. إنى عليم بموضوع شكواك ولسوف أحدثه فيها. قالت وقد تناولت طرف ثوبه لتقبله شكراً وامتناناً: أشكر لك صنيعتك معى مادمت على قيد الحياة ولا تنس أنك على أثر ميلاد هذا الولد قد بشرت والده بحسن طالعه ويمن نقيبته وأنه سيكون زينة أسرته وفخر قومه، وإلا فهل قدرت الآلهة على أن أخسره في الدنيا والآخرى بعصيانه أمرى ومروقه عن طاعتى؟

قال أمينى: ما بشرت به المرحوم قرينك من حسن طالع ولدك ويمن نقيبته متحقق لا محالة، لأن للآلهة في تحقيق الأمال سبيلا غير سبيل السرجال. قالت ستخم: فلتكن كلماتك هذه بردا وسلاما على قلبى المفعم بالحزن مما نابنى من ولدى. ولقد كنت مترددة في الحضور إليك لعرض شكواي عليك، ولهذا لم أبح لك بكل ما حصل.. فقد سقطت الأدقال العالية التي جلبها من جبال لبنان البعيدة لتخفق الأعلام بأطرافها أمام داره والقتها العواصف على الأرض بعد أن اقتلعها من مغارسها. قال أمينى: صبرا صبرا يا سيدتى فلسوف يطمئن قلبك وينشرح صدرك ولابد لولدك أن يذعن لإرادتك كما أذعنت تلك الأدقال لقوة العواصف. قالت ستخم: شكرا لك ولكن عندى سرا أريد مكاشفتك به.. أعرف أننى ضيعت عليك شطراً ليس بالقليل من نفيس وقتك، وهل أنفس عندك من الوقت تقضيه بين أفراد أسرتك؟ ولقد سمعتك تقول يوما لزوجى المرحوم إنك كلما جئت إلى طيبة تشعر في نفسك برضاء يسرى عنها الهم ويجلى الكرب وتكون أشبه بالجواد الكريم يخلى من سرجه ولجامه

ويرخى لببه ثم يطلق سراحه فى المروج الزمردية والسهول المترامية الأطراف فيمرح كما يشاء. ولكننى أسالك أن تصغى إلى حديثى فقد رأيت فيما يرى الناثم ما يوجب الدهشة ويقضى بالعجب.

ذلك أن بعاكر لما أبى العمل بنصيحتى وولى عنى بكتفه عُدت إلى حجرتى فأخذتنى عند طلوع الشمس سنة من النوم رأيت فيها بنطاؤر خطيب الأعياد الذى خلب العقول بذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وأنه من توافر الشبه بزوجى المرحوم بما يخيله للناظر قريبا لا غريبا، ثم رأيت بعاكر يتقدم نحوه ويمتهنه ويسفهه ويفحش في حقه ويستطيل في عرضه. وكان في توثبه عليه يحاول إلحاق الأذى به، فلما تبين بنطاؤر منه هذه النية بسط يده للدعاء كما فعل يوم الاحتفال، ولكنه إنما بسطها ليأخذ بتلابيب ولدى وليجره إلى منازلته. وقد تم له ما أراد إذ تنازل الاثنان فخيل لى أن بعاكر قد تدخل جسمه بعضه في بعض حتى تبدل من صورته الإنسانية المقومة بكتلة لا وصف لها ولا كيفية، وأن هذه الكتلة سقطت على قدمى بنطاؤر، وتبين عند فحصها أنها لم تكن إلا قطعة صلصال كالذى تتخذ منه الآنية سواء.

قال أمينى: غريبة في بابها هذه الرؤيا! على أننى مازلت أبشرك أنها فأل خير وعنوان سعادة، لأن الصلصال بمرونته يتشكل بجميع الأشكال وفي تحوله إليه حكمة خفية أرادت الآلهة بها إفهامك أنهم يعوضونك من بعاكر خيراً منه صورة ونفساً وعقلا. ولست أدرى على وجه التحقيق كيف يتم ذلك كله، ولهذا أرى أنه لا بأس من مواصلة الدعاء بالدعاء والصلاة بالصلاة وإهداء القرابين مع الاتكال على احكم الحاكمين. وهناك نصيحة أخرى لن أضن عليك بها وهي أن تقابلي بعاكر كلما لقيك بوجه باش وصدر رحب، فإدا أقام على عناده القديم فلا تدعيه يدنو منك والفظيه كما تلفظ النواة.

وما ختم الكاهن الأعظم نصحه حتى همت ستخم بالانصراف مطمئنة القلب

مرتاحة الضمير. وكان أمينى يناجى نفسه ساعة انصرافه: لست فى ريب من أن هذه المرأة ستجزى خيراً على صبرها وآلام نفسها فقد أمر عيشها وأطال ليلها سلوك ذلك الشاب الحقير. ولكن استنقاذها منه فى المستقبل لن يحول دون إمكان جعله آلة لتنفيذ مقاصدنا، ولطالما شككت فى صحة الأحلام ولكن لم تحدثنى نفسى يوما بأن المستقبل سيميط عن هذا السر العجيب اللثام.. ولعل قلوب الأمهات تحس ما يقع فى المستقبل من الحادثات.

ما بلغت ستخم إلى دارها حتى التقت ببعاكر يسوق عجلته عند بابها فلم تحفل به ولم يعن هو بها، ولايعلم إلا الآلهة مقدار ما شعر به كلاهما نصو الآخر حين تلاقيا من انقباض الصدر واكتئاب النفس.. وفي المساء التقى بعاكر بالوالى للتفاوض ثم قصد بيت سيتى ليطلب إلى الكاهن الأعظم أن يبارك في مشروعه ويدعو له بالتوفيق، ثم وضع القرابين الكثيرة على قبر والده. وعلى أثر عودته أخذ يعد معدات السفر إلى الديار السورية فلما هم بالركوب في مركبته وافاه الخدم بنبا القبض على الخواص المتهم بقطع الأدقال فأمرهم بأن يفقأوا عينيه عقابا له على فعلته وكان آخر ما أصدره من الأوامر والأحكام قبل رحيله إلى بلاد الشام.

ابتعد بعاكر رويداً رويداً، ولم تكن ستخم وجهت إليه كلمة وداع أو إيماءة تدل على رضائها عنه، إلا أن هذا الصدود لم يمنعها من الابتهال لللالهة أن يلينوا من قسوة قلبه الجلمودي ويقوه شر الوقوع في الخطايا والآثام. وما تحسرك قلبها بهذه العاطفة إلا لأن الأمهات فطرن على السرحمة بالأولاد والمفاخرة بهم في كل محفل وناد.

الفصل السادس

تدريب الأمراء على الأعمال ..كي يكونوا للغير خير مثال

مضت أيام ثلاثة على رحيل بعاكر إلى الشام، كان المصنع الذى أنشأته بنت أنات يدوى في خلالها بهمس العاملات كما تدوى الخلية بطنين النحل. وكانت الأميرة ونيفرت قضتا ليلة العاصفة أى الليلة التالية ليوم تنكرهما لشهود الاحتفال دون أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهما. فلما تنفس الصبح رجت نيفرت من الأميرة أن تأذن لها بقضاء النهار في التماس الراحة من عناء الحوادث الأخيرة، فرفضت الأميرة طلبها قائلة: الأليق بنا يا صديقتى أن ننفض عن أنفسنا غبار الخوف وأن نوجه أفكارنا شطر غاية أخرى. أما سمعت قول العقلاء «لا تؤجل إلى الغد ما يمكنك أن تعمله اليوم» فاقتفى إذن أثرى بجلد واطمئنان. ولكن هاأنذه أشعر برعدة تهز أركان جسمى كما لو كان الوحش يعاكر قد أهوى بيده على كتفى فلوثتها بدنسها.

أذعنت نيفرت لأمر صديقتها فقضت معها اليوم الأول وقد عانت فيه تعباً ممضا وتولاها يأس مضجر. فلما كان اليوم التالى أنست من نفسها الميل إلى ملازمة الأميرة والاغتباط بصحبتها. ولم يسعها في اليوم الثالث إلا أن تعترف بما أحرزته من براعة في العمل وأنسته في نفسها من ميل إلى مجاراة غيرها في إتقانه. وهذا شأن الإنسان في ممارسة الأعمال، كلما اتجهت عزيمته وخلصت نيته في إنجازها ازداد شعفاً بها. وما عليه إلا أن يجلد ويصبر بادىء الأمر على قمع نزعاته التي تصده عن مزاولتها، فمتى تمكن من صدها حلا له العمل وانكب عليه من غير سام ولا ملل.

ولقد أحسنت بنت أنات إذ فوضت إلى صديقتها الرقابة على طائفة من العاملات، ومنهن فتيات صغيرات مات عنهن آباؤهن، وأيامى قُتل في مواطن الحرب أزواجهن، ولقطاء ولقيطات وبائسون وبائسات خانهم الدهر ورشقهم بسهام الغدر وأوقعهم في مخالب الفقر، لأن هذا العمل كان مما يوافق ميلوها ويطابق رغباتها.

وكان عمل تلك العاملات مقتصراً على فرز النباتات الطبية. وكن يجلسن على الثرى متربعات حلقات بدوائرها متالامسات، بوسطها النباتات ما بين رطبة ويابسات، وكان يرشدهن إلى كيفية فرزها وترتيبها طبيب من ذوى الأسنان لايكف عن التنقل من حلقة إلى حلقة حاثا مرشدا، وكانت نيفرت تحب الأزهار حبها للأطفال فوجدت من العمل الذي ناطته بها بنت أنات خير فرصة للبحث في تلك الأزهار ودرس خصائصها وحث أولئك الأطفال على مواصلة العمل، وصرفت نحو هاتين الغايتين همها فتمكنت في الرزمن القصير من التمييز بين المجتهد والكسول، تعد ذاك بالمكافأة وتحث هذا على الاقتداء به.

ورأت أثناء هذه المراقبة طفلة عارية البدن نجلاء العينين فاتجهت صوبها وسألتها: ماذا تصنعين أيتها الفتاة، ألا تدرين أنك بخلط هذه النباتات بعضها ببعض تسببين الهلاك لمن يعالجون بها؟ أى مصاب أجل وخطر أفدح من أن يصاب أبوك بجرح في ميدان القتال فإذا وضع عليه بدلا من النبات النافع الناجع نبات ضار ورد شر الموارد وساء مصيرا؟!.

فلما سمعت الفتاة هذا العتاب علا وجهها الاحمرار وأومات برأسها ايماءة الامتثال لأمرها والعمل بنصحها واستأنفت عملها بيقظة والتفات. عندئذ انصرفت نيفرت عنها قاصدة إلى فتاة أخرى بدت عليها علامات التواني والكسل، فقالت لها: أنت كثيرة الهذر! أنسيت والدك الذي ينازل الأعداء في ساحة الوغي معرضا جسمه

لطعنات الرماح وقاتل الجراح!.. ماذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب لطعنات الرماح وقاتل الجراح!.. ماذا يكون مصيره إن لم يجد الطبيب على مقربة منه يسعفه بالدواء؟ أو ماذا يقول هذا الوالد التعس إن راك في حلمه مخلدة إلى السكون واضعة يديك على ركبتيك.. ألا يقول إن ابنتى لا تحبنى ولا تحترمنى لأنى أراها قاعدة لا تزاول عملا في حين يجب عليها الاجتهاد في إعداد الدواء الذي يترتب عليه خلاص والدها المريض من مخالب الموت.

ثم تراجعت إلى مكان حلقة كبيرة من الفتيات فقالت لهن: اتدرين أيتها الفتيات أين تنمو هذه النباتات؟.. لعلكن تجاوبنني بلا، إذن انبئكن بأصلها.. خرج حورس الطبيب يوما لمحاربة سيت الخبيث فلما احتدمت بينهما نار القتال تمكن هذا الشيطان المريد من إيذائه إذ فقا له إحدى عينيه (١)، ولكن الظفر كان في النهاية لحورس لأنه لابد من انتصار الخير على الشروإن طال الأمد. ولما رأت إيريس أن الدائرة دارت على ابنها العزيز تلقته بين ذراعيها وأسندت رأسه إلى صدرها(٢) وشعرت بما يشعر عامة البشر به من الحزن وانقباض الرجاء. وقد تأكد لها انه يتعذر -بل يستحيل- تعويض تلك الخسارة، فتماطرت الدموع من عينيها وكانت تنصدر على الأرض فينبت في مسقط كل قطرة منها نبات من النباتات التي بأيديكن(٢).

⁽١) هذه الحقيقة التاريخية مستخرجة من كتاب الأموات.

 ⁽٢) يؤخذ مما جاء في مقدمة أوراق البردى المعزوة إلى المدكتور أيبرس مؤلف هذه المرواية ومما
 ورد في كتاب الأموات أن أيزيس عالجت عين أبنها حورس فأعادتها كما كانت.

⁽٣) يسند المصريون إلى دم الهتهم ودموعها مزايا الخصب. وقد استقصى هذا البحث المسيو (لوفيبورد) في كتابه تحت عنوان «عينا حورس» ونشر (نافيل) كتابا في مدائح را أو رع سمى الإله فيه (ريمى) ومعناه الباكى. ويوجد في الكتابات المنقوشة على قبر سيتى الأول مع الصور المنالة للذريات الأربع التي يتفرع منها أفراد الجنس البشرى ما ترجمته «أنتم دموع عينى» إلخ.

فقالت إحدى الفتيات: إن ايريس تحب الخير، وقد ذكرت لى والدتى أنها تحب الأطفال الطائعين. قالت نيفرت: ماذكرته لك والدتك حق لا مراء فيه فإن لإيزيس ولدا شغفت به حبا وهو حورس الصغير. وغير خاف أن الإنسان إذا تحلى في حياته بالفضائل عاد بعد وفاته طفلا صغيراً فتتبناه ايريس وتعزه وتكرمه وتمده بمساعدتها وتشمله برعايتها حتى يشب ويترعرع ويصبح قادرا على القتال انتقاما لأبيه.

ورأت أثناء كلامها امرأة أثرت في نفسها هذه الرواية بما حملها على الكباء فدنت منها وسألتها عن أمور أجابت عنها بما يفيد أنها فقدت زوجها ثم أينها ،الأول في حرب الشام فالثاني عقب عودته إلى مصر. قالت نيفرت: ما أسوأ حظك أيتها المرأة.. ولكن الواجب عليك التسلى عن فقدهما بالعمل لعلاج الجنود الجرحي.. أتبدرين ما فعلت اينزيس؟ كانت اينزيس تحب زوجها أوزريس كما كنت تحيين زوجك النذي رماك الزمان بفقده، وكما أحب قريني مينا وأتفاني في الإخلاص له والمحافظة على عهده، فلما وقع أوزريس في الشرك الذي نصب له سيت اللعن حارث إسريس في أمرها وضاقت عليها المذاهب، لأنها كانت تجهل المكان الذي احتوى جثة قرينها العزيز. فهي قد ذاقت إذن من العذاب أضعاف ما تذوقينه، ذلك لأن قبر زوجك موجود تستطيعين زيارته متى أردت. أما هي فلا، لأنها لم تهتد إلى مكانه فأخذت تخترق البلاد وتجوب الأفاق باكية نادية حتى خشى على مصر أن يصيبها الجدب المهلك. ولما كان أوزريس هو المودع لعناصر الخصوبة بين ذرات تربتها، فقد كاد النيل يجف وتدوى الأشجار واشتد اليأس وعزت الحيلة، غير أن دموع ايريس سقطت في مجرى النهر فارتفعت فيه المياه حتى بلغت ضفتيه. ومن ذلك العهد إلى الآن صارت النقطة الواحدة من دموعها تكفى لإفاضة النيل فى كل عام بالبركة الوفيرة والشير العام. وكانت المسكينة تصغى إلى حديث نيفرت، فلما جاءت هذه على آخره قالت: لقد تدرك ولدى بموته أربعة أطفال فكفلتهم ، لأن أمهم وهى تحترف بغسل الثياب للناس التهمها التمساح وهى تمارس حرفتها على شاطىء النيل وكان لاينبغى لمثل أن يعنى بشأن الغير وهو عاجز عن العناية بشأن نفسه ولا أن أرثى لمصاب غيرى إذا كانت المصائب محدقة بى ... وهل تظنين أننا في هذا البيت كنا نشتغل ونقضى معظم الوقت في العمل لفائدة الجرحى، لو لم تغدق علينا الأميرة بنت أنات جزيل الإحسان ووافر الصدقات .. إنه لما يضاعف الأحزان ويثير الأشجان أن يتولانى الضعف والاضمحلال فلا أعود قادرة على تربية أربعة من الأطفال.

ارتاعت نيفرت لسماع هذا القول الذي ماطرق مثله سمعها إلا منذ ثلاثة أيام فلم يسعها— وهي عاجزة عن مؤاساة تلك المرأة المسكينة بعبارات العطف والرفق— إلا أن قصدت بنت أنات ورجت منها أن تزيد مرتبها من فيض مكارمها. فلما شهدت الأميرة جزعها هدأت روعها قائلة: هل لى أن أرفض رجاك ولا أقدر مسعاك وأنت الوزر والعون لى على عملى؟.. تعالى معى الآن لتفقد أحوال الطاهيات فقد أمرتهن بانضاج بعض الثمار والفاكهة وحفظها في العلب ليت ذوقها والدى وإخوتى، وسأرسل إلى قرينك مينا حصته منها. فرافقتها نيفرت إلى المطبخ حيث رأت الطاهيات يرتبن الثمار الذهبية اللون المجلوبة من واحة آمون (١) في علب يحكمن القفالها ويضعن الثمار المستوردة من النوبة في أوعية أخر برسم الملك رعمسيس، لتفضيله إياها على غيرها. قالت: دعيني أضع هذه الثمار في الأوعية الخاصة بها. ثم

⁽١) هي واحة سيوة

شكل جميل يروق العين مراء. وكانت بنت أنات ترمق الأطباق على مختلف نسقها بعين السرور والارتياح. فلما أتمت نيفرت عملها صافحتها الأميرة قائلة: ما لمست هذه الأصابع شيئاً إلا وجعلته جميلا ومحبوباً مثلها. ثم تناولت الورقة التي تلصق على الوعاء للدلالة على مافيه وكتبت عليها «رتبته ونمقته قرينة مينا العريقة في الحسب ورفيقة بنت أنات».

وبعد الغداء وصل إلى القصر لفيف من الناس سألوا عن الأميرة فبرزت لمقابلتهم، ولحرمت نيفرت العاملات إلى أن آذنت الشمس بالمغيب، وهمّت هذه النسوة بالانصراف فأسترقفتهن نيفرت وقالت لهن: إن زورق الشمس يغيب وراء حجب الجبال الشرقية فنبتهل إلى الآلهة أن يحفظوا حياة الملك ويقوا الغائبين عنا شر العناء والهموم، ولتفكر كل منكن في أقربائها وذويها المحاربين في مواطن القتال. وأنتم أيها الأطفال أذكروا آباءكم بالخير وادعوا لهم بالنجاح والفوز. وأنتن جماعة النسوة اذكرن أزواجكن، ولنسال آمون أن يعيدهم إلينا سالمين كما تعود الشمس بعد غروبها إلى الشروق، ثم جثت على ركبتيها فاقتدى بها الأطفال والنسوة. ولما نهض الجميع تقدمت إليها فتاة فجذبتها من أطراف ثوبها وقالت: بالأمس قد أجلستنى على ركبتى وشهدت اليوم أن صحة والدتى قد تحسنت فهل سبب هذا التحسن أننى دعوت لها بالشفاء؟ فربتت نيفرت بيدها شعرها الأسود وقالت: أجل، إن سبب شفائها دعاؤك لها. ثم انصرفت للبحث عن بنت أنات فرأتها متكثة على حاجز الشرفة ناظرة إلى طيبة الأموات التي كان الظلام ينسدل عليها شيئاً فشيئاً، وما شعرت بوقع أقدام نيفرت حتى انتفض جسمها لأنها كانت سابحة في تيار الأفكار.

فلما رأت نيفرت ذلك تراجعت إلى الوراء قائلة: لعلى كدرت صفوك وأقلقت راحتك. أجابت بنت أنات: كلا يا عزيزتي، إني أشكر الآلهة أن ساقوك إلى هذا المكان لآنس بك وأسرى عن نفسى الهموم والأحزان بمخالطتك. قالت نيفرت بصوت خافت: تبينت الآن بواعث أشجانك وأحزانك، إنك مازلت تذكرين بنطاؤر. قالت: حقاً ، إنني دائمة التفكير فيه ولدذا أصبح فؤادى ملتقى هواجس وميول وعبواطف لو انتزعت منه لكف عن الخفقان وكان نصيبي من هذه الحياة الحرمان. يروون عني أنني انتهكت حرمة العادات وخرقت سياج الآداب ويتهددوني بعقوبة ربما صرفتك عن مصاحبتي، إذ لا أشق منها على مثلي فتكون النتيجة حرماني لطف معاشر تك والأنس بك. قالت نيفرت: إنبي قسيمتك في الضراء كما أنا شريكتك في السراء. وما الذى يتهددونك به ويفرضونه عليك وأنت كريمة مليك هذه البلاد والمتصرف في رقاب العباد؟ أجابت: برزت لـ لأنظار كإحـدي بنات الشعب وكان هـذا من فساد الرأى ولابد من الرضاء بعاقبته.. دار بيني وكبير كهنة هيكل أمون حديث تأكد لي من فضله وثبت عندي علمه ونبله، واطلعت من خلاله على أنه من ذوى البر، فعقدت النية على العمل بنصائحه، لاسيما وأن والدى كان قبل رحيله إلى مواطن القتال قد وصاني بالخضوع لأمره والعمل بإشارته. ومما شرحه لي وأيقنت معه عظم ذنبي أننى دخلت أحد هياكل طيبة الأموات ملوثة بالدنس ثم عدت فدخلت بيت بينم المحنط رغم تعرير الكاهن الأعظم إياى لمدخولي فيه المرة الأولى. وقد خبرني أن جماعة الكهان قيد انتهت إليهم تفاصيل ما وقع لنا من الحوادث يبوم الاحتفال وما كان من تنكرنا وإخفائنا على الناس حقيقة أمرنا. أفيعد هذا كله أستطيم الامتناع عن

التطهر؟ ألا ترين أنه لم يبق أمامي سوى إحدى سبيلين: إما التماس الصفح من أميني بعد الإقرار بالذنب أمامه في محفل حافل من الكهان والأعيان، وإما الحج إلى هيكل هاتور الـزمردية^(١) إلهة المعادن المطهرة، فمددها هـ و الفـاصل بين الحق والباطل وسرها وسيلة الطهر من الدنس. وهيكل هذه الإلهة الذي يقوم كهانه بتطهير الأدناس على مسيرة يوم من المناجم وإلى جانبه واد ينحدر الماء إليه من جبل سيناء المقدس كما يقول أمانتو(٢)، وهي شقة بعيدة يقاسي المسافر فيها العناء ويتكبد أهوال الصحارى والقفار. وقد شرح لي كاهن أمون ضرورة الرضاء باحتمال المشاق وأوصاني بالغني عن استشارة أميني في أمس ما حتى أتقى أذاه وها أنذه أراني مضطرة الآن إلى العمل بنصيحت لاسيما بعد أن اقتضح أمرى وخيف أن يقتدى بي فيه غيري. إن الكهان لسان حال الآلهة، وقد قضى هؤلاء على المدنسين بالتماس الطهر من الذنوب، لا فرق في ذلك بين كبير وصغير. ومع علمي الآن بصواب هذه الأحكام أرى من الصحب على نفسي الخضوع لأوامر الكهان.. ألست في الحقيقة ابنية رعمسيس؟ قالت نيفرت: نعم أنت كريمته وهو من الآلهة.. فقاطعتها بنت أنات: علمني والدي احترام القوانين ولنذا تبرينني حفيظة عليها محترمة لأحكامها عاملة بنصوصها .. وقد دار بيني وبين الكاهن الأعظم حديث ثان

⁽١) كانت هاتور إلهة المعادن والأحجار الكريمة وكانت تلقب بهاتور المفكات، والمفكات نوع من حجر أخضر ولعلمه محرف من مسكات الذي معناه بالسان المصرى القديم الزمرد أو الزجاج الملون بالأخضر. ويوجد في القصر الياباني بمدينة درسدن في ألمانيا صورة الإله بتاح مصنوعا من هذا الحجر.

⁽٢) سكان جبال سينا.

ف موضع أخر هو الرواج بالوالي آني. فإنه غير خاف عليك أنه طلب الاقتران بي فرفضت رفضاً لا أرتاب في أنبه من أجلبه سيبغضني، غير أنني أصبحت في حيرة شديدة لأن والدي اختاره وصياً على ومشيرا لي، وليس ف وسعى الآن الاستمداد بمعونته ولا الاسترشاد بمشورته. وكيف يليق بمثل الركون إليه ف أمر وأنا أميرة ابنة أمير؟ إنني أفضل أن أجوب الصحراء ألف مرة على أن أصم والدي الملك بوصمة العار.. على أنني سأنتظر إلى غد لاعتسرام أمر، ولكن لم هذا التردد وهذا الارتياب؟.. لقد عقدت النية على الرحيل وإن تكن الشقة طويلة والمصاعب جليلة. فلا تجزعي إذن يا صديقتي، لا تجزعي فقد عرفتك من رقة الحاشية ونعومة الأعضاء بما لا تستطيعين معه اقتصام الأخطار وتجشم مشاق الأسفار. وقد رغيت.. فقاطعتها نيفرت: أبداً! أبدا! لا مناص لي من مرافقتك ولي كنان السفر إلى أعميدة السماء الأربعة (١) أو أطراف البقاع المسكونة من العالم. وكيف لا أرافقك وإليك يرجع فضل وقوفي على أمور كثيرة كان زهدي في معاشرة الناس سبب جهلي بها وتطوري الأن بطور حياة لم يسبق لي عهد بها لست أخاف إن أنا عدت إلى والدتي أن تذوى أغصان الأفكار التي وضعت غراسها في قلبي وتعهدت نبتها بمواد النماء من فضل رعايتك وغزير علمك..؟ ولايدهبن عليك أن بيت مينا لاينبغي أن يقبض على دفته سوى واحدة منا نحن الاثنتين، وإذا كانت والدتى تريد أن تكون فيه صاحبة الكلمة النافذة والأمر المطاع على كل حال فجدير بي ألا أعود إليه إلا مع أليف حياتي وشقيق روحي مينا.

⁽١) توجد على تمثال تحتمس الثالث الموجود بالمتحف المصرى هذه الكلمات «أنا آمون».. انشر أمامك الخوف حتى يبلغ إلى أعمدة السماء الأربعة». وكانوا يريدون بهذه الأعمدة الجهات الأصلية الأربع أو حدود العالم كما يؤخد من بعض النصوص.

قالت الأميرة: يبدو لي من قولك أنك مصرة على الترجيل، ولكنني أسفة لغساب والدى فإنه لو كان مقيما بين ظهرانينا الآن لفزعت إليه لاستشارته وفضلت العمل بإرادته. فتنهدت نيفرت وقالت: إنني لأسفة كذلك، ولكن هي الحرب لا تعرف اسفاً ولا تفتح صيوان أذنها لشكوى ولا يخفق قلبها لرشاء. ولست أدرى لماذا لا يقنع الرجال بما قسم لهم من الخيرات ولماذا يطمحون دوما إلى المزيد منها ويضحون السلام لذلك على مـذبح الحرب. قالت بنت أنات: لو كانـوا على غير ما نلوم منهم لما أجبناهم إلى مطالبهم، بل لما ملنا إليهم. وهل رأيت منظراً اجمل في النفس أثراً من بنطاؤر وقد حمل على قوم طاشت أحلامهم وضاع صوابهم وخاطر بحياته لينقذ روح طفلة بريئة من الذنوب منزهة عن العيوب. قالت نيفرت: لم التفت إلى ما وقع أمام بيت المحنط لما تولاني من شديد الجزع، ولكن لايزال صدى صوته حينما كان يحمل على أعدائه يرن في أذنى. قالت بنت أنات: هكذا يدوى صراخ الشجعان حينما يتقهقر أمامهم الأعداء ويولون الأدبار. ودخل الأمير راميري أثناء الحديث فسمع بعضه فقال: صدقت، فهكذا يدوى صراخ الأبطال في الآفاق. فارتعدت فرائص بنت أنات لأنها لم تكن رأته، إذ كان الليل أرخى سدوله ثم قالت: لقد ازعجتنى والقيت الهلع في قلبى. قال الأمير: كيف يعروك خوف ويمالاً قلبك جزع؟ قالت: كنت فيما سبق لا أخشى أمراً ولا أهاب خطراً ولكنني منذ ليلة الاحتفال عراني من الذهول ما صرت معه أخاف من لا شيء . ولعله أصابني مس من شيطان أو عدائي بعدوى خلقه جبان. قال راميرى: مادمت صاحبة الأمر والنهى في كل مكان فليس من يطالبك بالطاعة له. هذا وما زلت أراك متأثرة بحوادث ليلة الاحتفال. وأنا أيضاً كلما فكرت فيما كان من أمرى مع الكهان وطردهم إياى من المدرسة وتذكرت جراة بعاكر حينما حرّش بنا الكلب نالني من الغيظ ما حرك في نفسى حب الانتقام، ولكن حمداً للآلهة فقد نصرونا عليه في الختام. سألت بنت أنات: وماذا كنت تفعل منذ منعك عمنا أنى من مبارحة القصر؟ أجاب: لا حاجة بي إلى وصبي يتولى شؤونى ويهيمن على في تصرفاتي، ففي الشهر المقبل أناهز الثامنة عشرة من عمرى. قالت: ولكن أنسيت والدك وأنه.. أجاب مقاطعا: إن والدى يجهل دخيلة نفس الوالى فهو غير ملم بما يدبره له من الدسائس وينصبه من الشراك. أما علمت أن أنصاره عاهدوه على الطاعة وحلفوا بالإيمان التي لا فسحة فيها أن يكونوا له عونا على تحقيق مراده، وما مراده في الحقيقة إلا ما يتهامس به بعض مقربيه من طموحه إلى عرش الملك، فهو إذاً عامل على إبرام التدابير المؤدية إلى إسقاط والدنا الملك من عرشه. ولعلك تنكرين عليه هذا السعى وتستبعدين أن يفكر مثله فيه مالم يكن طاف به طائف من الجنون، ولكن لا تنسى معنى المثل السائر « لا دخان بلا نار».

ما سمعت نيفرت هذا الخبر حتى اصفر وجهها جزعاً وسالت الأميرة أخاها أن يوافيها بما عنده من تفاصيله فسرد لها كل ما انتهى إليه من أقوال الناس وآرائهم وما تأكد له في أثناء تنكره. ثم قال مبتسما: إذا حاول آنى أن يسقط والدى مع علوة عرشه فيكون أشبه بنا فيما لو حاولنا أن نستنزل من كبد السماء كوكب إيزيس لنوقد به ما نحن الآن في حاجة إلى الاستضاءة به من المصابيح. قالت نيفرت: أرى في الظلام الذى نشر جناحيه علينا ما استحسنه. قالت بنت أنات: كلا بل لابد لنا من الضوء إذ لا يستقيم الحديث معى إلا إذا استجليت وجه من أخاطبه. ومع أننى لست ممن يحفلون بما يدور من الأقاويل على ألسنة العامة فلابد لى من مكاشفة والدى بها. قال راميرى: وأغرب هذه الأقاويل ما التقطته من أفواه الناس بمدينة الأموات. قالت الأميرة: يؤخذ من كلامك أنك عدت ثايناً إليها بعد مغادر تنا إياها.. إن كنت فعلت فقد أخطأت ولم تأخذ بالروية في عملك. قال راميرى: نعم فعلت متنكراً وقد

وقفت بتنكرى على اخبار يسرك سماعها، فإن وردة الزاهية قد تماثلت للشفاء وهى تقيم الآن في بيت خاص بها بفضل رعايتك وما أغدقت عليها من نعمتك. وهذا البيت كان مكانا مهجوراً على مقربة من كوخ جدها الذى أحرقه المتظاهرون. فاستعان والدها ببعض الناس على إقامة جدرانه وتدعيم أركائه. وقد أخافنى منظر هذا الرجل لأنه جندى جاف كثيف اللحية بدين الجسم هائل الخلقة، ليس بين وردة وبينه قرينة شبه. فإذا كانت تشبه الأيكة البيضاء في رقتها ولطف شمائلها فإنه كالقنفذ في خشونته وقبح سحنته. ولقد عرضت عليها أن تجىء إلى قصرك الرفيع العماد لتزاول عملا مما تجزين عليه البنات الفقيرات خير العطايا وأجزل الهبات فرفضت معتذرة بحاجتها إلى مواساة جدتها والقيام على خدمتها، ولكننى أعلل هذا الرفض بأنه مظهر من مظاهر الإباء وعزة النفس.

فحدقت الأميرة فيه وقالت: أحدس أنك لبثت طويلا بين المدنسين ولم تتعظ بما وقع لى. قال راميرى: لست أرى بعد الكمال الذى بلغت إلى أوجه باستقلال فكرك وقوة إرادتك مجالا تنزع إليه همتى وتسمو نحوه نفسى. إن المحنط الذين يقولون إنه سبب البلاء وأصل الشقاء قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ولم يبق غير والد وردة، وهو رجل طاهر من الدنس وعاره. فأى بأس من الاختلاف إليه واستجلاء أسراره؟ أما العجوز الشمطاء فقد بذلت في اجتنابها الجهد وبهذا التحرز لا أرى ما يمنع من القصد إلى بيته في الغد. ولقد عاهدت على ذلك ولابد لى من الوفاء بالعهد. سألت الأميرة: ولمن أعطيت هذا العهد؟ أجاب: أو تُعطى العهود وتُضرب الوعود لغير وردة ذات الجمال الرائع! لقد عهدتها شغوفة بالأزهار وفهمت أنها لم تشم لها عرفا منذ الوردة التى تكرمت فأهديتها إليها في زيارتك الأولى لها. ومن ثم أمرت مباشر الحديقة بتنسيق باقة أنيقة سأحملها إليها بنفسى. قالت: أحجم عن هذا

الفعل.. أحجم وعليه لا تقدم، فأنت فتى لا تحسن النظر في العواقب. وإن كنت ممن يحبون لها الخير والنفع فلا تجعل لك بها صلة، وإلا كان لعاقبتها سيء الوقع.

فتربد وجه راميري وقال: أنا الآن في معزل عن البوشاة والرقباء ولهذا أكاشفك بدخيلة نفسى دون أن أهاب أحداً.. إن كنت تريدين منى الطاعة لك فهاأنذا مقرّ لك بها، بدليل أني أترك عندك باقة الأزهار. بيد أن هذا لن يحول دون زيارتي لوردة وتفقدى حالتها.. إن وردة غادة فتانة للعقول بروعة جمالها ورشاقة قدها وورد خدها، جذابة للقلوب بمحاسنها التي لا يحصيها العد.. ولم تقع قط عيني على امرأة تضارعها في محاسنها، فإن يدى نيفرت اللتين تضرب بدقتهما وانفتال أصابعهما الأمثال تشبهان قدميها. ولقد دار بيني وبينها الحديث على شؤون كثيرة وتناول حديثنا الشاعر بنطاؤر فخبرتني أنها تعرف والده مباشر البستان وتلم من أموره بما لا يعلمه إنسان. ومما أنقله عنها أنها لا تعتقد أن هذا الشاعر ولد البستاني، وإنما هو ملك هبط من سماء الخير والإحسان، وقد يكون إلها جاء بالبركة والفيض العميم. ولقد كانت ف بدء حديثها يقظة شديدة الحذر والاحتياط ف حياء واحتشام، ثم انطلقت في الحديث فما نطقت باسم بنطاؤر حتى انطلق لسانها بتقريظه بما استخلصت منه أنها تحترم هذا الشاعر أو تكاد تعبيده. ولقد غاظني منها ميلها إليه وعطفها عليه. قالت بنت أنات باسمة: إذن ترى نفسك أولى من بنطاؤر باحترامها واعجابها. قال: كلا، وإنما أنس في نفسى سروراً لا يوصف كلما جلست إلى وردة، ثم إني انظر إليها بوصف أني أنقذتها من الهلاك كما أنقذها بنطاؤر. ولقد اعتزمت أن أنضد الأزهار في شعرها الذي يشب شعرك غزارة واسترسالا وإن اختلف عنه لونا، فهو أسُقر ذهبي، إذا مسه الإنسان بيده من أصبوله إلى فروعه أحسّ حالا بالغبطة والهناء، فتبادلت بنت أنات ونيفرت عندئذ نظرات لم يفهم معناها سواهما ثم التفتت الأولى المخيها قائلة: بنى العزير! نصحتك ألا تذهب إلى طيبة الأموات فلم فعلت؟ قال راميرى: سأنظر غداً فيما ينبغى أن يكون من إقدام على الزيارة أو إحجام عنها. ثم أعقب هذا المزح بالجد فقال: اعلمى يا شقيقتى أنى حدثت أنانا أحد رفقتى السابقين بمدرسة سيتى فيما يقع بها من الظلم والحيف، فقلت له إن بنطاؤر ملقى فى السجن وأنه حوكم بالأمس فى حضرة عمنا الوالى الدى كان يريد به الأذى والشر، لولا معارضة الكاهن الأعظم الذى جهر لأمينى بأنه سيشمل بنطاؤر برعايته ويسبغ عليه درع حمايته. ومع أن هذه الأخبار بلغت إلى علم الطلاب فإنهم مازالوا يجهلون ما تم فى أمر الشاعر. وكل ما وصلهم أنهم سمعوا أمينى يقول لجاجابو: إنه يستحق شديد العقاب، ولكنى لا أسمح لأحد بإعدامه.. فالمرجح عندى أن يكون بنطاؤر هو القصود بهذا القول. وإذا كنت عقدت النية على الذهاب غداً إلى المقبرة فما بنطاؤر هو الواقع إلا لاستطلاع الحقيقة ، إذ هل يبعد أن يكون حكم الإعدام أبدل بعقوبة السجن عدة أعوام؟..

ما سمعت بنت أنات هذا الكلام حتى امتقع لونها وصاحت: أنا سبب ما نزل بهذا المسكين من المحن والمصائب، فيا أيها الآلهة اسعفونى واظفرونى بصاجتى. ثم اعتمدت رأسها وخرجت مهرولة. فقال راميرى لنيفرت: ماذا حصل بشقيقتى، ولم تغير لونها.. وأنت لم تبدل من حالك؟ أجابت: تختلف أحوال الإنسان باختلاف ظروف الزمان. قال: وما تعنين بهذا الكلام؟ أجابت: لا تطلب مزيداً من البيان، وكل ما أقوله إنك سترى مغبة تلك الظروف إذا بقيت مصراً على زيارة بيت المحنطين والعدول عن نصائح المخلصين.

الفصل السابع

تامر العواطف على الحب.. وتأثيرها في القلب

في بكرة اليوم التالي جاز القزم نيمو مع رجل عليه رداء قاتم اللون بالخربة التي اتخذتها وردة مسكناً لها مع أهلها. وكناننا يقصيدان سيراً على الأقدام إلى مغيارة الساحرة ، فلما وصلا إليها قال القرم: ليتفضل مولاي بالانتظار هنا ريثما أخبر بوصوله والدتى العجوز. قال الرجل: اخبرها ألا تصوت باسمى فإنى أحب ألا يخيلني الناس إلا قيما ككثيرين غيري، ومع هذا فأنا ف غني عن هذا التصرز إذ لا يستطيع أحد أن يقف من أمرى على شيء مادمت متنكراً بهذا الذي. فهرول نيمو إلى المفارة، وقبل أن يلتقي بالعجوز وجهاً لوجه صاحت به قائلة: لا تترك سيدك الشريف وحده خارج المغارة، فليس هذا من الأدب اللائق في شيء، ولست بجاهلة اسمه وإن أخفى على رسمه، فرفع نيمو سبابته إلى شفته إشارة الأمر بالسكوت وقال بصورت خافت: إن مولاي لا يحب التعريف بنفسه وهو يرغب في تسميته بالقيم. قالت العجوز: هب أنه كذلك، فما هو إلا كالنعامة تخفى رأسها تحت جناحها واهمة أن أحدا لا يراها. سألها القرم: وهل طالت زيارة الأمير لوردة؟ أجابت ضاحكة: وهل هناك بأس إذا اجتمعا وهما طفلان يمرحان .. ألا يشبه راميري الحمل الصغير الذي لم ينبت قرناه بعد، وإنما يشعر بالمكان الذي سيذرّان منه ويودّ أن لو يستطيع الانتفاع بهما؟ فالأولى بك الالتفات إلى من هم أشد بأساً وأصعب مراساً من راميري كالشاعر بنطاؤر خصمك اللدود، ولكن دعنا الآن من هذا الحديث فإنه مما لا مليق ابقاء القيم على جمر الانتظار.

قالت هذا ودفعت القرم بقوة ساعدها فانطلق مهرولا نصو الباب حيث كان الوالى واقفاً بزى المتنكر، ثم أخذت الطفل شراعو المسكين الذى كان مثبتاً فى آلة تقصير القامة فالقته بداخل المغارة وغطته بكيس قماش قاتم اللون إخفاء له عن النظر. وبعد هنيهة دخل الوالى فلما رأته العجوز حنت رأسها إجلالا ودعته إلى الجلوس على الكرسى الوحيد الذى تملكه فلم يجبها إلى هذا الرجاء فالحت عليه أن يجلس قائلة: اجلس من فضلك ولا تخف أن يراك من بطن الوادى أحد، ثم أخبرنى ما سبب زيارتك إياى فى هذه الساعة؟ أجاب: أمر جلل أنا منه فى حاجة إلى استشارتك والتزود بنصيحتك. ولقد كان فى قدرة الحراس وقد مد الليل رواقه ان يقبضوا على لولا أنى بهذا الزى تنكرت فلم يعبأوا بى. على أنى لبست تحت ثياب التنكر ثيابى العادية كى أتمكن بعد مغادرة هذا المكان من التوجه إلى المقبرة لخلع ذلك الزى والتعجيل بالأوبة. وسأعتذر للأمة بأنى خرجت لزيارة قبر والدى فى أحقر زى وسائراً على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل. قالت: صنيع حسن وفعل مستحسن وسائراً على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل. قالت: صنيع حسن وفعل مستحسن

لما قصّت العجوز على آنى روايتها التى كشفت له بها عن سر مولد بنطاؤر وسردت له ما سبق هذه الرواية وماتلاها من عجيب الحوادث لم ينظر إليها بوصف كونها تلك العجوز الفقيرة الحقيرة التى قوس الهرم ظهرها، بل باعتبار ما كانت عليه سالفاً من غض الشباب والجمال الفاتن للألباب، وشعرت هى بهذا العطف فبالغت في احترامه، حتى إن رأسها حينما انحنت أمامه كاد يلامس قدميها. وكان بجوارهما غراب استأنسته قفزع من منظرها الرهيب ونعق نعيقاً لبث بعده فاغراً فاه، فألقت العجوز إليه بقطعة من الجبن فتوثب إلى مكانها لالتقاطها، ساحباً على الأرض جناحيه اللذين اثقلهما الضعف، إذ لم تكن فيه قدرة على رفعهما والاستعانة بهما في الحركة والطيران.

أما آنى فقد قال لها: أريد الحديث معك في شأن بنطاؤر. قالت: ولم الجاب: لأنى أرى في وجوده خطراً يتهددنى بل حائلا دون إصابة الأغراض التي إليها أرمى. ثم إنه ارتكب جريمة القتل بالاعتداء على الأبرياء، بيد أن كهان هيكل سيتى يبغون إعفاءه من العقاب لمنزلت من نفوسهم. ولايذهب عليك أنهم ينتحلون لأنفسهم حق محاكمة بعضهم البعض ويدعون بأنه ليس لمثل أن أجرح حكمهم الذي أصدروه عليه بالنفى إلى محاجر رحنو (١)، غير مكترثين بأمرى. ثم نظر إلى نيمو وقال: اذهب يا نيمو لتنتظرني عند قبر أمينوفيس فإنى أريد الحديث مع والدتك في أمر خطير.

قال: سمعاً وطاعة يا مولاى. ثم سار واثقاً بأنه لسوف يحيط علماً بكل ما سيفضى الوالى به إلى الساحرة. وما اختفى عن الأنظار حتى وجّه الوالى إلى العجوز فجأة السؤال الآتى: أما زلت مقيمة على عهد الولاء للأسرة الملكية السابقة التى اشتهرت عشيرتك بالإخلاص لها؟ أشارت بالإيجاب. قال: إذن فأنت لا تضنين بمساعدتى على المطالبة بسرير الملك، وهذا ما اغتبط به. ثم إنك تعلمين بلا ريب أنه لا غنى لى عن الكهان وأنهم أخذوا على عهداً بأن لا أوصل إلى بنطاؤر أذى. ومع هذا فمازلت أشعر بقلق فى نفسى وانزعاج فى ضميرى من هذا الشاب، لا سيما وقد أبلغتنى العيون التى بثنتها فى بيت سيتى أن الكهان إذ حكموا عليه بالنفى إلى محاجر رحنو كانوا يقصدون إلى جعل عقوبته مقتصرة على نحت الأحجار مدة قصيرة من الزمن، في حين أن هذه العقوبة ليست بالشيء المذكور لرجل مثله شديد القوى وثيق الأركان، بل ربما كان النحت رياضة لـه وتمريناً فتزداد أساطينه قوة وفصوصه اندماجاً. ثم إن في رحنو كما تعلمين مدرسة للكهان تابعة لبيت سيتى.

⁽١) محاجر رحنو هي جبل السلسلة الآن، وهي التي استضرج قدماء المصريين منها الأحجار التي بني بها أغلب المعايد في الصعيد.

ومن العادات المرعية أنه إذا فساض النيل وارتفعت مياهه إلى الحافتين أقيمت لذلك أعياد (١) يجتمع فيها الكهان لانتخاب ثلاثة من المجرمين المحكوم عليهم بالنفي مع الأشغال الشاقة في المحاجر لاتخاذهم خدماً لهم في الهيكل .ومما لا مراء فيه أنهم في الأعياد المقبلة سنتخبون بنطاؤر ويطلقون سراحه فتنطل بذلك حيلهم ويتم مكرهم. قالت العجور: يبدو لي أنهم يبغون الاستخفاف بك والاعتداء على حقوقك ، قال الوالى: لقد راجعت نفسى وضريت أخماساً في أسداس واستشرت راتوتي ونيمو فرأيت أن العمل بمشورتهما وبما تنصرف إليه نفسى ربما جرّ إلّ مشكلة تدعو الحكمة إلى اتقائها ، فما رأيك أنت؟ قالت وقد بدت على وجهها علامات الاكتئاب: لا مفرّ لك من إيادة ذرية آسا عن آخرها. ثم أطرقت رأسها هينهة وقالت: ورأيي الحكيم أن تجعل ثقباً في السفينة التي سيرسل المجرمون عليها إلى رحنو، فإذا ما توسطت النيل هوت إلى قاعة فيلقى بنطاؤر حتف مع من يغرقون. قال: قد خطرت هذه الحيلة ببالى وأشار بها القزم، ولكنها حيلة عتيقة عملت بها أكثر من مائة مرة فشاع أمرها وافتضح سرها، دعى أن أميني لابد أن يتهمنى وقتئذ بنقض العهد والحنث في اليمين التي أقسمت بها ألا أوصل إلى بنطاؤر أي أذى. قالت: قلت حقاً ، وليس بمستغرب أن أرى الرجال يوفون بالعهد بينهم ثم لا يحافظون عليه مع غيرهم. وإذا لم ترق لك تلك الحيلة فإليك حيلة أخرى أحق بالاتباع منها وأحرى، وهي أن تأمر ربان السفينة التي سيركبها المحكوم عليهم باجتياز محاجر رحنو في (١) ينحسر النيل في جهات رحنو المشار إليها، وقد أقيمت بها في عهد رعمسيس الثاني وخلفه منفتاح أثار اسطوانية الشكل نقشت على سطحها الأناشيد المقدسة التي كانوا ينشدونها، وبينت القرابين التي كانوا يقدمونها لمناسبة تلك الأعياد. وقد استخرج الدكتور ايبرس وصديقه استرن معاني هذه النصوص وقابلوها على المعلوم من غيرها. وربما كان الاحتفال الآن بنزول النقطة أو وفاء النيل أثر تلك الاحتفالات التي يرجع فضل اقامتها إلى رعمسيس الأكبر.

ظلام الليل، والاستمرار على الصحود في النهر إلى مدينة أسوان، فيبعث بالمجرمين إلى معادن الذهب فيما يلى الصحراء وربما انقضت أربعة أسابيع أو ثمانية قبل أن يطرق الأسماع في طيبة هذا الخبر وتتداوله الألسنة. فإذا رأيت من أميني التذمر والغضب فتظاهر بالحنق على الربان وبالغ في تعنيفه لما تعمد ارتكابه من الغلط بإيعازك، فإن أميني لا يستطيع وقتئذ أن يحتج عليك بأنك أردت ببنطاؤر شراً. وفي غضون ذلك يسهل عليك بما ترافر فيك من لباقة وحذق، وبما عرف بعاكر به من عسف وتجبر أن تحقق أملك في الاستواء على عرش الملك. أما الأيمان والعهود فإنها تصبح أوهي من بيت العنكبوت، ووقتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لأن تصبح أوهي من بيت العنكبوت، ووقتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لأن عظامهما.

قال آنى: إن أمينى لا يسلم بوقوع الغلط. قالت العجوز: إذا لم يصدقك فاكشف له عن وجه الحقيقة وزد عليها أنك لما تبينت الحيلة التى دبرت لإنقاذ بنطاؤر من العقوبة في رحنو، أبت نفسك أن يبقى هذا للذنب جامحا في غوايته وأن تهان حرمة القانون بمثل تلك التدابير. ومتى علم منك بوجود الشاعر في معادن الذهب استفسر عن أحواله، فإذا أيقن أنه على قيد الحياة صوّب الكهان رأيك واستحسنوا فعلك.. هذه نصيحتى إليك فاعمل بها ولا تحد عنها إذ لا يسع القيم الذكى القصى مرامى النظر في العواقب مثلك إلا أن يجعلها نصب عينيه مادام طامحاً إلى الاستئثار بالدار التى وكلت شؤؤنها إليه. قال آنى: عندى اعتراض على هذا الاقتراح وهو أنى لست في غنى عن مساعدة أمينى، ولست أحب أن أصبح ألعوبة في يديه فيغلبنى على أمرى ويشاركنى في سلطاني.

فهرت العجوز كتفيها استنكافا ثم دخلت المغارة حيث غابت هنيهة ثم خرجت وبيدها قنينة وقالت: خذ هذه القنينة فإن أربع نقط منها تكفى إذا وُضعت في قليل من النبيذ لإضاعة الصواب. وما عليك إلا أن تجربه في أحد العبيد لتعلم صدق قولى وتتأكد سرعة تأثيره. قال آني: وماذا أستفيد منه؟ قالت ضاحكة: تستفيد منه إقناع أميني بأنك لم تهتك للقانون حرمة ولم تجرعن قصد السبيل، وكيفيه ذلك أن تبادر بلقاء الربان عند عودته من أسوان وتقدم له قدح نبيذ فيه أربع قطرات من هذا السائل ثم تبعث به إلى أميني فإذا تأكد له أمره وعلم أن به خبلا فإنه لا تبقى عنده ربية في تجاوزه موردة رحنو وابتعاده عنها إلى الجنوب. قال آني: عجباً لك يا بيكي ما أعظم قدرتك على جعل الستحيل ممكناً! ولكن لا محل للعجب، وقد فتنت الناس بمحاسنك الباهرة وصرت أمهر امرأة وأحذق ساحرة. قالت العجوز: لست أسمى بيكي فإن بيكي قد انقضت أيامها وزالت دولتها. وإنما اسمى نيخت فادعني بهذا الاسم. قال آني: لا بأس، إلا أنني أفضل صوت بيكي الرخيم على نعيب نيخت العجوز.. على أنه لايجمل بي أن أفارقك، وأنت أرصن نساء طبية عقبلا وأحذقهن تدبيراً وأوسعهن حيلة، قبل أن أوجه إليك سؤالا وهو: هل لك في إخبياري بحوادث المستقبل وأسراره؟ وإذا استطعت ذلك فهل تصرين أن سعيي سيكلل بالنجاح؟ لا أخالك إلا عارفة بما أرمى إليه من المقاصد.

أطرقت نيخت رأسها برهة ثم قالت: لا أستطيع أن أخبرك الآن بنجاح سعيك أو فشله..صوّب نظرك إلى هذين الصقرين المقيدين بمخلبيهما، إن الذي سقط ريشه وهبطت جفون عينيه هو رعمسيس. أما الثاني المتحلى بريشه الزاهي اللون وعينيه البراقتين فهو أنت ، إلا أنني لا أدرى أيهما يموت قبل صاحبه. فألقي آني على الأول نظرة احتقار واشمئزاز بينما كانت العجوز تقول: إنني أعامل الصقرين بالسواء، لا

أفرق بينهما ولا أتحيز لأحدهما، وللقضاء المبرم حق الاختيار. فجزع آنى ولم يتمالك أن أخرج كيس نقوده وألقى به إلى العجوز قائلا: أرجو منك العناية بأمرهما ليتيسر لك إخبارى بعاقبة أمرهما. ثم تحفز للانصراف قائلا: إذا طرأ حادث على أحد الصقرين فابعثى نيمو ليخبرني به.

وبينما كان آنى يتوارى عن العيان ملتمساً الطريق الموصل إلى قبر والده تمتمت العجوز بهذه الكلمات: إنك لأحمق معتوه، تجعلنى في عهدك وتحت رعايتك لأجل صقرين لا تأثير لهما في الحظوظ، ثم تطمح بعد ذلك إلى الجلوس على أريكة الديار المصرية. لقد كان رعمسيس فاقد الرشد حائر الصواب حين أنابك عنه في الحكم على هذه البلاد. ولعله تعمد اختيارك من بين الأغبياء ليتقى شرك. فإذا كان هذا هو ما ارتاه فقد سقط آنى في هاوية الغرور، وعادة الحمقى والأغبياء إذا عجزوا عن العمل بالحكمة والروية أن يقتحموا المصاعب دون أن يتدبروا في العواقب.

الفصل الثامن

ما حدث أثناء الوداع.. من مظاهر الوجد والالتياع

خرج آنى من مقبرة والده بعد ساعة متشحاً بافخر الثياب واستوى فى مركبته فمر بمغارة الساحرة وكوخ والد وردة. وكان نيم و جالساً يحدد إليها النظر ويتوثب فى مكانه غيظا وحنقا، لأنه كان يرى من خلال الحاجز شبح إنسان جالساً إلى جانب وردة.

وما كان هذا الدخيل سوى الأمير راميرى متنكراً بزى كاتب من كتاب الخزينة، جاء ليسأل عن بنطاؤر ويستقصى أحواله. وقد رصع شعر وردة الجميلة بوردة زاهية، وجعل همه عند وصوله المبادرة بترصيع شعرها بهذه الوردة مسوغا هذه المسارعة بأن الوردة كانت مخفية في طيات ثيابه وأنها إذا بقيت فيها طويلا غشيها النبول. وقال أيضاً في تسويغ فعله إنه لو بدأ بزيارة بنطاؤر لطال مقامه عنده واضطر إلى الأوبة إلى طيبة قبل أن يتمكن من استجلاء محيا تلك الغادة الفاتنة ولأزعج غيابه اخته بنت أنات فترسل بعض أعوانها في طلبه. أما الآن وقد تحققت أمنيته وتأكدت بغيته، فهو يحسب نفسه من أهل السعادة والتوفيق.

وكان قلب راميرى في جلوسه إلى جانب وردة يخفق سروراً وابتهاجاً برؤيتها. ولولا أن الهموم أخذت تساوره لمضالفته القوانين بالدخول في بيوت المدنسين وإخفائه حقيقة أمره عن العالمين ، لشيب سروره بالكدر. ثم إنه لم يكتف بذلك بل تعمد البهتان والكذب، إذ قال لوردة إنه من حاشية بنت أنات. ولما كان الكذب يجر إلى الكذب فقد اضطر – في إجابته عن أسئلتها – إلى حشو كلامه بالاخبار الملققة

ليتوافر التطابق بين مقدمات الكذب ونتائجه. وبالجملة فقد كان الشر في هذه المعاهد المدنسة متفاقماً أكثر منه في بيت سيتى أو قصر عرفون. ثم حلق راميرى بفكره في جوّ هذه الخيالات، غير أنه كان يرغم نفسه على إنكار صحتها. لأن سيت الذي يسلط العواصف على الأرض ويحرك القوب الساكنة، كان قد نفخ فيه من روحه فغدا لا يرى في مرامى نظره سوى غرض واحد يبغى إصابته، وهو أن تكون وردة في عيشة راضية ومرتبة سامية. وعلى هذا الانعطاف بأنه لا يليق بها – وهى في ذلك الجمال الباهر والحسن الزاهر – أن يكون مهبطها بين أقوام ضربت عليهم الذلة والمسكنة ووصموا بالعار والدنس وباءوا بغضب من الآلهة.

وكان وقت وصوله إلى فناء الكوخ لم يقع نظره عليها وإنما سمع صوتها وقتما هبت من مكانها لتزجر الكلب الذى هر عند رؤيت هريراً شديداً، فلما رأته تراجعت إلى الخلف فزعة وقالت: لم عدت إلى مأوانا المدنس وقد أنذرتك بأن جدتى أرملة أحد المحنطين المدنسين؟ قال راميرى: لست بمجيئي هنا أقصد جدتك وإنما أقصدك أنت لاستجلاء محياك السنى والتلذذ بحديثك الشهى.. وأرى أنه لا مانع قاطع يمنعنى عنك، إذ لا علاقة بينك والقوم المدنسين. وهل من عجب إذا تفتحت أكمام الورود في وسط الرمال أو بين الجلمود؟ قالت وردة في ثبات واطمئنان: إنني ابنة والدى الجندى وحفيدة جدى المحنط الذي ذهب فريسة الغدر والحقد والظلم. ولست أعرف معنى العقوق حي أجحدهما أو أتبرأ منهما.. إني لهما ما دمت على قيد الحياة، وكل الصلات تربطني بهما ولا صلة بيني ومن يترفع عنهما، لأن من يقدم على هذا الفعل ثم يود أن أفارقهما يكون كمن يبغي أن ينزع قلبي من بين جنبي.

قالت هذه الكلمات ثم نظرت نحو الباب، فجذبها راميري إليه وقال: لو قيس

الصخر بقلبك لكان الين منه وأعطف.. انت تعلمين أننى بذلت فوق المستطاع من الجهد لإنقادك وجئت إليك دون أن يحدثنى وسواسى بأنك.. أه.. من الحقائق الثابتة عندى أن ليس بينك ومن تدعين أنهم أقاربك جامعة شبه.. ولا يسوؤك منى هذا الكلام وإنما ينبغى لك تدبر معانيه وإدراك مراميه لتوقنى أن كل مشتهاى أن لا تثقل كاهلك أعباء الدنس. ومن ذا الدى إن راك لا يشعر في نفسه بالحنين إليك والعطف عليك ومحبة الخير لك؟.. إن سيدتى بنت أنات نفسها قد.. كلا! من المستحيل أن تكون .. قاطعته وردة: أن أكون من زمرة المدنسين! ثم أطرقت رأسها قليلا وقالت بصوت جهورى: إن وصمة الدنس التي ألصقت بنا ليست إلا ظلماً فادحا وإلا لما كان جدى على ما عُرف به من الفضائل والكمالات.

قالت هذا واغرورقت عيناها بالدموع فابتدرها راميرى بقوله: إنى مشايع لرأيك، ولكن يتعذر على المرء أن يبقى محافظاً على الفضائل والكمالات اذا ظلت الفضائل محدقة به ونظر الناس إليه بعين الاحتقار والمقت. وقد أيدت التجارب ما أقوله، فإنه إن لامنى أحد على أمر فانه يثير في صدرى عواصف الغيظ منه والحقد عليه بضلافه لو مدحنى، فإنى أشعر في نفسى بدافع على إيتاء المعروف. ومع هذا فإن خلطائى ملزمون باحترام وإجلال عشيرتى في معاملاتهم معى ومعهم. فقاطعته وردة: أما نحن فلا نصيب منهم غير الازدراء والتحقير. هذا ما يستخلص من قولك، وإنما يجدر بك علم أنه لا يبنغى لامرىء أن يأبه للناس أأصابوا في حكمهم عليه أم أخطأوا مادام واثقاً بأنه لم ينحرف عن جادة الفضيلة. وإذا كنا في حالة تستدعى الاهتضام والاستذلال كما تقول، فلدينا من الأسباب ما يدعونا إلى الرضى بها وإيثارها على سواها. لانكم معشر العظماء الطاهرين من الأرجاس المبرئين من العيوب يخالجكم الشك أحياناً في حقيقة مراكركم فتتوهمون أنكم أقل

خطرا مما أنتم في الحقيقة، بخلافنا نحن فإنا لواثقون الوثوق كله باننا أشرف قدرا وأنبه ذكرا مما تظنون وأننا نحن العالون فوق ما شاء ظلمكم واضطهادكم أن نكون في حضيضه متنكسين.

قال راميرى: إن ما ذكرته هو مجمل رايي فيك، وإنما لايغب عنك أن في هذا الوجود إنساناً يقدرك تقديرا خاصا ويضعك في أسمى المراتب وأسناها ويقر لك بالرفعة التي لا تطاول والمجد الذي تطمح إليه العيون. وهيى ما وردة أنك غير خليقة بالاحترام والإعجباب، فمثل من لا يسعه أبدا إغفال أمرك. قالت وردة: إن ما مرُّ بخاطرك من هذا قد مر مثله بخاطري. إذ بينما كنت نهباً للهواجس وأنا على مقرية من مرقد جدتي خُيل لي أنه لو كان لي أخ مثلك لعشت في الهناء والنعيم المقيم . ثم أتعلم ماذا كنت اصنع لو أنك كنت لي شقيقاً؟ قال: ماذا كنت تصنعين؟ أحايت: كنت أشترى لك جوادين كريمين ومركبة فتذهب إلى ميدان القتال لتحارب الأعداء وتذيقهم مع رعمسيس النكال. سأل: أوعندك مال يكفي لاشترائها؟ أجابت: نعم عندى، وهو ما تسلمته منذ ساعة فقط.. أو تعرف القراءة؟ أجاب: نعم، أعرفها. قال: لما أصابني الجرح في صدري عادني طبيب من بيت سيتي، وهو رجل حاذق ف فنه عارف بمهنته إلا أنبه غيريب الأطوار شاذ العادات، فإنبه مثلا كان لا يكفُّ عن تصويب النظير إلى والتحديث بعينيه في وجهى كما يحدق السكيران في النياس مستثبتاً. وكان يتعاجم متلعثما بلسانه، سأل: أليس اسمه نبسشت؟ أجابت : نعم هو بعينه، وكان يحدث جدى في أمور غربية. ولقد عمل لنا خيرا كثيرا بعد حادثة الاعتداء التي دافعت أنت وينطاؤر فيها عنا. ثم تبواري عن أنظارنا فلم نعد نراه إلا اليوم منذ ساعة، فقد عوى الكلب عبواء طويلا فخرجت من الكوخ فوقع بصرى على شيخ قال لي إنه أخو نبسشت وأن هذا الطبيب أودعه مالا طائلا باسمى وعهد إليه

أن يسلمنى خاتما ذكر عند تقديمه إلى أنه يكفى أن أبرزه له ليسلمنى الوديعة على الفور، ثم تلا هذا على سمعى، فتناوله راميرى من يدها وقرأه بصوت عال فإذا فيه ما يأتى:

«من نبسشت إلى وردة الجميلة.. إن نبسشت يهدى سلامه إلى وردة ويخبرها بأنه كان مدينا لجدها بينم الذى توفي وأخذ المحنطون يحنطون جثته الآن بمثل العناية التى تحنط بها جثث العظماء بمبلغ ألف حلقة ذهبا، فعهد إلى أخيه تيتا حفظ هذا المبلغ عنده ليكون تحت طلبها في أى وقت تريده.. ولها أن تثق بتيتا وأن تأخذ المبلغ منه، وإنما الأفضل والأمثل أن تستثمره أو تشترى به بيتا للسكنى أو أرضا للزرع. فإذا فعلت ذلك فإنها ستعيش مع جدتها في أمن ورغد وهناء. وكل ما يسأله نبسشت منها أن لا تتزوج أحداً قبل مضى عام واحد من تاريخ هذا اليوم لأنه يحبها حباً جماً. فإذا انقضى الثلاثة عشر شهرا ولم يعقد عليها كان الخيار لها في الاقتران بغيره، وإنما عليها في هذه الحالة تكليف مترجم الملك بالبحث في الخاتم الذي تركته والدتها وحل رموزه».

ما كاد راميرى يأتى على ختام هذا الكتاب حتى صار كالمنزول به، فقال: إن هذا الأمر لمن الغرابة بمكان. ومن ذا الذى يصدق أن ذلك الطبيب الشاذ الخلق الرث الثياب يبلغ به الكرم إلى حد البذل بكل ماله، ثم ما هو الخاتم الذى أشار في رسالته إليه؟ وقد نشرت وردة شوبها فأبرزت منه الخاتم الذى كان بريق أحجاره الكريمة يخطف البصر. قال راميرى: إن قصوصه من حجر الماس الثمين فلابد أن يكون رفيع القيمة نادر المثال وهاأنذا أرى وسط هذه الظفرة (١) البيضية الشكل حروفاً منقوشة لا أستطيع حل رموزها.. سأطلع مترجم الملك على هذا الخاتم.. أكانت والدتك تتحلى به؟ أجابت: لقد عثر والدى عليه في ثيابها عقب مماتها، وكانت

^{14.}

خرساء من سبايا الحرب، فلم يهتد أحد إلى معرفة موطنها ولا إلى حقيقة أمرها. قسال: لاريب عندى في أنها من أسرة شريفة، لأن الأبناء سر الوالدين.. فأنت أميرة صغيرة إذا يبا وردة.. ما أسعد طالعى بك، وما أكبر حبى لك قالت باسمة: لعل الخوف الذي امتلا به فؤادك فجعلك تعلو على علوا كبيراً قد زال الآن. قال: لست أرضى منك إساءة الظن بي إلى حد تتوهمين معه أني أرفع من قدر نفسي بمقدار ما أضع من منزلتك، فلقد قضيت يوم أمس وليلته أعيد محياك الراهر لخاطري. وإلا فماذا سبب سهادى وقادني إلى هنا اليوم؟ قالت: تكلم، لا أدرى السبب.

فاستخرج راميرى من طيات ثوبه الوردة البيضاء وقدمها إلى وردة فأخذتها منه بيد مرتجفة، وقد علت وجهها حمرة الخجل واعتراها الدهش، ثم قال: أنا أعلم أن هديتى هذه من عبث الصبيان، ولكن لا يسعنى قبل تقديمها إليك إلا الاستئذان منك فى ترصيع شعرك الناعم بها. أفتغدقين على نعمة هذه الحظوة وتحقيق أمنية طالما منيت النفس بقضائها؟ أجابت: ما أجمل هذه الوردة وألطف شذاها العبق!.. وما رأيت فى حياتى وردة تشبهها فى لونها الباهر وشذاها العطر. قال: إنما هذا الجمال مستمد منك وإليك يسند، فدعينى أزين بالوردة شعرك، بل أزينها بهذا الشعر الذى يفوق حرير (صور) نعومة ملمس وأشعة الكواكب الدرية امتداداً واسترسالا.. ها قد رشقتها والحمد للآلهة أن ثبتت فى مكانها.. لا تضعى يدك عليها.. لو رأتك الهواتير (۱) السبع لاصفرت وجوههن حسداً وكمداً.. ألست فى المقيقة أبرع منهن جمالا؟ فتنفست وردة الصعداء وتوارت خجلا ثم عادت فقالت: ما أبرعك فى المداهنة والملق، ثم حددت فى الأمير النظر وكانت عيناه تقدحان كالشرر

⁽۱) جمع هاتور.

لتأثر وجدانه بحب وردة التي لم يتمالك أن أخذ بيدها فوضعها على قلبه لتحسُّ قوة ضربانه وسرعة خفقانه ويتأكد لها هيامه بها، وسالها بعد هنيهة: أشعرت بخفقان قلبي وعلمت مقدار حيى؟ أنا لا أهنأ براحة يا وردة إلا إذا أجبتني إلى أمنية أخرى هي في نظري أهم من تلك، وأرجو أن يكون اغتباطي بها أعظم منه بها.. أفتسمحين لى بقبلة بيا وردة.. بقبلة واحدة ليس إلا؟ فتراجعت الفتاة إلى الخلف فزعة وقالت: كلا.. لقد فهمت الآن سر أمنيتك.. ولم بيق عندي ربي في أن العجوز نيخت قد وقفت على أسرار الرجال وأن نصيحتها لي كانت في محلها من الصواب.. سأل: ومن هي هذه العجبوز ومن أين لها الوقوف على أمرى والاطلاع على سرى؟ أجابت: أنبأتني بأنه قد حان الوقت الذي سيدنو منى فيه رجل يجاذبني أطراف الحديث في الغرام ويمعن النظر ف وجهي، فإذا نظرت إليه كما ينظرني همّ بلثم شفتيّ وأوصتني بأن أدعه وشأنه لا أنظر إليه ولا أحدثه قائلة إنني إن مكنته من تقبيلي فقد خولته القدرة على انتـزاع روحي من بين جنبي. ومتى أصبحت بــــلا روح تسلطت على ارواح الشياطين فلا يهدأ لي بال ولا يستقر حال، بل أكون كالريشة في مهب الرياح تدفعها المهاوي وتلفظها البحار وتطردها السموات، فإليك عنى أيها الصديق واعلم انه يشق على أن أضن عليك بقبلة، ولكن أيروق لك أن أصبح بلا روح فأهيم ف الأودية والبيداء وأقضى حياتي في التعس والشقاء؟

سأل راميرى: وهل العجوز تحب الخير وتصطنع المعروف؟ فأومأت وردة بإيماءة تفيد السلب، فقال الأمير: ليست هي بالا ريب من ربات الخير والمعروف لكذبها عليك. وجدير بي أيتها العزيزة أن أمزج روحي بروحك لا أن أنزعها من بين جنبيك كما تدعى تلك المرأة منبع الضلالة والكذب، فتندمج الروحان وتصيران روحاً واحدة. وهل من سبيل إلى ما دون ذلك لمن هو على شاكلتنا رقة قلب ولين

عطف؟ قالت: أحب إلى أن يتحقق قولك، فقد سبق لى أن شعرت بأثر من مدلوله في نفسى. الم أكن-قبل أن الزم الفراش- كلما قصدت الى ضفة النيل لجلب الماء أطيل المقام على مقربة من الساقية لما كان يستوقفني من منظر مياهها دافقة وقطراتها متناثرة، وما كان يأخذ بلبي من انطباع ضوء القمر بسنائه الباهر على كل قطرة منها فتبدو كمرآة صغيرة للناظر ينبعث منها نور بخطف سناؤه الأبصار، فبري الرائي من الأقمار قيدر عدد القطرات، ومناهي في الحقيقة إلا قميراً وإحداً بسبح في كبد السموات.. شهدت هذا المنظر الأنيق فجال بخاطري تعدد القمر وهو واحد فقلت إن ما وقع عليه منه لما يجوز أن يقع مثله على القلب.. حقاً.. ليس للمرء إلا قلب واحد، ولكن يظهر أن من المحية والعطف تنبعث قلبوب كثيرة لا تسلب القلب الأصلى قوته ولا تخفض من حرارته ولا تهدىء من خفقانه. وإذ كان القلب قابلا للتجزؤ والتعدد فلسوف أخصك بنصيب منه بعد أن أوزع الأنصبة الأخرى على من أوليتهم حبى وإخلاصي وهم جدى وجدتي ووالدي وشراعو الصغير والآلهة.. وبنطاؤر. قال راميرى: أويكفيني نصيب واحد من أنصبة عديدة؟ قالت: أرأيت هذا النصيب الذي تستخف به لضالته؟ فإنه لسوف ينطبع في نفسك قلباً كاملا كما ينطبع القمر في كل قطرة من رذاذ ماء الساقية؟ فيبدو كأنه أقمار بقدر عددها. قال: صدقت في تشبيهك. ثم مد ذراعيه لعناقها وكانت تضطرب استحياء. فلما أطرقت رأسها قبّلها قبلة سجلت بين روحيهما عهداً وثيقاً وربطتهما برباط متين، فلم تتمالك وردة بعد ذلك أن قالت: إليك عنى! عجِّل بالانصراف من هذا المكان. قال: إن تأذني لي بالبقاء هنيهة بين يديك، فإنك تولينني نعمة وسعادة لن أنساهما أبد الدهر.. هلمي بنا نجلس على ذلك الكرسي ولنا من هذا الحاجز ستار يصدُّ عنا أعين الرقباء.. ثم لمّ نخشى الرقيب وما أمامنا إلا الصحراء مترامية الأطراف إلى أبعد

مدى، وما حولنا ديار ولا نافخ نار؟ قالت وردة وقد علتها علامات القلق: لم نتوارى عن الأنظار إذا لم يكن في دنوك منى ما يستدعى وخز الضمائر ولا مؤاخذة السرائر؟ قال راميرى: اتظنين أن ما يعمله الكاهن الأعظم في قدس الأقداس شر وباطل؟ كلا! إنا نربأ به عن فعل الشر، ولكنه رغم ذلك يتوارى فيه عن الأنظار. قالت وردة مبتسمة: ما أقوى حجتك وأوثق قدرتك، ولكن لاعجب أن يكون عارف القراءة والكتابة مقنعا ومتلقى العلوم عن أمينى هماما قديرا. قال راميرى: لست تلميذ الكاهن الأعظم وإنما أنا تلميذ بنطاؤر وهو أستاذى المحبوب، ومع حبى له وإجلالى لقامه فإن قلبى يكاد يتمزق غيظاً منه وكراهة له، كلما ورد اسمه على لسانك، أنت تفضلينه على وعلى كثيرين غيرى.. نعم إن ذلك الشاعر قطرة يتلألا بالانعكاس فيها سنا قمر محبتك ولكنى لا أحب منك أن توزعي قلبك على الكثيرين من الناس لهذا الحد!

قالت وردة: لم تحدثنى بهذا الكلام؟ ألا تحترم نفسك ووالدك والآلهة معا، وهم مع ذلك أنفس متعددة؟ على أن نصيبك من حبى أعظم من نصيب الآخرين، لأننى لم أحب أحدا منهم بقدر ما أحببتك. ألم تر أن التأثير العجيب الذى أشعر به الآن – وقد وضعت ثغرك على ثغرى – يشبه الشعاع منبعثاً من القمر؟ وهذا الشعاع ألم يكن شبيها بالأشعة الشمسية في حرارتها وشدة نفاذها؟ وهذه القبلة التي طبعتها بطابع شفتيك ألم تكن كجذوة نار سرت حرارتها الشديدة في جسمى.. إننى كلما أفكر فيك وأمثلك لخاطرى لأناجيك أفقد أسباب الراحة ولا يهنأ لى بال. ولطالما مددت نظرى إلى الباب أسائل نفسى أيتنازل منقذى ومخلصى من مخالب الموت، ذلك الفتى ذو الشعر المرسل إلى الكتفين.. أيتنازل بالحضور إلى هنا ليرمق بعينيه أسيرة فضله وصنيعة مروءته، أم يأنف من زيارة فتاة فقيرة حقيرة مثلى؟ فلما جئت محققا

بمجيئك ما هو مظنون بمثلك ومقدر فيك قلت في نفسى لقد سالمتنى الأيام وهادنتنى مروف الزمان ووافتنى بما كنت أطمح إليه من العز والسعادة. فعليك إذا بالصدق في حبك والاستقامة في سيرك، وإلا جذبتك من شعرك المرسل هذا..

قال راميري: اجتذبيني منه ما شئت، فإنه لا يلحقني ضرر من جذبك مهما يبلغ من قورة، ولكني سمعت من كلامك ما ينفذ إلى الفؤاد ويمزق الأكباد.. إنك تؤثرين ينطباق رعليّ، ولا عجب ، فينطاق رأوسم علماً وأكثس فضلا وأرقع مقاما وأسرع نجدة. قالت وردة بجد: كل ما أستطيع أن أقوله في هذا الموضوع إنه رجل لا نظير له بين الرجال، ولمو أنه حاول تقبيلي مثلك لذهبت أمامه هباء كالرماد، تعطيه حرارة الشمس في راى العين صلابة وقسوة فإذا لمس بطرف البنان استحال ترابا تسفيه الربيح. ولو أنه أقدم على ذلك الفعل لتراجعت خوفا من أن يلامس ثغره ثغرى ولملئت رعيا وفررت أمامه فرارك من الأسد. ولك أن تسخر منى وتضحك على ما تجدني عليه من سنذاجة الطبع وما ربما تعده حمقا وبلاهة، ولكن هذا كله لا يمنعني من الاعتقاد بانه إلى هبط من السموات. ولقد خبرني والده يوما أن معجزة ظهرت في البوم التالي لميلاده، وكانت كثيراً ما تكلفني العجوز بالذهاب للسؤال عنه. وهو مع أنه من العامة حسن السيرة طيب السريسرة. وكان كثيرا ما يطنب في مدح ولده، ومن كلامه لى فيه انه كان يقول الشعر صغيرا وأنه تعلم القراءة والكتابة بلا معلم وأن أميني رآه يوما فادخله بيت سيتي بعد إذ تأكدت له براعته وعبقسيته. وكنت يوما مع أبيه إلى شجيرة عريضة الأوراق كثيرة الأزهار وقال لى: إن ولدى يضارع هذه الشجيرة التي نمت أمامي وامتدت أفنانها دون أن أعرف سر نموها ولا كيفيته، وكل ما في الأمس أننى كنت اشتريت بذوراً من طيبة وجدت بينها بذرة وأحدة أجنبية الاصل فأنبتت هذه الشجرة التي لا يعرفها الزارعون ف بلادنا، ولم يستطع أحد أن

يوافقنى على أصلها، وهى مع ذلك ملكى وغرس يدى. وهكذا شأن بنطاؤر، فإنه لا يشبه والدته ولا اخوته ولا أحدا منا، فأجسامنا صغيرة ناتئة العظام في حين أن جسمه واف وقوامه لدن ولون بشرتنا أسمسر ولون بشرته كالورد ولهجتنا خشنة وعبارته مهذبة عذبة. وهذه الفروق تحملنى على الحكم بأنه أحد أبناء السماء وضعته الآلهة في مسكنى الحقير. ولقد أبصرت بنطاؤر في الأعياد فتساءلت أبين الكهان من يدانيه جمالا وكمالا وعلما وفضلا..؟ أما أنا فتبينت فيه بعض أمارات الألوهية، كيف لا وقد شهدته يصارع جموع الناس فيصرعهم لوقايتي من شر عدوانهم. أفلا أحترمه بعد هذا، وأنا كلما وقع عليه بصرى تجمد الدم في عروقي لتأثر وجداني ولا أحير قولا لحصر لساني! كل ما أستطيع أن أوضحه لك يا لتأثر وجداني ولا أحير قولا لحصر لساني! كل ما أستطيع أن أوضحه لك يا مديقي من الفرق بينكما أن فؤادي يخفق لخفقان فؤادك متى التقي شعاع بصرى بشعاع بصرى أما بنطاور فإنني إذا رمت استجلاء طلعته عزّ على هذا المرام ما لم أحلق في جو الخيال وأصعد إلى السماء بأجنحة الوجدان. ولا تنس أنك لى كأكليل غض ناضر نمق بالورود الزاهية الطيبة ورصع بالأزهار التي تقر العين بمراها، كما أنه لى كالشجرة المقدسة الثابتة الأصل الملتفة الأفنان التي تعنو لها الجباه اجلالاً واحتراماً.

كان راميرى يسمع هذه المقارنات اللطيفة ساكناً ساكتاً، فلما انتهت وردة منها قال: أنا مازلت في غضاضة الشباب ومقتبل العمر ولم آت من جلائل الأعمال ما استحق من أجله وصفك إياى بتلك النعوت الجليلة الجميلة. غير أنى أطلب إليك أن تصبرى صبراً قليلا جميلا فإنك لا تلبثين أن ترفعى بصرك إلى بعده لا كما ترفعينه لرؤية شجرة مقدسة بل إلى شجرة جميز يحبب ظلها الوارف ابن السبيل التماس الراحة تحتها بالتفيؤ. بها واعلمي يا وردة أن سروى قد انمحت آيته كما تنمحي آية

النهار وأنى اعترمت مزايلة هذا المكان ومفارقتك لكى اقتدى ببنطاؤر فى فضله وحكمته وسمو أدبه وكرم خلقه حتى إذا تم لى بهذه القدوة ما أطمح إليه من تثقيف عقلى وتهذيب نفسى صرت أكليلا جميلا من الورد أسرح الطرف في حسنه الشائق وأمتع النفس بشميم عطره الطيب الأرج. ولقد سمعتك الآن تشبهينني بذلك الأكليل وهو تشبيه لا ينطبق على الرجال إذ هو بالفتيات الفاتنات مثلك أليق وعليهن أطبق. وليس في الرجال من هو أبغض إلى نفسى ممن يشبه الورد الناضر والزهر الزاهر!

ثم قام من فوره وصافح وردة فقالت له: أرى في يدك قوة وصلابة، فلعلك تستعين بها على عمل الخير واصطناع المعروف. وقد كان من شدة فعلها في يدى أن تركت بها هذا الأثر الأحمر كما ترى.. ولكن لا تظنن أن هذه اليد الصغيرة لا تفيد أحداً، فإن من أقل مزاياها تخفيف الآلام عمن توكل إليها العناية بأمرهم من البائسين والمنكوبين. ولقد كان جدى يقول على الدوام إن يدى تجلب السعادة وتبشر بالشفاء. أشرى في ذلك المكان أشجار الزنبق والرمان وقد تفتحت أزهارها؟ جاءنى جدى يوما بشىء من طمى النيل وأعطانى والد بنطاؤر بذوراً غرستها فيه فلم أستطع استنباتها إلا بتعهدها بالرى في الوقت المناسب. فخذ زهرة الرمان هذه فإنها أول زهرة تفتحت أكمامها من هذه الشجرة. وقد قالت لى جدتى يوما لما رأتها أخذة بالتكون والتطور والاكتساء بالأكمام وأنها تحمر بتأثير قبلات الشمس لها في كل يوم: « إن قلبك سينفتح قريباً يا وردة كما انفتحت هذه الزهرة الجميلة وبرزت من ثوبها السندسى». وقد أدركت الآن مغزى كلامها فخذ هاتين الزهرةين فهما لك.

تناولهما راميرى منها فوضع الحمراء وهى زهرة الرمان على ثغره كأنه يلثمها، ثم مد يمناه لمصافحة وردة فتراجعت إلى الخلف بغتة، لانها رأت من خلال الحاجز شبح إنسان ماراً. ولكن لم يلبث خاطرها أن اطمأن حينما علمت أنه شراعو الصغير الذي كانت العجوز الساحرة تعمل على تقصير قامته لتجعله من الأقزام، وقد اكتسى بالاحمرار وجهه الجميل لإسراعه في المشي. ولم تستطع وردة أن تقف منه على خبر، لما اعتراه من التعب الذي أعجزه عن الكلام. وكل ما بدا منه أنه كان يرمق راميرى بعين الحذر والريبة، فأدركت وردة أن وراء الأكمه ما وراءها واستدرجته بعد الملاطفة والمواساة والأخل باللين إلى التحدث، فهمس في أذنها أنه يبغى الحديث معها في خلوة، فقالت: إن هذا الواقف بجوارنا صديق لي حميم فلا تخشُّ بأساً. قال: إن ما عندى من القول لا يتعلق به، بل ببنطاؤر المقدس الطيب الذي أظهر من دلائل الرحمة بي والحنان عليه ما يقصر عن وصفه اللسان، وأقام الدليل على نجدته وشهامت بإنقاذه إياك من المعاطب. قال راميرى: اعلم يا هذا أننى أريد الخير كله لبنطاؤر. ثم التفت إلى وردة وقال: ألا ترين يا وردة أن بإمكان هذا الغلام التحدث إليك أمامي بما في نفسه دون أن أن يخشى فضحا لأسراره. قال شراعو: سأتحدث دون خوف ولا وجل: انتهزت غفلة العجوز نيخت فعمدت إلى القرار من وكرها قاصداً إلى هذا الكان. ومؤكد أنها لو وقفت على الحقيقة لبادرت بالحضور إلى هنا وعاقبتنى بحرماني الغذاء الذي أقيم به أودى. فلما سمع الأمير كلامه عبس وجهه غضباً وقال: ومن تكون تلك العجوز الغادرة؟ قال شراعو: عند وردة خبرها.. واسمع الآن قبيح فعلها معى .. طرحتنى أرضاً بداخل وكرها في اللوح الذي اخترعته لتقصير القامة ثم القت على قطعة قماش لتسترنى بها.. ولم ألبث على هذه الحال هنيهة حتى أقبل نيمو ومعه رجل كانت تدعوه «حضرة القيم» فأنشأت تحدثه في شؤون لم أفهم المراد منها، ولكنى سمعت مع ذلك اسم بنطاور فأبرزت رأسى من تحت الغطاء فسمعت كل ما دار من الحديث بعد ذلك. وخلاصة ما فهمته أن حضرة القيم كان يقول عن بنطاؤر إنه شقى عنيد يعوقه عن بلوغ مراده وتحقيق أمنيته، وأن الكاهن الاعظم كان عازماً على نفيه إلى محاجر رحنو فاعترض عليه بخفة هذه العقوبة وأنها لا تناسب الجرم الذي ارتكبه. فلما سمعت العجوز ذلك أشارت عليه بأن يأمر ربان السفينة التى تقله إلى المنفى باجتياز موردة رحنو والذهاب به إلى معادن الذهب التى كانت كثيرا ما تروعنى بها قائلة إن والدها وإخوتها ماتوا جميعا فيها. قال الأمير: والواقع أن من ذهب إليها لا يعود منها. قال شراعو: ولم أفهم ما قيل بعد ذلك سوى أنها ذكرت شرابا إذا تعاطأه أحد جعله مجنوناً. وليس هذا كل ما سمعته ورأيته في وكر العجوز التى تعذبنى كل يوم بوضعى في لوح لتقصير القامة، فإن ما يقع تحت حواسى من حوادثها المزعجة يجعلنى أؤثر الموت على الحياة.

ثم أضد شراعو يبكى ويئن فلاطفته وردة حتى هدأته ، فقال راميرى: تلك حوادث غريبة ومزعجة معاً. ثم التفت إلى شراعو وسأله: ومَن هو القيم الذى كان عندها.. ألم تسمع باسمه.. طب نفساً وقر عيناً يا صديقي الصغير وكف عن البكاء، واعلم أن حياة بنطاؤر قد أحدقت بها الأخطار ويجب علينا أن ندفعها عنه. ولكن لابد لذلك من معرفة اسم القيم الشرير.. أقلا تذكره؟ فعض شراعو على شفتيه ليسكن ثائرة نفسه ثم أخذ يفتش في ثيابه البالية فلم يلبث أن صاح قائلا: اصبر قليلا فربما تعرفه من الصورة التي صنعتها على مثاله. قال الأمير، وقد دهشه هذا القول: كيف!.. ومن ذا الذي صورته؟ قال شراعو: هو.. القيم.. ثم أخرج من طيات ثوبه البالي تمثالا ملفوفا في خرقة، واستأنف حديثه فقال: بينما كان القيم يتكلم ظهر لى أحد شقى وجهه فصنعت له مثالا من الطين الذي كان عندى، وأظنه جاء طبق الأصل. قال هذا وأزال اللفائف عن التمثال بيد مرتجفة ثم قدمه إلى وردة. فلما وقم نظر راميرى عليه لم يتمالك أن صاح: هذا أنى بعينه.. من كان يدور بخلده أنه

يريد ببنطاؤر سوءاً وبم أساء هذا إليه حتى يستحق منه الخيانة والغدر؟ ثم اطرق رأسه مفكراً وقال بعد هينهة: لقد أدركت السر الآن، إن أنى طامح إلى الاقتران ببنت أنات، وحيث إنى يا وردة أصبحت عاشقاً لك ومتفانياً في حبك وعالما بما للعشق من الصولة على القلب، فقد تبينت من أحوال الاميرة أموراً تشير إلى ما يختلج في نفسها نحوه من النفور أو الميل. لست أستطيع يا وردة البقاء على إنكار الحقيقة التى يؤلم الحفاؤها قلبى ويخز ضميرى. لم أكن غلاماً من حاشية بنت أنات، بل أننا شقيقها وابن الملك رعمسيس.. ولقد رأيت الخاتم الذى تركته لك والدتك واستوضحت حقيقة أصلك. ألا تدرين أنى لو كنت في مرتبة أسمى من مرتبة الإمارة بل لو كنت حوروس ابن الآلهة ايزيس لما حدث عنك فتيلا ولا اتخذت منك بديلا. وإنى لهذا أعاهدك على الوفاء والصدق مع الرعاية المتواصلة لك ما دمت حيا.. لقد حان الرحيل وجاء وقت ينبغى فيه لمثل أن يعمل بعقله الراجح ورأيه الرصين لإنقاذ بنطاؤر من مخالب الموت، فسلاما عليك ووداعا لك يا وردة عند من لا تضيع الوادئع عنده.

هم الأمير بالرحيل فجذب شراعو من أطراف ثيابه سائلا إياه: أنت ابن رعمسيس؟ قالت العجوز في كلامها عن أبيك الملك إنه كالنسر الذي تعرى من ريشه لهرمه وعجزه. قال الأمير: إذا كان هذا كلامها في حق أبي فلسوف يحس أنى نفوذ مخالب النسر الملكي في جسمه. ثم التفت إلى وردة قائلا: أستودعك الله ثانياً ، ثم مد إليها يده فلثمتها بشفتين كانتا كجذوتي النار حرارة ولوناً، فجذب راميري يده بلطف وجذب معها وردة فلما دنت قبّلها بين عينيها ثم انصرف.

وبينما كان ينطلق مهرولا كانت وردة تشيعه بنظرات تشف عما عراها من التأثر. وقد مر برجل عرفت هي بزيه وسحنته أنه أبوها، وكان مقبلا عليها لوداعها

قبل سفره، اذ صدر إليه الأمر بمرافقة الأسرى والسير معهم في الصحراء. سالته وردة: وإلى أين ترافقهم. أإلى رحنو؟ أجاب: كلا، بل إلى الشمال. فروت وردة عليه ما اتصل بها من خبر بنطاؤر ورجت منه أن يساعده على النجاة. قال: لو أن معى شيئًا من المال!.. فابتدرته وردة قائلة: عندنا ما يكفى وزيادة. ثم قصت عليه هبة نبسشت وقالت: عليك يا أبت أن تساعدني على عبور النيل، فما هي إلا ساعة حتى يكون في قبضة يدك ما يكفي لجعل الفقير غنيا والمعدم مثريا (١)، ولكن كلا، فحدتي طريحة الفراش وليس لديها من يعنى بأمرها ويتوجع لمصابها فخذ أنت هذا الخاتم واعلم أن بنطاؤر قد جرّ العقوبة على نفسه بسببنا، لأنه دافع عنا دفاع الأبطال وعاملنا بشهامة الرجال. قال: ما برح خيال هذا الشهم مرسوما في ذاكرتي وإني لأبذل حياتي- بل أبيعها رخيصة- في التحيل لنصاته. غير أني أتمني التوفيق لإنجاح ما خطر بخاطرى الآن من التدبير الذي أرمى به إلى الحيلولة دون ذهابه إلى معادن الـذهب. وقد عاهـدت نفسي على أن لا أتعاطى نبيـذاً وإن أستبعض عنه الماء ليخلص دماغي من شوائب الخبل والاضطراب ، فلا يطيش سهمي أو يذهب سعيي أدراج الرياح . قالت وردة: هاك يا أبت قليلا من النبيذ المزوج بالماء .. اجرعه بالصحة والعافية ثم اذهب في قضاء مهمتك وعد عاجلا لتبشرني بخبر ما فعلت. قال : تتعذر على إجابة سؤلك لأني راحل في انتصاف الليل، ولكن إذا جاءك رسول بالخاتم من عندي كان ذلك آية توفيقي للنجاح فيما أردت. فلما سمعت وردة هذا القول دخلت العش فدخله أبوها على أشرها ليستأذن من أمه في الرحيل ليودعها، ثم

⁽۱) كمان للنسماء في مصرحق التصرف في أموالهن، وفي المورقة السمايعة من أوراق البردى المحفوظة بباريس صورة مخالصة بين ارسيمزيس بن أحد محنطى طيبة واسكليباس زوجة أحد دافني الموتى أو خادمه وكان أبوها مدينا لزوجها أو مخدومها.

قال لفتاته: إن ما اتحفتك الأميرة به من الهدايا السنية كاف لقضاء مطالبك حتى أعود. أما أنا فيكفينى نصف المبلغ الذى تبرع لك به الطبيب. ولكن لم لا أرى زهرة الرمان التى اقتطفتها الآن؟ أجابت وردة: وضعتها في مكان حريز لصيانتها. قال: عجباً للنساء في طباعهن وميولهن. ثم قبل جبين ابنته وسار سيراً حثيثاً في الطريق الموصل إلى ضفة النيل.

وكان راميرى في هذه الأثناء يجد في السير جاعلا وجهت موردة المقابر التي تبرحها السفن المخصصة لنقل الأسرى ليلا، ليستجمع البيانات الدقيقة عن السفينة التي تقرر سفرها إلى محاجر رحنو. فلما وصل إليها عبر النهر ودخل القصر الملكي حيث اجتمع بأخته ونيفرت فألفاهما في وجد وقلق إذ أبلغهما رئيس التشريفات -نقلا عن بعض حاشية آنى المخلصين لفرعون - أنه أمر بوقف تصدير المراسلات إلى الجيش المصرى في الشام، ولو كانت من أبناء رعمسيس إليه. وأيد الخبر عند بنت أنات أن أحد الحجاب المقيمين على الولاء لمرعمسيس وافاها بنبأ اعتزام آنى تنفيذ تدبير يقصد به اغتصاب الملك وطلب منها أن لا تأمن جانب نيفرت نظراً لما بين والدتها وآنى من الصداقة الوثيقة العرى.

ولما بدا لبنت أنات أنه لم يبق ريب في طموح أنى إلى الاستيلاء على صولجان الملك بدلا من والدها نبأت بعزمها على السرحيل إلى هاتور النزمردية لتلتمس الطهر في معبدها المقدس. ولكنها كانت تريد في الحقيقة موافاة والدها – وهو قريب من الشام – بما يدسه له الوالى من الدسائس ويدبره من المكائد ولاستئذانه في التوجه إلى المعسكر الملكي. ولقد فاتحت صديقتها نيفرت في هذه النية فكادت تطير فسرحا وابتهاجا لأنها كانت ترجو أن يمهد لها السرحيل مع بنت أنات طريق اللقاء بزوجها

المحبوب فلم يسعها إلا أن تحضها على إنفاذ عزمها وإعداد المعدات اللازمة له.

ولما سألها راميرى عن أحوالهما أخبرته بما جدّ من الحوادث، فقص الأمير عليهما ما اتصل به من الأخبار وألمع إلى شقيقته أنه وقف على حقيقة ما اعترمته، وكان يتوخى في لهجته الظهور على خلاف عادته بمظهر الجد والرزانة. ولهذا أيقنت بنت أنات أن هناك أخطارا تتهدد العرش من جراء الدسائس التي يدسها الوالى لاغتصابه.

وقد استحسنت الأميرة ما اتخذه راميرى من الحيطة للذهاب بعد غروب الشمس إلى جهة (قطبوس) مصحوباً بثقة خبير يجوب الصحراء والوصول معه راكبين متون الجياد إلى سواحل البصر الأحمر، وأن يستأجرا من هناك سفينة فينيقية تنقلهما إلى آيلا (العقبة) ويجتازا بعدئذ الجبال الصخرية الممتدة في شبه جزيرة سيناء ويلحقا بالجيش المصرى لإيقاف رعمسيس على ما يدبره أنى له من الدسائس ويحيكه من الحيل لنزع زمام الملك من يده. وأخذت بنت أنات على عهدتها انقاذ بنطاؤر، مستعينة في أداء هذه المهمة برئيس التشريفات. وكانت ترجو تحقيق الأمال لا سيما والخزينة عامرة بالأموال، ينفق منها الخازن ذات اليمين وذات الشمال، وهو من المخلصين للأسرة المالكة. وإنما الصعوبة الوحيدة كانت في التغلب على ربان السفينة بحمله على توجيهها صوب رحنو لا صوب الجنوب كما أوعز إليه به. لأن نكبة الشاعر بالمقام في رحنو أهون منها به في معادن الذهب. وقد اتفقت أراء الجميع على انفاذ رسول ثقة إلى حاكم رحنو ليسلمه كتابا فيه أمر ملكي بضبط كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدينة، وحجز الأسرى المحكوم عليها بالنفي كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدين، وحجز الأسرى المحكوم عليها بالنفي الم الحبشة لاستخراج الأحجار. وقام راميري بعد هذا الاتفاق فاستأذن من شقيقته

ونيفرت في الرحيل من طيبة فغادرها دون أن ينتبه أحد.

أما بنت أنات فقد سجدت أمام التماثيل الأوزريسية لولداتها وأمام تمثال هاتور وصور الآلهة حفظة الأسرة المالكة، وظلت تدعو وتبتهل إلى أن عاد رئيس التشريفات فأخبرها بنجاح مهمته لدى ربان السفينة إذ استكتبه عهداً بالوقوف تجاه محاجر رحنو وبأن لا يبلغ إلى آنى مخالفته الأمر الصادر إليه، فطابت نفس الأميرة لهذا الخبر. وكانت قد اعتزمت - فيما لو امتنع الربان عن الامتثال لإرادتها - التوجه إلى موردة المقبرة لمنع السفينة من مزايلة مكانها.

وفي اليوم التالى اقبلت راتوتى على القصر تبغى اللقاء بنيفرت ومحادثتها في امر ما، فأبت بنت أنات مقابلتها وبادرت نيفرت باستقبالها فما هي إلا هنيهة حتى طرق الاسماع صوتها رافضة ما اقترحته والدتها عليها من العودة إلى بيتها والعدول عن السفر مع الأميرة لتأمن عليها من أخطار الطريق. ولما يئست راتوتى من إقناعها بالامتثال لها قصدت إلى أنى من فورها والتمست منه العون على منع نيفرت من مغادرة الديار وأغرته بها إذ طلبت منه القبض عليها في خروجها من أبواب طيبة ومعاملتها بالقهر والشدة حتى تعدل عن مرافقة الأميرة في رحلتها الخطيرة. وكان أنى يود من صميم فؤاده أن تبرح بنت أنات مدينة طيبة كيلا يعوقه وجودها عن تحقيق مقاصده الاستقلالية ، فأجاب: ليهدأ روعك فقد عولت على أن أرسل في أثرهما من يتولى منعهما إذا ما دخلتا هيكل هاتور -- من مغادرته فتبقى الاثنتان به حتى يتم لنا الأمر ويتيسر لك ترويج نيفرت من بعاكر الفظ إذا كنت مصرة على عزمك. وفي اليوم التالي ودع الوالى بنت أنات وصديقتها نيفرت وشيعهما بما يليق عزمك. وفي اليوم التالي ودع الوالى بنت أنات وصديقتها نيفرت وشيعهما بما يليق بهما من مظاهر الإجلال ، ثم انصرف. وأخذ ركب الأميرة طريقه إلى مرسى السفن

فشيعها إليه كهان هيكل آمون، وفي طليعتهم الكاهن بك أن شونسو. وكان المرسى غاصاً بوفود الناس على اختلافهم تقاطروا من كل ناحية لتوديم بنت أنات. فلما أن بلغت إليه صاح هؤلاء الوفود صيصات الهتاف وانطلقت السنتهم بالدعوات يستمطرون عليها بها وافر البركات. وقد اندس بين الحاضريان رهط من خصوم رعمسيس فاستطالوا في حق ابنته الراحلة بالسب الفاضح، إلا أن أصواتهم لم تبلغ مسمعاً بل تلاشت في أصوات الجموع الزاخرة وأدعيتهم المتواتسرة. وكانت سفينة حجاج همكل هاتور تتبعها سفينتان كبيرتان تحملان عدداً وافراً من الجند. وكانت ريح الجنوب شديدة، فكورت أشرعة السفن الثلاث ودفعتها إلى الأمام صوب مصب النهر، فصويت بنت أنات بصرها إلى القصر الملكي وما حوله من الحدائق الغناء، ثم إلى ناحية المقاس والهياكل البائخة، وظلت شاخصة فيها تارة وفي القصر طوراً حتى اختفت تلك المشاهد والمعاهد عنها خلف حجاب الأفق، ولم يبق أمامها وخلفها إلا النبل تحف به ضفتاه بمنة ويسرة. عندئذ فاضت عينا الأميرة بالدموع ثم تنفست الصعداء لما رأت من حولها الصحراء مترامية الأطراف إلى أبعد مدى وأحست بشعور جعلها تظن بنفسها أنها برحت قصر أبيها ملتمسة الفرار أو مغلوبة على أمرها، وأن قد لحق بها الهوإن والصغار. ولكنها لم تلبث أن عاودها الأمل فوطنت النفس على الصبر ولقاء كوارث الزمان بالثبات والجلد. ثم دنت من المخدع الخاص بها في السفينة فإذا ببابها فتاة ملثمة، ما كاد يقع نظرها على الأميرة حتى أماطت اللثام عن وجهها وقالت: أيتها الأميرة تجاوزي عن زلتي واصفحي عني الصفح الجميل، أنا وردة التي دهمتها مركبتك ثم نلت من إحسانك وعطفك ما كان سبب شفائي.. وأنبئك الآن بأن قد توفيت جدتي، فلما رأيتني وحيدة تنكرت واختلطت بنساء حاشيتك لأكون دوماً ف خدمتك، أفترضين بي خادمة أمينة؟ .. قالت الأميرة:

إنه ليسرنى وجودك معى يا وردة . ثم مرت بكفها على شعرها المرسل فتذكرت وردة ما كان يفعله من ذلك معها الأمير راميرى إعجاباً بشعرها ومن وضعه في غدائرها وردة وأزهاراً تحاكى خدها نضرة واحمراراً.

الفصل التاسع

قفار موحشة خطيرة.. وقلوب حزينة كسيرة

لما مضى شهران على اعتقال بنطاؤر وسفر بنت أنات، كان جمّ غفير من الرجال وعدد عظيم من الدواب المحملة بالأثقال يسيران في واد ضيق يدعى وادى (انت بابا) بالجهة الغربية من شبه جزيرة سنياء (۱) وكان ذلك في منتصف الصيف، وكانت الشمس محتدمة الحرارة تنعكس أشعتها على الصخور الصلدة فينبعث منها بريق يرتد عنه الطرف حسيراً. وكان في طليعة السائرين ثلة من الجنود الليبين وفي المؤخرة ثلة أخرى منهم مسلحين بالخناجر والدروع والرماح، على أهبة الدفاع في كل أونة عن أنفسهم. وكان الأسرى الذين نيطت بهؤلاء الجنود حراستهم كثيرا ما ينزعون للعصيان بالإغراء والتحريض من الزعماء الناقمين. وكانوا مرسلين إلى سواحل البحر الأحمر لتسخيرهم في نقل النخائر والمؤن الواردة من مصر باسم الجيوش بعد طرح ما حملوا به من المعادن باسم الديار المصرية.

وكانوا يمشون الهوينا بادية على وجوههم علامات الكلل والإعياء من ثقل تلك الأعباء. وكانوا يرسفون فيما كبلوا به من القيود، ولم يكن عليهم من الأطمار سوى ما يستر عوراتهم. وكانوا على الدوام ينظرون إلى الأرض مطرقين، فإن توانى أحدهم ابتدره أحد الفرسان المافظين عليهم بضربة سوط يستحثه بها على مواصلة السير بلا توان فكان لا مناص لهم من أحد أمرين: إما مواصلة السير بلا توان، وإما الضرب بالسياط. وكان لا يسمع من الأسرى ولا من الحراس همس (١) بحث الدكتور ايبرس بالتفصيل في شؤون شبه جزيرة سيناء وتاريخ أماكنها المقدسة في كاب طبعه باللغة الالمانية عام ١٨٧٧، وقد وصف فيه تلك الأرجاء وصفاً دقيقاً.

بكلمة، حتى ولو ضرب الأولون ضرباً مسرفاً مبرحاً، ذلك لأن عضو الصوت فيهم قد تلاشت قوته كما تلاشت في قلوب الآخرين عواطف المرحمة والحنان أو كما تتلاشى الحشائش الخضراء على الصخور المحرقة الجرداء.

كان الاسرى يمشون بعضهم على رسل بعض فلا يجرق احدهم أن يخاطب زميله بكلمة، بل كانوا كالطيف يمرون متعاقبين من جهة واحدة، وإنما كان يطرق الآذان في بعض الأحيان قرقعة انحدار الأحجار تحت أقدام السائريين أو نفثات المصدورين من أولئك المظلومين. وكان مما يزيد في كابة هذا المنظر ولاسيما إذا علا النهار تعطل الأرض مما ترتاح له الأنظار من زينة الأشجار والأزهار والحيوانات والأطيار.

وكان أولئك التعساء قد برحوا الجون في ظهيرة اليوم الماضى فظلوا ساعتين في سير مغذ متابعين سواحل البحر الأحمر (١) فاجتازوا هضبة بلغوا منها إلى مدخل واد مفض إلى المناجم، فوقفوا عنده لالتماس الراحة في الليل والتجا الحراس إلى الصخور ليناموا عندها وأشعلوا النار ورتبوا الحراسة إذ جعلوها مناوبة بينهم. أما الأسرى فلبشوا في بطن الوادى ، لا نار عندهم يصطلونها ولا أغطية يقون بها أجسامهم التى أنهكها التعب وأضناها العذاب، فارتعدت فرائصهم واقشعرت جلودهم لشدة القر وتمنوا أن لو تبزغ الشمس لتنقذهم بحرارتها من شر ما هم فيه، مع أنهم كانوا في النهار يترقبون إقبال الليل للتخلص من حرارة الشمس وعذاب السفر ومواصلة السير. وهكذا يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا انكه ه.

⁽١) سمى البحر الأحمر إما بسبب الصخور الحديدية التى على سواحله وإما لأن الأحباش كانوا يسكنون بعض هذه السواحل. وكانوا معروفين عند الأقدمين بالرجال الحمر، وسمى البحر الأحمر في أحد النصوص القديمة باسم (مياه البلاد الحمراء).

وقبل التأهب للمسير ورعت عليهم الأغذية من مطبوخ العدس ويابس الخبز وقليل الماء، فلما تعاطوا ذلك وأوغلوا في الوادى الضيق تحف بهم الجبال الشامقة عن أيمانهم وشمائلهم لم يلبثوا أن شعروا بالشمس ولكانها نبار الله الموقدة وبأشعتها ولكانها سهام محرقة. ولقد أفضى بهم ذلك الطريق إلى مكان ضيق لم يستطيعوا المرور به إلا فرادى. وكان يخيل لهم في بعض الأحيان - بسبب اعتراض الصخور- أنهم بلغوا من الطريق إلى نهايتها، ولكنهم كانوا إذا دنوا منها انفتحت السالك عن يمينهم أو عن شمالهم فيستقر في اخلادهم أن عذاب السفر لم ينته بعد، وأن آمالهم في الاستقرار قد ذهبت ادراج الرياح. وكانت للصخور في بعض الجهات أشكال تخيلها للرائي قلاعا حصينة شيدت بحجارة منحوتة، ولم يكن ف الاسرى جميعاً سوى رجل واحد كان يجيل الفكر في ميدان التأملات ويمعن النظر في العبر، وكان ممتازاً على صحبه بقوة الأساطين ومتانة البنية وعدم التأثر بعبء ما يحمل على عاتقه من الأثقال التي ينوء بها ذوو العصبة من الرجال، إذ كان يناجي نفسه بقوله «في هذه الفلوات التي تنبو عنها العين ولا يطمئن القلب أغفل (الشنيمو) الذين عهد إليهم تكوين الأرضين تمهيد تلك الذرى الشبيهة بنصال الرماح المصوبة وسد هذه الأخاديد التي يهوى إلى قاعها الغافل، فصارت للسائرين فيها عذاباً ولا عذاب الجحيم. ولست أدرى كيف عزوا إلى الإلهة هاتور ربة الحنان والرافة تلك الفياف القاحلة التي لا يسم الإنسان فيها – مهما جبل على الشفقة والرحمة – إلا أن يغلق أبواب قليه دونهما». وكان هذا الرجل المناجي نفسه قد انحرف عن الطريق فانفتل اليه أحد الملاحظين وقال: لا تبعد عن طريقك يا «هوني».

ما طرق هذا النداء سمعه حتى استقام في طريقه، إذ دنا من رفيقه في البؤس والشقاء، وهو عين رفيقه في السعادة والهناء الطبيب نبسشت. وما كان ذلك الأسير الطويل القامة المتين البناء غير الشاعر بنطاؤر، وقد أدرج اسمه في كشف المحكوم

عليهم بالعمل في المناجم باسم «هوني». أما الأسرى الباقون فقد أخذ منهم الجهد وأعياهم النصب وأملهم طبول الشقة فتثاقلوا في المشي وزادهم تثاقلا أنهم كبانوا يصعدون في منحدر من الأرض مفروش بحصبي أحمر وأسود، يبدو من شكله أنه كان أحجاراً كبيرة ثم كسرتها يد الإنسان. وما وصلوا إلى نهاية السبيل حتى انفتح أمامهم سبيل آخر كالشعب بين الجبلين وخيل لهم أن بنهايته سداً لا منفذ منه إلى ما بعده. فصاح رئيس الحراس ف أعوانه أن انزلوا الأحمال عن متون الحمير وضعوها فوق ما يحمل الأسرى من أمثالها. فتذرع هـؤلاء بالصبر واستمدوا من هممهم قوة جديدة وقدرة على اجتياز الدرب. وكان الأسير الذي يتقدم بنطاؤر شيخاً ضعيفاً نحيفا فما كاديت وسط الشعب حتى هوى إلى الأرض وانصب الملاحظ عليه ليصب على رأسه سوط عذاب، جزاء على ما أبداه من وهن. إلا أن ضيق الطريق حال دون وصوله إليه، فما كان منه إلا أن رماه بحجر ليستفره به على النهوض ، وحاول المسكين ذلك بما استجمع من قواه الخائرة وجهوده الفانية ولكنه لم يلبث أن هوى إلى الأرض ثانياً متوجعاً من هول ماأصابه. وما سمع بنطاؤر توجعه وأنينه حتى تذكر المحنط بينم وقتما كانت طغمة المتظاهرين يرشقونه بالأحجار ومسر بباله ما كان من حسن بلائه في الدفاع عنه وما حدث بعقب ذلك من حضور بنت أنات. وما مضت فترة من الزمن قصيرة بعد هذه الذكري حتى اتجه بنطاؤر- بدافع الرفق ولطف الشعور- نصو الشيخ الرازح تحت حمله القادح فأخذ ما كان من الأثقال ووضعه على كتفه في الحال، شم ساعده على النهوض وأدرك معه القافلة التي واصلت السير حتى بلغت إلى نهاية ذلك الطريق المتعرج الكثير الملتويات والمنعطفات.

وهناك أخذت بنطاؤر قشعريرة الخوف والفزع، إذ أرسل النظر فرأى عند قدميه هاوية لا يصيب البصر آخرها ثم أرسله كرة أخرى إلى فوق فرأى جبالا تناطح ذراها السماء مختلف ألوانها فمن أزرق إلى أصفر كالكبريت إلى أسود إلى

أحمر يبدو للرائى كأنه خضب بدماء سفكت في قمتها فانحدرت إلى سفوحها. وقد تذكر عندئذ بحيرة (موث) التي يحيط بها في طيبة مائة تمثال برؤوس الأسود للإلهة هاتور، فخيل له أن تلك الجبال السامقة ليست إلا تلك التماثيل تضخمت حتى بلغت إلى ذلك القدر، واندفع في تيار الخيال فصور له أن هذه الجبال أو التماثيل الأسدية الرؤوس قد فغرت أفواهها وأن الدم يصعد إلى رأسه من شدة الذعر، وسمع طنيناً ظنه زئير تلك الأسود الوهمية وتمادى في الوهم والظن حتى وقع في نفسه أن الأثقال التي أنقضت ظهره ما هي إلا مخالب هذه الأسود أنشبت في صدره.

وما وصل الأسرى إلى نهاية الطريق حتى طرحوا الأثقال عن متونهم وتراموا على الصخور يلتمسون الراحة فاقتدى بنطاؤر بهم. ولما نال قسطه منها واطمأنت نفسه زال عنه الاضطراب وتلاشت من أمامه الخيالات وأتيح له قهم ما يسمعه من القيول وإدراك ما يراه من المرئيات، وعاودته قوة الفكر. وكان كل من الشيخ ونبسشت إلى جانبه، فأخذ الشيخ يمر بيده على أوداج بنطاؤر وقد انتفخت، واستدر عليه بدعائه البركات السماوية. وشهدهما رئيس الحراس فتقدم إليهما وقال لبنطاؤر: ماذا ياهونى وفيك من القوة ما يعدل قوى ثلاثة رجال ويستفزنى على إضافة حمل إلى ما تحمله من الأقوال. فنظر نبسشت إليه متغيظاً وقال: إن الآلهة يقابلون دعوات المظلومين بالقبول والإجابة وهم يثيبون المحسن على إحسانه ويعاقبون المسيىء على إساءته. فالتفت بنطاؤر برفق إلى الشيخ وقال: إن مكافأتك إياى بهذه الادعية كفايتى. ثم نظر إلى نبسشت وقال: وأنت أيها الساخر بحوادث الزمان، مالى أراك باهت اللون وكيف حالك؟ أجاب الطبيب: حالى كتلك الحمير التى تراها واقفة هناك ترتعد فرائصها من الإعياء والألم. ولست أشتهى أكثر مما تشتهيه هى من العودة إلى مقرها الذي اعتادت فيه الراحة والعلف. فتبسم بنطاؤر

وقال: أهنئك بما أوتيت من قدرة التفكر ونحن فيما نقاسيه من الأهوال، لأن هذا دليل استقامة أحوالك وجودة صحتك. قال نبسشت: بينما كنت أنظر إليك الآن وأنفك في الهواء وعيناك شاخصتان في السماء مرت بخاطرى فكرة ساطعة. يقول الكهان إن الذكاء هو القوة المحركة للعالم وأن الروح خميرة القطعة الطينية المسماة بالإنسان. ولقد بحثت عن مقر العقل أفي القلب هو أم في المخ، فذهبت تجاربي وأبحاثي أدراج الرياح. أما الآن فقد أيقنت أن مقر العقل في قوة الساعدين وصلابة الساقين، ومع أنى الآن في حالة لا تسمح لى بالتوسع في هذا الموضوع فقد عولت على أن احترم في المستقبل ساقي وساعدى كما كنت أحترم في الماضي عقلي وفكرى. وبلغ صدى هذه الكلمات إلى سمع رئيس الحراس فصاح بهم قائلا: إلى متى هذه المناقشات أيها الرجال؟ هلموا إلى المسير واستعدوا لعذاب السعير.

نهض الأسرى فوضعوا الأثقال على الحمير ثم على أكتافهم واستأنفوا المسير يبتغون الوصول إلى المناجم قبل غروب الشمس. وكانت بوسط واد فسيح تحيط به أوعار جبال صخرية عالية كان المصريون يسمونها (تمسكا) والعبرانيون (دوفكا). وكانت صخور الجبل الجنوبي منها من الحجر الأعبل الأسود اللون وصخور الشمالي منها الذي يلى معادن الفيروز من الجص الأحمر. وعلى مقربة منها معادن النحاس في مضيق عمودي الاتجاه (۱) على ذلك الجبل. وكان بوسط هذا الوادي أكمة تحيط بها أسوار عالية وبيوت صغيرة مبنية بالأحجار لسكني الحراس والضباط والمفتشين والمراقبين (۱). ولم تكن سقوف تلك المساكن ثابتة في أماكنها ، إذ كانت العادة المرعية وقتئذ بسبب ما ينشأ عن البرد الشديد من الأمراض أن تغطى

⁽١) اكتشف هذا الضيق حديثا السائصان بلمر وولسن، ووصفاه ف كتابهما السمى «صحراءالخروج».

⁽٢) يسمى الوادى الأن «وادى المغارة»، ومازالت تُرى فيه آثار المعادن.

المبانى بعد الغروب بغطاء متخذ من سعف النخل المجلوب من واحة العمالقة القريبة من هذا الوادى.

انقضى على بنطاؤر ونبسشت شهر مع عمال المعادن فى وادى (مفكات) دون أن يقف الشاعر على سبب ارساله إليه وبقائه فيه، بل ولا على سبب مقاسمة الطبيب له هذا العقاب الجائر، لاسيما والمعروف أنه كان سيرسل إلى محاجر رحنو. وقد حار فى تعليل هذا الاختلاف ولكنه تذكر أبا وردة وهو أحد الحراس فلم يستبعد أن له ضلعاً فى تغيير وجهة السفر، مع أن هذا الجندى الهمام لم يخاطبه بكلمة واحدة منذ رافق الاسرى من طيبة. غير أنه ما وصلت القافلة إلى الوادى حتى دنا منه الجندى وساره بقوله: لا تخش ضيراً فإنى محافظ على حياتك وستجد هنا الطبيب نبسشت فتظاهر بخصومته وليفعل هو كذلك، وإلا فرق بينكما.

بادر الشاعر فأطلع صديقه على نصيحة الجندى فأقسم الطبيب ليعملن بها بقدر ما يتفق مع مزاجه وينطبق على علاقته الذاتية ببنطاؤر، فقد كان يذكره بأفكاره الحكيمة التى خالفتها الحقائق المشاهدة ويقول له: أين القدرة الإلهية التى ترسل من أوج السماء بين الناس أشعة رحمتها لتسكين الخواطر الثائرة وتوطيد دعامة العدل؟.. أين الإنصاف المانع لوقوع الشقاق والخلاف بين الناس؟.. وكان الطبيب يسترسل في هذا المزح كلما زادت الامه وتراكمت أشجانه، ولم يكن ميله إليه بقصد التهكم على صديقه، بل لقضاءالوقت فيما يدعو إلى ارتياح النفس ويمحو من القلب أشر الحزن. وكان كلما لمح حارساً من الحراس أفاض في المزاح بعبارات لا يدرك معناها السامعون، ويزيد في تعقيدها تعاجمه ولعثمة لسانه حتى يخيل لأولئك الحراس ان نراعاً شار شائره بين الاثنين فينأون عنهما بجانبهم ويغفلون مراقبتهما. ومن مبهم العبارات التي كان الطبيب يكررها على سمع بنطاؤر قوله: يا

غلاف المعارف الربانية .. يا أيها المشعوذ الذي يحاول إقناع الناس بأن الدنيا دار ملاذ ومقر قناء وسعادة.. يا أيها المعجب بآثار جراحه الزرقاء ، إلى غير هذا من العبارات التي كان يدرك الشاعر والطبيب معناها ويرد عليها بنطاؤر بالفاظ عذبة ومعانى دقيقة لايفهم الحراس شيئاً منها.

وكثيرا ما كان ينقلب المزاح بينهما على هـذا النمط إلى مناقشة ليست في شيء من المزاح، وإنما هي جد يقتطفان منه ثمر تبادل الأفكار في العلوم والمعارف التي كانا لا بكفان عن الاشتغال بها قبل وقوعهما في أحبولة الأسي. وكنان بنطاؤر ونبسشت بشتغلان النهار كله، أولهما في معادن النصاس والثاني في مناجم الفيروز، فإذا أرخى الليل سدوليه تلاقيا ف مكان واحد فتبادلا عبارات الوداد والسلوان وعزى كلاهما الآخر وواساه على مصابه. وكانوا قد قرروا لكل منهم عملا يناسب قوته الجسمية، فكان الطبيب لهزاله وضعفه يشتغل بإزالة الطبقة الترابية المغلفة لأحجار الفيروز. أما بنطاؤر فكان لمتانة قواه وجودة فصوصه يقطع أحجار المعدن بالمعاول الكبيرة الثقيلة ويدأب على العمل بما يوجب رضاء رؤسائه وارتياحهم منه. وكان في أثناء قيامه بالعمل المفروض عليه يتمثل بنت أنات ماثلة أمامه، يحيط بها الشيان يعالجون الفوز بالقرب منها فيبالغ في ضرب الأحجار بالمعول ظناً منه أنه يضرب أولئك المزاحمين له على حب تلك الغادة الفاتنة، ويقضى على حياتهم الواحد بعد الآخر. وكان يمسك أحيانا عن العمل ويمد ذراعيه كمن يريد أن يضم إلى صدره محبوباً شاقه الوجد إليه ثم يلقيهما إلى جنبيه متنهدا كاسف البال، كمن يهب من نومه والأحلام تنداعيه فيرفعها إلى جبهته ليمسح ما يقطر منها من العرق الغزير. هذا الشاب الـذي جمع إلى كرم الخلق وسلامة الطبع همة الأبطال وقسوة الرجال أصبح في نظر حراسه ونظر نفسه سرا لا تستبطنه الأفهام، إذ كان يسائل نفسه عما طسرا عليها من التغيير وكيف أنه بعد أن وُلد من أب وأم لم يكن لهما هم ولا وكد سوى التماس الهناءة ونعيم البال فى شظف العيش، وبعد أن ربى فى بيت سيتى مهد العلوم ومعهد السلام، أصبح وكأن فى نفسه قوة خفية تسوقه إلى الجلاد فى ميادين القتال. وكان كلما حلق فى أجواء هذه التأملات ثارت فيه نخوة الشجعان وهم بالنزول فى حومة الوغى، ولكن أين الميدان؟ وكان أول شعوره بهذه الميول الحربية ليلة اتخذ من الطنب المنصوبة أمام كوخ المحنط بينم سلاحاً دافع به عن هذا الشيخ المسكين الذى اغتاله الأشرار وعن حفيدته وردة.

وكان العمال قد وهنت قواهم بمواصلة العمل والحراس سئموا استمرار المراقبة فعمدوا إلى مضاجعهم وناموا جميعاً بينما كان ملاحظ المناجم وجماعة الضباط في منزله يصطلون النار جالسين على شكل حلقة واسعة، فقال كبير الضباط لزملائه: اشربوا ما بقى في أقداحكم من المدام ثم ليدن بعضكم من بعض للمشاورة ، فإن عندى أنباء خطيرة تحتاج إلى إعمال الروية وقدح زناد الفكر، فقد قيل ما خاب من استشار. وخلاصة الخبر أن الوالى بعث إلى مرسوما يأمرنى فيه بتوجيه نصف رجالنا إلى (بيلزيوم) تعزيزاً للجنود المرابطة بها، ولكن أخشى إن نمن نقص عددنا أن ينتهز الأسرى هذه الفرصة لإثارة غبار الفتنة ونشر لواء العصيان. وهم أن اقتصروا على قذفنا بالأحجار من قمم الجبال أبادونا عن آخرنا وسدوا في وجوهنا أبواب الرجاء في الفوز عليهم، فكيف بهم وهم يحلمون آلات العمل(۱) في النهار وهي سلاح يقوون به علينا. دع أن العبرانيين العاملين في معادن النحاس أشد خطراً منهم، ومع هذا فإني لا أخشى أذاهم وان أكن أحس في قلبي خفقانا شديدا وفي ضميري قلقا وانزعاجا، وهو ما يحملني على الحكم بصرح

⁽١) كان شكل آلة عمال المعادن المصريين كديل الخطاف إذا اتخذه حامله سلاحا فاز به على عدوه. وقد وصف المؤرخ ديودورس الصقلى في الجزء الثالث من تاريخه أحوال الأسرى المحكرم عليهم بالعمل في مناجم الذهب الواقعة بين البحر الأحمر والنيل واهتدى إلى تلك المناجم في عامى ١٨٣٢ و١٨٣٣ لينان بك دى بلفون وبونومى.

مركزنا هنا، ولا يخفى أن الغابة المجاورة لنا هى التى تؤخذ الأخشاب منها للوقود، وقد أشرفت على النفاد بحيث سنضطر منذ الغد إلى التماس الخشب اللازم لأفران المعامل بغيرها أو نرسل شرذمة من الجند إلى رفيديم (١) لجلب الأخشاب التى حقّ على جماعة العمالقة أن يقدموها إلينا، فعلينا لدفع تلك الأخطار أن نحمل الأسرى ما لايطيقون من النحاس لنوهن قواهم ونتقى شرهم، ولكن إذا تم لنا هذا التدبير فما الوسيلة للمحافظة عليهم؟.

أطرق الحاضرون رؤوسهم مفكرين ثم بسط كل منهم رأيه فتقرر إرسال شرذمة من الأسرى يومياً بقيادة بعض الجند للاحتطاب وأن يكبل العصاة والمشاكسون بالقيود، فاعترض الملاحظ على هذا القرار بأنه إذا قرن اثنان في قيد واحد ازدادا قوة بضرورة اتفاقهما على العمل. قال رئيس كتبة حساب المناجم: الرأى الراجح أن يقرن كل رجل متين القوة وثيق الأعضاء بآخر ضعيف، ويحسن أن يكون الاثنان خصمين كلاهما للآخر، إذ يستحيل الاتفاق بينهما. قال أحد الضباط: كأن يُوضع هونى القوى مثلا مع نبسشت الضعيف الذى لا يكف عن مجادلته. قال رئيس كتبة المناجم: إنى بما أدليت من الرأى الآن إنما كنت أقصدها. وعلى أثر ذلك جعلوا الأسرى فريقين يخالف أحدهما الآخر قوة وضعفا وينافره مزاجا وطبعا، ثم قرنوا كل واحد من فريق بنقيضه من الفريق الثاني وناطوا بالجندى والد وردة حراستهم. فلما كأن فجر اليوم التالي سلكت أرجل الأسرى في بالجندى والد وردة حراستهم. فلما كأن فجر اليوم التالي سلكت أرجل الأسرى في الشمس تتكيد السماء حتى هم الجميع بالمسير بعد أن رفعوا إلى أكتافهم سبائك الشماس قاصدين إلى واحة العمالقة يحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن المنط النحاس قاصدين إلى واحة العمالقة يحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن المنط النحاس قاصدين إلى واحة العمالقة يحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن المنط النحاس.

بينم. ولما أن قطعوا من الطريق شطراً كبيرا ثابوا إلى الراحة في نقطة (أوس) فإذا ما أخذوا قسطهم منها استانفوا السير في شعب ضيق بين صخرين من حجر السماق. وكانت الشمس في وقت بلوغ الجند والأسرى إلى هيكل هاتور الزمردية جانحة إلى الغروب، فرأى بنطاؤر طيوراً تحلق في الفضاء فانشرح صدره لرؤيتها. وكان قد مر زمن طويل دون أن يقع نظره على ما سوى الصخور والجبال الجرداء والصحارى المتنائية الأنحاء والفلوات العاطلة من حلية الحياة. لذا قال لأصحابه: إن مشاهدة الطيور في مكان دلالة على وجود المياه به. وفي الواقع فإنه ما كاد يتم كلامه حتى طالعت السائرين شجرة نخل وارفة الظلل وطرق آذانهم خرير الماء ساقطاً على الأحجار الصلدة فارتاحت صدورهم واطمأنت قلوبهم وانبثت الآمال في نفوسهم.

وكان إلى غرب الغدير ثلاثة سرادقات كبيرة من قماش معلم بخطوط زرقاء وحمراء تتخلل نسيجها المتين أسلك الذهب وتحف بها شرذمة من الجنود المصريين. ولم يكن أحد يعلم من هم المتفيئون بظلال تلك السرادقات، فلما مر جند الحرس بقيادة والد وردة أمامهم وأدوا التحية العسكرية برزت من السرادق الأكبر غادة تجر مطرفها الخز واتجهت نحو الأسرى وتصفحتهم جميعا وجها وجها، فما أن وقف عليها نظر بنطاؤر حتى سرت بجسمه قشعريرة الدهش والفجأة بما لم يكن يتوقعه وخيل له أنه إنما رأى خيالا لاحقيقة. أما نبسشت فقد صاح صيحة عالية دلت على تأثره بهذا الحادث الذى لم يكن يخطر بباله. ولقد راهما أحد الحراس وهما في هذه الحالة فظن أنهما مختلفان على أمر فألهب كتفيهما بالسوط وقال: المشاتمة جائزة ولكن الملاكمة ممنوعة. ثم التفت إلى حارس وسأله: أرأيت الفتاة الفاتنة التي برزت من الخدر؟ أجاب: لا ريب أنها إحدى وصيفات الأميرة التي نزلت بهذا المكان منذ ثلاثة أسابيع لاداء فريضة الحج في هيكل هاتور. قال الأول: يؤخذ من كلامك أن الأميرة تلوثت بلوث الخطيئة فجاءت تلتمس الطهر.. لو

كانت من عامة الأمة لما أقامت بهذه السرادقات في أسعد حال وأنعم بال، بل لا شتغلت بتنظيف رمال المعادن أو بسحق الألوان. ولكن أين صاحب اللحية الشقراء؟

وكان المقصود بهذا الوصف والد وردة وكان يتشاقل في مشيته ويتمهل، لأن وردة— وهي تلك الغادة الفاتنة— أشارت إليه بالدنو منها فدنا فتبادلت معه حديثاً قصيراً وهرول نصو الأسرى والجنود القائمين بالحراسة فلما أدركهم سار معهم فقال له أحدهم ممازحاً: أنت من أعرف الناس بمحاسن النساء. أجاب وقد بدت عليه أمارات الاستحياء: إنما هذه المرأة من وصيفات الأميرة، وقد عهدت إلى توصيل كتاب إلى رئيس كتبة حساب المعادن، ولست أشك في أننا إذا نزلنا هنا على مقربة من هذه السرادقات الملكية نحظى بنعمة الالتفات الخاص ونطفىء ظمأنا بجرعة من النبيذ العتيق. وقال آخر: ألا ترى هذا السكير يتحرى بأنفه أجود الشراب كما يتحرى الثعلب مكان الدجاج؟ فلنقف هنا قليلا وليطرح كل منكم ما يحمله من الأثقال وليشرب هذا الماء الرئال وليأكل ما يساقط عليه من الرطب الجني. دع أنه لابد من نزول المن علينا(١) فنتغذى به. ثم التفت إلى هونى ونبسشت وقال: كفى عاداً ويزاعاً أيها الشقيان وإلى متى الشحناء والضوضاء؟

⁽۱) المن مادة سكرية تفرزها شجيرة معروفة في علم النبات باسم نماركس مانيفرا وتنمو بكثرة في الأودية الخصيبة بالصحراء ويكون الافراز عادة في مايو حيث يشبه المن عندئذ الصمغ، ويقول العلماء إن المن هو الذي ورد ذكره بهذا الاسم في الكتب المنزلة. وأصلها أن العبرانين لما عثروا على المن في البرية قال بعضهم لبعض «من هو» أي «ماهو» فسمى بالمن. وهو الآن يطلق على المواد السكرية التي تفرزها أشجار الطرفاء والبلوط والخطمي. ومنه الاسترالي الخارج من المكافور والفارسي ويسمى الحاجي ويعرف عند العرب «الترنجيين». قال في وصفه ابن البيطار: «ملل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب وأكثر مايقع على شجر الحاج وهو العاقول ينبت بالشام وخراسان» والسيناوي ويخرج من الأثل والطرفاء والكردستاني وهو عجيني القوام.

قضت بنت أنات بضعة أسابيع في السقر بطريق النيل حتى وصلت إلى بلدة (ريت)، ثم اجتسازت الصحراء على جملة مراحل، مسيرة كل يـوم مـرحلة. فلما بلغت إلى سواحل البحر الأحمر ظلت تنتظر أسبوعا وصول سفينة فينيقية لتقلها إلى بلدة (فران). فلما حضرت إلى هذه البلدة صعدت في الجبال الشاهقة التي تلى سفوحها من الناحية الأخرى الواحات الفسيحة المشيد فيه هيكل هاتور الزمردية. وقد استقبلها كهنة هذا الهيكل بما يليق بمقامها الملكي من الإكرام والتعظيم، إلا أنهم تكلفوا الإكثار من الرسوم الدينية حينما كاشفتهم برغبتها في التطهر من الدنس، أذ عينوا يوماً لغمس جسمها في الماء المقدسة وإطلاق البخور من المجامر، إلى غير ذلك من الطقوس الكثيرة التي جهرت الإلهة من بعدها برضائها عن بنت أنات وصفحها من الطقوس الكثيرة التي جهرت الإلهة من بعدها برضائها عن بنت أنات وصفحها عما ارتكبته من الغلطات. وكانت الأميرة قدمت إليها ما جلبته برسمها من التحف النادرة والهدايا النفيسة.

لما انتهت مراسم التطهير من الدنس صدرت أوامر الأميرة بالعودة فأبى الامتثال رئيس الحراس وهو ضابط حبشى الاصل أنعم الوالى أنى على أبنائه بالرتب العالية ليتخذه آلة فى تنفيذ أغراضه، وقال لرئيس التشريفات إن التعليمات التى تلقاها من الوالى قبل مغادرة طيبة تقضي عليه بحجزها فى الواحة حتى يرد إليه أمر جديد بشانها. فلما أطلعها الرئيس على قول الضابط الحبشى احتدمت غيظا، ولكنها كظمته وفاءت إلى سكونها، رجاء أن يصل إليها المدد من أبيها فيما لو وفق راميرى لأداء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها.

وكان لا ينقضى على بنت أنات ونيفرت يسوم وهما في هذا المكان إلا ويضاف إلى همومها هم جديد، لأنهما أصبحتا ملتقى أنظار العيون التي بثت عليهما بل أسيرتين

ذليلتين اتضع قدرهما وسقط جاههما في نظر الجند الذين أصبحوا ولا هم لهم إلا العربدة وارتكاب المنكرات والعدوان على سكان الواحة بالأذى وسفك الدم على مسمع منها ومرأى وهي لا تستطيع شيئاً.

ولقد أحست بتوالى هذه الحادثات أن الياس أخذ يستولى على قلبها وأنها بعد أن كانت تسمو على العامة بجناحين قويين- هما عزة المكانة وسعة الإدراك- هوت إلى مهبط الذل وحضيض الصغار، فأخذت من ثم تناجى نفسها بأن الحب الذي استقر ف فؤادها لبنطاؤر لا ينتهي إلا بانتهاء الأجل. ثم خُيل لها أنها ترى طيفه ماراً فبدت عليها أميارات التأثر الشديد لفراقه وأكسيها هذا التأثر هيية وعبزة وزاد وجهها جمالا ونضرة. وكان يتردد بخاطرها أنه قد تكون المنية أدركته أو أنه وقع في فخاخ الغادرين فتظهر عليها علامات الالتياع والجزع. أما نيفرت فقد جاءها من أمها كتاب تؤيد لها فيه خيانة مينا عهود الأمانة الزوجية وشغفه بالفتاة الأسيوية، وأن بنطاؤر لم يصل بعد إلى جهة المناجم التي نفّي إليها فأجمعت الآراء على أنه مات في الطريق بحادث ما. قرأت نيفرت هذه الرسالية فلم يضطرب لها جأش ولم ينبض نبض ولم يخفق قلب بل لم يظهر بالمرة على وجهها يدل على تحرك عوامل الغيرة في نفسها، وذلك لأن ثقتها ف إخلاص زوجها مينا وقيامه على عهد الوفاء لها كانت ثقة لا حدَّ لها. ولم تغير تلك الأقاويل شيئاً ما من أحوالها، بل زادتها إيماناً بحب زوجها وبدَّلت في نفسها من اليأس الرجاء حتى لقد كانت تقول لبنت أنات مساء كل يوم إن الامدادات ستصل إليهما في الغداة لتخلصهما من عناء مناهما فيه من ذل الأسر. وكانت تنساق أحياناً في تيار المزاح تلتمس به تسلية الأميرة وتسريبة الهموم عن نفسها فتقول لها: لا يبعد أن نرى في هذا الكان بيننا قريني مينا بخيله و رجله، ولكن من يبرافقك في هذه الحالبة بصيبوانك ويساعدك على قضاء الوقت في الأحباديث الظريفة والنوادر المستملحة. وكيف نقسم الصواوين شطرين بيننا؟ ثم أتفضلين يا ترى البقاء ههنا أو نرحل إلى جنوب الواحة لتمتيع النظر بالمناظر الجديدة والمشاهد الجميلة؟

كانت وردة فى خلال ذلك تقوم بما عهد إليها من العمل حائزة على رضاء الأميرة فى كل حال، وكانت إذا جلست فى حضرتها للزمت الأدب وحرصت على الصمت والوقار، فلا تتكلم إلا بإذن ولا تظل جالسة إلا بمسوغ ، وكانت إذا حدثت خلبت المسامع بعذوبة حديثها وطلاوة لفظها ورقة لهجتها، وإذا ضحكت خيل للسامع أن ضحكها رنين قطع البلور إذا تلاطم بعضها ببعض، وإذا غنت بصوتها الرخيم أطربت الأميرة ونيفرت. ولاعجب إذا برعت وردة فى الغناء، فقد كانت فى كل ليلة تنصت إلى العجوز نيخت تتغنى بالأناشيد التى برعت فيها أيام صباها وتجتهد فى تقليدها حتى أتقنت الغناء ولم يضارعها فى إجادته أحد بجميع الأنحاء.

وقد سر الأميرة مالمحته في وردة من مخائل الذكاء والقطنة فالت على نفسها أن تربيها على أحسن المبادىء وتعلمها القراءة والكتابة. ولقد صادفت في هذه السبيل عقبات حائلة وصعوبات مانعة، بيد أنها بذلت في تحقيق أمانيها جهد المستطاع واتخذت من الاجتهاد في العمل سلاحاً تقطع به حبال الوقت الطويلة، حتى بلغت ما يتجاوز المأمول من أمنيتها. وكانت من وقت إلى آخر ترمق قمة الجبل الذي ضربت السرادقات على سفوحه بعينين تقرأ فيهما آيات التدله في الغرام، فتنظر إليها وردة من طرف خفى وتدرك مكنون سرها. غير أنها كانت لا تستطيع أن تفاتحها في شأن ما من شؤونها اجلالا لها واحتراما. وكانت تترقب الفرصة المناسبة للكلام فتقص عليها من ظريف النوادر ما له علاقة ببنطاؤر وأسرته فينصرف عنها الهم وتخف أعباء الكدر والحزن. وكان يتفق أن يمر الأسرى أمام خيام الأميرة وهي جالسة

تحت ظلالها مع نيفرت عند غروب الشمس تتطارحان الأحاديث في أحوال الملك ومينا وبنطاؤر، فلما مروا بعقب وصول كتاب راتوتي إلى ابنتها صاحت هذه قائلة: لاشك أن بنطاؤر لايزال على قيد الحياة، وقد أصابت والدتي فيما كتبته لى، لأنها لم تقل إنه مات بل قالت إن أخباره انقطعت وهو إذا استطاع الفرار فلابد أنه جعل معسكر الملك وجهته لتحظى بلقائه في القريب العاجل.

لم تجاوب الأميرة على هذا القول بل أطرقت رأسها حزنا، فشخصت فيها نيفرت بعين الرفق والاشفاق وقالت: لعلك تفكرين فيما بينكما من تفاوت المرتبة وتباين الشرف. قالت بنت أنات: إنى باختيارى إياه قرينا لى أجعله أميراً عالى الكعب رفيع المقام واجب الاحترام، وإذا استطعت أن أجعل زمام الأرض كلها بيديه وملكته الحكم على العباد كافة أفلا يكون أرفع منى مقاماً وأسمى قدراً وأشرف مرتبة؟ قالت نيفرت مستحيية: وماذا والدك فاعل إذا رأى منك هذا الميل؟ قالت الأميرة: يحبنى والدى ويكرمنى ويفهم مقاصدى. وقد انتويت إذا ظفرت بمقابلته مفاوضته في جميع شؤونى ومطالعته بأسرارى كافة. وبعد أن سكتت هنيهة استأنفت الحديث فقالت: ليحضر الخدم السراج والنول لأقضى بعض الوقت في النسج.

هرولت نيفرت إلى باب الصيوان فالتقت عنده بوردة فأمسكت بيدها وجذبتها إلى خارجه وسألتها: مالى أراك مضطربة ووجلة؟ أجابت وردة: وصل أبى إلى هنا مرافقا بعض الأسرى المقبلين من معادن مفكات، وقد رأيتهم فإذا باثنين منهم قرنا في قيد واحد، ولا شك عندى في أن أحدهما بنطاؤر. وقد حدثت أبى في أمره فوعدنى أن يطلق سراحه. ولست أود أن تطلعى بنت أنات على الخبر إذ الأحسن أن نتركها على غير علم به ليكون سرورها عند مفاجأتها بلقاء بنطاؤر أعظم منه في حالة علمها بوصوله، ثم إننى من جهة أخرى أخشى أن تتدخل في أمره بما يمكن أن يؤدى إلى

فشل تدابيرنا. سالت نيفرت: أترين أننى أصلح لمساعدتك على إنفاذ مشروعك؟ أجابت وردة: ولم لا.. والذى أسألك إياه الآن أن تأمرى القيم بإرسال قربة نبيذ جيد إلى الأسرى وتأتى لى بالقنينة التى ف متاع الأميرة وتحتوى الشراب المخدر الدى يلقى شاربه في سبات النوم، وما زالت تأبى الانتفاع به رغم نصائحك المتكررة.

فانصرفت نيفرت من فورها إلى القيم وأصرته أن يذهب بقربة نبيذ مع وردة إلى حيث ترشده وأن يعطيها من تعينه له من الناس، ثم دخلت مخدع الأميرة وفتحت صندوق عقاقيرها(١) وأخذت تفتش فيه. فسألت بنت أنات: عم تبحثين؟ أجابت: عن دواء ضد الخفقان. ولما عشرت على القنينة أخفتها في كمها وهمت بالخروج من الصيوان لتعطيها وردة، وكانت وردة تنتظرها مع القيم خارجه، فلما أخذت القنينة من نيفرت تظاهرت بأنها تريد أن تشرب من قربة النبيذ في حين أنها كانت تسكب فيه السائل المخدر دون أن تنبه القيم إلى حقيقة الواقع. ثم قدمت النبيذ إلى الحراس الذين أنهكهم التعب. وقد وقع عليها نظر شاب من شبان العمالقة فقال: السلام عليك أيتها الغادة الهيفاء.. أقدم إليك أربع حجال(٢) ذبحتها بيدى وحجرا من الفيروز عثر عليه أخى بين الصخور(٣) وهو فأل السعادة وبشرى الخير لحامله وجالب النصر له على الأعداء وطارد الأحلام المزعجة (٤). فتناولت وردة الحجر،

⁽۱) في متحف برلين صندوق مصرى للعقاقير ثبت أنه صنع قبل عصر وعمسيس الثاني «سيزوستريس» بزمن طويل.

⁽٢) يوجد بقمة الجبل الذى يسميه رهبان طور سيناء جبل القديسة كاترينة مجرى ماء يدعى بغدير الحجال ويروون بشأنه حكايات غريبة، منها أن مياهه تنفجر بإذن الله من عيون كثيرة تشرب منها الحجال التى رافقت الملائكة الذين حملوا جثة القديسة كاترينة من الإسكندرية إلى جبل طور سيناء.

⁽٣) أحجار الفيروز التي تستخرج من صخور جربال هي أجمل أحجار هذا النوع وأحفظ للونها من الأحجار التي تستخرج من وادى المغارة.

⁽٤) مازال العرب يسندون هذه الفضائل إلى أحجار الفيرور

وكان سنجابي اللون، جميل الشكل، وقالت: إني أشكر لك هديتك. ثم أخذت بيد الشاب وذهبت به إلى مكان لا تهتدى إليه أعين الرقباء، وقالت له بصوت منخفض: انصت با ساليش لكلامي وع قولي. قد ثبت لي الآن شرف نفسك وطهارة قلبك ولطف شعورك وعلمت من تابعات الأميرة أنك قلت عنى إننى كوكب سماء هبطت الأرض في صورة إنسيان.. ولاريب أن أحداً لا يقبول هذا القبول إلا إذا كان عباشقاً والها، ولهذا لا أخالك إلا كذلك لاسيما وإنك ترسل إلى في كل يوم باقات الأزهار النضيرة والطيور التي يصطادها أبوك برسم الأميرة. فإن تكن هذه حقيقة حالك معى أفتقدر أن تقدم للأميرة ولى خدمة جليلة نعدها من أجمل المنن علينا ونحفظ ذكراها لك مقرونة بالشكر مدى الدهر؟.. لعلك مجاوبي بنعم.. فإذا حققت رجائي فيك فإنى مخبرتك بأن لمولاتي الأميرة صديقاً يهمها من أمره أن يكون في معزل عن الرقباء بضعة أيام، فهل لك ف إخفائه مع رفيق آخر له ف بيت أبيك القائم هناك على قمة الجيل المقدس؟ أجاب الفتي: فلينــزلا عندنا على الــرحب والسعة ، فإن عــادتنا إكرام المشوى وقضاء الحاجات.. وأين هما هذان الأجنبيان؟ أجابت وردة: سيحضران هنا بعد ساعة. أفتريد أن تبقى في انتظارهما حتى يطلع القمر؟ قال الشاب: بل انتظر حتى يختفي القمر خلف حجاب تلك الجبال السامقة. قالت وردة: اجعل مكانك فيما يلي هذا الغديس فإذا حضرا وإقتربا منك وذكرا لك اسمى ثالاثا فارشدهم إلى بيتك، ولست أخالك جاهلا باسمى . قال الشاب: لقد أسميتك الكوكب الدرى وأسميت كل امرأة سواك بوردة. قالت وردة: إذا بلغت الأجنبيين إلى دارك ورضى أبوك أن يكرم فيها مشواهما فعجل بالعودة إلى لتخبرني بهذه النتبجة، وهاأنذه باقية في انتظار عودتك بباب الصيوان. وإنني لأسفة من أنني لا أملك شيئاً معى الآن لأتحفك به جزاء صنيعتك وصدق ولائك، ولكن لا تياس فلابد للأميرة من أن تجزل لأبيك العطاء وتفيض في أسرته الخبر فكن حذراً با ساليش ولا تغفل. قالت هذا ثم انصرفت قاصدة إلى مكان حراس الأسرى وهناك وجهت إليهم عبارات التمنى أن يقضوا ليلتهم في هناء وسرور. ولما عادت إلى بنت أنات سألتها عن سبب ما تراه من امتقاع لونها وكسوف بالها وقالت: هلمى إلى سريرك فإننى أرى الحمى قد اعترت جسمك اللطيف. ثم التفتت إلى نيفرت وقالت: أترين الدم يا نيفرت وهو يجرى في عروق جبينها؟

وكان الحراس في خلال ذلك يجرعون النبيذ الملكى ويهنىء بعضهم البعض لفوزهم بهذه السعادة التى لم تكن تخطر لهم ببال. وكان والد وردة يرقب حركاتهم وأقوالهم فاقترح عليهم أن ينعموا بشىء مما يشربونه على الأسرى فاستجاد أحد الأحراس هذا الرأى وقال: لقد أصبت، إذ الواجب أن يكون لهؤلاء المنكوبين ولو مرة واحدة في حياتهم - نصيب من نعيم الحياة ولذة السعادة. فلم يكد والد وردة يسمع هذا الإستحسان حتى ملأ الكوب بالنبيذ ثم دنا من بنطاؤر وتركه له بعد أن همس في أذنه ألا يشرب قطرة منه وألا ينام ليله. ولما دنا من نبسشت وأراد أن يقدم إليه الكوب جاء جندى آخر ومنعه من تقديمه ثم عرض عليه قدحاً كان بيمينه فأخذه نبسشت وأخذ يكرع منه. وكان الحارس ينظر إليه ويعجب من قدرته على تجرع بنت الدنان وعجزه عن الكلام بحسن البيان وفصيح اللسان.

الفصيل العاشر

أين يلتقى بربه ويتوجه إليه بكل قلبه

لم تمر بالشاربين ساعة أو بضع ساعة في اللهو والمرح والمطايبة حتى أحسوا بثقل رؤوسهم فلم يتمالكوا أن ألقوا بجنوبهم على الثرى، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى دهمهم النوم. وكان القمر آنئذ يلامس الأفق، فقام والد وردة ودنا من الزمن حتى دهمهم النوم. وكان القمر آنئذ يلامس الأفق، فقام والد وردة ودنا متمهلا من الحراس ليستوثق من نومهم، ثم دنا من بنطاؤر فحل قيوده وفعل مثل هذا بنبسشت، غير أنه لم يستطع إيقاظه من نومه فحمله على كتفيه وقال لبنطاؤر: اقتف أثرى. ثم سار مسرعاً نحو المكان الذى عينته له وردة على مقربة من الغدير، فلما وصل إليه نطق باسمها ثلاثاً فهرز الشاب العملاقي، فرجا الجندي من بنطاؤر أن يصاحبه إلى حيث يسير به، فتردد كأنه خشي عاقبة هذا الفرار فقال له: لا خوف على نبسشت، وساعني كل العناية بأمره. قال بنطاؤر: لا قدرة لى على مفارقة صديقي وأرى أن بالامكان إفاقته بالماء البارد . فجرداه من بعض ثيابه ووضعاه في ماء الغدير، فلما أحس قوة تياره أفاق وسار مع بنطاؤر متمايلا كالثمل وأمامهما الشاب العملاقي وظلوا سائرين جميعاً حتى بلغوا إلى البيت الذي على قمة الجبل.

وكان والد الشاب نائما فأيقظه من نومه وأخبره بما سارّته به وردة وماعاهدته عليه من العهود، فهب الرجل من مكانه واستقبل نبسشت وبنطاؤربالإكرام وطرح للأول على الأرض حصيراً نام عليه وهيا للثانى مضجعاً من الفرو، وقدم إليه ثيابا جديدة ليلبسها بدلا من أطماره البالية ونادى بابنته أن تغسل قدميه، فأضطجع

بنطاؤر على الفراش الذى أعده له والد الشاب العملاقى فإذا به فراش لين لا تفضل عليه أرائك الملوك نعومة ونظافة، بيد أنه لم يستطع النوم لما أنهك جسمه من التعب وتولاه من الدهش وانزعاج الضمير. ولبث على هذه الحال زمناً نهض بعده من مكانه فوضع نبسشت على فراشه وخرج من الدار للايغال قليلا في الخلوات تسرية للهم عن قلبه، فقاده السير إلى غدير منحدر من مكان عال تتكسر مياهه على الصخور فيسمع لها خرير لطيف فغمس فيه رأسه ثم أدلى بجسمه ليتنعم بطراوة مائه النقى، وقد تخلص بذلك من الادران التي تراكمت عليه كما نجت نفسه من أوضار الحقد والعار والحزازات الناشئة من مخالطته قوما لا نصيب لهم في الحياة الدنيا إلا التلطخ بأدران العار والهوان وفساد الأخلاق. ولقد أحس كأنه في صبيحة عيد من أعياد بيت سيتى التي كان ينتبه من نومه فيها مبكراً فيستحم ويتطهر ويلبس الثياب الكهنوتية الناصعة البياض. لهذا عجل بالعودة إلى دار العملاقي تبدو عليه مظاهر النشاط والخفة والاغتباط، فبعد أن جفف جسمه لبس الثياب التي عليه مظاهر النشاط والخفة والإغتباط، فبعد أن جفف جسمه لبس الثياب التي

وكان يرى أمامه صخورا قاتمة اللون فيخالها سحباً متراكمة تنذر بوابل غزير، إلا أن السماء كانت بأديمها الصافي تلوح من خلال قماتها الشاهقة وقد رصعت بألوف الكواكب المتلألئة. وقد أثر هذا المنظر العجيب في نفسه تأثيراً سما بها إلى أوج الحرية. وكان النسيم في ذلك الوقت عليلا فسار وقد لاحت عليه علامات السرور والاغتباط في درب يوصل إلى قمة الجبل التي اتخذها والد الشاب العملاقي مقراً له. وكان في صعوده إليها يشعر كمن يطير أو تجذبه نحوها أيد خفية، ورأى وهو صاعد تيساً أركن حينما راه مقبلا إلى الفرار وتسلق مع أنثاه الصخور الصلدة فصاح الشاعر بهما: لا تخافا مني أذى فلست من جُبل على الأذى. وقد جاء قوله

هذا دليلا على ما تحن إليه جوارحه من العشق وعلى ما يحسه من ضرورة الإعراب عنه للحس.

ثم وقف على هضبة ضيقة عند مأخذ القمة الصخرية، فإذا به يرى مسرباً تجرى فيه المساه من أعالى الصخور فترتوى به الحشائش الطبيعية وتنعكس فيه صور الكواكب التى أخذ بريقها الساطع يبهت قليلا قليلا تلاشيا وتفانيا أمام ضوء الفجر المبلج، فنظر إليها نظرة تدل على تتبعه لها بفكره في سيرها السرمدى بأكناف الفضاء اللانهائي. ثم التفت إلى الجبال التي أضاء النور سفوحها وأبان للناظرين ما يليها وما يتخلل أكامها من المهاوى التي لا قرار لها. ومازال الليل يسولى الادبار حتى سطع النهار وتمثلت للأنظار قمم تلك الجبال تتسحب فوقها السحب كدخان يتصاعد من بؤرة النار. وكان ضباب كثيف يصعد وقتئذ من الواحة، فلم تمض منيهة حتى انجلت دقائقه وانتثر بعد التماسك حينما فعلت فيها أشعة الضوء فعل السهام النافذة في الأجسام.

هذه كانت حالة تلك الأصقاع من الوحشة ساعة طلوع الفجر. ولم يكن بها من دلائل الحياة سوى نسر كان يحلق بجناحيه العريضين حول بنطاؤر، وهوماخوذ بالتأمل في عجائب الخليقة وأسرار الكائنات من تلك القمة العالية. وكان السكون قد مدّ أرواقه على الطبيعة فلما رأى بنطاؤر ذلك النسر منحدراً إلى قاع الوادى وشاهد الضباب تتلاشى جزيئاته هباء وتهبط في تلاشيها إلى أسفل المنحدرات، خطر بباله أن يواصل الصعود إلى نقطة اسمى يكون فيها بمعزل عن مصائب الجنس البشرى بعيداً عن التأثير بالنوازع الدنيئة التي تجذب إلى ناحيتها أفئدة العاجزين فتحول بعيداً عن التأثير بالنوازع الدنيئة التي تجذب إلى ناحيتها أفئدة العاجزين فتحول دون تأملهم في عجائب الكائنات، بيد أنه كان في حالته هذه أشبه به يوم أن أمللعه

الكهان على أسرار الكهنوت المقدسة، إذ كان يجمع إلى الخشوع الذى امتلاً به قلبه يومئذ عزة النفس التى تسمو به على الكافة. وغاية ما أحسه من الفرق بين الحالين انه كان في ذلك اليوم يستنشق أريج الزهور ورائحة البخور وغيرهما مما يثقل على النفس ولا ينتعش به الفؤاد وهو واقف على ذروة الجبل الشاهق يستنشق النسيم النقى العليل ويرى من السكون السائد على الخليقة ما يوطىء سبيل الفوز بالقربى من الألوهية أكثر مما تمهد منه أناشيد الكهان.

ثم أوغل في التأمل والتفكر فرأى أن الأنفاس الخافتة المنبعثة من صميم الفؤاد تتقبلها الآلهة أكثر مما تتقبل الأناشيد والأغانى التى يلحنها الكهان ويصدحون بها في كل أن، وأن الإنسان مدين للمنعم عليه بشكر ما أنعم وبالاقرار بالطاعة له، ولكنه لم يكن مديناً بتصوير ذلك الشكر وهذه الطاعة في صور محسوسة مغالاة في إفهام المراد منهما. وكاد لسانه— مع هذا التصور— ينطلق بترديد بعض الاناشيد لولا أنه أحس بحصر فجثا في الحال على ركبتيه للصلاة والدعاء وأداء مفروض الشكر والثناء.

ونهض واقفاً بعد الصلاة فأمعن النظر فيما حوله من عجائب الكائنات، وكان مستشرقا الشرق وميامناً الجنوب حيث تمتد أراضى النيل المقدسة التى تقام فيها الشعائر الدينية لآلهة لا يتحصى لها عدد ، فاختلط عليه الأمر إذ حار في اختيار من يعبده من هذه الآلهة: أ (أوزريس) أم (حوروس) أم (زيفا) أم (رينوت) صاحبة البركات العميقة ومفيضة النعم؟ وبينما هو في هذا التردد إذ هبّ نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذي كان منسدلا كحجاب يحول دون رؤية الوادى، وانبعثت أشعة الشمس من وراء الأفق ، فكللت هام جبل سيناء بتاج من الذهب وطرحت على الماء طبقة ناصعة البياض من اللجين.

ومر بباله آنئذ أن يبتهل إلى الإله (فيرو) ، ولكنه عدل عن نيته أذ تذكر تقاهة عبارة الصلوات الدينية الخاصة بمعبودات السهول والفلوات وخلوها من المعانى اللائقة بالزمان والمكان، ثم سكت برهة قال بعقبها: «إنى الآن في حضرة السواحد الأحد الذي تقدس عن الحاجة إلى المكان وليس في مكان ولا على مكان، لأن كل ما في العالم تحت قدرته وتسخيره، تراه عيناي بلطفه وقدرته وعجيب صنعه، لأنه تعالى منزه عن الكيف والكم وكل ما يخطر بالخيال والسوهم من التكيف والتمثيل، فإليه ضراعتى وإليه إنابتى». ثم بسط كفيه وقال: أنت الواحد الأحد!

وكان شيخ بدين الجسم قوى الأساطين واقفا وراء بنطاؤر وهو يكرر تلك الكلمات، فلما التفت بنطاؤر إليه قال له الشيخ: بورك فيك وعليك، إن كنت تبحث عن الإله الحقيقى. فحدق الشاعر في وجه الشيخ وكان طويل اللحية مهيب المنظر وقال له: لقد عرفتك. لانت ميسو (١) بعينه. وإذا عرفتك فما هو إلا لاننى كنت ببيت سيتى أتلقى فيه المبادىء العلمية وقتما تخرجت أنت منه نابغاً في المعارف والعلوم اللدنية. وقد أطلعنى أمينى - كما أطلعك - على سر الاعتقاد بوجود إله واحد لا إله إلا هو. قال ميسو، وقد حدق بنظره في الأفق الذي كانت تسطع الأنوار من ناحيته الشرقية: أما أميني فلا يعرف من الوحدانية شيئاً.

ف خلال هذا الحديث برزت الشمس من وراء حجاب الأفق واصلبت سهام اشعتها الذهبية كبد الفضاء، فكان أول ما بدر من بنطاؤر أن استقبلها بوجهه وبدأ يصلى، فلما انتهى من الصلاة شهد ميسو وهو يصلى أيضاً، إلا أنه كان مستقبلا

⁽١) أي موسى عليه السلام.

الغرب، فلما أتى على آخر صلاته سائه: لم استدبرت الإله «الشمس» وقد تعلمنا بالمدرسة وجوب استقباله عند شروقه. قال ميسو: إنى أعبد إلها غير ما تعبد.. الشمس والكواكب مسخرات لأمره. قال بنطاؤر: أرشدنى إلى طريق هذا الإله القادر. قال ميسو: ابحث عنه تجده، لأنك كابدت الآلام وقاسيت مشاق المتربة. واعلم أنه تجلى لى في مكان مثل هذا وفي صبيحة يوم كهذه.

قال هذا ومضى في سبيله، فوقف بنطاؤر وحده سابحا في بصار التأملات، ثم نزل متمهلا نحو دار العملاقي، وبينما هو في طريقه طرق سمعه همس أناس على مقربة منه. وكانت تحجبهم الصخور عن نظره، فوقف هنيهة حتى ظهروا من خلفها ودنوا منه، فإذا هم ابن العملاقي ورجل بثياب مصرية وامرأة ميادة القوام ترافقها فتاة رشيقة الحركات وعبيد يحملون محفة. فخفق قلبه شديداً حين وقع بصره عليهم، لأن تلك المرأة كانت بنت أنات كريمة رعمسيس. ثم وقف مستنداً إلى صخرة لا يقدر على الحركة لما غلبه من الدهش، وغابت عنه الحواس فصار لا يسمع وقع الاقدام على الصخور الصلدة، ولا يرى انعكاس الأشعة الشمسية على حجر السماق، كلا ولا المرأة الحسناء التي هرولت نصوه لاستجلاء محياه. وما نادته باسمه وطرق صوتها أذنيه حتى صار كالأعمى الذي يرجع إليه البصر أو الأصم الذي يعاوده السمع، فقد عرته رعشة فتنبه فسمع بنت أنات تكرر نداءها له: يا بنطاؤر! فأوسع لها الشاعر صدره الرحيب فترامت بين ذراعيه فضمها إليه بنطاق! عناق المشتاق الذي أضناه الفراق.

أما رفيقات الأميرة فكن جالسات ف بيت العملاقي. فقالت وردة لنيفرت: لقد رأيتها تلقى بنفسها بين ذراعيه.. لست أنسى – ماحييت – هذا المنظر البديع الذي كانا يحاكيان فيه البحر المتلألىء عند الأفق هناك، وقد تحركت مياهه لعناق الجبل المقدس. قالت نيفرت: كيف ابتدعت هذا التشبيه الجميل، ومن أين لك مثله أيتها الفتاة؟ قالت وردة: عثرت عليه في صميم فؤادى وليس عندى ما أكاشفك به سوى أننى أشعر الآن في نفسى بسعادة وهناء، لم أشعر بهما من قبل. قالت نيفرت: لعل سعادتك وهناءتك ناشئتان من اعتقادك أنك وفيت لبنطاؤر ما عليك له من الدين، إذ كنت سبب إنقاذه من الهلاك كما أنقذك منه. قالت وردة: ليس هذا سبب سعادتى، بل إن هناك سببا آخر كان داعية هناءتى وجالبة سرورى. وغاية ما أخبرك به أننى كنت يئست من كل شىء فلم ألبث أن تحول اليأس في نفسى رجاء بفضل الآلهة وعدلهم.

فاستحسنت نيفرت هذا القول بإشارة ثم قالت وهي تتنفس الصعداء: ما أسعدهما حالا وأهناهما بالا وقد تلاقيا بعد الفراق! قالت وردة: إنهما جديران بهذه السعادة لأن بنت أنات إلهة الحقيقة، وليس في الديار المصرية من يجارى بنطاؤر في علمه وشرف نفسه وعلو همته. فصمتت نيفرت زمناً ثم قالت بصوت اليائس الحزين: أما رأيت مينا؟ قالت وردة: من أين لى أن أراه.. عليك بالصبريا نيفرت ودعى عنك الجزع، فلسوف تجتمعين بمحبوبك. وثقى بقولي هذا، فأنا أعرف من حوادث المستقبل ما يعرفه الأنبياء.. ولكن دعينا من هذا الآن ولنقصد نبسشت لنرى إن كان لايزال نائما.. أنا عرافة بما للشراب المخدر الذي مزجته بالنبيذ من تأثير في إضاعة الرشد. قالت نيفرت: أصبت ، فهيا بنا. ثم سارت مع وردة مقتقية أثرها.

وكان الطبيب ملقى على ظهره فاغراً فاه، فتقدمت وردة نحوه وحدقت فيه النظر

فقالت: لقد أجهد هذا الرجل نفسه في دراسة العلوم والاطلاع على خفايا الحقائق، ولكن مازلت أجده أقرب في هيئته إلى الحيوانات العجم منه إلى الإنسان. ثم تناولت عوداً يابساً وعبثت به في أنفه فتحرك أولاً ثم عطس وتقلب على أحد جنبيه واستغرق في النوم، فقهقهت وردة ضحكا كان يرن رنين الفضة النقية أو الذهب المصفى ولم تلبث أن احمر وجهها خجلا إذ وبخها ضميرها على استخفافها بالرجل الذي أحسن إليها فاعترفت بخطأها وندمت على ما فعلت وتذكرت ما كان عليها له من مأثر تدل على كرم محتد وطيب عنصر.

وفى الحال تناولت يد النائم فقبلتها وعمدت إلى جبينه فمسحت العرق الذى كان يتصبب منه. وكان فى هذه الأثناء بين يقظان ونائم فقال: وردة عزيزتى وردة! فتراجعت الفتاة إلى الخلف هاربة. فاقتفت نيفرت أثرها. فلما تنبه نبسشت من نومه نهض واقفاً ونظر فيما حوله فوجد أنه فى مكان لم يره من قبل ولم يعلم سبب وجوده فيه ولذا خرج مهرولا فالتقى ببنت أنات تحذر أصحابها مما يكنفهم من الأخطار والنكبات.

الفصل الحادى عشر

«الرحلة من سيناء إلى لبنان.. وما وقع فيها من غرائب الحدثان»

مرت قرون عديدة وأحقاب مديدة على سكان الواحة وهم يودون الجزية الفراعنة، مقابل تعهدهم لهم أن لا يطأ عسكرى مصرى ثرى بلادهم. وكان هذا هو سر نزول الأجناد الحبشان خارج حدود الواحة وإقامتهم صواوين بنت أنات بعيدا عنها، غير أنه حدثت بالرغم من هذه التدابير معارك كثيرة سالت فيها الدماء بين أولئك الجند الذين أركنوا الى البطالة والكسل وبين العمالقة سكان الواحة الذين عرفوا بعزة النفس وسمو الهمة وسرعة النجدة وحب الاستقلال. وكانت تلك الحوادث تنذر بالخطر في مساء يوم أفرط فيه أولئك العساكر في الشراب حتى ترنحت أعطافهم وضلت عقولهم وضاع صوابهم فهاجموا النساء وهن ذاهبات للاستقاء.

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ أحد الحراس الأسرى من نومه، فتنبه إلى غيبة بنطاؤر ونبسشت فذهب مع أصحابه من فوره وفيهم والد وردة – وكان قد عاد الى مكانه مستتراً بالظلام بعد قيامه بما عهد اليه – ليرفعوا الأمر إلى ضابط الجنود الحبشان الذي أيقن أن الشاعر والطبيب اختفيا بالواحة عند أحد العمالقة. فخابرهم في تسليمهما له، ولكنهم لم يبالوا به لاعتقادهم فساد التهمة الموجهة إليهم وسخروا منه فاستشاط غيظا وأمر بتفتيش الواحة. ولم يكن هذا الأمر متفقا مع نصوص المعاهدات المبرمة بين حكومة مصر وبينهم. ولما لم يعشره البحث عندهم عليهما التهاء والأطفال أثره يشيعونه بألفاظ التهكم والتبكيت وتمادوا في ذلك حتى

ضاقت عليه المذاهب فذهب إلى الواحة بنصف قوته العسكرية واحتلها.

لما رأى العمالقة هذا التعدى هبوا إلى أسلحتهم فتقلدوها وتظاهروا بالانسحاب الى الوراء ليستدرجوا تلك القوة إلى متابعتهم، ومازالوا بها حتى بلغت إلى بقعة ممهدة من الوادى حول جبل صخرى صغير (١) فاعتصم به سوادهم الأعظم. فلما مر الأحباش بجوارهم انقضوا على الطليعة والمؤخرة انقضاض النسور وفتكوا بهما شر فتك. ثم انجلت الواقعة عن قتل عدد عظيم من الجند وإصابة الضابط نفسه بجراح اضطرته إلى الارتداد على الأعقاب. وما ترك شرذمة من جنده لحراسة الأميرة إلا لكى تستنجد بها عند الحاجة لأنه سارع بعد الانسحاب بالانضمام اليها واستأنف كرة الهجوم على الواحة بها وبالقوة التى عهدت إليها المحافظة على الاسرى.

لم يكد يتوارى شبح أخر جندى وراء غابة النخل عن نظر بنت أنات حتى أصدرت أمرها بإعداد العدة للرحيل. وكان رجال حاشيتها متفانين في الإخلاص لها، فما هي إلا ساعة حتى قوضوا الخيام ووضعوا على متون الجياد ما خف حمله وغلا ثمنه من المتاع والزاد، وانطلقوا في دروب سيناء يفرونها فرياً وفي طليعتهم ساليش متجهاً معهم صوب دار أبيه، بينما كان الضابط وجنوده في قتال عنيف مع سكان الواحة الأبرياء.

وكانت وردة فى أثناء المسير تدبر بذكائها وصدق رويتها التدابير لالتقاء بنت أنات وبنطاؤر. وقد شرحنا كيف تم هذا الالتقاء وسردنا ما وقع فيه من حوادث الهيام ووقائع العشق والغرام. فنضرب صفصا عنه الآن لنقول إنهما لما استأنفا

السير لم يفترقا حتى وصلا إلى آخر المرحلة، في محلة كسيت أرضها بديباج الحشائش الخضراء، فجلسا على هذا البساط السندسي وشرعا يتطارحان ذكرى ما اعترضهما من الشدائد والصعاب. ولما كان قبيل الظهر أقبلت ابنة العملاقي واخت ساليش تحمل قدراً مملوءة لبناً فتناولتها بنت أنات منها وسكبت بعضاً مما فيها في طاس متخذ من قشر القرع المجفف وقدمته إلى بنطاؤر الذي كان يشعر ساعتئذ كان روح العزة والكرامة مقرونة بالتواضع تنبت في كيانه الذاتي حتى تناولته جميعاً. ولقد حدق في بنت أنات النظر فعاهد نفسه على أن يبقى ما عاش مخلص الولاء لها مضحياً روحه في سبيلها ومتفانيا في حبها. وكانت حوادث الماضي الذاهب والماضر المشاهد لحسن طالعه قد محت من قلبه الخوف من المستقبل، فأصبح وكأن جناحي السعادة يرفرفان على رأسه. وما انتهى الاثنان من تناول ما هييء لهما من الطعام حتى أحس بنطاؤر بسلطان الغرام الذي نحاه عن مواطن التفكر في شؤون الدنيا قد تغلب عليه، فأخذ يجهد الفكر في تدبير تخلصه من المازق الذي زج بنفسه فيه حيال بنت أنات وحاشيتها.

وكان الناظر اليهما وهما في حدثيهما يأخذه العجب من أمرهما، فإنه بينما كان يسمع منهما عبارات الخوف والفزع كان يقرأ في عينيهما آيات السرور، وبينما كان يسمع مفاوضتهما في تدبير مخرج لهما من هذا المأزق كان يراهما متراجعين نحو دار العملاقي، وما هي إلا فترة قصيرة من النزمن حتى شهدا هذا الرجل وابنته مقبلين عليهما ومعهما شيخ جليل من العمالقة، فلما دنا الشلاثة من بنت أنات خروا سجدا وقبلوا الارض بين يديها.

كان اسم ذلك الشيخ (ابو شرابوس) وهو عميد الواحة وكبيرها. وكان قد اتصل به نبأ محاصرة الحراس لبنت أنات ووقوعها في شرك أسرهم فحضر ليجعل نفسه في

خدمتها ولينفذ ما تأمره به. وقد قال لها إنه موال لأبيها الذى صان حرمة المعاهدات المبرمة بين مصر وعرب العمالقة. وكان الرجل طُويل القامة قوى الاساطين أسمر اللون اقنى الأنف، وفي وجهه ندبة جرح أصيب به في منازلة عدو له. ثم أخذ يقص على بنت أنات وبنطاؤر –وكان يظن أنه شقيقها – ما لحق جند الأحباش من الخذلان وأنهم وقعوا جميعا بين قتيل وجريح وأسير، ثم قال: إن هؤلاء الجند أشداء على أهالي (رزوح) الذين يشبهون الكلاب جبناً وسفالاً. أما نحن فرجال إذا طمع فينا أجنبي وحاول الإغارة على بلادنا أذقناه من دفاعنا الذي يشبه دفاع الليوث عن عرائنها كأس المنون. فليأت منهم الألوف تلو الألوف ونصن ننكل بهم ونوردهم موارد الحتوف.

وما أيقنت بنت أنات إخلاص الرجل وصدق استعداده لدفع المكاره عنها حتى وعدت بأن تذكره بخير عند أبيها الملك وتوصيه برعايته هو وقومه، ثم أخبرته برغبتها في الذهاب مع بنطاؤر إلى المعسكر المصرى في الشام وذكرت أن هذا الشاب سيكون في المستقبل قرينها.

وكان الشيخ يمد بصره إلى بنت أنات وهي تفوه بهذه الكلمات حتى إذا التفت إلى بنطاؤر أطرق رأسه احتراما وإجلالا لمه ثم قال: أنت يا ابنة الملك لأزهى من القمر سناء وتألقاً ، إنه لا نظير لرفيقك في العالمين، وإنما هو أشبه الناس بر (دوزاره) إله الشمس. ثم ضرب صدره بكفيه وقال: لم أر في حياتي زوجين يشبهانكما غير (أبي شرابوس) وزوجته ولهذا عولت على مرافقتكما بنفسي إلى (هبرون) ومعى رجالي الشجعان.. ولكن عجلوا بالرحيل قبل وصول الجند الذي لابد أن يبعث به ذلك الخائن الأثيم الحاكم الآن على مصرائم (١) لينتقم من العمالقة. هلموا إلى خيامكم لإعداد معداتكم وغداً لا تبزغ الشمس حتى نكون في الطريق.

⁽١) اسم مصر عند العبرانيين

ثم وقفوا تجاه بيت العملاقى فتقدم رجال حاشية الأميرة صوب بنطاؤر وادوا له واجب السلام، فلما دنا منه رئيس الحجاب كانت تبدو على وجهه علامات القلق والتردد، لأن الملك رعمسيس وإن يكن قد أمره بالطاعة المطلقة لكريمته المحبوبة لم يرق فى نظره أن تهوى من أوج كرامتها العالية إلى حضيض الرضاء بأن يكون أحد رجال العامة قريناً لها، أما نيفرت فكان مما يشرح فؤادها أن تحدق فى بنطاؤر النظر وتعجب بما رزق من جمال صورة واعتدال قوام وكانت تناجى نفسها بأن هذه الصفات العالية تمثل لخاطرها صورة اسا زوج خالتها.

وكان هذا شأن وردة مع بنطاؤر وبنت أنات، فإنها كانت لا تمل النظر إليهما والدعاء بتحقيق أمانيهما، وأن تكون هذه السعادة مقدمة خير لتحقيق أمنية نيفرت بلقاء قرينها مينا وتحقيق أمنيتها أيضاً.. وكان نبسشت في أثناء هذا بمعزل عن الجميع تواضعاً منه أو حياء، وقد ذهب صفاء الجو وطراوة النسيم بصداع راسه. فلما انتهت مراسم السلام على بنت أنات وبنطاؤر على الوجه المتقدم دنا من الشاعر فأخذه بيده ثم قال: إنى أكف منذ الآن عن تعزيرك لأن مبدع هذا الكون الذي تستمد به في صلواتك قد محا من نفسك العيوب التي لأجلها عزرتك. قال بنطاؤر: لا مدعاة لاسف أيها الصديق، ولسوف يجيء دورك فنكون على وفاق تام ونعيش في صفاء وسلام. قال نبسشت معترضا: أرى بلوغ هذا المرام وعراً، لأن بني الإنسان آلات وسلام. قال نبسشت معترضا: أرى بلوغ هذا المرام وعراً، لأن بني الإنسان آلات أحداهما من الخشب الجيد والاخرى من الرديء، وأن تكون الأولى صحيحة إلى الصنعة محكمة تناسق الأجزاء والشانية عكس ذلك. أما أنت فمن الطراز الأول لأنك تشبه الآلة الموسيقية التي يُسمَع اهتزاز أوتارها كلما هبت عليها رياح القدر وأما أنا فكالآلة التي تبين أنجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أتجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أتجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أنجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أنجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أنجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة التي تبين أنجاه هذه الرياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة فكالآلة الميمة الميالة الميالة الميالة الميشون المياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة ويمنة أو يسرة فكالآلة المي تحركت يمنة أو يسرة فكون المياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة في المياح وتعين الميار والمياح وتعين مهابها، ولكني كلما تحركت يمنة أو يسرة عليه الرياح والمياح والمياء والميال

سمع منى صرير يمل السامع. وإذا اتخذنى ربان السفينة دليلاً للسلوك بفلكه إلى الوجهة المرومة فليس هذا مايهمنى شأنه، ولذلك ترانى أدور كلما حركتنى الرياح، وسواء عندى التفت الربان إلى أم لم يلتفت.

غادر بنطاؤر وبنت أنات بيت العملاقى بعد أن أفاضت عليه النعم. وكانت الشمس في التطفيل وقمة جبل سيناء تتوهج كعلم على رأسه نار أو كأحجار ياقوت تسطع في أكليل ذهب. وكان قرص الشمس كجذوة نار شديدة الاحمرار، إلا أنها كانت مغشاة بسحاب خفيف كالقبس تغشاه طبقة رقيقة من الرماد. ولما افتر ثغر الفجر وبدا عمود الصبح تحرك ركب الأميرة جاعلا وجهته معسكر رعمسيس، وكان (ابوشرابوس) إماماً لها يهديها سواء السبيل في المنعرجات، وكان ابن المحنط بينم سائراً خلف ابنته وردة. فلما قطع الركب المرحلة الاولى والتمس الراحة بالوقوف عندها دعته الأميرة إليها وسألته أن يقص عليها ما استنبطه من التدابير التخليص بنطاؤر، وكيف استطاع الذهاب به إلى شبه جزيرة سيناء، في حين كانت النتة معقودة على نفيه إلى محاجر رحنو فقال:

«انباتنى وردة بالمكان الذى تقرر أن يُنفى إليه هذا البطل الذى تطوع للذود عنا وبسطت لى ضرورة العمل لإنقاده حتى لا يرسل إلى ذلك المنفى، ولكنا لم نوفق لحيلة نقضى بها هذا الوطر. ولم يكن لمثل أن يستنبط حيلة أو يخترع وسيلة، فرب أمر أستحسنه فيكون بذاته قبيحا فأنساق به إلى فعل الشر وأنا لا أريد إلا الخير. وحدث قبل أن تفاوضنى وردة في هذا الشأن أنى كنت أقوم على حراسة بعض المحكوم عليهم بالعمل في معادن (مفكات) وجرت العادة بإنرالهم في السفن من مدرسي مدينة الأموات فرأيتهم قبل نزولهم، وقد علت وجوههم غبرة الحزن

والأسى، وكان منهم من يلزمون السكوت والسكون إلا أن امتقاع الوانهم والمسكاك أسنانهم رعبا وفرعاً وإنصراف أنظارهم إلى الفضاء أوحت إلى ضميرى الاعتقاد بأن أولئك الساكتين الساكنين أولى بالشفقة وأحق بالرعاية من الذين ارتفع صياحهم إلى عنان السماء ورددت جلبتهم أركان الفضاء. وكنت كلما تأملت الفارق بين الفريقين انتابت جسمى قشعريرة التأسى لهؤلاء والحقد على أولئك.

«وكان في الفريق المتمسك بأهداب الصبر والسكينة رجل تبينت حقيقته لأني كثيرا مارأيت حين كان أسرى الأجانب الدين نيطت بي حراستهم يشتغلون ببناء القاعة الكبرى ذات الأعمدة. تأكد لى منه أنه مفتش حراس حمل آمون المقدس، وكنت أعهد فيه الحرص على أداء الواجب، وكان لجأ ليلة إلى الراحة فدخلت الذئاب الهيكل واغتالت الحمل الذي وُجد قلبه بعد في صدر النبي روني. وإذا كان لا غني عن إرضاء الامة وتسكين ثائرتها بمعاقبة الحارس المسمى هوني فقد صدر عليه الحكم بالنفي إلى معادن الذهب وعين بدلا منه رجل أشد يقظة وأكثر حرصا على الحمل المقدس.

«شهدت هونى في معزل عن بقية المحكوم عليهم فدهشت لعزلته لاعتقادى أن له زوجة وأولاداً كان يجب عليهم الحضور لوداعه وتشييعه بعبارات العطف التى تخفف عن القلوب أعباء الحزن فسألته عن سبب إهمال أهله أمره وعدم عنايتهم به، فأجاب أنه ودعهم عند الباب حتى لا يروه مع باقى المحكوم عليهم من المزورين والقاتلين. وكان قد حدث منذ أيام حريق هائل في بيته فالتهم ما به من أثاث ومتاع حتى لم يبق عنده ما يسدون به الرمق، فزاده ذلك كدراً على كدر. وكان في روايته لى حوادث هذه الفاجعة لا يستطيع متابعة الكلام، بل كانت تخنقه العبرات فيصمت.

وحینما أنس منی العطف علیه والرفق به قال بصوت جهوری: إننی ارضی بالنفی إلى معادن الدهب، بل أرضی أن يقطع جسمی إربا، ولكن لا أرضی أن تحتمل روجتی ذل الفقر ویقع أولادی في مخالب الجوع.

«وعلى أثر ذلك خرجت لتوديم ابنتى وردة ممثلا لخاطرى حالة ذلك الرجل وما استولى من اليأس على فؤاده فقلت في نفسى لو كنت غنياً لما توانيت عن إسعافه بما يجعل زوجته وأولاده بعيدين عن الحاجة وذل السؤال، ولكني سابذل قصاري الجهد لتعزيت بما يسرى الهم عن قلبه. ولما التقيت بوردة أبلغتني تبرع الطبيب نبسشت لها بماله وحادثتني ف أمر بنطاؤر ووجوب انقاذه، فأصبحت تجاه أمور ثلاثة تتنازعنى : إسعاف المنكوبين والشكر لنبسشت وإنقاذ بنطاؤر. غير ان هذه الأمور الثلاثة اندمجت فصارت أمرا واحدا اتخذته رائدي ودليلي فيما استخزت الله على اتباعه، فعجلت الأوبة إلى الميناء حيث سلمت هوني مبلغا كبيرا من المال ليحل محل شخص محكوم عليه بالنفي إلى محاجر رحنو. وأطلعته على أنه سيرُسل ف الحقيقة إلى معادن النذهب لا إلى هذه المحاجب، لأنه إذا جازت الحيلة على من حنكتهم التجارب ودلكتهم المحن فإنه لا يجوز على الأطفال والمرضى- أعنى المنكوبين في عقولهم وأبدانهم - غير الحقيقة الواضحة. عرضت عليه المبلغ واصدقته القول فتلقى طلبى منه بالرضاء والقبول قائلا إنه يفضل عذاب السعير على أن يرى أولاده ف ذل الحاجة والسؤال. وبناء على هذه الحيلة التي لم أعالج عناء ف استنباطها إذ جائتني عفوا حضر بنطاؤر إلى السفينة منتحلا اسم هوني، بينما كان هوني الحقيقي يواصل السير صوب الجنوب منتحلا اسم بنطاؤر، ولم يظهر قط سر هذه المعاوضة الاسمية حتى الآن. أما ما وقع بعد من الحوادث فعندكم علمه، وها أنتم أولاء تقصدون إلى الشام التي خبرت أحوالها منذ كنت أذهب بالأسرى منها إلى مصر واقمت خمس سنوات في حراسة الموهار الأكبر أبي بعاكر رئيس الطلائع».

شكرت له بنت أنات هذه الصنيعة وأثنت عليه بأجمل الثناء، فقال نبسشت: لقد كنت في أثناء السفر شديد القلق على بنطاؤر إذ كانت تبدو عليه علامات الألم، ولكن قلبي عاد فاطمأن عليه لما وصلنا إلى الصحراء إذ أخذت تلك العلامات تتبدد شيئاً فشبيًّا. وكان كلما نبزلنا بمكان أو وقفنا عند مبرحلة يشنف سمعي بما ينظمه من شعر وافير الحظ من يسديع المعنى وشريف اللفظ، فقيالت بنيت أنيات: يبالها من مصادفة حسناء فإني ما بلغت من رحلتي إلى الصحراء حتى فارقتني الهموم ونشط جسمي من عقال المتاعب. قال نبسشت لبنطاؤر: أي رحمك الله.شنف مسامعتنا بالقصيدة الغراء التي نظمتهنا في وصف نبات البعيثيران، سأل بنطاؤر الأميرة: أو تعرفين هـذا النبات؟.. إنه ينمـو في الصحاري والفلـوات وها نحن أولاء نراه حولنا وبعيدا عنا.. إن عركه الإنسان بين أصابعه سطم منه شذا عطري يملأ الأنوف. وقد نظمت فيه أبياتاً كما نظمت في غيره على ما تعلمين. فتبسم نبسشت قائلا: نعم! هي الأبيات التي تمجد فيها إلهة واحدة ملكت عنان الجمال وقبضت على صولجان الحسن والدلال. قالت بنت انات: هات ما عندك هات واتحفنا بما نظمته من الأبيات. قال الشاعر: «عثرت بالصحراء على النبات ذي الأوراق الخضراء، التي إذا عركت بالاصابع انتشر شذاها الساطع، مع أنها نبتت من الصخر، في بلد قفر، إن قلبي قد أدمته الكلوم، وساورته الهموم، فلما سرحت النظر في الصحراء، انجلي عن قلبي البوس والعناد، وأدركت كيف يكون نظم الاشعار، حينما انسدل عليها من السكون ستار».

سألت ثيفرت: ماذا تقول؟ الصحراء علمتك قرض الشعر! وهل نسيت ما للعشق

في تعليمك إياه من الأثر الظاهر؟ أجاب بنطاؤر: حمداً وشكراً للاثنين معاً. ولكن لا يسعنى أن أنكر ما للصحارى ومد النظر في الأفاق من حسن التأثير في نفوس العشاق. ألا يضطرنا السأم من تجانس ظروف الحياة وتماثل أحوالها في كل وقت إلى مراجعة النفس في استطلاع أسرارها وكشف مضمرها؟ ألا نحس أنئذ بمشاعرنا وقد امتد عليها رواق السكون وخفقت عليها أعلام الهدوء لا يساورها شيء من العوامل المحيطة بها، الم يكن هذا الاطمئنان مستفزاً للذهن على الايجاد والابتكار حاثاً للروح المنطوية في ذاتها على الانفعال بأقل الموشرات؟ إن الانسان في مدائننا الكبرى كالهبأة الصغيرة بل كالجزء الذي لا يتجزأ إذا قيس بالمجموع، وهو متصل به اتصال اندماج وتلاحم وخاضع لما هو له خاضع، ولكنه متى انفصل عنه ملتجئاً الى الصحراء أصبحت علاقته به منطة العرى مفكوكة الروابط، إذ يكون وقتئذ خالياً من قيود التضامن بينه وذاته، فيها يتحسس أسباب الفرح وكل ما تصبو خليه نفسه من خير. إن العقل ليرى في البعد عن المجموعات البشرية مجالا للفكر لا تحده عقبة ولا يقوم دونه مانع قاطع، لأنه لا ينصرف إلا إلى المستقبل، أما الماضى فيتلاشى تجاه ما تترامي إليه الأمال في آفاق الاستقبال.

قال نبسشت. اصبت! فإن الصحراء خير مجال لتوارد الخواطر والأفكار واحسن مستغل لثمرات الابتكار، بدليل أنى وأنا بمصر كنت أنظر إلى الكثير من الاشياء فيخيل لى أن بينى وبينها حجابا مسدولا أو ضبابا كثيفاً، فلما أن جئت إلى الصحراء انحسر الحجاب وانقشع الضباب. سأل بنطاؤر: أجبنى ما هى تلك الأشياء؟ أجاب نبسشت: ثلاثة أولهما أننا لا نعلم بالحقائق علما أكيداً، وثانيهما أنه إذا كانت النفس تميل إلى الورد مثلا فليس معنى هذا أن الورد يميل إلى النفس، وأما الثالث فسر غامض أحب استبطانه، وإذا ارتبط هذا السر بأحوال الكون فمن ذا الذى

يكلف نفسه مشقة الاهتمام به؟ ثم التفت إلى الحاجب وقال: قلنبين هذا السر معا أيها الحاجب.. أنت أعلم الناس بضروب التحية وماتقتضيه من الطقوس والمراسم.. علمت ذلك ممن يتشرفون بلقاء الأميرة، ولكن أخطر ببالك يوما البحث في تركيب العمود الفقرى للإنسان؟ أجاب الحاجب سائلا: كيف تطالبني بالوقوف على سرتركيب الفقرات وإنما أنا منوط بتحديد وتنسيق ما ينبغي أن يبديه المتشرفون بلقاء الأميرة من ظاهر الإشارات والحركات؟ أن مثلك من يجدر به الوقوف على سرتركيب العمود الفقرى لأنك تواصل ليك بنهارك في استطلاع أسرار الجسم البشرى، ولو أنك هونت على نفسك ولم تعكف عكوفك هذا على الدرس والمذاكرة والبحث والمناظرة لاستطعت أن تنسق شعرك وترتب ثوبك.

وصل ركب الأميرة إلى هبرون -عاصمة أمة الخيتاس-دون أن يلقى بالطريق عائقاً ولا حادثا مكدراً. فلما استقرت بها الأميرة وأمنت على نفسها استاذن منها أبو شرابوس ورجاله في الانصراف فأذنت لهم بعد أن غمرتهم بجزيل انعامها، ثم تحرك الركب إلى الشمال تحف به كوكبة من الفرسان المصريين. وكان بنطاؤر قد تخلف عنه في ذلك المكان مع أبى وردة العارف بأسرار طرق الشام ومنافذها ، ولكنه ما غاب عن الأنظار وانقضى الليل وطلع النهار حتى هطلت الأمطار وأصبح متعذرا اجتياز جبل السامرية. ومع هذا فقد جد الركب في المسير فوصل إلى مدينة ماجدو(۱) فاستقبلته الحامية المصرية بمظاهر الإجلال إكباراً لمقام الأميرة التي ماجدو(۱) فاستقبلته الحامية المصرية بمظاهر الإجلال إكباراً لمقام الأميرة التي ماجدو(۱) فاستقبلته الحامية المصرية بمظاهر الإجلال إكباراً لمقام الأميرة التي المامت بها أياما نالت نيفرت فيها الشفاء من مرض الم بها. أما وردة فكانت تزداد

⁽١) تسمى باللغة المحرية مارطة وهي إحدى مدائن فلسطين ومازال اسمها منقوشا في الأثار المحرية. وكانت مشهورة بمناعة موقعها الحربي قبل أن يعيد بناءها النبي سليمان. وقد أغار عليها ملبوك الأسرة النسالثة عشرة المحرية في القسرن السسادس عشر قبل المسلاد.

كل يوم نحولا وضعفا لما غشيها من الهموم، وشهدت ذلك منها بنت أنات فسألتها عن السبب فلم تجاوب بما يشفى الغليل موارية عنها مكنون سرها، لأنها لم تكن فاهت قط باسم راميرى على مسمع من أخته الأميرة كما لم تكن حدثتها بمسألة الخاتم الذى تركته والدتها استحياء وخوفا من أنها إذا أطلعتها على دخيلة أمرها وأبانت ما هو مبهم من سرها ازدرت بما يربطها وراميرى من عواطف العشق وأنحت باللائمة عليه فيعرض عن حبها وينقض ما توثق بينهما من عهوده ويلقى بها في مهواة من المحن والأحزان لا قرار لها.

ولما صار الركب على مقربة من الحدود أنفذت الأميرة إلى المعسكر الملكى رسولا للاستفهام عن الطرق المأمونة والمسالك التى تؤدى بالسائر فيها إلى قصده في سلام وطمأنينة، فما هى إلا فترة من الزمن حتى عاد ذلك الرسول وبيده رسالة موجزة من الملك رعمسيس إلى بنت أنات يأمرها فيها الا تبرح ماجدو لتوافر أسباب الأمن فيها على الأرواح، بما يحيط بها من الحصون المنيعة ويقوم على حفظها من القوى العسكرية المدربة على القتال. وهذا فضلا عن أنها قاعدة الإجراءات العسكرية للجيش المحارب، ومستودع لوازمه من مؤن وذخيرة، والحاكمة بموقعها الحربى قرب البحر على شمال فلسطين ووسطها. ثم زاد أمره تعليلا بأنه أصبح على وشك محاربة العدو في معركة فاصلة تقضى العادات والتقاليد ألا تحضرها حتى لا يصيبها فيها مكروه.

وبينما كانت بنت أنات في ماجدو تنتظر توارد الرسائل من أبيها تطمئن قلبها بتلاوة ما تحتويه من أنباء الظفر، كان بنطاؤر والجندى والد وردة وكوكبة من الفرسان- نصب حاكم هبرون على قيادتها ذلك الشاعر- يسيرون حثيثا نحو

الشمال. وكانت هذه أول مرة امتطى بنطاؤر فيها صهوة جواد ولكنه استوى على متنه بما خيل للرائى معه انه من الفرسان المدربين الذين قضوا شطرا كبيرا من حياتهم في ركوب الخيل، مع أنه لم يكن تلقى هذا الفن ولا برع فيه إلا منذ يومين فقط على والد وردة. وبلغ من مهارته وبراعته أنه كان يفضل امتطاء الفرس الشموس على السهلة القياد، فما هى إلا دقائق معدودة حتى يكبح جماحها ويكسر من حدتها ويخضعها لإرادته. وكان قد تجرد من ملابسه الكهنوتية ولبس الزرد وتقلد السيف وأرسل اللحية إلى أن مست منه الصدر. وكان والد وردة لا يكف عن النظر إليه والاعجاب بشكله، بل كان كثيرا ما يناجى نفسه بقوله: يخيل لى أن المهار الأوزريسى الذي كثيرا ما جبت معه الأمصار وسلكت القفار قد بعث من بين الموتى متقمصا شخص بنطاؤر. إنى لأراه يضارعه نضرة وجه ونبرة صوت إذا أمر الجند بأمر، ويشبهه في لفتته ومشيته والقبض على زمام جواده وفي العدول عن ركوب المركبات إلى متون الجياد، كلما حالت وعورة الطريق دون سهولة السير فيه.

ولم يكن بين رفاق بنطاؤر من يسكن إليه ويرتاح لمحادثته إلا والد وردة. ولهذا كان يسير في الغالب خلفهم بمفرده ناظرا إلى كل ما يقع تحت بصره ممعنا البحث فيه حتى لا تفوته الاستفادة بعلم ما لم يعلم. ومازالوا مجدين في السير حتى بلغوا إلى جبال لبنان فشهد الوادى الدى كثيرا ما قرأ عنه في الكتب وسمع من الناس وصف محاسنه، فسره منظره وأعجبه على الأخص خرير الماء المنحدر على صخوره، وإنما ساءه أن يرى القرى وقد عبثت بها يد الخراب والتهمتها النار من جراء الحرب وأن تصبح ضواحيها موحشة معطلة من الأنيس لانتظام سكانها الفلاحين في سلك الجيش المحارب. وقد علم أن الأعداء مروا بهذه الجهة واغتصبوا من الفلاحين بقرهم ومن الرعاة أغناهم. وكان رجل يعالج في هذه الساعة بعض

الكروم، فلما سمع وقع حوافر الخيل وثب وثبة اختفى بها عن الأنظار دون أن يتلفت إلى المقبلين عليه. وكانت الأرض محروثة ومحضرة للزرع وآلات الحراشة ملقاة على حواشيها، وليس فيها للسبب المذكور من يتمم الحراثة بالبذار، فانشأ يقارن بين هذه الأودية النضيرة ذات الخيرات الوفيرة وبين رمال ليبية وصخور سيناء وسهول مصرائم، فلم يتمالك أن صاح: ما أجمل هذه البقاع!.. إن الآلهة فيها أراف بالإنسان منهم به في بلادنا. ولقد أصاب أساتدتنا حين بثوا فينا بغض الأجنبى ومقت الكافرين وخشية الايغال فيما يلى النيل، حتى لا يتجاوز شعب بلاده التي نشأ فيها إلى بلاد غيره فيطمح إلى منازعته على الاختصاص بخيراتها.

وكان الشاعر في أثناء ذلك يدنو من معسكر الملك، فلما صار على مقربة منه تنازعه عاملان: ذكرى بنت أنات ورهبة رعمسيس فيما سيدور بينهما من المحادثات. إلا انه كان يطمئن خاطره بقوة الاعتماد على النفس وحسن الظن في العاقبة فيتغلب بهذا الاطمئنان على ما عراه من الأحرزان ولكنه كان يعود فيتهم نفسه بالتطرف في حسن الظن والتهور في الاعتماد على النفس فيغشى قلبه الحزن ويعترى خاطره الاضطراب ويستسلم لهذه العوامل حتى إذا أوشك أن يياس وقى نفسه شر الياس بالجلد وعدم المبالاة وأزاح بهما عن قلبه غشاء الحزن ووطن نفسه على الثبات والإقدام.

وتذكر بنطاؤر – وهو في متنازع بين هذه العوالم – ما كان من حكم أميني عليه وهو واقف وراء أقرائه في تواضع واستحياء وانصراف عن الناس، فتبسم وأخذ يسائل نفسه – أهو الآن كما كان يصفه أستاذه أميني في مصر، وإذا كان هناك تباين فهل سببه اختلاف المكان وهل تؤثر الأمكنة في النفوس والطباع؟ وأخذ بعد ذلك

يمثل لنفسه حالته فقال إنه لم يكن إلا كاهناً لفظته الهياكل لفظ النواة وأخرجه الكهان عن أفقهم وطرده الدين من حظيرته القدسية.. دع أنه ليس إلا ابن بستانى وضيع القدر منحط الكرامة.. ولكن عاطفة الشمم وعلو الهمة تغلبت على هذه الضعة بالأمل في حب بنت أنات فقال مناجيا نفسه: إن حبه لها متمم لما ينقصه من الكمالات وساتر لما مُنى به من العيوب وانه أصبح صاحب الحق في التطلع إليها بطلب الاقتران بها. ثم راجع نفسه فقال: ولكن ما العمل إذا قابل رعمسيس بالرفض هذا الطلب وانقلبت من عنده شر منقلب. ووقف ثابتاً في مكانه كمن ينظر سيف النقمة الذي يود الملك ضرب عنقه به معلقاً على رأسه ثم قال: لا أحد على وجه الأرض مهما يكن له من الجبروت والسلطان ينتزع من يده قلب بنت أنات. وهو أنفس ما أغدقته الآلهة عليه من النعم والهبات.

الفصل الثاني عشر

بداية الحوادث.. وفاتحة الكوارث

كان سكان الجبال يترصدون في الغابات والآجام لنبطاؤر وصحبه حتى إذا مروا بهم باغتوهم بالحملة عليهم والتنكيل بهم، فيهب هؤلاء للذود عن أنفسهم وقد ظلوا بين اطمئنان وانبزعاج وبين سلم وحبرب حتى بلغوا إلى بقعة ليس بينها والمعسكر سوى مسيرة يومين للمجدّ، فإذا هم يرون فيها جموعا كثيفة وأفواجا حشيدة من العدو خرجوا من مكامنهم. وكان بربروس والد وردة قد أحس الخطر الداهيم فتقدم ليستطلع الخبر ثم عياد كاسف البيال منزعج الضمير ميروع الفؤاد فأخبر بنطاؤر بأن الخيتاس ملأوا الأرض وسدوا بجموعهم الأفق وراء الغابة، وأن ف هذا الدلالة الأكيدة على تقهقر جيش رعمسيس ، وإلا فمن أين للعدو أن يقتحم الخطر بالزحف على مؤخرته طمعاً في قطع خط الرجعة عليه والفتك به؟ ومما ضاعف الخوف والأسى أن أصحابنا التقوا في أصيل اليوم الماضي بشردمة من الجنود المصرية خرجت للاستطلاع فأخبرت بأن الملك مازال موجودا بمعسكره، وأنه على أهبة مقاتلة الأعداء في واقعة يكون فيها فصل الخطاب، وأن المرجح أن الحرب لم تُضرم نارها بعد لخلق الغابات من أثر الجبناء اللاجئين إلى الفرار. فلما لم يهتد بنطاؤر إلى الحقيقة الثابتة تجاه تناقض الأخبار دنا منه والد وردة وقال له: إذا استطعنا أن نتقى شر مداهمة العدو ساعتين فقيد نجونا. وأرجو ألا يهتدوا إلينا إذا سلكنا الطريق الموصل إلى سهل قادش، وهو طريق وقفت على سره وتبنت مسالكه كالمهار السابق وخاصة رجاله. وأذكر أن عند منتصف كهفاً طالما لجأنا إليه واختفينا أياماً ولياليها به دون أن يقف الخيتاس لنا على آثر، حتى لقد رسخ ف عقائدهم أن الموهار ظفر بخاصية الاختفاء عن الأبصار في أية ساعة من الليل أو النهار، مع أنه ما كان لنا أن نلجأ إلا إلى ذلك الكهف الذي ساقتنا إليه المصادفة . فإذا كنت لا تخشى على نفسك خطر الصعود إلى قمم الجبال ولا تستصعب مشاق السير ف الوهاد والنجاد فترجل عن جوادك وابتغى بلا كلام وأنا كفيل بوصولك إلى معسكر رعمسيس في أمن وسلام. عهد بنطاؤر قيادة الشرذمة عندئذ إلى بربروس فسار هذا المقدام على رأسها صاعداً تارة ومنحدراً أخرى ومباراً من جهة اليمين طورا وجهة الشمال آخر حتى وصل إلى شعب ضيق بين جبلين تنحدر منهما مياه يبدو زبدها فى ثنايا الصخور بشدة الاصطدام فنزل والد وردة عن متن جواده فاقتدى به بنطاؤر والجند. ولما عبرت الجياد الماء محا يربروس أثر الأقدام والحوافر في الرمال وأفرغ في أداء هذه المهمة كل حدق، ثم صعد مع صحب في المسيل وعانى صنوف المشاق ف هذا السبيل لمقاومتهم اتجاه التيار. وما برحوا كذلك حتى وصلوا إلى بقعة اشتبكت فيها أغصان الورد بأغصان الغار، فكان بربروس يفرق بينها لاقتصاص الأثر ف الطريق، وبندل في ذلك جهده حتى اهتدى إليه. وكان بنطاؤر ورجاله والدواب قد نال منهم التعب فلم يصلوا إليه إلا بشق الأنفس. وظلوا يحثون السير حتى اجتازوا غابة مترامية الأطراف إلى أبعد مدى ثم انحدروا من شعاب ضيقة إلى نجاد بعيدة القاع وصعدوا منها ف صخور كاسنة الرماح في ارتفاع الذري، ثم هبطوا غدرانا فاضت مياهها لانسياب مياه الأمطار فيها فركبوا فيها متن الأخطار والمعاطب. وقد اكفهر وجه السماء في هذه الأثناء فهطل المطر غيزيراً، ثم أظلم الأفق وماهي إلا هنيهة حتى أرخى الليل سداله وشد وشد النهار رحاله.

فقال بربروس: هلموا بنا سريعاً وتماسكوا بعضكم ببعض، فبالاتصال

والتماسك تكون النجاة، وبالجلد والثبات نصون الحياة. وما أتم هذه الكلمات حتى كبا جواد فعانى والد وردة وأعوانه النصب في إقالته من عثرته وإشالته من كبوته، وكان الليل اسود فاحما والمطر وابلا، فأخذ بربروس يتحسس بيديه الطريق ورجال الشرذمة حوله تتنازعهم عوامل اليأس والرجاء، وكانوا إلى اليأس أميل منهم إلى الرجاء. ثم وقف فجأة وجذب بنطاؤر إليه وقال: لعل المغارة قدريبة منا.. ادن منى ليتأكد لك صدق قولى، ولكنى أخاف أن نلتقى فيها ببعض خدم بعاكر الذى اتخدها والده في حياته مستودعاً للمؤن والذخيرة.. أترى شبحى في هذا الظلام الحالك.. أمسك بنطاقي وحدب ظهرك ولا تقف إلا بأمرى، ثم تقلد سلاحك إذ لا استبعد أن نلتقى في طريقنا بجماعة من الخيتاس أو اللصوص فلا نوخذ على غرة منا. أما أصحابنا فلا تفكر في أمرهم فسندعوهم عما قليل. فسار بنطاؤر والدليل متراكنين في نفق ينتهي إلى جب عميق ذي حافة من الحجر الصلد المشرع الأطراف متراكنين في نفق ينتهي إلى جب عميق ذي حافة من الحجر الصلد المشرع الأطراف كاسنة الرماح. فلما بلغا إليه قال بربروس: خذ حذرك ومل إلى يسارك لأن الجب إلى يمينك.. ماذا .. إنني أشم رائحة دخان.. عليك بمقبض سيفك لأن في المغارة رجالا. انتظر هنا حتى أدعو رجالنا.

قال بربروس هذا وانقلب راجعا وظل بنطاؤر ينصت إلى الجهة التى لاح له أن الدخان مندفع منها بتيار الريح، ثم أمعن النظر فلمح نوراً وسمع أنينا وتبادل سباب، فدنا من مصدر الصوت ومنبعث الضوء متكئا بيسراه على الصخور وقابضا بيمناه على السيف وناظرا إلى الضوء. وكان والد وردة قد عاد ف هذه الأثناء فسار الاثنان حتى بلغا إلى باب المغارة الذي كانت أشعة النور تنبعث من شقوقه، فاستند إليه وقال بنطاؤر للجندى: إن القوم من المصريين وهاأنذا اسمع حديثهم، قال والد وردة: فأل حسن ولعل الموجودين هنا بعاكر وفريق من أعوانه،

ولاريب أننا إذا طرقنا الباب أربع طرقات شديدة وثلاثا خفيفة فتحوه لنا لأن هذه الطرقات رمز التعارف بين الذين خارج المغارة والذين داخلها، وهل تفهم ما يقولون؟ قال بنطاؤر: أسمع صوت رجل يلتمس إطلاق سراحه وفك قيوده وآخر يظهر من سياق حديثه عن الأول أنه خائن غادر، وطرق أذنى بعد ذلك صوت خشن يرفض هذا الملتمس ويطلب من صاحبه أن يقيم على طاعة مولاه. فلما سمع صاحب الالتماس هذا الجواب شكا وبكى واستحلف رفيقه بروح والده أن يطلقه من قيوده. ويلوح لى من شكله وقوله أن اليأس قد استحوذ عليه.. إن قلبى ليرفق بحال هذا الرجل، فأطرق الباب يابربروس فقد حان وقت إنقاذه من هذا العذاب الأليم.. أطرق! اطرق! لا تخف! فأطاع بربروس الأمر وطرق سبع طرقات أربعا شديدة وثلاثا اطرق! لا تخف! فأطاع بربروس الأمر وطرق سبع طرقات أربعا شديدة وثلاثا حلصل بصوته سائلا: أأنت بعاكر. قال بربروس: كلا ،بل أنا (رشتا) ألا تعرفنى يا (نوبى). فلما سمعه الرجل وهو أحد عبيد بعاكر الأحباش تراجع إلى الخلف وقال: من جاء بك إلى هنا وأنت على قيد الحياة.. قال رشتا أو بربروس وأشار إلى

فتقدم بنطاؤر نحو الحبشى ووقف إزاءه فى موقف تجلت فيه هيبته وبانت طلعته بأشعة الضوء المنبعث من نار مشتعلة بالمغارة، فحدق فيه نوبى النظر ثم سقط على الأرض كالمصروع وأخذ يهر كالكلب يؤدبه صاحبه ويتمرغ كمن أصابه مس ويقول: هذا خيال الموهار! هذه روحه قد تجلت لى فى شبح! لعله أراد ذلك! لعله أراد ذلك! فلما رأى بنطاؤر منه هذه الفعال وسمع هذه الأقوال أخذه العجب، وزاده عجباً أن رأى رجلا مكبلا يحبو متعثراً وينظر إليه مسترحماً ويقول: أنقذنى الهلاك يا روح الموهار يبا أبت! أنقذنى إحسانا منك ورحمة! قال بنطاؤر بعد أن تأمل فيه:

لست روحا لأحد الموتى حلت ف جسد ليكون بها كما كان بين الكائنات.. عجباً! إنى أعرفك ! الست حورس أخا بعاكر؟ ألم تتلق العلوم معى ف بيت سيتى؟..

ار تعدت فيرائص الأسير المنفد بالجديد وشخص في بنطاؤر وقال: كن كيف شئت فانت أشبه الناس بوالدي وصوتك كصوته، فحق عليك إذن أن تحل قيدي و تطلق سراحي. أنقذني! أنقذني! أنقذني من هذا الذل الشائن والعنذاب المهن! أنقذني! فقد أبرم الخائنون الحيل للفتك برعمسيس وما نحن جميعاً إلا حربه وأنصاره. فما قرعت هــده الألفاظ سمع بنطاؤر حتى جرد سيفه ففـرى به الجلـود التي شُدّ بها و ثاق الأسير وقك الأغلال، فوقف البرجل وصاح صيحة السرور بالخلاص وشكر للآلهة اسعافهم وإمدادهم وأثنى على مخلصه ثم قال: إن تكن محباً لمص صادق الولاء للملك فاتبعني، فقد أن أوان كشف المكيدة المدسرة للملك والضرب على أيدى مدسريها بما يكون عبرة لهم وأمثولة للأعقاب. قال بريسروس: أن الليل الآن حالك الظلمة والطريق الموصل إلى الموادي محفوف بالأخطار، قال السرجل: الاستهانة بالأهوال واحتقار المساعب واجبان الآن، فاقتفوا إذن أثرى ولو لقينا الحتوف. ثم استولى على سيف الشاعر وخرج. أيقن الحبشى عندئذ أن الشاعر لم يكن روح الموهار تقمصت في جسد أحد الأبرار، وتذكير أنه الكاهن الذي كان يدافع عن وردة وجدها دفاع الأبطال فحاول الفرار مقتفيا أثر حورس شقيق بعاكر فجذبه حورس من ناصيته، فصباح لشدة الألم وقيال: إذا طلبت لنفسك النجاة وتركتني وحيدا هنا فلا خلاص لي من بعاكر. قدفعه حورس إلى باطن المغارة واغلىق عليه الباب وقال: انتظر ف هذا الكان فليس لمثلك أمان.

سار بنطاؤر وحورس وبربروس حتى بلغوا إلى الصخرة وانسابوا في النفق

وسارورا فيه حبواً تارة وصعوداً وهبوطا تارة أخرى. ومازالوا كذلك حتى نفذوا إلى الجهة الأخرى. وكان البرد قارساً فأثر زمهريره في وجوههم كما لو كانت تلهبها السياط. فقال حورس: أرى السحب تنقشع انقشاعا بدل على قرب انقضاء العاصفة فامتط يا بنطاؤر صهوة جوادك ولا تُضع دقيقة من وقتك. فأمر الشاعر والد وردة بمرافقة الجند فاعترض هذا بقوله: إنهم ومطاياهم قد أنهكهم التعب فضلا عن أن السير في الليل الدامس يعرض السارى إلى الأخطار والمخاوف ولا يقطع به إلا شوطا قصيرا من البيداء، والصواب عندى أن ندع الجياد تأخذ نصيبها من الراحة وتستجمع من قوتها ما تستعين به على استئناف السير والجد فيه. ولا يخفى أن القمر سيطلع علينا بعد ساعة ويملأ الآفاق نورا. فإذا استرشدنا به ف سيرنا أمنا العثار وتجنبنا الأخطار وأطلقنا الأعنة للجياد. قال حورس: الصواب ما رأيت أيها الجندى، ثم أخذ بيده ذاهباً إلى مغارة أخرى احتوت كثيرا من الشعير والبلح وقرب النبيذ العتيق، فبعد أن أخذ بربروس من ذلك ما طاب له ولجنده أشعل وإياهم النار ثم تولوا العناية بالخيل ثم بتسخين الماء بينما كان حورس وبنطاؤر يسيران سبهاللا، وقد بدت عليهما علامات الجزع. وكان بنطاؤر يسأل حورس: أكنت موثوق الأكتاف قبل وصولنا بزمن طويل؟ أجاب: فعل بي بعاكر أخي ما رأيت منذ أمس. ولقد نجا مما كان لابد أن يحل به من النكال لولا تعجيله بالانصراف، ولعله يقصد إلى الخيتاس لينضم إليهم قبل وصولنا إلى معسكر الملك فتحسر الفرصة ونضيع النهزة. قال بنطاؤر: يؤخذ من قولك أن بعاكر يدبر الكائد للملك. قال حورس: نعم.. فقد دبر له حيلة تخجل الوقح لشناعتها وتعافها النفس لبشاعتها. فدنا بنطاؤر من حورس وكان اعتمد رأسه بكفيه وساله: ثق بصداقتي واعتمد على أمانتي وقل لى كيف أصبح شقيقك عدوًا لك. أجاب: بعاكر هو أخي الأكبر، فبعد أن تخرجت من بيت سيتى بـزمن تـوفى والـدى وكان أخـر كـلامـه لى وصيته إيـاى بالامتثال لأمره واعتبارى إياه رئيساً للأسرة من بعده، غير أني أنست من هذا الأخ البكر - بل الأب الجديد- ميلا إلى القسوة واستبداداً في الرأى وشدة في المعاملة، فغالبت ضميرى في احتمال تلك الرذائل منه وأطعت أوامره احتراماً لإرادة أبي واتماماً لمقاصده الشريفة ، ولبثت هكذا حولين كاملين عدت من بعدهما إلى طيبة وفيها تزوجت ورُزقت أطفالا لايزالو في حضانة أمهم، عند والدتى . وقد مرّ بي إلى الآن ستة عشر هلالا وأنا ببلاد الشام وأجوب الصحراء وأفرى مع بعاكر القفار. وكان مازال على سابق عهده من جفاء الطبع وغلظة الكبد وحب الرياسة، فقابلته بشهامة الرجال وهمة الأبطال لأننى أصبحت بعد الزواج غيرى قبله، إذ تعلمت به كيف أصون كرامتي واحتفظ بمركزي وأعمل لتعزيز جانبي. واتفق خلال ذلك أن سافر أخى إلى مصر ثم عاد منها منذ ثمانية اسابيع، ضاربا بأوق سهم في سوء الخلق وخشونة الطبع. وقد قدم للعتبات الملكية جملة تقارير وقدمت أنا غيرها فحازت تقاريري من لدن الملك الرضى والاستحسان فنفرت في قلبه قروح الحسد فعاد إلى مناقشتي ومخاصمتي ومعاملتي بصنوف التعذيب والأذي، فتندرعت بالصبر.. أه ولكنى لا أود أن أبوح بما صبه على من ألوان العذاب، فإنه ليس مما يحيط بوصف اللسان. ومع أنه وهو في مصر قد وقعت له حوادث خطيرة الشأن فأنه لا يبوح لأحد بسرها جرياً على عادته في كتمان أحواله، سارة كانت أم مكدرة. ومع هذا فقد استنتجت من كلمات فاه بها لاحد الأجانب أنه حاقد على مينا وناقم على الملك فأنبهت إلى مواقع الرزلل ومواطن الخطر فيما يروم أن يسلكه من هذا الطريق، ثم لم أكرر عليه التنبيه لما ألفته من غضبه وسرعة انتقامه. وإذ كانت الهمم في المعسكر منصرفة منذ أيام إلى إعداد المعدات لواقعة يكون بها فصل الخطاب بين

المصريين والخيتاس، فقد كلفني الملك بمهمة خطيرة وهي تحرير تقرير ببيان الحالة ف مواقع العدو فبادرت بالاستطلاع وبثثت العيون والأرصاد حتى إذا توافرت عندى الأخبار حررت بها ف صبيحة أمس التقرير المطلوب وما كدت أشرف على ختامه حتى أقبل بعاكر نحوى وطلب منى أن أسلمه إياه قائلا: إنه هو الذي أخذ على عهدته أن يقدمه إلى الملك فرفضت معتذراً بأن الملك هو الذي تفضل فعهد إلى أداء هذا العمل وأنه لا يليق أن يكون تقديمه على يد غير يدى، فاحتدم غيظاً واتهمني بأني اغتنمت فرصة غيابه فعملت بحيلتي للتقرب من الملك حتى فرت برضائه دونه، ولهذا كلفني بتحرير التقرير مع أنه كان ينبغي أن يعهد إليه هذا العمل. ثم حتم عليّ بعد أن أقسم باسم والدنا الطاعة لأمره وعدم معارضتي له في فعله وخرج متخبطا كالمجنون. وبينما كان الخدم يسرجون الخيل رأيت منهم عبداً أسود وضع على متن جواد بعض المتاع وأشياء أخر منها ملفات من الورق فهرولت نحوه ظنا منى أنها التقرير الذي حررته.. ولكن ماذا وجدت؟ وجدت تقريراً ملفقا يقلم بعاكر قرأت فيه أن الوادي الأكبر المؤدي إلى نهر العاصى (الأوزنت) في الشمال الشرقى من بلدة قادش لا أثير فيه للعدور وإنه ممهيد بسهل على المركبات سلبوكه، مع أنبي في أثناء الاستطلاع رأيت ذلك الوادي غاصاً بالأعداء ودونت هذا الخبر في تقريس الذي اغتصبه أخى منى وقرأت أموراً أخر إذا اعتقد الملك بصحتها وأخذ بها كأنها قضية مسلمة كانت له كالشباك المدود أو الفخ المنصوب. فلما أيقنت المكيدة بحثت في كنانـة بعاكر فرأيت بها سهاماً كتب عليها «فليهلك مينـا» ثم رأيت ملفا صغيراً من ورق البردي ففتحته، فجميد دمي في عروقي حين قرأت في عنوانه ما يأتي «إلى ملك الختياس.. إلى تبتور رئيس ضياطه». وكان هذا الملف والملف الأول في يدى حين أقبل بعاكر، فلم أتمالك حينما أبصرت به أن قلت: ويلك من خائن أثيم!

فلم يعر لهذا القول أذنا بل ألقى حول عنقى حب لا بطرفه أخية وهو يتخذه لضبط الخيل الجامحة في المرعى فضغطت الآخية على رقبتى وكتمت أنفاسى حتى كدت اختنق ثم أرخى الحبل وجذبنى إليه من ناصيتى وشرع يشد وثاقى بمساعدة عبده الاسود. وحملنى هذا العبد إلى داخل المغارة ووقف على حراستى، بينما كان بعاكر يرخى العنان لجياده قاصداً معسكر العدو. هذه خلاصة ما أتفق لى مع هذا الخائن، ومنها ترى أن لى حقا في طلب التعجيل بالسفر، وها قد تلالات الكواكب وبدأ القمر يعلو على الأفق.

قال بنطاؤر بصوت جهورى: هلموا إلى الرحيل وأحضروا ثلاثة من كرام الخيل لحورس وبربروس ولى، ولا يرافقنا أحد منكم بل لابد لكم من البقاء هنا حتى نعود. وكان القمر يتخلل السحب فاستوى الثلاثة على جيادهم وانطلقوا مسرعين فلما وصلوا بعد ساعة إلى السهل عادت بهم الجياد قاصدة بحيرة قادش التى كانت تبرق ف الافق كمراة من الصلب مصقولة تنعكس على سطحها أشعة الشمس المشرقة، ولم يمض زمن حتى بلغوا الضفة الغريبة من تلك البحيرة، وكانت أرضها جرداء لا نبت بها فلمحوا من بعيد غبارا متصاعدا كان ينجلى بين أن وأخر عن أشباح متلاحمة ورماح متشابكة وسيوف متشاجرة، فأكب حورس بنفسه على جيد جواده باكيا مصعدا الزفرات قائلا: الواقعة! الواقعة! قال بنطاؤر: نحن لم نخسرها. ثم أطلق لجواده العنان وتبعه رفيقاه فسقط جواد رشتا والد وردة من تحته لكثرة الإعياء والإجهاد وتلاه جواد حورس الذى قال: ربما جاءت السلامة من ناحية الجناح الأيسر.. إننى عالم باسرار المكان فلابد من الوصول إليه ركضا على الاقدام. الما أنت يا بنطاؤر فذهابك إلى الملك ميسور إذا سرت على ضفة النهر قرب الجسر الما تكون إلا

من الوادى المجاور للنهر على مسافة ألف خطوة من الشمال، فأنطلق إذن واجتهد أن تقابل رعمسيس لتطلعه على جلية الأمر. وإذا سألك عن كلمة السر فقل (بنت أنات) وهو اسم كريمته العزيزة.. عجل بالذهاب واطلب لقاءه وإلا دهمه الألوف من الأعداء أما أنا فسأعمل للانضمام إلى الجناح الأيسر والحملة على مؤخرة العدو. فأطلق بنطاؤر العنان لجواده ولكنه لم يلبث أن أجهده التعب وسقط من تحته فعدا على قدميه عدوا سريعا وجرى كهبوب الريح مكررا لفظتى (بنت أنات). وكان كلما طرق هذا الاسم مسمعه تجددت فيه قوة تعاونه على احتمال مشاق الركض وظل كذلك حتى التقيى بأحد فرسان العدو فصرعه بطعنة رمح، ثم استوى على ظهر جواده مكانه، وأرخى له العنان مندفعاً إلى ميدان القتال، بهمة من يطمح إلى الاقتران بغادة كريمة من الحسان.

الفصل الثالث عشر ليلة تقلد السلاح.. والاستعداد للكفاح

كانت ليلة المعركة من الليالى المشهودة في معسكر الملك، إذ كنت ترى الجنود في حركة دائمة، وهمتهم في إعداد معدات القتال قائمة، وعيونهم للتبكير قبل بزوغ الشمس غير نائمة، عملا بالإرادة الملكية وتحقيقاً للمقاصد الوطنية. وكانت تبدو على وجه كل جندى أمارات الشوق إلى النزال لإحراز فخر الانتصار والعودة من حومة الوغى مكللا بالغار. وكان بعاكر قدّم لمولاه الملك تقريره عن مواقع العدو، فعقد المجلس الحربى للنظر فيها، فأقر على أن تكون خطة الهجوم كما يأتى: تزحف فرقة (رع) جنوباً حتى تبلغ إلى ما يلى بحيرة (شباطوم) كى تفاجىء جناح العدو وتنكل به. وتسير فرقة (سب) المؤلفة من جنود الوجه البحرى في القلب من ناحية (أنام). ويرخف الملك بمركباته وصفوة الأبطال من جنده في الوادى الذي أشار بعاكر إليه في تقريره حتى يصل إلى نهر (أوزنت) فيعبره خوضا بجنوده ثم يبرحه ليستولى على قلعة قادش. أما فرقة أمون في الجناح الآخر فتسير مع الجنود الحبشان في طريق ذكر الموهار أنه سهل وهو لم يكن كذلك في الحقيقة وتقرر أن تتقى فرقة (فتاح) على أهبة نجدة الجناح الأيسر وإمداده عند الحاجة.

لم تكتحل جفون الجند بنوم، بل قضوا ليلهم في إعداد معدات الكفاح. وكانت ثلة من الجنود المدججين بالسلاح يحرسون أبواب المعسكر وفي يد كل منهم درقة مستطيلة وسيف قصير عريض محدد الطرف، وعلى مقربة منهم نيران مشتعلة ينبعث منها ضوء أحمر اللون. وكان الجنود الآخرون مجتمعين داخل المعسكر على

هيئة حلقات لتعاطى النبيذ أو إنضاج اللصوم أو لعب الميسر على الغنائم المأمول أخذها، وكثيراً ما أفضت هذه اللعبة المسماة (مورا) باللاعبين إلى أخذهم بتلابيب بعضهم البعض. وكان يشتغل الحدادون في جوارهم بوضع الحدوات في حوافر الخيل، والسنانون بإرهاف الأسلحة لتكون بتّارة لرقاب الاعداء، وخدم الضباط بتهيئة المركبات وحمل أجزائها على الحمير لنقلها في مضائق الجبال ومنعرجات الصخور والأوعار. وكان الكهان شرقي المعسكر في أشغال شتى حول ظلة نصبوها هنالك، إذ كان فريق منهم يترنمون بالأناشيد الدينية والفريق الآخر يقدمون القرابين ويباركون في الضباط وعليهم. وكان يصم الآذان في غضون ذلك صراخ اللاعبين وسباب السكاري وصهيل الخيل ونهيق الحمير، ويحول دون الوقوف على معاني أغاني المنشدين، غير أن هذه الجلبة كانت لا تلبث أن تتصول إلى سكون عام فيحل محلها— بين حين وآخر— زئير الأسود المستأنسة التي ستحف بمركبة الملك في معمعة القتال حتى لا يجسر على الدنو منها إلا من حقت عليهم كلمة الهلاك. وقد تعمد المكلفون بخدمتها عدم تقديم الغذاء لها منذ اليوم الماضي ليستفزها السغب إلى الثورة والغضب ويزداد منها على الأعداء العطب.

وكانت صدواوين الملك مضروبة وسط المعسكر، تحيط بها خيام الحراس والضباط أصحاب المركبات. أما الجيوش التى حُشدت من غير المصريين فكانت مصطفة خطوطا متوازية يرأس رجالها جنود من المصريين، فكنت ترى الحبشان بشعورهم المتجعدة وهناك أبناء الرمال الذين تواردوا من الصحراء، يلفتون الأنظار بقوامهم المعتدل ويميدون يمنة ويسرة راقصين كعاداتهم عند نشوب الحرب ويخطرون بسيوفهم ورماحهم، وعلى مقربة منهم الجنود الصقليون صفر الدوجوه بخوذاتهم المعدنية وسيوفهم الكبيرة والليبيون بالوانهم الواضحة

وأذرعتهم الموشومة ورؤوسهم المزينة بريش النعام، والعرب سمر الوجوه بلحاهم الجميلة المحددة الأطراف وقد وقفوا إلى جانب جيادهم يسانونها بمس جيدها لاهجين بالأدعية للكواكب أن تمدهم بالانتصار وتتوجهم بتاج العز والفخار، إلى غير هؤلاء وأولئك من القبائل التي لا حصر لأسمائها، وقد تقلدوا جميعا السيوف وملأوا كناناتهم بالسهام ليرشقوا بها الأعداء اللئام ويوردوهم موارد الحتوف. ويرأسهم على اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم وتنوع ملابسهم الملك رعمسيس، فكأنما هو سائق جياد يسوسها بعنان واحد.

وكان بوسط الصواوين الملكية هيكل صغير غير سميك الجدران رُفعت فيه تماثيل آلهة طيبة وصور أجداد الملك. وكان دخان البخور يصعد منه إلى طبقات الجوّ فتبدده الرياح كما تبدد السحب الكثيفة وتنشر رائحته الساطعة في أركان الفضاء. وكان الكهان يقدمون فيه القرابين لآمون رب الأرباب، و (نيشب) إلهة الجنوب التي بيدها الفوز تؤتيه من تشاء، و(منث) إله الحرب.

وكان إلى جانب الصيوان المعد لنوم الملك المكان الخاص بحارس الأسود، وأقيمت تجاه صيوان عقد الجلسات أعلام كثيرة. وكان السكون بهذه الناحية من المعسكر سائدا بخلاف في النواحي الأخرى منه حيث كانت جلبة الجند وغيرهم ولاسيما في الخيام المعدة لادخار المأكولات والأنبذة وتحضير الأطعمة ترتفع إلى عنان السماء. وكان بين هذه الخيام خيمة منصوبة على مستطيل كبير من الأرض مدت فيه الموائد وعُلقت بداخلها وخارجها مصابيح الزجاج الملون ووقف حولها الجنود الصقليون والليبيون والمصريون وقد شهروا السيوف، يرون ما يمر أمامهم من الحوادث دون أن بيدوا إشارة أو ينبسوا بكلمة ويقفون أنظارهم على الأواني

الذهبية يتصاعد منها بخار الطعام والقنانى البلورية تشبه العقيق لونا وتلالؤاً بما شملته من الشمول، ويطوف بها حول المائدة الملكية ولدان من أبناء الاشراف والاسر الكريمة في الهيئة المصرية. وكان هذا الصيوان موضوعا بحيث يستطيع الخدم عند الانتقال والارتحال أن يفكوا أجزاءه في وقت قصير، ثم يركبونها كذلك. وكانت جدرانه قطعا من قماش لين كثيف لا ينفذ منه الماء نسج بمدينة منفيس وطلته بالالوان الجميلة والنقوش العجيبة في بلده طانيس أيدى أمهر العمال الفينيقيين. وكان في أجزائه جزء نسجه عمال (صائيس) ورسموا فيه بأسلاك الفضة صورة نسر الانتصار الذي يمثل الإلهة نيشب مكررة مائة مرة. أما الأعمدة فكانت من خشب شجرة الأرز المرصع بالذهب الخالص والنضار المصفى تمسكها أطناب فتلت بخيوط الحرير وأسلاك الفضة.

مُدت بداخل هذا الصيوان أربع موائد جلس إليها مائة مدعو وقد خُصص ثلاث منها لقواد الجيش ورؤساء الدين وأكابر الكهان والمستشارين، والرابعة للأمراء من الأسرة المالكة. إلا أن رعمسيس لم يكن يجلس بينهم إذ جلس إلى مائدته الخاصة التى مُدت في مكان مرتفع يصعد إليه بدرج مفروشة بجلود النمور والفهود ليشرف منه في أثناء الطعام على جميع الأكلين فتزداد هيبته وشوكته استقرراً في نفوسهم.

وكان رعمسيس جميل الصورة متين الأركان مرتفع القامة معتدل القوام مرسل اللحية إلى الصدر مكلل الهامة بأكليل الوجهين القبلي والبحرى، في عنقه عقد عريض سُلكت فيه الأحجار الكريمة، وعلى كتف وشاح ساتر لبعض جسمه، أما الذراعان فكانتا تكاد تخفيهما دمالج الذهب النقى لكثرتها. وكانت أعضاؤه المتيئة وعضلاته البارزة وبشرته الصقيلة اللامعة النحاسية اللون تنم عن حقيقة نفسه

وأنه خُلق للنهى والأمر وللحرب والفوز. وكان في مجلسه الذي وصفناه يرمق أبناءه بعين الاغتباط والفخر ويحوطهم بمظاهر العطف والرفق. إلا أنه كان مع ذلك أشبه بالليث، مهما يخلد إلى السكون ويلتزم الراحة تصحبه القوة والشوكة والقدرة على قهر المصاعب. ولئن قطعت يده الخبز في لين ورفق فإنها سرعان ما يشتد وقعها ويقسو ضربها إذا أمسكت بمقبض السيف وأطارت به المئات من هامات الأعداء.

كانت أحوال هذا الرجل العظيم وتصرفاته فعلا وقولا تشف عن أخلاق فاضلة وصفات تنطق بعبقريته وتسمو به على النظراء. ومع ما خصه الله من هذه الفضائل التي قلما اجتمعت في أحد إلا أن كان نادرة زمانه ونسيج وحده، فإن ناظره أو محدثه كان لا يرى منه إلا الدعة والدماثة والرفق في سمت وهمة وعزة، ولا يلبث أن يأنس من باسمة ثغره ما يملأ بالطمأنينة قلبه. وإذا كان العدو ترهبه صلحلة صوته التي تشبه الرعد القاصف في حومة الوغي، فإن محدثه لايسعه إلا أن يعجب بعذوبة لفظه وسلاسة خلقه إذا خاطبه ملتمساً إقناعه بصحة ما يريد إقامة الدليل عليه. وكل هذا عائد إلى المبادئ الصحيحة التي شب عليها منذ نعومة الأظفار فجعلته ملكا يحشى بأسه في سويعات الأمر والنهي وحليما يُرجى خيره في أويقات الراحة من عناء الحكم.

وكان يقف من خلفه ساعتئذ شاب شديد العضلات في ضمور، معتدل القوام في اطمئنان حسن الشارة من غير تعمل، يقدم إلى فرعون كأس شراب بعد أن يشرب هو منها قليلا فكان كلما أفرغها رعمسيس في جوفه ملأها ثانياً وقدمها إليه بعد أن يكرر ذلك الفعل. هذا الشاب هو مينا زوج نيفرت وأقرب المقربين إلى الملك. وكان الناظر إليه يستشف من ملامحه عرزة النفس وكرم المحتد. وهو وإن لم يكن ممن

يعتمد على آرائهم ف المجالس العالية أو يُركن إليهم فيما يستدعى شدة العارضة وثقابة الفكر وبعد النظر في المصائر، إلا أنه كان على إرث كبير من الرقبة وصفاء الطبع وصدق الولاء ف المضالطة. أما (شاموس) بكر أبناء رعمسيس- وهو الذي رقى في الكهنوت إلى مرتبة كاهن أعظم لمدينة منفيس- فكان أقرب موضعاً في المادبة إلى أبيه ويتلوه أخوه (منفتاح) ثم صاحبنا (راميري) ذو الشعر المرسل الذي كان العدو أسره فأنقذه من الأسر بعض الجند الذين يدينون بعقيدة الولاء للأسرة الملكية. وكان رعمسيس يحادث ابنه راميرى في موضوع المؤامرة التي كان نقل إليه خبرها وقال: إن ما نقلته إلى من أخبار مصر لموجب لشديد القلق وداع إلى الخوف من سوء العاقبة. ولست أشك هنيهة في صحة التهمة التي وجهتها إلى المتأمرين، غير أنى مازلت أجنح إلى الاعتقاد بأن إفراطك في محبتى وغلوك في الولاء لى قد حادا بك عن نهج الصواب وصرفاك عن مشاهدة الحقيقة المحسوسة. ومن ثمّ عراك الخوف من سوء مغبة ما وقع في وهمك. وإذا أضيف ما رويته لي من ذلك إلى الرسالة التي وردت من بنت أنات والتقرير الذي حرره مباشر خيل مينا والإخطارات السرية التي تواردت على تباعا من مصر، فإن قلبي مع خطورة ذلك كله لن يرتاع بسوء مغبته، لأنه وان يكن آني يتمنى من صميم الفؤاد التربع في هذا العرش لإيهام السذج بعزته وعلو مكانته إلا أنى أعتقد أنه يقنع بأى نصيب أمنحه إياه عند عودتى ، بل يرضى بلا شيء. فلتطمئن إذن خواطركم، فالرجل ليس من ذوى الصبر والجلد في جسام الأمور وخطير الأعمال. وقد حبب عجزه هذا إلى اعتقادى غباوته وضيق عقله وقصر نظره وأنه لن ينفذ ما يبتكره أو يبتكره له غيره. فقال شاموس وقد أحنى رأسه أمام والده احتراما له: ومع هذا فقد استطاع أميني أن يذكي ف قلبه نار المطامح فأصبح مما يصبح الجهور به أن الكناهن الأعظم هو رأس الفتنة وآني سناعدها، وهو رجل عُرف بالذكاء وقوة الإرادة، إذا قال فعل وأجاد الفعل وأحسن التدبير بحيث يخضع لأمره نصف الكهنة ف الديار المصرية.

قال فرعون: إنى عالم بذلك وعالم أيضاً أن أكابر الأمة وسراتها مازالوا ناقمين على لأنى سقت عبيدهم وفلاحيهم إلى ميدان القتال، ومع هذا فلم يأت هؤلاء العبيد مفائدة لأنهم جبناء تقشعر أبدانهم متى احتدمت المعركة. وقد عولت على تخصيصهم منذ الغد بحراسة العسكر ولعلهم يفلحون في أداء هذه المهمة السهلة. وإذا نحن حملنا على قادش ودخلناها عنوة فلسوف نغنم منها التحف الكثيرة والخبرات الموفيرة التي سيؤول أوفي نصيب منها إلى هياكل وادي النيل. فعليك ياشاموس أن تبلغ إلى زمالائك كهان هيكل منفيس أن والدك سيضاعف لهم ما كان أخذه منهم. قال شاموس: إن لتنذمر أميني وتحييزه لآني وممالأته إياه في تدبير المكائد ضد الملك أسيابا أخر أولى بالالتفات، ويكفى مولاى الوالد هذا الإلماع فإن فكره.. قاطعه رعمسيس: إن سراة الأمة وكبراءها اعتادوا إرشاد الملوك والأخذ يزمامهم في القيام بشؤون الرعية ولكني أضرب بنصائحهم ومشوراتهم عرض الحائط لأني النائب وحدى في إدارة تلك الشؤون عن ملك الآلهة ورب الأرباب.. نعم لست أزعم أنى إله وإن يكن يقام لى من المراسم ما يشبه أن يكون مراسم الآلهة، ولكني أدع للكهان القيام بما هو اختصاصهم المألوف، وهو الوساطة بين الآلهة وبينى وأمتى فيما يرتبط بالأمور الدينية، أما الأمور الدنيوية فمازلت قابضاً بيدى على زمامها، إذ لي وحدى الحق الصريح في القيام بها. ولنترك البحث في هذا الموضوع لأن من الخصال التي فطرت عليها اجتناب الظن في الأصدقاء والثقة بالغير ولو أدى ذلك إلى ما لا تحمد عقباه.

قال هذا وأشار إلى مينا فأقبل عليه بالكأس الذهبية فتجرع ما فيها من الشراب عباً، ثم حدق في الحاضرين بعين الليث وقال بصوت جهوري متهدج: إذا كانت صفوة القوم الـذين وضعت ف أيديهم زمام مملكتي ليسلكوا بها سبيل الرشاد في غيابي كأميني وآني يريدون إيقاعي في شرك الحيل السافلة والتدابير السخيفة، فسيكسون عهدى بالعودة إلى مصر وشيكا. ووقتئذ لايكبر على وطء تلك الأفاعي بقدمى وهي تدب في رمال استنباط الحيل والتدابير. وكان لصوت رعمسيس وهو يفوه بهذه الكلمات دويّ تردده أركان الكان حتى جمد السامعون في أماكنهم لاينبسون بكلمة ولا تبدو منهم حركة. ولكنه بعد إذ سكت هنيهة رفع رأسه وقال بصوت تختلجه نبرات السرور والعطف: أصدقائي وخلصائي! لتطمئن أفئدتكم وليهدأ جأشكم قبل أن يشب ضرام القتال. فغير خاف عليكم أننا قمنا بفعال توجب المجد والفخر وأن شعوب الأرض كلها - حتى القاصية منها- قد أحست شدة بطشنا ونفوذ سلطاننا وأننا شدنا على ضفاف الأنهر آثاراً ببيان ما فتحناه من الأمصار، ونقشنا في الصخور الصلاة ما يخلد ذكرى شهامتنا في صدور الذريات والأعقاب. ما ذلك إلا لأن مليككم وصاحب السيادة عليكم وأعظم الملوك شوكة، ما عظمة ملكه ويسطة نفوذه إلا من فضل الآلهة وفضلكم أيها الإخوان الأعزاء. ولاريب في أن واقعة الغد ستضيف إلى ففاركم فخراً جديداً وإلى مجدكم مجداً مستأنفاً، فادعوا إلى الآلهة أن توفقكم فيها للفوز وأن تمنحكم الغلبة على العدو إلى أن تضع الحرب أوزارها ويدنس موعد الأوبة إلى الوطن العزييز. ارفعوا جميعاً كؤوسكم واشربوا معي في نخب الانتصار وسرعة العودة إلى الديار.

قصاح الجميع بصوت واحد: لك الإقبال والنصر! لك العزة والفخر! لك الصحة والعافية! لك الرفعة والمجد! فنزل رعمسيس من علوة عرشه ثم سار بين ضيوفه قائلًا: عليكم بالراحة حتى يختفي كوكب ايزيس ، فإذا ظفرتم منها بما يجدد فيكم النشاط ويستقر الهمم فاتبعوني إلى هيكل آمون ومنه إلى ميدان القتال. فما أتم رعمسيس هذه الكلمات حتى انطلقت الالسنة بالدعاء للملك بالفوز والنصر وعلق القدر وبقاء الذكر. وكان ف خلال ذلك يخاطب ولديه منفتاح وراميرى بعبارات التشجيع ثم أمرهما باتباعه، فبرح الثلاثة صيوان المادبة يتقدمهم الحرس يحملون بأيديهم قضبانا نيط بأعلاها ريش النعام وزهور الزنبق الموهة بالزرياب واقتفى مينا أثرهم وظلوا سائرين حتى وصلوا إلى الصيوان الملكي المعد للنوم، فأمر رعمسيس قبل الدخول فيه بإحضار اللحوم النيئة، فلما أحضرت قدمها بيده إلى أسوده النذين كانوا يطوفون به ويتملقونه ويستجدونه نظرة عطف. ثم دخل اسطبل الانسراس الكريمة فتفقدها واختار منها اثنتين لجرّ مركبته ف الغداة إلى ميدان القتال، واسماهما (نوره) و (نصرة طبية). ثم عاد إلى صبوان النوم فاشار على ندمائه وصحبه بالانصراف وأمر مينا بتجريده من السلاح والعقود والدمالج، فلما انتهت هذه المهمة دعا بولديه وكائا بباب الصيوان مضطربي الخاطر شديدي القلق، فقال بصوت مرتفع: أتعلمان لم أمرتكما باقتفاء أثرى؟ فلزما الصمت فكرر السؤال، فأجاب راميرى: لعل مولانا الوالد استشعر ما بيني وشقيقي من الشقاق. قال الملك: نعم هذا مااستشعرته وبعيني شاهدته. وإني لراغب ف أن يسود الوئام بين أينائى جميعاً وكفاكم ف الغداة ما ستمتلىء به صدوركم من المقت والبغض للأعداء، ثم اعلما أن الأصدقاء الصادقين أصبحوا ولا وجود لهم في هذه الأيام، مع أنهم أول من ينبغي أن يلاقبوا النكال في حومة القتال، فإذا كان من حظ أحدنا أن يصرعه الأعداء فأولى به أن يذهب ف خير وسلام وأن يمحو من قلبه أثر الضغينة والبغضاء.. قل لي يا راميري ما سبب النزاع بينك وأخيك؟.. أجاب الأمير: أبت! لست أكمن له حقيدا ولا أريد به سوءا. وخلاصية الأمر أنك جزيتني على ما أظهرته من الشهامة في منازلة الخيتاس بسيفي هذا الذي تراه معلقاً بنجاد أخي منفتاح. والمالوف أننا ننام معا في صبيوان واحد، فلما كانت صبيحة أمس جردت سيفي من غمده لأغتبط بحسن صنعه ومضاء حده فتولاني الدهش إذ رأيت أنه ليس السيف الذي وهيتني إياه، وأبقنت أن منفتاح أخذه ويسدُّله بغيره. قال منفتاح: ما فعلت هذا إلا من باب المازحة والتطايب، ولكني علمت فيما بعد أنه يكره المزاح وقد قرصني بواحدة من قوارص كلماته حيث قال إنه لمتنازل عن سيفه لي كي أتحل بمكافأة لم أنلها بفضلي وأن في وسعه القيام من جليل الفعال بما يستحق عليه المكافأة بسيف آخر. قال الملك: كفي .. كفي إلقد وقفت على سر الخلاف وسبب قلة الائتلاف. وحكمت عليكما بأنكما وقعتما معاً في الغلط وركبتما متن الشطط. وإعلم يا ولدي منفتاح أنه خليق بمثلك اجتناب الغش ولو قصدت به إلى المزح، فقد حدث يوما أني كبوت كبوتك بارتكاب ما يشبه هفوتك .. سألتني والدتي المقدسة (تائي) قبل سفري إلى بلاد (التنوس) أن أجلب لها في عبودتي منها قطعة من حجر سبواحل (ببلوس) التي دفعت لجج البحر إليها جثة أوزريس للتبرك به، فاتفق لسوء حظي ونكد طالعي أن نسيت قضاء ما سالت ولم أذكره إلا عقب عودتي إلى طيبة وكنت وقتئذ في مقتبل العمر وربيع الشباب، فدفع بي النزق إلى التقاط حجر من أحجار الطريق قدمته إليها مدعيا أنه ذلك الحجر المقدس والتحفة النادرة التي كلفتني إحضارها، فسسررت سرورا وتهلل وجهها بشراً وحبوراً وأخذت تعرض الحجر على إخوتها وأخواتها إعجابا وافتضاراً. ثم جعلته في حرز حريز ووضعته إلى حانب تماثيل الأجداد، فلما رأيت منها شدة الاهتمام بعرض دنيء لا يستحق العناسة وعلمت أننى غششتها وضللتها بما ادعيت كذباً وبهتاتاً دبت في قلبي عقارب الندم ووخزنى واخز السريرة فلم اذق للراحة طعما، ليلا ولا نهارا، وأبت نفسى أن يكون ذلك الحجر الوضيع محترم المقام على الشأن كأنه علق من الأعلاق النفيسة أو تحفة من التحف النادرة فلم يسعنى إلا أن ألقيت به في النيل. فلما شعر القوم في القصر بضياعه قاموا على قدم وساق وفتحوا للتحقيق أبوابا وألقيت الشبهات على الغاشية والحشم والندامى، فخفت أن يضحى أحدهم وينذهب فداء للأخرين، وأن يوخذ البرىء بذنب الجانى فبادرت بالاعتراف وقصصت حقيقة الأمر من رأسه إلى قدمه. وكنت أود أن لو أقع تحت طائلة العقاب، ولكنهم صرفوا النظر عن معاقبتى وتركونى وشأنى فازداد قلقى واضطرابي واشتدت على نفسى وخزات السريرة وتبكيت الضمير، ولم يذهب عنى البأس إلا بتوالى الأيام وتعاقب الأعوام. غير أن هذه الحادثة أفادتنى فائدة ذات قيمة وهى تجنب الكذب ولو في المزح، فعليك يا منفتاح بالسير على سنن أبيك وسلوك منهاجه. أما أنت يا راميرى فخذ سيفك ولا تنس أن الحياة سيل ينحدر بالشقاء والآلام وأن خير الناس من عود نفسه وهو في شرخ الشباب التجاوز عن الهفوات إلا عاد مكفهر الوجه كاسف البال كبعاكر رئيس شرخ الشباب التجاوز عن الهفوات إلا عاد مكفهر الوجه كاسف البال كبعاكر رئيس الطلائع، فهيا يا ولدي تصالحا وامحوا الضغائن من قلبيكما.

فدنا الأميران من بعضهما وألقى راميري بنفسه على أخيه بحركة مصدرها الانبعاث النفسى ثم قبله. فوضع الملك يديه عليهما وقال: هيا اذهبا للاستراحة كى تفوزا غدا بالحمد والثناء. فلما غادر الأميران مجلس أبيهما التفت فرعون إلى مينا وقال له: أود أن أحدثك قبل اندلاع الحرب فى أمر ذى بال. لقد قيل إن العين مرأة القلب وهاأنذا أرى في عينك ما يشير إلى هموم تساور فؤادك منذ حضر من طيبة حارس خيولك، فماذا يا ترى قد دهاك؟ وما الأخبار التى بها وافاك؟ أجاب مينا بصوت ينم عما فى فؤاده من الكدر والحرن: إن حماتى راتوتى أساءت تدبير أموالى

فقد رهنت أطيائي وباعت ما كنت أملكه من الخيل. قال الملك: إن لهذا الداء دواء فلا تحزن.. ساغدق عليك من النعم والعطايا السنية ما يتجاوز مأمولك إن أقمت لى الدليل على أن نيفرت لم تتغير حتى الآن ثقتها بـك وانها ما برحت مقيمة على حبك.. ألا يكون القلق الذي ساورك وبدت علاماته على وجهك نتيجة وهم وقع بشأنها في قلبك؟ ما عهدتك قط شديد الاهتمام بمالك وأرضك.. فإذا كنت بقصرك الكلام عليهما تقصد إلى ستر حقيقة البواقع عنى فإنى أحب منك أن تميط الستار البذي مددته عليها وأن لا تنكر على شيئاً، واعلم أنى منك بمثابة الوالد من ابنه فكاشفني بكل ما في صدرك ولن ينقلب قائد فرساني المحبوب إلى أهله كاسف البال حزين القلب.. فقبِّل مينا صولجان الملك وقال: تركت نيفرت والدتها لترافق كريمتكم بنت أنات في حجها إلى جيل سيناء ويلدة ماجدو. قال رعمسيس: في التنقل والارتحال تحسين للحال ورجاء للاستقبال، فدع نيفرت تعيش في كنف بنت أنات فإنه لا أحد يعني بحمايتها ويحرص عليها مثلها. قال مينا: لا ريب عندي في هذا، وإنما وقعت قبل رحيلي من طيبة حوادث ليست مما يرتاح إليه الخاطر، فإنه لما تكرم مولاي فخطب لى نيفرت من أمها كانت مخطوية لبعاكس ابن خالتها، وقد اغتنم هذا فرصة غيابي عنها بعد زواجي بها إذ قضت الظروف ببذلك الرحيل لقتال الأعداء فأكثر التردد على بيتي والاختلاط بحماتي والتودد إليها حتى لقد نُقل إلى أنه أنعم عليها بمال طائل لتسدد به ديـون ابنها وقد تـذرع بصنوف الحيل والتـدابير للتدخل في شؤون أسرتي حتى بلغ من سماجته في ذلك أن أهدى إلى حليلتي باقة من المزهور وقد رآه حارس جيادي رأى العين . فتبسم الملك ثم أهوى بيده على كتفه وقال: يؤخذ من قولك أنك تطلب من زوجتك الثقة العمياء بك وأن تكون المثل الأعلى عفة ونزاهة مع أنك لم تأنف من إيواء امرأة أجنبية في صيوانك. وإذا كان هذا عجساً فأبعث منه على العجب أن تفتح للظن باباً إلى فؤادك لمجرد أن ابن خالة زوجك إهدى إليها باقة من غض الزهر.. ليس من العدل ولا الحق أن يكيل المرء بمكيالين أو يزن بميزانين.. والمرجح في نظرى أن كل ما في الأمر أن ثارت بنفسك عواصف الغيرة من ذلك الوحش الذي تلاقت فيه صنوف النقائص بل الحجر الثقيل الذي قذفت به الشياطين في بيت المرحوم الموهار السابق. قال مينا: الحقيقة يا مولاى أن ثقتى في نيفرت لاتزال كما كانت ثقة الرجل النزيه بنوجته الطاهرة النقية الجيب. إلا أن نفسى لا تطيق أن يكون بعاكر – ذلك الشخص الدميم الخلقة الشبيه بالذبابة السامة – هو الذي يجرؤ على استجلاء محياها وتقديم الزهور في بيتي إليها. قال المالك: جدير بمن يطمح إلى إحراز ثقة الناس أن يثق بهم فعلا. ألا تراني مضطراً في أخوال كثيرة إلى قبول القصائد الشعرية في مدح فعالى والتنويه بذكرى من قوم هم أحوال كثيرة إلى قبول القصائد الشعرية في مدح فعالى والتنويه بذكرى من قوم هم للنزال.. استعد للانتصار والعود إلى وطنك مكللا بالغار، ولايذهبن عليك أن بعاكر سيعفو عنك بقدر ما فرط منك.. انصرف الآن وتفقد الخيل واركب غداً المركبة بما ميد فيك من الشهامة في مواطن الطعن والنزال.

ذهب مينا ليتفقد الخيل فالتقى براميرى الذى ابتدره بقوله: لعلك تعلم يا مينا أنى مازلت أنزهك من المعائب وأبرئك من الشوائب وأرفع قدرك إلى المنازل العالية واقتدى بك في المحامد. ولكن لا أنكر عليك ما اعترائى من الشك في نزاهة قصدك منذ علمت أنك أتيت إلى صيوائك بامرأة أجنبية وأنت تعلم أنك قرين أجمل نساء طيبة وأكرمهن محتداً.. إنى – كاخ لنيفرت عارف بما ينطوى عليه فؤادها وما تجنح إليه نفسها – أؤكد لك أنها لن تعيش ساعة واحدة إذا أيقنت أنك فضحتها بإيوائك امرأة أجنبية في صيوائك.. هذا الفعل منك عار كبير لا يلصقه بالمرأة المصرية إلا عدم الوفاء

لها بالأمانة والعفاف، فأرجو منك ألا تحقد على فلا يعلم إلا الآلهة ما يجيء به الغد.

وكان مينا يصغي إلى حديث راميري دون أن تبدو عليه علامات الاكتراث. فلما أتم الأمير كلامه قال: يعجبني منك أيها الأمير الكبريم اقتداؤك بأبيك في الصراحة والصدق والإعراب عن كل ما يتلجلج به خاطرك دون تصنع ولا موارية، كما يسرني أن تكون مثله في الإمساك عن الحكم على متهم قبل سماع دفاعه عن نفسه.. لست بمنكر عليك أن ف صيواني امرأة أجنبية هي ابنة مالك الدنائم. ولكن لعله و صل إلى علمك أني منذ يضعة أقمار لا أشردد على هذا الصيوان بل أقيم على الدوام بباب صبيوان والدك الملك.. ادنُ منى قليلًا لأروى عليك القصة بحدافيرها حتى لا يداخلك الشك في نـزاهة قصدي وحسن نيتي وأوقفك على أسباب وجود تلك المرأة عندى.. كان المعسكر ضارباً تحت حصون قادش، وكان رعمسيس ملازماً الفراش لجرح أصابه فأصبحنا في بطالة يسأم منها النشيط، وكنت لذلك أقضى جل وقتى في الصبيد والقنص على سواحل البحس. وحدث يبوما أن أوغلت في تلك الجهة فإذا بكتيبة من جيش الدناثم أحاطت بي إحاطة السوار بالمعصم وأخذتني إلى معسكرها أسيراً بعد إذ أوثقت كتاف. وقد اعتبرني قواد العدو من العيون المبثوثة عليهم فحكموا على بالإعدام وشرعوا ف تنفيذ الحكم، إذ أحاطوا بالحبل عنقي. وكان الملك لحسن طالعي ووفور حظى مقيلا في تلك الساعة فسألنى عن حالي فأطلعته على الحقيقة فأطلق سراحي وأحسن معاملتي وأكرم مثواي ودعاني لتناول الطعام على مائدت. وكان لحسن صنيعه من التأثير في نفسي ما حبب إلى مقابلة هذا الصنيع بمثله، وقد سنحت فسرصة لذلك بعد زمن يسير إذ لم ينقبض على تلك الحادثة شهر حتى هجم جنودنا الليبيون على معسكر الملك وجاءوا بما لا يُحصى عدده من السبايا والأسلاب والغنائم، وكان من بين السبايا ابنة ملك الدنائم. وإذ قرر والدك الملك مكافأتى جزاء ما أظهرته من ضروب البسالة والإقدام في القتال، فقد أمر بأن أكون أول من يختار حصته منها فأخترت ابنة ذلك الملك الذي صان من الموت حياتى وذهبت بها إلى صيوانى ومعها نساء حاشيتها وتركتها معهن فيها هادئة البال مطمئنة النفس محترمة الجانب، حتى تسنح الفرصة لردها إلى أبيها تحف بها الحشمة ويحدوها العقاف والصون، وأكون بهذا قد قابلت الصنيع الحسن بمثله.

وما أن وقف راميرى على سر الخبر حتى مد يده إلى مينا مصافحاً وقال له:
التمس منك الصفح عن سوء ظنى بك فقد وقفت الآن على سر سؤال والدى الملك لى
عما إذا كانت نيفرت ما برحت مقيمة على عهد الوفاء لك. قال مينا: وبم أجبت؟ قال:
أجبت بأنها لا تكف عن التفكير فيك وأنها لم يداخلها قط شك في أمانتك ووفائك، وقد
بدا لى أن هذه الإجابة قد حلت منه محل الرضاء فالتفت إلى أخى شاموس مبتسما
وقال: «لقد كسب مينا الرهان». قال مينا: نعم، فإن الملك حفظه الله وعدنى بمكافأة
حسنة وتحفة سنية إذا كانت نيفرت - بالسرغم من إقامة امرأة أجنبية بصيوانى تبقى على ولائى وتستحق شكرى وثنائى. ويظهر لى أنه كان يرى الأمر مستحيلاً،
ولكن الحمد للألهة أن كسبت الرهان، إذ ثبت إخلاص نيفرت لى بالدليل والبرهان.

الفصل الرابع عشر ذل الانكسار.. وعز الانتصار

ما خلعت الشمس جلباب الأفق وبرزت من خدرها حتى كان الكهان وقدوفا في طليعة كل فيلق من فيالق المشاة والفرسان، يرفعون الأصوات بالأدعية والصلوات، ويقدمون القرابين التماساً للنصر البين ويعرضون صور الآلهة على الأنظار في زوارق من العسجد والنضار، وانبث المبشرون في كل مكان يبشرون بما استطلعه رئيس الكهان، من الطوالع المؤذنة بالسعادة والهناء والفوز على الأعداء. وكان لكل فيلق علم خاص قد رُسمت عليه صورة الحيوان المقدس أو المرموز به إلى الإقليم الذي ينتمي هذا الفيلق إليه. وكان كل جندي قد حمل معه – لوقاية نفسه من فتكات الأعداء وحفظ كيانه من شرورهم – التماثم والأحجبة والأحكام الدينية المسطرة على ورق البردي والخواتم ذات الفصوص المصنوعة على مثال الجعل. وكان سوادهم الأعظم يخفون في ثنايا ملابسهم أو قطر مبزات مؤونتهم خصلا من شعر ودفعا للشرور والنكبات.

أما الملك فكان في محفة يحملها أربعة وعشرون شابا من أشراف مصر ونبلائهم يستعرض الجند ويتفقد أحوالهم قبل نزولهم إلى حومة الوغى. وكانوا يقدمون إليهم الهة طيبة الثلاثة ومنث إلىه الحرب ونيشب إلهة الانتصار، وما ظهر الملك بين

⁽۱) كان لكل إقليم حيوان مقدس يعبده اهله، وكان بعض هذه الحيوانات معبودا من المصريين كجعران فتاح وابن آوى و غيرهما

صفوف الجند حتى جثوا جميعاً ولم يقفوا إلا بعد أن أحرق البخور بيده وتناول من ابنه شاموس الكاهن الأعظم رمز الحياة والقوة. وما انتهت هذه الرسوم الدينية حتى أخذ الكهان ينشدون بصوت واحد أناشيد التمجيد والإجلال للإله (رع) وظله وخليفته في الأرض الملك رعمسيس.

وما تحرك الجيش للنحف حتى سطعت في السماء كواكب لامعة كانت قبل السير بدقائق معدودة تحجبها عن الانظار سحب كثيفة قاتمة، فتحرك الكهان من فورهم للقاء الملك وفسروا له هذا الحادث العلوى بانكشاف الغمة وأن جيوشه ستبدد شمل العدو كما بدد الإله رع السحب المتلبدة ومزقها تمزيقاً. وكان المشاة يحثون السير دون جلبة ولا غمغمة حتى يخلد الاعداء إلى الطمانينة وينصرفوا عن الحذر والحيطة فيكون مأخذهم سهلا والانسياب عليهم فجأة. ووقف الضباط في مواضعهم المعينة على مركبات القتال وبأيديهم أعنة الجياد. وكان رعمسيس في مقدمتهم يحمل في مركبته كنانتين إحداهما للقسى والأخرى للسهام. وكانت الجياد التي تجرها مكللة الرؤوس بريش النعام تلامس متونها أعنة مرصعة بالأحجار الكريمة. وكان الوهج يسطع من سنابكها إذ كانت تضرب الأرض مللا من الوقوف ورغبة ايراد العدو موارد الحتوف.

وكان رعمسيس متوجا بتاج الوجهين البحرى والقبلى ومحصن الجسم بقميص الزرد تحمله كتفاه برافعات من الحريسر الأحمر. وكان مينا واقفاً من ورائه ممسكا بإحدى يديه أعنة الخيل وبالأخرى درقة يقى بها مولاه سهام الأعداء. فلما جاوز باب المعسكر عند بزوغ الشمس في تلك الهيئة الهيئة والشارة العجيبة أقبل بعاكر رئيس الطلائع فقبل الأرض بين يديه وترامى على قدميه، وقال جوابا عن سؤال

وجهه الملك إليه عن أحوال أخيه وأين هو، إنه قد أصابه مرض اضطره إلى ملازمة الفراش في بعض النقط الأمامية. ولم تكن الشمس قد تم وقتئذ شروقها ليتبين الملك أقد اكتسى وجهه بحمرة العار والخجل أم بصفرة الخوف والوجل، فإذا به يراهما تتداولان وجه هذا الخائن الأثيم الذي لم يعتد سبك الحيل ولا تدبير الخيانات والدسائس، إذ كانت هذه أول مرة فرط فيها في واجب الأمانة نحو وطنه ومليكه.

ثم ساله رعمسيس: وماذا العدو صانع الآن. أجاب: يحشد كل قواه جنوبى المدينة وشرقيها. لذا أصبح القتال قاب قوسين أو أدنى، فإن رأى مولاى أن يفاجىء قادش في الوقت الذي يزحف فيه الشطر الأكبر من الجيش لمناوشة الآسيويين من جهة الجنوب فإن حصونه واستحكاماته لابد ساقطة اليوم بين يديه الكريمتين. ثم إن طريق الجبل – وهو الطريق الذي لابد لجيوش مولاي من الزحف فيه للوصول إلى القصد – طريق معبد ممهد لا وعورة فيه. فسأل الملك: أأنت مريض كأخيك، فإني اسمع في صوتك خلخلة واضطراب؟ أجاب الموهار: لم يمض وقت من حياتي كنت فيه أجود صحة مني الآن. قال الملك: هلم إذن لترشدنا إلى هذا الطريق.

والتفت رعمسيس بعد هذا إلى مينا قائلا: إن الطريق ممهد معبد وغير وعر كما أخبرنا الموهار، فسلا عجب ان طابق الواقع هذه الأخبار. أليس هو الوارث عن والده فضيلة الإحاطة بأسرار الطرقات؟.. ثم جياده العاديات ضبحا المثيرات نقعا المباريات للريح سبقا.. ما كادت تصل به إلى جبهة الجيش ليرشده إلى الطريق المهد والمسالك القويمة حتى عادت به إلينا. فالتفت مينا إلى بعاكر ولم يتمالك أن صاح: إنه لدنىء الطبع سافل النفس منصط الهمة، فإن الجياد التي أعجب بها مولاى إنما هي جيادى التي أبلغت أن راتوتي أهدتها إليه قبل رحيلي من طيبة، وما كنت

لأصدق هذا الخبر حين بلغنى ومع أنى ما اشتريتها إلا لتجر مركبة نيفرت لولا أن زال الشك الآن وارتفع اللبس. ولقد رأيت هذا الغر بعينى رأسى في مركبة تجرها تلك الجياد المشتراة بمالى. فلاطفه الملك وسكن من غضبه وقال: إن زوجتك مازالت لك، فدع له الجياد.

لم تمض بعد هذا الحديث هنيهة حتى تدرجرج الهواء بدوى بوق لم يدر السامعون مصدر النافخ فيه، غير أن شدة ارتفاع الصوت كانت تدل على قربه من مكان الجيش. فوقف رعمسيس في مكانه وانتضى سيفه ووقفت الخيل آذانها فقال ميذا: هذا بلا ريب صوت بوق الخيتاس. وكانت مركبة ذات أربع عجلات حاملة أسود القتال تتبع مركبة الملك، فأمر رعمسيس بإطلاق سراحها. وكان قد سمم صيحات العدو ورأى جنود الطليعة ترتدعلى الأعقاب بغير نظام وقد تخللتها مركبات الخيتاس التي كانت تنحدر تباعا من راس الوادي وتُسمَع لها قرقعة تصم الآذان، فانطلقت الليوث مزمجرة إلى أن اتصلت بمركبة الملك وأحاطت بها، فرفع مينا السوط وأهوى به على متون الجياد فكبت في بادىء الأمر ثم وثبت مندفعة إلى الأمام حتى بلغت إلى قلب الميدان. وكان الجنود المصريون قد خذاوا فعلا وأخذوا يلتمسون لأنفسهم مخرجاً للفرار من وجه العدو الذي كان نكل بهم تنكيلا وأثخن فيه إثخاثاً وبيلا، فلما رأى الملك الخطر محدقا به ولم يكن ليخطر له ببال سال: أين بعاكر؟ فلم يجاويه أحد لأنه كان اختفى عن الأنظار. وكانت الأرض تتزلزل تحت أقدام الهاربين والمطاردين والخيول تدوس السرمم وعجلات المركبات تصم بصريرها الآذان والرعد يلقى بهزيمه الوجل في القلوب، فلم يتمالك رعمسيس أن صاح صيحة الحرب المالوفة له في مواطن القتال إذا اشتد الحرج عليه وعلى جنده فتغلب على صوت البوق ورددت صداه الجبال والأودية. وقد أجاب الضباط على هذه الصيحة بمثلها، فوقف الفارون في أماكنهم مترددين بين متابعة الركض طلباً للنجاة وبين الثبات في مواطن القتال. إلا أن الخوف أخذ من قلوبهم ما أضعف بأسهم وهد ركنهم فمضوا في طريق الفرار لايلوون على شيء. وما هي إلا دقائق حتى طرق آذان الملك صوت الأبواق وصرخات الخيتاس، وكان منبعث الصوت من خلفه حيث يمتد أحد الأودية عموديا على الطريق الذي سلكه الجيش المصرى. ومر هذا الجيش دون أن يداخله شك في أمره، إذ كانوا يجهلون ما دُبر لهم من الدسائس ونصب في طريقهم من الشباك، على أن ذلك الوادي لم يكن سوى الذي انطلق بعاكر فيه حينما توارى عن الأنظار لإخبار العدو بقرب زحف الجيش المصرى فيه وحضه على مفاجئته بالهجوم من حيث لا يدرى. وما كادت تصل صرخات الخيتاس إلى سمع رعمسيس على ما شرحناه آنفا حتى رأى المصريون ألوف الفرسان من أعدائهم والمثات من مركباتهم طغت طغيان السيل على المؤخرة والجنب وحالت دون الاتصال بينهما والكتيبة الملكية، وتمكنوا بهذه الحركة من الإحداق به وأخذ المنافذ عليه حتى صار أشبه ما يكون بالصخرة في وسط البحر تساورها اللجات من جميع الجهات.

نظر رعمسيس على الفور في أمر نفسه ومصير جيشه وكلاهما في أحرج المواقف وتأمل في ذلك بعين الحكيم الذي لا تزعزع ركنه الحوادث فأدرك حقيقة الخطر الذي أحدق به، ولاسيما وقد كان يسرى الأعداء يتدفقون من الخلف على جيشه ويسمع صلصلة سيوفهم وشخشخة دروعهم وضبح خيولهم وغمغمة الفريقين في قتال عنيف ونزال مخيف، كما كان يرى من الأمام خطباً جللاً وطامة كبرى. كان يرى في مرامى نظراته قتلى تبقر بطونهم حوافر الخيل وجرحى يئنون أنين الثكالي وفارين يلتمسون الآفاق هائمين على وجوهم حذر الموت وخلف هؤلاء أعداء ألداء قد انشرحت صدورهم ليوارق الانتصار والفوز.

إلا أن الملك قوم قامته ورفع هامته إذ استفزته فداحة الخطب فشارت حميته فصاح صيحة ثانية تغلب بدويها على زئير الأسود وجلبة العساكس وصلصلة السيوف. وكان أنين الجرحي وصوت القوّاد ولغب المحاربين بالنسبة لهذه الصيحة كالصمت المطلق. ثم تناول قوسم وارسل منه سهما أصاب به كبد أشجع قواد الخيتاس فأراده. أما الأسود فكانت تثب على جياد العدو وتنشب في صدورها الأظفار فتعوقه عن متابعة النزحف. وقد ذعرت جياد الفسرسان من مسرأى تلك الضوارى فتراجعت إلى الخلف براكبيها وتلاحقت في الفرار من ميدان القتال حتى حالت بين جيوش الخيتاس والمصريين. وكان رعمسيس لا يفتر لحظة عن رشق العدو بسهامه الصائبة حتى كادت تنفد من كنانته. وكان مينا يقيم بدرقته سهام العدو فلم يصبه سهم واحد منها بل كانت تتكسر نصالها على النصال ، وألقى أعنة حياد المركبة الملوكية على غاربها فانطلقت حتى توسطت صفوف الأسيويين، فجرد رعمسيس سيف وطعن به الجم الغفير منهم فصرعهم جميعاً . وكانت ليوثه الكواسر في غضون ذلك تفتك بهم شرفتك وتلقى في قلوبهم الفرع، كلما نشبت أظافرها وكشرّت عن نابها. والخلاصة أن الجيشين التحمت عساكس هما جسما لجسم وطال بينهما النزال والجلاد واشتدت الجلبة وعلت الضوضاء بما يصم الآذان ويرهب النفوس ويذكر الرائى بالبحر الخضم وقد ثار ثائره واضطربت عناصره، وصعب مراسه وانحلت أمراسه. أما مينا فقد أبدى من معجزات البسالة والتدبير ما يخلب العقول ويسترعى الأنظار، فقد كان يخيل للناظر أنه نفوس متعددة في ذات و إحدة، إذ كان بواجه الخطوب بثاقب الرأى فيتجنبها بتوجيبه المركبة ذات اليمن تارة وطوراً ذات اليسار وحينا إلى الوراء، وكان يرقب السهام في مسراها مخترقة الفضاء فيتصرف ف أوضاع درقته بما يكفل وقاية الملك شر

الإصابة بها. وكان يبدى في ذلك من آيات التبصر وحضور الذهن ما يندر أن يتوافر مثله في واحد من مشاهير الأبطال. وكنان تفاقم الخطب قد حرك في نفس رعمسيس سواكن الغضب، فتطاير الشرر من عينيه وأكثر من الصيحات المزعجة وأمعن في الفتك والتنكيل وأبلى بلاء لم يسبق له مثيل.

وقد انغرزت شلاثة من سهام العدو بدرقة مينا فقراً عليها بالحروف المصرية كلمات معناها «الموت لمينا» ومر بجانب أذنه سهم رابع فنظر صوب المكان الذي جاء منه فأصابه بكتف سهم خامس فصاح: خيانة سافلة! إنى لأشهد بعاكر بين الخيتاس بعيني. وقد سمع الخائن صيحة مينا فلم يسركن إلى الفرار، بل دنا من المركبة الملكية وأرسل من قوسه سهما سادسا وقال: دونك أيها الغاصب السالب.. ها نحن أولاء في ميدان القتال! مازالت خطيبتي قرينتك ولكنها بعد هذا السهم ستصبح أرماً، فأستولى عليها وأحظى بها. وما مسرق السهم من القوس حتى أصاب خوذة مينا فأضطرب جسمه وسقطت الدرقة من يده وكان قد رفعها إلى أصاب خوذة مينا الخطر عن نفسه وسمع بعاكر في أثناء ذلك يغرب في الضحك فما مي إلا لمعة البرق حتى أحس سهما سابعاً ينفذ من كتفه فازعجه الإلم وصرفه عن القيام بمهمته نحوالملك إذ أرخى الاعنة للجياد ووثب من المركبة وثبة الليث، ثم جرّد حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذي كان ينتظره ثابت الجنان هادىء الجاش، حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذي كان ينتظره ثابت الجنان هادىء الجاش، وما أن دنا منه حتى حمل عليه حملة منكرة. وراهما الملك يتناجزان ويتصاولان، فلم يستطع الفصل بينهما، لأنه ما شعرت الجياد بارتخاء الاعنة على غاربها حتى انطلقت كالربح مقتفية اثر الاسود.

وكان حراس الملك هدووا إلى الأرض صرعى، بعضهم تلدو بعض، فسرعان ما

أحاط به العدو يريد به الأذى والشر. ولكنه أخذ درقة مينا وانقض عليهم يطعنهم بسيفه، فكان فى كل طعنة حتف واحد منهم. ورأى راميرى أن أباه أصبح في عالم وأنه لم يعد ثمة اتصال بينه وجيشه فاخترق الصفوف واقتحم الألوف حتى وصل إليه ودنا منه. فقال رعمسيس: المجد والفضر لك يا ولدى وفلذة كبدى! أنت خير حفيد لسيتى الأول وأحق الناس بالانتماء إليه. قال راميرى: إنى طامح لإحراز سيف غير الذى اغتصبه أخى منى. ولقد حمل في هذه الأثناء على جندى ضيّق عليه الخناق فاحاط العدو به، وشهد الملك جماعة من الدنائم يقبضون على أعنة جياد الأمير وآخرين انصبوا عليه بسيوفهم، كما شهد رفاق الأمير يولون الأدبار بمركباتهم إذ خافوا الخطر على حياتهم.

وأصيب أسد بسهم فسقط يتلوى اشدة ما نابه من الالم ويزار. وادركت رعمسيس طعنة سيف شطرت درقته شطرين فاشتد عليه الكرب لما عاناه من توالى الطعن والضرب. ورأى كأن أجنحة الموت ترفرف على رأسه وأسنة الهلاك مشرعة إلى صدره، غير أنه بدلا من أن يواصل صيصات الحرب التي كانت ترتجف منها أفئدة الأعداء وتقوى بها عزائم المصريين بسط يديه بالدعاء إلى آمون أن يعززه بنصره ويوافيه بالنجدة والعون، فما أتم الدعاء حتى برز له من بين الجمع شاب مصرى طويل القامة تبدو عليه مالمح الهمة والشهامة، فأمسك باعنة الخيل وحيا الملك بأحسن تحية، ثم وثب في المركبة فارتعدت فرائص رعمسيس دهشا وعجباً إذ خيل له أن هذا الحادث الغريب ما هو إلا إحدى المعجزات أو إجابة لتلك الدعوات. ولما هذا روعه التفت إلى الشاب، وهو يدبر حركات المركبة بحدق غريب وشجاعة لم يكن للأبطال منها نصيب، فالحدت له فيه ملامح الموهار السابق والد بعاكر خائن الوطن وسبب الرزايا والمحن، فقال مناجياً نفسه لعل الإله أمون تقمص شكله

لينقذه من الوبال ويدفع عنه عار الانخذال. وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً في نفسه أنه سمعه يقول: الثبات يا مولاى الثبات! فبعد هنيهة ترد لك الإمدادات فتنجو من المهلكات، ثم تصل بنا في ميدان الفوز إلى أبعد الغايات.

اطمأنت نفس الملك بهذه الكلمات فصساح صيصة القتال التى رددتها الآفاق والجبال وأطار رأس رجل من الخيتاس كان بدنوه منه كالباحث عن حتفه بظلفه. وكان الشاب الذى أرسلته العناية الربانية لنجدته يحمل الدرقة يحميه بها من سهام الأعداء الأنذال ويثخن فيهم ويوردهم موارد النكال. وظل الملك ونصيره على هذه الحال هنيهة من الزمان، فإذا بصوت الأبواق يقرع الأسماع منبعثاً من الجهة اليمنى، فتبين رعمسيس فيه صوت الأبواق المصرية، فسطعت بوارق السرور على وجهه وأيقن الظفر بالأعداء. ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى لاحت للأنظار من خلف الجبل القريب بضعة آلاف من جنود فيلق (فتاح) تحت قيادة حورس. ولقد رأت هذه النجدة الخطر محدقا بالملك فانقضت على العدو بهمة لا تعرف الكلال وثبات تميد له الجبال، واخترقت صفوفه وقتكت برجاله فتكا وبيلا والزمتهم بعد طول المجاهدة بالفرار، وأنقذت رعمسيس من الانكسار. أما الشاب الذي كان ملازما لركابه فقد اختفى عن الأنظار، لأنه أصيب بسهم أدماه. وقال قائل انه لم يكن من الإنس وإنما هو الإله أمون تقمص شكل رجل من الشجعان ليمصو عن الملك معرة الذل والهوان.

ثاب رعمسيس إلى الراحة ساعة جمع فيها شتات جنوده ثم هجم بهم على الخيتاس ففرق شملهم ومزق جمعهم وقتل بعض رؤسائهم وأسر الآخرين، ثم انتشر بجنوده في أركان السهل فضم إليهم ما بقى بالمعسكر من الجنود الاحتياطية وهجم بهم على قلب جيش العدو فاضطر الفارين إلى التفرق في نهر الأورنت وبحيرة

قادش، واستمارت المناوشة بين الفريقين حتى أرخى الليل ستاره. ولما أسفر الصباح استأنف القتال بشجاعة لم تخطر للخيتاس ببال، فصاربوا متقهقرين ثم ولوا مديرين بعد أن كانوا من النصر بخيانة بعاكر واثقين.

ولقد كانت الحيلة التى دبرها هذا الخائن الأثيم على وشك النجاح وكان ينبغى أن تكلل به إذا صح دائما أن يُدلى إلى النتائج بالمقدمات، في مثل هذه الحالات. فإن قواد الخيتاس اختباروا من جنودهم أحذقهم في سياسة الجياد وأثبتهم في مواطن الجلاد، فتواروا خلف أشجار البوادى الذي تعهد بعاكبر لهم باستدراج رعمسيس وجيشه إليه. فلما وفي بهذا العهد وسيار الجند المصريون في اطمئنان من بغتات العدو، إذا بالفي مركبة وخمسمائة قد هاجمت جناح الجيش المصرى، بينما كانت مقدمته تستعد لمقابلة فريق آخر من الأعداء انساب عليها من خلف الوادي، ولم تكن تتوقع الاشتباك معه في قتال لبعد مكانه على منا أكده بعاكر في استطلاعه قوة العدو واستعداده. ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا إليه من المدد الذي خسر واستعداده. ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا إليه من المدد الذي خسر و(شيرو بازار) مؤرخ ملك الخيتاس الذي كان ملازما ركابه، يدون الحوادث تمجيداً لاسمه وتخليداً لذكراه.

أما رعمسيس فقد استقبله الجنود في معسكره بهتاف السرور وأناشيد النصر. وعم الخير الديار المصرية فهش له الكهان في هياكلهم والجند في ثكناتهم، بعد إذ طال عبوسهم، لما حرك أنى من خواطرهم ونبه من كمامن بغضائهم. ولم يبق حديث يتداوله القوم في محافلهم ومجتمعاتهم سوى ظفر المصريين بأمة الخيتاس. وعلى أثر الواقعة أرسل الأعوان لتفقد الجرحى ورفع جثث القتل، فوجد مينا في الفريق الأول ولم يقف لراميرى على أثر ولم يعرف عنه خبر. وانقضت أيام لا يدرى أحد

عنه شيئاً فأفضى ذلك إلى تراطل الأنباء بوقوعه فى أسر الأعداء. وأن الفريقين اتفقا على المقايضة عليه ببنت ملك الدنائم التى اختار مينا أن تكون نصيبه من الغنائم، وأسكنها في صيوانه وعاملها بكرمه واحسانه. وقد نقبوا عن بعاكر في كل مكان فلم يعلموا من أمره شيئاً، ولكنهم وجدوا مركبته فخلصوا الجياد منها وسلموها لمينا صاحبها الذي ما كان أعظم فرحه برجوعها إلى حوزته بعد أن سلبت منه غدراً في غيبته.

استولى المصريون على قادش واستتب لهم الأمر فيها، فالتمس (خيتازار) أمير الخيتاس الصلح فأجاب رعمسيس بأنه لن يفاوضه في هذا الموضوع إلا عقب عودته إلى الديار المصرية، فاضطر السفير المنوط هو واثنى عشر من أمراء الأمم المتحالفة ضد المصريين إلى اقتفاء أثر الموكب الفرعوني في قصده - بمظاهر الانتصار- إلى وادى النيل كأسرى حرب لا يمتازون على هولاء إلا بما كان المصريون يعاملونهم به من الاحترام والتكريم.

وكان رعمسيس شديد الاشتياق إلى العودة منصرف الرغبة إلى المسارعة بها، لأن وسواسه كان يحدثه بوقوع أمر خطير في مصر وكان ضميره يناجيه بتحرج الأحوال، واستمكن منه هذا الشعور على وجه أحس معه أن الفوز المبين الذي فاز به على الأعداء قد شابته شوائب الفتنة، وكدر صفوه بوجه خاص تحققه من خيانة بعاكر وننزوع آني إلى الاستقلال بالملك ومعرفة الداني والقاصي بهذا الخبر، حتى إن أمير جيش العدو لما سأله الصلح ألمع إلى قوائد المبادرة بإبرامه من حيث انه يمكن أولياء الأمر من رتق الفتوق الداخلية التي تواردت عليه أخبارها من مصر. وكان رعمسيس موقنا أنه قادر على كبح جماح الثائرين والضرب على أيدى المارقين، إلا أنه ظل واجماً كاسف البال، لأنه أحسن الظن بقوم ألقى إليهم بأزمة الحكم ليدبروه

ف أثناء غيبت على ما يطابق مصلحة الرعية فاغتنموا هذه الفرصة للاستئشار به وضاعف حزنه ما حل بمينا من الردى، وهو البطل المقدام الذى كان يوليه من الإعزاز والإكرام ما يذهب بالفوارق بينه وأبنائه ويعهد إليه قيادة جياد مركبته وتلقى أوامره التى كان يكفيه لتنفيذها التلميح بكلمة أو إشارة بطرف العين.

ولم تشفع هذه الصفات النادرة له عند القائد اله ام للجنود المصرية، فقد حكم عليه بالتجريد من رتبته والعزل من وظيفته وبعدم صلاحيته للقيام بها وبنى هذا الحكم على أسباب منها أنه آثر الانتقام لنفسه فتخل عن مركبة الملك وعرض حياته للخطر في أحرج المواقف، كما عرض الجيش بذلك للهلاك والفناء، ومثل هذه الجريمة في القانون العسكرى المصرى يُعاقب مرتكبها بالإعدام. فلم يجد رعمسيس من ثمّ سبيلا للاعتراض على الحكم، بل رأى في الاقتصار على التجريد من الرتبة والعزل من الوظيفة مبالغة في الرفق بالمذنب وغلوا في الصفح عنه، ولكنه رضى بذلك لمكانته منه وسالف خدمته لذاته السنية.

وكان رعمسيس شديد الائتاد والحدر بفطرته ومقتضى غريزته، لا يمضى أبدا مع الخيال ولا يستسلم للوهم. ولذا كان يُرى منشرح الصدر لين الجانب متهلل الوجه في غالب أيامه، حتى أيام الشقاء التى تُنَهك فيها قوة البدن ويعتور الفكر الكلال والضجر، ولكنه كان ذلك اليوم سابحا في تيار الافكار تائها في فيان الخيالات تنفعل نفسه بأقل المؤثرات، فيرتفع رأسه بغتة كمن يقوم من نومه منزعجا. وكثيرا ما اقتحم الأهوال وعانى الشدائد ورأى الموت مجسما في أقبح الأشكال فلم ينبض له نبض، إلا في يوم قادش الذي ختم مع ذلك بفوزه. وهو مادام حياً لن ينسى ما استشعره فيه من العجز وقلة الحيلة وقتما انفض جنده من حوله واندفعت به الجياد نحو الاعداء رغم أنفه ، فكان كريشة في مهب الربح تتلاعب بها الحدثان، بل

لن يذهب عنه أبدا ما تولاه من الحيرة كلما عالج الخلاص من الأعداء وأراد أن يعرف من أنقذه من أيديهم أ أمون – وقد سمع دعاءه ولبى نداءه، فتجلى له فى صورة إنسان وكان له خير معوان – أم غيره، أم أنه أبن الشمس يجرى فى عروقه الدم الإلهى؟ وكان لرعمسيس أن يسلك فى الظنون كل مسلك لأن الإله خصه بمزية لم يخص بها أحدا من البشر وأدركه من عنايته بما يدل على سمو مرتبته، ولكنه كان ينظر إلى نفسه ليرى أنه بشر سوى وأنه كغيره من بنى الإنسان خلق ولا فارق بينه وبينهم، وإلا لما أن من ألم الجرح الذى أصابه واشتكى بل لما ازعجته خيانة بعاكر. ثم قارن بين نفسه وقد توسط شيع الأعداء ولم يجد حوله أحدا من الاصفياء ونجا من مكرهم السيىء بما أيده من المدد الإلهى، ومن حكم عليه بالإعدام، وأنه لما جيء به إلى دائرة التنفيذ صدر الأمر بالعقو عنه فاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد به إلى دائرة التنفيذ صدر الأمر بالعقو عنه فاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد ومتى كان الإنسان لا يعينه من علم الغيب شيء خلا قلبه من هموم الحياة ومشاغلها.. وفي هذا منتهى الهناءة والسعادة.

كانت واقعة قادش من الوقائع الفاصلة وكان فوز المصريين فيها مبينا إذ استولى رعمسيس بها على مضائق الشام وقلاعها ثم عاد إلى مصر مطمئن النفس، بعدما أنفذ إليها بحراً شطراً كبيرا من أدوات القتال وجماً غفيرا من الجرحى، وصحبه في عودته الأمراء المغلوبون على أمرهم. وقد بعث باثنين من أبنائه إلى ماجدو للمحافظة على أختهما بنت أنات في بيلوز (١) ولينتظرا معها في سفينتها حتى يصل هو إليها.

⁽١) بيلوز هي الفرمة الآن، وكانت مفتاح مصر لكل جيش حاول الإغارة عليها من جهة الشرق.

الفصل الخامس عشر ملتقى الابطال.. والخونة الأنذال

مضى على واقعة قادش ثلاثة أشهر كان الجند والأهلون بمدينة بيلوز في خلالها يعدون معدات الاحتفال باستقبال الجيش المصرى الظافر بالأعداء الأنذال. وكان أنى المعروف بفتور الهمة وخمود العزيمة لا يكف عن استنهاض العمال وحثهم على إنجاز الأعمال، وكان دائب الحركة في مركبته ذهابا وجيئة لمراقبة العبيد المكلفين بإقامة أبواب النصر وتنميقها بالأزهار وترتيب الأسود الصناعية الموهة بزاهى الألوان في أماكنها. وكان يقف مع كل فوج منهم هنيهة حاثا على إتمام القصر الذي شيد إكراماً لفرعون وتنويها بذكره في موقع معسكر الهكسوس ومستنهضا على الاحتفال بتنميقه وتزيينه.

وبهذا الحث والاستنهاض استطاع بضعة آلاف عامل تشييد هذا القصر (۱) ف عدة أسابيع، فجاء قصراً فخم المنظر حسن النسق خليقاً بسكنى الملوك والأمراء. وكانت الأرض من حوله صلدة لا تصلح للنبت فإذا بها حديقة غناء، بل جنة فيحاء يمتد في وسطها طريق يفضى بالسائر فيه إلى غرفة المائدة وهى غرفة مرتفعة أيضاً عن أرض الحديقة ذات أزج يمثل القبة السماوية في لونها السنجابي وتلألؤ كواكبها السنية، مرفوعة على أعمدة بشكل النخل علقت بتيجانها أطراف قطع مستطيلة من الخز السلازوردي اللون، بحيث تتصل أطرافها الأخرى بعضها ببعض في نقطة واحدة هي مركز الظلة القائمة فوق العرش الملكي، أما الظلة فكانت عبارة عن قبة (۱) جاء في بعض النصوص ما يشير إلى أن المصريين كانوا ييذلون الأموال الطائلة لتشييد

مجوفة مرصعة بلآلىء زرقاء وخضراء وقطع من البلور النقي منشورية الشكل كانت بسنائها، تلالق الوانها تخطف أبصار الناظرين.

أما العرش الملكى فكان موضع الجلوس منه درقة يقف إلى جانبيها ليثان يتكىء الجالس عليهما. وكانت زواياه الأربع قائمة القوائم على أربع صور تمثل أربعة من أمراء آسيا قد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون. أما الأرض فكانت مفروشة ببساط أزرق اللون رسمت فيه الحيوانات البحرية من أسماك وغيرها، إشارة إلى البلاد التي استولى فرعون مصر عليها، وقد مدت عليه موائد يحيط بها ثلاثمائة كرسي للمدعوين الذين سيدعون إليها من عظماء الملكة وقواد الجيش الظافر. وكانت ألوف المصابيح التي تشبه بشكلها أزهار الزنبق والخزامي تضيء القاعة بضوئها الباهر وتلفت الأنظار إلى شكلها البهي الزاهر.

وكانت مخادع النوم على هذا المثال من الجمال والجلال، إذ كانت مكسوة الجدران بنسيج أحمر مزركش بأسلاك الفضة والذهب وسقوفها مغطاة بقماش لازوردى دقيق السلك وأرضها مفروشة بجلود الزراف. وفيما يلى الحديقة من الناحية المجاورة للمدينة شيدت مبانى الخشب على صفوف متوازية لإقامة الحراس والجند، وجُعلت الاسطبلات في أخر ذلك كله ومن بينها إسطبل مُوه بالنذهب وزُين بالأزهار للجياد التي كانت تجر في ميدان القتال مركبة الملك. وقد وهبها رعمسيس لإله الشمس شكرا له على ما منحه من الظفر.

وكان الوالى آنى وصديقته راتوتى يتفقدان هذه الغرف فقالت له: يظهر لى أنك قد بلغت المراد بتشييدك هذه الأماكن وتنسيقك إياها على ما يوافق الذوق السليم، أجاب آنى: أصبت، إلا أننى لا أدرى مم أعجب، أمن سلامة ذوقك في الترتيب أم من

رجاحة عقلك ف إتقان الأساليب. فتبسمت راتوتي وقالت: إذا كنت أهلا ليعض المح فما هـ و إلا لأننى أخلصت لك الولاء ورمت لك الصعود إلى أوج السماء. و إلا فأى باعث يحملني على إجهاد القريحة في استنباط الوسائل الرجيحة لإنشاء هذا القصر الفخم في مستنقع امتبلاً بالحشرات، مع أن مصيره للزوال بعيد أن يُنفق في سبيليه الكثير من الجهد والمال. قال أني مطرقها رأسه: نعم سيكون عمر هذا القصر قصيرا وبقارُه كالطيف، ولكن هل ذهب عليك أن مشروعنا الذي قدحنا في تدبيره القريحة وأعملنا في تحضيره الفكرة قد ذهب نفضة في رماد؟.. ارى أميني قد خمدت همته وتلاشت عزيمته كما أرى الجنود التي اخلصت لي الولاء وحالفتني على الصدق في السراء والضراء قليلة العدد يكاد لا يبدو لها أشر في جيش عرم قد ثمل بخمرة الانتصار وتعلق بـرعمسيس لما أصاب من المجد والفخار. ثم إن الـرعاة العبرانيين الذين استملتهم هنا إلى مودتي بما رفعت عنهم من الضرائب الفادحة لم يتعودوا حمل السلاح والنزول في مواطن الكفاح. وأنت تعلمين فوق هذا ما جُبل عليه شعبنا من اتباع الغالب وتحرى مواطىء أقدام الظافر والغاصب والتزلف للقوى، فهم ولاشك مبادرون بتقبيل قدميه ولو سعوا حبواً إليه مع علمهم بما سفك من دماء أبنائهم وأزهق من أرواحهم .. لدا أراني فقدت الثقة فيمن حالفتهم واضطرب خاطري لأمر آخر لا أجد مجال القول ذا سعة لشرحه.. وهو أن الصقر المرموز لي به والذي عهدت إلى العجوز نيخت العناية بأمره لايزال مريضا، بل على وشك الموت لما تولاه من الضعف والوهن.

قالت راتوتى: إذا سلكت مسلك الرجال وجاريت في شهامتك الأبطال ، قويت أجنحة ذلك الصقر فاستطاع الطيران وحلق في سماء القدرة والامكان. واعلم انه لا يحسن بك النكوص على الأعقاب ولا أن تخشى من الملك أي عتاب. لأنه متى راك

وقد استقبلته استقبال الآلهة العظام انتفضت أوداجه بالكبرياء ونسى الانتقام، ومنعه ذلك عن توهم الغدر فيك وتحامل على من يناويك، وعز عليه أن يسيىء الظن فيمن أنابه لإدارة شؤون الوطن. ولكنه إذا أصغى اليوم لمقالك ولم يشك في حال من أحوالك، فإنه يخشى أن ينقلب عليك في الغد بوشايات الواشين إذ لايغيب عنك ما وقع في طيبة من حوادث لا يرجى أن تمحو أثر الوشايات. وما أشبهك الآن بأسد حبس في قفص حديد فاختلس من غفلة حارسه فرصة أفلت منه بها، فلما أخذت عليه الآفاق وامتدت الأيدى للقبض عليه كثر عن نابه. فإذا سلكت اليوم مسلك عليه الآساد ولم تخش بأس أحد من العباد فويل ثم ويل لمن يحاول أن يخضعك لجبروته ويرغمك على الطاعة لحكمه.

قال آنى: أنت لا تكفين عن إغرائى بما أخشى أن تكون عاقبته شقائى وبلائى... من يدرى أن يخيب سعينا كما خاب سعى بعاكر من قبلنا، وهو الذى دبر لرعمسيس من محكم التدابير ما كان ضمينا له بسوء المصير. قالت راتوتى: أتظن أنك إن أخطأت المرمى اضطرب حالك وساء مالك.. إذن ما معنى قول الناس إن الآلهة هم الذين يدبرون حركة العناصر وأن لا أحد منهم على تحريك ذرة منها بقادر . أتستبعد أن تكون الأقدار ساقتك إلى إنشاء هذا القصر الفخم العظيم لتدمره بالنار و تجعله العظم الرميم؟ قال: ومن يأخذ على عهدته إشعال النار في هذا المكان الذي ملأه عبدى ونيمو بالقصل والقار؟ أجابت: أنا التي تقوم بهذه المهمة مع رجل لا مطمع له عند رعمسيس ، وهو من أرباب النجدة والهمة. سأل: ومن هو؟ أجابت: بعاكر ! سأل: وهل هو هنا؟ أجابت: كيف تجهل وجوده وقد رأيته بعينيك؟. قال : بعاكر ! سأل: وهل هو هنا؟ أجابت: كيف تجهل وجوده وقد رأيته بعينيك؟. قال : لعلك واهمة. قالت: كلا! وقد خاطبته بنفسك. أتدرى من العبد الأسود الأعور الذى وافاك أمس بخطابي؟ إنه لبعاكر ابن أختى ستخم. فأرعد آني لسماع هذا الخبر

وقال: ما أسوأ حاله! قالت: نعم، إنه في أسوأ ما يخطر بالبال من الأحوال لتغير معالمه وتبدل ملامحه. ولقد فقد إحدى عينيه في منازلته لمينا فاصبح أعورا، وكان جسمه أبيض نقيا فطلاه بالسواد حتى تنكره أمه والناس. وقد أصيب بطعنة رمح نفذت من رئتيه فأصبح لا يتكلم ولا يتنفس إلا بعناء. وكان متين الأساطين قوى العضلات عريض الاكتاف، فصار نحيلا ضئيلا لا يفرق الناظر إليه بينه وعبد التصق بطنه بظهره من فرط الطوى. وما رأيته في هذه الحال التي يتعذر معها تبين أمره حتى عن لى أن أجعله من أتباعى دون أن أطلعه على ما أرمى إليه من المقاصد. والذي أتوقعه أنه سيكون لنا على تحقيقها عضدا ونصيرا ولو كان من وراء ذلك حتفه.. مالى أراك مترددا؟ أما رأيت أنى لك كمن يهز الجذع ليلتقط غيره الرطب ومن يغرس الشجر ليجنى غيره الثمر؟ وأذكرك هنا بوجوب التنبيه على حافظ الانبذة ألا يبخل بها على العسس والحراس وغيرهم من الجنود السردينية كيلا يفسدوا علينا يبخل بها على العسس والحراس وغيرهم من الجنود السردينية كيلا يفسدوا علينا مناسرينا. ولقد علمت أنك أمرت بإفراغ ثلاث من النبيذ. وعهدى برب مصر في المستقبل أن مصر مشحونة بما كان مدخراً عندك من النبيذ. وعهدى برب مصر في المستقبل أن

قالت ذلك وافتر ثغرها عن ابتسامة الاستنكاف. فأدرك أنى مرادها بها وقال: لقد خيل لى أنى خجول وفي جلائل الأعمال غير عجول، ولكنى أكاشفك بما يجول في خاطرى الآن وهو أن يكون ما فرط منا أضغاث أحلام لا حقيقة شديدة الأيلام.. أود تنفيض يدى من الدسيسة التي أحكمت تدبيرها بإنشاء هذا القصر الذي تكلف المبالغ الطائلة من المال. أما النبيذ الذي أشرت في كلامك إليه ففي وسعى التصرف فيه على كل حال وإهراقه على مدبح الأماني والأمال. ومع هذا فإني أكل الأمر إليك وأدع تصريفه على الوجه الموافق لسعة حيلتك. وقد اعتزمت الذهاب بعد الاحتفال

إلى معسكر الحبشان لأقضى به ما بقى الليلة من الزمان.

قالت راتوتي: إن تفعل هذا وشهد الناس أن النار التهمت ذاك الذي اغتصب عرش الفراعنة يبايعوك ملكا على مصر، ويكفى أن يبدأ أحدهم بالمبايعة ليقتدى يه الآخرون.. ولا يهولنك من الأمسر شيء فإن الكاهن الأعظم أميني يوثشرك على رعمسيس ويتلقى نبأ جلوسك على الأريكة المصرية بالبشر والارتياح، ولم يقي صدره حاملًا بعض الحقد عليك . ها قد أقبل الملك وها هي أعلامه تخفق من يعبد. قال آنى: نعم لقد جاء في قضه وقضيضه، ثم سكت هينهة وقال: أنبهك يا راتوتي إلى أن بنت أنات قد حلت بالجناح المخصص لها من القصر ولست أحب متى اشتعلت النار فيه أن تذهب فريسة للنار. فضحكت راتوتي باستخفاف وقالت: أهذا كل ما عندك؟.. كن واثقا أنها ستنجو من الخطر ولن يلحقها شيء من الضرر. فودعها آني ثم أجال النظر في البهو المعد لإقامة الحفلات وقال متنهداً: لقد ضاق صدري وحرت ف أمرى، ألا ينقضى هذا اليوم وليلته بخير وسلام.. فضحكت راتوتى وقالت: أراك تشبه هذا البهو الفسيح ف التجرد من مظاهر الجلال ومجالي السرور، ولكنك متى وضعت التاج على مفرقك وأمسكت الصولجان بيدك تهال وجهك يشرأ وتهافت لاستجلاء محياك النضير أفواج الناس فيكون شأنك عندئذ شأنه في هذا المساء، متى أضيئت المصابيح وخفقت الأعلام وتللألات كؤوس الراح وبدت على المحتفلين علامات الارتياح. فشكر أنى لها هذا التعبير الجميل بغمزة عينه وانصرف، فشيعته بنظرها وقالت في نفسها: سأدع بنت أنات هذا فريسة النار.. إذ لا أود أن أرى إلى جانبي من يشاطرني النفوذ والاقتدار.

وكانت بيلوز غاصة بالوفود توافدوا من كل صقع وحدب لتهنئة الملك وجيشه

الظافر. وكانت طوائف الكهان أوفدت الموقود لتحية رعمسيس وتهنئته بالانتصار على العدو. وكان -وفد مدينة الأموات منها مؤلفاً من خمسة اعضاء يراسهم امينى والنبى جاجابو. فقصد الجميع، وقد لبس بعضهم ثياباً ناصعة البياض والبعض الآخر جلود الفهود التى خُص بحملها الأنبياء - إلى القنطرة المشيدة على فرع النيل، يتقدمهم أعضاء وفد هيكل فتاح في منفيس وهو الهيكل الذى شيد في عهد الفرعون مينا أول مصرى جمع بين التاجين وملك ناصية الوجهين وعلى رأسه كاهنه الأعظم والمدبر لأموره ابن رعمسيس. وتلاه وفد مؤلف من كهان عين شمس فكهان هيكل مدافن طيبة الذى سبقت الإشارة إليه. وكان بيد كل كاهن محجن طويل منمق بأزهار الزنبق والورد، وبيد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة بأزهار الزنبق والورد، وبيد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة الأصابع وضع في تجويفها العطر الثمين. وكان ضمن مبعوثي هيكل آمون بعض نساء الأسر الكبيرة في طيبة، وقد وهبن أنفسهن لعبادة هذا الإله، وكانت راتوتي انخرطت في سلكهن حديثاً بناء على طلب الوالي آني.

اما أمينى فكان يسير إلى جانب جاجابو مفكراً كاسف البال فساله هذا بصوت خافت: أنظرت كيف جاءت الأحوال بما لم يخطر ببال.. أين آمالنا التى عللنا بها النفوس.. ألسنا الآن أشبه بسعاة البريد يحملون كتبا مختومة لايدرون ما تتضمنه من الاقوال؟ قال أمينى: كن واثقا أنى جئت لتهنئة رعمسيس مسوقا بعواطف الإخلاص .. أما علمت أنه سيعود إلى مصر على أثر ما وقع من الحوادث في قادش على غير ما جاء منها وفي حالة تباين حالته حينما برحها.. إنه ليقدر بلا ريب ما وافاه آمون به من النجدة والنصر ولعله ندر لهذا الإله تشييد الهياكل الباذخة إجلالا وإكراماً ووعد بتقديم القرابين لهيكلى. ولقد عهدت من رعمسيس حفظ العهد والوفاء بالوعد أكثر من ذاك الرجل النحيل الذي أراه في مركبته هناك باسم الثغر...

قال جاجابو: أخاف على هذا الوالى أن تبطش به يد الملك. قال أميني: إنى واثق من عفو فرعون عنه لأن الرجل لا حول له ولا حيلة فهو كالغصن الرفيع الذي تثنيه الرياح. قال جاجابو: ومع هذا فقد كانت ثقتك به عظيمة فإذا آمالك فيه أصبحت الآن كأمال العاطش الذي يحسب السراب ماء فإذا جاءه لم يجده شيئاً. قال أميني بصوت منخفض: إن ثقتى كانت بنفسى لا به، وآمالي كانت مستمدة من همتى لا من همته. وغاية الأمر أنى أردت استعماله في قضاء بعض الحاجات، فإذا أنا تخليت الآن عنه فما هو إلا لغلطه وغروره.. وأول مازلت قدمه زلت معنا في رفضه رجاء العفو عن بنطاؤر ثم حنثه ف يمينه انتقاماً من شاب شريف الخصال حسن الخلال. وإنه لجدير بالنفس الشريفة أن تناصب العداء نفساً مثلها لا نفساً خسيسة ممتهنة، أفيجوز إذن أن يكافأ الرجل الذي انتزع بنطاؤر من بيننا بإجلاسه على عرش الملك ووضع التاج على مفرقه؟! كلا إن المرء إذا أبى الظهور في مظهر الرجل السهل القياد المنحدر مع تيار الأهواء فالضرورة تحتم عليه الاستمساك برأيه وعدم الحيد عنه، إلا بعد إمعان النظر وإطالة الروية. ولكنا معشر الكهان الذين لا هم لهم إلا السهر على مصلحة الجمهور لا يسرى علينا مالا محيص لغيرنا عن العمل به من المبادىء والقواعد. فمن الحقوق المخولة لنا الرجوع عن الغاية التي إليها نرنو، ولو بلغنا إليها وجذبناها من ناصيتها كما لنا أن نتخلى عمن نصرناه ورفعنا شأنه ولو هوى إلى الحضيض. ومن مبادئنا الخالدة التي لم نحد عنها منذ الوف السنين أن الحياة الطيبة هي التي يقبض الكهان على زمامها. وهذا رعمسيس قد فتح البلاد وأخضع لسطوت العباد، لا أظن إلا أنه سيدأب بعد عودته إلى الوطن على تشييد الهياكل الشامخة وفاء بالنذر، ولابد له من الالتجاء إلينا لالتماس معونتنا، وأنت أدرى أنه لا محيص لن كانت له حاجة عندنا من الإذعان لنا. ها هو سر تهنئتي ابن سيتي على ما ناله من الفورز والغلبة ولا سر سواه. وكانت الأعلام تخفق على ضفة فرع النيل بينما كان ارتفاع الغبار في الضفة الأخرى يشير إلى دنو الجيش المصرى. ولم تكن إلا غمضة الطرف حتى طرق الآذان عرف الموسيقى العسكرية التى تسير في طليعته وكان الملك رعمسيس على رأس الجيش تقدح عيناه شرراً وتبدو فيهما آثار العظمة والكبرياء، ولكنه ما كاد يرى عند الجسر المحدود على النهر عشرات الآلاف من الأهلين يصيحون صيحات الفرح ويهتفون بالدعاء له وينثرون في طريقه الأزهار اليانعة والغصون الناضرة حتى تحولت عظمته إلى تواضع وكبرياؤه إلى عطف وحنان. ثم تواصل سير الموكب على هذا النمط فلما وقف تقدم أنى إليه وقبل الأرض بين يديه ثم عرض عليه صولجان الملك موضوعاً فوق وسادة من الحرير، فأشار فرعون إليه أن يدنو منه فلما دنا مال عليه وقبل ما بين عينيه ورجا منه أن يصحبه ويسوق مركبته لتشرف بقيادته إياها. وكان رعمسيس يحس في نفسه ساعتئذ بعاطفة الشفقة على آنى والشكر له بعد إذ رأى من ظاهر أمره ما يحمله على حسن الظن به وطرح الاعتقاد بأنه قد نزع بالدخيانة ومزق عهد الأمانة.

وكان رعمسيس يستشعر كأن قلبه إناء يفيض سروراً لمشاهدته الوطن الذي يريد له السعادة والسيادة على سائر الأوطان. ثم استقبل الكهان بأرق التحيات وأظهر لهم من الميل ما انثنوا منه داعين له بدوام البقاء غوثاً للوطن وحافظاً له من الشرور والمحن. ثم سار بإرشاد الوالى حتى بلغ إلى القصر فدخله وصعد إلى القاعة التي أعدت له متهلل الوجه باسم الثغر وتفقد بعد ذلك العجول وكانت تبلغ الألفين عدا ثم الأسود فالفهود المستانسة فالأشجار النادرة المجلوبة من البلاد الأجنبية وقد تخللت أغصانها الطيور المغردة بالوانها الزاهية، وهذا فضلا عما لا يحصى عدده من الزراف والنعام الذي خصص لجر المركبات. وكان لذلك دائم الانصراف

نحو البحر ينتظر بذاهب الصبر حضور كريمته بنت أنات.

أقبلت الأميرة بعد هنيهة فعانقها الملك وضمها إليه ضمة المشوق، لاسيما وقد أثار مراها في نفسه ذكري والدتها المحبوبة التي اغتالتها المنون منذ عهد غير بعيد. وكانت نيفرت تلازمها وتحمل لها مروحتها، فلما دنت من الملك جثت على ركبتيها فأمسك بيدها لإنهاضها وتلطف بها إذ قال: لقد وقفت اليوم على أمر جديد لا بأس من موافاتك به يا نيفرت.. لاحظت أن السعادة القصوى التي كنت أظن أن لا سعادة بعدها وأن الجمال الرائم الذي كنت أعتقد أن لا جمال بعده قد يتدرجان في النمو والازدياد إلى ما يتجاوز الظن والاعتقاد. ومن هذا القبيل طالع مينا، فقد كان كوكباً ساطعاً لا يدانيه كوكب في السمو والتلالؤ فأصبح شمسا متألقة الضياء. وما فاه رعمسيس باسم مينا حتى فكر في أمره فتقطب وجهله وكسف باله ولكنه تدارك ما فرط منه فالتفت إلى كريمته وسألها: ماذا فعلت صديقتك نيفرت حينما علمت أن قرينها اختار من بين السبايا امرأة جميلة أكسرم في صيوانه مثواها وأقسامها عنده أشهرا طويلة؟.. أريد منك يا ابنتي العزيزة أن تكشفى لى النقاب عن هذه الحقيقة. قالت: إن الشطط الذي ركب مينا بهذا الفعل متنه اضطر نيفرت إلى ملازمتي في هذا السفر الشاق، فقد نقلت راتوتي ذلك إليها فحنقت عليها وقالت لها إنها تظلمه بذمه والافتراء عليه وذكرت لها بعد ذلك أنها واثقة به ثقة لا حد لها وإنها تفضل البعد عنها حتى لا تسمع ما تكرهه في حقه منها.

سأل رعمسيس نيفرت: أحقيقى ما روته بنت أنات؟ فاحمر وجه نيفرت خجلا وأومأت إيماءة الإيجاب، بينما كانت دموعها تترقرق في عينيها وتنحدر كاللآلىء على خديها. فقال الملك: إن رجلا أحرز السعادة كلها باقترانه بمثلك لخليق به أن يكون

قدوة الناس في كرم الخصال ومحاسن الشيم. ثم التفت إلى رئيس التشريفات وقال: بلغ مينا أنى أحب منه أن يقوم اليوم على خدمتي في أثناء الطعام كما خدمني ليلة الاستيلاء على حصون قادش وإذكر له أنه تركني في معمعة القتال عندما أبصر ببعاكر وأنه إن رأى قرينته في هذا المساء فلا يتركن قدم الشراب يسقط من يده. فشكرت نيفرت للملك هذا العطف جاثية فلم ينتظرها حتى تقف ، بل انصرف للسلام على رجال بطانته الذين حضروا معه تضحية القرابين وكرر لهم وعده بإنشاء هيكل فخم في طبية. وكان الملك في مروره بين الأهالي والجند الذين ثملوا بخمرة الانتصار وإطالوا له الهتاف والدعاء يقطع الطريق الموصل إلى المرسى حيث كانت سفن كثيرة تقل جرحي المصريين فتفقيد أصوالهم واستفسر عن جراحهم وتمنى لهم الشفاء السريع. وكان أنى قابضاً على أعنة جياد اللك يجذبها إليه ليكبحها عن السرعة، ولكنه بالغ في الجذب حتى حرنت ولم يهدأ ثائرها إلا بشق الأنفس. وكان رعمسيس ف خلال ذلك يشعر بالحاسيس غيريبة تنتاب نفسه، فقد خيل له أنه برى وسط المزدحمين حوله شابا توافرت فيه قرائن الشبه بالبطل الذي انقذه في واقعة قادش عقب استغاثته بآمون، فقال محدثًا نفسه لعل الجياد حرنت عندما أبصرت بهذا الإله الذي لم يكن ف الحقيقة إلا بشراً كغيره عاد من موطن القتال جريحا كما عاد كثيرون غيره. ولقد كان في سعة الخائن الذي يقود مركبته ايقافه على جلية الخبر بعد إذ شهد بنطاؤر وسط الجموع، ولكنه لم يفعل ولن يفعل لأنه قد هاله منظره فجذب إليه الأعنة بدون إرادته لتشنج أعضائه واضمحلال قوته.

الفصل السادس عشر

المادية الملكية.. لتنفيذ المؤامرة السياسية

كانت الشمس على وشك الأفول وقتما عاد الملك من المرسى إلى القصر الشامخ الذى أعده آنى إجلالا له وإعلانا لانتصاره. وكان جماعة المدعويان يتهافتون على البهو الفسيح المخصص للمأدبة، وقد أضىء بالأنوار المتألقة. فلما دخل رعمسيس وجلس على أريكته واصطف أبناؤه حاله على شكل الهلال أطرق الحاضرون رؤوسهم ثم مثلوا بين يديه يتبع بعضهم بعضا، فكان يقابلهم بوجه باش ويحدثهم بلطف ارتاحت له أفئدتهم وانشرحت منه صدورهم وتطابقت ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه. وكان رعمسيس يحدث نفسه بقوله: إن أخص صفات الملوك المدعة واللين والدماثة، فإذا كان أجدادى اختاروا الثعبان رميزاً لعظمة شأن الفراعنة ومبلغهم من البطش والجبروت فلست أود أن يحمل رأسى تاجا يحتوى هذا الرمز الجائر. ثم أجال النظر فيمن حوله وقال: ارفعوا عن رأسى هذا التاج وضعوا بدلا منه أكليل ورد زاه نضير.

وفى غضون هذا الاحتفال انصرف من البهو اثنان دون أن يشعر بهما أحد، وهما الحوالى آنى والكاهن أمينى. أما الأول فما كاد يبلغ إلى الباب الخارجى حتى أمر حراسه بالذهاب إلى مكان الجرحى لإحضار بنطاؤر وحجزه في صيوانه ليتصرف كما يرى في أمره، وكان لايزال لدى الوالى ذلك الشراب الذى جهزته الساحرة نيخت ليصيب ربان السفينة بالجنون في الحال إذا ساغه، فحدثته نفسه أن يستعمله فراراً من بنطاؤر إذ كان يتوقع منه الأخطار والشرور.

أما أميني فقصد إلى صديقه جاجابو ليعوده، وكان أغمى عليه لشدة القيظ ف

اثناء التشريفات الملكية. ولقد سأل عن حاله فلما اطمأن عليه عاد أدراجه إلى القصر الملكى لحضور المأدبة السنية، فالتقى في طريقه بالجنود الذين نيط بهم استدعاء بنطاؤر، عائدين به. وقد لفت نظره إلى الشاعر اعتدال قده وهيبة وجهه فوقف في مكانه حائرا من الدهشة. أما بنطاؤر فقد عرفه وصوّت باسمه فاقبل الكاهن الأعظم عليه وعانقه فرحاً بلقائه. ولقد هم الحراس بالتفرقة بينهما فكاشفهم أمينى بحقيقته وأمرهم أن يذهبوا به إلى صيوانه لا إلى صيوان الوالى مؤكدا لهم أنه يتحمل عنهم تبعة مخالفتهم أوامر الوالى. فبكى جاجابو فرحاً برؤية بنطاؤر وأمر له أمينى بثياب بيضاء فلما تدثر بها وقف نظره عليه ثم وضع كفه على كتفه كما يفعل الأب الحودث منذ برح مصر، وما كان من التقائه ببنت أنات ومشاركته الجنود المصرية في واقعة قادش، إلى غير هذا من جليل الحوادث، إلا أنبه لم يفه بكلمة ما في حبه لبنت أنات وانقاذه الملك من الأخطار والمهلكات، بل قال في ختام حديثه: كنت منذ ساعة في خيمتي أسرح الطرف في الأنوار الزاهية المنبعثة من القصر، فإذا الحراس قد انسابوا في خيمتي على غرة منى وانتزعوني منها قائلين إنهم سيذهبون بي إلى صيوان الوالى في خيمتي على غرة منى وانتزعوني منها قائلين إنهم سيذهبون بي إلى صيوان الوالى الذي لست أعلم من أمره معي غير أنه ناقم على متعمد ايصال الضرر إلى.

فأرسل جاجابو وأمينى كلاهما إلى الآخر نظرة كفتهما مؤونة الكلام، ثم قام الكاهن الأعظم وانصرف معتذراً بقرب ميعاد الاحتفال وضرورة وجوده وسط المجال وأمر الحراس بالانصراف قائلا لهم إنه سيخبر الوالى بتعرضه لهم ومنعه إياهم من أخذ بنطاؤر إليه. وحينما بلغ أمينى إلى القصر كان أنى منصرفا إلى إجلاس المدعوين في الأماكن المعدة لهم، فاتجه نصوه وبعد أن سلم عليه باحترام قال: لقد تأخرت عن الميعاد المضروب فعفواً عفواً. وسبب تأخرى أنى ألفيت بنطاؤر على قيد

الحياة فدعوته إلى النزول في صيواني وأن يقوم على خدمة النبي جاجابو مكاني فإن هذا النبي لايزال طريح الفراش.

امتقع وجه الوالى غيظا حينما سمع هذه الأقوال، ولكنه كظم غيظه وتكلف البشاشة في وجه أميني حتى لا تنكشف له نياته ثم قال: أراك مخطئاً في سوء ظنك بي، إذ يبدو لى من كلامك اعتقادك أنى قصدت هذا الشاب بالإساءة في حين أنى لم أطلبه إلا لأرسله إليك. قال أميني: لا يسعني إلا الشكر لك وطلب الصفح منك بعد إذ خرجت على إرادتك ولم أنتظر إتمام مشيئتك. ثم تركه وجلس في المكان المعد له إلى جانب الملك.

وكان مئات العبيد فى غدو ورواح بين الموائد لتقديم الألوان الشهية ، وكانت تسير بين هذه الموائد مركبات صغيرة وُضعت عليها أوانى كبيرة من المعدنين الكريمين قد اتقن صانعوها نقشها، لتوزيع ما فيها على المدعوين. وكان فريق من الأطفال مختفين خلف أزهار النيلوف المجسمة التصوير فى خشب سقف البهو ينثرون على المدعوين أوراق الورد والبنفسج فيزداد منظر البهو بفعلهم هذا بهاء وبهجة ، لا سيما إذا أضيف إليه تموج الاقمشة الشفافة التى علقت بأطرافها فوق الثريات والمصابيح، فكان يخيل للرائى أنها سماء لازوردية اللون تتخللها على أبعاد متفاوتة منها سحب بيضاء تسير فى الجو سيراً وثيداً. أما الروائح العطرية فكانت تحرق فى مجامر من الذهب الخالص ارتفاعها ستة أقدام موضوعة وسط البهو. وكان الموسيقيون فى مكان لاتراهم فيه العيون، يشنفون الآذان بانغامهم المطربة وألحانهم التى تهز النفوس هزاً. وكان الملك ابن الشمس تنبعث من وجهه الانوار السنية كما تنبعث من هذا الكوكب الدرى، وحوله إلى اليمين واليسار أبناؤه الفخام.

وكان مينا يقدم إلى الملك الشراب في أكواب بعد أكواب، أما نيفرت وبنت أنات فكانتا تجاه كرسيه كالبدور الطالعات.

ولطالما انصرف نظر مينا وهو في مكانه إلى قرينته المحبوبة الأمينة التي لم يظفر منها بحديث منذ جاءت إلى هذه الأصقاع ، فكان الملك يشعر بأنه لاه بها عنه فينبهه إلى تقديم الشراب، كما كان ف خلال ذلك يتحف المدعوين باخبار الانتصار. وقد طاب ليه في ذلك تجنب الاختصار، فما جاء على أخرها حتى قيال رئيس كهان عين شمس: لا غرابة أن أفاض الشعراء في تمجيد أعمالك والتغنى بخصالك. قال الملك: لاتقل تمجيد أعمالي ومدح خصالي بل عناية الآلهة الذين أنقذوني ببركاتهم الطيبات وأظفروا جندى بما لهم من باهر الآيات وعجيب المعجزات. سالت بنت أنات: أرأيت الإله ذاته يا أبت، وإن رأيته فبأي شكل تجلى لناظريك؟ أجاب رعمسيس . بدت لي ملامحه كمالامح الموهار السابق، أبي بعاكر الخائن. وكان طويل القامة بدين الخلقة تلوح سمات الهيية على وجهه. وكان يحرك السلاح فيده برشاقة الطفل ولباقت إذا تفرغ للعبته. وكان أميني يصغى إلى اللك وعلامات الدهش ظاهرة في وجهه، فلما أمسك عن الكلام وقف وقال: لمو أن لمثل أن يعود إلى عهد الشياب لما عاقه عائق عن التنويه بقدر هذا الاحتفال، عملا بالتقاليد القديمة، في خطبة بليغة أنثر دررها، ولا عن تمجيد معجزة آمون وبسالة ولده في أبيات عامرة بالمعاني الشريفة والألفاظ العذبة اللطيفة كأملح شيء وأحسنه. إلا أني لشيخوختي التمس منكم الإغضاء على ظاهر عجزي عن السبق في هذا الميدان. ثم التفت إلى آني وقال: ولما كانت الاسماع يطربها الصوت الرخيم، وكان لا ينقص بهجة الاحتفال سوى شاعر يشيد بذكر انتصارات مولانا الملك بما ينظم من عقود الأشعار وينشد منها بين يديمه الكريمتين وف حضرته العلية بصوته الرخيم ونبراته البلبلية، فماذا لو استدعينا الشاعر بنطاؤر الذي أفاضت الآلهة عليه المواهب، وهو الآن قريب من هذا المكان وحضوره في حين الامكان؟

ما طرق اسم بنطاؤر سمع بنت أنات حتى عرتها هرة الدهش والحيرة والاضطراب، ولم يتمالك الكهان – الذين آلم قلوبهم وفت في عضدهم نبأ فقد هذا الشاعر الكريم الذي كان نابغة الشعر وبدر الشعراء الطالع في سمائهم – أن انجلت كروبهم وثلجت صدورهم حين علموا أنه مازال حيا يرزق وأنهم لسوف يمتعون برؤيته أبصارهم ويهذبون بسمو ابتكاراته أفكارهم. وما هي إلا دقائق معدودة حتى مثل الشاعر بين أيدى الملك والمدعوين وأنشد أشعاراً حماسية بليغة المعاني وصف فيها زحف الملك رعمسيس وجنوده على مدينة قادش حيث قال:

«نهض حضرة الملك وهو في غاية الصحة واعتدال المزاج، ونهاية القوة والابتهاج، كأنه المعبود منث آخذا عدة الحرب في الحال، ومتهيئاً للضرب والنزال، فأرسل مركبته في صفوف الأعداء الأنذال، ليوردهم موارد النكال، فهجم على بنى الخيتاس منفرداً بنفسه، ولم يتقدم معه أحد من أبناء جنسه، واقتصم المعركة وحده أى اقتحام، بمشهد من جميع الأتباع والخدام، وقد أصاط به ألفان وخمسمائة مركبة حربية، لأبطال الخيتاس وذوى العصبية، من القبائل المتكاثرة، والعشائر المتظاهرة، وهم (أرادوس) و (ماز) و (بتاسا) و (كشكاش) و (أليون) و (جاز) و (ناتان) و (شيروت) و (اكتور) وغيرهم، وكان على كل مركبة ثلاثة محاربين، بالسلاح و(شيروت) و (اكتور) وغيرهم، وكان على كل مركبة ثلاثة محاربين، بالسلاح مدججين وبعدة القتال مؤهبين، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته، ولا من معبوده ولا من أمراء دولته، بل ولا من عساكر المركبات وجند الرماة، فتوجه إلى معبوده واستغاث بمولاه، قائلا: تركني وحدى بوسط الميدان جند الرماة

والفرسان، ولم يبق معى من يشد أزرى ويعضد ظهرى، فماذا يريد بى مولاى آمون؟ فهل أنا ولد عاق، وللعقوبة أهل استحقاق، مع أنى لمولاى سميع مطيع، أصدع بالأمر على قدر ما أستطيع، وأقوم بحقوق المشاعر، وإظهار الشعائر، وأملا بيوت العبادة من غنائم الأعداء الغادرين، وأتقرب إلى المعبود بما لا يُحصى من القرابين، وقد أنفقت في تشييد المعابد المبالغ الفادحة، وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة، وأقمت الهياكل الجسيمة، واقتطعت لها الأحجار العظيمة، وغرست في المعابد الأشجار المخلدة، وندرتها لتكون مأثر مؤبدة، وأحضرت للمولى المعبود من جزيرة أسوان أحجار المسلات الباقية على مدى الأزمان، وأجريت السفن في البحار الزاخرة، لجلب غنائم الملل إلى الهياكل الفاخرة، فأبتهل إليك يا مولاى وبك أستعين، وأنا بين من لا أعرف من قوم كثيرين، بل وأنا في حضرتك وحدى، وقد انفض من حول جندى، تركنى عساكر الرماة، وفر عنى الفرسان الكماة، وقد دعوتهم فما أجابونى، واستغثت بهم فما أغاثونى، وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان، وأحق بنصرتي من الأبطال والفتيان، فانصرني على العدد الكثير والبم الغفير، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراه.

ثم أجاب الشاعر في قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبى دعاه وقبل رجاه، فقال: «سمعنا يا رعمسيس نداك، وقرع آذاننا من هرمونتيس صداك، فها أنا منك قريب، ولك نعم الأب ونعم المجيب، وأنا الشمس آخذ بيدك، وأقوم بسعدك، خير لك من الآلاف العديدين، من الناس ولو جاءوا مجتمعين، ومتى كنت بين مركبات القوم ولى كانت ألفين وخمسمائة تفرقوا منه زمين، وراحوا تحت سنابك أفراسك منكسرين، وضعفت قلوب أعدائك بين جوانحهم، واسترخت أعضاؤهم بين جوانبهم، فلا يرمون بها سهما ولا يهزون رمحاً، وسأغرقهم في الماء فلا

يستطيعون سبحا، ويقعون فلا يقومون نهضا، ويقتل بعضهم بعضا، ولقد تعلقت ارادتى بأن لا يلتقت أحد منهم خلفه، ومن سقط فلا يسود، ومن هوى فلا يعود».

ثم قال الشاعر على لسان سائس ركاب الملك: «يا سيدي العظيم، وملكي الكريم، وحامي مصريوم النزال، لقد بقينا بين صفوف الأعداء في وسط القتال، فمهلا مهلا والنجاة والنجاة! وياليت شعري يا سيدي الأجل، ماذا يكون العمل؟» . قال الشاعر فأجابه الملك: «اشدد عزمك، وقبق قلبك، فإني سألقناهم وأحمل عليهم كما يحمل الصقر العلوى على غنيمته، فأخذلهم وأقتلهم حتى يُلقوا في التراب». قال سائس الركاب: « فأرسل رعمسيس عليهم حينئذ مركبته وحمل عليهم ست مرات متواليات فقهر رجالهم، وخذل في كل مرة أبطالهم ، واجتمع حوله من لم يشهد الواقعة من قواد عساكره وفرسانه، وانصرف كل منهم فضمهم حوله، وجمع بهم شمله، وقال لهم لقد احتد عليكم قلبي، واشتد عليكم غضبي، هل منكم من أدى حق وطنه، وحمى حما بلده؟ لسولم يقم مسولاكم هذا القام، لأدرككم الحمام، بل قعدتم في مساكنكم وتخلفتم عن قلاعكم ومحاصنكم، ولم ترسلوا لجندي خيرا، ولا أوردتم عندي من أحوالكم أشرا، وإنما أرسلت كل واحد منكم في قلعته، وأوليته سولايته، موصيا أن يرتقب وقت الجهاد، وأن لا يتأخر عن النرال والجلاد، وها أنتم حميعاً أخطأتم، والأوطانكم قد أسأتم، ولقد اقترف جنودى وفرساني أكبر الآثام، إذ تركوني يحيط بي الطغام، وإن إثمهم لأكير من أن يُنعت ولكني أسديت شحاعتي، وأظهرت جيراتي ، وما أسعفني أحد من العساكر الرماة، ولا الفرسان الكماة، بل أخلى العالم بتمامه الطريق لبطشة عضدى، وكنت وحيداً لم يأخذ أحد بيدى».

ثم وصف بنطاؤر ميدان القتال وقتما عادت جنود الملك إليه بعد الهرب فقال:

«ثم أبوا فوجدوا وجه الأرض حيث ساروا مجلسلا بالرمم، مغموراً سالدم، ولكثرة القتلى به كان لا يوجد فيه موضع لقدم، فخاطبوا حضرة الملك بقولهم: - أيها البطل الباسل والسيد المقاتل، وصاحب القلب ذي الصبر والثيات، لقد أغنيت بنفسك عن جميع الفرسان والرماة. وبما أنك ابن الإله توم ومن صلبه فقد محوت بسيف الانتصار ، قطر طائفة الخيتاس من بين الاقطار، وإنما أنت رب العظمة، وملك القهر والغلبة، ولا اتفق لك نظير من سلطان ، قام بدلا من جنوده بأعباءالحرب والطعان. فلا غرو أيها الملك ذو القلب الكبير إذا كنت أنت حيث التقى الجمعان أول ميارز، وكنت أمام جندك أول بارز، والعالم بأجمعه ينظر إليك. إذ تعصب كله عليك». فأجابهم الملك بقوله: « لقد أخطأتم جميعاً خطأ شديداً، إذ أنكم تركتموني بين الأعداء فريداً، فلا أخذ بيدى عشير، ولا أسعفني أمير، ولا قام بناصرى مطلقاً نصير، بل هزمت الأحزاب من كل الملل وحدى ، وقاتلت دون جندى، وكان يحملني كل من الجوادين المدعو أحدهما بالعظمة في الصعيد، والآخر بالسعادة في الملأ الأعلى، ولم تجديدي سواهما حين أحاط بي الأعداء، فاكرموهما واعلفوهما بجيد الحب في حضرة الإله (فرا) كلما آويت إلى قصورى المشيدة، ذات الأعمدة العديدة. قال الشاعر: «فلما أصبح الصباح، وأشرق الفجر في اليوم الثاني وبنوره لاح، عاد الملك رعمسيس إلى القتال ، ورجع على الأعداء بالصيال ، كأنه ثور نزل على أوز، وعاد الشجعان من أصحابه للمجد والعز، فانقضوا معه على العدو في معركته، كالصقر ظفر بفريسته ، وقاتل معه الأسد الكبير، الذي كان يسير إلى جنب جواديه فاشتعلت جميع جوارحه غضباً، وصار كل من دنا منه سقط على الأرض ملقى، وظفر الملك بالأعداء، وقتلهم جميعاً فلم يترك منهم أحدا، وداسهم بسنابك الخيل حتى اندرست منهم الرمم، وتعجنت في الدم، وصارت كلها قطعة واحدة، لم تلبث ان صارت حامدة خامدة».

وما أتى الشاعر على آخر قصيدته حتى بهت الحاضرون ولرموا السكوت والسكون. وكان رعمسيس لا يفتر عن النظر إلى بنطاؤر. كأن نفسه كانت تحدثه بتوافر الشبه بين صورته وصورة المبعوث الإلهى الذى نصره فى واقعة قادش على أعدائه وقد حدق فيه النظر حتى انتهت به الحال إلى الاعتقاد بأن ذاك الذى يراه هو الذى أنقذه من مخالب الموت ووقاه شر الوقوع بأيدى الأعداء، ولولا ذلك لما وقف على نص الدعاء الذى كان يستنجد به الإله آمون. ولقد أنس من نفسه ميلا إليه لم يتمالك معه من الوقوف أمام عرشه إذ قال للمدعوين: إن هذا الرجل لحقيق بالاحترام والتبجيل فاحترموه وارفعوا قدره، لأن الألوهية تجلت في صورته لنجدة مليككم حين أحاط به الألوف من الأعداء. فصاح الحاضرون بصوت واحد: المجد والفخر لبنطاؤر.

وقد أثر هذا المنظر في نفس نيفرت تأثيراً جعلها تقصد إلى مكان الشاعر – وقد اكتسى وجهها النضير بحمرة الخجل – وتقدم إليه باقة ورد كانت وضعتها بين نهديها السرمانيين. فطرب رعمسيس لهذا العطف ثم التفت إلى بنت أنسات بعين المستفهم عن هذا السر، فنظرت إليه ثم قصدت إلى مكان بنطاؤر فكللت رأسه بأكليل من الرهور. فأعجب الملك بفعلها وصفق الحاضرون بأيديهم استحسانا، واسترسلوا في التصفيق زماناً. وكانت أنظارهم متجهة نصو الملك وابنته وبنطاؤر وظلوا كذلك حتى قال رعمسيس: لقد انتصف الليل فلينصرف كل منكم إلى حيث يريد، وموعدنا في الغد هنا.. فلا تنس هذا يا بنطاؤر. ولكن لنشرب قبل الانصراف في سر السلام والأمن، ولنشكر لآنى حفاوته بنا ومبالغته في إكرامنا، وإنى لأحمده حمداً خاصاً على غيرته وأمانته في إدارة شؤون رعيتي مدة غيبتي.

وهنا سار الملك يتقدمه آني مرشداً وانصرف الحاضرون. وما استطاع مينا أن يحظى بمقابلة نيفرت إلا دقائق معدودة تبادل معها فيها عبارات الشوق والوجد. وكانت الأميرة أذنت لها بالمبيت عند والبدتها راتوتي. أمنا رغمسيس فبقي بعد أن صرف رجال حاشيته ف خلوة مع ابنته. وقد سألها: فيم كنت تفكرين وقتما وضعت أكليل النزهور على رأس بنطاؤر؟ قالت بصوت واضح وعبارة صريحة: وفيم يا والدى فكر بنات مصر إذا فعلن مثل هذا؟ قال رعمسيس: ألا تحسيين حساساً لوالدك؟ قالت: إن والدي يعلم أثني خاضعة لأمره ولو كان في الخضوع حرماني من السعادة، ولكنني أعتقد أيضاً أنك تحب لي الخير والهناءة، ولن أنسى ما حبيت تلك الساعة التي كانت والبدتي المرجومة فيها على فراش الموت فوعدتني باستطالع أفكاري واستكناه مكنون أسراري، كما كان هذا شأنها معى في جميع أحوالي وأطواري. ثم ما فائدة الإسهاب وأنا لم أعشق بنطاؤر منذ أيام، بل إن زمام قلبى بيده قبل اجتماعنا بهذا المكان. ولقد رأيت أنه بما أبداه من جليل الفعال جدير بأن يسرقي إلى أقصى درجات الشرف والكمال. وهب أنسه وضيع الأصل وحقير الشأن، أفلم يكن خليقاً بشرف القربي من أميرة هي سلالة أعظم الملوك وجديرا بأن يسمو بفضائله إلى أسنى المراتب وأبعد الغايات؟ قال الملك: نعم لم أنس الوعد الذي تذكرينني به فافعلى ما شئت وتصرف بشؤونك على ما تشتهين. ولقد عهدت فيك من الصراحة في القول والفعل ما يحملني على الثقة بك والاعتماد عليك وإحالالك من نفسى منزلة والدتك منها، والدتك التي كثيراً ما سمعت قولها إن المرأة الصادقة أهدى إلى الصواب من الرجل مع ما اختص به الرجال دون النساء من الفضائل والمزايا. فاذهبى الآن يا ابنتى العزيزة لالتماس الراحة من العناء وابحثى عن أكليل جديد يزين راسك ويظهر بأسك.

الفصل السابع عشر ما يدبر في الظلام.. من الجرائم والآثام

ف السهول المحيطة ببيلوز نصبت خيام وسرادقات ناصعة البياض يظنها الرائى – وقد طرحت الكواكب عليها أشعتها الباهتة المريضة – كثبان رمل فى الفلوات الصحراوية وآكام برد فى المناطق الثلجية. وكان النازلون فى هذه الخيام والسرادقات فى ابتهاج وازدحام لا تشوبهما أكدار ولا آلام، لأنهم جلسوا للشراب من النبيذ العتيق الذى جىء به إليهم فى ثلاث قرب وضعت على ثلاث مركبات زينت بالأزهار تجرها عشرة من عجول البقر، وأصابوا منه كثيراً دون أن يكتفوا فثملوا وترنحت أعطافهم وطاشت أحلامهم. وكان بعضهم يتهافتون على الموائد التى مدت برسمهم فى أماكن معينة من ثلك السهول الفسيحة فيتناولون ما لذ لهم وطاب من الطعام والشراب.

وكانت خيام الجند مضروبة حول الحديقة التى أقيم بوسطها القصر الملكى، وكان سرادق آنى بينهما يمتاز بارتفاعه وانفساح جوانبه وجمال رونقه وحسن نظامه. وكان إلى اليمين منه الأمكنة الخاصة بإقامة وقود مدارس الكهنة، وإلى اليسار رجال حاشية الوالى وراتوتى خالة بعاكر تختال في مطارف العز والجلال. وكانت نيخت العجوز خلف السرادق لا يفصلها عنه سوى ستار رقيق. وكان آنى قد أخذها معه في سفينته وقتما حضر إلى مصر دون أن يعلم بأمرها أحدا سوى راتوتى وبعض من يثق بأمانتهم من الخدم.

وكانت العجوز ف أثناء الاحتفال قاعدة القرفصاء بالمكان المعين لها تعانى المشاق وكانت تستضيء والإجهاد ف استنشاق الهواء، لما أصابها ف صدرها من الداء. وكانت تستضيء

بمشكاة من الفخار الأحمر وعلى مقربة منها الصقر المريض، وقد غشيت عينيه سحابة بيضاء. وكان كلما حملته العجوز بين يحيها الجافتين لتنفخ في منقاره الأحدب ارتفع حاجباه وانتشر جناحاه، كما لو كان يتأهب لمنازلة جارح آخر أراد به سوءا. وكان الطفل شراعو على مقربة منها غارقا في نومه، وقد رأته في هذا الوضع فدفعته برجلها قائلة: قم من نومك أيها الخبيث. فهب المسكين من نومه فزعا وانتصب على قدميه وهو يتداعى للسقوط لغلبة النعاس عليه، فقالت له: يخيل لى أننى أسمع صياح امرأة منبعثاً من صيوان آئى، فاسترق السمع وقل لى إذا كان ما خيل لى حقيقة. أجاب: إننى أسمع صياحاً يشبه أن يكون أنينا، وأسمع صياحاً خر من خيمة نيمو. قالت: انطلق إلى هناك ولايدرين بك أحد ثم عد سريعاً واخبرنى بما رأيت.

انطلق شراعو مهرولا بينما كان الصقر في يديها تحوطه بعنايتها لأن الضعف قد استمكن منه فأخذ يميد يمنة ويسرة، إلا أنه كان بالرغم من ضعفه وتضعضعه يمد عنقه إلى يدها ويرفع منقاره يذود عن نفسه كلما بدت حركة منها تقصد بها إلى معالجة أمره. ولقد أيقنت العجوز أن لا أمل في استنقاذه من خطر الهلاك، فقالت بصوت خافت: هذا الطائر لا محالة هالك بعد قليل، أما الطائر الذي أسميته رعمسيس فإنه ينزداد في كل ساعة قوة وشبابا.. نعم إن قوة هذا وضعف ذاك لا يدلان على شيء ما في المستقبل من أمر الملك والوالي آني، فإن الاعتقاد بمثل هذه الخرافات ضرب من الهوس والجنون. ولكن من يدري ماذا تكون العاقبة؟ ألا يجوز أن يفضى التفاؤل بخير أو شر في أمر ما إلى الاعتقاد أحياناً بصحته.. رأيت الوالي قد ركب متن الخطر وزج بنفسه في مازق الشر والضرر، مع أنه سيعود بصفقة المغبون كما يدل عليه ضعف جناحي هذا الصقر المسكين وارتخاء أعضائه وانكباب رأسه.

ها هو قد تدلى.. ها هو قد مات. طرحت العجوز الطائر ميتاً في حجرها ثم القت به إلى احد اركان خيمتها ووجهت كلامها إليه كما لو كان الوالى آنى بعينه: اسعد الله مساءك يا آنى .. لقد عدت من آمالك في وضع التاج على مفرقك بالخيبة والفشل، وتبين ما بنيت عليه آراءك من الخطأ والخطل. ثم سكتت هنيهة وقالت بكلمات متقطعة: وماذا عسى يا ربى أن يقع بعد الآن من الحوادث؟ إن السرجل الحف في سؤالى أيقترن سعيه بالفلاح. وكان نيمو ينقل إلى اخباراً جعلتنى اعتقد بقرب وقوع حوادث كثيرة خطيرة لم يكشف لى عن مكنون سرها، ولكننى أخذت منها أن القوم يدسون لى الآن الدسائس وينسجون من التدابير ما أخشى منه على نفسى.. آه! ها قد عاودنى الحزن والالم.

ثم رفعت يدها إلى قلبها وسقطت على الأرض مغشياً عليها ولبثت غائبة عن الصواب ساعة من النزمن. فلما أفاقت من غشيتها أحست كان قطرات ماء بارد تجرى في عروقها، فقالت: لبو أننى ربيت صقراً أخبر لاستطلع من حالبه مستقبل أمرى لسار الآن في أشر أخيه، شم من يدريني أيفي آني ببوعده الذي وعدني من تحنيط جثتي بعد مماتي! ولكن كيف يستطيع الوفاء وهو ذاتبه سائر إلى الهلاك.. ستُترك جثتي معرضة إذن لعوالم الفساد والفناء دون أن أحظى بنعيم الحياة الآخرة. أو أظفر بما أشتهيه من اللقاء بمحبوبي آسا الذي لن أنساه ما خفق لى قلب في صدري.

قالت هذا ثم لزمت الصمت هنيهة استانفت بعدها مناجاة نفسها ليس الموت ف الحقيقة سوى واسطة للخلاص من آلام ذكرى الحوادث الغابرة وسبيلا إلى الحياة الخالدة التي لست أياس من الفوز بها! نعم لا يليق الياس بمثلي فإن الموتى جميعاً

-على تفاوتهم فى الدرجات- لا مناص من محاسبتهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا بمقتضى القوانين الإلهية التى لا ينبغى لنا التطلع لاستبطان أسرارها واستكشاف أسبابها. فأين يا ترى أجد محبوبى العزيز الذى أحرق بنار الحب مهجتى؟ أفي الجنة بين البررة المقربين أم في الجحيم بين المعذبين؟ أما أنا فسواء عندى أفي السعير وجدته أم في رياض الجنان رأيته، مادامت غايتى اللقاء به والتملي بمشاهدته، وليس لهذا أم ذل من ذريعة إلا تحنيط جثتى بعد الوفاة وصونها من الفساد والفناء.

وفي هذه الأثناء كان شراعو أبلغ إلى نيمو ما صارت العجوز إليه من تضعضع القوى والإشراف على الموت. فلما دخل عليها لتفقد أحوالها ووقع نظرها عليه تنفست الصعداء وقالت: إنك أحسنت بحضورك في هذه الساعة، فقد حان يا بنى أجل. ولا تغرب شمس اليوم حتى ألفظ النفس الأخير. فجزع نيمو وصاح قائلا: كيف هذا يا والدتى؟ أتموتين! كلا، بل يجب أن تبقى على قيد الحياة لتنعمى بعد انقضاء حوادث اليوم بلاة العيش وتفوزى بجزيل العطايا والمنن. قالت العجوز: أما حوادث اليوم التى تشير إليها فقد وقفت على ظواهرها وبواطنها. ثم أوعزت إلى شراعو بالانمراف وسألت نيمو أن يذيع لها ما كان كاتما من تدابير تُتخذ وفخاخ تُنصب. فدنا القرم منها وقال: إن القصر الذى سيقضى الملك فيه الليل بُنى من الخشب وقد وُضع القصل والقار في جدرانه حتى إذا نام أشعلنا النار فيصبح القصر وليس به أنيس ولا ديار، أما الحراس فهم الآن بين موت وحياة لكثرة ما شربوا من النبيذ الذى نهب عقولهم وسلب شعورهم. قالت العجوز: لقد بلغت الغاية في سبك الحيل، لكن لا أتوسم فيك الجرأة والإقدام على تنفيذها مادمت تجهل إذا كان قد اتصل بالملك سر المؤامرة عليه أم لا، أو سيشاركك في ذلك رفقة توافرت فيهم صفات الشجاعة واقتحام الأخطار. قال القرم: لايدرى بدخيلة هذه المؤامرة غيرى

وراتوتي وبعاكر. وقد اتفقنا جميعاً على إضرام النار في وقت واحد بجهات معينة. أما الجهة التي أخذت على عهدتي إضرامها بها فهي الحجرة الخاصة ببنت أنات. وقد تعهدت راتوتي بإحراق السلم المتصل بأداة إذا حركت سقط السلم ولم يعد الصعود فيه ولا النزول منه ممكنين. أما بعاكر فتعهد بإشعال النار ف حجرة الملك رعمسيس. قالت العجوز: حسن كل هذا، ولكن من المرأة التي كان صوت استغاثتها قيل حضورك بقليل يبدوى ف الفضاء؟ فتردد القرم ف الجواب فقالت: تكلم ولا تخش شيئاً من عجوز مثل ستحمل هذا السر معها إلى القبر. أجاب نيمو: التقيت في الطريق بحفيدة المحنط بينم فجئت بها إلى خيمتي معلىلا النفس بيزواجها متى استوى آنى على عرش الملك واعتنقتني راتوتى من رقها وكافأتني على إخلاصى ف خدمتها. والظاهر أنها كانت ف حاشية الأميرة بنت أنات، وكان مقرراً أن تقضى الليلة معها ف حجرتها. فساقتها الأقدار إلّ حتى لا يصيبها ما سيصيب غيرها من الموت بعذاب النار. وكانت تريد منى أن أطلق سراحها كي تعود إلى القصر فلم أجبها إلى طلبها، ورأيت أن إنقاذها من الحريق فرض محتوم عليّ. وقد الحفت في الطلب فلم أرر بدًا في اخضاعها لإردائي من شد وثاقها بحبل متين. سألته العجوز: وهل سكتت ولم تقاومك؟ أجاب: كيف لا وقد كانت تتقلب في يدى كمن يتقلب على الجمر ولم تمنعني هذه المقاومة العنيفة من التغلب عليها بمساعدة الأخرس خادم الوالي الذي أمره مولاه بمساعدتي. ولما علا صراخها حتى ملأ الجو وخفت العاقبة سددت فمها بقطعة خشب فلم تستطع الصياح. سألته العجور: وإذا ذهبت في تنفيذ مكيدتك، فهل تتركها وحدها ف خيمتك؟ قال: نعم لأن والدها معها. قالت العجوز دهشة: والدها رشتا ذو اللحية الصفراء!. وكيف لم يحطم عظامك كما يحطم قدر الفخار وقد رآك تسيء إلى ابنته؟ قال نيمو ضاحكا: والدها لا يستطيع حراكا لأني كنت

التقيت به ف المعسكر فأعطيته من نبيذاني قدراً وافياً أضاع رشده فهوى إلى الأرض جامدا كالمومياء. وهو الذي أطلعني على مكان وردة فأسرعت من فورى إليها ومازلت بها حتى أحضرتها إلى خيمتى بحجة أن والدها مريض وأنه رجا منى استدعاءها ليخفف عن نفسه الألم بالنظر إليها، فما سمعت هذا القول حتى اقتفت أثرى وحين رأت أن والدها قد فقد صوابه جثت على ركبيتها أمامه ثم طلبت ماء لتنضح به جبينه بعداذ ظهر لها أنه أصيب بحمى شديدة وسمعته يلهج بذكر جرذان كان يقول إنها أحدقت به وحملت عليه. وقد لحظت بعد ذ لك أن الوقت أزف وأنه لابد من العودة إلى القصر الذي فيه بنت أنات، فلما أبت البقاء عندى التجأت إلى العنف في إلـزامها على البقاء، ولـو دريت يا أمـاه ما أصبحت عليـه الآن من الجمال الباهر والحسن الزاهر! قالت العجوز: نعم جمال باهر وحسن زاهر! ولكنك إذا اتخذتها حليلة لك ستضطر إلى اذكاء العيون عليها لأن الجمال مرعى. قال نيمو: اعلمي أنى سأعاملها بما يعامل الأمراء والكبراء به نساءهم فأرصد لخدمتها الخاصة بعض الجواري الحسان.. أترى راتوتي قد عادت مع نيفرت؟ إني أرى الكواكب تهوى قليـ لا قليلا، وعما قليل يتم الحادث الجلل الذي اتفقنا على أن تكون إشارة الشروع بتنفيذه أن تصفر سيدتى ثلاث مرات فتهم عندئذ بوضع النار في الأماكن المعينة. وأذكر يا أماه أن عندك علبة ثقاب فاعطنيها فإنها أجود من ثقاب علبتي. قالت العجوز: خذها فلست بحاجة إليها بعد أن فرغ نصيبي من الدنيا. ولكن قل لى مالى أرى يديك تضطربان. دع الجبن والكعاعة وخذ العلبة بقوة وإلا تناثرت ثقابها قبل أن تضرم النار بها. فودعها نيمو بعبارات تشف عن العطف فلم تبد منها حركة ولم تنبس شفتاها بكلمة، فلما غاب عن نظرها وقف وقد ظهر القلق على وجهها وأنصنت لتسمع صفير راتوتى وكانت عيناها تلمعان وساورتها

الهواجس، فلما سمعت للمرة الثانية من صغير راتوتى المنبعث من صفارة فضة قالت تحدث نفسها: ما أشنع فعلتكم أيها الأغبياء الأدنياء، فبعاكر منكم عنوان الشر ونذير السوء وراتوتى صاحبة الصلف والخيلاء ونيمو مصدر المكائد وينبوع الحيل. ولكنكم لن تستطيعوا أن تمسوا رعمسيس بأذى ولو في أضغاث الأحلام. إن صقر أنى قد مات فلا أمل إذن له في تحقيق أمنيته كما لا رجاء لى في قضائه غايتى، ولكن لو رام رعمسيس.

ثم تناولت قنينة وسكينا وسارت مستندة إلى عكاز ومتعشرة فى أذيالها ، حتى بلغت إلى خيمة نيمو، وكانت الآفاق تررد دوى الصغير الشالث. فلما وصلت إلى الخيمة وجدت بها وردة مطروحة أرضا وموثقة الأكتاف ورشتا فاقدا الشعور. وكانت وردة ترتعد فرائصها وشراعو ممدودا عند قدميها كالكلب الأمين، فلما رأى العجوز مقبلة عليهما بسط يديه بالضراعة أن تنقذهما. أما هى فقد ألقت السكين إلى الطفل وأمرته أن يقطع الحبل الذى شد به وثاق وردة، وكان حبلا متينا مضفورا بالياف ورق البردى.

وبينما كان شراعو يعالج قطع الحبل بالسكين كانت العجوز تدلك صدغى رشتا بالخلاصة التى في القنينة ثم قطرت نقطتين منها بين شقتيه، فما هي إلا غمضة الطرف حتى أفاق الرجل من غشيته وأجال النظر فيما حوله دهشا حائرا. فقدمت العجوز إليه ماء وألحت عليه أن يشربه وقالت لوردة التى نشطت من عقالها ووقفت على قدميها: اعلمى أيتها الأيكة البيضاء أن الآلهة قد بعثتك هنا لأداء مهمة جليلة.. إن الملك وأولاده قد دُبرت التدابير لاغتيالهم، ولى شوق إلى إنقاذهم مما أوشكوا أن يقعوا فيه، غير راغبة في جزاء إلا أن تحنّط جثتى وتُدفن في طيبة. أفتقسمين لى

لتبلغن إلى الملك هذه الوصية؟ قالت وردة: أناشدك الآلهة ما الخطر الذي تتوقعينه؟ قالت العجوز: خذى على نفسك عهد الآلهة وميثاقهم أن تتعهدى قبرى بالعناية. قالت وردة: أقسم لك بالآلهة وبحياتي لئن مت لأتعهدن قبرك، ولكن أي مصاب يتهددنا الآن؟ أجابت نيخت: إن راتوتي وبعاكر ونيمو تأمروا على إضرام النار بقصر فرعون في ثلاث جهات منه، فعليك يا رشتا باقتفاء أثرهم وبادر بإيقاظ الحراس وعجِّل بإنقاذ الملك من الهلاك. قالت وردة لوالدها: هلم بنا يا والدى نتلاف الخطر وإلا وقع بنا السوء والضرر، قالت هذا وأخذت تركض خلف أبيها. وبينما كانت تمعن في الركض كانت العجوز تشيعهما بنظرات العطف والحنان وتحدث نفسها: إن وردة صادقة الوعد وأهل لحفظ العهد. ثم همت بالعودة إلى خيمتها فخانتها قواها ولم تستطع نقل قدميها. ولم يكن شراعو الصغير لضعفه بقادر على مساعدتها، فسقطت على الشرى، والتقتت إلى القصر فإذا بشعاع يسطع في السماء بين حين وآخر كأنه لمع البرق الخاطف ثم ازداد تألقه وتصاعدت بعده سحب دخان كثيفة اشتدت بها حلكة الظلام. وما هو إلا مر الطيف حتى اندلع لسان اللهيب وتطاير الشرر في جميع الأرجاء. فلما رأت العجوز هذا المنظر المخيف صاحت بشراعو أن يجرى إلى المعسكر ويوقظ النائمين. فأخذ يعدو صائحا بملء فيه: النار! النار! وقد أحست نيخت في أثناء ذلك ألما أحرج صدرها وضيَّق أنفاسها فرفعت يدها إلى قلبها وتشنجت شفتاها، وكانت آخر جملة فاهت بها قبل أن تفيض روحها: إلى الملتقى ف العالم العلوى يا أسا!.

الفصل الثامن عشر

النار! النار! وما وقع بالقصر من الدمار والاندثار

كانت راتوتي أخفت بعاكر في خيمة بعض الخدم كيلا ينكشف أمره ويفتضح سره. وما تمكن هذا الشاب الساقط الهمة من العودة إلى مصر إلا بشق النفس واستنباط الحيل. فإنه بعد معركة قادش التي أصبب فيها بالجراح الفادحة أخد يتلمس الطريق في الآجام الكثيفة والغابات المظلمة حتى وفقته المصادفة لمقابلة فلاح سورى يقود حمارا فاشتراه منه ثم امتطاه وطار به من سبل لايعرفها سواه وظل يواصل السير إلى أن يلغ إلى المغارة التي كان الشاعر بنطاؤر أرشد إليها والد وردة، فوجد بها تبابعه الحيشي الأمين الذي أقام على خدمته والعنباية بشأنه حتى أصبح بحيث يستطيع السفر إلى مصر. وقد قصد إليها فعلا فوصل إلى بيلوز متنكرا بلباس حداة الابل ولم يستصحب الحبشي، بل تـركه في سوريا حتى لايشي بـ فتمتد بد الانتقام إليه. ولما دنا من الحدود بين سوريا ومصر (١) وُجهت إليه أسئلة عن حقيقة شأنه وعن سبب حضوره وعما إذا لم يلتق في طريقه ببعاكر الخائن لوطنه أو لم يسمع عنه خبرا. وأخذ السائلون -وهم حفظة الحدود وحراسها -يصفونه له مأنه عريض الأكتاف قوى الأساطين بدين الجسم ظاهر الصلف، ولم يخطر قط ببالهم أنه هو بعينه الذي يجاوبهم عن أسئلتهم، وكان لهم في ذلك عندر. وقد تنكر في زي جمَّال أعور ووخطه الشيب وأنهك قواه التعب لاسيما مع تحيله على بشرته إذ غير لونها بعقاقير اشتراها من طبيب وطلى بها جسمه فأصبح أسود فاحما لا فرق بينه وبين الزنوج.

⁽١) كان على طول الخط الفاصل للحدود المصرية من حدود الشام بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر حصون متعاقبة تكاديت للصق بعضها ببعض لحماية مصر من غارات عرب الشاسو وكانت هي العلامة على خط الحدود.

وكان أنى وراتوتى قد وصلا إلى بيلوز حينما وافاها بعاكر متنكرا بذلك الزى يستجدي الناس إحسانهم، وحاملا بيده سعفة نخل. واتفق أن أيصر بخالته راتوتي فدنا منها مستجديا فأثر منظره الرث الحقير في نفسها بما حملها على إسدائه البر. وقد سألته عن أصله وسبب جراحه والصناعة التي ينزاولها واظهرت الاهتمام بأمره عملا بخطة عقدت العزيمة على اتباعها وهي استمالة الفقراء للاستعانة بهم عنيد مسيس الحاجة. فجناويها عما وجهت من أسئلة، وكنانت تتلقى بيانيه بتكلف الشفقة والرفق ولكنها تعذرت عليها معرفته بصوته، فلما كان اليوم التالي عاد إليها ليعرفها بنفسه. وقد كان، فلم تتمالك عندئذ أن أظهرت الدهش من تغير حاله وانقلاب سحنت، وكان آني قد أصدر منشوراً ينذر فيه بعقوبة الإعدام كل من اهتدى إلى بعاكر ولم يقبض عليه ليسلمه إلى رجال الحكومة. ومع هذا فإن راتوتي قد رضيت بهذا الخائن في خدمتها غير مقدرة لمخالفة ذلك الأمر عاقبة. وليس غريبا أن لاتعبأ راتوتي بالأوامر والمنشورات البرسمية لأنها كانت بحاجة شديدة إلى بعاكر ألد خصوم رعمسيس ومينا سائس ركابه. وكان ذلك الخائن على ما أصابه من العور ونزل به من المحن يجتهد في مجانبة الخدم، لأن رذيلة الكبرياء في طبعه لم يقهرها وازع المسيبة، فأراد مغالبة سنة الدهر في الخلق بأن يكون بعد أفول نجمه كما كان في أيام عزه وياسه. وكان ما امتلاً صدره به من الأحقاد والسخائم قد محا من فؤاده عاطفة الحب فلم يعد يفكر في نيفرت. وهو إن أفسح صدره للأحقاد ولم يمت بها فما هو إلا لتردد الأمل بنفسه في أنه سيقهر أعداءه ويدحر خصومه ويراهم في عداد الموتى، قبل أن يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعات.

كان بعاكر وهذه حالته أطوع آلة في يد راتوتى لتحقيق أمانيها. ولقد وثقت من صدقه وأمانته لأنه ما كاشفته بالمكيدة التي دبرتها وفوضت إلى حذقه – بل إلى

حقده – إضرام النار بقصر الملك والفتك بمينا حتى برقت في عينه بوارق الارتياح للقيام بأعبائها. وكانت تحت نوافذ حجرة الملك – وهي من سطح الارض بأربعين قدما – دربزون مقاما على أطراف قوائم الخشب الحاملة للسقف. فوضع المتآمرون تحت هذا السقف مواد كثيرة قابلة للالتهاب وتلمس بعاكر الثقوب المعدة لدخول المتآمرين منها ليشعلوا النار فاهتدى إليها بما احتدم في بصيرته من نار الحقد لا بما بقي في عينه الوحيدة من البصر.

وقد نفخت راتوتى في صفارتها النفخة الأولى فاندس بعاكر في الداخل دون أن يمانعه أحد لأن الحراس كان غلب عليهم النعاس، لما أفقد صوابهم من النبيذ العتيق الذي قدمه الوالى وأنصاره إليهم. ثم أخذ يتسلق الجدران بالأفاريز البارزة منها حتى بلغ إلى ارتفاع قامتين. وهناك وجد سلما من الحبال المتينة قد تُرك بمكانه عمدا بناء على خطة مرسومة من قبل، فاستمسك به خشية السقوط. وكانت حجرة الملك مضاءة بالأنوار الساطعة فشهد في مكانه ما كان يحدث فيها وسمع ما يقال.

وكان مما رآه جلوس الملك يطيل التأمل ويُعمل الفكر وأمامه الوالى آنى، وعلى مقربة من سريره مينا يهيىء له لبسة المتفضل(١) وأنه بعد هنيهة رفع رأسه ومد يده لآنى قائلا له بثغر باسم: اسمح لى يا ابن العم بأن يكون ختام هذا اليوم الجميل اعترافى بفضلك وشكرى مروءتك، فقد ألفيت فيك الصديق الحميم والخل الوفى والحافظ الأمين، وإن اعتقادى فيك لكذلك، ولهذا لم أحفل بما سعى الدواشون والحساد به لدى في حقك. وأعلم أنى من أبعد الناس عن إساءة الظن بالناس، غير أئيت أموراً رابتنى كثيرا وقلق من أجلها خاطرى. رأيت أننى ظلمتك وأجحفت

⁽١) ثياب النوم

بحقك، فقد بلغ من سوء ظنى بك مالا أجد معه مندوحة من الاعتدار إليك. انك صديقى وأنا صديقك ومن أحب الأمور إلى أن تقف الأمة المصرية على مبلغ ثقتى فيك واعتمادى عليك، ولست أجد للدلالة على هذه الثقة ما هو أبلغ من دعوتك إلى القيام على حراستى هذه الليلة، فنم أنت على الأريكة بينما أرقد أنا في هذا السرير.

فمد آنى يده لمصافحة الملك، وكان بعاكر على مقربة منهما يسمع كل ذلك ويراه فلم يتمالك من التبسم حينما شهد السوالى ممتقع اللون بادية عليه علامات الاضطراب والوجل. أما رعمسيس فلم يشعر بهذا التغيير الفجائى لأنه التفت إلى مينا وقال له: هلم إلى يامينا لقد اختبرت قرينتك أيما اختبار، فعلمت ما انطوى فؤادها عليه من الأسرار، وتحققت أنها تهواك ولاتحب في الدنيا سواك، وأنها قد اسلمت قيادها إليك لتمام ثقتها بك واعتمادها عليك. وشأنها في هذا شأن الاطفال الذين يأتون عفوا من الاعمال ما يفوقون به همة الرجال. وتذكر أنى وعدتك يوما بهبات وعطايا جزيلة إذا أقامت قرينتك على عهد الوفاء لك في مدة غيبتك الطويلة. وإذ لم تبق عندى خلجة شك في ذلك فسلنى ما تتمنى وهو يُوجَه في الحال إلى بابك.

فجثا مينا أمامه وأخذ يقبل أطراف ثوبه ثم قال: لا أستميحك يا مولاى إلا الإغضاء عن ذنبى ليخف عبء الهموم عن قلبى، وأنت أدرى بما هو هذا الذنب الذى ما تورطت فيه إلا لأن يد الخائن بعاكر تطاولت إلى نيفرت الطاهرة الذيل. وقد أيقنت الآن – كما كنت أوقن من قبل – أن هذه النوجة الصالحة المقيمة على عهد الوفاء لم تحس في نفسها نحو ذلك العتل الذميم غير الاشمئزاز والاحتقار كما تشمئز النفس لرؤية الخنفساء والصرصار. قال الملك: ماذا أسمع؟ لقد طرق أذنى الآن أنين شاك وعويل باك. ثم دنا من النافذة وأطل منها فلم ير أحداً، لأن بعاكر الذي لم يكف عن النظر إلى الملك ولا عن متابعة حركاته، قد تمطى تحت الدربزون فلم يره الملك لحلكة

الظلام. ولقد عاد إلى مكانه فقال مينا، وكان لايزال جاثيا على ركبتيه: اعف عنى يامولاى واصفح الصفح الجميل. أعد إلى ثقتك وسلمنى زمام جيادك الصافنات وفوض إلى أمر المركبات.. أنا لا أعيش إلا بك ولا أنعم بغير الإخلاص لك، فإذا كان مولاى قد رأى في عبده كفاءة واستحقاقا فما الفضل في ذلك إلا له وهو مليكى ومولاى وأبى. قال رعمسيس: قف يامينا، فلقد أجبت من قبل نداك وحققت رجاك، ولا يأخذنك العجب إذا سبقتك إلى تحقيق مرادك لأنى مدين لك بأشياء كثيرة لولاك لا حصلت عليها. ولك الآن أن تحمد نيفرت حمدا جزيلا فقد جاءت بالدليل على تفانيها في حبك، وأبسط أكف الدعاء إلى الآلهة الذين يجلون عن الموت ولايدركهم الفوت، اعترافا بما وفقونى له في هذا اليوم الميمون من مقابلة خلين وفيبين وزيادة أولادى في شخص الشاعر بنطاؤر.

ما أتم الملك الكلمات حتى طرق الآذان الصغير الثالث منبعثا من صفارة راتوتى، مؤذنا بتنفيذ المكيدة، فما أن سمعه بعاكر حتى ألقى جذوة نار مشتعلة من الفتحة المثقوبة تحت الدربزين، ثم نهض لينصت إلى حديث الملك ومينا غير مكترث بالخطر المحدق به. وكان أنى في خلال ذلك قد تقدم صوب الملك وقال له: ألتمس من مولاى العفو إذا اجترأت على الاستئذان منه بالانصراف وإنى لأشكر له التفاته السامى إذ عهد إلى حراسة ذاته العلية في هذه الليلة، غير أنى أشعر بإعياء في جسمى على أثر ما بذلت في الأيام الأخيرة من جهود وعانيت من تعب. فإن راق لمولاى أن يأذن لى، وهو المرتجى والمأمول للنعم.. فقاطعه رعمسيس: سيبقى مينا طول ليله ساهرا، أما أنت فاذهب إلى فراشك مطمئن البال، واعلم أنه إن أبقيتك هنا حتى الآن فما هو إلا لرغبة منى في إظهار ثقتى بك.. هلم إلى بالثياب يامينا.. ثم إن على لسانى كلمة أحب الإفضاء بها إليك.. اعلم أن الشباب يجذب الشباب كما يجذب المغناطيس الحديد.

فإن بنت أنات اختارت لنفسها بعلا من ذوى الشهامة والمروءة والفضل، ألا وهو الكاهن الشاعر بنطاؤر الذى أنقذنى من أيدى الأعداء وخلصنى من الشرور. وقد روى عنه أنه ابن بستانى بيت سيتى، ولكن أمينى أطلعنى على حقيقة أصله وسر مولده، فتأكد لى أن بنطاؤر إنما هو ابن الموهار العريق الحسب الكريم المحتد، وأن ذلك الوغد المقوت بعاكر هو ابن البستانى، وأن عجوزا ساحرة تسكن على أطراف المقبرة بدّلت أحدهما بالآخر لغاية في نفسها وأنها اعترفت بهذه الحقيقة ولم تجحدها، وهذا النبأ قد هش له وجهى وارتاح صدرى، إذ لولا استكشاف ذلك السر لانتقمت من ستخم إما بإعدامها وإما بنفيها إلى معادن الذهب في بالاد الحبشة..

وهنا سمع دوى جسم ثقيل قد سقط وارتطم عند سقوطه بالأرض فهرول الملك ومينا إلى النافذة لاستطلاع الخبر فلم يستطيعا الوقوف عندها لتصاعد الدخان الكثيف من تحتها ودخوله منها. فقال الملك: أحضروا الخدم لإطفاء الحريق. قال مينا للوالى: عجّل بالخروج وانج بحياتك، أما أنا فسأبقى هنا حتى تنجلى الكارثة ويعود الاطمئنان. وما كاد آنى يمسع نصيحة مينا له بالنجاة حتى ولى الأدبار كالأسير الذى يُطلق سراحه بعد طول الاعتقال. وكانت راتوتى أشعلت النار بداخل القصر وكسرت الأداة الحافظة للسلم فسقط تلك السقطة التى ألقت الروع فى القلوب. ورأى آنى ثيابها السابلة إلى كاحل القدمين وهى تطلب النجاة بعد فعلتها الشنعاء فناداها باسمها وهو يركض خلفها طالبا النجاة لنفسه أيضا.

أما رعمسيس فأظهر من الثبات والجلد ما استوجب العجب، لأنه عاد إلى حجرته رابط الجأش ساكن القلب، ثم أطل من النافذة ليقف على مبلغ الخطر فرأى اللهيب مندلع اللسان من الجناح الأيسر فيصبغ الفجر بلون يخيل للراثى معه أنه في رابعة

النهار. أما جهة الجنوب فكان السكون سائدا فيها، فوجّه مينا نظره إلى الدربزين الذي نزل بعاكر منه واختبر بقدمه متانته فتأكد له أنه من المتانة بحيث يحمل جملة من الناس، ثم التفت إلى الجهة الأخرى فلم يسعه إلا أن صاح قائلا: يا للخيانة إن هذا الحريق لم يقع اتفاقا وإنما هو نتيجة تدبير سابق، فإنى أرى رجلا يلقى جذوة نار مشتعلة، فأسرع مينا نحو السرير فتناول قوس الملك ورماه منها بسهم فسقط صارخا. ولقد وُجدت جثة ذلك المجرم بعد فإذا بها جثة نيمو الذي كان السهم أصابه في قلبه. وكان بذلك المكان ليحاول إضرام النار بحجرة بنت أنات ومخدع الأمير راميري. وخرج مينا من النافذة بعد ذلك ليقيس ارتفاع الوثبة، إلا أن الدخان كان في حجرة الملك كالضباب المنتشر وكانت ألسنة اللهب تندلع فتلتهم أخشاب السقف. وأحس الناس كلهم هذا الحادث الرهيب فأخذ الجنود الذين يقودهم رشتا والد وردة يصيحون: النار! النار! ليمت الدسّاسون والخونة! انقذوا الملك! فلما سمعت وردة صياحهم أسرعت إلى القصر لتخبر بنت أنات بما وقع، وتحضها على النجاة بنفسها. وكان الملك واقفا على الدربزين بجوار مينا يصيح بالجند: ليذهب بعضكم إلى القصر لإنقاذ ابنتي ويجتهد البعض الآخر في منع سريان الحريق بإخماد بغضكم إلى القصر لإنقاذ ابنتي ويجتهد البعض الآخر في منع سريان الحريق بإخماد النار، أما أنا فذاهب إلى الجناح القبلى لأرى ما حدث به.

ولكن جذوة النار التى ألقاها نيمو قبل أن يُرمى بسهم مينا جاءت بالغرض المقصود من إشعال النار وإحراق أخشاب السقوف وتخريب القصر وإهلاك سكانه. وكانت غمغمة أصوات العساكر تمتزج بقرقعة سقوط السقوف ودوى الطبول وصدى الأبواق فتصدم السمع جلبة يعجز قلم البليغ عن وصفها. وربط الأمراء أطراف ثيابهم بعضها ببعض ليتخذوا منها حبلا متينا يستعينون به على النزول من النافذة وقد تمكنوا من ذلك بما لا يخطر بالبال من الجرأة والهمة. وكان

رعمسيس يشجعهم على الخلاص دون أن يتصرك من مصوضعه ليلتمس النجاة لنفسه، لأن الدربزين الحيط بالقصر كان مقسما أقساما متساوية يبعد كل قسم عن تاليه بستة أقدام وكان يمتد ويشتد استعارا وينبعث منه الشرر فيتساقط كالشهب عليه وعلى مينا.

فصاح رعمسيس: أحضروا القش واتخذوا منه كوما في هذا المكان فلا مطمع في النجاة إلا بالوثوب. وكان اللهب يخرج وقتئذ من نوافذ مخدعه، ولاسبيل للوصول إليه، غير أن رعمسيس ومينا لم يفقدا شيئا من الجلد والأناة وحضور الذهن، فلما رأى مينا أن الاثنى عشر أميرا ينزلون من النافذة بالحبل المتين المتخذ من الثياب المتصلة الأطراف بعضها ببعض صاح براميرى—وقد تأهب للنزول—أن يرفع الحبل وان يثبت بمكانه حتى يجيء إليه. فأطاع الأمير أمره وقبل أن يعترض رعمسيس على مينا في فعله كان هذا قد وثب في الفضاء الذي بين أجزاء الدربزين فارتعدت فرائص الملك والأمراء وأكبروا مجازفته إلى هذا المد بحياته. لأنه لو كانت قدمه زلت في شيء لسقط كما سقط بعاكر ومات شر ميتة.

وبينما كان الحضور يشهدون هذه الناظر المؤلة المفجعة التى قوبلت فداحة الأخطار فيها بما يناسبها من الإقدام والثبات والاقتحام ، كانت النار تدمر السقوف وتلقى بها إلى الحضيض فيسمع لها دوى يختلط بترنيمات المنشدين المقبلين من المعسكر البعيد. وأبلغ شراعو نيفرت نبأ الحريق فأسرعت إلى مكان الحادث وجثت على ركبتيها تبتهل إلى آلهة النجاة أن ينقذوا أهل القصر من مخالب الهلاك. وكانت ترى مينا واثبا من مكان إلى مكان وترافقه في حركاته بفؤادها وسائر جوارحها وتعض على شفتها لتكظم في نفسها أحاسيس الخوف فلا ينهمر من عينيها دمع ولاينطلق لسانها بصياح. ولم تلبث الطمأنينة أن عادتها حينما أيقنت أنه يؤدى

الواجب عليه بشهامة الشجعان وثبات الأبطال فحل السرور في فؤادها محل الخوف والانزعاج.

ولما دنا مينا من راميرى ربط نفسه بطرف الحبل وأرشد الأمير الذى كان مستندا وقتئذ إلى النافذة إلى ما ينبغى أن يعمله ليرفعه ثم اجتاز الطريق الذى وثب منه بحيلة، فلما شهدت نيفرت أن الخطر محدق به لم تتمالك أن كتمت أنفاسها بيدها حتى لاينبعث صياح من فمها، شم أغمضت عينيها حتى لاترى ما يرعج فؤادها ويروع قلبها، وظلت كذلك زمنا. فلما فتحت عينيها رأت أن مينا اجتاز بعون الآلهة الفضاء الأول فالثانى فالثالث، حيث أمسك رعمسيس به وأوقفه إلى جانبه بعد أن كاد يفلت من يديه. وهنا تناولا الحبل وربطاه بطرف البرطوم ربطا متينا، ثم رمى راميرى بالطرف الثانى، واقتدى بمينا الذى كان ملما بأساليب الرياضات البدنية فاجتاز الفضاء السابق بدرجاته الثلاث ثم تلاه رعمسيس فمينا الذى عاجلته نيفرت بمسح العرق المتصبب من خديه وجبهته.

وما وطأت قدما رعمسيس الثرى حتى هرول قاصدا حجرة بنت انات فالفاها سالة من أى عطب ولم يصبها أدنى أذى، ولكن تجل لله من الحزن الذى استولى عليها أن وردة التى انقذتها من الخطر بإنباهها إياها من النوم قد عادت إلى القصر فأحاط بها اللهب ولم يُعلم من أمرها شيء بعد. وكان رشتا والدها انطلق مقتفيا أثرها ينزع شعر رأسه لشدة ولهه وخوفه عليها وأخذ يصبح صيحات الانزعاج فراه الملك وهو ف هذه الحال فعهد إليه قيادة الجنود الذين نيط بهم فتح ثغرة ف الأسوار ليُخرج منها من يستطيع النجاة. وكان بيده معول فلم يستطيع فتح النافذة بأول ضربة منه فاستجمع قواه وضرب ثانيا فما هي إلا فترة من الزمن حتى انبعث منها دخان كثيف كالضباب وبدا منه رجل قد وهت قواه، وبين ذراعيه وردة مغميا

عليها فأيقن أنها ابنته فاختطفها منه كما يخطف الصقر فريسته وذهب بها إلى حيث تستطيع استنشاق الهواء النقى الذى ينعش القلب ثم قبّلها بين عينيها المغمضتين وانحدرت دموعه لما أثارت حالتها فى نفسه من الأشجان وجددت فى مخيلته من ذكرى امرأته التى كان متدلها فى حبها، غير أن بنت أنات فاجأته وهو فى هذه الحالة فلم تدع له فرصة الاستسلام للحزن على أمر مضى وانقضى حيث تسلمت منه وردة وذهبت بها فعاد رشتا لقيادة الجند المكلفين بإخماد الحريق وإنقاذ المنكوبين.

أما الرجل الذى برز من النافذة حاملا وردة بين ذراعيه فقد علم والدها حين رآه أنه الطبيب نبسشت الذى كانت الأميرة بنت أنات اتخذته طبيبا خاصا لها. وقد ظل في معيتها منذ التقت به في جبل سيناء واتفق له بعد أن تسلم رشتا ابنته منه أن سقط ثانيا في القاعة التي برز من نافذتها حاملا إياها. وكانت الريح شديدة الهبوب تزييد النار استعارا والدخان تكاثفا وتصاعداً إلى عنان السماء وجدران القصر وأركانه وسقوفه انهيارا وسقوطا. فلما رأى رشتا أن الخطر قد أحدق بمنقذ ابنته ارتكز على النافذة واتخذ وضعا خيف عليه فيه من الهلاك ومن أن يلحقه ما لحق الطبيب، فطلب رعمسيس منه أن يعدل عن نيته وأن يترك نبسشت وشأنه فأجابه: الطبيب، فطلب رعمسيس منه أن يعدل دينا يجب الوفاء به، إنه أتقذ ابنتي من مخالب الموت مرتين فإذا أنقذته الآن أبرأت ذمتي.

فاه رشتا بهذه الكلمات واختفى فى اللهب ثم لم يلبث أن برز منه بعد دقائق حاملا على ذراعيه الطبيب الذى كانت النار تأكل ثيابه البيضاء. وكان يتحسس النافذة، فلما دنا منها رأى نفسه بإزاء مائة رجل تحت قيادة بنطاؤر قد اقتحموا هذا التنور المتلظى سعيراً لإنقاذ الطبيب. فلما رأى الشاعر أنه قد أغمى عليه وفقد الشعور بما حواليه اختطفه وناوله لأقرب الجند إليه فألقاه هذا إلى الذى بعده

وهكذا. وبينما كان بنطاؤر يمد يده إلى رشتا انقض السقف فأحاط والد وردة بشواظ من نار.

أما بنطاؤر فقد حمل نبسشت إلى صيوانه وهو لايزال مغمياً عليه من شدة ما أصابه واستدعى الاطباء إليه للعناية بأمره وساعدهم على أداء هذه المهمة وكان فى أثناء ذلك مضطرب البال متأثراً بالحوادث الغريبة التى وقعت فى ذلك اليوم الكاسف. وكان — حينما همّت راتوتى بالصفير إيذاناً بإشعال النار فى القصرب بحضرة الكاهن الأعظم أمينى الذى أوقفه على سر أصله وما طرأ من الحوادث على أثر ولادته إلى غير هذا مما أيقن معه أنه لم يكن ابن ذلك البستانى وأنه ربى فى الهيكل إكراماً له، بل أميراً من كبار الأمراء. ومع هذا فإنه لما استقر هذا الخبر فى ذهنه لم يحس فى نفسه أحاسيس سعادة جديدة ولم يوسوس فى صدره وسواس الكبرياء ولا غرور الارتفاع عن ذل المرتبة التى ولد فيها إلى عزة المجد المنتظر له. لأنه منذ درج من عشه - جُبل على التماس السعادة والشقاء لنفسه من نفسه لا من غيره.

ولما اندلع لسان اللهيب واشتد زفير النار وارتفعت أصوات الاستفاثة بطلب النجدات، هبّ من بين يدى الكاهن الأعظم لتلبية المستغيثين، فرأى ابن راتوتى ذلك الشاب الذى عُرف بالطيش والنزق. وكان قد أظهر فى واقعة قادش من الشهامة والإقدام ما استحق عليه جميل الثناء، فأراد المزيد منه بإظهار براعته وشجاعته فى هذا الخطب المدلهم. ولكنه جازف بنفسه مع نفر من صحبه مجازفة الطائش الذى لا يحسب للعواقب حساباً فتوسط معهم النار فسقط فوقهم جدار كان مستعراً كله فأوردهم موارد الموت وحُرمت نيفرت بهذه النازلة لذة العيش مع أخيها.

أما وردة فكانت في أقرب صيوان إلى القصى، قيد أسنيدت الأميرة رأسها إلى صدرها وأخذت نيفرت تبذل صنوف العناية بها لإفاقتها من غشيتها، إذ كانت لاتكف عن دلك جبينها بالروائح العطرية حتى أفاقت شيئاً فشيئاً من غشيتها، وعاد إليها الشعور فتمثلت لها حوادث اليوم الماضي في صورة انقبض لها صدرها وتذكرت اقتفاءها أثر أبيها راكضة لإخبار أهل المعسكر بالطامة الكبرى والجائحة العظمي، وكيف دخلت في الدهليز الموصل إلى مقصورة الاميرة وكيف كسر والدها الأسواب التي أحكمت راتوتي إغلاقها على بنت أنات حتى لايكون لها سبيل إلى النجاة وكيف أيقظتها من نومها وذهبت بها إلى خارج القصر، وشعرت بعد ذلك أنها نسيت الخاتم الذي حفظته عن والدتها أثراً خالداً وطلسما واقيا ف خزانة بحجرتها الخاصة فأسرعت العودة إليها للبحث عن هذا الأثر النفيس. ولقد وجدته في الخزانة وأخفته في طيات ثيابها ثم حاولت العودة من الطريق الذي جاءت منه فوجدته مسدوداً بحاجز من اللهيب والدخيان. وقد وقع نظر الطبيب نبسشت عليها وهي في هذا الموقف الحرج فانتزعها منه انتزاعاً. ولم تذكر من كل هذه الحوادث سوى أنها ابتسمت ابتسامة أرادت بها الاعتراف بصنيعة الطبيب الذي أنقذها من براثن الموت، ولكنها لم تلبث أن شعرت بحرارة قبلة أثرت في خدها كما تؤثر النار الشديدة في الشيء الناعم الرقيق فثار ثاثرها ويدت علامات الغضب على وجهها. فلم تتمالك بنت أنات أن قالت: ما أجمل هذه الفتاة ولا لوم على الطبيب نبسشت إذا ذهب إلى أنها من سلالة أسرة أجنبية شريفة، فهل وقعت الأنظار على يدين بلغتا من حسن الصورة وانفتال الأصابع ما بلغت يداها؟ وهل ماثل صفاء أديمها وشفافية بشرتها غير بلور فينيقيا؟

الفصل التاسع عشر «حيث تسهل الأمور.. ويباح المحظور»

لما انفذت راتوتى الحيلة التى دبرتها ونالت منها مرادها وقضت بغيتها هرولت مسرعة إلى صيوانها، حيث أزالت بالماء أثر الدخان الذى كسا بالسواد يديها، إلا أنها لم تجد به ابنتها نيفرت التى كان صياح الطفل شراعو قد أيقظها من النوم، فوقفت لذلك فـزعة حائرة فى أمرها. وكان بعاكر ونيمو وعداها بأن يوافياها على الفور بنتيجة المؤامرة وفعل الحريق فلم يأت منهما أحد ببشرى نيل المراد ونجاح التدابير. وكانت فى خالال انتظارها الطويل تبعث القيّم من أن إلى أن فى استطلاع أخبار أنى فلم يعد فى مرة واحدة مزوداً من الأخبار بما يشفى غليلها ويطفىء نار أحقادها. وغاية ماهنالك أنه أخبرها برؤيته العجوز نيخت ملقاة على قارعة الطريق، فاستمكن الانزعاج من نفسها بحيث كاد يفضى بها إلى الإغماء. وكان يريد بها الحال كلما سمعت صياح مناد أو قرقعة سقف هـوى إلى الأرض بعد أن تأكله النار وإذا خطف بصرها ضوء لامع. ومع هذا فإنها ماسمعت دوى سقوط السقف حتى قالت: لاريب أن هذه الأخشاب المتساقطة قد أوردت صهرى مينا موارد الهلاك، ولولا أنه مرق من طاعتنا لمرافقة رعمسيس لما استحق هذا العذاب الأليم.

وبينما كانت نهباً لهذه الهواجس سمعت هتافاً عالياً وأناشيد جميلة تردد صداها الأفاق، فداخلها وهم أن الأتيوبيين يبايعون أنى ويعترفون به ملكاً على مصر. وتجسم هذا الوهم في نظرها ساعتئذ فخُيل لها أن الوالى قد استولى على عرش الديار المصرية ووضع على مفرقه تاج الوجهين البحرى والقبلى. وزادت على ذلك أن

تراءت لها نفسها جالسة إلى جانبه، وقد أفرغت على قوامها ثوباً ثميناً. ثم عالت النفس بأنت تصبح هى وابنتها نيفرت – وقد أيقنت أن مينا ذهب فريسة الحريق—صاحبتى التصرف في أملاكه الواسعة. ثم أطرقت رأسها كمن يفكر في أمر ذى بال وقالت: أصبحت نيفرت اليوم من الأيامي فلم لاتقترن بأني؟ وهل لمثله أن يرفض الزواج بسأجمل أمرأة في الديار المصرية؟ أما أنا فسيكون في كوالدة ملكة الديار المصرية من سمو المكانة وشرف الرتبة وسعة النفوذ ما أعلو به علوا كبيراً على أهل الدولة، حتى على بعاكر نفسه الذي أصبحت لا أرى فيه إلا الة حقيرة أعبث بها كما أشتهى. ولا يبعد أن تؤول أمالكه الواسعة وأمواله الوفيرة إلى ولدى الذي لابد أن يعينه أنى سائساً لركابه أو رئيساً لضباط المركبات الحربية.

وبينما كانت راتوتى تعلل نفسها بهذه المنى إذا بالقيّم مقبلاً عليها، وما أن صار منها على قيد خطوات حتى صاح قائلاً: مولاتى! مولاتى! إن الملك ومينا واقفان وسط الذار على أفريز ضيق من أفاريز جدران القصر. ولن ينجوا من هذا الضيق إلا بمعجزة إلهية. ويقينى أن الذين أشعلوا النار بالقصر طغمة من الأشرار. ولقد رأيت جثة بعاكر فعرفته بخاتم أبيه وهو بأصبعه كما شهدت نيمو مصروعاً بسهم أصيب به. فما سمعت راتوتى هذا القول حتى اعتراها مايشبه الخبل اضطراباً وحيرة ثم سألت القيم: وماذا حدث لأبناء الملك؟ أجاب: الحمد للألهة أنهم نزلوا بحبل من ثياب وصلت أطرافها بعضها ببعض، وحينما برحت مكان الحادث كانوا حميعاً قد فازوا بالنجاة.

ماسمعت راتوتى هذا القول حتى تقطب جبينها واكفهر وجهها وأمرت القيم بالعودة لاستجلاء حقيقة الخبر، ومامضى على انصرافه من حضرتها بضع دقائق حتى أظهرت الجزع وملت الاصطبار وخُيل لها أن الدقيقة الواحدة منها ساعة طويلة. ثم انقضت الساعات فتتضاعف جزعها وازداد يأسها وفزعها. ولبثت تساورها الهموم حتى إذا اشرقت الشمس وارتفع النهار عاد القيم كاسف البال مضطرب الفؤاد ممتقع لون الوجه مصاباً بعمى أعجزه عن الإعراب عن مراده فالقى بنفسه على قدمى سيدته وقال متلعثماً: لقد كانت ليلة شؤوم ونحس هلعت لهول حوادثها النفس .. توكل يا مولاتى على الآلهة فيما نزل بك من الأرزاء وليكن لك في الإلهة ايزيس التى سقط ولدها جريحاً وهو يناضل عن أبيه وملكه أسوة حسنة في التعزى عن المصاب وصدق الاتكال على رب الأرباب، وليلهمك أمون الله طيبة القوى القهار الصبر الجميل على مصابك والقوة على احتمال رزئك إ ولدك فخر الشبان وموضع الآمال في الحال والاستقبال قد أودت بحياته الغالية قطعة خشب كبيرة هوت عليه. وكانت راتوتى تصغى إلى هذا القول دون أن تبدى حراكاً كأنها تمثال نُحت في حجر أو صيغ من نصاس ولم تنذرف من عينيها دموع الأسى والحزن على فقد ابنها وظلت كذلك فترة من الرمن قالت بعدها: وماذا جرى لرعمسيس؟ أجاب القيم: حمداً للألهة فقد أنجته من المعاطب. سألته: وأنى؟ أجاب: احتى حسمه فصار قطعة فحم ولم يُعرف إلا بالتاج الذي كان يكلل هامته.

هنا تولى راتوتى من الذهول ماكاد يُفقدها الصواب ويُسقطها في يدها جزعاً من العاقبة والعقاب. ووقف القيّم في مكانه كالمنزول به فزعاً مما راه، فتراجع إلى الوراء وأحس كأن الدم قد جمد في عروقه حين راها وقد شبكت أصابع يديها وأرسلتهما في الفضاء بعد ذلك كمن يريد خصمه بمصارعة أو ملاكمة، ثم قهقهت ضحكاً كمن أصيب بلوثة وبدا عليها بعد ذلك من العلامات والإشارات مادل على أن سماعها قد أزعجها فسكتت مطرقة رأسها، بحيث لم يقع نظرها على رئيس حراس الملك المعروف باسم (عين وأذن فرعون) وهو مقبل عليها في ثلة من ضباط الجند وبعض

الكتبة. وقد بلغ من ذهولها وجمودها أنها لم تسمع صوته وهو يناديها، بل لم ترفع رأسها إلا حين نبهها القيم بلمسه ذراعها فرفعتها في وضع تصنعت به أنها كانت في سبات عميق، ثم التفتت إلى رئيس الحراس وسالته بصلف وكبرياء: ماجاء بك إلى صيوانى.

أجاب: بالنيابة عن قاضى مدينة طيبة الأعظم القى القبض عليك وأعلنك بالحضور إلى مجلس العدل لمحاكمتك بتهمة الخيانة الموجهة إليك، وهي إحراقك قصر الملك للفتك به. قالت راتوتي وقد لاحت على خديها أشار ابتسامة الازدراء والتحقير: إننى مستعدة لك ومطيعة لأمرك، ثم أشارت إلى كسرسي رجت من الضابط أن يجلس عليه ريثما تسوى شعرها وتلبس ثيابها، فأبي رئيس الحراس الجلوس بل ظل واقفاً عند الباب، بينما كانت راتوتي تضفر شعرها الابنوسي اللون وتضع على مفرقها تاج الإمارة، وأخذت تبحث في أشيائها بعد ذلك عن قنينة صغيرة تحتوى خلاصة الجوز المقيء، وهو سم قتّال ابتاعته منذ أشهر من الساحرة نيخت على يد القرم نيمو. فلما عثرت عليها طلبت من إحدى خادماتها مراة، فلما تناولتها منها جعلتها إزاء وجهها بحيث لايراه الضابط ثم شربت القنينة. فما استقر السم في جوفها حتى اضطربت أعضاؤها وخرّت على الأرض صعفاً، فما استقر السم في جوفها حتى اضطربت أعضاؤها وخرّت على الأرض صعفاً، فما استقر السم في جوفها حتى اضطربت أعضاؤها وخرّت على الأرض صعفاً، فأما الفسابط نحوها على عجل، فلما وقع نظرها عليه قالت له: لقد فشلت في تدبيري، فأخبر الكاهن الأعظم بأنه سيصيبه من الفشل ما أصابني. ثم تقلبت يمنة ويسرة ناطقة باسم نيفرت وفاضت روحها.

إن الذين سالمتهم الأيام من بني الإنسان وهادنتهم صروف الزمان وشربوا من

كوثر السعادة والهناء، يعلمون يقيناً أن لابد من كدرة تشوب هذا الشراب العذب. ولكن ليس ف هذه الكدرة من ضرر ولا ضير لأنها تنبع الإنسان إلى وجوب الاعتقاد بأن أسباب الفرح والسرور لم تتوافر لأحد على وجه المعمورة مهما تجاوز له الدهر وابتسم له من السعادة الثغر.

فقد جاء موت راتوتى على مابسطناه من الوجه المحرن نقطة سوداء فى صحيفة هناء نيفرت ومينا، ولكنه بث فى نفسيهما أحاسيس جديدة بالحب المتبادل بينهما على أشرف المبادىء وأقدسها وهو الزواج فإن نيفرت كانت تستعين بحبه لها على التسلى عن مصابها بموت والدتها وأخيها، وكان حبها له يزيح ما تراكم من الهموم فى نفسه لتبديد والدتها المتوفاة ماله فى غيابه. وقد فهم وقتئد أن سعادتهم باللقاء بعد طول الفراق والتنائى لم تكن من بواعث تطامن قلبيهما وانشراح صدريهما فحسب، بل وسيلة أيضا لإبانة ماهنالك من ضرورة قيامها بعضهما لبعض بواجب مقدس ألا وهو أن يطيب كلاهما الأخر بما يزيل عن صدره صدأ الأكدار ويزيح عنه الهموم وردىء الأفكار.

أما رعمسيس فإنه لم يبرح مكان الحريق إلا بعد أن أصدر أوامره بتقديم الأضحيات وتقريب القرابين ورفع الأصوات بالدعاء شكراً للآلهة على حمايتهم الباهرة ومساعدتهم الظاهرة. وقد كانت تلك المكيدة التي أخفق أني وراتوتي فيها سعيا سبباً لهواجسه وبلباله فعدل عن مخالطة رجال الدولة متوخياً العزلة وفضل الانزواء في خيمة بسيطة أمر بضرب أطنابها على غشيان القصر الباذخ الذي كان ابتناه أني رافعاً أركائه على أسس الدسائس والغش. ولبث فيها يقيس الحاضر بالغابر ويرن ماراه من خير الناس وشرهم، بميزان الاعتبار والاستبصار،

فاستنتج من هذه المقارنة أن الخير كان فى كفة الرجحان فقال: ان الواجب عليه فى هذه الحالة الشكر للألهة وبنى الإنسان. ثم ناجى نفسه بقوله: لقد علّمتنى والدتى وأنا فى نعومة الأظفار كيف يكون شكر المعروف ومقابلة الصنيعة. وقد لقنت أبنائى هذه الدروس النافعة ونشّاتهم التنشئة الصالحة على تلك المبادىء الشريفة وغرست فى قلىوبهم وألقيت فى عقيدتهم أن نكران الجميل ليس فى شىء من كرم النفس ولا مقتضى الإحسان والعدل.

وكان رعمسيس قد تجرد من ميول الشر التي لايخلو منها فؤاد إنسان فبعث ف طلب كريمته وبنطاؤر، فلما مثلا بين يديه رجا من الأميرة أن تسرد عليه بالتفصيل الواف جميع الحوادث التي أفضت إلى وثوق عرى الحب بينها والشاعر، فأنشأت تقص عليه تلك الحوادث بالإسهاب، فكان في سماعه لها يوافقها على سلوكها في بعض المواقف وينعى عليها تصرفها في البعض الأخر. ولكن علامات السرور كانت بادية على وجهه في الحالين فلم يسعه حين أشرفت على ختام حديثها إلا أن أمسك بيد الشاعر ووضع فيها يد بنت أنات التي أطرقت في الحال رأسها حتى لمست به صدره الشدة ماتولاها من الفرح والدهش.

ثم التفت إلى بنطاؤر وقال له: لقد صرت منذ الأن بعضاً من كلنا وعضواً من أعضاء أسرتنا. وعليك أن تبقى إلى جانبى ف أثناء انعقاد الجلسة التي ستعقد حافلة بالأمراء الآسيويين للتداول في شروط الصلح بين الأمتين.

وفى خلال ذلك تشرف أبناء الملك بمقابلته وحظوا بجميل رعايته وشامل عنايته. وكانوا أقبلوا لتهنئته بالنجاة من خطر دسائس أنى وراتوتى، فعرفعهم جميعاً ببنطاؤر وكشف الغطاء لهم عن سر أصله الحقيقى معلناً عقد قرائه بشقيقتهم بنت انات. فوقف الأمير راميري وأخذ يهنيء بنطاؤر بأبلغ عبارات التهاني، فسر الملك بقوله وعانقه عناقاً طويلاً شاكراً له ما أبداه من الإقدام والشهامة ف حادث الحريق، وكان أفرغ عليه حلل الرجولة والبلوغ (١) على أثر واقعة قادش، لما أظهره فيها من الثبات والجلد. وقد عينه ف هذه المرة رئيساً لفرقة الكماة الماريين في المركبات وقلده وسام الأسد (٢) الذي لا يُمنح إلا للمتفوقين في الثبات والإقدام في ميدان القتال. فلما رأى الامير ترادف نعم الإنعامات الأبوية الملكية جثا على ركبتيه مثنيا على والده وشاكراً فلاطفه الملك بإمرار يده على شعره المسدول وقال: أكافئك اليوم اعترافا بشهامتك وتنويها بكفاءتك. وربما كان مقدوراً لك أن تلقى بدل المكافئة العقاب الصارم لأنك لم تخضع للنظام قط ولم تطع أوامر رؤسائك، وأنت عليم بأنه لا يعرف من الأمر والنهى شيئا من لم يتعلم الامتثال قبلهما. ومن آيات ركوبك متن الشطط في مخالفة الأوامر أن طردك الكاهن الأعظم لهيكل سيتى من مدرسته فجئت إلى الشام وانخرطت في سلك الجندية دون أمرى أو أمر أحد القواد. نعم لست أنكر أنك رجل راشد بشجاعتك وحذقك ولكنك ما برحت صبيا بعقلك ورأيك، وهذا نقص ف خلقك كان من أشره أن القي بك مرتين في يد العدو فافتديتك مرتين إذ قايضت عليك في احداهما بابنة ملك الدنائم مع أن بقاءها في حوزتي كان خير وسيلة لنيل بغيتى منه على أيسر وجه وحسم كل خلاف بيني وبينه، ولكن سوء تصرفك أدى بنا إلى التفريط بعض الشيء ف حقوق مصر. ولا تنس أن أبناء الوطن الذي تقوم على تصريف شؤونه وسياسة أموره حكومة منظمة متضامنون جميعاً في عمل ما يعود

⁽١) انظر صحفة ٢١٧ من الجزء الأول من كتاب فتوح مصر لماسبيرو

⁽٢) انظر كتاب هارتمن.

عليه بالمنفعة. وإنى لأشبههم وهم إزاء الواجب بأسنان العجلتين المتعاشقتين في الناعورة إذا انكسر سن إحسداهما تعطلت هذه الأداة الرافعة وعجرت عن رفع المياه من النيل.

ما أتم رعمسيس حديثه حتى جاء المنادون يبشرون بأن ملك الخيتاس وحلفاءه الأمراء ينتظرون وصوله إلى المجلس، فلبس أفخر ملابسه وتزيين بأجمل حلاه ومس أجود طيبه ووضع على رأسه تاج الوجهين القبلى والبحرى. ثم أقبل عليهم فى المجلس يتقدمه رئيس التشريفات وحملة الإشارات والكرام الكاتبون، ويتلوه أشباله فقادة الجيش فالمترجمون. وظلل سائراً على هذا المثال حتى استوى على عرش الملك، فاشار إشارة خر لها الأمراء الآسيويون سجدا وقبلوا الأرض بين يديه. أما ملك الدنائم فلم يقتد بهم بل استقر في مكانه مكتفيا بأداء السلام المعتاد، فلما شهد رعمسيس ذلك احتدم غيظاً وساله بلسان المترجمين أيعتقد أم لا أنه مغلوب على أمره. فأجاب: لم أحضر هنا أسيراً حقيراً. وقد سألتنا أن نضر على الأرض سجدا فرأيت أن سجود الإنسان للإنسان لا يتفق مع ما ألفته من عادات بلادى و لا مع شهامة الأحرار الذين يأبون السجود إلا للآلهة. وإذا كان مما ترامت ألي به أمالى أن أسير لك حليفاً في السراء والضراء، أفيروق لك أن يكون حليفك ممن تجردوا عن حلية الشرف والوقار.

سمع رعمسيس منه هذا الكلام فأخذ يجيل نظره في ملك الدنائم الذي كانت تبدو أيات الشهامة وعزة النفس واضحة على وجهه. ثم قال بصوت جهورى: أنا لا أقبل التفاوض في شروط الصلح إلا مع خصوم يسجدون لتاج الوجهين القبلي والبحرى، فاذا أتمت على إصرارك ولم تعدل عن عنادك فلن تصيب نصيبا ما من فوائد الصلح

الذى سأبرمه مع حلفائك. فلم يتحرك الملك الآسيوى من مكانه، بل قال: جئت هنا للمفاوضة في الصلح ولن أبذل كرامتي ثمنا له. أما جبهتي هذه فلن تلمس الثرى لإنسان أو لتاج، على أن لى عندك رجاء أيها الملك الشريف الأصل الكريم المحتد، فهل أنت محققه لى؟ إن مينا سائس ركابك قد بالغ في الحفاوة بابنتي (براكسيلا) وأكرم مثواها في أسرها فأردنا أن نشكر له هذا الجميل، أفتأذن لنا بعبور النيل لنؤدى له هذا الدين في صيوانه؟.

فأذن رعمسيس له بالانصراف ثم بدأت مفاوضات الصلح الذى كان الكتبة المصريون والآسيويون قد وضعوا المهم من شروطه وقواعده واتفقوا عليها قبلا. وكان العمل بالمجلس لهذا السبب مقتصراً على مراجعة نسخ الشروط التى جرت الناقشة فيها وحصل الاتفاق عليها، وعلى تقرير النظر في نص النسخة النهائية للمعاهدة بمدينة رعمسيس المسماة (طانيس) والمعروفة عند الساميين المقيمين فيها باسم (زاون).

ولما تمت المفاوضات دُعى الأمراء الآسيويون الى مأدبة ملكية أقيمت على شرفهم فجلسوا إلى موائد خاصة بهم، إذ كانت التقاليد المصرية في ذلك الوقت تقضى بأن يكون الاجانب – في أثناء تناولهم الطعام – بمعزل عن غيرهم خشية التلوث بالدنس في مجاورتهم أو الأكل معهم. وكانت تظهر على رعمسيس أمارات الامتعاض والاستياء في أثناء الوليمة، إذ خشى أن يترتب على إنصراف ملك الدنائم استئناف الحرب بعد زمن قصير، ولكنه مع هذا وبالرغم من إعجابه بشهامة هذا الأمير الاجنبي وإبائه قد عقد النية على التشدد معه فيما أراده عليه من الرضوخ لشوكته، خيفة أن يجر التسامح إلى إقتداء بقية الأمراء به فكأن لم يكن هناك صلح ولا اجتماع لتقرير سلم.

وكانت الشمس على وشك الغروب، فإذا بمينا الذي أمر الملك له بالراحة والرياضة قد عاد والتمس المثول بين يديه ليرفع إليه أمراً خطيراً. فلما أذن له رعمسيس واستدناه منه أخذا يتحادثان ملياً، ثم قام الملك بغتة على أثر الحديث وقال مخاطباً بنت أنات: هذا اليوم الذي ببديء بالحوادث المروعة قد خُتم بالأنباء السارة والبشائر، فقد اتضح أن الغادة التي أنقذتك من مخالب الموت، وكادت تلتهم النار جسمها اللطيف من أسرة عريقة في الحسب والنسب. فما طرق هذا القول سمع الأمير راميري حتى صاح غير محتشم: أي نعم، إنها لمن أسرة ملكية راسخة في الشرف، فنظر إليه والده نظرة مغضب وقال: خليق بأبناء رعمسيس أن يلزموا الصمت مالم يُدعوا إلى الكلام. فلم يكن من الأمير – وقد أدرك زلته وتعرف خطأه المسمت مالم يُدعوا إلى الكلام. فلم يكن من الأمير – وقد أدرك زلته وتعرف خطأه عنهم هنيهة. ثم أشار إلى كريمته أن تقتفي أثره فأجابته إلى أمره وكلمته مسارة في شأن ما.

فالتفت إلى راميرى، وبعد أن ظل قليلا في التفكير أمره بمرافقة أخته بلا توان ولا تأخير.

الفصل العشرون

حيث تتفتح أكمام الورد.. فيشم أريجه من وافاه السعد

كان راميري -وبنت أنات منصرفة إلى إفاقه وردة من غشيتها- يسال عن يعض أطباء المعسكر. فلما التقي بهم سألهم أن يرافقوه إلى صيوان أخته فأجابوه إلى طلبه وما وصلوا معه إليه حتى أخذ يرمى الغادة بنظرات تنم على ما كان يخالجه من عواطف الرفق وأحاسيس المحية لها، ولاحت على وجهله علامات الغبطة والابتهاج حينما تأكد له أنها لم تُصنب بجرح يخشى منه على حياتها. وقد أخذ منه الوجد عليها والشغف بها مأخذاً لم يسعه معه إلا أن تناول بدها اللطيفة ورفعها إلى شفته يلثمها بلهفة وشوق. ولعله تخيل أن لا رقيب عليه فمضى في تيار العواطف الغرامية وانقاد إلى الأحاسيس القلبية، إلا أن بنت أنات ما لاحت لها هذه الجذبات حتى أبعدته عنها بلطف الحيلة رغم ذهوله ولها بها ووجداً عليها. ولكنه استطاع بفضل مغالبته لهذه الجذبات استحضار ذاكرته فابتهل إليها أن لاتمنعه منها ولاتدفعه عنها، ثم سارًها بحقيقة أمره مع وردة منذ عرفها وأحبها وقال إنه عقد النية على الاقتران بها، فأرعدت بنت أنات لسماع هذا الكلام ثم قالت: إن الابنة ورثت الدنس عن أبيها، وهي مازالت ملوثة ولن تبرأ منه إلا بتجشم مشاق الأسفار وقطع الفياف والقفار. فاعترض الأمير بقوله: إن الشرف عندنا معشر المصريين يتصل بالأعقاب من الأرحام لا من الأصلاب. وقد كانت زوجة الجندى الشجاع رشتا.. فقاطعته بنت أنات: لقد عرَّفني نبسشت بأمرها، إذ قال لي إنها إحدى سبايا الحرب. ولاريب عندى في أنها كريمة الأعراق على ما يوخذ من شرف صورتها وحسن مالمحها. ولقد ورثت وردة عنها كل هذه المحاسن، فما أجملها من غادة تسبى النظر وتحير

الفكر! قال راميرى: إن لونها في صفائه لكالأزهار في حسن الازدهار، أجيل النظر في محاسنها أيا شقيقتي فقد تحركت من موضعها.. وردة افتحى عينيك.. وردة افتحى عينيك.. افتحيهما يا ريحانة قلبى وبهجة حياتي وسروري من الناس جميعاً.. إنا إذا اشرقت الشمس نقدم القرابين إليها ونضحي الأضاحي، فماذا نضحى ولى من عينيك شمسان متى أشرقتا أرسلتا إلى فؤادى سهاماً حادة النصال، فلما وقفت بنت أنات على ما بيه من العشق والهيام ابتسم تعرها، ورجت منه أن يبتعد قليلا عنها لأنها كانت تتنفس بعناء. وفي هذه الاثناء جاء طبيب ليخبر الأميرة بأنه هيأ للمريضة حماماً ساخناً من النباتات الطبية، وأنه قد أن وقت نقلها إليه. فدبس الاميرة التدابير لحملها إليه. وإنها من ذلك لفي شغل شاغل وهمّ ناصب، وإذا برسول من عند الملك يدعوها إليه، فاحمر وجهها من الخجل إذ كانت تعلم ما لأجله طلبها، فرجت من راميري أن يغيب عنها ريثما تتحلى بثياب الأعياد وفوصت إلى نيفرت العناية بوردة بالنيابة عنها. تم تحوّلت نحو أخيها وقالت له: إن نيفرت لعلى خلق كريم وخصال شماء وتقويضي إليها هذه المهمة الآن- وهي بين السرور والهم- خير ما تسرى به عن قلبها الهموم. ولقد أجاز والدى لمينا أن يلجأ أياماً إلى الراحة، فأطلقت لنيفرت عنان الحرية وأعفيتها من كلفة المراسم والطقوس الرسمية، لاسيما وقد أصبحت منذ الأمس في شغل شاغل كما أصبحت أنت كذلك. ولا عجب يا راميري إذا كنا الآن أشبه بطير (بينو) المقدس الذي يتهافت على النار في عين شمس فلايحترق بها، بل يصدر عنها أحلى رواء وأجلى مظهرا منه عند تهافته عليها. فإنا بعد نجاتنا من نار الحريق وخلاصنا من الضيق قد رقرف السكون باجنحته على رؤوسنا وبث الثقة في نفوسنا وبشرنا بالدخول في دور جديد من الهناءة والسعادة.

وما كاد راميرى يغادر الصيوان حتى سجدت بنت انات أمام صورة جدة والدتها وعكفت على الصلاة، ثم أطلقت البخور من المجامر على مذبح الإلهة هاتور التى كان لايفارقها تمثالها أين ذهبت فضوعت رائحته المكان. ثم ازينت بأجمل وأفضر ما عندها من الحلى والحلل وقلبها يفيض فرحا وابتهاجاً لقرب لقائها ببنطاؤر. وما أخذت زخرفها وازينت حتى دخلت على نيفرت ورجت منها أن تتولى وردة بعنايتها في مدة غيابها. وعندما برح راميرى صيوان شقيقته رأى الحراس يطاردون طفلا كانت تفيض الدموع من عينيه. فعرف الأمير أنه النقاش شيراعو الدى كان أول من قصد إلى وردة وكشف لها القتاع عن سر المؤامرة التى دبرها الوالى للفتك بالملك طمعاً في الجلوس على عرشه، وتذكر أنه كان لحه على مقربة من القصر ساعة شبوب النار فيه. وكان الحراس يدفعونه عن صيوان الأميرة فيحاول الدنو منه فيزدادون ارتيابا بأمره وخوفا من شره، وإنهم في معاملتهم إياه بهذه الدنو منه فيزدادون لأن الألسنة لم تكن تلوك في هذه الآونة غير سيرة أعداء الملك وتقننهم في أساليب تدبير الدسائس له للفتك به مرة أخرى.

وما وقع نظر راميرى على الطفل شيراعو حتى عجّل باستضلاصه من يد الحراس وأخذ يترفق به ويسأله عن أمره، فسرد الغلام ما اتفق له من الحوادث وكيف أنفذت العجوز نيخت الجندى رشتا وابنته وردة لإخطار فرعون بالخطر المحدق به والدسائس التى تُدس في الظلام له وكيف انطلق هذا الجندى بين صفوف الجند يوقظهم من نومهم وينذرهم جميعاً بالخطر المحدق بهم والذى جاء وقوعه على غير انتظار، وأنه لما لم يجد ملجأ يأوى إليه ولا حاميا يستظل بظله ويفيء إلى كنفه أراد أن يستنجد بوردة، فلما سمع الأمير منه هذا القول بعث به إلى نيفرت ورجا منها أن تأمر بعض الخدم بالقيام على شئونه والعناية بأمره.

وكانت وردة تفيق شيئًا فشيئًا من غشيتها على أثـر نجاح الأطباء في العنايـة بعلاجها فتحلت بأحسن ملابسها وقصدت إلى نيفرت، فلما وقع نظر مينا عليها ولم بكن رآها من قبيل سُهت لجمالها وخولط في أميره فلم يسعه إلا أن قبال: عجبا لهذه الفتاة الفتانــة! إنها لأشبه الناس باينــة ملك الدنائم التي أنزلتهــا سرادقي، ولا فرق بينهما إلا أنها أصغر سناً وأنضر شباباً وأوفر حسناً وبهجة. وكان شيراعو وقع نظره عليها فيدنا منها، فحدقت فيه النظير، إلا أنها لم تفه بكلمة وأحدة بالرغم مما بذل الأطباء من العناية بها. وكانت الدموع تتساقط على خديها فاتجهت نيفرت إليها وقالت: لست أنكر أنك فقدت في أبيك ركنا من أركان الشهامة وعزة النفس، ولكن خسارتي كانت ضعف خسارتك. فقد فقدت والدتى وأخى في نفس اليوم الذي فقدت أنت أباك. فنطقت وردة: إن رشتا والدى كان على جفاء زيه وقبح شكله حميد الأخلاق كريم السجايا، ولهذا لن تنمحي ذكراه من ذاكرتي ما دمت على قيد الحياة.. إن النارجيل خشن المس، ولكنه يعطى الحاذق الذي يعرف كيف يـزيل غلافه شرابا لطيفاً سائغا وطعاما حسن الذاق.. وما كان والدي إلا كالنارجيل يجفل الإنسان من منظره ويقبل عليه عند مخبره. ولقد مات جميع أهلى وأصبحت بوفاته آخر من بقى منهم على ظهر الغبراء، فأنا اليوم أشبه ما أكون بورقة شجرة عبثت بها الرياح على ساحل البحر قبل وصولنا إلى هذا المكان، ثم سقطت في الماء فتلاعبت بها الأمواج وأصبحت بمعزل عن سائر الأوراق.

ما وسع نيفرت عندما سمعت هذا التشبيه إلا أن قبلتها بين عينيها وقالت لها: ثقى بأن لك أصدقاء وصديقات لايتركونك وحيدة تعبث بك عواصف الدهر وصروف الزمان، كما عبثت الرياح بتلك الورقة. قالت وردة: إننى مع وثرقى بهم مازلت أشعر أننى وحيدة لا أنيس لى في هذا العالم، ولقد كنت بطيبة أقضى نهارى في

رؤية الأوز البرى طائرا في الفضاء غدوا ورواحا فأميز بين السابقات منها واللاحقات. وكنت لا أرى أن السابقات قد هجرتها اللاحقات لأنها تظل مرموقة منها من بعيد. غير أنى رأيت لفيفاً من الصيادين جعلوا اللاحقات مرمى أنظارهم فشتتوها في جميع الأرجاء وبقيت واحدة منها بأيديهم، أفلا ترين أن هذه الأوزة جديرة بالشفقة، وإننى شبيهة بها من كل الوجوه بعد إذ فقدت عشيرتى الأقربين ولم تعد عندى وسيلة للاجتماع بهم، وقد طال أمد الفراق.

قالت نيفرت وقد ظنت أنها تزيل عن قلبها صدأ الهم: ولكن أنسيت أنك الآن ف كفالة أسرة أعرق أصلا وأسمى شرفا من أسرتك؟ فما طرقت هذه الكلمات أذنى وردة حتى اضطربت شفتاها ولمعت عيناها وقالت بصوت يدل على إباء وعزة نفس: إننى فرع والدتى وهى رحمها الله من أصل عريق ومحتد كريم. أتدرين لم أقتحمت الأخطار إذ ألقيت بنفسى في النار؟.. لم أجازف بحياتى الثمينة إلا للاحتفاظ بالأثر النفيس الذى تركته لى، وكنت وضعته مع ثياب الحفلات والأعياد وقتما جاءني الشقى نيمو وأخذنى بدنىء حيلته إلى خيمته. ولايخطرن ببالك أن هذا الأثر مال دفعنى الجشع إلى الحرص عليه، إذ ما يلزم المرء لوقاية حياته من الموت بالجوع؟ إن هو إلا كسرة خبز وقليل من التمر وجرعة ماء نقى!.. بل كان فص خاتم نُقشت عليه كلمات لم أقف على سر معناها. وكانت تحدثنى الآمال بأننى ربما وقفت بهذا الطلسم النفيس النادر على حقيقة أصلى فذهبت أمال أدراج الرياح ويئست من الحصول على السعادة المتمناة وفقدت بضياعه كل أمل في الاستقبال.

وأخذت وردة العبرة فأمسكت عن الكلام فعانقتها نيفرت قائلة بلهف: إذن دهب الأشر النفيس فريسة النار. أجابت وردة: كلا! بل انتشلته من الصندوق،

وكان لايزال بيدى حينما تلقانى الطبيب نبسشت في ذراعيه. ولما أنقذت مسن السقصر وحُسملت إلى سرادق بنت أنسات حضر الأمير راميرى فتراءى لعينى كما تتراءى الأشباح في المنام. قالت نيفرت: لعله فقد منك وأنت في الطريق إلى هنا. فأومأت وردة بسايماءة الموافقة، وكان شيراعو مضطجعا على الارض يسمع الحديث، فلما انتهت منه نيفرت ووردة نظر إلى هذه الاخيرة بعين العطف ثم تسلل إلى خارج الصيوان دون أن يشعر به أحد.

كانت الساعات تنقضى، ووردة مطرقة إلى الارض برأسها كأنها تمثال الخشوع والحياء، ونيفرت ومينا صامتين جالسين أحدهما إلى جانب الاخرى يفكران فيمن التهمتهم النار. وكان السكون سائدا في السرادق فلم يسمع أحد به حسا ولا جرسا. ولم يكن في هذا المنظر الذي يقبض الصدور ويمحى آية السرور ما يستفز إلى العجب، فإن سحب الهموم أوشكت أن تكدر صفاء الزوجين فالتزما جانب السكون الذي لولا ما تخلله من صوت الأبواق ودق الطبول لخُيل لناظرهما أنهما في بطن الصحراء. وكانت هذه الاصوات التي ترددها الآفاق منبعثة من مكان استقبال الأمراء الآسيويين في السرادق الكبير الذي أعد لرعمسيس. وكان هؤلاء الأمراء الأسيويين في السرادق الكبير الذي أعد لرعمسيس. وكان هؤلاء الأمراء مقبلين ساعتئذ على مكان انعقاد الجلسات وقتما كان ملك الدنائم خارجا منه بعد أن استأذن فرعون في الانصراف ليذهب في حاشيته إلى قاعة الطعام، فتأمل فيما كان من احتفاء رعمسيس به وإعادته إليه ما سلبه من القابه إكراما لنيفرت وجزاء لها على إخلاصها الولاء لزوجها. فأخذ يصافحها كمن يترجم بهذه الاشارات عما يخالجه من الشكر والامتنان.

وبينما هيو في هذه الهواجس إذا بجلبة وضجيج، فالتفت مينا نحو مدخل

السرادق فإذا بضابط جاء ليخبره بقدوم ملك الدنائم وكريمته، تحرسهما شرذمة من الجند الملكى، فأمر مينا بفتح أبواب السرادق وتقدم مع نيفرت لاستقبال الزائرين الكريمين اللذين لم تكن زيارتهما في الحسبان، بينما كانت وردة تتراجع إلى الخلف تتلمس ركنا لايراها فيه أحد. وكان ملك الدنائم رجلا دب دبيب الشيب في لحيته وراسه ولاحت اسارير وجهه ولم تذهب بشىء من نضرة محياه وجمال ملامحه، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان فتخطفان الابصار وكانت ابنته تسير إلى جانبه بخطوات لاتباريها في الاستقامة والاتساق إلا التي تنظمها نقرات الآلات الموسيقية. وكانت ممنطقة بنطاق من العسجد المصفى حول حلة ناصعة البياض أفرغت على قدها السمهري، وشعرها مرسل إلى الكتفين كما كانت مكللة الجبين بأكليل متقن الصياغة، باسمة الثغر مستجمعة من محاسن الجمال ما يستهوى القلب وياخذ باللب. وكان معهما مترجم لترجمة ما يدور من الحديث بينهما ومينا وقرينته، ورجلان وامرأتان يحملون الهدايا النفيسة برسمهما.

وقد بدأ الملك حديثه مع مينا منّوها بكرم محتده وطيب عنصره وعزة نفسه وصدق شهامته ثم قال: لقد أتيتنا بدليل جديد على أن أبناء الدولة المصرية صاحبة الشوكة والاقتدار يعرفون الأمانة والاعتدال ويأتون المعروف والجميل، غير أنى اعترف لك بأنك قد زدت في نظرى قدراً حين رأيت أن قرينتك لاتعدلها ابنتى حسنا وجمالا. قالت نيفرت وقد احمر وجهها حياء: إن حسن ظنك بي هنو الذي وهبني نعمة الجمال الذي رأيت أنه يفوق جمال بنت ملك الدنائم، وما هنو في الحقيقة إلا دون. وإنني على كل حيال التمس منها ومن مكارمك الصفح الجميل. فتقدمت براكسيلا ابنة ملك الدنائم نحو نيفرت وعرضت عليها ماجاءت به من الهدايا النفيسة وهي أكليل مرصع بالأحجار الكريمة ومشابك ذهب وعقود لنؤلؤ، وقدم

الملك إلى مينا درعاً دقيق الصنع ودرقة من الفضة جميلة النقوش ثم دخل الجميع السرادق لتناول الخبز والنبيذ كالعادة المصرية بين الضيف والمضيف.

وبينما مينا في حديث الملك كانت براكسيلا تقص على نيفرت حديث الامها وتشرح لها ما لقيته في الأسر، وكيف تنازل مينا لما وقف على حقيقة أمرها عن حصته في الغنيمة وأكرم مثواها في سرادقه، وأن أحد الرؤساء أراد أن يخص نفسه بها. ثم أفاضت في شرح حسن معاملته لها وإيثاره إياها بعنايته ورعايته. وكانت متهدجة الصوت لشدة ما عراها من التأثر، حتى أشفق مترجم أقوالها وعطف عليها ولا سيما حين قالت: وقد أصيب خطيبي بجرح بالغ فأخذ من ميدان القتال محمولا على الأعناق، وقد من الله عليه بالشفاء وهو الآن بالانتظار حتى إذا عدت إلى مسقط رأسي ارتبطنا بعروة الزواج التي لا انفصام لها.

وسمع الملك هذه الكلمات فقال: ياحبذا لو أسبغت الآلهة علينا هذه النعمة فإن براكسيلا آخر سلالتنا وعليها نعتمد في استبقاء ذريتنا وتخليد ذكرانا. فقد فقدت في الحرب الأخيرة أبنائي الاربعة الذين كانوا في مقتبل العمر وصهرى الذي كان ابنه لايزال طفلا رضيعا وسقطت زوجتي سبية بأيدى المصريين منذ سنوات، ولم يبق لي سوى براكسيلا التي هي أملي للمستقبل وعزائي للحاضر. وفيما هو ماض في حديثه انساب طفل صغير راكضا في السرادق يصيح بملء فيه: ها هو.. ها هو.. لقد عثرت عليه.

وكانت وردة خلف ستر مسدول بينهما الملك وابنته من جانب ومينا وقرينته من الجانب الاخر، فسمعت مادار من الحديث وأحست فى نفسها جذبات تجذبها نحو ملك الدنائم وبراكسيلا التى كانت لاتنفك عن النظر إليها والإعجاب بجمالها. وبتً

هذه العواطف فيها اعتقادها أن والدتها ربما كانت من أفراد أسرة الملك فتقدمت إليه بقلب يخفق وديباجة عليها علامات الحياء وعرضت عليه الخاتم فما كاد بصره يقع على وردة حتى أخذته رجفة وتراجع إلى الخلف باسطا إليها ذراعيه، وصار أشبه ما يكون بامرىء يتنازعه عاملان: الحنان والذعر. فبينما تحمله الجذبات القلبية على التماس من يوليه الحنان ليضمه إلى صدره كان يتراجع إلى الخلف تأثراً بروعة منظره أو ياسا من لقائه، فعد مواتاة الزمان بتحقيق أمانيه المستحيلة من خوارق العادات أو الآيات الباهرات. وما وسعه وقتئذ إلا أن صاح: يا كزانت! يا كزانت، أهبطت ثانيا من السموات العلى للبحث عنى والقرب منى؟ وكانت براكسيلا تنظر وردة فخطفت من يدها القلق، ونزعت عقدها الثمين من جيدها، ثم ترامت على وردة فخطفت من يدها القص المكسور قائلة: إن معى نصفه الآخر، ولقد كان لشقيقتي كزانت السيئة الحظ.

إن قلم البليغ ليعجز عن وصف ما ألم بالملك من الدهشة والـذهول حين طرقت مسامعه هـذه الالفاظ، وما عالجه من الجهد للتظاهر بالسكوت والاطمئنان، وما أحسه من الجذبات الغريزية نصو وردة حباً لها وعطفا عليها. ثم قارن بين شطرى العقد اللذيان كانت وردة متحلية الجيد بأحـدهما وبراكسيلا بالآخر فـأرعد دهشا وخـولط ذهولا، وقـارن بين نصفى الفص فبان له أنهما يكملان بعضهما وأنهما يمثلان جناح نسر متصلا بقطعة أشبه ما يكون بنصف الشكل البيضاوى نُقشت عليه حروف ورموز يجهلها المصريون، وأن مـوضع التحام النصفين يكون في حالة اتصالهما شكل النسر الملكي ناشرا ذراعيه ومكتوبا على صدره بأحرف يونانية هذا الكلام الذي يكاد يكون من الأحـاجي والمعميات «ليس نصف الواحد حليا ولكن إذا فيُم إلى نصفه الثاني توافرت فيه مسرات زفس».

وقد تأمل الملك قليلا في ذلك الفص الذي كان صنعه لقرينته وهي شقيقته التي كان وإياها توأمين وتوفيت في نضارة الشباب وإبان العمر فأعطى نصف عقدها براكسيلا عملا بوصيتها قبل وفاتها والنصف الثاني لابنته كزانت، يوم عرسها. وقد كفاه الوقوف على حقيقة العقد مـؤونة البحث فبما إذا كانت الفتاة من سلالته، فضمها إلى صدره فلم تجفل منه وردة خوفا أو استنكارا، بل تركت نفسها إليه إذ أحست كأن الدم الذي يجري في عروقها يسري أيضا في عروقه. وبعد هنيهة أشار الملك إلى المترجم، فوقف أمامها ليكون واسطة التفاهم بينهما فسألها أولا عن والدتها، فأجابت بما لم يبق معه أثر للشك ف أنها كانت من السيايا اللائي أخذن إلى طبية ثم اشتراها جندي مصري أحبها حباً جماً وأولدها هذه الفتاة الفتانة، فلم يسعه إلا أن عانقها مرة أخرى ودعاها: ابنتي! ولدى! فلذة كيدى! وعهد إلى براكسيلا العناية بها والقيام على شئونها ثم أخذ يسرد الحوادث المحزنة التي تلت وقوع ابنته في أسر المصريين وكيف أنه قضى زمنا طويلا في البحث عنها ووعد بالكافاة من ياتيه باخبارها أو يرشده إليها، وأنه كان إذا سأل الممريين عما إذا كانت ابنته خرساء أجاب نفيا لأنه لم يكن يدور بخلده- وقد انقضى على سبيها نحو العشرين عاما- أن تحرمها المضاوف والآلام والشدائد نعمة النطق، وأنه لو كان يعلم ما آل إليه أمرها لما انقضت تلك السنوات الطويلة دون أن يلتقي بها.

وكان وجه الملك يفيض ابتهاجا وسرورا. فظلت وردة تنظر إليه وتستثبته ويدها في قبضة براكسيلا، إلا أنها التفتت بعد إلى المترجم وسألته أن يترجم لها بلغة الملك «أنا سعيدة جداً»، فلما أجاب نظرت إليه باسمة الثغر ونطقت الجملة بلغته، ثم سألته أيضا عن ترجمة: «إن وردة تحبك من صميم فؤادها»، فلما أوقفها عليها فاهت بها صحيحة اللهجة كما لو نشأت على التكلم بلغة الملك الذي لم يسعه إلا أن

ضمها إلى صدره مرة أخرى. وكانت نيفرت في أثناء ذلك تذرف الدموع ارتياحا لهذا المنظر العجيب والاتفاق الغريب. فلما التفتت وردة إليها وجهت نحوها وجهها وقالت لها: إن الأوزة المتروكة أدركت بقية الأوز، والورقة التي كانت تتلاعب بها الرياح وتتقاذفها الأمواج قد عادت إلى غصنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء. فلتسعد من كانت وحيدة فريدة بما من الله عليها من نعمة الاجتماع بالها بعد الياس من اللقاء.

وقضى القوم بعد ذلك ساعة يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت ساعة هناء لا يشوبها كدر فامر ملك الدنائم جماعته بالعودة، إلا أن مينا رجا منه الانتظار ريثما يطلع الفرعون على ما شهد من الحوادث، لاسيما وأن وردة أصبحت عداد غاشية بنت أنات التي عهدت إلى نيفرت العناية بشؤونها والقيام على مصالحها، ولم تأذن بتسليمها إلى أحد إلا بإذن منها. وكان رعمسيس على مائدة الطعام فلما رفع مينا إليه حقيقة حالها وأيقن منها أنها حفيدة ذلك الملك قام من فوره للاجتماع به. ثم التفت إلى راميري وقال له: عليك بإصلاح ما فرط من هفواتك بالاقتران بوردة فتربطنا بجدها لحمة النسب وأصرة القرابة. فسكت راميري ثم بادر بلثم يد ابيه وبدت على وجهه لوائح الابتهاج والسرور ورأى رعمسيس ذلك فقال له: يبدو لى من حالك أنك سبقتنا إلى تحقيق قصدنا ودبرت التدابير لذلك دون علمنا.

وظل القوم سائرين مهلاحتى بلغوا إلى سرداق ميناحيث كان ملك الدنائم وابنته وحشمه وغاشيته بالباب. فتقدم رعمسيس لمصافحته فلم يكن من الملك إلا أن جثاعلى ركبتيه ف الوضع الذي كان يرى أن فيه صغارا له يوم دعاه رعمسيس إليه فأبي ثم قال: لا تجعلني عداد الملوك ولا تحسبني من الأبطال، بل والدا حنونا

وأباً رحيما يلتمس الصفح منك ويناشدك الصلح ويستأذنك ف أخذ هذه الفتاة حفيدته إلى بلاده.

فما بلغت هذه الكلمات سمع رعمسيس حتى هرول نحر الملك فانهضه وصافحه وقال له بلطف: لا أبلغك إلا النصف من هذه الأمانى فإنه لا أشهى إلى نفسى بصفتى صاحب هذه الديار من إبرام الصلح معك على وجه ثابت جلى، وبصفتى رب أسرة لا أرى في أمر حقيدتك وردة إلا ما تراه ابنتى بنت أنات التى اتخذتها خليلة لها تلازمها أناء الليل وأطراف النهار، ويراه كذلك ابنى راميرى الذى أسرته في إحدى الوقائع، وما نراه جميعا وهو اقتران ولدى هذا بها. قالت بنت أنات: لقد سقط حقى على وردة في سبيل الأمنية التى يتطلع راميرى لتحقيقها، ثم سألت وردة: أيتها الفتاة أترضين بأخى بعلا لك؟

فأحنت وردة رأسها علامة الرضى والقبول. ثم التفتت إلى جدها وحدقت فيه بعينين أعربتا عما يكنه ضميرها. فقال جدها لراميرى: إنى أعرفك أيها الفتى الشجاع، لأنك شققت صفوف جيشى ونفذت فيها حتى صرت وإياى وجها لوجه فضربك أحدهم بالسيف فهويت من مركبتك إلى الأرض. وقد رأيت منك تهورا فى البسالة والإقدام، وهو عيب الزمان وحده كفيل بإصلاحه. وأما أنت أيها المولى الكريم والفرعون العظيم فسأرفع إليك فكرى حتى لا تخفى خافية عليك من أمرى. لست أعارض في اقتران الفتى بالفتاة، لأنى أرجو أن يكون من وراء هذا القران دوام الصفاء والاتحاد وزوال الأحقاد والأضغان.

غير أنى أستمحيك الإذن بأخذها إلى بلادى وإبقائها فيها عاما واحدا لأشنف أذنى بسماع اللغة التي كانت والدتها تتكلم بها. وأرى أن هذا الالتماس لن يجد

منكم إعراضا، لا سيما والوقت الملائم للاقتران لم يحن بعد، إذا راعينا الطقوس المتبعة فى بلادنا حيث الفتيان والفتيات يبلغون الحلم متأخرين بالقياس على ما تقتضيه نواميس الطبيعة فى بلادكم. ولا يذهب عليكم أن وردة من سلالة ملكية، وهى هنا لا دار تأوى إليها لأن راميرى عثر عليها فى مساقط الفاقة ومهاوى الشقاء. والأولى أن يتم الزواج فى بلادنا إذ فى وقوعه هنا ما يدعو راميرى إلى أن يتخيلها فتاة وضيعة انتشلها من وهدة الفقر ليرفعها إلى ذروة السؤدد والمجد.

قال الفرعون: ما تقوله حق وعدل فضد حفيدتك مع العلم بأنها ابنتى وخطيبة ولدى. ثم أخذ بيد وردة وقال لها: اعلمى يا وردة أن الأجل المضروب لزواجك سيعلمك كيف يكون الصبر ويجعل راميرى كفؤا لك بما يكسبه في هذه المدة من التجربة والخبرة. وأعلم يا راميرى أنه بعد عام ستصل إلى بيلوز سفينة فينيقية تقلك إلى بلاد خطيبتك حيث تقام الحفلات احتفاء بزواجكما وإكبارا لمقامكما. قال ملك الدنائم: ليكن ذلك، وإنى أقسم برفس — وهو قسم عظيم إن أحنث فيه أمت شرمية — أنى رضيت بابنة كريمتى كزانت قرينة لراميرى.

وما عاد راميرى إلى سرداق إخوته حتى عانقهم واحدا واحدا سرورا بالاقتران بوردة وبتحقيق أمنية من أعظم الأمانى التى تسردد بها خاطسره في حياته الماضية باعتبار أنه فتى في مقتبل العمر ينفعل قلبه بعوامل العشق. ثم أخذ يمازح قيم القصر الملكى، وهو رجل قوست الشيخوخة ظهره. وتطرف في المزاح لشدة تأثير السرور في نفسه فيانتزع من رأسه الشعر المستعار ورمى به في الفضاء. ولكنه استشعر غلطته وشيططه في الهزل فأعياد إليه الشعر وأظهر له أمارات الود والحب بما أزاح الضغن والبغضاء من القلب،

الفصل الحادى والعشرون

(موت رجل من أهل الشكوك ..وموت والدة حميدة السلوك)

صحبت وردة جدها وخالتها براكسيلا إلى السرادقات المعدة لهم بالضفة الأخرى من فرع النيل، على أن يعودوا في اليوم التالى إلى المعسكر المصرى، ولم تنس ما وصتها به نيخت قبيل وفاتها بساعات معدودة فأطلعت عليه بنت أنات. والتمست هذه من أبيها – وقد ثبت لها بالدليل المقنع، بل بالحقيقة المحسوسة الملموسة ما كان للخدمات الجليلة التي أدتها للاسرة المالكة من الأثر النافع – أن يحنط جثتها كما تحنط جثث نساء الأشراف فأجابها إلى طلبها، ولما همت وردة بمزايلة المكان دنا بنطاؤر منها وسألها أن تحقق لنبسشت الذي أنقذها من غائلة الموت وهو الآن على أخر رمق من الحياة – ما يتمناه من مشاهدتها فاحمر وجه وردة خجلا وأجابت الطلب قائلة إنها تعد نقسها سعيدة إذا أمكنها أن تخفف عنه وطأة الآلام. فانطلق بنطاؤر ليبشر الطبيب بتحقيق أمنيته، وكان قد قضى عنده طول ليله للعناية به.

أما سبب إشراف نبسشت على الموت فهو أنه أصيب بحمى شديدة من جراء الحروق البالغة التى انتابت رأسه. وقد تبورم بتأثيرها خداه وانتفخت أوداجه، وحار الأطباء في علاجه لأنهم لم يهتدوا إلى سبيل في شفائه ويئسوا من إنقاذه. وأبلغوا إلى صديقه الشاعر أنه لم يبق بينه والموت سوى ساعات معدودة فوضع بنطاؤر كفه على جبهة صديقه ليتحسس الحرارة فألفاها شديدة، ولكنه أخذ يشجعه بعبارات الأمل فتبسم نبسشت الموقن بدنو أجله وقال بصوت خافت، وهو

يشير بأصبعه إلى رأسه وقلبه: ليس لى سوى أنفاس معدودة لأحصل على الراحة في هذا العالم والعالم الثاني. قال بنطاؤر: إنا نسير بخطوات واحدة ونطمح إلى مثل أعلى جعلناه موضع أمانينا ألا وهو الراحة. فهل يبعد أن يكون هذا السير الباعث الوحيد على عمل الإنسان ونشاطه في هذه الحياة؟ وإذا كانت الآلهة تطوف بالنعم أعناق العاملين المجدين، فلا ريب في أنك ستنال اسنى العطايا وأجزل الهبات جزاء عملك المتواصل وهمتك التي لاتني في البحث عن الحقيقة. وإذا كان عقل بشرى اندمج في روح هذا الكون وغاص بحار العلوم لاستطلاع أسرارها، فإنما هو عقلك أيها الصديق الحميم. وإذا كان للعينين أن تبصرا الربوبية الصحيحة من خلال السحب الكثيفة الحائلة بيننا وسر وجودها فما هما إلا عيناك، وهما أولى العيون وأحقها بهذا الامتياز الجليل.

قال نبسشت متنهدا: طالما نقبت عن هذه الحقيقة وكابدت في سبيلها المصاعب واحتملت الضيم، فلما كشفت النقاب عن جانب منها مد الموت إلى يده الباردة الثقيلة ليغمض بها عيني. ولست بعد هذا أرى من فائدة في شهود الألوهية ولا في مشاطرتها الإحاطة بعلم الحقائق اللدنية والوقوف على الأسرار الكونية. لأن من وراء البحث عن هذه الحقائق والأسرار لذة لا تعادلها لذة شهودها بأعيانها أو الإحاطة اتفاقا بعلم ما لم يُعلم من أطرافها. لهذا كنت تراني أوثر أن تتجدد حياتي في هذه الدنيا على الخلود في الأخرى، ليتواصل تمتعي بلذة البحث وحلاوة الاستكشاف التي تجعل الباحث إزاء نتائج بحثه كالثمل سرورا وفرحا.

قال هذه الكلمات وسكت، لأن قواه كانت تتلاشى بسرعة غريبة فلما رأى بنطاؤر ذلك رجا منه أن يهدىء روعه وأن يستحضر في ذهنه ما قضاه في الحياة من

سويعات الفرح والمسرة. قال الطبيب: تلك سويعات ما كان أحلاها، أذكر منها ساعة كانت تضمنى والدتى إلى صدرها وتملأ جيوبى بالتمر، وساعة خلوتى تفرغا للعمل والأمل والمشاهدة، وساعة كنت أسرح الطرف فى أرجاء عالم غير عالم المادة والفناء، وهو عالم الشعر الخالد والخيال. تلك الساعات لم أنسها وياليت مداها قد طال وما زال. قال بنطاؤر: أنسيت الساعات المديدة العديدة التى قضيتها فى علاج المرضى وتخفيف الامهم؟ طوبى لك وسلاما عليك، فقد عشت ما عشت بيننا لم تمتد يدك بأذى لأحد من العباد، بل الكل يذكرون فضلك ويترنمون بذكرك من حاضر وباد. فهز نبسشت رأسه وقال بصوت خافت: ألم أكن سبب جنون المحنط بينم وموته؟!.

ثم لبث تائها فى بيداء الفكر والتأمل زمنا لمعت بعده عيناه وقال: ما قصدت هذا الشيخ بسوء قط وما كانت سريرتى بناقمة عليه، بل كنت أرمى إلى غاية محمودة وغرض شريف ولكن الضرر الذى أدركه أثمر من المزايا والفوائد ما لم يكن فى وسعى إدراكه لولا القيام بأعمالى فى بلدة ماجدو وبلاد الشام فقد توصلت بذلك الضرر إلى استكناه حقيقة العضو الذى يسدى الإنسان نعمة الحياة العقلية وهو القلب. إذن ما هو القلب؟ إن لقلب الإنسان وقلب الكبش وظائف متشابهة، فكما أن الأول يزيد منه الخفقان بمؤشرات الخوف والاطمئنان، كذلك الثانى يزداد منه الضربان متى أثر فيه هذان المؤشران. وسببه أن الحيوان كالإنسان فى الشعور بالمؤشرات الطارئة من خوف وغير خوف. وغاية ما هنالك من الفرق أن الإنسان خص بمزية العقل الذى يقدر بواسطته على مقارنة الأشياء بعضها ببعض، والحكم عليها واستنتاج النتائج موافقة لما ترمى إليه مقدماتها، والإعراب عن الضمير وإبداء عليها واستنتاج النطوقة إلى غير هذا، مما يدل على أن مركز العقل الذى هو الروح

والحياة الحقيقية هنا، بداخل الرأس خلف الجبهة.

ما كاد يصل إلى هذا من الكلام حتى استمكن منه الوهان فلزم الصمت وخيل للشاعر بنطاؤر أن هذيه في هذه الساعة الحرجة والموقف الخطير نتيجة حمى أصابته، فبادر بإعطائه شرابا ملطفا بينما كان الطبيبان اللذان يعالجانه يطوفان حوله داعيين له. وما استقر الشراب في جوفه حتى انتعش وحاول النهوض من مضجعه فاغتنم بنطاؤر هذه الفرصة وسأله: ألا ترى أن أحسن تذكار علق بذهنك في حياتك مرأى تلك الفتاة الفتانة التى أنقذتها من الموت وضحيت في سبيلها حياتك.. تلك الفتاة الجميلة التى ذكرت لى أن مراها الجميل أيقظ في نفسك الشعور بحب الجمال والميل إلى الكمال؟ تلك الغادة التى تستعبد القلوب والمهج قد اهتدت إلى أهلها وهي بلقائهم الآن مغتبطة ولكنها لا تفتأ تذكرك وتشكر لك صنيعك معها، وقد التي على نفسها أن لا تبرح هذه البلاد قبل أن تراك.

فتردد المريض هنيهة ثم قال ببطء: لم لا أراها؟ عجّل يا صديقى بإحضارها، ولكن لا تدعها تدنو منى فإنى أريد أن أراها من بعيد. فخرج بنطاؤر ثم عاد ثانيا ومعه وردة التى وقفت بباب الخيمة وخداها كجذوتى نار وعيناها مغرورقتان بالدموع. فأجال نبسشت فيها النظر ساكتا باهتا ثم قال: أشكر لك يا وردة تفضلك بزيارتى وأرجو من الله أن يسبغ عليك ثوب السعادة والهناءة.

لم تتمالك وردة عندئذ أن تقدمت قليلا نحوه ولكنه أشار إليها بالتراجع مظهرا لها يده الدامية وقد أحيطت بالأضمدة ثم قال: الزمى مكانك ولا تقربى منى. ماذا جرى لك؟ أتبكين؟ ولم هذه الدموع الغزيرة؟ أترفقين بحالى وتتوجعين لألامى؟ قالت وردة: إننى أرثى لحالك وأتوجع لمصابك أيها الرجل الطيب الكريم.. أبكى

لأننى أشعر بألامك أنت يا من أنقذت حياتى من الموت مرتين. وكان الطبيب قد أطبق جفنيه وهى تتكلم فلما أمسكت عن الكلام فتح عينيه وأمعن فيها النظر شبه المعجب بجمالها الباهر قال لها بصوت خافت: كفانى منك هذه النظرات قبل المات يا من تحلت نفسها بأطهر الصفات.

فانصرفت وردة وأخذ بنطاؤر يرقب حركات صدر صديقه ويقيس قوة تنفسه وإنه لكذلك إذا بالمريض هب من رقدته وقال لبنطاؤر: أستودعك الله يا صديقى، إنى لراحل وليس من يدرى أين أرحل. قال بنطاؤر: أنت لا ترحل أبدا إلى فضاء العدم. فهز نبسشت رأسه وقال: كنت في الدنيا شيئا فأصبحت ومصيرى حتما إلى شيء لأن مالاشيء لا يحدث عن شيء والعدم لا ينشأ عن الوجود. إن الطبيعة قائمة على التدبير والحكمة، فهي لا تدع شيئا يذهب عفاء وفناء، بل هي تنتفع بالفتيل والقطمير كما تنتفع بالشيء الكبير، وستنتفع من جثتي بقدر حاجتها منها وتسير على قواعد شابتة وأقيسة مبينة في إيصال كل شيء إلى الغرض المرسوم له دنيا أو أخرى، ينتهي شيء، ولا يضيع شيء، بل لايد لكل شيء أن يُنتج شيئا أو يستحيل إلى شيء مطابق لما قُدر له أن يصبح إليه، ولا دخل في ذلك كله لإرادة البشر. ولا القد ضاع رأسي وضل عقل منذ أصبت بتلك الجراح الموجعة ،لا أستطيع التفكير ولا الملاحظة ولا القياس، فياليت في قدرة على إثبات النظريات العلمية أو استنباط القواعد الفنية أو الغوص على الحقائق الخفية ولكن هيهات هيهات...

هنا تلجلج لسان المسكين وتعاجم عليه النطق وكان صوته بعد صلصلة حلقه به يترامى إلى الخفوت وأنفاسه بعد شدتها تشرف على الضعف والضيق وأعضاؤه تتشنج وحشرجة الصدر يعلو زفيرها ثم لم تكن إلا دقائق معدودة حتى فارق

الحياة. فأغمض بنطاؤر جفنيه وفيما هو خارج من الخيمة إذا بأمينى مقبلا عليها معتقدا أنه سيلتقى به فيها لما يعلمه من استحكام عرى المودة بينهما فعاد بنطاؤر معه إليها ولما شهد الكاهن الأعظم الطبيب مطروحا على الأرض جثة هامدة اشتد حزنه وأسف لفقده وبعد أن صلى أشار إلى بنطاؤر أن يتبعه وفي الطريق حادثه في أمور أراد أن يهيئه بها لاحتمال مباغتة لم تكن لتخطر بباله.

وكان قضاة مدينة طيبة حكموا بالنفى على ستخم أم بعاكر الخائن (١) ولكنهم أجازوا لها مقابلة رعمسيس بحراسة شرذمة من الجند لتلتمس منه العفو فتظاهرت ستخم بالصبر على ما أصابها بخيانة ولدها ثم أعدت معدات السفر لتلتمس العفو عن ابنها قبل ان تلتمسه لنفسها. وكان الحكم عليها صدر في غيبة الكاهن الأعظم فلم ير فائدة لكتمان السر الذي سارت نيخت به الوالى آنى وسمعه من وراء حجاب أما ستخم فكابدت في سفرها من المشاق والأهوال مالا يطيقه الاحتمال لجنوح سفينتها فلم تصل إلى بيلوز لهذا السبب إلا بعد حدوث الحريق المعلوم. وكانت شعبة النيل الموصلة إلى هذه المدينة غاصة بسفن الملك والأمراء والسفراء والتجار والاعيان وافدين من جميع الأنحاء فوقفت سفينة ستخم بعيدا عنها وبينما كان نبسشت يلفظ النفس الأخير تمكنت ستخم بعد العناء من لقاء الكاهن الأعظم ومكاشفته بسبب حضورها من طيبة.

وكانت سحنة ستخم قد تغيرت معالمها إلى حد أن أنكرها من كانوا يعرفونها لأن (١) في الجزء الثالث من تاريخ ديودورس الصقلي أن من العادات المتبعة في مصر سابقا الحكم على أهل الخائن وأعضاء أسرته بالأشغال في المناجم ولو لم يشتركوا معه في إثمه. وفي إحدى المعاهدات المبرمة بين رعمسيس والملك أرشيتا شرط مؤاده أن المتشرد الذي يؤتى به إلى مصر لا تطبق عليه عقوبة ولا يلحق ببيته ولا بوالدته ولا بأولاده أذى ولا يتُحكم بالموت على والدته.

نكبات الرزمان وتصاريف الحدثان أذوت غصن شبابها الأنضر وأيبست عودها الأخضر وجعلتها في نقيض ما اشتهرت به أيام عزها السابق ومجدها الرفيع السامق. فإنه بعد أن كان لسانها ينطلق بالمطايبة والملاحظة تارة وطورا بتمحيض النصح أو إعطاء الرأى، أصبح في سجن بابه شفتان متلاحمتان لا تنفتحان أبدا إلا إذا أزفت ساعة الصلاة فيتلعثم ببعض كلمات تطلب فيها المغفرة لولدها بعاكر. وكانت على يقين من أن ولدها هذا سلك مسلك اللئام وارتكب الآثام الغلاظ وأنه غير أهل للشفقة من الملك ولا من الأمة والوطن، ولكنها بما جُبلت عليه من الرحمة كانت تعمل جهدها لدفع معرة الخيانة عنه واستصدار العفو له فكانت تواصل الليل تعمل جهدها لدفع معرة الخيانة عنه واستصدار العفو له فكانت تواصل الليل بالنهار في الشخوص بعينيها في مقره ساكبة عليه عبراتها الغزيرة.

وقد رأت ستخم وهي على ظهر سفينتها ضوء النار المضطرمة في قصر الملك ووصل إلى اذنيها صياح الجماهير وجلبة الجند والحراس فأخبرها من كانوا على مقربة منها بأن قصر الوالى أنى التهمته النار واستحال إلى رماد، وأن الملك رعمسيس على وشك الهلاك، وأن بعض الخونة اللئام أضرموها نكاية فيه وذريعة لانتزاع صولجان الحكم من يده. فلما كان الفجر تواردت الأخبار ببيان الحوادث فطرق سمعها اسم ابنها بعاكر وأختها راتوتي، فلم تقه بكلمة واحدة ولم تسأل سوالا، بل صمّت أذنيها عن سماع بقية الحوادث اكتفاء بما وقفت عليه منها وتأكدت لها مطابقته لما كانت تنبأت به وأنذرت بوقوعه لما أعرض عنها وأبي العمل بنصائحها والاعتبار بمواعظها، مؤثرا الجموح في ميادين البغي والايغال في بيداء الوهم والمضي مع نرغات الشيطان على الوجه الذي أفضى به إلى ارتكاب جنايته، ورمى بها من بعده في مهاوى الحزن والخزى. وكانت إذا سمعت دعاء على الخائنين واستنزالا للعنات عليهم من الرائحين والغادين، دوت في أذنيها أصداء الدعوات

واللعنات واستشعرت بصداع في الرأس وقشعريرة في الجسم وتجمد في الدم وقد ظلت في الغداة طريحة الفراش لا تفوه بكلمة ولا تبدى حركة كالمنزول بها ولم تذق طعاما ولا شرابا. ويئس قيم بيتها مما آلت إليه حالها فجد في البحث عن أميني، وكان يومئذ في حضرة الملك رعمسيس فلم يستطع الوصول إليه إلا في اليوم التا في لمحادثته في أمرها. وما أن قابله فيه وأطلعه على الواقع حتى هداً روعه ونفس من كربته وصحبه في مركبته إلى المرفأ حيث كانت ترسو سفينة ستخم وقد بادر بذلك ليهيىء هذه المرأة المسكينة لما أراد أن يفاجئها به من سر صلة بنطاؤر بها ومته إليها بحبل البنوة الصحيحة وتعريفها بحقيقة أمره، لتكمل لها السعادة وتنجو من الهاوية التي أصبحت على وشك السقوط فيها من جراء ابنها خائن الملك والوطن. ولكن وصوله جاء بعد فوات الوقت المناسب فإن المرأة المسكينة أصابها خبل، فلما سمعته يتكلم أخذت تحدق فيه بعينيها دون إصغاء إلى ما يقول. وكل ما كان يبدر منها من حركة أو قول أنها كانت تقطع عليه الكلام بسؤالها: هل فعل ذلك حقيقة ؟ هل هو على قيد الحياة؟.. وظلت تكرر هاتين الجملتين من غير أن تفهم معنى لكلامه، حتى يئس من تفهيمها مراده. ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته إلى سرادقه حتى يئس من تفهيمها مراده. ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته إلى سرادقه الخاص الذي وعدها بأن يقدم إليها ابنها فيه.

كان بنطاؤر كما ذكرنا صورة طبق الأصل لأبيه الموهار. وكان كل اعتماد أميني العارف بأحوال النفس وما يؤثر فيها من العوامل على هذه المشابهة الصادقة بيت الموهار المتوف وابنه الحقيقي، لكي يردّها إلى حظيرة العقل والصواب. فاستهل حديثه بأن سرد تاريخ استبدال بنطاؤر ببعاكر وهما في الأيام الأولى من عمرهماء وما كان لنيخت الساحرة من الشأن في هذا العمل. ثم استرسل في تمجيده عبقرية الشاعر ووصف محاسنه جسما وعقلا ونفسا، وذكر ما يجمعه بالموهار من صادق

التشابه والمماثلة. وكانت ترمقه كما لو كان الكلام الذى يفوه به غير موجه إليها ولا هي مقصودة به، ولكنها قالت حين أتى على آخره: نعم نعم، أنت تريد بكلامك ذلك الشاعر الذى ألقى الخطبة البليغة يوم الاحتفال بعيد الوادى.. إننى أعرفه.. إننى أعرفه.. إننى أعرفه.. ولكن أين بعاكر؟ فتركها الكاهن الاعظم ليجىء اليها ببنطاؤر ويواجهها به، رجاء أن تهتدى إلى الصواب بتعرفها عليه. فلما عاد لم يجدها لأنها كانت طلبت الى جاجابو أن يطلعها على جثة بعاكر، فتميز الكاهن الأعظم غيظا ويئس من نجاحه ف سعيه. غير أنه دعا بنطاؤر إلى اقتفاء أثره عسى أن يدركاها قبل أن تبلغ إلى مكان الجثة.

وكانت جثة بعاكر ملقاة بخيمة أحد الجند ومغطاة الى مادون الوجه بقطعة قماش. فلما وصلت ستخم إليها جثت على ركبتيها وأخذت تحدق النظر فيها. وفاجأها أميني وهي في هذا الوضع فصوّت باسمها فلم ترد عليه فأمسك بكتفها ثم أشار الى الجثة وقال: هذا الرجل الذي تنظرين إليه بلهف وحنان لم يكن ابنك بل ابن بستاني وضيع، أما ابنك الحقيقي وأرث زوجك.. الابن الذي انطوت عليه جوانحك ثم هبط من بينها فهو بنطاؤر، هذا الذي جمعت الآلهة فيه صفات أبيه الجثمانية وشيمه الغراء، فواجب عليك أن تسدلى ستار العفو عن بعاكر وتمنحي بنطاؤر هذا الحنان الذي تولينه جسما لم يشتق من جسمك، لأن ابنك الحقيقي هو الشاعر البطل الذي أنقذ الملك من خطر الموت.

ما استقرت هذه العبارة ف أذن ستخم حتى انتصبت قائمة وأخدت بيدى بنطاؤر وابتسمت ف وجهه وقالت: هو.. هو.. فلتبارك فيه الآلهة. فلما هم بنطاؤر بعناقها دفعته عنها بعنف، ثم التفتت إلى الجثة صائحة: بعاكر!.. مسكين يا بعاكر!

فتأثر بنطاؤر من هذا المنظر وتولاه منه يأس فقال: والدتى! والدتى! والدتى! أما أن الله أن تعرف ابنك الباربك. فلما سمعت صوته أقبلت عليه ثانياً وأمعنت فيه النظر وقالت: هذا صوته.. هو هو بذاته.. ثم ارتمت على صدره وأصاطت بذراعيها عنقه ورضعت شفتيها على ثغره وقالت: لتبارك الآلهة فيك يا ولدى. ولكنها ما كادت تتم هذه الكلمات حتى انساقت بجذبات خفية نحو جثة بعاكر وأكثرت من البكاء والعويل، كما لو أنها جنت عليه. ثم ألقت بنفسها على هذه الجثة الخامدة الهامدة وقد خفت صوتها وسكن جسمها حتى لم تبد منه حركة وخُيل لناظرها أنها سلبت نعمة الحياة لولا أنفاسا ضعيفة يتحشرج بها صدرها بين حين وحين. عندئذ نقلها الحاضرون إلى السفينة وطرحوها على فراشها، ثم قدموا إليها شيئا من الطعام والشراب فألوت عنه وجهها وأمسكت عن الكلام إلا عن قولها بين وقت وآخر: ما أشقى حظك يا بعاكر..مسكين يا بعاكر..

وظل بنطاؤر ملازماً لها، وهي على هذه الحال، حتى فارقت الحياة وهي تبغى اللقاء بهذا الابن الكاذب الغادر والبعد عن ابنها الصادق البطل الشاعر.

الفصل الثانى والعشرون

«مسك الختام»

قوض العساكر الخيام وساروا في ظلال الأعلام يتقدمهم المليك الهمام، حتى بلغوا إلى طانيس المعروفة بمدينة رعمسيس. وكان سكانها اليهود الذين فك عنهم آنى جميع القيود، وأعفاهم من دفع الضرائب والرسوم ليستميلهم إليه ويتخذهم الة علوع في يديه، هم الذين سخّرهم رعمسيس في تشييد الحصون الصعبة المرام والقصور المتسقة النظام، وفي تلك البلدة أبرمت معاهدة الصلح والأمان بين (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس وقُدمت إلى أعتاب فرعون منقوشة في ألواح فضة (١).

أما بنطاؤر فقد اجتمع بالملك بعد أن أدى الفروض الواجبة عليه لوالدته ستخم، إذ سار بجثتها إلى عين شمس حيث عولجت بمواد التحنيط ثم قصد بها إلى طيبة وقام على دفنها في مدفن الأجداد، وأظهر في ذلك من فائق العناية وبالغ الاهتمام والرعاية ما لا مطمح بعده لطامح. لأن المصريين كانوا يرون أن من أقدس الواجبات عليهم أداء تلك الفرائض التي لا يجوز بدونها أن تسمو أمال الراغب في التزوج إلى الافتران بمن يهواها. فليو أن بنطاؤر قصير في العناية بجثة والدت لما استطاع أن ينال بغيته من الافتران ببنت أنات التي جمعت إلى محاسنها الفتانة جميل الخصال وحليل الصفات.

⁽١) مازالت معاهدة الصلح هذه منقوشة في الجدار القبلي لهيكل الكرنك. وقد جاء في السطر الرابع منها وصف اللرح الذي تُقلت منه صورة المعاهدة والذي قدمه (تارتيـزبو) سفير ملك الخيتاس ووزيره المفوض إلى الملك رعمسيس. ويؤخذ من هذا الوصف أن اللوح كان مستطيل الشكل وكان يعلق بحلقة مثبتة بأعلاه.

عاد الشاعر إلى طانيس ووافق يوم عودته الحادى والعشرين من شهر طيبى من السنة الحادية والعشرين من حكم رعمسيس. وهو اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة الصلح والأمان، إلا أنه كان واجماً كثير الهموم، لأنه لما وصل إلى طيبة وسأل عن البستانى - الوالد الحقيقى لبعاكر - علم أنه انتقل إلى الدار الآخرة فحزن عليه. لأن الرجل كان يحبه ويرى أنه ممن توافرت فيهم صفات الكمال، بل إنه ملك من ملائكة السماء هبط منها رسولا للخير ورائدا للسعادة والهناء.

وقد احتفل في طيبة -عقب عودة الملك رعمسيس إليها- برفاف بنت أنات إلى بنطاؤر احتفالاً باهراً زاهراً في قصر الفراعنة العظام، وطابق هذا الاحتفال ختام الشهر السابع من وقوع حادث الحريق ببيلوز. وكان ما لقيه العروسان من الصاعب الشديدة من البواعث على ارتباطهما بعروة الحب التي لا انفصام لها. وكانت بنت أنات - بالرغم من قوة بنطاؤر وعلو همته- تحس أنها أصبحت منبعثا لأشعة الأمل، وأن ابتسامة ثغرها تدعو إلى الاطمئنان، وأن كلمة واحدة منها تجبر القلوب الكسيرة وتسهل الأمور العسيرة. ولكنها مع هذا كانت موقنة أن وجودها مع بنطاؤر هو الذي محا من صحيفة صدره سورة الحزن وشجّعه على احتمال المصائب. وكان اغتباطها بذلك مقترنا بعزة الفخر بأنها هي التي دخلت به في طور حياة جديدة، فكانت له كالشمس إذا أشرقت انبعثت أشعتها على الوف الأزهار فتتفتح أكمامها وتبتهج بازدهارها الأنظار.

وكان الاثنان أيام اشتغالهما بمكافحة الصعوبات وتذليل العقبات، وشعورهما بالآلام الشديدة التي أعقبت خيبة الآمال يظنان كل الظن أن لا تلاقيا. فلما اجتمعا وجاءت الأمور بما يتجاوز المأمول أدركا قيمة ما بينهما من الحب المتبادل، وأن

مايرميان إليه من المثل العليا ينحصر ف الشرف والخير، وأن لا سعادة لهما ف الحياة بإدراكه والتحل بحليته.

وكان بنطاؤر يطلع بنت أنات على أسراره ويشركها في الصعب من أعماله، فتزداد روابط الحب بينهما وثوقا. وقد أسبغ رعمسيس عليه من النعم والهبات ما رفعه إلى أسمى الدرجات فتنازل عن نصيبه في الإرث لأخيه حورس واتخذ الملك هذا الشاب المقدام موهاراً لجيشه جزاء ما أبداه من الإخلاص والبسالة يوم قادش. وكان مع عرة نفسه وكرم محتده عيوفا متواضعا، ولهذا استعاض عن جذوع الارز العالية التي كان بعاكر غرسها في باحة القصر لرفع الاعلام اعجابا وكبرا بادقال قصيره ناط باطرافها هذه الأعلام.

أما هونى المسكين الذى كان بنطاؤر انتحل اسمه للتمكن من الوصول إلى سيناء، فقد أعيد من المناجم بمساعيه المشكورة وعرفانه الجميل فانقلب إلى أهله فرحا مسرورا بالتعاطفات الملكية وفيوض المكارم العلية. ولم يلبث الملك أن تأكدت له فضائل بنطاؤر فاولاه من العطف ما لم يوله أحدا إلا كريمته بنت أنات التى ظلت مقربة من والدها، حتى بعد أن اضطرته السياسة إلى الاقتران بابنة الملك (شيتا). ولكى يقيم له الدليل على ذلك الميل اتخذه مشيرا خاصا يستضىء بمشكاة آرائه فى عويصات المسائل ومعضلات المشاكل.

وقد عثروا في صيوان أنى على وثائق ظهر منها بالدليل القاطع تواطؤه مع أمينى وأغلب الكهان، فانتوى رعمسيس معاقبة هولاء الخونة عقابا يكون عبرة زاجرة وعظة خالدة في الاعقاب. إلا أن بنطاؤر وشاموس ألحا عليه أن يعدل عن الانتقام قائلين إنه لا يليق بمقام الكرام، وأن بالعفو والإحسان يستقيم الملك وتتوطد منه

الأركان. وكان رعمسيس أشد الناس تعلقا بالدين وتمسكا بسببه المتين، لاعتقاده أن الإيمان تعزية الفقراء والمساكين وسلوان المظلومين والمنكوبين وركن البائسين، بل إنه الحافظ الأمين للحياة البشرية والحامى لسعادة الشعوب والباعث في الوجود البشرى ذلك الوجدان الذي يسيل الخير منه على جوانب الحياة فيخفف أعباءها ويصرف ضراءها، وأنه من هذه الوجهة أشبه ما يكون بالمدرسة التي يتعلم فيها الاطفال فروض الامتثال. ولكنه اجتنب مع الكهان مايفضى بهم إلى احتقار القوانين المسنونة لتدبير شؤون الامة، لأنهم وإن يكونوا الامناء على أرواح العباد فليس في وسعهم على جلال قدرهم وارتفاع منزلتهم وخطورة مهمتهم أن يعارضوا الإرادة اللكية بالانحراف عن جادة القواعد الموضوعة لتصريف أمور الجمهور.

ولقد قال لأميني والكهان الذين التقوا به في طانيس إنه لا يتنازل عن شيء من حقوقه، وأن له وحده حق التصرف في شؤون مصر بلا منازع ولا شريك.

ولم يكن للإله سيتى صاحب المكانة العليا عند الساميين منذ عهد الهكسوس— اذ كانوا يعبدونه باسم الإله (بعل)— هيكل مشيد على ضفاف النيل. فقد كان المصريون يعتبرونه من المعبودات الأجنبية التى لا يُقام لها عندهم وزن، فأمر رعمسيس بإنشاء هيكل فخم له في طانيس ليتعبده فيها المهاجرون الأجانب، وكان إنشاؤه بالرغم من احتجاج الكهان على الملك باسم الدفاع عن التقاليد القديمة. وكان الحزب الذي تألف من هولاء المعارضين يسمى بحزب (المؤمنين الصادقين). وكان رعمسيس حريصاً على شرف الهة الوطن بدليل ما بذله من المال في رفع بيوت العبادة، إلا أنه كان مفطورا على التسامح والتساهل في أمور الدين، وهو شأن كل مليك عاقبل يريد أن يولف حوله القلوب. ولم يشأ أن يعارض المذاهب والأديان الأخرى فلم يدع مدينة كبيرة في أنحاء الملكة إلا وأقام فيها المهياكل الجديدة، ثم

وسع هيكل فتاح في منفيس وشاد تمثالين جسيمين أمام مدخله تخليداً لذكرى نجاته من المكيدة التي دُبرت له ليلة الحريق، وأنشأ في مقبرة طيبة بناية وطيدة الاركان تخليدا لذكرى الساعة التي نجا فيها. ولا يـزال السياح يعجبون بها ويبهتهم ما يرونه من حسن نظامها وجمال تنسيقها. وقد نقش في أعمدتها بالكلمات البارزة ما يتضمن شرح واقعة قادش كما نقش في جدران قاعة الطعام بها تاريخ الخطر الذي أنقذته منه أيدى الآلهة.

وكان بنطاؤر قد نقّع القصيدة التي نظمها والقاها ارتجالا على مسامع رعمسيس في ليلة الوليمة ببيلوز، فأمر بنقشها في جدران ثلاثة هياكل وتدوينها في كثير من أو راق البردى، وبذا تمكن علماء الأشار من استكمال أبياتها. ولم يبق كبير ولا صغير من الاهالي إلا وحفظها عن ظهر قلب للتغنى بها كنشيد وطنى في المناسبات الحماسية.

وعهد الملك إلى بنطاؤر بعد ذلك إنشاء مدرسة جديدة للكهان من طراز مدرسة بيت سيتى وهيكل أخر سمى بيت رعمسيس، وهو الذى نذر بناءه من قبل فوف بالنذر. ثم قرر إصلاح الهيئة الكهنوتية على وجه يصد به الكهان عما اعتادوه من الاستئثار بالسلطة والتحكم في العقائد فذهبت بهم إلى الاعتقاد بأن لا سيطرة إلا لهم، ويعلمهم الخضوع للملك وأن هذا الخضوع لا يحط من هيبتهم ووقارهم. وعين بنطاؤر رئيساً للمدرسة الجديدة فأنشأ بها دارا للكتب لم تُنشأ بمصر دار مئلها وسماها (دار صحة النفس)، وسارت المدرسة في طريق التقدم والنجاح حتى أصبحت مجمعاً للعلماء ومحطا لرحال الطلاب والفضلاء الوافدين عليها من جميع الانحاء والارجاء.

وقد أنشئت على مثالها مدرسة الاسكندرية ونبغ منها مشاهير الفلاسفة

والحكماء والأدباء والشعراء وغيرهم ممن أحيوا ذكرها ووصلت كتاباتهم ومنشأتهم إلينا، ومن أهمها الأناشيد التي نظمها (أنانا) رفيق بنطاؤر في عهد الكلمذة ورواية الأخوين التي دبجها قلم (جاجابو). هذا ولم يستطع الكاهن الأعظم الإقامة في طيبة، لأن رعمسيس وقف على سر مسألة قلب الحمل وعلم كيف استغلها أميني لدس الدسائس ضده اعتمادا على ما له من النفوذ ولاستمالة قلوب العامة من الجهلاء إليه بأمثال تلك الخرافات الباطلة، فأجابه إلى طلبه بأن يقيم في بلدة منديس من بلدان الوجه البحرى المعروفة ببلدة الحملان المقدسة. ولم يصادره في ألقابه ووظائفه السامية وايراداته الواسعة، بل اقتصر في نكايته على كلمة قالها فيه ليتناقلها الخلف عن السلف ولتبقى وصمة في تاريخ حياته إلى الأعقاب وهي: «إن أميني كان في حاجة إلى قضاء حياته مع الحيوانات المقدسة». على أن هذا التلويح لم يمنع الكاهن الأعظم من السير بين مرؤوسيه بالشدة والهمة اللتين عُرف بهما في طيبة، فأصبحت منزلته هناك كما كانت هنا من الاحترام، ولبث بنطاؤر يـواصله برسائل المودة إلى أن جاءهما اليقين.

وكان أكبر تمثال من تماثيل القطر المصرى قائما بشكله المهيب في وسط الفناء الأول من بيت رعمسيس الذى سبقت الإشارة إليه. وقد كُسر من وسطه بتوالى الدهور عليه، ولكنه ما برح موضع إعجاب السياح الذين يقصدون إليه لمشاهدته. وقد صنع من الحجر الصلد ممثلا صورة رعمسيس الأكبر، صنعه في رعاية الشاعر بنطاؤر (شيراعو) الذي رأيناه في مغارة العجوز نيخت يصنع تمثالا من الطين للوالى آنى، ثم حذق صناعته ومهر فيها مع الزمن فنحت ذلك التمثال الذي كان يفتخر به ويعتبره أحسن وأتقن ما قام بعمله من التماثيل الكثيرة التي نُحتت للك التخليد ذلك المالك الجليل.

وبعد حريق القصر بعام أبحر الأمير راميرى قاصدا إلى بلاد (الدنائم) حيث أقيمت الأفراح احتفاء بمقدمه وسروراً باقترانه بوردة حفيدة ملك هذه البلاد. وقد أقام بها حتى توف هذا الملك فآل الملك إليه وصار بذلك رأس أسرة ملكية جديدة فيها، ولبث اسم وردة معطرا في أفواه شعبها الذي أخلص لها ولقرينها الولاء. وهي جديرة بهذا الإخلاص لأنها ذاقت مرارة الفقر وصاب الذل والفاقة فكانت أدرى من غيرها بتخفيف الآلام عن المنكوبين وإغداق الإحسان على المحتاجين. وكانت في إيتاء المعروف بين الناس كالورد إذا تضوع ريحه ترادف على الألسنة مديحه.

تضرع مسكا بطن نعمان إذ بدت

به (وردة) في سوسن وقطاف

فهرست

«الجزء الثاني من رواية وردة مصر»

رقم الصفحة	الموضـــوع				
	الفصل الأول: مكايد ومصائد				
	الفصل الثانى: كيف كان الإله يعسبر النسيل ف عهد				
	رعمسيس الجليلالجليل				
	الفصل الثالث: وقائع أميرتين وشاب اقتصم الاهسوال فصار				
	من الأبطال				
	الفصل الرابع: وليمة في هيكل والكهان بين المشرب والمأكل				
	الفصل الخامس: يبكى إحدى حسان طيبة الفاتنات وليلة				
	التجليات				
	الفصل السادس: تدريب الأمراء على الأعمال ليكونسوا للغير				
	خير مثال				
	الفصل السابع: تآمر العواطف على الحب وتأثيرها في القلب				
	الفصل الثامن: ما حدث أثناء الوداع من مظاهر الوجد والالتياع				
	الفصل التاسع: قفار موحشة خطيرة وقلوب حزينة كسيرة				
	الفصل العاشر: أبن بلتقي المرء بريه ويتوجه إليه بكل قليه				

الفصل الحادي عشر: الرحلة من سيناء إلى لبنان وما وقع فيها
من غرائب الحدثان
الفصل الثاني عشر: بداية الحوادث وفاتحة الكوارث
الفصل الثالث عشر: ليلة تقلد السلاح والاستعداد للكفاح
الفصل الرابع عشر: ذل الانكسار وعز الانتصار
الفصل الخامس عشر: ملتقى الأبطال والخونة الأنذال
الفصل السادس عشر: المأدبة الملكية لتنفيذ المؤامرة السياسية
الفصل السابع عشر: ما يُدبَر ف الظلام من الجرائم والآثام
الفصل الثامن عشر: النار! النار! وما وقع بالقصر من الدمار
الفصل التاسع عشر: حيث تسهل الأمور ويباح المحظور
الفصل العشرون: حيث تتفتح أكمام الــورد فيشم أريجه من
واقاه السعد
الفصل الحادى والعشرون: موت رجل من أهل الشكوك وموت
والدة حميدة السلوك
الفصل الثاني والعشرون: مسك الختام



وردة . . .

رواية مصر الخالدة . .

ترجع بالقارىء في ماضى الحقب

إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة

فيحس إذ يتلوها كأنه بحياة المصريين

في عصر رعمسيس الثاني

ونصورها له تصويراً محسوساً . .

فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية

في العلوم والفنون والأداب .

ويعجب بعظمتهم الحربية وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية والإدارية . . ويستطلع مكنون أسرارهم الكهنوتية ، ويلم بالأسباب التي علت بهم

فوق شعوب الأرض طراً في زمنهم .

MADBOULI BOOKSHOP

مكنبه مدبولي

آميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: Talat Harb SQ . Tel 5 756421 ٥٧٥ ٦٤٢١ :